

2273
-944

V.8

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

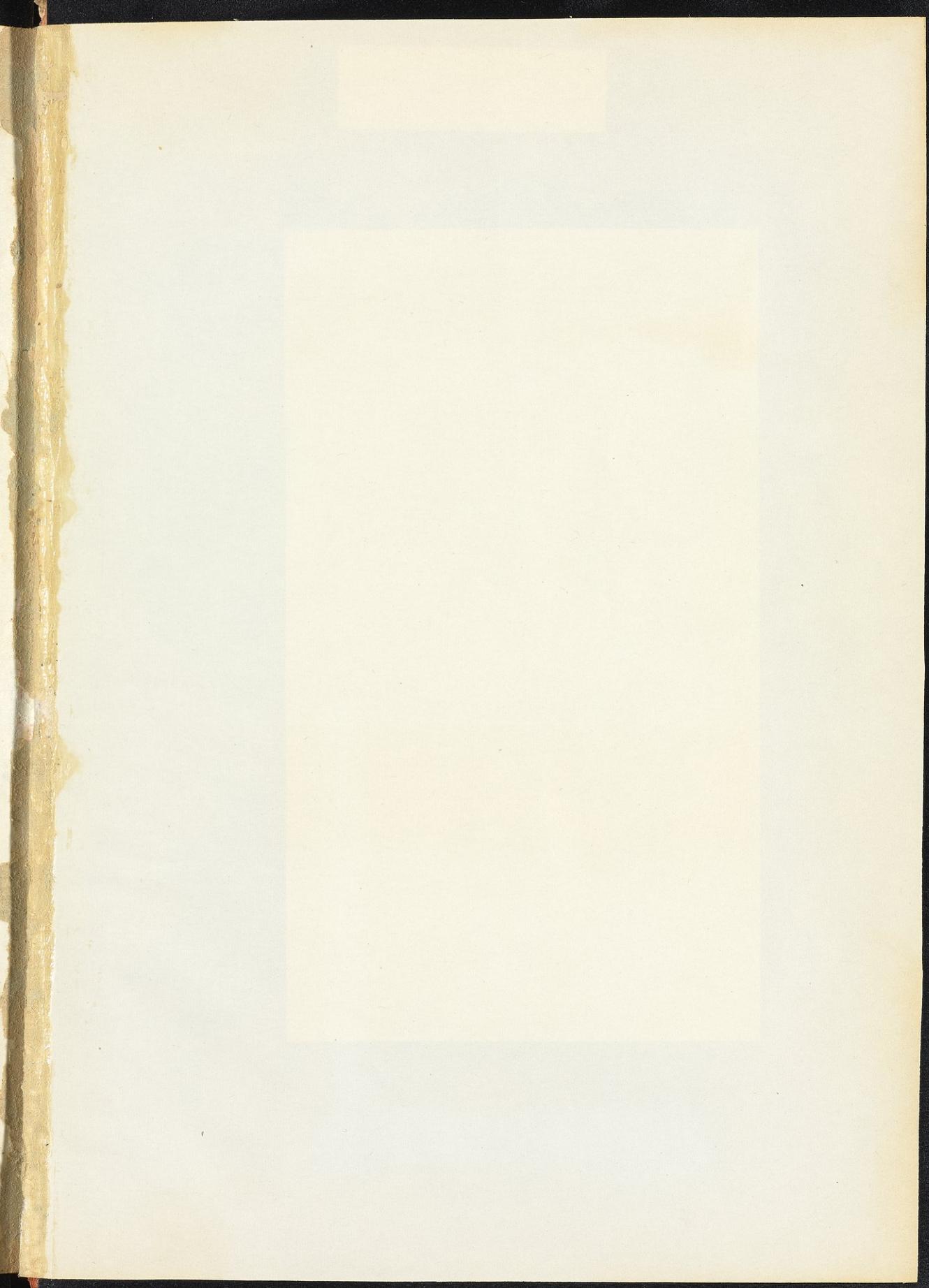
PAIR>



32101 019483179

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*



الجزء الثامن

من كتاب

الميزان

في تفسير القرآن

مؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائى

طبعه ونشر

الشيخ محمد الأجوندى

حسين

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

فى سنة ١٣٧٩

مطبعة العيدرى بظهران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمَصَ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ
حَرْجٌ مِنْهُ لِتَقْدِرَ بِهِ وَذِكْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا
تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْ لِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكُمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلُكُنَا هَا فَجَاهُهَا بَاسْتَأْ
بِيَا تَا أَوْهُمْ قَاتِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَيْهِمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَاسْتَأْ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ (٥) فَلَمْ نَشْرَكْنَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نَشْرَكْنَا الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَمْ نَقْحُضْنَا عَلَيْهِمْ
بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَايْبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأَوْلَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأَوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا
بِأَيْمَانِهِ يَظْلِمُونَ (٩) .

﴿بِيَان﴾

السورة تشتمل من الغرض على مجموع ما تشتمل عليه السور المصدّرة بالحرروف
المقطّعة «الم» والسورة المصدّرة بحرف «ص» فليكن على ذكر منك حتى تستوفي ما يمكن
استيفاؤه من البحث في أول سورة حم عسى إن شاء الله تعالى عن الحروف المقطّعة
القرآنية .



32101 019483179

(الجزء الثامن - سورة الأعراف : ٧ آية : ١ - ٩)

- ٣ -

٨٧

والسورة كأنّها تجعل العهد الإلهي المأْخوذ من الإنسان على أن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً أصلاً يبحث فيها عمّا آل إليه أمره بحسب مسيرة الإنسانية في الأمم والأجيال فأكثرهم نقضوه ونسووه ثم إذا جاءتهم آيات مذكرة لهم أو أنباء يدعونهم إليه كذلك بوا وظلموا بها ولم يتذكّر بها إلّا الأقلّون .

وذلك أنّ "العهد الإلهي" الذي هو إيجار ما تتضمنه الدعوة الدينية الإلهية إذا نزل بالإنسان - وطبائع الناس مختلفة في استعداد القبول والردّ - تحول لا محالة بحسب أماكن نزوله والأوضاع والأحوال والشرائط الماحفة بنفوس الناس فانتج في بعض النفوس - وهي النفوس الطاهرة الباقية على أصل الفطرة - الاهتداء إلى الإيمان بالله وآياته ، وفي آخرين وهم الأكثرون ذروا النفوس المخلدة إلى الأرض المستغرقة في شهوات الدنيا خلاف ذلك من الكفر والعتو .

وастتبع ذلك الطافاً الإلهية خاصةً بمؤمنين من توفيق ونصر وفتح في الدنيا ، ونجاة من النار وفوز بالجنة وأنواع نعمتها الخالد في الآخرة ، وغضباً ولعناً نازلاً على الكافرين وعداً وأقعاً يهلك بجمعهم ، ويقطع نسلهم ، ويحمد نارهم ، و يجعلهم أحاديث و يمزقهم كلّ ممزق ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

فهذه هي سنة الله التي قدخلت في عباده وعلى ذلك ستجري ، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو على صراط مستقيم .

فتقاصيل هذه السنة إذا وصفت لقوم ليدعوهم ذلك إلى الإيمان بالله وآياته كان ذلك إنذاراً لهم ، وإذا وصفت لقوم مؤمنين ولهم علم ربّهم في الجملة و معرفة بمقامه الربوي كان ذلك تذكيراً لهم بآيات الله وتعليمها بما يلزمها من المعارف وهي معرفة الله و معرفة أسمائه الحسنى وصفاته العليا و سنته الجارية في الآخرة والأولى وهذا هو الذي يلوح من قوله تعالى في الآية الثانية من السورة : « لتنذربه وذكري للمؤمنين » أنّ غرضها هو الإنذار والذكرى .

والسورة على أنها مكثّة - إلا آيات اختلف فيها - وجه الكلام فيها بحسب الطبع إلى امشركين وطائفتين قليلة آمنوا بالنبي عليه السلام على ما يظهر من آيات أولها وآخرها إنذار

2273

9444

v. 8

لعامّة الناس بما فيها من الحجّة والموعظة والعبرة، وقصة آدم عليهما السلام وإبليس وقصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهما السلام، وهي ذكرى للمؤمنين تذكّرهم ما يشتمل عليه إيجال إيمانهم من المعارف المتعلقة بالمبده والمعد والحقائق التي هي آيات إلهيّة.

والسورة تتضمّن طرفاً عالياً من المعارف الإلهيّة منها وصف إبليس وقبيله، ووصف الساعة والميزان والأعراف وعالم الذرّ والمشاق ووصف الدا كر بن الله، وذكر العرش، وذكر التجليّ، وذكر الأسماء الحسنيّ، وذكر أنّ للقرآن تأويلاً إلى غير ذلك.

وهي تشتمل على ذكر إيجاليّ من الواجبات والمحرّمات قوله : « قل أَمْرَ رَبِّي بِالْقُسْطِ » الآية ٢٨ ، و قوله : « قل إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّي الْفَوَاحِشُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » الآية ٣٢ ، و قوله : « قل مِنْ حَرَمٍ زِينَةُ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالظَّيَّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ » الآية ٣١ فنزو لها قبل نزول سورة الأنعام التي فيها قوله : « قل لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ حَرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ » الآية ، الأنعام : ١٤٥ فإنّ ظاهر الآية أنّ الحكم باباحة غير ما استثنى من المحرّمات كان نازلاً قبل السورة فالإشارة بها إلى ما في هذه السورة .

على أنّ الأحكام والشرائع المذكورة في هذه السورة أوجز وأكثر إيجالاً مما ذكر في سورة الأنعام في قوله : « قل تعالوا أتُل ماحرم ربكم عليكم » الآيات ، وذلك يؤيد كون هذه السورة قبل الأنعام نزولاً على ما هو المعهود من طريقة تشريع الأحكام في الإسلام تدريجاً آخذًا من الإيجال إلى التفصيل .

قوله تعالى : « إِنَّمَا كَتَبَ أَنْزَلْ إِلَيْكُمْ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكُ حَرْجٌ مِّنْهُ لَتَنْذِرَ بِهِ وَذَكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » تنكير الكتاب وتوصيفه بالإنزال إليه من غير ذكر فاعل الإنزال كلّ ذلك للدلالة على التعظيم، ويتخصّص وصف الكتاب ووصف فاعله بعض التخصّص بما يشتمل عليه قوله : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكُ حَرْجٌ مِّنْهُ » من التفريع كأنّه قيل : هذا كتاب مبارك يقص آيات الله أنزله إليك ربّك فلا يكفي في صدرك حرج منه كما أنه لو كان كتاباً غير الكتاب وألقاه إليك غير ربّك لكان من حقّه أن يتخرّج ويضيق منه صدرك لما في تبليغه ودعوة الناس إلى ما يشتمل عليه من الهدى من المشاق والمحن .

وقوله : « لَتَنْذِرَ بِهِ » غاية لا إنزال متعلقة به كقوله : « وَذَكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ » و

تحصيص الذكرى بالمؤمنين دليل على أنَّ إِنذار يعمُّهم وغيرهم ، فالمعنى : أُنْزل إِلَيْكُمْ الكتاب لتتندر به الناس وهو ذكرى للمؤمنين خاصة لأنَّهم يتذَكَّرون بالآيات والمعارف الإلهية المذكورة فيها مقام ربِّهم فيزيده بذلك إيمانهم وتقرَّ بها أعينهم ، وأمَّا عامة الناس فإنَّ هذا الكتاب يُؤثِّر فيهم أثر إِنذار بما يشتمل عليه من ذكر سخط الله وعقابه للظالمين في الدار الآخرة ، وفي الدنيا بعذاب الاستئصال كما تشرحه قصص الـ أم السالفة .

ومن هنا يظهر : أنَّ قول بعضهم : إنَّ قوله : « لتندر به » متعلق بالحرج والمعنى : لا يكفي صدرك حرج لِإِنذار به ، ليس بمستقيم فإنَّ تعقبه بقوله : « وذكرى للمؤمنين » بما عرفت من معناه يدفع ذلك .

ويظهر أيضاً ما في ظاهر قول بعضهم : إنَّ امراد بالمؤمنين كلَّ من كان مؤمناً بالفعل عند النزول ومن كان في علم الله أنه سيؤمن منهم ! فإنَّ الذكرى المذكورة في الآية لا يتحقق إلا فيمن كان مؤمناً بالفعل .

قوله تعالى : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أُولِيَ الْقَلِيلِ » ما تذَكَّرون « مَمَّا ذَكَرَ لَنْبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَتَبَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ لغرض إِنذار شرع في إِنذار ورجع من خطابه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خطابهم فإنَّ إِنذار من شأنه أن يكون بمخاطبة المندرين - اسم مفعول - وقد حصل الغرض من خطاب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وخطابهم بالأُمر باتِّباع ما أُنْزِلَ إِلَيْهم من ربِّهم ، وهو القرآن الْأَمْرُ لَهُم بِحَقِّ الاعتقاد وحقِّ العمل أعني الإيمان بالله وآياته و العمل الصالح الـ الذين يأمر بهما الله سبحانه في كتابه وينهى عن خلافهما ، والجملة أعني قوله : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ » موضعة وضع الكناية كني بـها عن الدخول تحت ولاية الله سبحانه والدليل عليه قوله : « وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أُولِيَ الْقَلِيلِ » حيث لم يقل في مقام المقابلة : وَلَا تَتَّبِعُوا غَيْرَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ .

والمعنى : وَلَا تَتَّبِعُوا غَيْرَهِ تعالى - وَهُمْ كَثِيرُون - فِي كُونُوا لَكُمْ أُولِيَ الْقَلِيلِ من دون الله قليلاً ما تذَكَّرون ، ولو تذَكَّرْتُمْ لدريتم أنَّ الله تعالى هو ربِّكم لارب لـ لكم سواه فليس لكم من دونه أُولياء .

قوله تعالى : «وَكُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكَنَا هَا فِجَاهَهَا بِأَسْنَا بِيَاتٍ أَوْهُمْ قَائِلُونَ» تذكير لهم بسنة الله الجارية في المشركين من الأمم الماضية إذ اتخذوا من دون الله أولياء فأهلكهم الله بعذاب أنزله إليهم ليلاً أو نهاراً فاعترفوا بظلمهم .

و «البيات» التبييت وهو قصد العد وليلاً، و «القائلون» من القليلة وهو النوم نصف النهار ، و قوله : «بِيَاتٍ أَوْهُمْ قَائِلُونَ» ولم يقل : ليلاً أو نهاراً كأنه للإشارة إلىأخذ العذاب إياهم وهم آخذون في النوم آمنون مما كمن لهم من البأس الإلهي الشديد غافلون مغفلون .

قوله تعالى : «فَمَا كَانَ دُعَوَاهُمْ إِذْجَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» تتميم للتذكير يبيّن أنّ الإنسان بوجданه وسره يشاهد الظلم من نفسه إن اتّخذ من دون الله أولياء بالشرك ، وأنّ السنة الإلهية أن يأخذ منه الاعتراف بذلك يمّس العذاب إن لم يعترف به طوعاً ولم يخضع مقام الروبيضة فليعترف اختياراً وإلا فسيعرف اضطراراً .

قوله تعالى : «فَلِنَسَانٍ الَّذِينَ أُرْسَلُ إِلَيْهِمْ وَلِنَسَانٍ امْرُسَلِينَ» دلّ البيان السابق على أنّهم مكّلّفون بتوحيد الله سبحانه وموظّفون برفض الأولياء من دونه غير محليّين وما فعلوا ، ولا متّروكين وما شاؤوا ، فإذا كان كذلك فهم مسؤولون عمّا أمرروا به من الإيمان والعمل الصالح ، وما كلفوا به من القول الحقّ والفعل الحقّ ، وهذا الأمر والتکلیف قائم بطرفين : الرسول الذي جاءهم به والقوم الذين جاءهم ، ولهذا فرع على ما تقدّم من حديث إهلاك القرى وأخذ الاعتراف منهم بالظلم قوله : «فَلِنَسَانٍ الَّذِينَ أُرْسَلُ إِلَيْهِمْ وَلِنَسَانٍ امْرُسَلِينَ» .

وقد ظهر بذلك أنّ المراد بالذين أرسل إليهم الناس و بالمرسلين الأنبياء والرسل على التفصي ، وما قبل : إنّ المراد بالذين أرسل إليهم الأنبياء ، و بالمرسلين الملائكة لا يلائم السياق إذ لا وجہ لخروج المشركين عن شمول السؤال والكلام فيهم . على أنّ الآية التالية لاتلائم ذلك أيضاً . على أنّ الملائكة لم يدخلوا في البيان السابق بوجه لا بالذات ولا بالتبع .

قوله تعالى : «فَلَنْقَصُنْ عَلَيْهِمْ بَعْلَمٌ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ» دلـ الـبيـان السـابـق عـلـى أـنـهـمـ مـرـبـوـنـ مدـبـرـوـنـ فـسـيـسـأـلـوـنـ عـنـ أـعـمـالـهـمـ لـيـجـزـوـاـ بـماـ عـمـلـواـ،ـ وـهـذـاـ إـنـمـاـ يـتـمـ فـيـمـاـ إـذـاـ كـانـ السـائلـ عـلـىـ عـلـمـ مـنـ أـمـرـ أـعـمـالـهـمـ فـإـنـ» الـمـسـؤـولـ لـاـ يـؤـمـنـ أـنـ يـكـذـبـ لـجـلـبـ النـفـعـ إـلـىـ نـفـسـهـ وـ دـفـعـ الـضـرـرـ عـنـ نـفـسـهـ فـيـ مـشـلـ هـذـاـ الـمـوـقـعـ الصـعـبـ الـهـائـلـ الـذـيـ يـهـدـ دـهـ بـالـهـلاـكـ الـخـالـدـ وـ الـخـسـرـانـ الـمـؤـبـدـ.

ولذلك فـرـعـ عـلـيـهـ قـوـلـهـ : «فـلـنـقـصـنـ عـلـيـهـمـ بـعـلـمـ» النـحـ ،ـ وـقـدـ نـكـرـ الـعـلـمـ لـلـاعـتـنـاءـ بـشـأـنـهـ وـ أـنـهـ عـلـمـ لـاـ يـخـطـيـءـ وـ لـاـ يـغـلـطـ ،ـ وـ لـذـلـكـ أـكـدـهـ بـعـطـفـ قـوـلـهـ : «وـمـاـ كـنـنـاـ غـائـبـينـ» عـلـيـهـ لـلـدـلـالـةـ عـلـىـ أـنـهـ كـانـ شـاهـدـاـ غـيـرـ غـائـبـ ،ـ وـإـنـ وـكـلـ عـلـيـهـمـ مـنـ اـمـلـأـكـةـ مـنـ يـحـفـظـ عـلـيـهـمـ أـعـمـالـهـمـ بـالـكـتـابـةـ فـإـنـهـ بـكـلـ شـيـءـ محـيـطـ .

قوله تعالى : «وـالـوـزـنـ يـوـمـئـدـ الـحـقـ» فـمـنـ ثـقـلـتـ مـوـازـيـنـهـ فـأـوـلـيـكـ هـمـ الـمـفـلـحـونـ إـلـىـ آـخـرـ الـآـيـتـيـنـ» الـآـيـتـانـ تـخـبـرـانـ عـنـ الـوـزـنـ وـهـوـ تـوـزـيـنـ الـأـعـمـالـ أـوـ النـاسـ الـعـامـلـيـنـ مـنـ حـيـثـ عـلـمـهـ ،ـ وـ الدـلـيلـ عـلـيـهـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ :ـ «وـنـصـعـ الـمـوـازـيـنـ الـقـسـطـ لـيـومـ الـقـيـامـةـ»ـ إـلـىـ أـنـ قـالــ وـ كـفـىـ بـنـاحـاسـيـنـ» الـآـنـيـاءـ :ـ ٤٧ـ حـيـثـ دـلـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ الـوـزـنـ مـنـ شـعـبـ حـسـابـ الـأـعـمـالـ ،ـ وـأـوـضـحـ مـنـهـ قـوـلـهـ :ـ «يـوـمـئـدـ يـصـدـرـ النـاسـ أـشـتـاتـاـ لـيـرـواـ أـعـمـالـهـمـ فـمـنـ يـعـمـلـ مـثـقـالـ ذـرـةـ خـيـراـ يـرـهـ وـمـنـ يـعـمـلـ مـثـقـالـ ذـرـةـ شـرـاـ يـرـهـ» الـزـلـزالـ :ـ ٨ـ حـيـثـ ذـكـرـ الـعـمـلـ وـ أـضـافـ التـقـلـ إـلـيـهـ خـيـراـ وـشـرـاـ .

وـبـالـجـملـةـ الـوـزـنـ إـنـمـاـ هوـ الـعـمـلـ دـوـنـ عـاـمـلـهـ فـالـآـيـةـ تـثـبـتـ لـاـعـمـلـ وـ زـنـاـ سـوـاءـ كـانـ خـيـراـ أـوـ شـرـاـ غـيـرـاـنـ» قـوـلـهـ تـعـالـيـ :ـ «أـوـلـيـكـ الـذـينـ كـفـرـواـ بـآـيـاتـ رـبـهـمـ وـ لـقـائـهـ فـيـجـبـتـ أـعـمـالـهـمـ فـلـانـقـيمـ لـهـمـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ وـزـنـاـ» الـكـهـفـ :ـ ١٠٥ـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـأـعـمـالـ فـيـ صـورـ الـجـبـطــ وـقـدـ تـقـدـمـ الـكـلامـ فـيـ الـجـزـءـ الثـانـيـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابــ لـاـوـزـنـ لـهـاـ أـصـلـاـ ،ـ وـبـقـىـ لـلـوـزـنـ أـعـمـالـ مـنـ لـمـ تـجـبـتـ أـعـمـالـهـ .

فـمـاـ لـمـ يـجـبـتـ مـنـ الـأـعـمـالـ الـحـسـنـةـ وـ الـسـيـسـتـةـ ،ـ لـهـ وـزـنـ يـوـزـنـ بـهـ لـكـنـ» الـآـيـاتـ فـيـ عـيـنـ أـنـهـاـ تـعـتـبـرـ لـلـحـسـنـاتـ وـالـسـيـسـتـاتـ ثـقـلاـ إـنـمـاـ تـعـتـبـرـ فـيـهـاـ الـتـقـلـ الـإـضـافـيـ وـ قـرـتـبـ الـقـضـاءـ الـفـصـلـ عـلـيـهـ بـمـعـنـيـ أـنـ ظـاهـرـهـاـ أـنـ الـحـسـنـاتـ تـوـجـبـ ثـقـلـ الـمـيزـانـ وـالـسـيـسـتـاتـ خـفـةـ الـمـيزـانـ لـاـنـ

توزن الحسنات فيؤخذ منها من التقل ثم السيّات و يؤخذ ما لها من التقل ثم يقابس التقلان فأيهما كان أكثر كان القضاء له فإن كان التقل للحسنة كان القضاء بالجنّة وإن كان للسيّة كان القضاء بالنار، لازم ذلك صحة فرض أن يتعادل التقلان كما في الموازين الدائرة بيننا من ذي الكفتين والقبّان وغيرهما.

لابل ظاهر الآيات أن الحسنة تظهر ثقلاً في الميزان والسيّة خفّة فيه كما هو ظاهر قوله : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا باياننا يظلمون » ونظيره قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون » المؤمنون : ١٠٣، وقوله تعالى : « فاما من ثقل موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فما هاوية وما أدرك ماهيه نار حامية » القارعة : ١١ فالآيات - كما ترى - ثبتت التقل في جانب الحسنات دائمًا والخفّة في جانب السيّات دائمًا .

ومن هناك يتّأيد في النظر أن هناك أمراً آخر تقايس به الأعمال والتشقّل له فيما كان منها حسنة اتطبق عليه وزن به وهو ثقل الميزان ، وما كان منها سيّة لم ينطبق عليه ولم يوزن به وهو خفة الميزان كما نشاهده فيما عندنا من الموازين فإن فيها مقياساً وهو الواحد من التقل كالمثقال يوضع في إحدى الكفتين ثم يوضع الممتع في الكفة الأخرى فإن عادل المثقال وزناً بوجه على ما يدل عليه الميزان أخذبه وإلا فهو الترك لا محالة ، و المثقال في الحقيقة هو الميزان الذي يوزن به وأما القبّان ذو الكفتين ونظائرهما فهي مقدمة لما يبيّنه المثقال من حال الممتع الموزون به ثقلاً و خفّة كما أن واحد الطول وهو الذراع أو المتر مثلاً ميزان يوزن به الأطوال فإن اتطبق الطول على الواحد مقياس فهو وإلا ترك . ففي الأعمال واحد مقياس توزن به فلما صلاة مثلاً ميزان توزن به وهي الصلاة التامة التي هي حق الصلاة ، وللزكاة والإتفاق نظير ذلك ، وللكلام والقول حق القول الذي لا يشتمل على باطل ، وهكذا كما يشير إليه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » آل عمران : ١٠٢ .

فالآن قرب بالنظر إلى هذا البيان أن يكون المراد بقوله : « والوزن يومئذ الحق »

أنَّ الْوَزْنَ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ يُوْمَئِدُ إِنْسَماً هُوَ الْحَقُّ فَبِقَدْرِ اشْتِمَالِ الْعَمَلِ عَلَى الْحَقِّ يَكُونُ اعْتِباَرَهُ وَقِيمَتُهُ وَالْحَسَنَاتُ مُشْتَهَلَةٌ عَلَى الْحَقِّ فَلَهَا ثُقلٌ كَمَا أَنَّ السَّيَّاَتِ لَيْسَتِ إِلَّا بَاطِلَةٌ فَلَا ثُقلٌ لَهَا . فَاللَّهُ سَبِّحَاهُ يَزَنُ الْأَعْمَالَ يُوْمَئِدُ بِالْحَقِّ فَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ مِنَ الْحَقِّ فَهُوَ وَزْنُهُ وَثُقلُهُ .

وَلَعَلَّهُ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِالْقَضَاءِ بِالْحَقِّ فِي قَوْلِهِ : « وَأَشَرَّقَ الْأَرْضَ بِنُورِ رَبِّهَا وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجَيَّءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهِداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الزمر : ٦٩ وَالْكِتَابُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يَوْضِعُ يُوْمَئِدَ - وَإِنَّمَا يَوْضِعُ لِلْحَكْمِ بِهِ - هُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » الجاثية : ٢٩ فَالْكِتَابُ يَعِيَّنُ الْحَقَّ وَمَا شَتَّمَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ مِنْهُ ، وَالْوَزْنُ يَشْخُصُ مَقْدَارَ الثُّقلِ .

وَعَلَى هَذَا فَالْوَزْنُ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى الثُّقلِ دُونَ الْمَعْنَى الْمَصْدِرِيِّ ، وَإِنَّمَا عَبَرَ بِالْمَوَازِينِ - بِصِيغَةِ الْجَمْعِ - فِي قَوْلِهِ : « فَمَنْ ثَقَلَ مَوَازِينَهُ » وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينَهُ « الدَّالُ » عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مَوَازِينَ كَثِيرَةٍ مِنْ جَهَةِ اختِلافِ الْحَقِّ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ بِاِختِلافِ الْأَعْمَالِ فَالْحَقُّ فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ حَقٌّ الْصَّلَاةُ غَيْرُ الْحَقِّ فِي الزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ وَالحجَّ وَغَيْرِهَا ، وَهُوَ ظَاهِرٌ . فَهَذَا مَانِيَّةُ الْبَيَانِ الْسَّابِقِ .

وَالَّذِي ذَكَرَهُ جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « وَالْوَزْنُ يُوْمَئِدُ الْحَقَّ » أَنَّ الْوَزْنَ مَرْفُوعٌ عَلَى الْابْتِداَءِ وَيُوْمَئِدُ نَظْرُفُ الْحَقِّ صَفَةُ الْوَزْنِ وَهُوَ خَبْرُهُ وَالْتَّقْدِيرُ : وَالْوَزْنُ يُوْمَئِدُ الْوَزْنَ الْحَقِّ وَهُوَ الْعَدْلُ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « وَنَصَعَ الْمَوَازِينُ الْقَسْطُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » الْأَنْبِيَاءُ : ٤٧ .

وَرَبِّمَا قَيلَ : إِنَّ الْوَزْنَ مُبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ يُوْمَئِدُ وَالْحَقُّ صَفَةُ الْوَزْنِ ، وَالْتَّقْدِيرُ : وَالْوَرْنُ الْحَقُّ إِنَّمَا هُوَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ فِي الْكِشْفَ : وَرَفِعَهُ يَعْنِي الْوَزْنَ عَلَى الْابْتِداَءِ وَخَبْرُهُ يُوْمَئِدُ ، وَالْحَقُّ صَفَتُهُ أَيُّ وَالْوَزْنُ يَوْمَ يَسْأَلُ اللَّهُ الْأَعْمَمُ وَرَسَلُهُمُ الْوَزْنُ الْحَقُّ أَيُّ الْعَدْلِ (أَنْتَهَى) وَهُوَ غَرِيبٌ إِلَّا أَنْ يَوْجَهَ بِيَحملُ قَوْلُهُ : الْوَزْنُ الْحَقُّ الْخُنُّ عَلَى الْاسْتِئْنَافِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ » الْمَوَازِينُ جَمْعُ مِيزَانٍ عَلَى مَا تَقدَّمُ مِنَ الْبَيَانِ وَيُؤَيِّدُهُ الْآيَةُ الْمَذَكُورَةُ آنَّهَا : « وَنَصَعَ الْمَوَازِينُ الْقَسْطُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » وَالْأَنْسَبُ بِمَا ذَكَرَهُ

ال القوم في معنى قوله : « و الوزن يومئذ الحق » لأن يكون جمع موزون وهو العمل وإن
أمكن أن يجعل جمع ميزان ، ويوجهه تعدد الموازين بتنوع الأعمال الموزونة بها .
لكن يبقى الكلام على قول المفسرين : أن الوزن الحق هو العدل في تصوير معنى
ثقل الموازين بالحسنات وخفتها بالسيئات فإن فيما يوزن به الأعمال حسناتها وسيئاتها
خفاءً ، والقسط وهو العدل صفة للتوزين وهو نعمت لله سبحانه على ما يظهر من قوله « و
نضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل
أتينا بها وكفى بنا حاسدين » الأنبياء : ٤٧ فإن ظاهر قوله : « فلا تظلم » الخ أن الله لا
يظلمهم فالقسط قسطه وعدله فليس القسط هو الميزان يومئذ بل وضع الموازين هو وضع
العدل يومئذ . فافهم ذلك .

و هذا هو الذي بعثهم على أن فسروا ثقل الموازين برجحانها بنوع من التجوز
فالمراد بثقل الموازين رجحان الأعمال بكونها حسنات وخفتها مرجوحتها بكونها سيئات
و معنى الآية : والوزن يومئذ العدل أي الترجيح بالعدل فمن رجحت أعماله لغلبة الحسنات
فأولئك هم المفلحون ، ومن لم يترجح أعماله لغلبة سيئاته فأولئك الذين خسروا أنفسهم
أي ذهبوا رأس مالهم الذي هو أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون لتكتذبهم بها .
ويعود الكلام حينئذ إلى الملائكة الذي به ترجح الحسنة على السيئة وسيما إذا
اختلطت الأعمال واجتمعت حسنات وسيئات ، والحسنات والسيئات مختلفة كبيرة وصغرى
فما هو الملائكة الذي يعلم به غلبة أحد القبيلين على الآخر ؟ فخبره تعالى بأن أمر الوزن
جار على العدل يدل على جريانه بحيث تتم به الحجة يومئذ على العباد فلا مجال له هناك
أمر تشتمل عليه الحسنة دون السيئة ، وبه الترجيح ، وبه يعلم غلبة التغليل على الخفيف
والحسنة على السيئة إذا اجتمعت من كل منها عدد مع الأخرى وإلا لزم القول بالجزاف
البقة .

وهذا كلام مما يؤيد ما قدمناه من الاحتمال ، وهو أن يكون توزين الأعمال
بالحق ، وهو التوزين العادل فمن ثقلت موازينه باشتمال أعماله على الحق فأولئك هم
المفلحون ، ومن خفت موازينه لعدم اشتتمال أعماله على الحق الواجب في العبودية فأولئك

الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون بتکذبهم بها وعدم تزورهم بما يعيشون به هذا اليوم فقد أهلكوا أنفسهم بما أحلوها دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار .

فقد تبین بما قد منهأ أو لاً : أنَّ الوزن يوم القيمة هو تطبيق الأعمال على ما هو الحق فيها ، وبقدر اشتتمالها عليه تستعقب الثواب وإن لم تشتمل فهو الهلاك ، وهذا التوزين هو العدل ، والكلام في الآيات جار على ظاهره من غير تأويل .

وقيل : إنَّ المراد بالوزن هو العدل ، ونقل الميزان هو رجحان العمل فالكلام موضوع على نحو من الاستعارة ، وقد تقدَّم .

وقيل : إنَّ الله ينصب يوم القيمة ميزاناً له لسان وكفتان فتوزن به أعمال العباد من الحسنات والسيّات ، وقد اختلف هؤلاء في كيفية توزين الأعمال ، وهي أعمال انعدمت بصدرها ، ولا يجوز إعادة المعدوم من الأعراض عندهم . على أنها لا وزن لها : فقيل إنَّما توزن صحائف الأعمال لا أنفسها . وقيل : تظهر للأعمال من حسناتها وسيّاتها آثار وعلامات خاصة بها فتوزن العلامات بشهاد من الناس ، وقيل : تظهر الحسنات في صور حسنة و السيّات في صور قبيحة منكرة فتوزن الصور ، وقيل : توزن نفس المؤمن والكافر دون أعمالهما من حسنة أو سيئة ، وقيل : الوزن ظهور قدر الإنسان ، ونقل الميزان كرامته وعظم قدره ، وخفّة الميزان هو انه وذلتة .

وهذه الأقوال على تشتتتها لا تعتمد على حجّة من ألفاظ الآيات ، وهي جميعاً لا تخلو عن بناء الوزن الموصوف على الجراف لأنَّ الحجّة لاتتم بذلك على العبد ، وقد تقدَّمت الإشارة إلى ذلك .

وثانياً : أنَّ هناك بالنسبة إلى كلِّ إنسان موازين توزن بها أعماله والميزان في كلِّ باب من العمل هو الحقُّ الذي يشتمل عليه ذلك العمل - كما تقدَّم - فإنَّ يوم القيمة هو اليوم الذي لا سلطان فيه إلَّا للحقُّ ولا ولادة فيه إلَّا لله الحقُّ قال تعالى : « ذلك اليوم الحقُّ » الذبأ : ٣٩ ، وقال تعالى : « هنا لك الولاية لله الحقُّ » الكهف : ٤ و قال : « هنالك تبلو كلَّ نفس ما أسلفت و ردّوا إلى الله مولاهم الحقُّ و ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ،

بحث روائي

في الدر المنشور أخرج ابن الصريفي والنحاس في ناسخه وابن مردوه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : سورة الأعراف نزلت بمكة .

أقول : ورواه أيضاً عن ابن مردوه عن ابن الزبير .

وفيه أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : آية من الأعراف مدنسة ، وهي : وسائلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إلى آخر الآية ، وسائلها مكثة .

أقول : وهو منه اجتهاد وسيأتي ما يتعلّق به من الكلام .

وفيه في قوله تعالى : ولنـسـأـلـنـ الـذـيـنـ أـرـسـلـ إـلـيـهـمـ الـآـيـةـ أـخـرـ جـمـدـ عـنـ مـعـاـوـيـةـ بـنـ حـيـدـهـ أـنـ رـسـوـلـ اللهـ أـطـعـمـكـمـ قـالـ : إـنـ رـبـيـ دـاعـيـ وـإـنـهـ سـائـلـ : هـلـ بـلـغـ عـبـادـيـ ؟ وـإـنـىـ قـائـلـ : رـبـ إـنـىـ قـدـ بـلـغـتـهـمـ فـلـيـلـغـ الشـاهـدـ مـنـكـمـ الغـائبـ ثـمـ إـنـكـمـ تـدـعـونـ مـفـدـمـةـ أـفـواـهـكـمـ بـالـفـدـامـ إـنـ إـنـ أـوـلـ مـاـيـبـينـ عـنـ أـحـدـكـمـ لـفـخـذـهـ وـكـفـهـ .

وفيه : أخرج البخاري ومسلم والترمذمي وابن مردوه عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن الناس ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد عن مال سيده .

أقول : وفي هذا المعنى روایات كثيرة ، و الروایات في سؤال يوم القيمة كثيرة واردة من طرق الفريقين ستورد جلها في موضع يناسبها إن شاء الله تعالى .

وفيه : أخرج أبو الشيخ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : يوضع الميزان يوم القيمة فيوزن الحسنات والسيّرات فمن رجحت حسناته على سيّاته دخل الجنة ومن رجحت سيّاته على حسناته دخل النار .

وفيه : أخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص عن علي بن أبي طالب قال : من كان ظاهره أرجح من باطننه خفف ميزانه يوم القيمة ، ومن كان باطننه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيمة .

أقول : الروايتان لا يأس بهما من حيث المضمن لكنهما لاتصلحان لتفسير الآيتين
ولم تردا له لأخذ الرجحان فيهما في جانبي الحسنة والسيئة جمعاً .

وفيه : أخرج ابن مارديه عن عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خلق الله كفتى
الميزان مثل السماء والأرض فقالت الملائكة : ياربنا من تزن بهذا ؟ قال : أزن بهمن شئت .
وخلق الله الصراط كحد السيف فقالت الملائكة . يا ربنا من تجيز على هذا ؟ قال : أجيئ
عليه من شئت .

أقول : وروى الحاكم في الصحيح عن سلمان مثله ، وظاهر الرواية أن الميزان
يوم القيمة على صفة الميزان الموجود في الدنيا المعمول لتشخيص الأثقال و هناك روايات
متفرقة تشعر بذلك ، وهي واردة لتقرير المعنى إلى الأفهام الساذجة بدليل ماسيوأفيك من
الروايات .

وفي الاحتجاج في حديث هشام بن الحكم عن الصادق عليه السلام أنّه سأله الزندق فقال
أوليس يوزن الأعمال ؟ قال : لإنّ الأعمال ليست بأجسام وإنّما هي صفة ما عملوا ، وإنّما
يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ، ولا يعرف ثقلها وخفتها ، وإنّ الله لا يخفي
عليه شيء . قال : فما معنى الميزان ؟ قال : العدل قال : فما معناه في كتابه : فمن ثقلت
موازينه ؟ قال : فمن رجح عمله . الخبر .

أقول : وفي الرواية تأييدهما قدّمناه في تفسير الوزن ، ومن ألطاف ما فيها قوله عليه السلام
« وإنّما هي صفة ما عملوا » يشير إلى أن ليس المراد بالأعمال في هذه الأبواب هو
الحركات الطبيعية الصادرة عن الإنسان لاشتراكها بين الطاعة والمعصية بل الصفات الطارئة
عليها التي تعتبر لها بالنظر إلى السنن والقوانين الاجتماعية أو الدينية مثل الحركات
الخاصة التي تسمى و قاعاً بالنظر إلى طبيعة نفسها ثم تسمى ناكحاً إذا وافت السننة
الاجتماعية أو الأذن الشرعي ، وتسمى زناً إذا لم توافق ذلك ، وطبيعة الحركات الصادرة
واحدة . وقد استدل عليه ما ذكره من طريقين : أحدهما : أنّ الأعمال صفات لا وزن لها ،
والثاني : أنّ الله سبحانه لا يحتاج إلى توزين الأشياء لعدم اتصافه بالجهل تعالى شأنه .
قال بعضهم : إنّه بناءً على ما هو الحق من تجسم الأعمال في الآخرة ، و إمكان

تأثير حسن العمل ثقلاً فيه ، وكون الحكمة في الوزن تهويل العاصي وتفضيحة وتبشير المطين وازيد اد فرحة وإظهار غاية العدل ، في الرواية وجوه من الاشكال فلا بد من تأويلها إن أمكن وإنما فطرها أو حلها على التقىة ، انتهى .

أقول : قد تقدم البحث عن معنى تجسس الأعمال، وليس من الممتنع أن يتمثل الأعمال عند الحساب ، والعدل الالهي القاضي فيها في صورة ميزان توزن به أمتنة الأعمال وسلعها لكنّ الرواية لاتنفي ذلك وإنما تنفي كون الأعمال أجساماً دنيوية محكومة بالجاذبية الأرضية التي تظهر فيها في صورة النقل والخفة . أو لاً .

والإشكال مبني على كون كيفية الوزن بوضع الحسنات في كفة من الميزان . و السيات في كفة أخرى ثم الوزن والقياس ، وقد عرفت : أن الآية بمعزل عن الدلال على ذلك أصلاً . ثانياً .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي مغمر السعداني عن أمير المؤمنين عليهما السلام في حدث قال : وأما قوله : « فمن ثقلت موازينه وخفت موازينه» فإنما يعني : الحسنات توزن الحسنات والسيّات فالحسنات ثقل الميزان والسيّات خفة الميزان .

أقول : وتأييده ما تقدم ظاهر فإنه يأخذ المقياس هو الحسنة وهي لا محالة واحدة يمكن أن يقاس بها غيرها ، وليس إلا حق العمل .

وفي المعاني بإسناده عن المنقري عن هشام بن سالم قال : سألت أبا عبدالله عليهما السلام عن قول الله عز وجل : « ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً » قال : هم الأنبياء والأوصياء .

أقول : ورواه في الكافي عن أ Ahmad بن محمد عن إبراهيم الهمداني رفعه إليه عليهما السلام ، ومعنى الحديث ظاهر بما قدّ منه فإن المقياس هو حق العمل والاعتقاد ، وهو الذي عندهم كتاب الله .

وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين عليهما السلام فيما كان يعظ به قال : ثم رجع القول من الله في الكتاب على أهل المعاصي والذنوب فقال عز وجل : ولئن مسّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ولينا إننا كنا ظالمين فإن قلت أيمها الناس

إِنَّ اللَّهَ عَزُّ وَجْلُ إِنَّمَا عَنِيهَا أَهْلُ الشَّرْكِ فَكَيْفَ ذَلِكُ ؟ وَهُوَ يَقُولُ : وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقَسْطُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى
بِنَا حَاسِبِينَ فَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ أَهْلَ الشَّرْكِ لَا تُنْصَبُ لَهُمْ الْمَوَازِينَ وَلَا تُنْذَرُ لَهُمُ الدَّوَادِينَ
وَإِنَّمَا يَحْشُرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ زُمْرًا ، وَإِنَّمَا نَصْبُ الْمَوَازِينَ وَنُنْذَرُ الدَّوَادِينَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ .
الْخَيْرِ .

أَقُول : يُشَيرُ إِلَيْنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَلَا تَنْقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَّا » الْآيَةِ .
وَفِي تَفْسِيرِ الْقَمِيِّ فِي قَوْلِهِ : « وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذِ الْحَقُّ » الْآيَةُ قَالَ إِلَيْنَا : الْمُجَازَةُ
بِالْأَعْمَالِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا .
أَقُول : وَهُوَ تَفْسِيرُ بِالْمُتَبَدِّلةِ .

وَفِيهِ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلَمُونَ » قَالَ إِلَيْنَا : بِالْأُئْمَةِ
يَجِدُونَ .

أَقُول : وَهُوَ مِنْ قَسِيلِ ذَكْرِ بَعْضِ الْمَصَادِيقِ . وَفِي الْمَعْانِي الْمُتَقْدِّمةِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى .



* * *

وَلَقَدْ مَكَنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)
 وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قَنَّا لِلنَّمَلَائِكَةَ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
 لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمْرَتُكَ قَالَ أَنَا
 خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ
 أَنْ تَفْكِيرَ فِيهَا فَاقْخُرْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ انْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَعْثُونَ (١٤)
 قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُفْنَطَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَاقْعُدْنَاهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)
 ثُمَّ لَا تَيْمَنُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَحْدُدُ
 أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ لَامِلَانَ
 جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَبِإِنْ آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
 شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسُوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ
 لِيُهْدِي لَهُمَا مَا وَرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سُوءِ آتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رِبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ
 إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيْنَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسِمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمَنْ
 الْمَاصِحِينَ (٢١) فَدَلِيلُهُمَا بِغَرْوِ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءُ آتِهِمَا وَطَفَقا
 يَخْصِفَانَ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَاكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةِ
 وَأَقْلَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قُلَا رَبَّنَا ظَلَمَنَا أَنفَسَنَا وَإِنْ لَمْ
 تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
 وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمُقْتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ
 وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥).

﴿بيان﴾

تصف الآيات بدء خلقة الإنسان و تصويره ، وما جرى هناك من أمر الملائكة بالسجدة له ، وسجودهم وإباء إبليس، وغزوته آدم وزوجته ، وخروجها من الجنة ، وما فرض الله في ذلك من القضاء .

قوله تعالى : «ولقد مكناكم في الأرض وجعلناكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون» التمكين في الأرض هو الإسكان والإيطان فيها أي جعلنا مكافئكم الأرض ، ويمكن أن يكون من التمكين بمعنى القدر والتسلیط ، ويؤيد المعنی الثاني أن هذه الآيات تحدّي بنحو ما في سورة البقرة من قصة آدم وإبليس وقد بدأ الآيات فيها بقوله : «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» البقرة : ٢٩ وهو التسلیط والتسخير .

غير أن هذه الآيات التي نحن فيها ملأ كانت تنتهي إلى قوله : «ولكم في الأرض مستقرٌ ومتعٌ إلى حين» كان المعنى الأول هو الأنسب وقوله : «ولقد مكناكم في الأرض الخ كلاماً يحال لما تفصله الآيات التالية إلى آخر قصة الجنة .

والمعاش بجمع معيشة وهي ما يعيش به من مطعم أو مشروب أو نি�حوهما ، والآية في مقام الامتنان عليهم بما أنعم الله عليهم من نعمة سكنى الأرض أو التسلیط والاستيلاء عليها . وجعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به ، ولذلك ختم الكلام بقوله : «قليلاً ما تشكرون» .

قوله تعالى : «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» صورة قصة تبتدئ من هذه الآية إلى تمام خمس عشرة آية يفصل فيها إجمال الآية السابقة وتبيّن فيها العلل والأسباب التي انتهت إلى تمكين إنسان في الأرض المدلول عليه بقوله : «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش» .

ولذلك بدأ الكلام في قوله : «ولقد خلقناكم» الخ بلام القسم ، ولذلك أيضاً سيقت القصستان أعني قصة الأمر بالسجدة ، وقصة الجنة في صورة قصة واحدة من غير أن تفصل القصة الثانية بما يدل على كونها قصة مستقلة كل ذلك ليختلص إلى قوله :

« قال اهبطوا منها بعضاً لكم لبعض عدوٍ ولكم في الأرض مستقرٌ » إلى آخر الآيات فينطبق التفصيل على إجمال قوله : « ولقد مكناكم في الأرض » الآية .
وقوله : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » الخطاب فيه لعامة الأديميين وهو خطاب امتتانيٍ كما مرّ نظيره في الآية السابقة لأنّ المضمون هو المضمون وإنما يختلفان بالإجمال والتفصيل .

وعلى هذا فالانتقال في الخطاب من العموم إلى الخصوص أعني قوله : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » بعد قوله : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » يفيد بيان حقيقتين :

الأولى : أن السجدة كانت من الملائكة لجميعبني آدم أي للنشأة الإنسانية وإن كان آدم عليهما السلام هو القبلة المنصوبة للسجدة فهو عليهما في أمر السجدة كان مثلاً يمثل به الإنسانية نائماً مناباً أفراد الإنسان على كثرتهم لا مسجوداً له من جهة شخصه كالكعبة المبعلولة قبلة يتوجّه إليها في العبادات ، وتمثل بها ناحية الربوبية .

ويستفاد هذا المعنى أوّلاً من قصة الخلافة المذكورة في سورة البقرة آية ٣٠ - ٣٣
فإنّ المستفاد من الآيات هناك أنّ أمر الملائكة بالسجدة متقررٌ على الخلافة ، والخلافة المذكورة في الآيات - كما استفندناه هناك - غير مختصة بآدم بل جارية في عامة الأديميين فالسجدة أيضاً لجميع .

وثانياً : أن إبليس تعرّض لهم أي لبني آدم ابتداءً من غير توسيط آدم ولا تخصيصه عليه السلام بالتعرّض حين قال على ما حكاه الله سبحانه : « فيما أغويتني لأُقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثم لا تيئنّهم من بين أيديهم ومن خلفهم » الخ من غير سبق ذكر لبني آدم ، وقد ورد نظيره في سورة الحجر حيث قال : « ربّ بما أغويتني لا زيننّ لهم في الأرض ولا غويننّهم أجمعين » الحجر : ٣٩ ، وفي سورة ص حيث قال : « فبعزّتك لا غويننّهم أجمعين » ص : ٨٢ ، ولو لا أن الجميع مسجودون بنوعيّتهم للملائكة لم يستقم له أن ينقم منهم هذه النّقمة ابتداءً ، وهو ظاهر .

وثالثاً : أن الخطابات التي خاطب الله سبحانه بها آدم عليهما السلام كما في سورة البقرة

وسمة طه عمّها بعينها في هذه السورة لجميع بنيه . قال تعالى : « يا بني آدم إماً يأتينكم
رسلاً منكم » الخ .

والحقيقة الثانية : أن خلق آدم عليه السلام كان خلقاً للمجتمع كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى : « و بدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من ساللة من ماء مهين » السجدة : ٨ ، و قوله : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة » المؤمن : ٦٧ ، على ما هو ظاهر الآيات أن المراد بالخلق من تراب هو الذي كان في آدم عليه السلام .

ويشعر بذلك أيضاً قول إبليس في ضمن القصة على ما حكاه الله سبحانه في سورة أسرى : « لئن أخرتني إلى يوم القيمة لا حتنكن ذريته إلا قليلاً » الآية ، ولا يخلو عن إشعار به أيضاً قوله تعالى : « وإن أخذ ربكم من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم » الآيات الأربع : ١٧٢ على ما سيجيء من بيانه .

وللمفسرين في الآية أقوال مختلفة قال في مجمع البيان : ثم ذكر سبحانه نعمته في ابتداء الخلق فقال : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » قال الأخفش : « ثم » هنا في معنى الواو ، وقال الزجاج : وهذا خطأ لا يجوّزه التحليل وسيبوهه وبطبيعة من يوثق بعلمه إنما « ثم » للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير ، وإنما المعنى في هذا الخطاب ذكر ابتداء الخلق أو لا فالمراد أننا بدأنا خلق آدم ثم صورناه فابتداه خلق آدم من التراب ثم وقعت الصورة بعد ذلك فهذا معنى خلقناكم ثم صورناكم « ثم » قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » بعد الفراغ من خلق آدم ، وهذا مروي عن الحسن ، ومن كلام العرب : فعلنا بكم كذا وكذا وهم يعنون أسلافهم ، وفي التزيل : « وإن أخذنا ميشاقكم ورفعنا فوقكم الطور » أي ميشاق أسلافكم .

وقد قيل في ذلك أقوال أخرى : منها : أن معناه خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . عن ابن عباس ومجاهد والريبع وقتادة والسدي .

ومنها : أن الترتيب واقع في الخبر فكانه قال : خلقناكم ثم صورناكم ثم إنما تخبركم أننا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم كما يقول القائل : أنا راجل ثم أنا مسرع ، وهذا قول جماعة من النحويين منهم علي بن عيسى والقاضي أبو سعيد السيرافي وغيرهما ، وعلى هذا

فقد قيل : إنّ المعنى : خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في ارحام النساء عن عكرمة وقيل خلقناكم في الرحم ثم صورناكم بشق السمع والبصر وسائر الأعضاء . انتهى . أمّا ما نقله عن الزجاج من وجده فيه أو لا أن نسبة شيء من صفات السابقين أو أعمالهم إلى أعقابهم إنّما تصح إذا اشتراك القبيلان في ذلك بنوع من الاشتراك كما فيما أورده من المثال لا بمجرد علاقة النسب والسباق واللحق حتى يصح بمجرد الانتساب النسلي أن تعدد خلقة نفس آدم خلقاً لبنيه من غير أن يكون خلقه خلقاً لهم بوجهه . وثانياً : أنّ ما ذكره لوضح به أن يبعد خلق آدم وتصويره خلقاً وتصويراً لبنيه صحيح أن يبعد أمر الملائكة بالسجدة له أمر الله بالسجدة لبنيه كما جرى على ذلك في قوله : « وإنّا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » فما باله قال : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » ولم يقل : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا للإنسان » ؟ وأمّا ما نقله أخيراً من أقوالهم فوجوه سخيفة غير مفهومة من لفظ الآية ، ولعل القائلين بها لا يرضون أن يتأنّوا في كلامهم أنفسهم بمثل هذه الوجوه فكيف يحمل على مثلها أبلغ الكلام ؟

قوله تعالى « فَسِجِّدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » أخبر تعالى عن سجود الملائكة جميعاً كما يصرّح به في قوله : « فَسِجِّدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَبْعَجُونَ » الحجر : ٣٠ واستثنى منهم إبليس وقد علل عدم اتّمامه بالأمر في موضع آخر بقوله : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَقَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » الكهف : ٥٠ ، وقد وصف الملائكة بمثل قوله : « بَلْ عِبَادٌ مَكْرُونٌ لَا يُسِيقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » الأنبياء : ٢٧ ، وهو بظاهره يدلّ على أنه من غير نوع الملائكة .

ولهذا وقع الخلاف بينهم في توجيه هذا الاستثناء : فهو استثناء متصل بتغليب الملائكة لكونهم أكثر وأشرف أو أنه استثناء منفصل وإنّما أمر بأمر على حدة غير الأمر المتوجّه إلى جمع الملائكة وإن كان ظاهر قوله : « مَا مَنَعَكُمْ أَنْ لَا تَسْجُدُوا إِذْ أَمْرَتُكُمْ » أنَّ الأمر لم يكن إلّا واحداً وهو الذي وجهه الله إلى الملائكة . والذى يستفاد من ظاهر كلامه تعالى أنَّ إبليس كان مع الملائكة من غير تميّز له

منهم والمقام الذي كان يجمعهم جميعاً كان هو مقام القدس كما يستفاد من قصة ذكر الخلافة « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلُ فِي الْأَرْضِ خَلِيلَةَ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » البقرة : ٣٠ ، وأنَّ الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ إِنَّمَا كان متوجهاً إلى ذلك المقام أعني إلى المقيمين بذلك المقام من جهة مقامهم كما يشير إليه قوله تعالى في ما سأله : « قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا » والضمير إلى المنزلة أو إلى السماء أو الجنة وما لها إلى المنزلة والمقام ولو كان الخطاب متوجهاً إليهم من غير دخل المنزلة والمقام في ذلك لكان من حقَّ الكلام أن يقال : « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ ». .

وعلى هذا لم يكن بينه وبين الملائكة فرق قبل ذلك ، وعند ذلك تميَّز الفريقيان ، وبقي الملائكة على ما يقتضيه مقامهم ومنزلتهم التي خلوا فيها ، وهو الخضوع العبوديُّ والامتثال كما حكاه الله عنهم : « بَلْ عِبَادُكُمْ لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » فهذه حقيقة حياة الملائكة وسنخ أعمالهم ، وقد بقوا على ذلك وخرج إبليس عن المنزلة التي كان يشار إليها كما يشير إليه قوله : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » وَالفسق خروج التمرة عن قشرها فتميَّز عنهم فأخذ حياة لا حقيقة لها إِلَّا الخروج عن الكرامة الْإِلهِيَّةِ وطاعة العبوديَّةِ .

والقصة وإن سبق مساق القصص الاجتماعية المألوفة بيننا وتضمنت أمراً وامتثالاً وتمرداً واحتجاجاً وطرداً وربماً وغير ذلك من الأمور التشريعية والملووية غير أنَّ البيان السابق على استفادته من الآيات يهدينا إلى كونها تمثيلاً للتكتوين بمعنى أنَّ إبليس على ما كان عليه من الحال لم يقبل الامتثال أيَّ الخضوع للحقيقة الإنسانية فتفرَّغَت عليه المعصية ، ويشعر به قوله تعالى : « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا » فإنَّ ظاهره أنَّ هذا المقام لا يقبل لذاته التكبُّر فكان تكبُّره فيه خروجه منه وهبوطه إلى ما هو دونه .

على أنَّ الْأَمْرَ بِالسُّجُودِ - كما عرفت - أمر واحد توجَّهُ إلى الملائكة وإبليس جميعاً بعينه ، والْأَمْرُ المتوجَّهُ إلى الملائكة ليس من شأنه أن يكون مولويَاً تشريعياً بمعنى الْأَمْرِ المتعلق بفعل يتساوى نسبةً مأموره إلى الطاعة والمعصية والسعادة والشقاوة

فإنما الملائكة مجبولون على الطاعة مستقرّون في هنر السعادة كما أن إبليس واقع في
الجانب المخالف لذلك على مظاهر من أمره بتوجيه الأمر إليه .
فولا أن الله سبحانه خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس جميعاً بالسجود له لكان إبليس
على ما كان عليه من منزلة القرب غير متميّز من الملائكة لكن خلق الإنسان شق المقام
مقامين : مقام القرب ومقام البعد ، وميّز السبيل سبيلين : سبيل السعادة وسبيل الشقاوة .
قوله تعالى : « قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أناخير منه خلقتني من نار
وخلقتني من طين » يزيد مامنعك أن تسجد كما وقع في سورة ص من قوله : « قال يا إبليس
مامنعك أن تسجد لما خلقت يدي » ص ٧٥ ، ولذلك ربّما قيل : إن « لا » زائدة جيء
بها للتّأكيد كما في قوله : « لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله »
الحادي : ٢٩ .

والظاهراً « منع » مضمون نظير معنى حمل أودعا ، ومعنى : ما حملك أومادعاً على
أن لا تسجد مانعاً لك .

وقوله : « قال أناخير منه خلقتني من نار وخلقتني من طين » يحكي عمّا أجاب به
لهذه الله ، وهو أول معصيته وأول معصية عصي بها الله سبحانه فإنّ جميع المعاصي ترجع
بحسب التحليل إلى دعوى الإلنية ومنازعة الله سبحانه في كبرياته ، ولوه رداء الكبراء لا
شريك له فيه . فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته ويقول : أنا قبل الإلنية الإلهية
التي عنت له الوجه ، وخضعت له الرقاب ، وخشعـت له الأصوات ، وذلـ له كل شيء .
ولولم تنجذب نفسه إلى نفسه ، ولم يحتبس نظره في مشاهده إنيته لم يتقيـد
باستقلال ذاته ، وشاهد إلاه القـيـوم فوقه فذلتـ له إنيـته ذلة تـنـفي عنـه كلـ استقلالـ وـ
كـبرـيـاءـ فـخـضـعـ لـلـأـمـرـ الإـلـهـيـ ، وـطـاوـعـتـهـ نـفـسـهـ فـيـ الـأـيـمـارـ وـالـإـمـشـالـ ، وـلـمـ تـنـجـذـبـ نـفـسـهـ إـلـىـ
ماـكـانـ يـتـرـآـيـ مـنـ كـوـنـهـ خـيـراـ مـنـهـ لـأـنـهـ مـنـ النـارـ وـهـوـ مـنـ الطـينـ بلـ اـنـجـذـبـتـ نـفـسـهـ إـلـىـ الـأـمـرـ
الـصـادـرـ عـنـ مـصـدـرـ الـعـظـمـةـ وـالـكـبـرـيـاءـ ، وـمـنـبـعـ كـلـ بـجـالـ وـجـالـ .

وكان من الحري إذا سمع قوله : « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » أن يأتي بما
يطابقه : من الجواب كأن يقول : منعـي أـنـيـ خـيـراـ مـنـهـ لـكـنـهـ أـتـيـ بـقـوـلـهـ : « أناـ خـيـراـ مـنـهـ »

ليظهر به الإِنْسَيَّةُ، ويفيد الثبات والاستمرار، ويستفاد منه أيضًا أن المانع له من السجدة ما يرى لنفسه من الخيرية فقوله : «أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ» أَظْهَرَ وَآكَدَ في إِفَادَةِ التَّكْبِيرِ .

ومن هنا يظهر أن هذا التَّكْبِيرُ هو التَّكْبِيرُ على الله سبحانه دون التَّكْبِيرِ على آدم .

ثُمَّ إِنَّهُ في قوله : «أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» استدلَّ على كونه خيراً من آدم بمبدأ خلقته وهو النار وأنها خير من الطين الذي خلق منه آدم ، وقد صدقَ الله سبحانه ما ذكره من مبدأ خلقته حيث ذكر أنه كان من الجن ، وأن الجن مخلوق من النار قال تعالى : «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» الكيف : ٥٠ ، وقال : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَّاءٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارٍ السَّمُومِ» الحجر : ٢٧ و قال أيضًا : «خَلَقَ إِنْسَانًا مِّنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجِ نَارٍ» الرحمن : ١٥ .

لكنه تعالى لم يصدقه فيما ذكره من خيريته منه فإنه تعالى وإن لم يرد عليه قوله : «أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ» الخ في هذه السورة إلا أنه بيّن فضل آدم عليه وعلى الملائكة في حديث الخلافة الذي ذكره في سورة البقرة للملائكة .

على أنه تعالى ذكر القصة في موضع آخر بقوله : «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خالق بشرًا من طين فَإِذَا سُوِّيَتِهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدين فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَبْجَعُوهُ إِلَّا إِبْلِيسُ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ مَا خَلَقْتَ بِيَدِي إِسْتَكْبَرْتَ أَمْ كَنْتَ مِنَ الْعَالَمِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» الخ ص : ٧٦ .

فيبيّن أولاً أنهم لم يدعوا إلى السجدة له ملاده الأرضية التي سويّ منها ، وإنما دعوا إلى ذلك ملائكة سوأه ونفح فيه من روحه الخاص به تعالى المحاملة للشرف كل الشرف والمتعلقة لتمام العناية الربانية ، ويدور أمر الخيرية في التكوينيات مدار العناية الإلهية لاحكم من ذواتها فلاحكم إلا الله .

ثُمَّ بيّن ثانياً ملائكة سأله عن سبب عدم سجوده بقوله : «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ مَا خَلَقْتَ بِيَدِي» إِنَّهُ تعالى اهتم بأمر خلقته كل الاهتمام واعتنى به كل الاعتناء حيث خلقه بكل تنا

يده بـأبي معنى فـسـرـنا الـمـدـيـنـ، وـهـذـا هـوـالـفـضـلـ فـأـجـابـ لـعـنـهـ اللـهـ بـقـوـلـهـ : «أـنـاـخـيـرـ مـنـهـ خـلـقـتـنـيـ مـنـ نـارـوـخـلـقـتـهـ مـنـ طـينـ» فـتـعـلـقـ بـأـمـرـ النـارـ وـالـطـينـ ، وـأـهـمـ أـمـرـ تـكـبـرـهـ عـلـىـ رـبـهـ كـمـاـ أـنـهـ فـيـ هـذـهـ السـوـرـةـ سـئـلـ عـنـ سـبـبـ تـكـبـرـهـ عـلـىـ رـبـهـ إـذـقـيـلـ لـهـ : «مـاـمـنـعـكـ أـنـ لـاتـسـبـدـ إـذـ أـمـرـتـكـ» فـتـعـلـقـ بـقـوـلـهـ : «أـنـاـخـيـرـ مـنـهـ» الـخـ وـلـمـ يـعـتـنـ بـمـاـسـئـلـ عـنـهـ أـعـنـيـ السـبـبـ فـيـ تـكـبـرـهـ عـلـىـ رـبـهـ إـذـمـ يـأـتـمـ بـأـمـرـ

بـلـيـ قـدـ اـعـتـنـىـ بـهـ إـذـقـالـ : «أـنـاـخـيـرـ مـنـهـ» فـأـثـبـتـ لـنـفـسـهـ اـسـتـقـالـلـ الـإـنـيـةـ قـبـالـ الـإـنـيـةـ الـإـلـهـيـةـ الـتـيـ قـهـرـتـ كـلـ شـيـءـ فـأـسـتـدـعـهـ ذـلـكـ إـلـىـ نـسـيـانـ كـبـرـيـائـهـ تـعـالـىـ وـجـدـ نـفـسـهـ مـثـلـ رـبـهـ وـأـنـ لـهـ اـسـتـقـالـلـ كـاسـتـقـالـلـهـ ، وـأـوـجـبـ ذـلـكـ أـنـ أـهـمـلـ وـجـوبـ اـمـتـشـالـ أـمـرـهـ لـأـنـهـ اللـهـ بـلـ اـشـتـغـلـ بـأـمـرـ جـيـحـاتـ فـوـجـدـ التـرـجـيـحـ لـلـمـعـصـيـةـ عـلـىـ الطـاعـةـ وـلـتـمـرـدـ عـلـىـ الـانـقـيـادـ وـلـيـسـ إـلـاـ أـنـ تـكـبـرـهـ بـأـثـبـاتـ الـإـنـيـةـ الـمـسـتـقـلـةـ لـنـفـسـهـ أـعـمـىـ بـصـرـهـ فـوـجـدـ مـادـةـ نـفـسـهـ وـهـيـ النـارـ خـيـرـاـ

مـنـ مـادـةـ نـفـسـ آـدـمـ وـهـيـ الطـينـ فـحـكـمـ بـأـنـهـ خـيـرـ مـنـ آـدـمـ ، وـلـاـ يـنـبـغـيـ لـلـفـاضـلـ أـنـ يـخـضـعـ

بـالـسـجـودـ لـفـضـولـهـ ، وـإـنـ أـمـرـ بـهـ اللـهـ سـبـحـانـهـ لـأـنـهـ يـسـوـيـ بـنـفـسـهـ نـفـسـ رـبـهـ بـمـاـيـرـيـ لـنـفـسـهـ

مـنـ اـسـتـقـالـلـ وـكـبـرـيـاءـ كـاسـتـقـالـلـهـ فـيـتـرـكـ الـأـمـرـ وـيـتـعـلـقـ بـأـمـرـ جـيـحـاتـ فـيـ الـأـمـرـ .

وـبـالـجـملـةـ هـوـ سـبـحـانـهـ اللـهـ الـذـيـ مـنـهـ يـبـتـدـيـءـ كـلـ شـيـءـ وـإـلـيـهـ يـرـجـعـ كـلـ شـيـءـ فـإـذـاـ خـلـقـ شـيـئـاـ وـحـكـمـ عـلـيـهـ بـالـفـضـلـ كـانـ لـهـ الـفـضـلـ وـالـشـرـفـ وـالـقـاعـدـ وـبـحـسـبـ الـوـجـودـ الـخـارـجـيـ

وـإـذـاـ خـلـقـ شـيـئـاـ ثـانـيـاـ وـأـمـرـهـ بـالـخـضـوعـ لـلـأـوـلـ كـانـ وـجـودـهـ نـاقـصـاـ مـفـضـوـلـاـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ ذـلـكـ

الـأـوـلـ فـإـنـ اـمـفـروـضـ أـنـ أـمـرـهـ إـمـاـ نـفـسـ التـكـوـينـ الـحـقـّـ أـوـ يـنـتـهـيـ إـلـىـ التـكـوـينـ فـقـولـهـ

الـحـقـّـ وـالـوـاجـبـ فـيـ اـمـتـشـالـ أـمـرـهـ أـنـ يـمـتـشـالـ لـأـنـهـ أـمـرـهـ لـأـنـهـ مـشـتمـلـ عـلـىـ مـصـلـحةـ أـوـجـهـهـ

مـنـ جـهـاتـ الـخـيـرـ وـالـنـفـعـ حـتـىـ يـعـزـلـ عـنـ رـبـوـيـتـهـ وـمـوـلـوـيـتـهـ وـيـعـودـ زـمـامـ الـأـمـرـ وـالـتـأـثـيرـ إـلـىـ

الـمـاصـالـحـ وـالـجـهـاتـ ، وـهـيـ الـتـيـ تـنـتـهـيـ إـلـىـ خـلـقـهـ وـجـعـلـهـ كـسـائـرـ الـأـشـيـاءـ مـنـ غـيرـ فـرقـ .

فـيـجـملـةـ مـاـتـدلـ عـلـيـهـ آـيـاتـ الـقـصـةـ أـنـ إـبـلـيـسـ إـنـمـاـ عـصـىـ وـاسـتـحـقـ الرـجـمـ بـالـتـكـبـرـ

عـلـىـ اللـهـ فـيـ عـدـمـ اـمـتـشـالـ أـمـرـهـ ، وـأـنـ الـذـيـ أـظـهـرـ بـهـ تـكـبـرـهـ هـوـ قـوـلـهـ : «أـنـاـخـيـرـ مـنـهـ» وـقـدـ

تـكـبـرـ فـيـهـ عـلـىـ رـبـهـ كـمـاـ تـقـدـمـ بـيـانـهـ وـإـنـ كـانـ ذـلـكـ تـكـبـرـاـ مـنـهـ عـلـىـ آـدـمـ حـيـثـ إـنـهـ فـضـلـ

نـفـسـهـ عـلـيـهـ وـاسـتـصـغـرـ أـمـرـهـ وـقـدـ خـصـهـ اللـهـ بـنـفـسـهـ وـأـخـبـرـهـ بـأـنـهـ أـشـفـ مـنـهـمـ فـيـ حـدـيـثـ الـخـلـافـةـ

وفي قوله : « ونفخت فيه من روحِي » وقوله : « خلقت بيديّ » إِلَّا أَنَّ العناية في الآيات باستكباره على الله لا استكباره على آدم .

ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ قَلَنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا أَبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » الكهف : ٥٠ حيث لم يقل : فاستنكف عن الخضوع لآدم بل إنما ذكر الفسق عن أمر ربّه تعالى .

فتلخيص أنّ آيات القصة إنما تتعنت بمسألة استعلانة على ربّه ، وأمّا استكباره على آدم وما احتاج به على ذلك فذلك من المدلول عليه بالتبّع ، والظاهر أنّه هو السرّ في عدم التعرّض للجواب عن حجّته صريحاً إِلَّا ما يؤمّي إليه بعض أطراف الكلام كقوله : « خلقت بيديّ » وقوله : « ونفخت فيه من روحِي » وغير ذلك .

فإن قلت : القول بكون الأمر بالسجود تكوينياً ينافي ماتنصّ عليه الآيات من معصية إِبْلِيس فإنّ القابل للمعصية والمخالفة إنما هو الأمر التشريعيّ وأمّا الأمر التكوينيّ فلا يقبل المعصية والتمرّد البتّة فإنه كلمة الإيجاد الذي لا يختلف عنه الوجود قال : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » النحل - ٤٠ .

فقلت : الذي ذكرناه آنفاً أنّ القصة بما تشتمل عليه بصورةها من الأمر والامتثال والتمرّد والطرد وغير ذلك وإن كانت تتشبّه بالقضايا الاجتماعية المألوفة فيما بيننا لكنّها تتحكّي عن جريان تكويني في الروابط الحقيقة التي بين الإنسان والملائكة وإِبْلِيس فهي في الحقيقة تبيّن ما عليه خلق الملائكة وإِبْلِيس وهما من بطن الإنسان ، وما تقتضيه طبائع القبيلين بالنسبة إلى سعادة الإنسان وشقائه ، وهذا غير كون الأمر تكوينياً .

فالقصة قصة تكوينية مثّلت بصورة تألفها من صور حياتنا الدنيوية الاجتماعية كملك من الملوك أُقبل على واحد من عامّة رعيته ملائكة منه كمال الاستعداد و تمام القابلية فاستخلصه لنفسه وخصّه بمزيد عناته ، وجعله خليفة في مملكته مقدّماً له على خاصته من حوله فأمرهم بالخضوع مقامه و العمل بين يديه فلبّاه في دعوته وامتثال أمره جمع منهم ، فرضي عنهم بذلك وأقرّهم على مكانتهم ، واستكبار بعضهم فخطّا الملك في أمره فلم يتمثله معتلاً بأنّه أشرف منه جوهرًا و أغزر عملاً فغضب عليه وطرده عن نفسه وضرب عليه الذلة

والصغار لأنّ "الملك إنّما يطاع لأنّه ملك بيده زمام الأمر وإليه إصدار الفرمانين والدستoirs ، وليس يطاع لأنّ" ما أمر به يطابق المصلحة الواقعية فـ إنّما ذلك شأن الناصح الهادي إلى الخير والرشد .

وبالتأمل في هذا المثل ترى أنّ خاصّة الملك - أعمّ من المطيع والعاصي - كانوا متّفقين قبل صدور الأمر في منزلة القرب مستقرّين في مستوى الخدمة وحظيرة الكرامة من غير أيّ تميّز بينهم حتّى أتاهم الأمر من ذي العرش فينشبع الطريق عند ذلك إلى طريقين ويترافقون طائفتين : طائفة مطيعة مؤتمرة ، وأخرى عاصية مستكبرة وتطهّر من الملك بذلك سجایا الكامنة ووجوه قدرته وصور إرادته من رحمة وغضب وتقريب وتبعيد وعفو ومغفرة وأخذوا انتقاماً وعد ووعيد وثواب وعقاب ، والحوادث كالمحك يظهر باختصار جوهر الفلز" ماعنده من جودة أوردة .

قصة سجود الملائكة وأباء أبيليس تشير إلى حقائق تشابه بوجه ما يتضمّنه هذا المثل من الحقائق والأمر بالسجدة فيها تشريفه تعالى آدم بقرب المنزلة ونعمّة الخلافة وكرامة الولاية تشريفاً أخضّع له الملائكة وأبعد منه أبيليس مضادةً جوهره السعادة الإنسانية فصار يفسد الأمر عليه كلاماً مسّه ، ويغويه إذا اقترب منه كتب عليه أنه من تولّه فأنّه يضلّه .

وقد عبَّر الله سبحانه عن إفراذه أمر التكوين في مواضع من كلامه بلفظ الأمر أو ما يشبه ذلك كقوله : « فقال لها وللأرض ائتها طوعاً أو كرهاً قالتا أتيتنا طائعين » حم السجدة : ١١ ، قوله : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّهَا » الأحزاب : ٧٢ وأشمل من الجميع قوله : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » يس : ٨٢ .

فإن قلت : رفع اليدين عن ظاهر القصة وحملها على جهة التكوين المحضة يوجب التشابه في عامة كلامه تعالى ، ولا مانع حينئذ يمنع من حمل معارف المبدء والمعاد بل والقصص وال عبر والشائع على الأمثال ، وفي تجويز ذلك إبطال للدين .

قلت : إنّما المتّبع هو الدليل فربما دل على ثبوتها وعلى صراحتها ونصوصيتها
كالمعارف الأصلية والاعتقادات الحقة وقصص الأنبياء والأمم في دعواتهم الدينية والشرع
والأحكام وما تستتبعه من الثواب والعقاب ونظائر ذلك ، وربما دل الدليل وقامت شواهد
على خلاف ذلك كما في القصة التي نحن فيها ، ومثل قصة الذر عرض الأمانة وغير ذلك
مما لا يستوعب إنكار ضروري من ضروريات الدين ، ولا يخالف آية محكمة ولا سنة قائمة
ولا برهاناً يقينياً .

والذى ذكره إبليس في مقام الاحتجاج : «أنا خير منه خلقتي من نار وخلقته من
طين» من القياس وهو استدلال ظنّي لا يعبأ به في سوق الحقائق ، وقد ذكر المفسرون وجوهاً
كثيرة في الرد عليه لكنك عرفت أن القرآن لم يعن بأمره ، وإنّما آخذ الله إبليس
باستكباره عليه في مقام ليس له فيه إلا الانقياد والتذلل ، ولذلك أغمضنا عن التعرّض لما
ذكروه .

قوله تعالى : «قال اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخْرُج إِنَّك من
الصاغرين» التكبر هوأخذ إلا إنسان مثلاً الكبر لنفسه وظهوره بمعنى غيره فإنّ الكبر و
الصغر من الأمور الإضافية ، ويستعمل في المعاني غالباً فإذا أظهر الإنسان بقول أو فعل
أنّه أكبر من غيره شرفاً أو جاهًا أو نجواً لك فقد تكبر عليه وعده صغيراً ، وإذا كان لأشرف
ولا كرامة لشيء على شيء إلا ما شرّفه الله وكرمه كان التكبر صفة مذمومة في غيره
تعالى على الإطلاق إذ ليس ما سواه تعالى إلا الفقر والذلة في أنفسهم من غير فرق بين
شيء وشيء ولا كرامة إلا بالله ومن قبله ، فليست لأحد من دون الله أن يتکبر على أحد ، و
إنّما هو صفة خاصة بالله سبحانه فهو الكبير المتعال على الإطلاق فمن التكبر ما هو حق
محمود وهو الذي لله عزّ اسمه أو ينتهي إليه بوجه التكبر على أعداء الله الذي هو في
الحقيقة اعزّ بالله ، ومنه ما هو باطل مذموم وهو الذي يوجد عند غيره بدعوى الكبر
لنفسه لا بالحق» .

و «الصاغرين» جمع صاغر من الصغار وهو الهوان والذلة ، والصغار في المعاني كالصغر
في الصور ، و قوله : «فاخْرُج إِنَّك من الصاغرين» تفسير وتأكييد لقوله : «فاحبظ منها»

لأنّ الهبوط هو خروج الشيء من مستقره نازلاً، فيدل ذلك على أنّ الهبوط المذكور إنما كان هبوطاً معنوياً لا نزولاً من مكان جسماني إلى مكان آخر، ويتأيد به ما تقدم أنّ مرجع الضمير في قوله : « منها » و قوله : « فيها » هو المنزلة دون السماء أو الجنة إلا أن يرجعا إلى المنزلة بوجه.

و المعنى : قال الله تعالى : فتنزل عن منزلتك حيث لم تسجد طأ أمرتاك فإنّ هذه المنزلة منزلة التذلل والانقياد لي فيما يحق لك أن تتکبر فيها فاخراج إنك من الصاغرين أهل الهوان ، وإنما أخذ بالصغر ليقابل به التكبر .

قوله تعالى : « قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين » استمهال و إمهال ، وقد فصل الله تعالى ذلك في موضع آخر بقوله : « قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فـ إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » الحجر : ٣٨ ، ص ٨١ ، ومنه يعلم أنه أمهل بالتقىد لا بالطلاق الذي ذكره فلم يمهل إلى يوم البعث بل ضرب الله ملهاته أحلا دون ذلك وهو يوم الوقت المعلوم ، وسيجيئ الكلام فيه في سورة الحجر إن شاء الله تعالى . فقوله تعالى : « إنك من المنظرين » إنما يدل على إجحاف ما أمهل به ، وفيه دلالة على أنّ هناك منظرين غيره .

واستمهاله إلى يوم البعث يدل على أنه كان من همه أن يديم على إغواء هذا النوع في الدنيا وفي البرزخ بجيعاً حتى تقوم القيمة فلم يعجبه الله سبحانه إلى ما استدعاه بل لعله أجابه إلى ذلك إلى آخر الدنيا دون البرزخ فلا سلطان له في البرزخ سلطان الإغواء والوسوسة وإن كان ربّما صحب الإنسان بعد موته في البرزخ مصاحبة الزوج والقرين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقىض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيسي و بينك بعد المشرقين فليس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » الزخرف : ٣٩ ، وظاهر قوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » الصافات : ٢٢ .

قوله تعالى : « قال فيما أغويتني لا أُعدن لهم صراطك المستقيم ثم لا آتینهم من بين أيديهم ومن خلفهم » إلى آخر الآية . الإغواء هو البقاء في الغي والغي و الغواية هو

الضلال بوجه والهلاك والخيبة، والجملة أعني قوله : «أغويني» وإن فسر بكل من هذه المعانى على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى في سورة الحجر فيما حکاه عنه : «قال رب بما أغويتني لازمن لهم في الأرض ولا غوى نسبيهم أجمعين» يؤيد أن مراده هو المعنى الأول ، والباء في قوله : «فبما» للسببية أو المقابلة ، والمعنى : فبسبب إغواك إياي أوفي مقابلة إغواك إياي لا قعدن لهم الخ ، وقد أخطأ من قال إنها للقسم وكأن القائل أراد أن يطبقه على قوله تعالى في موضع آخر حكاية عنه : «قال فبغزتك لا غوى نسبيهم أجمعين» ص ٨٢ .

وقوله : «لَا قَدْنَ لَهُمْ صِرَاطُكُ الْمُسْتَقِيمُ» أي لاجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السوي الذي يوصلهم إليك وينتهي بهم إلى سعادتهم لأن الجميع سائرون إليك سالكون لاحالة مستقيم صراطك فالعود على الصراط المستقيم كناءة عن التزامه والترصد لعابريه ليخر جهنم منه .

وقوله : «ثُمَّ لَا تَبْنِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» بيان ما يصنعه بهم وقد كمن لهم قاعداً على الصراط المستقيم ، وهو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربع .

وإذ كان الصراط المستقيم الذي كمن لهم قاعداً عليه أمرأ معنوياً كافٍ للجهات التي يأطيهم منها معنوية لاحسنية والذي يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذه الجهات كقوله تعالى : «يَعْدُهُمْ وَيَمْنَيْهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» النساء : ١٢٠ ، وقوله : «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يَخْوُفُ أُولَئِكَ» آل عمران : ١٧٥ وقوله : «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتَ الشَّيْطَانِ» البقرة : ١٦٨ ، وقوله : «الشَّيْطَانُ يَعْدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ» البقرة : ٢٦٨ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة هو أن المراد مما بين أيديهم ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال والأمانة من الأمور التي تهواه النفوس وتنسلذه الطبع ، وما يكرهه الإنسان ويختلف نزوله به كالفرق يخاف منه لو أنفق المال في سبيل الله أو ذم الناس ولو لم يرهم لورد سبيلاً من سبل الخير والثواب .

والمراد بخلافهم ناحية الأولاد والأعقاب فللامسان فيمن يخالفه بعده من الأولاد

آمالُ وأمانٍ ومخاوف ومكاره فما يخيل إلَيْهَا نَهَى يبقى بِقَائِمِهِ فَيُسَرُّهُ مَا يَسِّرَهُ وَيُسوِّعُهُ مَا يَسُوِّعُهُمْ فَيُجْمِعُ الْمَالَ مِنْ حَالَتِهِ وَحِرَامَهُ لِأَجْلِهِمْ ، وَيُعَدِّهِمْ مَا اسْتَطَاعُ مِنْ قُوَّةٍ فِيهِمْ لَكَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ حَيَاةِهِمْ .

وَالْمَرَادُ بِالْيَمِينِ وَهُوَ الْجَانِبُ الْقَوِيُّ الْمِيمُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ نَاحِيَةُ سَعَادَتِهِمْ وَهُوَ الدِّينُ ، وَإِيَّاهُ مِنْ جَانِبِ الْيَمِينِ أَنْ يَزِينَ لَهُمُ الْمُبَالَغَةَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الْدِينِيَّةِ ، وَالتَّكَلُّفُ بِمَا لَمْ يَأْمُرُهُمْ بِهِ اللَّهُ وَهُوَ الَّذِي يَسْمِيهِ اللَّهُ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ خُطُوطَ الشَّيْطَانِ .

وَالْمَرَادُ بِالشَّمَالِ خَلْفُ الْيَمِينِ ، وَإِيَّاهُ مِنْهُ أَنْ يَزِينَ لَهُمُ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى ارْتِكَابِ الْمُعَاصِي وَاقْتِرَافِ الذُّنُوبِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ .

قال الرَّحْمَنِيُّ فِي الْكَشَافِ : فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ قِيلَ : « مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » بِحِرْفِ الْأَبْتِداءِ ، وَ« عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ » بِحِرْفِ الْمُجَاوِزَةِ ؟ قُلْتَ : الْمُفْعُولُ فِيهِ عَدِيٌّ إِلَيْهِ الْفَعْلُ نَحْوُ تَعْدِيَتِهِ إِلَى الْمُفْعُولِ بِهِ فَكَمَا اخْتَلَفَ حُرُوفُ الْمُتَعْدِيَّةِ فِي ذَاكَ اخْتَلَفَ فِي هَذَا وَكَانَ لِغَةً تَؤْخُذُ لَا تَقْاسِ ، وَإِنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ صَحَّةِ مَوْقِعِهَا فَقَطَ .

فَلَمَّا سَمِعُنَاهُمْ يَقُولُونَ : جَلَسُوا عَنْ يَمِينِهِ وَعَلَى يَمِينِهِ وَجَلَسُوا عَنْ شَمَالِهِ وَعَلَى شَمَالِهِ قُلْنَا : مَعْنَى عَلَى يَمِينِهِ أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ جَهَةِ الْيَمِينِ تَمَكَّنَ الْمُسْتَعْلِي مِنْ الْمُسْتَعْلِي عَلَيْهِ ، وَمَعْنَى عَنْ يَمِينِهِ أَنَّهُ جَلَسَ مُتَجَافِيًّا عَنْ صَاحِبِ الْيَمِينِ مُنْحَرِفًا عَنْهُ غَيْرِ مَلَاصِقٍ لَهُ ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِي الْمُتَجَافِيِّ وَغَيْرِهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي « تَعَالَى ». انتهى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » نَتْبِعْجَةً مَا ذَكَرَهُ مِنْ صَنْعِهِ بِهِمْ بِقَوْلِهِ : « لَا قَعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكُمُ الْمُسْتَقِيمُ ثُمَّ لَا يَنْتَهُمْ » الْخَ وَقَدْ وُضِعَ فِيمَا حَكَاهُ اللَّهُ مِنْ كَلَامِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بَدَلَ هَذِهِ الْجَمْلَةَ أَعْنِي « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » بِجَمْلَةِ أُخْرَى قَالَ : « قَالَ أَرَايْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيْيَ » لِئَنْ أَخْرَتْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا حَتَّى تَكُنْ ذَرِيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا » أَسْرَى : ٦٦ فَاسْتَشْتَنَى مِنْ وَسْوَسَتَهُ وَإِغْوَائِهِ الْقَلِيلِ مَطَابِقًا مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَقَالَ : « لَا غَوِيبَنَّهُمْ أَجْعَنِينَ إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصُونَ » الْحِجَرُ : ٤٠ ، صَ : ٨٣ .

وَمِنْهُ يَظْهُرُ أَنَّهُ إِنَّمَا عَنِي بِالشَاكِرِينَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمُخْلِصِينَ ، وَالْتَّأْمِلُ الْدِقِيقُ فِي مَعْنَى الْكَلْمَتَيْنِ يَرْشَدُ إِلَى ذَلِكَ فَانَّ الْمُخْلِصِينَ - بِفَتْحِ الْلَّامِ - هُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا اللَّهَ

سبحانه فلا يشار كه فيهم أى في عبوديتهم وعبادتهم سواه ، ولا نصيب فيهم لغيره ، ولا يذكرون إلّا ربّهم وقد نسوا دونه كلّ شيء حتى أنفسهم فليس في قلوبهم إلّا هو سبحانه، ولا موقف فيهم للشيطان ولا لتزكياته .

والشاكرون هم الذين استقرّت فيهم صفة الشكر على الإطلاق فلا يمسّون نعمة إلّا بشكر أى بآن يستعملوها وينصرّفوا فيها قولًا أو فعلًا على نحو يظهرون به أنّهم من عند ربّهم المنعم بها عليهم فلا يقبلون على شيء - أعمّ من أنفسهم وغيرهم - إلّا وهم على ذكر من ربّهم قبل أن يمسّوه ومعه وبعده ، وأنّه ملوك له تعالى طلاقاً ليس له من الأمر شيء فذكراهم ربّهم على هذه الورقة ينسفهم ذكر غيره إلّا بالله ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

فلو أعطي المفظ حقّ معناه لكان الشاكرون هم المخلصين ، واستثناء إبليس الشاكرين أو المخلصين من شمول إغواهه وإضلاله جرى منه على حقيقة الأمر اضطراراً ولم يأت به جزافاً أو امتناناً علىبني آدم أورحمة أو لغير ذلك .

فيهذا ما واجه إبليس به مصدر العزة والعظمة أعني قوله : « فيما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم - إلى قوله - ولا تجد أكثرهم شاكرين » فأخبر أنه يقصدهم من كلّ جهة ممكنة ، ويفسد الأمر على أكثرهم بإخراجهم عن الصراط المستقيم ، ولم يبيّن نحو فعله وكيفيّة صنعه .

لكنّ في كلامه إشارة إلى حقيقتين : إحداهما : أنّ الغواية التي تمكّنت في نفسه وهو ينسبها إلى صنع الله هي السبب لا إضلاله وإغواهه لهم أى أنه يمسّهم بنفسه الغوية فلا يودع فيهم إلّا الغواية كالنار التي تمّسّ أطاء بسخونتها فتسخّنه ، وهذه الحقيقة ظاهرة من قوله تعالى : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم - إلى أن قال - وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين - إلى أن قال - فأغوييناكم إنّا كنّا غاوين » الصافات : ٣٢ .

والثانية : أنّ الذي يمسّه الشيطان منبني آدم - وهو نوع عمله وصنعه - هو الشعور الإنساني وتفكيره الحيوي المتعلق بتصورات الأشياء والتصديق بما ينبغي فعله

أولاً ينبغي ، وسيجيء تفصيله في الكلام في أبليس و عمله .

قوله تعالى : « قال اخرج منها مذئماً مدحوراً من تبعك » الخ المذئم من ذامه يذامه ويذيمه إذا عابه وزمه ، والمدحور من دحره إذا طرد ودفعه بهوان .

قوله : « من تبعك منهم » الخ اللام للقسم وجوابه هو قوله : « لأملأن جهنّم » الخ لما كان مورد كلام أبليس - وهو في صورة التهديد بالانتقام - هوبني آدم وأنه سيطر على عرض الخلقة فيهم وهو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم وبه فقال : « من تبعك منهم » مجازة لكلامه ثم قال : « لأملأن جهنّم منكم أبعين » أي منك ومنهم فأشعر كه في الجزاء معهم .

وقد امتن تعالى في كلمته هذه التي لابد أن تتم فلم يذكر جميع من تبعه بل أتى بقوله : « منكم » وهو يفيد التبعيض .

قوله تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة إلى آخر الآية . خص بالخطاب آدم عليهما السلام وأحق به في الحكم زوجته ، وقوله : « فكلا من حيث شئتم » توسيعة في إباحة التصرف إلا ما استثناه بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » والظلم هو الظلم على النفس دون معصية الأمر المولوي فإن الأمر إرشادي .

قوله تعالى : « فوسوس لهم الشيطان » إلى آخر الآية . الوسوسه هي الدعاء إلى أمر بصوت خفي ، والمطواراة ستر الشيء بجعله وراء ما يستره ، والسوآء جمع السوء وهي العضو الذي يسوء الإنسان إظهاره والكشف عنه ، وقوله : « مانها كما ربّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين » الخ أي إلا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

وأملك وإن قرئ بفتح اللام إلا لأن فيه معنى الملك - بالضم فالسكون - والدليل عليه قوله في موضع آخر : « قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يليلي » طه : ١٢٠ .

ونقل في المجمع عن السيد امتحن رحمه الله احتمال أن يكون المراد بقوله : « إلا أن يكونا ملكين » الخ أنه أو همما أن المنهي عن تناول الشجرة الملائكة خاصة و

الخالدون دونهما فيكون كما يقول أحدنا الغيره : مانهيت عن كذا إلا أن تكون فلاناً ، و إنما يريد أن المنهي إنما هو فلان دونك ، وهذا أو كدفي الشبهة واللبس عليهمما (انتهى) لكن آية سورة طه المنشورة آنفًا تدفعه .

قوله تعالى : «وَقَاتِلُهُمْ إِنِّي لِكُمَا مِنَ النَّاصِحِينَ» المقادمة المبالغة في القسم أي حلف لهم وأغلظ في حلفه أنه لهم من الناصحين ، والنصح خلاف العرش .

قوله تعالى : «فَدَلَّهُمَا بِغَرْوَرٍ» إلى آخر الآية . التدليل التقريب والإ يصل كما أن التدلي الدنو والاسترسال ، وكأنه من الاستعارة من دلوت الدلو أي أرسلتها ، و الغرور إظهار النصح مع إبطان العرش ، والخصف الضم والجمع ، ومنه خصف النعل .

وفي قوله : «وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهِكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ» دلالة على أنهم عند توجيه هذا الخطاب كانوا في مقام البعد من ربهم لأن النداء هو الدعاء من بعد ، و كذا من الشجرة بدليل قوله : «تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ» بخلاف قوله عند أول ورودهما الجنة : «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةِ» .

قوله تعالى : «فَلَا رَبَّنَا ظلمَنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْجِنَا لَنَا كُونَنَا» من الخاسرين» هذا منها نهاية التذلل والإبهال ، ولذلك لم يسأل شيئاً وإنما ذكر حاجتهم إلى المغفرة والرحمة وتهديد الخسران الدائم المطلق لهم حتى يشاء الله ما يشاء .

قوله تعالى : «قُلْنَا اهْبَطُوا بِعِضْكُمْ لِبَعْضِ عَدُوٍّ» إلى آخر الآية ، كان الخطاب لآدم وزوجته وإبليس ، وعداؤه بعضهم البعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم ، وهذا قضاء منه تعالى والقضاء الآخر قوله : «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» أي إلى آخر الحياة الدنيا ، وظاهر السياق أن الخطاب الثاني أيضاً يشترك فيه الثلاثة .

قوله تعالى : «قَالَ فِيهَا حَيُونٌ وَفِيهَا تَمَوَّنٌ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ» قضاء آخر يوجب تعلقهم بالأرض إلى حين البعث ، وليس من بعيد أن يختص هذا الخطاب بآدم وزوجته وبنيهما ، لما فيه من الفصل بلغة «قال» وقد مر تفصيل الكلام في قصة الجنة في سورة البقرة فليراجعها من شاء .

* كلام في إبليس و عمله *

عاد موضوع «إبليس» موضوعاً مبتذلاً عندنا لا يعبأ به دون أن نذكره أحياناً ونلعنه أو ننحوه بالله منه أو نقبح بعض أفكارنا بأنها من الأفكار الشيطانية ووساوسيه ونزعاته دون أن نتدبر فنحصل ما يعطيه القرآن الكريم في حقيقة هذا الموجود العجيب الغائب عن حواسنا ، وما له من عجيب التصرف والولاية في العالم الإنساني .

وكيف لا وهو يصاحب العالم الإنساني على سعة نطاقه العجيبة منذ ظهر في الوجود حتى ينقضي أجله وينقرض بانطواء بساط الدنيا ثم يلازمه بعد الممات ثم يكون قرينه حتى يورده النار الخالدة ، وهو مع الواحد منا كما هو مع غيره هومعه في علانيته وسره يجاريه كلما جرى حتى في أخفي خيال يتخيّله في زاوية من زوايا ذهنه أو فكرة تواريها في مطاوي سريرته لا يحججه عنه حاجب ، ولا يغفل عنه بشغل شاغل .

وأما الباحثون منا فقد أهملوا البحث عن ذلك وبنوا على ما بني عليه باحثوا الصدر الأول سالكين ما خطّوا لهم من طريق البحث ، وهي النظريات الساذجة التي تلوح للأفهام العامة لأول مرة تلقوا الكلام الإلهي ثم التخاصم في ما يهتمي إليه فهم كل طائفة خاصة ، والتحصّن فيه ثم الدفاع عنه بأنواع الجدال ، والاستغلال بإحصاء إشكالات القصة وتقرير السؤال والجواب بالوجه بعد الوجه .

لم خلق الله إبليس وهو يعلم من هو ؟ لم أدخله في جمع الملائكة وليس منهم ؟ لم أمره بالسجدة وهو يعلم أنه لا يأمر ؟ لم لم يوفّقه للمسجدة وأغواه ؟ لم لم يهلكه حين لم يسجد ؟ لم أنظره إلى يوم يعيشون أو إلى يوم الوقت المعلوم ؟ لم مكنه من بني آدم هذا التمكين العجيب الذي به يجري منهم مجرى الدم ؟ لم أيده بالجنود من خيل ورجل وسلطه على جميع ماللحياة الإنسانية به مساس ؟ لم لم يظهره على حواس الإنسان ليحتقر مساسه ؟ لم لم يؤيد الإنسان بمثل ما أيد به ؟ ولم لم يكتم أسرار خلفه آدم وبنيه من إبليس حتى لا يطبع في إغواههم ؟ وكيف جازت المشافهة بينه وبين الله سبحانه

و هو أبعد الخليقة منه وأبغضهم إليه ولم يكن بنبيٍّ ولا ملك ؟ فقيل : بمعجزة وقيل :
بأيجاد آثار تدل على المراد ، ولا دليل على شيء من ذلك .

ثم كيف دخل إبليس الجنة ؟ وكيف جاز وقوع الوسوسة والكذب والمعصية هناك
وهي مكان الطهارة والقدس ؟ وكيف صدّقه آدم وكان قوله مخالفًا لخبر الله ؟ وكيف طمع
في الملوك والخلود وذلك يخالف اعتقاد المعاد ؟ وكيف جازت منه المعصية وهو نبيٌّ معصوم ؟
وكيف قبلت توبته ولم يرد إلى مقامه الأول والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؟ وكيف .. ؟
وكيف .. ؟

وقد بلغ من إهمال الباحثين في البحث الحقيقى واسترسالهم في الجدال إشكالاً
وجواباً أن ذهب الذاهب منهم إلى أن المراد بأدم هذا آدم النوعي والقصة تخيلية محسنة ،
واختار آخرون أن إبليس الذي يخبر عنه القرآن الكريم هو القوة الداعية إلى الشر
من الإنسان ! .

وذهب آخرون إلى جواز انتساب القبائح والشائعات إليه تعالى وأن جميع المعااصي من
فعله ، وأنه يخلق الشر والقبيح فيفسد ما يصلحه ، وأن الحسن هو الذي أمر به والقبيح
هو الذي نهى عنه ، وآخرون : إلى أن آدم لم يكن نبياً ، وآخرون : إلى أن الأنبياء
غير معصومين مطلقاً ، وآخرون : إلى أنهم غير معصومين قبلبعثة وقصة الجنة قبلبعثة
آدم ، وآخرون : إلى أن ذلك كلّه من الإمتحان والاختبار ولم يدينوا ما هو ملوك الحقيقي
في هذا الامتحان الذي يضل به كثيرون ويهلك به الآكثرون ، ولو لا وجود ملوك يحسم
مادة الإشكال لعادت الإشكالات بأجمعها .

والذي يمنع نجاح السعي في هذه الأبحاث ويختلّ به نتائجها هو أنهم لم يفرّقوا
في هذه المباحث جهاتها الحقيقة من جهاتها الاعتبارية ، ولم يفصلوا التكوين عن التشريع
فاختل بذلك نظام البحث ، وحكموا في ناحية التكوين غالباً الأصول الوضعية الاعتبارية
الحاكمة في التشريعيات والاجتماعيات .

والذي يجب تحريره وتنقيحه على الحرّ الباحث عن هذه الحقائق الدينية المرتبطة
بجهات التكوين أن يتحرر جهات :

الأولى : أنَّ وجود شيءٍ من الأشياء التي يتعلّق بها الخلق والإيجاد في نفسه - أعني وجوده النفسيٌّ من غير إضافة - لا يكون إلَّا خيراً ولا يقع إلَّا حسناً ، فلو فرض مثلاً تعلّق الخليقة بما فرض شرًّا في نفسه عاد أمراً موجوداً له آثار وجودية ينتهي من الله ويرتّب برقه ثم ينتهي إلَيْه فيحاله حال سائر الخليقة ليس فيه أثر من الشر والقبح إلَّا أن يربط وجوده بغيره فيفسد نظاماً عادلاً في الوجود أو يوجب حرمان جمّع من الموجودات من خيرها وسعادتها ، وهذه هي الإضافة المذكورة .

ولذلك كان من الواجب في الحكمة الإلهية أن ينتفع من هذه الموجودات المفترضة الوجود بما يربو على مضرّتها وذلك قوله تعالى : «الذِّي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» السجدة : ٧ ، وقوله : «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» الأعراف ٥٤ : وقوله : «وَإِنْ مَنْ شَيْءٌ إلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكُنْ لَا تَفْقِهُونَ تَسْبِيحُهُمْ» أسرى : ٤٤ .

والثانية : أنَّ عالم الصنع والإيجاد على كثرة أجزاءه وسعة عرضه مرتّب بعضه ببعضه البعض معطوف آخره إلى أوله فإذا إيجاد بعضه إنما هو بإيجاد الجميع ، وإصلاح الجزء إنما هو بإصلاح الكل فالاختلاف الموجود بين أجزاء العالم في الوجود وهو الذي صير العالم عالماً ثم ارتبطها يستلزم استلزماماً ضرورياً في الحكمة الإلهية نسبة بعضها إلى بعض بالتنافي والتضاد أو بالكمال والنقص والوجدان والفقدان والنيل والحرمان ، ولو لا ذلك عاد جميع الأشياء إلى شيء واحد لا تميّز فيه ولا اختلاف ويبطل بذلك الوجود قال تعالى : «وَمَا أَمْرَنَا إلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَحٌ بِالْبَصَرِ» القمر : ٥٠ .

فلولا الشر والفساد والتعب والفقدان والنقص والضعف وأمثالها في هذا العالم لما كان للخير والصيحة والراحة والوجдан والكمال والقوّة مصداق ، ولا عقل منها معنى لأنما إنما نأخذ المعاني من مصاديقها .

ولولا الشقاء لم تكن سعادة ، ولولا المعصية لم تتحقق طاعة ، ولو لا القبح والذم لم توجد حسن ولا مدح ، ولو لا العقاب لم يحصل ثواب ، ولو لا الدنيا لم تتكون آخرة .

فالطاعة مثلاً امتحان الأمر المولوي فلو لم يمكن عدم الامتحان الذي هو المعصية لكن الفعل ضروريًا لازماً ، ومع لزوم الفعل لا معنى للأمر المولوي لامتناع تحصيل الم hasil ، ومع عدم الأمر ملولي لا مصداق للطاعة ولا مفهوم لها كما عرفت .
ومع بطلان الطاعة والمعصية يبطل المدح والذم المتعلق بهما والثواب والعقاب والوعد والوعيد والإذار والتبيشير ثم الدين والشريعة والدعوة ثم النبوة والرسالة ثم الاجتماع والمدنية ثم الإنسانية ثم كل شيء ، وعلى هذا القياس جميع الأمور المقابلة في النظام . فففهم ذلك .

ومن هنا ينكشف لك أن وجود الشيطان الداعي إلى الشر والمعصية من أركان نظام العالم الإنساني الذي إنما يجري على سنة الاختيار ويقصد سعادة النوع .
وهو كالحاشية المكتنفة بالصراط المستقيم الذي في طبع هذا النوع أن يسلكه كادحًا إلى ربّه ليلاقيه ، ومن المعلوم أن الصراط إنما يتبعه صراطاً بالحاشية الخارجة عنه الحافة به فلو لا الطرف لم يكن وسط فافهم ذلك وتذكري قوله تعالى : « قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم » الأعراف : ١٦ ، قوله « قال : هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتباعك من الغاوين » البجر : ٤٢ .

إذا تأملت في هاتين الجهتين ثم تدبرت آيات قصة السجدة وجدتها صورة منبئه عن الروابط الواقعية التي بين النوع الإنساني والملائكة وإبليس عبر عنها بالأمر والامتحان والاستكبار والطرد والرجم والسؤال والجواب ، وأن جميع الإشكالات الموردة فيها ناشئة من التفريط في تدبر القصة حتى أن بعض (١) من تنبئه لو جه الصواب وأنها تشير إلى ما عليه طبائع الإنسان والملك والشيطان ذكر أن الأمر والنهي - يزيد أمر إبليس بالسجدة وهي آدم عن أكل الشجرة - تكوينيـان فأفسد بذلك ما قد كان أصلحه ، وذهل عن أن الأمر والنهي التكوينيـين لا يقبلان التخلف والمخالفة ، وقد خالف إبليس الأمر وخالـف آدم النهي .

الثالثة : أن قصة الجنـة مدلوـلـها - على ما تقدـم تفصـيلـ القـولـ فيهاـ فيـ سـورـةـ الـبـقـرةـ -

(١) صاحب المنار في المجلد ٨ من التفسير تحت عنوان « الاشكالات في القصة »

ينبئ عن أنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَنَّةً بِرْزَخِيَّةً سَمَاوِيَّةً، وَأَدْخَلَ آدَمَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ الْأَرْضِيَّةُ، وَيَغْشَاهُ التَّكْلِيفُ الْمُولُوِيُّ لِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الطَّبَاعَ الْإِنْسَانِيِّ فَيُظَهِّرَ بِهِ أَنَّ إِنْسَانًا لَا يَسْعُهُ إِلَّا أَنْ يَعِيشَ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَتَرَبَّى فِي حِجْرِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَيَسْتَحِقُ السَّعَادَةَ وَالْجَنَّةَ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَدُونَ ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَطِعُ إِنْسَانًا أَنْ يَقْفَ في مَوْقِفِ الْقُرْبِ وَيَنْزَلَ فِي مَنْزِلِ السَّعَادَةِ إِلَّا بِقْطَعِ هَذَا الْطَّرِيقِ.

وَبِذَلِكَ يَنْكِشِفُ أَنَّ لِمَجْرِيِّ لَشِيءٍ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ الَّتِي أُورْدُوهَا فِي قَصَّةِ الْجَنَّةِ فَلَا الْجَنَّةُ كَانَتْ جَنَّةً الْخَلْدِ الَّتِي لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا وَلِيَّ مِنْ أُولَيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى دُخُولًا لَا خَرُوجَ بَعْدِهِ أَبْدًا، وَلَا الدَّارُ كَانَتْ دَارًا دُنْيَوِيًّا يَعَاشُ فِيهَا عِيشَةُ دُنْيَوِيَّةٍ يَدِيرُهَا التَّشْرِيعُ وَيَحْكُمُ فِيهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُولُوِيَّانِ بَلْ كَانَتْ دَارًا يَظْهِرُ فِيهَا حُكْمُ السُّبْحَانِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا سُبْحَانِيَّةَ آدَمَ تَلْكِيلًا بِمَا هُوَ شَخْصٌ آدَمٌ إِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِالسُّجْدَةِ لَهُ وَلَا أَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ كَمَا تَقَدَّمَ بِيَانِهِ .

رجعنا إلى أول الكلام :

لَمْ يَصُفِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَاتِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الشَّرِيرِ الَّذِي سَمَّاهُ إِبْلِيسُ إِلَّا يَسِيرًا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » الْكَهْفُ : ٥٠ ، وَمَا حَكَاهُ عَنْهُ فِي كَلَامِهِ : « خَلَقْتِي مِنْ نَارٍ فَبَيْنَ أَنْ بَدَأْ خَلْقَتِهِ كَانَ مِنْ نَارٍ مِنْ سَنْعَ الْجِنِّ وَأَمْمًا مَا الَّذِي آتَى إِلَيْهِ أَمْرَهُ فَلَمْ يَذَكُرْهُ صَرِيحًا كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَذَكُرْ تَفْصِيلَ خَلْقَتِهِ كَمَا فَصَّلَ الْقَوْلُ فِي خَلْقَةِ الْإِنْسَانِ .

نَعَمْ هَنَاكَ آيَاتٌ وَاصْفَةٌ لِصَنْعِهِ وَعَمَلِهِ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفَدَ مِنْهَا مَا يَنْفَعُ فِي هَذَا الْبَابِ قَالَ تَعَالَى حَكَايَةً عَنْهُ : « لَا قَعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكُمُ الْمَسْتَقِيمُ ثُمَّ لَا تَبِعُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ لَا تَبِعُنَّهُمْ شَاكِرِينَ » الْأَعْرَافُ : ١٧ .

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ مِنْ جَهَةِ الْعَوَاطِفِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنْ خُوفٍ وَرَجَاءٍ وَأُمُّنِيَّةٍ وَأَمْلٍ وَشَهْوَةٍ وَغَضْبٍ ثُمَّ فِي أَفْكَارِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ الْمُنْبَعِثَةِ مِنْهُمْ .

كَمَا يَقَارِنُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ : « قَالَ رَبٌّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَا زُيِّنَنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » الْحِجْرُ : ٣٩

أَيْ لَا زُيِّنَنَ لَهُمُ الْأُمُورُ الْبَاطِلَةُ الرَّدِيَّةُ الشَّوَهَاءُ بَزْ خَارِفٌ وَزَيْنَاتٌ مَهِيَّةٌ مِنْ تَعْلُقِ الْعَوَاطِفِ

الداعية نحو اتباعها ولا يغونيهم بذلك كالزنا مثلاً يتصوره الإنسان وتزيشه في نظره الشهوة ويضعف بقوّتها ما يخطر بباله من المحذور في اقترافه فيصدق به فيقتصره ، ونظير ذلك قوله « يudهم ويمنيهم وما يudهم الشيطان إلّا غرورا » النساء : ١٢٠ ، قوله : « فرِّين لهم الشيطان أعمالهم » النحل : ٦٣ .

كلّ ذلك - كما ترى - يدلّ على أنّ ميدان عمله هو الإدراك الإنسانيّ ووسيلة عمله العواطف والإحساسات الداخلية فهو الذي يلقي هذه الأوهام الكاذبة والأفكار الباطلة في النفس الإنسانية كما يدلّ عليه قوله : « الوسوس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس » الناس : ٥ .

لكنّ الإنسان مع ذلك لا يشكّ في أنّ هذه الأفكار والأوهام المسمّاة وساوس شيطانية أفكار لنفسه يوجد لها هي في نفسه من غير أن يشعر بأحد سواء يلقيها إليه أو يتسبّب إلى ذلك بشيء كما في سائر أفكاره وآرائه التي لا تتعلّق بعمل وغيره كقولنا : الواحد نصف الآئتين والأربعة زوج وأمثال ذلك .

فلا إنسان هو الذي يوجد هذه الأفكار والأوهام في نفسه كما أنّ الشيطان هو الذي يلقيها إليه ويخطرها بباله من غير تزاحم ، ولو كان تسبّبه فيها نظير المتسبّبات الدائرة فيما يبيننا من ألقى إلينا خبراً أو حكمأً أو ما يشبه ذلك لكان إلقاءه إلينا لا يجتمع استقلالنا في التفكير ، ولا تتفتّت نسبة الفعل الإختياري إلينا لكون العلم والترجح والإرادة له لأنّا ، ولم يتسبّب على الفعل لوم ولا ذمّ ولا غيره ، وقد نسبة الشيطان نفسه إلى الإنسان فيما حكاه الله من قوله يوم القيمة : « وقال الشيطان طأ قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحقّ و وعدكم فأخلفتم و ما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجيبتم لي فلا تلوموني ولو مروا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنت بمصرخي إبني كفرت بما أشتراكتمون من قبل إنّ الظالمين لهم عذاب أليم » إبراهيم : ٢٢ فنسب الفعل والظلم واللوم إليهم وسلمتها عن نفسه ، ونفي عن نفسه كلّ سلطان إلّا السلطان على الدعوة والوعد الكاذب كما قال تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من

الغاوين » الحجر : ٤ فنفي سبحانه سلطانه إِلَّا في ظرف الاتّباع ونظيره قوله تعالى : « قال قرينه ربّنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » ق : ٢٧ .

وبالجملة فإنّ تصرّفه في إدراك الإِنسان تصرّف طوليّ لا ينافي قيامه بالإِنسان وانتسابه إليه انتساب الفعل إلى فاعله لاعرضيّ ينافي ذلك .

فله أن يتصرّف في الإِدراك الإِنسانيّ بما يتعلّق بالحياة الدنيا في جميع جهاته بالغرور والتزين فيضيّع الباطل مكان الحقّ ويظهره في صورته فلا يربط الإِنسان بشيء إِلَّا من وجهه الباطل الذي يغرسه ويصرّفه عن الحقّ ، وهذا هو الاستقلال الذي يراه الإِنسان لنفسه أوّلاً ثمّ لسائر الأسباب التي يرثّها في حياته فيحجبه ذلك عن الحقّ ويلهوه عن الحياة الحقيقية كما تقدّم استفادة ذلك من قوله المحمّكي : « فيما أُغويتني لأُعدّن لهم » الأعراف : ١٦ و قوله : « ربّ بما أُغويتني لازِيْنَ لهم في الأرض » الحجر : ٣٩ .

ويؤدي ذلك إلى الغفلة عن مقام الحقّ ، وهو الأصل الذي ينتهي ويحلّ إليه كلّ ذنب قال تعالى : « ولقد نرأت لجهنّم كثيراً من الإِنس والجنّ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون » الأعراف : ١٧٩ .

فاستقلال الإِنسان بنفسه وغفلته عن ربّه وبجميع ما يتفرّع عليه من سيّء الاعتقاد ورديء الأوهام والأفكار التي يرتكبها كلّ شرك وظلم إنّما هي من تصرّف الشيطان في حين أنّ الإِنسان يخسّل إِلَيْه أهانه هو الموجّد لها القائم بها ما يراه من استقلال نفسه فقد صبغ نفسه صبغة لا يأتّيه اعتقاد ولا عمل الأصبعه بها .

وهذا هو دخوله تحت ولاية الشيطان وتدبيره وتصرّفه من غير أن يتتبّعه بشيء أو يشعر بشيء وراء نفسه قال تعالى : « إِنَّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إِنّا جعلنا الشياطين أولياء لِلّذين لا يؤمنون » الأعراف : ٢٧ .

وولاية الشيطان على الإِنسان في المعاصي والمظالم على هذا النمط نظير ولاية الملائكة عليه في الطاعات والقربات قال تعالى : « إِنَّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أَن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن

أولياؤكم في الحياة الدنيا » حم السجدة : ٣١ والله من ورائهم محيط وهو الولي « أولي »
سواء قال تعالى : « ليس لكم من دونه من ولی ولا شفيع » السجدة ٤

وهذا هو الاحتياك أي الـ إيجام الذي ذكره فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله : « قال أرأيتكم هذا الذي كرمت علي لا حتنكن ذر يسّته إلا قليلاً قار اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنّم حزاوكم جزاءً موفوراً واستفرز من استطعت منهم بصوتكم وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » أسرى ٦٤ : أي لا يحمنكم فأتسليط عليهم تسلط راكب الدابة الملجم لهاعليها يطعونني فيما أمرهم ويتوجهون إلى حيث أشير لهم إليه من غير أي عصيان وجاح.

ويظهر من الآيات أن له جنداً يعيونونه فيما يأمر به ويساعدونه على ما يريد و هو القبيل الذي ذكر في الآية السابقة : « إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » و هؤلاء وإن بلغوا من كثرة العدد و تفتقن العمل ما يبلغوا فأنما صنعوا صنعوا نفس إبليس و سوستهم نفس وسوسته كما يدل عليه قوله : « لا غوى نسّهم أجمعين » الحجر : ٣٩ ، وغيره مما حكته الآيات نظير ما يأتي به أخوان الملائكة العظام من الأفعال فتنسب إلى رئيسهم المستعمل لهم في ما يريد قال تعالى في ملك الموت : « قل يتوفّكم ملك الموت الذي وكل بكم » السجدة : ١١ ثم قال : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسالنا وهم لا يفرّطون » الأَنْعَام : ٦١ إلى غير ذلك .

و تدل الآية : « الذي يosoس في صدور الناس من الجنّة والناس » الناس : ٦ على أنّ في جنده اختلافاً من حيث كون بعضهم من الجنّة وبعضهم من الإنس ويدل قوله : « أفتتّخذونه وذر يسّته أولياء من دوني وهم لكم عدو » الكهف : ٥٠ أنّ له ذريّة من أخوانه وجنوده لكن لم يفصل كيفية انتشائه ذريّته منه .

كما أن هناك نوعاً آخر من الاختلاف يدل عليه قوله : « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » في الآية المتفقّدة ، وهو الاختلاف من جهة الشدّة والضعف وسرعة العمل وبطؤه فإن الفارق بين الخيل والرجل هو السرعة في اللحوق والإدراك وعدمها .

وهناك نوع آخر من الاختلاف في العمل ، وهو الاجتماع عليه والإنفراد كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمْزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ » المؤمنون : ٩٨ ، ولعله تعالى : « هَلْ أُنْبِئُكُمْ عَلَى مِنْ تَنْزِيلِ الشَّيَاطِينِ تَنْزِيلٌ عَلَى كُلِّ أَفْيَاكُ أَثْيَمٍ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » الشعرا : ٢٢٣ من هذا الباب .

فملخص البحث : أن إبليس لعنه الله موجود مخلوق ذو شعور وإرادة يدعوا إلى الشر ويسوق إلى المخالفة كان في مرتبة مشتركة مع الملائكة غير متميّز منهم إلا بعد خلق الإنسان وحينئذ تميّز منهم ووقع في جانب الشر والفساد ، وإليه يستند نوعاً من الاستناد انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم وميله إلى جانب الشقاء والضلال ، ووقوعه في المعصية والباطل كما أن إلهاته موجود مخلوق ذو إدراك وإرادة إليه يستند نوعاً من الاستناد اهتداء الإنسان إلى غاية السعادة ومنزل الكمال والقرب ، وأن لا إبليس أعواناً من الجن والإنس وذرية مختلفة الأنواع يجرون بأمره إياهم أن يتصرّفوا في جميع ما يرتبط به الإنسان من الدنيا وما فيها باظهار الباطل في صورة الحق ، وتزيين القبيح في صورة الحسن الجميل .

وهم يتصرّفون في قلب الإنسان وفي بيته وفي سائر شؤون الحياة الدنيا من أموال وبنين وغير ذلك بتصرّفات مختلفة اجتماعاً وإنفراداً ، وسرعة وبطؤاً ، و بلا واسطة ومع الواسطة والواسطة ربّما كانت خيراً أو شرّاً وطاعة أو معصية .

ولا يشعر الإنسان في شيء من ذلك بهم ولا أعمالهم بل لا يشعر إلا بنفسه ولا يقع بصره إلا بعمله فلا أفعالهم هزاجة لأعمال الإنسان ولا ذواتهم وأعيانهم في عرض وجود إلا نسان غير أن الله سبحانه أخبرنا أن إبليس من الجن وأنهم مخلوقون من النار ، وكان أول وجوده وآخره مختلفان .

* بحث عقلى وقرآنى مختلط *

قال في روح المعانى : وقد ذكر الشهير ستانى عن شارح الأنجليل الأربعه صورة مناظرة جرت بين الملائكة وبين إبليس بعد هذه الحادثة ، وقه ذكرت في التوراة ، وهي أن اللعين قال للملائكة : إني أسلم أن لي إلهًا هو خالقى وموجدى لكن لي على حكمه أسئلة .

الأول : ما الحكمة في الخلق لا سيّما وقد كان عالماً أن الكافر لا يستوجب عند خلقه إلا النار ؟

الثانى : ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود إليه منه نفع ولا ضرر ، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف ؟

الثالث : هب إنّه كلفني بمعرفته وطاعته فلما ذا كلفني بالسجود لآدم ؟

الرابع : ممّا عصيته في ترك السجود فلم لعنني وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا غيره فيه ولئلا فيه أعظم الضرر ؟

الخامس : أنه ممّا فعل ذلك لم سلطني على أولاده ومكّنني من إغواهم وإضلاليهم .

ال السادس : ممّا استمهلتة المدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني ومعلوم أنه لو كان العالم خالياً من الشر " لكان ذلك خيراً ؟

قال شارح الأنجليل : فأوحى الله تعالى إليه من سراديق العظمة والكبرياء : يا إبليس أنت ما عرفتني ، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض على " في شيء من أفعالي فإني أنا الله إلا أنا لا أُسأل عمّا أفعل . (انتهى) .

ثم قال الآلوسي : قال الإمام - الرازي - إنه لو اجتمع الألوان والآخرون من الخلاق وحكموا بتحسين العقل وتبصيره لم يجدوا من هذه الشبهات مخلصاً ، وكان الكل لازماً .

ثم قال الآلوسي : ويعجبني ما يحكى أن سيف الدولة بن حمدان خرج يوماً على جماعته فقال : قد عملت بيتك ما أحسب أن أحداً يعمل له ثانياً إلا أن كان أبو فراس وكان أبو فراس جالساً . فقيل له : ما هو ؟ فقال قوله :

لَكَ جَسْمِي تَعْلَمُ * فَدِيمِي لَمْ تَطْلَمْ
فَابْتَدِأْ بِفَرَاسْ قَائِلاً :

قال إن كنت مالكا فلي الأمر كلّه
أقول : مامر من البيان في أول الكلام السابق يصلح لدفع هذه الشبهات الستة عن آخرها ويكتفي مؤنته من غير أن يحتاج إلى اجتماع الأولين والآخرين ثم لا ينفعهم اجتماعهم على ما دعاهم الإمام فليست بذلك الذي يحسب ، ولتوسيع الأمر نقول : أمّا الشبهة الأولى : فالمراد بالحكمة - وهي جهة الخير و الصلاح الذي يدعو الفاعل إلى الفعل - في الخلق إما الحكمة في مطلق الخلق وهو ما سوى الله سبحانه من العالم ، وإما الحكمة في خلق الإنسان خاصة .

فإن كان سؤالاً عن الحكمة في مطلق الخلق والإيجاد فمن المبرهن عليه أنه فاعل قام ملجموع متساوياً غير مفتقر في ذلك إلى متمم يتمم فاعليته و يصلح له الوهيته فهو مبدئ لما سواه منبئ لكل خير و رحمة ذاته ، واقتضاء المبدئ لما هو مبدئ له ضروري ، و السؤال عن الضروري لغو كما أن ملامة الجود تقضي بذلكها أن ينتشر أثرها و تظهر بر كاتها لاستدعاء أمر آخر وراء نفسها يوجب لها ظهور الأثر و إلا لم تكن ملامة . فظهور أثرها ضروري لها وهو أن يتعمّ بها كل مستحق على حسب استعداده و استحقاقه ، و اختلاف المستحقين في النيل بحسب اختلاف استحقاقهم أمر عائد إليهم لـ إلى ملامة التي هي مبدئ الخير .

وأمّا حديث الحكمة في الخلق والإيجاد بمعنى الغاية وجهة الخير المقصودة للفاعل في فعله فـ إنما يحكم العقل بوجوب الغاية الزائدة على الفاعل في الفاعل الناقص الذي يستكمل بفعله ويكتسب به تماماً وكمالاً ، وأمّا الفاعل الذي عنده كل خير وكمال فغايتها نفس ذاته من غير حاجة إلى غاية زائدة كما عرفت في مثال ملامة الجود .

نعم يترتب على فعله فوائد ومنافع كثيرة لاتحصى ونعم الْهُبَّة لاتنقطع وهي غير مقصودة إلا ثانياً وبالعرض ، هذا في أصل الإِيجاد .

وإن كان السؤال عن الحكمة في خلق الإنْسَان كما يشعر به قوله بعد : لاسيما وقد كان عالماً أنَّ الكافر لا يستوجب عند خلقه إِلَّا النار فالحكمة بمعنى غاية الفاعل والفائدة العائنة إِلَيْهِ غير موجودة لما عرفت أنه تعالى غنيٌّ بذاته لا يفتقر إلى شيء مما سواه حتى يتمُّ أو يكمل به ، وأمّا الحكمة بمعنى الغاية الكمالية التي ينتهي إليها الفعل وتحرز فائدته فهو أن يخلق من المادة الأرضية الخسيسة تركيباً خاصاً ينتهي بسلوكه في مسلك الكمال إِلَى جوهر علوِّيٍّ شريف كريم يفوق بكمال وجوده كلَّ موجود سواه ، ويقترب إلى ربِّه تقرّباً كمالياً لا يناله شيء غيره وهذه غاية النوعية الإنسانية .

غير أنَّ من المعلوم أنَّ من كُلِّ أرضياتِ مؤلِّفها من الأُضداد واقعاً في عالم التزاحم والتنافي محفوفاً بعمل وأسباب موافقة ومخالفة لا ينجو منها بكلِّه ، ولا يخلص من إفسادها باثارها المنافية جميع أفراده فلامحالة لا يفوز بالسعادة المطلوبة منه إِلَّا بعض أفراده ، ولا ينجح في سلوكه نحو الكمال إِلَّا شطر من مصاديقه لاجيئها .

وليس هذه الخصيصة أعني فوز البعض بالكمال والسعادة وحرمان البعض مما يختصُّ به الإنْسَان بل جميع الأنواع المتعلقة الوجود بالمادة الموجودة في هذه النشأة كأنواع الحيوان والنبات وبجميع التركيبات المعدنية وغيرها كذلك فشيء من هذه الأنواع الموجودة - وهي ألوان وألوان - لا يخلو عن غاية نوعية هي كمال وجوده ، وهي مع ذلك لاتزال الكمال إِلَّا بنوعيته ، وأمّا الأفراد والأشخاص فكثير منها تبطل دون البلوغ إلى الكمال ، وتفسد في طريق الاستكمال بعمل العلل والأسباب المخالفة لأنَّها محفوفة بها ولابد لها من العمل فيها جرياً على مقتضى علیمتها وسببيتها .

ولو فرض شيء من هذه الأنواع غير متاثر من شيء من العوامل المخالفة كالنبات مثلاً غير متاثر من حرارة وبرودة ونور وظلمة ورطوبة وبيوسنة وسمومات والمواد الأرضية المنافية لتركيبه كان في هذا الفرض إبطال تركيبة الخاص أو لا ، وإبطال العلل والأسباب ثانياً ، وفيه إبطال نظام الكون فافهم ذلك .

ولاضيرفي بطلان مساعي بعض الأفراد أو التركيبات إذا أدى ذلك إلى فوز بعض آخر بالكمال والغاية الشريفة المقصودة التي هي كمال النوع وغايتها فإنَّ الخلقة أرادَتْ لاتسع أزيد من ذلك ، وصرف الكثير من طاقة الخصيصة التي لاقيمها لها في تحصيل القليل من الجوهر الشريف العالى استرباح حقيقى بلا تبذير أو جزاف .

فالعلمة الموجبة لوجود النوع الإنساني لا ترى بفعلها إلا إنسان الكامل السائر إلى أوج السعادة في دنياه وآخرته إلا أنَّ إنسان لا يوجد إلا بتركيب مادي ، وهذا التركيب لا يوجد إلا إذا وقع تحت هذا النظام المادى المنبسط على هذه الأجزاء الموجدة في العالم المرتبطة بعضها ببعض المتفاعلة فيما بينها جميعاً بتاثيراتها وتأثيراتها المختلفة ، ولازم ذلك سقوط بعض أفراد الإنسانية دون الوصول إلى كمال الإنسانية فحملة وجود إنسان تزيد السعادة الإنسانية أو لاً وبالذات ، وأمساقه ببعض الأفراد فإنما هو مقصود ثانياً وبالعرض ليس بالقصد الأولي .

فخلقه تعالى الإنسان حكمته بلوغ الإنسانية إلى غايتها الكمالية ، وأما علمه بأنَّ كثريين من أفراده يكونون كفاراً مصيرهم إلى النار لا يوجب أن يختلس مراده من خلقه النوع الإنساني ، ولا أنه يوجب أن يكون خلقه الإنسان الذي سيكون كفراً علماً تاماً لكرهه أو لصيروته إلى النار ، كيف ؟ وعلمه كفره التامة بعد وجوده علل وعوامل خارجية كثيرة جداً ، وآخرها اختياره الذي لا يدع الفعل ينتسب إلا إليه فالعلمة التي أوجدت وجوده لم توجد إلا جزءاً من أجزاء علمه كفره ، وأما تعلق القضاء الإلهي بكفره فإنما تعلق به من طريق الاختيار لأن يبطل اختياره وإرادته ويضطر إلى قبول الكفر كسقوط الحجر المرمي إلى فوق نحوات الأرض بعامل التقل اضطراراً .

وأما الشبهة الثانية : فقوله « ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود إليه منه نفع ولا ضر » مغالطة من باب إسراء حكم الفاعل الناقص القبيح إلى الفاعل التام الغني في ذاته فحكم العقل بوجوب رجوع فائدة من الفعل إلى الفاعل إنما هو في الفاعل الناقص المستكملا بفعله المتنفع به دون الفاعل المفترض غنياً في ذاته .

فلا حكم من العقل أنَّ كلَّ فاعل حتى ما هو غني في ذاته لاجهة نقص فيه يجب

أن يكون له في فعله فائدة عائدۃ إلیه ، ولا أن "الموجود الذي هو غني" في ذاته لاجهة نقص فيه حتى يستكمل بشيء فهو يمتنع صدور فعل عنه .

و التكليف و إن كان في نفسه أمرًا وضعيفاً اعتبارياً لا يجري في متنه الأحكام الحقيقة إلا أنه في المكلفين واسطة ترتيبها الكمالات اللاحقة الحقيقة بسابقها فهي وصلة بين حقيقتين :

توضيح ذلك ملخصاً : أنّ السنان شرك عن المشاهدة المتكلّرة والبرهان أنّ ما ينـأـيـدـيـنا من الأنواع الموجودة التي نسمـيـها بما فيها من النظام الجاري عالـمـاـ مـادـيـاـ واقعة تحت الحرـكةـ التي ترسم لكـلـ منها بقاءً بحسبـ حالـهـ ، و وجودـاـ مـمـتدـاـ يـبـتـدـيـ منـ حـالـةـ النـقـصـ و يـنـتـهـيـ إـلـىـ حـالـةـ الـكـمـالـ ، و بينـ أـجـزـاءـ هـذـاـ الـامـتدـادـ الـوـجـودـيـ الـسـمـمـيـ بـالـبـقـاءـ اـرـتـبـاطـاـ وجودـاـ حـقـيقـاـ يـؤـديـ بـهـ كـلـ سـابـقـ إـلـىـ لـاحـقـهـ ، و يتـوجـهـ بـهـ النـوـعـ منـ مـنـزـلـ هـاتـيكـ الـمـنـازـلـ إـلـىـ مـاـ يـلـيـهـ بلـ هوـ قـاصـدـ مـنـ أـوـلـ حـينـ يـشـرـعـ فـيـ الـحـرـكـةـ آـخـرـ مـرـحلـةـ مـنـ شـأنـ حرـكـتـهـ أـنـ يـنـتـهـيـ إـلـيـهـ .

فالجـبـةـ منـ القـمـحـ مـنـ أـوـلـ مـاـ تـنـشـقـ لـلنـمـوـ قـاصـدـةـ نـحـوـ شـجـرـةـ الـخـنـطـةـ الـكـاملـةـ نـشـوـءـاـ وـعـلـيـهـ سـنـابـلـهـ ، وـ النـطـفـةـ مـنـ الـحـيـوانـ مـتـوجـهـ إـلـىـ فـرـدـكـاملـ مـنـ نـوـعـهـ وـاجـدـ لـجـمـيعـ كـمـالـاتـهـ الـنـوـعـيـةـ وـ هـكـذاـ ، وـ لـيـسـ النـوـعـ الـإـنـسـانـ بـمـسـتـشـنـىـ مـنـ هـذـهـ الـكـلـيـةـ الـبـتـةـ فـهـوـ أـيـضاـ مـنـ أـوـلـ مـاـ يـأـخـذـ فـرـدـ مـنـهـ فـيـ التـكـوـنـ عـازـمـ نـحـوـ غـايـتـهـ مـتـوجـهـ إـلـىـ مـرـتبـةـ إـنـسـانـ كـامـلـ وـاجـدـ لـحـقـيقـةـ سـعـادـتـهـ سـوـاءـ بـلـغـ فـيـ مـسـيرـ حـيـاتـهـ إـلـىـ ذـلـكـ الـمـبـلـغـ أـمـ حـالـتـ دـوـنـهـ الـمـوـانـعـ .

وـالـإـنـسـانـ مـلـاـ اـضـطـرـ بـحـسـبـ سـنـخـ وـجـودـهـ إـلـىـ أـنـ يـعـيـشـ عـيـشـةـ اـجـتمـاعـيـةـ وـ الـعـيـشـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ إـنـمـاـ تـتـحـقـقـ تـحـقـقـ قـوـانـينـ وـسـنـنـ جـارـيـةـ بـيـنـ أـفـرـادـ الـمـجـتمـعـ وـهـيـ عـقـائـدـ وـأـحـكـامـ وـضـعـيـةـ اـعـتـبارـيـةـ - التـكـالـيفـ الـدـينـيـةـ أـوـغـيرـ الـدـينـيـةـ - تـتـكـوـنـ بـالـعـمـلـ بـهـاـ فـيـ الـإـنـسـانـ عـقـائـدـ وـ أـخـلـقـ وـمـلـكـاتـ هـيـ اـمـلـاكـ فـيـ سـعـادـةـ الـإـنـسـانـ فـيـ دـنـيـاهـ وـ كـذـاـ فـيـ آـخـرـتـهـ وـهـيـ اـوـازـمـ الـأـعـمـالـ الـمـسـمـاـةـ بـالـثـوابـ وـالـعـقـابـ .

فالـتـكـلـيفـ يـسـتـبـطـنـ سـيـرـاـ تـدـريـجـيـاـ لـلـإـنـسـانـ بـحـسـبـ حـالـاتـهـ وـ مـلـكـاتـهـ الـنـفـسـانـيـةـ نـحـوـ كـمـالـهـ وـ سـعـادـتـهـ يـسـتـكـمـلـ بـطـيـ "ـهـذـاـ الـطـرـيقـ وـالـعـمـلـ بـمـاـ فـيـهـ طـورـاـ بـعـدـ طـورـ حـتـىـ يـنـتـهـيـ

إلى ما هو خير له وأبقي ، ويخيب مسعاه إن لم يعمل به كالفرد من سائر الأنواع الذي يسير نحو كماله فينتهي إليه إن ساعده هو افة الأسباب ، ويفسد في مسيره نحو الكمال إن خدمته ومنعته .

فقول القائل « ما الفائدة في التكليف ؟ » كقوله : ما الفائدة في تغذيّ النبات ؟ أو ما

الفائدة في تناسل الحيوان من غير نفع عائد ؟

وأما قوله : وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف » مغالطة أخرى لما عرفت أن التكليف في الإنسان أو أي موجود سواه يجري في حكمه التكليف الواقع في طريق السعادة متوسط بين كماله ونقصه في وجوده الذي إنما يتم ويُكمل له بالتدريج ، فإن كان المراد بتحصيل ما يعود من التكليف إلى المكلفين من غير واسطة التكليف تعين طريق آخر لهم بدلاً من طريق التكليف وضع ذاك الطريق موضع هذا الطريق وحال الطريقين في طريقتيهما واحد عاد السؤال في الثاني كالأول : لم عين هذا الطريق وهو قادر على تحصيل ما يعود منه إليهم بغيره ؟ والجواب أن العدل والاستباب التي تجمعت على الإنسان مثلاً على ما تجدها تقتضي أن يكون مستكملاً بالعمل بتكاليف مصلحة لباطنه « طهارة لسره من طريق العادة .

وإن كان المراد بتحصيله من غير واسطة التكليف تحصيله لهم من غير واسطة أصلاً وإضافة جميع مراحل الكمال ومراتب السعادة لهم في أول وجودهم من غير تدرج بسلوك طريق فلازمه بط LAN الحركات الوجودية وانتفاء المادة والقوة وبقى شؤون الإمكان ، والما موجود المخلوق الذي هذا شأنه مجرد في بدء وجوده تمام كامل سعيد في أصل نشأته ، وليس هو إلا إنسان المخلوق من الأرض الناقص أو لاً مستكملاً تدريجاً في الفرض خلف .

وأما الشبهة الثالثة فقوله « هب إن كلكفي بمعرفته وطاعته فلماذا كلكفي بالسجود لآدم ؟ » فجوابه ظاهر فإن هذا التكليف يتم بالإيمان به صفة العبودية لله سبحانه ، ويشهد بالتمرد عنه صفة الاستكبار فحياته على أي حال تكميل من الله واستكمال من إبليس إما في جانب السعادة وإما في جانب الشقاوة ، وقد اختار الثاني .

على أن في تكليفيه وتكليف الملائكة بالسجدة تعينا للخط الذي خط لآدم فان

الصراط المستقيم الذي قدر لادم وذراته أن يسلكوه لا يتم أمره إلا بمسد دمعين يدعوه إلى هداه وهو الملائكة، وعدو مصل يدعوه إلى الانحراف عنه والغواية فيه وهو إبليس وجنوبيه كما عرفت فيما تقدم من الكلام.

واما الشبهة الرابعة : فقوله « لما ذالعنفي وأوجب عقابي بعد المعصية ولا فائدة له فيه ؟ الخ » جوابه أن الملعن والعذاب يعني ما يشتملان عليه من الحقيقة من لوازم الاستكبار على الله الذي هو الأصل المؤلد لكل معصية ، وليس الفعل الإلهي مما يجر إليه نفعاً أو فائدة حتى يتمتنع فيما لانفع فيه يعود إليه كما تقدمت الإشارة إليه .

وليس قوله هذا إلا كقول من يقول فيمن استقي سماً وشر به فهلاك به : لم لم يجعله الله شفاءً وليس له في إماتته به نفع ولو فيه أعظم الضرر ؟ هلاً جعله رزقاً طيباً للمسموم يرفع عطشه وينمو به بدنـه ؟ فهذا كله من الجهل بمواقع العمل والأسباب التي أثبتتها الله في عالم الصنع والإيجاد فكل حادث من حوادث الكون يرتبط إلى عمل وعوامل خاصة من غير تخلف و اختلاف قانوناً كلـياً .

فالمعصية إنما تستتبع العذاب على النفس المتقنة بها إلا أن تتطهـر بشفاعة أو توبة أو حسنة تستدعي المغفرة ، وإبطال العذاب من غير وجود شيء من أسبابه هدم لقانون العلية العام ، وفي انهدامه انهدام كل شيء .

واما الشبهة الخامسة : أعني قوله « إنه لما فعل ذلك لم سلطني على أولاده و مكـنـني من إـغـوـاـئـهـمـ و إـضـلـالـهـمـ ؟ » فقد ظهر جوابـهـ مـاـ تـقـدـمـ فـإـنـ الـهـدـىـ وـالـحـقـ العـمـلـيـ وـ الطـاعـةـ وـأـمـثـالـهـاـ إنـماـ تـدـقـقـ معـ تـحـقـقـ الصـالـالـ وـ الـبـاطـلـ وـ الـمعـصـيـةـ وـأـمـثـالـهـاـ ،ـ وـ الدـعـوـةـ إـلـىـ الـحـقـ إنـماـ تـمـ إذاـ كانـ هـنـاكـ دـعـوـةـ إـلـىـ باـطـلـ ،ـ وـ الـصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ إنـماـ يـكـونـ صـرـاطـاـ لوـ كانـ هـنـاكـ سـبـيلـ غـيرـ مـسـتـقـيمـ تـسـلـكـ بـسـالـكـهـاـ إـلـىـ غـاـيـةـ غـيرـ غـايـتـهـ .

فمن الضروري أن يكون هناك داع إلى الباطل يهدى إلى عذاب السعير مادامت النشأة الإنسانية قائمة على ساقها ، والإنسانية محفوظة بمقاييسها النوعي بتعاقب أفرادها فوجود إبليس من خدم النوع الإنساني ، ولم يمكنه الله منهم ولا سلطه عليهم إلا بمقدار

الدعوة كما صرّح^(١) به القرآن الكريم و حكاه^(٢) عنه نفسه فيما يخاطب به الناس يوم القيمة .

وأما الشبهة السادسة : فاما قوله « طـا استهملته المـدـ الطـولـةـ في ذلك فـلـمـ أـمـهـلـنـيـ » فقد ظهر جوابه مما تقدم آنفاً .

وأما قوله : « و معلوم أنّ العالم لو كان خالياً من الشرّ لكان ذلك خيراً « فقد عرفت أنّ معنى كون العالم خالياً من الشرّ مأموناً من الفساد كونه مجرّداً غير ماديّ ، ولا معنى محصل لعالم ماديّ يوجد فيه الفعل من غير قوّة و الخير من غير شرّ و النفع من غير ضرّ و الشبات من غير تغيير و الطاعة من غير معصية والثواب من غير عقاب .

وأما ما ذكره من جوابه تعالى عن شبّهات إبليس بقوله : يا إبليس أنت ماعرفتني ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض علىّ في شيء من أفعالي فإني أنا الله الذي لا إله إلا أنا لا أسأل عمّا أفعل « فجواب يوفق ما في التنزيل الكريم . قال تعالى : « لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون » الأنبياء : ٢٣ .

و ظاهر المنقول من قوله تعالى أنه جواب إجماليّ عن شبّهاته لعنه الله لا جواب تفصيليّ عن كلّ واحد واحد ، و محصله : أنّ هذه الشبهات جميعاً سؤال و اعتراض عليه تعالى : ولا يتوجه إليه اعتراض لأنّه الله لا إله إلا هو لا يسأل عمّا يفعل .

و ظاهر قوله تعالى أنّ قوله « لا يسأل » متفرّغ على قوله : فإني « الخ فمفادة الكلام أنّ الله تعالى طـا كان باـئـيـتـهـ الثـابـتـةـ بـذـاتـهـ الغـنـيـةـ لـذـاتـهـ هوـ الإـلـهـ الـمـبـدـىـ الـمـعـيدـ الـذـيـ يـبـتـدـىـءـ مـنـهـ كـلـ شـيـءـ وـ يـنـتـهـيـ إـلـيـهـ كـلـ شـيـءـ فـلـيـتـعـلـقـ فـيـ فعلـ يـفـعـلـهـ بـسـبـبـ فـاعـلـيـ آـخـرـ دـوـنـهـ ،ـ وـ لـاـ يـحـكـمـ عـلـيـهـ سـبـبـ غـائـيـ آـخـرـ يـبـعـثـهـ نـحـوـ الـفـاعـلـ بـلـ هـوـ الـفـاعـلـ فـوـقـ كـلـ فـاعـلـ ،ـ وـ الـغاـيـةـ وـ رـاهـ كـلـ غـاـيـةـ فـكـلـ فـاعـلـ يـفـعـلـ بـقـوـةـ فـيـهـ وـ إـنـ الـقـوـةـ لـهـ جـمـيعـاـ ،ـ وـ كـلـ غـاـيـةـ إـنـماـ تـقـصـدـ وـ تـطـلـبـ لـكـمـالـ مـاـ فـيـهـ وـ خـيـرـ مـاـعـنـدـهـ وـ بـيـدـ الـخـيـرـ كـلـهـ .ـ

(١) قوله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » العجر : ٤

وقوله : « يدعوهם إلى عذاب السعير » لقمان : ٢١ .

(٢) قوله : « وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوكم » ابراهيم : ٢٤ .

ويترفع عليه أنه تعالى لا يسأل في فعله عن السبب فإن سبب الفعل إما فاعل وإما غاية وهو فاعل كل فاعل وغاية كل غاية وأما غيره تعالى فلم يأكمل ما عندة من قوة الفعل فهو بالله من عند الله، وما يكتسبه من جهة الخير والمصلحة بافاضة منه تعالى بتسبيب الاسباب وتنظيم العوامل والشرائط فإنه مسؤول عن فعله لم فعله؟ وأكثر ما يسأل عنه إنما هو الغاية وجهة الخير والمصلحة، وخاصة في الأفعال التي يجري فيها الحسن والقبح والمدح والذم من الأفعال الاجتماعية في ظرف الاجتماع فإنها المتكلمة على مصالحة ، فهذا بيان تام يتواافق فيه البرهان والوحي .

وأما المتكلمون فإنهم بمالهم من الاختلاف العميق في مسألة : أن أفعال الله هل تتعلّل بالاغراض؟ وما يربط بها من المسائل اختلفوا في تفسير أن الله لا يسأل عن فعله فالأشاعرة لتجويفهم الإرادة الجزافية واستناد الشرور والقبيح إليه تعالى ذكره وأنه أن يفعل ما يشاء من غير لزوم أن يشتمل فعله على غرض فتنطبق عليه مصلحة محسنة وليس للعقل أن يحكم عليه كما يحكم على غيره بوجوب اشتتمال فعله على غرض وهو ترتيب مصلحة محسنة على الفعل .

والمعتزلة يحيلون الفعل غير المشتمل على غرض وغاية لاستلزم امه اللغو والجزاف المبني عنه تعالى فيفسرون عدم كونه تعالى مسؤولاً في فعله بأنه حكيم وحكيم هو الذي يعطي كل ذي حق حقه فلا يفعل قبيحاً ولغو ولا جزافاً، والذي يسأل عن فعله هو من يمكن في حقه إثبات القبيح واللغو والجزاف فهو تعالى غير مسؤول عمّا يفعل وهم يسألون .

والبحث طويل الذييل وقد تعارك فيه ألف الباحثين من الطائفتين ومن واقفهم من غيرهم قرونًا متقدمة ، ولا يسعنا تفصيل القول فيه على ما بنامن ضيق المجال غير أنا شير إلىحقيقة أخرى يسفر به الحجاب عن وجه الحق في المقام .

لاريب أن لنا علوماً وتصديقات نرکن إليها ، ولا ريب أنها على قسمين : القسم الأول : العلوم وتصديقات التي لا مساس لها طبعاً بأعمالنا وإنما هي علوم تصديقية تكشف عن الواقع وتطابق الخارج سواء كنّا موجودين عاملين أو مالنا الحيوية الفردية

أو الاجتماعية أم لا كقولنا : الأربعة زوج ، والواحد نصف الاثنين ، والعالم موجود ، وإن هناك أرضاً وسمساً وقمراً إلى غير ذلك ، وهي إما بديهيّة لا يدخلها شك ، وإما نظرية تنتهي إلى البديهيّات وتتبين بها .

والقسم الثاني : العلوم العلميّة والتصديقات الوضعية الاعتباريّة التي نصّعها المعلم في ظرف حياتنا ، والاستناد إليها في مستوى الاجتماع الإنساني فنستند إليها في إرادتنا ، ونعمل بها أفعالنا الاختياريّة ، وليس مما يطابق الخارج بالذات كالقسم الأول وإن كنتا نوقعها على الخارج إيقاعاً بحسب الوضع والاعتبار لكن ذلك إنما هو بحسب الوضع لا بحسب الحقيقة والواقعية كالأحكام الدائرة في مجتمعاتنا من القوانين والسنّن والشّؤون الاعتباريّة كالولاية والرئاسة والسلطنة والملك وغيرها فإن الرئاسة التي نعتبرها لزيد مثلاً في قولنا « زيد رئيس » وصف اعتباري و ليس في الخارج بخلافه شيء غير زيد إلا إنسان وليس كوصف الطول أو السواد الذي نعتبرهما لزيد في قولنا « زيد طويل القامة ، أسود البشرة » وإنما اعتبرنا معنى الرئاسة حيث كوننا مجتمعاً من عدة أفراد لغرض من الأغراض الحيويّة وسلمنا إدارة أمر هذا المجتمع إلى زيد ليضع كلاماً موضعه الذي يليق به ثم يستعمله فيما يريد فوجدنا نسبة زيد إلى المجتمع نسبة الرأس إلى الجسد فوصفناه بأنه رأس لينحفظ بذلك المقام الذي نصّبناه فيه وينتفع بأثاره وفوائده .

فالاعتقاد بأنّ زيداً رأس ورئيس إنما هو في الوهم لا يتعدّد أو إلى الخارج غير أنا نعتبره معنى خارجيّاً مصلحة الاجتماع ، وعلى هذا القياس كلّ معنى دائري في المجتمع الإنساني معتبر في الحياة البشرية متعلّق بالأعمال الإنسانية فإنّها جمِيعاً مما وضعه الإنسان وقلبه في قالب الاعتبار مراعاة مصلحة الحياة لا يتعدّى وهمه .

فيهذا قسمان من العلوم ، والفرق بين القسمين : أنّ القسم الأول مأخذ من نفس الخارج يطابقه حقيقة ، وهو معنى كونه صدقًا ويطابقه الخارج وهو معنى كونه حقّاً فالذّي في الذهن هو بعينه الذّي في الخارج وبالعكس : وأما القسم الثاني فإنّ موطنـه هو الـذهـنـ منـ غـيرـ أنـ يـنـطـبـقـ عـلـىـ خـارـجـهـ إـلـاـ أـنـ مـلـصـحـةـ منـ المـصـالـحـ الـحـيـوـيـةـ نـعـتـبـرـهـ وـنـتوـهـمـهـ خـارـجيـاًـ مـنـطـبـقاًـ عـلـيـهـ دـعـوىـ وـإـنـ لـمـ يـنـطـبـقـ حـقـيقـةـ .

فكون زيد رئيساً لغرض الاجتماع ككونه أسدًا بالتشبيه والاستعارة لغرض التخيّل الشعريّ ، و توصيفنا في مجتمعنا زيداً بأنه رأس في الخارج كتوصيف الشاعر زيداً بأنه أسد خارجيّ ، وعلى هذا القياس جميع المعانى الاعتبارية من تصوّر أو تصديق .

و هذه المعانى الاعتبارية وإن كانت من عمل الذهن من غير أن تكون مأخوذة من الخارج فتعتمد عليه بالانطباق إلا أنها معتمدة على الخارج من جهة أخرى وذلك لأنّ نقص الإنسان مثلاً و حاجته إلى كماله الوجوديّ و نيله غاية النوع الإنسانيّ هو الذي اضطرّه إلى اعتباره هذه المعانى تصوّرًا و تصديقًا بقاء الوجود و المقصود الحقيقة المادية أو الروحية التي يقصدها الإنسان و يتبعها في حياته هي التي توجب له أن يعتبر هذه المعانى ثم يبني عليها أعماله فيحرز بها لنفسه ما يريد من السعادة .

ولذلك تختلف هذه الأحكام بحسب اختلاف المقصود الاجتماعية فهناك أعمال و أمور كثيرة تستحسنها المجتمعات القطبية مثلاً و هي بعينها مستحبة في المجتمعات الاستوائية ، وكذلك الاختلافات الموجودة بين الشرقيين و الغربيين و بين الحاضرين و البادرين ، و ربما يحسن عند العامة من أهل مجتمع واحد ما يصبح عند الخاصة ، و كذلك اختلاف النظر بين الغنيّ والفقير ، وبين المولى و العبد ، وبين الرئيس والمرؤوس ، وبين الكبير و الصغير ، وبين الرجل و المرأة .

نعم هناك أمور اعتبارية وأحكام وضعية لا تختلف فيها المجتمعات وهي المعانى التي تعتمد على مقصود حقيقة عامة لا تختلف فيها المجتمعات كوجوب الاجتماع نفسه ، وحسن العدل ، و قبح الظلم . فقد تحصل أن للقسم الثاني من علومنا أيضاً اعتماداً على الخارج وإن كان غير منطبق عليه مستقيماً انطباق القسم الأول .

إذا عرفت ذلك علمت أنّ علومنا و أحكامنا كائنة ما كانت معتمدة على فعله تعالى فإنّ الخارج الذي نمسّه فنتبرع و نأخذ منه أونبني عليه علومنا وهو عالم الصنع والإيجاد و هو فعله ، و على هذا فيعود معنى قولنا مثلاً : « الواحد نصف الاثنين بالضرورة » إلى أنّ الله سبحانه يفعل دائماً الواحد والاثنين على هذه النسبة الضرورية ، و على هذا القياس ، و معنى قولنا : « زيد رئيس يجب احترامه » أنّ الله سبحانه أوجد الإنسان إيجاداً بعده

إلى هذه الدعوى و المزعمه ثم "إلى العمل على طبقه ، وعلى هذا القياس كل ذلك على ما يليق بساحة قدره عز شانه .

و إذا علمت هذا دريت أن "جميع ما بأيدينا من الأحكام العقلية سواء في ذلك العقل النظري "الحاكم بالضرورة والإمكان ، والعقل العملي "الحاكم بالحسن والقبح المعتمد على المصالح والمفاسد مأخوذة من مقام فعله تعالى معتمدة عليه .

فمن عظيم الجرم أن "تحكّم العقل عليه تعالى فنقيد إطلاق ذاته غير المتناهية فنجد " بأحكامه المأخوذة من مقام التحديد والتقييد ، أو أن نقنن له فنتحكم عليه بوجوب فعل كذا وحرمة فعل كذا وأنه يحسن منه كذا ويصبح منه كذا على ما يراه قوم فإن "في تحكّم العقل النظري "عليه تعالى حكمًا بمحدوديته و الحد " مساوٍ للمعلولية فإن "الحد غير المحدود والشيء لا يحد " نفسه بالضرورة ، وفي تحكّم العقل العملي "عليه جعله ناقصاً مستكملاً تحكم عليه القوانين والسنن الاعتبارية التي هي في الحقيقة دعا و وهيمة كما عرفت في الإنسان فأفهم ذلك .

و من عظيم الجرم أيضاً أن نعزل العقل عن تشخيص أفعاله تعالى في مرحلتي التكوين والتشريع أعني أحكام العقل النظرية والعملية .

أعما في مرحلة النظر فكأن نستخرج القوانين الكلية النظرية من مشاهدة فعاله، و نسلك بها إلى إثبات وجوده حتى إذا فرغنا من ذلك رجعنا فأبطلنا أحكام العقل الضرورية معتلًا بأن " العقل أهون من أن يحيط بساحتته أو يطالع كنه ذاته و درجات صفاتاته ، وأنه فاعل لا بداته بل بارادة فعلية ، و الفعل و الترك بالنسبة إليه على السوية ، و أنه لا غرض له في فعله ولا غاية ، وأن " الخير و الشر " يستندان إليه جميعاً ، ولو أبطلنا أحكام العقلية في تشخيص خصوصيات أفعاله و سننه في خلقه فقد أبطلناها في الكشف عن أصل وجوده ، وأشكال من ذلك أثنا نفينا بذلك مطابقة هذه الأحكام والقوانين المأخوذة من الخارج للماخوذ منه ، و المتنزع للمنتزع منه و هو عين السفسطة التي فيها بطلان العلم والخروج عن الفطرة الإنسانية إذ لو خالف شيء من أفعاله تعالى أو نعوته هذه الأحكام العقلية كان في ذلك عدم انتظام الحكم العقلي " على الخارج المنتزع عنه - و هو فعله - ولو جاز

كان فيه حياته السعيدة ، ولو منعه عن سعادته الخالدة الحقيقة عادت السعادة شقاوة . فالحق الذي لا يحيص عنه في المرحلتين : أن العقل النظري مصيب فيما يشخصه ويقتضي به من المعارف الحقيقة المتعلقة به تعالى فإنما إنما ثبت له تعالى ما نجده عندهنا من صفة الكمال كالعلم والقدرة والحياة ، و استناد الموجودات إليه وسائر الصفات الفعلية العليا كالرحمة والغفرة والرزق والإنعم والهدایة وغير ذلك على ما يهدى إليه البرهان . غير أن الذي نجده من الصفات الكمالية لا يخلو عن محدودية وهو تعالى أعظم من أن يحيط بهحد ، والمفاهيم لا تخلو عنه لأن كل مفهوم مسلوب عن غيره منعزل عما سواه ، وهذا لا يلائم الإطلاق الذاتي فتوسّل العقل إلى رفع هذه النقيصة بشيء من النعوت السلبية تنزيها ، وهو أنه تعالى أكبر من أن يوصف بوصف ' وأعظم من أن يحيط به تقييد و تحديد فمجموع التشبيه والتزييه يقربنا إلى حقيقة الأمر ، وقد تقدّم في ذيل قوله تعالى : «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَالِثَةٍ» المائدة : ٧٣ من غرر خطب أمير المؤمنين علي عليهما السلام ما يبيّن هذه المسألة بأوفي بيان و يبرهن عليها باسطع برهان فراجعه إن شئت . هذا كله في العقل النظري .

وأما العقل العملي فقد عرفت أن أحكام هذا العقل جارية في أفعاله تعالى التشعيعية غير أنه تعالى إنما شرع ما شرع واعتبر ما اعتبر ل الحاجة منه إليه بل ليتفضّل به على الإنسان مثلاً وهو ذو الفضل العظيم فيرفع به حاجة الإنسان فله سبحانه في تشعيعه غرض لكنه قائم بالإنسان الذي قامت به الحاجة لابه تعالى ، ولتشريعاته مصالح مقتضية لكن المتنفع بها هو الإنسان دونه كما تقدّم .

وإذا كان كذلك كان للعقل أن يبحث في أطراف ما شرعه من الأحكام و يتطلب الحصول على الحسن والقبح والمصلحة والمفسدة فيها لكن لا لأن يحكم عليه فيأمره وينهيه و يوجب و يحرّم عليه كما يفعل ذلك بالإنسان إذ لا حاجة له تعالى إلى كمال مرجوة حتى يتوجه إليه حكمه بمصلحته بخلاف الإنسان بل لأنّه تعالى شرع الشرائع وسن السنن ثم عاملنا معاملة العزيز المقتدر الذي نقوم له بالعبودية وترجع إليه حياتنا ومماتنا ورزقنا وتدبر أمرنا ودستور أفعالنا وحساب أفعالنا والجزاء على حسناتنا وسيّئاتنا فلا يوجد

إلينا حكمًا إِلَّا بِحِجْةٍ ، ولا يقبل منها معدنة إِلَّا بِحِجْةٍ ، ولا يجزينا جزاءً إِلَّا بِحِجْةٍ .
كما قال : « لَئِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجْةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ » النساء : ١٦٥ وقال : « لِيَهُمْ لِكَ من هَذِهِكَ عن بَيْنَتِهِ وَيَحْيَى مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْنَتِهِ » الأنفال : ٤٢ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ احْتِيجَاجَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْأَنْسَ والْجَنْ . وَلَازِمٌ ذَلِكَ أَنْ يَجْرِي فِي أَفْعَالِهِ تَعْالَى فِي نَظَرِ الْعُقْلِ الْعَمْلِيِّ ما يَجْرِي فِي أَفْعَالِ غَيْرِهِ بِحَسْبِ السَّنَنِ الَّتِي سَنَّهَا .

وَعَلَى ذَلِكَ جَرِيَ كَلَامَهُ سَبِّحَانَهُ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » يُونُس : ٤٤ ،
وَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ » آلُ عمرَانَ : ٩ وَقَالَ : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا بَعْدَنَا » الدُّخَانَ : ٣٨ ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى الْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي نَفَى فِيهَا عَنْ نَفْسِهِ
الرَّذَائِلُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ .

وَفِي مَا تَقْدَمَ مِنْ مَعْنَى جَرِيَانِ حَكْمِ الْعُقْلِ النَّظَرِيِّ وَالْعَمْلِيِّ فِي نَاحِيَتِهِ تَعْالَى
آيَاتُ كَثِيرَةٍ فِي الْقَسْمِ الْأَوَّلِ كَوْلُهُ تَعْالَى : « الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »
آلُ عمرَانَ : ٦٠ وَلَمْ يَقُلْ : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِأَنَّ الْفَضْلَيَا الْحَقَّةُ وَالْأَحْكَامُ الْوَاقِعِيَّةُ مَأْخُوذَةُ
مِنْ فَعْلِهِ لَا مَتَبُوعَةُ لَهُ فِي عَمَلِهِ حَتَّى يَتَأَيَّدَ بِهَا مَثَلَنَا ، وَقَوْلُهُ : « وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقُوبَ لِحَكْمِهِ »
الرَّعْدَ : ٤١ فَلِهِ الْحَكْمُ الْمُطْلَقُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْنَعَ مَا نَعِيْلُ عَقْلِيًّا أُوْغَيْرِهِ فَإِنَّ الْمَوَانِعَ وَالْمَعْقَبَاتِ
إِنَّمَا تَحْقِيقُ بِفَعْلِهِ وَهِيَ مَتَّخِذَةُ عَنْهُ لَا حَاكِمَةُ أُوْمَوْثَرَةُ فِيهِ ، وَقَوْلُهُ : « وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهَارِ »
الرَّعْدَ : ١٦ ، وَقَوْلُهُ : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » يُوسُفَ : ٢١ ، وَقَوْلُهُ : « إِنَّ اللَّهَ بِالْأَمْرِ »
الْطَّلاقَ : ٣ فَهُوَ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ الْبَالِغُ الَّذِي لَا يَقْهِرُهُ شَيْءٌ وَلَا يُغْلِبُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَحُولُ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَمْرِهِ حَائِلٌ يَزَاحِهِ ، وَقَوْلُهُ : « أَلَا لَهُ الْأَخْلَقُ وَالْأَمْرُ » الْأَعْرَافَ : ٥٤ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْآيَاتِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَيْسَ دُونَهَا مَقِيدٌ .

نَعَمْ يَجْرِي فِي أَفْعَالِهِ الْحَكْمُ الْعُقْلِيُّ لِتَشْخِيصِ الْخَصُوصِيَّاتِ وَكَشْفِ الْمَجْهُولَاتِ
لَا أَنَّ يَكُونَ مَتَبُوعًا بِلَأْنَهُ تَابِعٌ لَازِمٌ مَأْخُوذٌ مِنْ سَنَتِهِ فِي فَعْلِهِ الَّذِي هُوَ نَفْسُ الْوَاقِعِ
الْخَارِجُ ، وَيَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ الْآيَاتِ الَّتِي تَحْيلُ النَّاسَ إِلَى التَّعْقِلِ وَالتَّذَكُّرِ وَالْتَّفَكُّرِ
وَالتَّدَبُّرِ وَنَحْوُهَا فَلَوْلَا أَنَّهَا حِجْةٌ فِيمَا أَفَادَتِهِ لَمْ يَكُنْ لَذَلِكَ وَجْهٌ .

وَفِي الْقَسْمِ الثَّانِي : نَحْوُ قَوْلِهِ : « اسْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ مَا يَحِيِّكُمْ »

الأنفال : ٤ يدل على أن في العمل بالأحكام مصلحة الحياة السعيدة ، و قوله : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء » الأعراف : ٢٨ و ظاهره أن ما هو فحشاء في نفسه لا يأمر به الله لا أن الله لو أمر بها لم تكن فحشاء ، و قوله : « لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » لقمان : ١٣ ، و آيات كثيرة أخرى تعلم الأحكام المجعلة بمصالح موجودة فيها كالصلة والصوم والصدقات والجهاد وغير ذلك لا حاجة إلى نقلها .

(بحث روائي)

في تفسير العياشي عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم فاستخرج الله ما في نفسه بالحمى فقال : « خلقتني من نار و خلقته من طين » .

وفي الدر المنشور أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن رسول الله عليه السلام قال : أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله تعالى له : اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين . قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قوله تعالى يوم القيمة بما ليس لأنّه اتبعه بالقياس .

وفي الكافي بإسناده عن عيسى بن عبد الله الفرضي قال : دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له : يا أبو حنيفة بلغني أنك تقيس . قال : نعم ، أنا أقيس . قال : لا تقس فإن إبليس حين قال : خلقتني من نار و خلقته من طين .

وفي العيون عن أمير المؤمنين عليه السلام : إن إبليس أول من كفر وأنشا الكفر .
أقول : ورواه العياشي عن الصادق عليه السلام .

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ، أن أول معصية ظهرت الأنانية من إبليس .

أقول : وقد تقدم بيانه .

وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام : الاستكبار هو أول معصية عصي الله بها .

اقول : قد ظهر مما تقدّم من البيان أنّ مرجعه إلى الإنسانية كما في الحديث

المتقدّم .

و في النهج من خطبة له عليه السلام في صفة خلق آدم : واستادى الله سبحانه انه الملائكة وديعته لهم، وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمه فقال سبحانه : اسجدوا للآدم فسجدوا إلّا إبليس و جنوده اعتزتهم الحمية ، و غلت عليهم الشفوة . الخطبة .

اقول : وفيها تعميم الأمر بالسجدة لجنود إبليس كما يعمّ نفسه ، وفيه تأييد ما تقدّم أنّ آدم إنّما جعل مثلاً يمثل به الإنسانية من غير خصوصية في شخصه ، وأنّ مرجع القصة إلى التكوين .

و في المجمع عن الباقر عليهما السلام في معنى قوله : « ثم لا تبنّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » الآية « من بين أيديهم » أهون عليهم الآخرة « ومن خلفهم » أمرهم بجمع الأموال ومنعها عن الحقوق لتبقى لورثتهم « وعن أيمانهم » أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلاله وتحسين الشبهة « وعن شمائلهم » بتحبيب اللذة و تعليب الشهوات على قلوبهم .

و في تفسير العياشي عن الصادق عليهما السلام : والذى بعث محمدًا للعارفية والأ بالسورة على المؤمن أكثر من الزنا يبر على اللحم .

و في المعاني عن الرضا عليهما السلام : إنّه سمي إبليس لأنّه أblas من رحمة الله .

و في تفسير القمي حدثني أبي رفعه قال : سئل الصادق عليهما السلام عن جنة آدم من جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة ؟ فقال : كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر ، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً .

قال : فلماً أسكنه الله تعالى الجنة وأباحها له إلّا الشجرة لأنّه خلق خلقة لا تبقى إلّا بالأمر والنهي و الغذاء واللباس والاكتنان والنكاح ، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلّا بالتوفيق فجاءه إبليس فقال له : إنّكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي عنها كهـما الله عنها صرتما ملـكـين وبقيـتـما في الجـنـةـ أـبـداـ ، و إنـ لمـ تـأـكـلـاـ منهاـ أـخـرـ جـكـماـ

الله من الجنة ، وحلف لهم أنّه لهم ناصح كما قال الله عزّ وجلّ حكاية عنه : «ما نهَاكم ربّكم عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملوكين أو تكونا من الخالدين» ، وفاسمهما إني للكما ملن الناصحين » فقبل آدم قوله فأكلا من الشجرة فكان كما حكى الله : «فبدت لهم سوآتهم» وسقط عنهم ما ألبسهما الله تعالى من لباس الجنة ، وأقبلوا يستقران من ورق الجنّة ، وناداهما ربّهما المأنّه كما عن تلکمها الشجرة وأقلّ لكم إلّا الشيطان لكم عدوّ بين فقاًلا كما حكى الله عنهم : «ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترجعنا لنكوننّ من الخاسرين» فقال الله لهم : «أهبطوا بعضاً عدوّ و لكم في الأرض مستقرّ و متع إلى حين» قال : إلى يوم القيمة .

وفي الكافي عن عليّ بن إبراهيم روي عن أبي عبدالله عليهما السلام قال : لما خرج آدم من الجنّة نزل عليه جبرئيل فقال : يا آدم أليس خلقك الله بيده ، وفتح فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وزوجك حواء امته ، وأسكنك الجنّة وأباها لك ونهاك مشافهة أن تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت الله ؟ فقال آدم : يا جبرئيل إلّا إبليس حلف لي بالله إلّه لي ناصح بما ظنت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً .
أقول : وقد تقدّمت عدة من روایات القصّة في سورة البقرة وسيأتي إن شاء الله بعضها في مواضع أخرى مناسبة لها .

وفي تفسير القمي عن الصادق عليهما السلام في حديث : فقال إبليس : يا ربّ فكيف وأنت العدل الذي لا يجور فثواب عملي بطل ؟ قال : لا ، ولكن سلني من أمر الدنيا ما شئت ثواباً لعملك أعطاك . فأول ما ميّأ : البقاء إلى يوم الدين فقال الله : وقد أعطيتك . قال : سلطني على ولد آدم قال : سلطتك . قال : أجرني فيهم مجرى الدم في العروق . قال : قد أجريتك . قال : لا يوجد لهم ولد إلّا ولد لي اثنان وأراهم ولا يرونني وأتصور لهم في كلّ صورة شئت . فقال : قد أعطيتك . قال : يا ربّ زدني . قال : قد جعلت لك ولذرّيتك صدورهم أوطاناً قال : ربّ حسبي .

قال إبليس عند ذلك : فبغزّتك لأنّو نحنهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين .
أقول : تقدّم ما يتبّعه من معنى الحديث ، قوله : «أتصور لهم في كلّ صورة

شئت » لا يدلّ على أزيد من أنّ له أني تصرف في حاسة الإنسان بظهوره في أيّ صورة شاء عليها ، وأمّا تغيير ذاته في نفسه كييفما شاء وأراد فلا .

والذى ذكره بعضهم : أنّ أهل العلم أجمعوا على أنّ إبليس وذرّيته من الجنّ وأنّ الجنّ أجسام لطيفة هوائة تتشكل باشكال مختلفة حتى الكلب والخنزير ، وأنّ الملائكة أجسام لطيفة تتشكل باشكال مختلفة إلا الكلب والخنزير - وكأنّهم يريدون بذلك تغييرهم في ذواتهم - لا دليل عليه من نقل ثابت أو عقل ، وأمّا ما ادعى من الاجماع وما له إلى الاتفاق في الفهم فالحججية لمحصلته فضلاً عن منقوله ، وأما مأخذ في ذلك من الكتاب والسنة ما عرفت .

وكان الحديث ذريته وكثيرهم لا يتحصل منه إلا أنّ لها كثرة في العدد تنشعب من إبليس نفسه ، وأمّا كيف ذلك ؟ وهل هو بطريق التناسل المعهود بيننا أو بنحو البيض والإفراخ أو بنحو آخر لا سيل لنا إلى فهمه ؟ فممّا هو مجهول لنا .

نعم هناك روايات معدودة تذكر أنّه ينكح نفسه ويبيض ويفرخ أو أنّ له في فخذيه عضواً التناسل الموجودان في الذكر والأُنثى فينكح بهما نفسه ويولد له كلّ يوم عشرة وأمّا ولده فكليم ذكران لا توالد بينهم أو توالدهم بالازدواج نظير الحيوان فكلّ ذلك مما لا دليل عليه إلا بعض الآحاد من الأخبار وهي ضعاف ومراسيل ومقاطعيع وموقوفات لا يعول عليها وخاصة في أمثال هذه المسائل مما لا اعتماد فيها إلا على آية محكمة أو حديث متواتر أو محفوف بقرينة قطعية ، وليست ظاهرة الانطباق على القرآن الكريم حتى تصحّح بذلك .

وفي الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمر عن حمّاد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من قلب إلا له أذنان على إحداها ملك مرشد ، وعلى الأخرى شيطان مفتتن هذا يأمره ، وهذا يزجره ، الشيطان يأمره بامعاصي ، وأملك يزجره عنها ، وذلك قول الله عزّ وجلّ : « عن اليمين وعن الشمال قعيديما يلقط من قول إلا لديه رقيب عتيد ». وفي البخار : الشهاب : قال رسول الله عليه السلام : إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

و في صحيح مسلم عن ابن مسعود : إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ما من أحد إلَّا وقد وَكَلَّ
بِهِ قرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ . قالوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَإِيَّاهُ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ
فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ .

أقول : قوله : « فأَسْلَمَ » أَخْدَهُ بعْضُهُم بضمِّ الْمِيمِ وبعْضُهُم بالفتحِ .

و في تفسير العياشي عن جحيل بن دراج قال : سألت أبا عبد الله عَلِيهِمَا عن إبليس
أَكَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ كَانَ يَلِي شَيْئاً مِنْ أَمْرِ السَّمَاوَاتِ ؟ فَقَالَ : لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَكَانَ الْمَلَائِكَةُ
تَرَى أَنَّهُ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ يَلِي شَيْئاً مِنْ أَمْرِ السَّمَاوَاتِ وَلَا
كِرَامَةً .

فَأَتَيْتُ الطَّيَّارَ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَا سَمِعْتُ فَأَنْكَرُوهُ قَالَ : كَيْفَ لَا يَكُونُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟ وَ
اللَّهُ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : « اسْجُدُوا لِلنَّاسِ إِلَّا إِبْلِيسُ » فَدَخَلَ عَلَيْهِ الطَّيَّارُ فَسَأَلَهُ وَأَنَا
عِنْهُ فَقَالَ لَهُ : قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فِي غَيْرِ مَكَانٍ فِي مُخَاطَبَةِ الْمُؤْمِنِينَ
أَيْدَخَلَ فِي هَذِهِ الْمُنَافِقُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْمُنَافِقُونَ وَالضَّلَالُ وَكُلُّ مِنْ أَفْرَادِ
بِالدُّعْوَةِ الظَّاهِرَةِ .

أقول : و في الحديث ردّ ماروي أنَّه كان من الملائكة و أنَّه كان خازناً في السماء
الخامسة أو خازن الجنّة .

و أعلم أنَّ الأخبار الواردة من طرق الشيعة و أهل السنّة في أنحاء تصرُّفاته كثيرة
من أن تتحصى ، وهي على قسمين : أحدهما : ما يذهب إلى تصرُّفاته منه من غير تفسير ، والثاني :
ما يذهب إلى تصرُّفاته مع تفسير ما .

فهنَّ : القسم الأوَّلُ ما في الكافي عن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : لَا تَؤْوِي مَنْ دَلَّ اللَّهُمَّ فِي الْبَيْتِ فَإِنَّهُ
مِرْبُضُ الشَّيْطَانِ ، وَلَا تَؤْوِي التَّرَابَ خَلْفَ الْبَابِ فَإِنَّهُ مَأْوَى الشَّيْطَانِ .
وَفِيهِ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : إِنَّ عَلَيْهِ ذَرْوَةَ كُلِّ جَسْرٍ شَيْطَانًا فَإِذَا انتَهَيْتَ إِلَيْهِ فَقُلْ :
بِسْمِ اللَّهِ يَرْحُلُ عَنْكَ .

و فيه عن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ .
وَفِيهِ عَنِ الْأَحَدِهِمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : لَا تَشَرِّبُ وَأَنْتَ قَائِمٌ ، وَلَا تَبْلِغُ فِي مَاءٍ نَقِيعٍ ، وَلَا

تطف بقبر ، ولا تدخل في بيت و حدى ولا تمش بنعل واحدة فـإِنَّ الشيطان أسرع ما يكون إلى العبد إِذَا كان على بعض هذه الأحوال .

و فيه عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : إذا ذكر اسم الله تعالى الشيطان ، و إِنْ فعل ولم يسمْ أدخل ذكره وكان العمل منها جميعاً و النطفة واحدة .

و في تفسير القمي عَنْهِ السَّلَامُ : مakan من مال حرام فهو شرك الشيطان .

وفي الحديث : من نام سكران بات عروساً للشيطان .

أقول : ومن هذا الباب قوله تعالى : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذْلَامُ رجس من عمل الشيطان » المائدة : ٩٠ .

ومن القسم الثاني ما في الكافي عن الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ هذا الغضب جرة من الشيطان توقى في قلب ابن آدم .

و عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع .

وفي المحاسن عن الرضا عن آبائه عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث : فَأَمَّا كِحْلَهُ فَالنُّومُ وَأَمَّا سَفْوَهُ فَالغَضَبُ ، وَأَمَّا لَعْوَهُ فَالكَذْبُ .

و في الحديث : أَنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأَاهُ وَعَلَيْهِ بَرْ نَسٌ فَسَأَلَهُ عَنْ بَرْ نَسِهِ فَقَالَ : بِهِ أَصْطَادَ قلوب بني آدم .

و في المجالس ابن الشيخ عن الرضا عن آبائه عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ يَأْتِي الْأَنْبِيَاءَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ مُسَيْحًا يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ وَيُسَأَلُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَشَدُّ أَنْسَاً مِنْهُ يَبْحَثُ بْنَ زَكْرِيَّاً فَقَالَ لَهُ يَبْحَثُ : يَا أَبْارِزَةَ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَقَالَ : أَنْتَ أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْ أَنْ أَرْدِكَ بِمَسَأَلَةِ فَاسْأَلْنِي مَا شَاءْتَ فَإِنِّي غَيْرُ مِخَالِفِكَ فِي أَمْرٍ تَرِيدُهُ فَقَالَ : يَبْحَثُ يَا أَبْارِزَةَ أَحَبُّ أَنْ تَعْرَضَ عَلَيَّ مَصَائِدَكَ وَفِخُوكَ الَّتِي تَصْطَادُ بِهَا بَنِي آدَمَ فَقَالَ لِإِبْلِيسَ : حَبَّاً وَ كِرَاماً وَوَاعِدَهُ لَخَدَ .

فَلَمَّا أَصْبَحَ يَبْحَثُ قَدِمَ فِي بَيْتِهِ يَنْتَظِرُ الْوَعْدَ ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ الْبَابُ إِغْلَاقًا فَمَا شَعَرَ حَتَّى سَاوَاهُ مِنْ خَوْخَةٍ كَانَتْ فِي بَيْتِهِ فَإِذَا وَجَهَهُ صُورَةُ وَجْهِ الْقَرْدِ ، وَجَسَدُهُ عَلَى صُورَةِ الْخَنْزِيرِ ،

وإذا عيناه مشقوقة طولاً ، وإذا أسنانه وفمه مشقوقات طولاً عظماً واحداً بلا ذقن ولا لحية ، و له أربعة أيد يدان في صدره و يدان في منكبه ، وإذا عرقيه قوادمه وأصابعه خلفه و عليه قباء وقد شدّ وسطه بمنطقة فيها خيوط معلقة بين أحمر وأصفر وأخضر و جميع الألوان ، وإذا بيده جرس عظيم وعلى رأسه بيضة ، وإذا في البيضة حديدة معلقة شبيهة بالكلاب .

فلمّا تأمّله يحيى قال : ما هذه المنطقة التي في وسطك ؟ فقال : هذه المجوسيّة أنا الذي سننتها و زينتها لهم فقال له : ما هذه الخطوط الأولى ؟ فقال : هذه جميع أصناع النساء لا تزال امرأة تصنع الصنائع حتى يقع مع لوتها فأفتقن الناس بها فقال له : فما هذا الجرس الذي يبدئ ؟ قال : هذا مجمع كل لذة من طنبور و بربط و معزفة و طبل و ناي و صرناي ، وإنّ القوم ليجلسون على شرائهم فلا يستلذون به فأحرّك الجرس فيما بينهم فإذا سمعوه استخفّ بهم الطرف فمن بين من يرقص ، ومن بين من يفرقع أصابعه ، ومن بين من يشقّ ثيابه .

قال له : وأي الأشياء أقرّ لعينك ؟ قال : النساء ، هنّ فخومي ومصادمي فإذا اجتمعت إلى دعوات الصالحين و لعناتهم صرت إلى النساء فطابت نفسي بهنّ . فقال له يحيى : بما هذه البيضة على رأسك ؟ قال : بما أتوّقى دعوة المؤمنين . قال : فما هذه الحديدة التي أرى فيها ؟ قال : بهذه أقلب قلوب الصالحين . قال يحيى : فهل ظفرت بي ساعة قطّ ؟ قال : لا ولكن فيك خصلة تعجبني . قال يحيى : فما هي ؟ قال : أنت رجل أكول فإذا أفترطت أكلت وبشتت فيمنعك ذلك من بعض صلاتك و قيامك بالليل . قال يحيى : فإنّي أعطي الله عهداً أن لا أنسحب من الطعام حتى ألقاه . قال له إبليس : وأنا أعطي الله عهداً أن لا أسلمأ حتى ألقاه ، ثم خرج فما عاد إليه بعد ذلك .

أقول : و الحديث مرويّ من طرق أهل السنة بوجه أبسط من ذلك ، وقد روّي له مجالس ومحاورات ومشافهات مع آدم ونوح وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم ، وهناك - كما مرّت الإشارة إليه - روایات لا تُحصى كثرة في أنحاء تسوياته وأنواع تزييناته عند أنواع المعاصي والذنوب رواها الفريغان ، والجميع تشهد أوضح شهادة على أنها تشكلات

مثالية على حسب ما يلائم نوع المعصية من الشكل والكيفية ويناسبها نظير ما تتمثل الحوادث في الرؤيا على حسب المناسبات المألوفة والاعتقادات المعتادة.

ومن التأمل في هذا القسم الثاني يظهر أن الكيفيات والخصوصيات الواردة في القسم الأول أخذت كور من الأخبار إنّما هي أنواع نسب بين هذا الموجود أعني إبليس وبين الأشياء تدعو إلى وساوس وخطرات تناسبها.

فالجميع من التجسسات المثلالية التي تناسبها الأفعال أو الأشياء غير التجسم المادي الذي ربّما مال إليه الحشوية وبعض أهل الحديث حتى تكون الم gioسيّة مثلاً اعتقاداً عند الإنسان وهي بعينها منطقة من أديم عند إبليس يشدّ بها وسطه، أو أن يصير إبليس تارة آدمياً لهحقيقة الإنسان وقواه وأعماله وتارة شيئاً من الحيوان الأعجم لهحقيقة نوعية وتارة بحدّه ليس بذري حياة وشعور، أو أن هذه النوعيات جميعاً هي أشكال وصور عارضة على مادة إبليس فالروايات أجنبية عن الدلالات على أمثال هذه المحمولات. وإنّما هي روايات جمة لاري في صدور مجتمعها من حيث المجموع وتأييد القرآن

لها كذلك وهي تدلّ على أن لا إبليس أن يظهر لحواسينا بمختلف الصور هذا من حيث المجموع وأمّا كل واحد واحد فما صحي منها سندًا وليس الجميع على هذه الصفة - فهو من الآحاد التي لا يغول عليها في أمثال هذه المسائل الأصلية نعم ربّما أمكن استفادة حكم فرعوي منها من استحباب أو كراهة على ما هو شأن الفقيه.



يَا بَنِي آدَمْ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ بِيَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسًا النَّقْوَى
 ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَغْفِنَنَّكُمْ
 أَشَيْطَانٌ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزَعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيَرِيهِمَا سَوْآتِهِمَا
 إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوكُمْ فَاحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا قُلْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمْرُ رَبِّيْ بِالْفَسْطِ
 وَأَقِمُوا وَجُوهَكُمْ عَنِّدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأْتُمْ
 تَعْوِدُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدِيْ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ
 عَنِّدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تَسْرُفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ
 حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالظَّيَّابَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هَيْ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمةِ كَذَلِكَ نَفْصُلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ
 إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّيْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ
 إِنَّمَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
 (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلَهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
 يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَا تَبَّئِنَكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٤) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكَبَرُوا عَنْهَا
 أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٥)

﴿بيان﴾

التدبر في هذه الخطابات وما تقدّم عليها من قصة السجدة والجنة ثم عرض ذلك جيّعاً على ما ورد من القصة والمخاطبة في غير هذه السورة وخاصة سورة طه المكثة التي هي كجمال هذه السورة المفصلة وسورة البقرة المدنية يهدينا إلى أن هذه الخطابات العامة المصدرة بقوله : يا بني آدم يا بني آدم هي تعميم الخطابات الخاصة التي وجّهت إلى آدم كما أنّ القصة عمّت نحواً من التعميم في هذه السورة ، وقد أشرنا إليه فيما تقدّم .

وهذه الخطابات الأربع المصدرة بقوله : يا بني آدم ثلاثة منها راجعة إلى التحذير من فتنة الشيطان وإلى الأكل والشرب واللباس تعميم ما في قوله تعالى في سورة طه : « يا آدم إِنَّ هَذَا عَدُو لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يَخْرُجَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَقَا إِنَّكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِي وَأَنْكَ لَا تَظْمَأْ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » الآيات طه : ١١٩ والرابعة تعميم قوله فيها : « فَإِمَّا يَأْتِينَكُمْ مِنِّي هُدٰى وَإِمَّا يَأْتِينَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفَّارِ فَلَا يُنْهَا بِنِعَمَتِنَا إِنَّمَا يُنْهَا بِمَا كَفَرَتْ بِهَا » الخ طه : ١٢٣ .

ويعلم من انتراع هذه الخطابات من قصتها و تعميمها بعد التخصيص ثم تفريع أحكام أخرى عليها ذيلت بها الخطابات المذكورة أن هذه الأحكام المشرعة المذكورة هنا على الإجمال أحكام مشرعة في جميع الشرائع الإلهية من غير استثناء كما يعلم أن ما قدّر لـ إنسان من سعادة و شقاوة و سائر مقدرات الإنسانية كالأحكام العامة جميعها تنتهي إلى تلك القصة فهي الأصل تفرّع عليه هذه الفروع ، و الفهرس الذي يشير إلى التفاصيل .

قوله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم و ريشاً » اللباس كلّ ما يصلح للبس وستر البدن وغيره ، وأصله مصدر يقال : لبس يلبس لباساً - بالكسر والفتح - ولباساً ، والريش ما فيه الجمال مأخوذ من ريش الطائر ملائفيه من أنواع الجمال و الزينة ، وربما يطلق على أثاث البيت ومتعاه .

وَكَانُوا مُطْرَادًا مِنْ إِنْزَالِ الْلِّبَاسِ وَالرِّيشِ عَلَيْهِمْ خَلْقَهُ لَهُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ شَدِيدِ وَمِنْ نَافِعٍ » الْحَدِيدُ : ٢٥ وَقَوْلُهُ : « وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةً أَزْوَاجًا » الزُّمُرُ : ٦ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَإِنْ مَنْ شَاءَ إِلَّا عَنْدَنَا خَزَانَهُ وَمَا نَنْزَلْنَاهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ » الْحَجَرُ : ٢١ فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْلِّبَاسَ وَالرِّيشَ بِالخَلْقِ مِنْ غَيْرِ مَا عَنْهُ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَهُوَ الْخَلْقُ .

وَاللِّبَاسُ هُوَ الَّذِي يَعْمَلُهُ إِنْسَانٌ صَالِحًا لَا نَرَى يَسْتَعْمِلُهُ بِالْفَعْلِ دُونَ الْمَوَادِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ قَطْنٍ أَوْ صُوفٍ أَوْ حَرَبِرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكِ مَمَّا يَأْخُذُهُ إِنْسَانٌ فَيُضَيِّفُ إِلَيْهِ أَعْمَالًا صَنَاعِيَّةً مِنْ تَصْفِيفٍ وَغَزْلٍ وَنَسْجٍ وَقَطْعٍ وَخِيَاطَةٍ فَيُصَيِّرُ لِبَاسًا صَالِحًا لِلِّبَاسِ فَعَدَ الْلِّبَاسُ وَالرِّيشُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَهُمَا مِنْ عَمَلِ إِنْسَانٍ نَظِيرٍ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » الصَّافَاتُ : ٩٦ ، مِنَ النَّسْبَةِ .

وَلَا فَرْقٌ مِنْ جَهَةِ النَّظَرِ فِي التَّكْوينِ بَيْنَ نَسْبَةِ مَا عَمَلَهُ إِنْسَانٌ إِلَى اللَّهِ سَبِّحَانَهُ وَمَا عَمَلَهُ مُنْتَهِيًّا إِلَى أَسْبَابِ جَهَنَّمِ أَهْدَهَا إِنْسَانٌ ، وَنَسْبَةِ سَائِرِ مَا عَمَلَتْهُ الطَّبَائِعُ وَلَهَا أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ أَحَدُهَا الْفَاعِلُ كَنْبَاتُ الْأَرْضِ وَصَفْرَةُ الذَّهَبِ وَحَلاوةُ الْعَسْلِ فَإِنْ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ بِجَمِيعِ مَا فِيهَا مِنَ الْقَدْرَةِ مُنْتَهِيَّةٌ إِلَيْهِ سَبِّحَانَهُ وَهُوَ مُحِيطٌ بِهَا .

وَلَيُسْتَهِنَّ الْخَلْقَةُ مِنْ تَسْبِيْهٍ إِلَى الْأَشْيَاءِ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ مَوَارِدِهَا مَتَّقِفَةً فِي مَعْنَى الْإِنْتِهَاءِ إِلَيْهِ إِلَّا مَا فِيهَا مَعْنَى النَّقْصِ وَالْقَبْحِ وَالشَّنَاعَةِ مِنَ الْمَعَاصِي وَنَحْوُهَا فِي حَقِيقَتِهَا فَقَدْانِ الْخَلْقَةِ الْحَسَنَةُ أَوْ مُخَالَفَةُ الْأُمْرِ الْإِلَهِيِّ ، وَلَيُسْتَهِنَّ بِمَخْلوقَةِ لَهُ وَإِنَّمَا هِيَ أَوْصَافٌ نَقْصٌ فِي أَعْمَالِ إِنْسَانٍ مَثَلًا فِي بَاطِنِهِ أَوْ ظَاهِرِهِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَتِ الْإِشَارةُ إِلَى هَذِهِ الْحَقْيَقَةِ فِيمَا مَرَّ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْكِتَابِ .

وَتَوْصِيفُ الْلِّبَاسِ بِقَوْلِهِ : « يَوْمَ يُرِي سُوَآتِكُمْ » لِلدلَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُرْدَادَ بِاللِّبَاسِ مَا تَرْفَعُ بِهِ حَاجَةُ إِنْسَانٍ الَّتِي اضْطَرَّتْهُ إِلَى اتِّخَازِ الْلِّبَاسِ وَهِيَ مَوَارِثَةُ سُوَآتِهِ الَّتِي يَسُوْؤُهُ انْكِشَافُهَا ، وَأَمَّا الرِّيشُ فَإِنَّمَا يَتَّسِعُ لِجَمَالِ زَائِدٍ عَلَى أَصْلِ الْحاجَةِ .

وَفِي الْآيَةِ امْتِنَانٌ بِهِدَايَةِ إِنْسَانٍ إِلَى الْلِّبَاسِ وَالرِّيشِ وَفِيهَا - كَما قِيلَ - دَلَالَةٌ عَلَى إِبَاحةِ لِبَاسِ الزَّيْنَةِ .

قوله تعالى : «ولباس التقوى ذلك خير» إلى آخر الآية . انتقل سبحانه من ذكر لباس الظاهر الذي يواري سوآت الإفسان فيتّقي به أن يظهر منه مايسوؤه ظهوره ، إلى لباس الباطن الذي يواري السوآت الباطنية التي يسوء الإنسان ظهورها وهي رذائل المعاشي من الشرك وغيره ، وهذا اللباس هو التقوى الذي أمر الله به .

وذلك أنَّ الذي يصيب الإنسان من ألم المساعدة وذلة الهوان من ظهور سوآته روحيٌّ من سخيف واحد في السوآتين إلَّا أنَّ ألم ظهور السوآت الباطنية أشدُّ وأمرٌ وأبقى فالمحاسب هو الله ، والتبيعة شفقة لازمة ، ونار تطلُّع على الأفئدة ، ولذلك كان لباس التقوى خيراً من لباس الظاهر .

وللاشارة إلى هذا المعنى وتقديم الفائدة عقب الكلام بقوله : «ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون» فاللباس الذي اهتدى إليه الإنسان ليعرف به حاجته إلى مواراة سوآته التي يسوؤه ظهورها آية إلهية إن تأمّله الإنسان وتبصر به تذكّر أنَّ له سوآت باطنية تسوؤه إن ظهرت وهي رذائل النفس ، وسترها عليه أوجب وألزم من ستراً السوآت الظاهرة بلباس الظاهر واللباس الذي يسترها ويرفع حاجة الإنسان الضرورية هو لباس التقوى الذي أمر الله به وببيته بلسان أنبيائه .

وفي تفسير لباس التقوى أقوال أخرى مأثورة عن المفسّرين : قيل : هو الإيمان والعمل الصالح ، وقيل : هو حسن السمعة الظاهرة ، وقيل : هو الحياة ، وقيل : هو لباس النسك والتواضع كلبس الصوف والخشن ، وقيل : هو الإسلام ، وقيل : هو لباس الحرب وقيل : هو ما يستر العورة ، وقيل : هو خشية الله ، وقيل : هو ما يلبسه المتقون يوم القيمة هو خير من لباس الدنيا : وأنت ترى أن شيئاً من هذه الأقوال لا ينطبق على السياق ذاك الانطباق .

قوله تعالى : «يا بني آدم لا يقتتنكم الشيطان كما أخرج أبوكم من الجنة» إلى آخر الآية . الكلام وإن كان مقصولاً عمّا قبله بتصريره بخطاب «يا بني آدم» إلَّا أنه بحسب المعنى من تتمة المفاد السابق ، ولذا أعاد ذكر السوآت ثانيةً فيرجع المعنى إلى أنَّ لكم معاشر الآدميين سوآت لا يسترها إلا لباس التقوى الذي ألبسناكموه بحسب الفطرة

الّتي فطرناكم عليها فاٰياتكم أن يفتنكم الشيطان فينزع عنكم ذلك كما نزع لباس أبويكم في الجنة ليريهما سوآتهما فاٰنـا جعلنا الشياطين أولياء ملـن تبعهم ولم يؤمـن بـآياتنا.

ومن هنا يظهر أن ماصنعه إبليس بهما في الجنة من نزع لباسهما ليريهما سوآتهما كان مثلاً لنزعه لباس التقوى عن الآدميين بالفتنة وأن الإِنسان في جنة السعادة ما لم يفتن به فـإذا افتنـن أخرجه الله منها.

وقوله : « إِنَّهُ يرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ » تأكيد للنبي و بيان لدقـة مسلكه و خفاء سرهـ دقة لا يميـزه حسـ الإِنسان و خفاءـ لا يقع عليه شعوره فـإنهـ لا يرى إـلا نفسهـ من غيرـ أنـ يشعرـ أنـ وراءـهـ منـ يـأـمرـهـ بالـشـرـ ويـهـدـيهـ إـلـىـ الشـقـوةـ .

وقوله : « إِنَّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » تأكيد آخر للنبي ، وليسـت ولاـيـهـمـ وـتصـرـ فـهـمـ فيـ الإـنـسانـ إـلاـ ولاـيـةـ الـفـتـنـةـ وـالـغـرـورـ فـإـذـاـ اـفـتـنـ وـاعـتـرـ بـهـمـ تـصـرـ فـوـاـ بـمـاـ شـاؤـاـ وـكـمـ أـرـادـواـ كـمـ قـالـ تعـالـىـ مـخـاطـبـاـ لـإـبـلـيسـ : « وـاسـتـفـزـ مـنـ استـطـعـتـ مـنـهـمـ بـصـوـتـكـ وـأـجـلـبـ عـلـيـهـمـ بـخـيـلـكـ وـرـجـلـكـ وـشارـكـهـمـ فيـ الـأـمـوـالـ وـالـأـوـلـادـ وـعـدـهـمـ وـمـاـ يـعـدـهـمـ الشـيـطـانـ إـلاـ غـرـورـ إـنـ عـبـادـيـ لـيـسـ لـكـ عـلـيـهـمـ سـلـطـانـ وـكـفـيـ بـرـبـكـ وـكـيـلاـ » أـسـرـىـ : ٦٥ـ ، وـقـالـ : « إـنـهـ لـيـسـ لـهـ سـلـطـانـ عـلـىـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ وـعـلـىـ رـبـهـمـ يـتـوـكـلـونـ » النـحـلـ : ٩٩ـ ، وـقـالـ : « إـنـ عـبـادـيـ لـيـسـ لـكـ عـلـيـهـمـ سـلـطـانـ إـلاـ مـنـ اـتـبـعـكـ مـنـ الـغـاوـيـنـ » الـحـجـرـ : ٤٢ـ .

ومن الآيات بانضمامها إلى آياتنا المبحوث عنها يظهر أن لا ولاية لهم على المؤمنين وإن مسـهمـ طـائـفـ مـنـهـمـ أـحـيـاناـ ، وـأـنـ لـاـ سـلـطـانـ لـهـ عـلـىـ الـمـتـوـكـلـينـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ وـهـمـ الـذـيـنـ عـدـهـمـ اللهـ عـبـادـاـ لـهـ بـقـوـلـهـ : « عـبـادـيـ » فـلاـ وـلـاـيـةـ لـهـ إـلاـ عـلـىـ الـذـيـنـ لـاـ يـؤـمـنـونـ ، والظاهرـ أنـ الـمـرـادـ بـهـ عـدـمـ الـإـيمـانـ بـآـيـاتـ اللهـ بـتـكـذـيـبـهـاـ وـهـوـ أـخـصـ مـنـ وـجـهـ مـنـ عـدـمـ الـإـيمـانـ بـالـلهـ الـذـيـ هوـ الـكـفـرـ بـالـلهـ بـشـرـكـ أـوـ نـفـيـ ، وـذـلـكـ لـأـنـ هـذـاـ الـكـفـرـ هـوـ الـذـكـورـ فـيـ الـخـطـابـ الـعـامـ الـذـيـ فـيـ ذـيـلـ الـقـصـةـ مـنـ سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ حـيـثـ قـالـ تعـالـىـ : « قـلـنـاـ اـهـبـطـواـ مـنـهـاـ جـمـيعـاـ فـإـمـاـ يـأـتـيـنـكـ مـنـيـ هـدـيـ إـلـىـ أـنـ قـالـ وـالـذـيـنـ كـفـرـواـ وـكـذـبـواـ بـآـيـاتـناـ أـوـلـئـكـ أـصـحـابـ النـارـ هـمـ فـيـهـاـ خـالـدـونـ » الـبـقـرـةـ : ٣٨ـ وـفـيـ ذـيـلـ هـذـهـ الـآـيـاتـ مـنـ هـذـهـ السـوـرـةـ حـيـثـ

قال : « والذين كذّبوا بآياتنا واستكثروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »
الأعراف : ٣٦

قوله تعالى : « و إِذَا فَعَلُوْا فاحشة قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءُنَا وَاللهُ أَمْرَنَا بِهَا » إلى آخر الآية رجوع من الخطاب العام لبني آدم إلى خطاب النبي عليهما السلام خاصة ليتوسّل به إلى انتزاع خطابات خاصة يوجهها إلى أمته كما جرى نظيره من الالتفات في الخطاب المتقدم (يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً) حيث قال : « ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » لنظير الغرض .

وبالجملة فقد استخرج من هذا الأصل الثابت في قصة الجنة وهو أمر ظهور السوآت الذي أفضى إلى خروج آدم وزوجته من الجنة أن الله لا يرضى بالفحشاء الشنيعة من أفعال بني آدم ، فذكر إتيان المشركين بالفحشاء ، واستنادهم في ذلك إلى عمل آبائهم وأمر الله سبحانه بها فأمر رسوله عليهما السلام أن يردد عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء ، وينذرهم أن ذلك من القول على الله بغير علم والاقتراء عليه ، كيف لا وقصة الجنة شاهدة عليه .

وقد ذكر لهم في فعلهم الفحشاء عذرين يعتقدون بهما ومستندين يستندون إليهما وما فعل آبائهم وأمر الله إياهم بها ، وكان الثاني هو الذي يربط بالخطاب العام المستخرج من قصة الجنة فقط ، ولذلك تعرضاً لدفعه وردّه عليهم ، وأمّا استنادهم إلى فعل آبائهم فذلك وإن لم يكن مما يرتضيه الله سبحانه وقد ردّه في سائر كلامه بمثل قوله : « أولو كان آباءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ».

وقد ذكر جمع من المفسّرين أنّ قوله : « وَإِذَا فَعَلُوْا فاحشة » الخ إشارة إلى مكاناً معمولاً عند أهل الجاهلية من الطواف بالبيت الحرام عراةً يقولون : نطوف كما ولدتنا أمّهاتنا ولا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب ، ونقل عن الفرّاء أنّهم كانوا يعملون شيئاً من سير مقطعة يشدّونه على حقوقهم يسمّى حوفاً وإن عمل من صوف سمّي رهطاً وكانت المرأة تضع على قبليها نسعة أو شيئاً آخر فتقول :

اليوم يبدوا بعضه أو كلّه
وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحْلِمُ
وَلَمْ يَنْزِلْ دَائِرًا بَيْنَهُمْ حَتَّىٰ مِنْهُمْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْفَتْحِ حِينَ بَعْثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

آيات البراءة إلى مكّة .

وكان النبي ﷺ أو بعض المسلمين كانوا يعيرونهم على ذلك فيعتذرون إليهم بقولهم : « وجدنا عليه آباءنا والله أمرنا بهذا » فرد الله سبحانه عليهم وذمّهم بقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا تَعْلَمُونَ ». .

وليس ما ذكره بعيد و في الآية بعض التأييد له حيث وصفت ما كانوا يفعلونه بالفحشاء وهي الأمر الشنيع الشديد القبح ثم ذكرت أنهم كانوا يعتذرون بأن الله أمرهم بذلك .
ولازم ذلك أن يكون ما فعلوه أمراً شنيعاً أتوا به في صفة العبادة والنسك كالطواف عارياً ،
والآية مع ذلك أبهمت الفحشاء فتصلح أن تنطبق على فعلهم ذلك ، وعلى مصاديق أخرى
ما أكثر وجودها بين الناس وخاصة في زماننا الذي نعيش فيه .

قوله تعالى « قل أَمْرِ رَبِّيْ بالقُسْطِ وَأَقِيمُوا وَجْهَكُمْ عِنْدَ كُلّ مسجدٍ وادعوه
مخلصين لِهِ الدِّينِ » ملأ نفث الآية السابقة أن يأمر الله سبحانه بالفحشاء وذكر أن ذلك
افتراء عليه وقول بغير علم لعدم انتهايه إلى وحي أوحى به الله بادرت هذه الآية إلى ذكر
ما أمر به وهو لامحالة أمر يقابل ما استثننته الآية السابقة وعدّته فحشاء مما فيه من بلوغ
القبح والإفراط والتفريط فقال : « قل أَمْرِ رَبِّيْ بالقُسْطِ . الخ .

والقسط على ما ذكره الراغب هو النصيب بالعدل كالنصف والنصف قال : « ليجزي
الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » « وأقيموا الوزن بالقسط» و القسط هو أن يأخذ
قسط غيره ، وذلك جور والإفراط أن يعطي قسط غيره ، وذلك إنصاف ، ولذلك قيل : قسط
الرجل إذا جاز وأقسط إذا عدل قال : « وأمّا الظالمون فكانوا الجهنّم حطباً » وقال : « و
أقسطوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ». (انتهى كلامه) .

فالمراد : قل أَمْرِ رَبِّيْ بالنصيب العدل ولزوم وسط الاعتدال في الأمور كلّها وأن
تجتنبوا جاني الإفراط والتفريط فأقسطوا وأئيروا وأفروا ونفوسكم عند كل معبود تعبدون
الله فيها وادعوه بأخلاص الدين له من غير أن تشركوا بعبادته صنماً أو أحداً من آباءكم
وكبرائكم بالتقليل لهم وهذا هو القسط في العبادة .

فقوله : « وَأَقِيمُوا وَجْهَكُمْ عِنْدَ كُلّ مسجدٍ » معطوف ظاهراً على مقول القول لأنّ

معنى أَمْرِ رَبِّي بالقسط : أُفْسِطُوا وَأُقْيِمُوا (الخ) والوجه هو ما يتوجه به إلى الشيء ، وهو في حال تمام النفس الإنسانية ، وإقامتها عندها إيجاد القيام بالأمر لها أي إيفاؤه والإتيان به كما ينبغي تماماً غير ناقص فيؤول معنى إقامة الوجه عند العبادة إلى الاشتغال بالعبادة والانقطاع عن غيرها .

فيفيد قوله : « وَأَقْيِمُوا وَجْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مسجد » إذا انصمّ إليه قوله : « وَادْعُوهُ مخلصين له الدين » وجوب الانقطاع للعبادة عن غيرها والله سبحانه عن غيره كما عرفت ، و من الغير الذي يجب الانقطاع عنه إلى الله سبحانه نفس العبادة ، وإنما العبادة توجه لا متوجه إليها ، والتوجه إليها يبطل معنى كونها عبادة وتوجهها إلى الله فيجب أن لا يذكر الناسك في نسكه إلا ربه وينسي غيره .

وللمفسرين في معنى قوله : « وَأَقْيِمُوا وَجْهَكُمْ » الخ أقوال أخرى : منها : أن المعنى : توجّهوا إلى قبلة كل مسجد في الصلاة على استقامة . ومنها : أن المعنى : توجّهوا في أوقات المسجود وهي أوقات الصلاة إلى الجهة التي أمركم الله بها وهي الكعبة . ومنها : إذا أدر كتم الصلاة في مسجد فصلوا ولا تقولوا حتى أرجع إلى مسجدي . ومنها : أن المعنى : أقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمر فيها بالجماعة . ومنها : أن المعنى : أخلصوا وجوهكم لله بالطاعة فلا تشركوا به وثنا ولا غيره .

والوجه المذكور على علاّتها و إباء الآية عنها لا تناسب الثلاثة الأول منها حال المسلمين في وقت نزول السورة وهي مكية ولم تكن الكعبة قبلة يومئذ ، ولا كانت للمسلمين مساجد مختلفة متعددة ، وأخر الوجوه وإن كان قريباً مما قد منه إلا أنه ناقص في بيان الإخلاص المستفاد من الآية ، وما تضمنه إنما هو معنى قوله تعالى : « وَادْعُوهُ مخلصين له الدين » لا قوله : « وَأَقْيِمُوا » الخ كما تقدّم .

قوله تعالى : « كَمَا بَدَأْ كُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدِي وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالُ » إلى آخر الآية . ظاهر السياق أن يكون قوله « فَرِيقًا هَدِي وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالُ » حالاً من فاعل « تعودون » ويكون هو الوجه المشترك الذي شبه فيه العود بالبداء ، والمعنى : تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِرَادِي كَمَا خَلَقْنَا كُمْ

أول مرّة » الأنعام : ٩٤ ، والمعنى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرّة فرادى .
فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام ، وأمّا كون « فريقاً هدى » الخ حالاً لا يعود
عامله ، ووجه الشبه بين البدع والعود أمراً آخر غير مذكور ككونهم فرادى بدءاً وعوداً
أو كون الخلق الأول والثاني جميعاً من تراب أو كون البعث مثل إنشاء في قدرة الله إلى
غير ذلك مما احتملوا فوجوه بعيدة عن دلالة الآية ، وأيّ فائدة في حذف وجه الشبه من
الذكر وذكر ما لا حاجة إليه مع وقوع اللبس ، وسيجيء إن شاء الله توضيح ذلك .

و ظاهر البدع في قوله : « بدأكم » أول خلقة الإنسان الدنيوية لامجموح الحياة
الدنيوية قبل الحياة الأخرى فيكون البدع هو الحياة الدنيا والعود هو الحياة الأخرى
فيكون المعنى كنتم في الدنيا مخلوقين له هدى فريقاً منكم و حقت الصالحة على فريق آخر
كذلك تعودون كما يؤول إليه قول من قال : « إنّ معنى الآية : تبعثون على ما متّم
عليه : المؤمن على إيمانه ، والكافر على كفره » .

وذلك لأنّ ظاهر البدع إذا نسب إلى شيء ذي امتداد واستمرار بوجه أن يقع على
أقدم أجزاء وجوده الممتد المستمر لعلى الجميع ، و الخطاب للناس ب فهوهم أول خلقة
النوع الإنساني و بظهوره . على أنّ الآية من تتمّة الآيات التي يبيّن الله سبحانه
فيها بداعي إيجاده الإنسان بمثل قوله : و لقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة
اسجدوا للآدم » الخ فالمراد به كيفية البدع التي قصّها في أول كلامه ، وقد كان من القصة
أنّ الله قال لا بلليس ملائجه : « أخرج منها مذؤماً مدحوراً طن تبعك منهم لأملاك جهنم
منكم أجمعين » وفيه قضاء أن ينقسم بنو آدم فريقاً مهتدين على الصراط المستقيم ، و
فريقاً ضالين حقّاً فهذا هو الذي برأهم به وكذلك يعودون .

وقد يبيّن ذلك في مواضع أخرى من كلامه وأوضح من ذلك وأصرّح كقوله : « قال هذا صراط
علي مستقيم إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتباعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ و
هذا قضاء حتم وصراط مستقيم أنّ الناس طائفتان طائفة ليس لا بلليس عليهم سلطان و هم
الذين هداهم الله ، و طائفة متبعون لا بلليس غاوون و هم المفضي ضلالهم لاتباعهم الشيطان
و تولّهم إياته قال : « كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضلّه » الحجّ : ٤ ، وإنّما قضي ضلالهم

إثرا تسبّعهم و توّلّهم لا بالعكس كما هو ظاهر الآية .

و نظيره في ذلك قوله تعالى : « قال فالحقٌ والحقٌ أقول لأمَلَنْ جهنَّمْ منك و مُمِنْ تبعك هنَّمْ أجمعين » ص : ٨٥ فـ إِنَّه يدلّ على أنَّ هنَّاك قضاةٌ بتغْرِيْبِهِم فريقيْن ، و هذا التفَرْقُ هو الّذِي فرَّعَ تعالى عليه قوله إِذ قال : « قال اهبطا منها ... فـ إِمَّا يأْتِيْنَكُمْ هنَّيِ هدِيَّ فـ من اتَّبَعَ هدِيَّ فـ لَا يُضَلُّ لَا يُشْفَى و من أعرض عن ذِكْرِي فـ إِنَّ لـه معيشةً ضنكَّا و نحشره يوم القيمة أعمى » الخ طه : ١٢٤ وهو عمى الضلال .

و بعد ذلك كله فعن الممكِن أن يكون قوله : « كـمـا بـدـأـكـمـ تـعـودـونـ » الخ في مقام التعلييل لمضمون الكلام السابق و المعنى : أفسطوا في أعمالكم و أخلصوا الله سبحانه فـ إِنَّ اللهـ سـبـحـانـهـ إـذـبـهـ خـلـقـكـمـ قـضـىـ فـيـكـمـ أـنـ تـقـفـرـ قـوـاـ فـرـيـقـيـنـ فـرـيـقاـ يـهـدـيـهـمـ وـ فـرـيـقاـ يـضـلـلـونـ عنـ الطـرـيـقـ وـ سـتـعـودـونـ إـلـيـهـ كـمـاـ بـدـأـكـمـ فـرـيـقاـ هـدـيـ وـ فـرـيـقاـ حـقـ عـلـيـهـمـ الضـلـالـةـ بـتـوـلـيـ الشـيـاطـيـنـ فـأـفـسـطـواـ وـ أـخـلـصـواـ حـتـيـ تـكـوـنـواـ مـنـ الـمـهـتـدـيـنـ بـهـدـيـةـ اللهـ لـاـ الصـالـيـنـ بـوـلـيـةـ الشـيـاطـيـنـ .

فيكون الكلام جاريًا مجرى قوله تعالى : « و لـكـلـ وـ جـهـةـ هـوـ موـلـيـهاـ فـاستـبـقـواـ

الـخـيـرـاتـ أـيـنـمـاـ تـكـوـنـواـ يـأـتـ بـكـمـ اللهـجـمـيـعـاـ » البقرة : ١٤٨ فـإـنـهـ يـبـيـنـ أـوـلـأـنـ

لـكـلـ وـ جـهـةـ خـاصـةـ مـحـتـوـمـةـ هـوـ موـلـيـهاـ لـاـ يـتـخـلـفـ عـنـهـ إـنـ سـعـادـةـ وـ إـنـ شـقـاؤـةـ فـشـقـاؤـةـ

أـمـرـهـمـ ثـانـيـاـ أـنـ اـسـتـبـقـواـ الـخـيـرـاتـ ،ـ وـ لـاـ يـسـتـقـيمـ الـأـمـرـ مـعـ تـحـتـمـ إـحـدـيـ الـطـنـزـلـتـيـنـ :ـ السـعـادـةـ

وـ الشـقـاؤـةـ لـكـنـ »ـ الـكـلامـ فـيـ مـعـنـىـ قـوـلـنـاـ :ـ إـنـ كـلـاـمـكـمـ لـاـ مـحـيـصـ لـهـ عـنـ وـجـهـ مـتـعـيـنـةـ فـيـ

حـقـ لـازـمـهـ لـهـ إـمـاـ الـجـنـةـ وـ إـمـاـ النـارـ فـاسـتـبـقـواـ الـخـيـرـاتـ حـتـيـ تـكـوـنـواـ مـنـ أـهـلـ وـجـهـ

الـسـعـادـةـ دـوـنـ غـيرـهـ .

و كذلك الـأـمـرـ فـيـمـاـ نـحـنـ فـيـهـ فـالـكـلامـ فـيـ مـعـنـىـ قـوـلـنـاـ :ـ إـنـكـمـ سـتـعـودـونـ فـرـيـقـيـنـ

كـمـاـ بـدـأـكـمـ فـرـيـقـيـنـ بـقـضـائـهـ فـأـفـسـطـواـ فـيـ أـعـمـالـكـمـ وـ أـخـلـصـواـ اللهـ سـبـحـانـهـ حـتـيـ تـكـوـنـواـ مـنـ الـفـرـيقـ

الـذـيـ هـدـيـ دـوـنـ الـفـرـيقـ الـذـيـ حـقـ عـلـيـهـمـ الضـلـالـةـ .

و من الممكِن أن يكون قوله : « كـمـاـ بـدـأـكـمـ » الخ كـلـاـمـاـ مـسـتـأـنـفاـ وـ هـوـ مـعـ ذـلـكـ لـاـ يـخـلـوـ

عـنـ تـلـويـحـ بـالـدـعـوـةـ إـلـىـ الـإـقـسـاطـ وـ الـإـخـلاـصـ عـلـىـ ماـ يـتـبـادرـ مـنـ السـيـاقـ .

و إـمـاـ قـوـلـهـ :ـ إـنـهـمـ اـتـخـذـوـاـ الشـيـاطـيـنـ أـوـلـيـاءـ »ـ فـهـوـ تـعـلـيـلـ لـثـبـوتـ الضـلـالـةـ وـ لـزـومـهـاـ

لهم في قوله : « حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّالَّةُ » كأنه كلامه الضلال والخسران صدرت من مصدر القضاء في حقهم مشرّطاً بولايته الشيطان كما يذكره في قوله : « كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ تَوَلَّهُ فَإِنَّهُ يَضْلِلُهُ » الحج : ٤

فَلَمَّا تَوَلَّوْا الشَّيَاطِينُ فِي الدِّينِا حَتَّىٰ تَعَزَّزُوا عَلَيْهِمُ الضَّالَّةُ وَلَزَمَتْهُمُ لِزَوْمًا لَا افْكَاكٍ
بعده أبداً وهذا نظير ما يستفاد من قوله : « وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنَوْا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ
مَا خَلْفَهُمْ وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمٍّ قَدْخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ » حم السجدة : ٢٥ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » فَهُوَ كَعَطْفِ التَّفْسِيرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الجملة
السابقة يفسّرُ بِهِ مَعْنَى تَحْقِيقِ الْضَّالَّةِ وَلِزَوْمِهَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مُهْمَارٌ كَبِ غَيْرَ طَرِيقِ الْحَقِّ
وَاعْتَقَ الْبَاطِلُ وَهُوَ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مِنَ الْبَاطِلِ وَلَمْ يَنْسِ الْحَقَّ أَوْ شَكَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْحَقِّ
الَّذِي فَارَقَهُ وَكَانَ مَرْجُواً أَنْ يَنْتَرِعَ عَنْ ضَلَالِهِ إِلَى الْهُدَى أَمَّا إِذَا اعْتَقَدَ حَقِيقَةَ الْبَاطِلِ
الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ ، وَحَسْبَ أَنَّهُ عَلَى الْهُدَى وَهُوَ فِي ضَلَالٍ فَقَدْ اسْتَقَرَّ فِيهِ شَيْمَةُ الْغَيِّ وَحَقَّتْ
عَلَيْهِ الْضَّالَّةُ وَلَا يَرْجِي مَعَهُ فَلَاحَ أَبْدًا .

فَقَوْلُهُ : « وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » كَالْتَّفْسِيرِ لِتَحْقِيقِ الْضَّالَّةِ لِكَوْنِهِمْ لَوْأَزْمَهُ ، وَ
قَدْ قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « قُلْ هَلْ تُنْبِئُونَ كُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَمْمًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنْعًا » الْكَهْفُ : ١٠٤ وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تَنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةً » الْبَقْرَةُ : ٧ .

وَإِنَّهُ إِنْسَانٌ يَسِيرُ عَلَى الْفَطْرَةِ وَيَعِيشُ عَلَى الْخَلْقَةِ لَا يَنْقَادُ إِلَّا لِلْحَقِّ وَلَا يَخْضُعُ
إِلَّا لِلصَّدْقِ وَلَا يَرِيدُ إِلَّا مَا فِيهِ خَيْرٌ وَسَعَادَتْهُ غَيْرُ أَنَّهُ إِذَا شَمَلَهُ التَّوْفِيقُ وَكَانَ عَلَى الْهُدَى
طَبِقَ مَا يَطْلُبُهُ وَيَقْصِدُهُ عَلَى حَقِيقَةِ مَصْدَاقَهُ وَلَمْ يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَطْلُبُهُ وَلَمْ
يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ الْخَالِدَةِ وَهِيَ السَّعَادَةُ الَّتِي يَقْصِدُهَا ، وَإِذَا ضَلَّ عَنِ الصَّرَاطِ
أَنْتَكَسَ وَجْهَهُ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ وَمِنَ الْخَيْرِ إِلَى الشَّرِّ وَمِنَ السَّعَادَةِ إِلَى الشَّقَاءِ فَيَتَّخِذُ
إِلَهًا هُوَأَهُ ، وَيَعْبُدُ الشَّيْطَانَ ، وَيَخْضُعُ لِلْأَوْثَانِ ، وَأَخْلُدُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَتَعْلَقُ بِالْزَّخَارِفِ

المادِيَّةُ الدينيَّةُ وَتَبَصَّرُ إِلَيْهَا لِكَنَّهُ إِنَّمَا يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ بِإِذْعَانِ أَنَّهُ هَكُذا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلُ، وَحَسْبَانِ أَنَّهُ مُهْتَدٍ فِي عَمَلِهِ فَيَأْخُذُ بِالْبَاطِلِ بِعِنْوَانِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيُرْكَنُ إِلَى الشَّرِّ أَوِ الشَّقَاءِ بِعِنْوَانِ أَنَّهُ خَيْرٌ وَسَعَادَةٌ فَالْإِدْرَاكُ الْفَطَرِيُّ مُحْفَظٌ لَهُ غَيْرُ أَنَّهُ يَطْبَقُهُ فِي مَقَامِ الْعَمَلِ عَلَى غَيْرِ مُصَدَّقَتِهِ . قَالَ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَمْنُوا بِمَا نَعْلَمْ صَدِيقًا طَامِعُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَهُمْ فَرِدُّهُمْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ » النَّسَاءُ : ٤٧ وَأَمَّا إِنْسَانٌ يَتَبَعَّبُ الْبَاطِلَ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ ، وَيَقْصُدُ الشَّقَاءَ وَالْخَسْرَانَ بِمَا هُوَ شَقَاءٌ وَخَسْرَانٌ فَمِنْ الْمُحَالِّ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : « فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » الرُّومُ : ٣٠ وَشَيْءٌ مِنَ الْعَلَلِ وَالْأَسْبَابِ وَمِنْهَا إِلَّا إِنْسَانٌ لَا يَرِيدُ غَايَةً وَلَا يَفْعُلُ فَعَلًا إِلَّا إِذَا كَانَ مَلَئِمًا لِنَفْسِهِ حَامِلًا مَا فِيهِ نَفْعٌ وَسَعْادَةٌ ، وَمَا رَبَّمَا يَتَرَآءَى مِنْ خَلَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ فِي بَادِئِ النَّظرِ لَا بِحَسْبِ الْحَقِيقَةِ وَفِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

هَذَا كُلُّهُ مَا يَقْضِيهِ التَّدْبِيرُ وَإِيَّاهُ النَّظرُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ « كَمَا بَدَأْ كُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدِيًّا وَفَرِيقًا حَقًّا عَلَيْهِمُ الضَّالَّةُ » الْخُ وَهُوَ يَدُورُ مَدَارَ كَوْنٍ « فَرِيقًا هَدِيًّا » الْخُ حَالًا مُبَيِّنًا لِوَجْهِ الشَّبَهِ وَالْمَعْنَى الْمُشَتَّرِ بَيْنَ الْبَدْءِ وَالْعَوْدِ سَوَاءً أَخَذْنَا الْكَلَامَ مُسْتَأْنَفًا أَوْ وَاقِعًا مَوْقِعَ الْتَّعْلِيلِ هَتَّصَلًا بِمَا قَبْلَهُ .

وَأَمَّا جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ فَكَانُوكُمْ مُتَسَامِلُونَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : « فَرِيقَةٌ هَدِيٌّ » حَالًا مُبَيِّنًا لِكِيفِيَّةِ الْعَوْدِ فِي حَسْبِ دُونِ الْعَوْدِ وَالْبَدْءِ بِجَمِيعِهِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى الْمُشَتَّرِ بِالْذِي هُوَ وَجْهُ تَشْبِيهِ الْعَوْدِ بِالْبَدْءِ أَمْرٌ آخِرٌ وَرَاءَهُ إِلَّا مِنْ فَسْرِ الْبَدْءِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْخَلْقِ الْأَوَّلِ كَمَا تَقدِّمُ وَسِيْجِيٌّ، وَكَانَ ذَلِكَ فَرَارًا مِنْهُمْ عَنْ لَزْوَمِ الْجُبْرِ الْمُبْطَلِ لِلَاخْتِيَارِ مَعَ احْتِفَافِ الْكَلَامِ بِالْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِيِّ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ .

وَبِالْجَمِيلَةِ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ اتِّصَالِ الْكَلَامِ بِمَا قَبْلَهُ بَعْدِ التَّسَالِمِ عَلَى ذَلِكَ فَمِنْ قَائِلٍ : أَنَّهُ إِنْذَارٌ بِالْبَعْثَةِ تَأْكِيدًا لِلْأَحْكَامِ الْمَذَكُورَةِ سَابِقًا، وَاحْتِجاجٌ عَلَيْهِ بِالْبَدْءِ فَمَا عَنْهُ : ادْعَوْهُ مُخْلِصِينَ فَإِنَّكُمْ مُبَعِّثُونَ مُجَازِونَ، وَإِنْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عُقُولِكُمْ فَاعْتَبِرُوا بِالْأَبْدَاءِ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ كَمَا بَدَأْ كُمْ فِي الْخَلْقِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ يَبْعَثُكُمْ فَتَعُودُونَ فِي الْخَلْقِ الثَّانِيِّ . وَفِيهِ : أَنَّهُ مُبَنيٌّ عَلَى أَنَّ تَشْبِيهَ الْعَوْدِ بِالْبَدْءِ فِي تَسَاوِيِّهِمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِدْرَةِ اللَّهِ ،

وَأَنَّ النَّكْتَةِ فِي التَّعْرُّضِ لِذَلِكَ هُوَ الْإِنْذَارُ بِالْمِحَازَةِ، وَالسِّيَاقُ الْمُنْسَبُ لِهَذَا الْغَرْضِ أَنْ يُقَالُ : كَمَا بِدَائِكُمْ يَبْعِثُكُمْ فِي جَاهَزِكُمْ بِوَضْعٍ بَعْثَهُ تَعَالَى مَوْضِعُ عُودِ النَّاسِ وَالتَّصْرِيفِ بِالْمِحَازَةِ الَّتِي هِيَ الْعُدْمَةُ فِي الْغَرْضِ الْمُسْوَقِ لِأَجْلِهِ الْكَلَامُ كَمَا صَنَعَ ذَلِكَ الْفَاعِلُ نَفْسَهُ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنَ الْمَعْنَى، وَالآيَةُ خَالِيَةٌ مِنْ ذَلِكَ .

وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ احْتِاجَاجٌ عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ، وَاتِّصَالِهِ بِتَوْلِهِ تَعَالَى قَبْلَ عَدَّةِ آيَاتٍ : «فِيهَا تَحِيُّونَ وَفِيهَا تَمْوِتونَ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ» .

فَقُولُهُ : «كَمَا بَدَأْتُكُمْ تَعْوِدُونَ» مَعْنَاهُ فَلَيْسَ بِعِشْكُمْ بِعِشْكُمْ بِأَشَدٍ مِنْ ابْتِدَائِكُمْ .
وَفِيهِ : مَا فِي الْوَجْهِ السَّابِقِ عَلَى أَنَّهُ تَحْكُمَ هُنْ غَيْرُ دَلِيلٍ .
وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَأْنِفٌ . وَقَدْ تَقدَّمَ ذَكْرُهُ .

وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ مُتَّصِلٌ بِمَاسِبَتِهِ، وَالْمَعْنَى : أَخْلَصُوا اللَّهَ فِي حَيَاتِكُمْ فَإِنَّكُمْ تَبْعَثُونَ عَلَى مَا مَتَّمْ عَلَيْهِ : الْمُؤْمِنُ عَلَى إِيمَانِهِ، وَالْكَافِرُ عَلَى كُفْرِهِ .

وَفِيهِ : أَنَّهُ مِبْنِيٌ عَلَى كَوْنِ الْمَرَادِ بِالْبَدْءِ هُوَ مَجْمُوعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي قَبْلِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ ثُمَّ تَشْبِيهُ الْعُودِ وَهُوَ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ بَآخِرِ الْحَيَاةِ الْأُولَى الْمُسْمَّةِ بَعْثًا ، وَالآيَةُ كَمَا تَقدَّمَ - بِمَعْزِلٍ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى .

قُولُهُ تَعَالَى : «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» إِلَى آخرِ الآيَةِ .
قَالَ الرَّاغِبُ : السُّرُفُ تَجاوزُ الْحَدِّ فِي كُلِّ فَعْلٍ يَفْعَلُهُ إِنْسَانٌ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْإِنْفَاقِ أَشْهَرُ . أَنْتَهَى .

أَخْذُ الزِّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ هُوَ التَّزْيِينُ الْجَمِيلُ عِنْدَ الْحَضُورِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالطَّبِيعَةِ لِلصَّلَاةِ وَالظَّوَافِ وَسَائِرِ ذِكْرِ اللَّهِ فِي رَجْعِ الْمَعْنَى إِلَى الْأَمْرِ بِالْتَّزْيِينِ الْجَمِيلِ لِلصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا ، وَيُشَمَّلُ بِإِطْلَاقِهِ صَلَواتُ الْأَعْيَادِ وَالْجَمَاعَاتِ الْيَوْمَيَّةِ وَسَائِرِ وِجُوهِ الْعِبَادَةِ وَالذَّكْرِ .

وَقُولُهُ : «وَكَلُوا وَاשْرَبُوا وَلَا تَسْرُفُوا» الْخُ أَمْرَانٌ إِبْاحِيَّانٌ وَنَهْيٌ تَحْرِيْمِيٌّ مَعْلَلٌ بِقُولُهُ : «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» وَالْجَمِيعُ مَأْخُوذُهُ مِنْ قَصَّةِ الْجَنَّةِ كَمَا مَرَّتِ الْإِشَارةُ إِلَيْهِ ، وَهِيَ كَمَا تَقدَّمَ خَطَابَاتٌ عَامَّةٌ لَا تَخْتَصُ بِشَرْعٍ دُونَ شَرْعٍ وَلَا بِصَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ

الناس دون صنف.

ومن هنا يعلم فساد ما ذكره بعضهم : أنّ قوله : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد » النحو يدلّ على بعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر ، وأنّ الخطاب يشمل النساء بالتبع للرجال شرعاً لا لغة (انتهى) نعم تدلّ الآية على أنّ هناك أحكاماً عامة لجميع البشر برسالة واحدة أو أكثر ، وأمّا شمول الحكم للنساء وبالتالي تغليب في الخطاب ، والقرنية العقلية قائمة .

قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »
هذا من استخراج حكم خاص - بهذه الأمة - من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات
نظير ماتقدم في قوله : « ذلك من آيات الله لعلّهم يذكرون » وقوله : فإذا فعلوا فاحشة »
الآية .

والاستفهام إنكارياً ، والذين يقابل الشين وهو ما يعاب به إلا إنسان فالزينة ما يرتفع
به العيب ويذهب بنفحة النقوس ، والإخراج كنایة عن الإظهار واستعارة تخيلية كأنّ^١
الله سبحانه بالهامة و هدایته الإنسان من طريق الفطرة إلى إيجاد أنواع الزينة التي
يسعد حسنه مجتمعه ويستدعى انجذاب نفوسهم إليه وارتفاع نفثتهم واسمرازهم عنه يخرج
لهم الزينة وقد كانت مخبية خفية فاظهرها لحواسهم .

ولو كان إلا إنسان يعيش في الدنيا وحده في غير مجتمع من أمثاله لم يحتاج إلى
زينة يتزين بها فقط ولا تنبئه للزوم إيجادها لأنّ ملاك التنبيه هو الحاجة . لكنه ملأ
لم يسعه إلا الحياة في مجتمع من الأفراد وهم يعيشون بالإرادة والكرهة والحبّ و
البغض والرضى والسطح فلا محيس لهم من العثور على ما يستحسنونه وما يستحبونه من
الهيآت والأزياء في لهم المعلم الغيبي^٢ من وراء فطرتهم بما يصلح ما فسد منهم ويزين
ما يشين منهم ، وهو الزينة بأقسامها . ولعلّ هذا هو النكتة في خصوص التعبير بقوله :
« لعباده » .

و هذه المسمّاة بالزينة من أهمّ ما يعتمد عليه الاجتماع الإنساني^٣ ، وهي من
الآداب العريقة التي تلازم المجتمعات وتترقى وتتنزل على حسب تقدم المدنية والحضارة

ولو فرض ارتفاعها من أصلها في مجتمع من المجتمعات إنهم الاجتماع وتلاشت أجزاءه من حينه لأنّ معنى بطلانها ارتفاع الحسن والقبح والحب والبغض والإرادة والكرامة وأمثالها من بينهم ، ولا مصدق للإجتماع الإنساني عندئذ فافهم ذلك .
ثم الطيبات من الرزق - والطيب هو الملازم للطبع - وهي أنواع المختلفة مما يرتفق به الإنسان بالتجذّي منه ، أو مطلق ما يستمدّ به في حياته وبقائه وأنواع المطعم والمشرب والمنكح والمسكن ونحوها ، وقد جهز الله سبحانه وتعالى الإنسان بما يحسّ ب حاجته إلى أقسام الرزق و يستدعيه تناوله بأنواع من الشهوات الهاجرة في باطنها إلى ما يلامها مما يرفع حاجته وهذا هو الطيب والملائمة الطبيعية .

وابتناء حياة الإنسان السعيدة على طيبات الرزق غني عن البيان فلا يسعد الإنسان في حياته من الرزق إلاّ بما يلائم طباع قواه وأدواته التي جهز بها ويساعده على بقاء قركيبه الذي ركب به ، وما جهز بشيء ولا ركب من جزء إلا لحاجة له إليه فلو تعدد في شيء مما يلائم فطرته إلى ما لا يلائمها طبعاً اضطر إلى تتميم النقص الوارد عليه في القوة المربوطة به إلى صرف شيء من سائر القوى فيه كالنفوم الشره الذي يفرط في الأكل فيصييه آفات الهرضم . فيضطر إلى استعمال الأدوية المصلحة لجهاز الهرضم والمشهية للمعدة ولا يزال يستعمل ويفرط حتى يعتاد بها فلا تؤثر فيه فيصير إنساناً علیلاً تشغله العلة عن عامة واجبات الحياة ، وأهمّها الفكر السالم الحرّ وعلى هذا القياس .

والتعدي عن طيب الرزق يبدل الإنسان إلى شيء آخر لا هو مخلوق لهذا العالم ولا هذا العالم مخلوق له وأيّ خير يرجي في إنسان يتوكّى أن يعيش في ظرف غير ظرفه الذي أعدّ له الكون ، ويسلك طريقاً لم تهيئه له الفطرة ، وينال غاية غير غايته وهو أن يتوسّع بالتتمتع بكلّ ما تزيّنه له الشهوة والشره ، ويصوّره له الخيال بأخر ما يقدر وأقصى ما يمكن .

والله سبحانه يذكر في هذه الآية أنّ هناك زينة أخرى جها لعباده وأظاهرها وبيّنها لهم من طريق الإلهام الفطريّ ، ولا تلهم الفطرة إلاّ بشيء قامت حاجة إنسان إليه بحسبها .

ولا دليل على إباحة عمل من الأعمال وسلوك طريق من الطرق أقوى من الحاجة إليه بحسب الوجود والطبيعة الذي يدل على أن الله سبحانه وتعالى هو الرابط بين الإنسان المحتاج وبين ما يحتاج إليه بما أودع في نفسه من القوى والأدوات الباعثة له إليه بحسب الخلق والتكوين.

ثم يذكر بعطف الطيبات من الرزق على الزينة في حيز الاستفهام الإنكارى أن هناك أقساماً من الرزق طيبة ملائمة لطبع الإنسان يشعر بطبيعته من طريق قواه المودعة في وجوده، ولا يشعر بها ولا يتتبّع لها إلا لقيام حاجته في الحياة إليها وإلى التصرف فيها تصرفاً يستمد به لبقائه، ولا دليل على إباحة شيء من الأعمال أقوى من الحاجة الطبيعية والفرق التكيني إليه كما سمعت.

ثم يذكر بالاستفهام الإنكارى أن إباحة زينة الله والطيبات من الرزق مما لا ينبغي أن يرتاب فيها فهو من إمضاء الشرع لحكم العقل والقضاء الفطري، وأباحت الزينة وطيبات الرزق لا تعود مع ذلك حد الاعتدال فيها والوسط العدل بين الإفراط والتغريط فإن ذلك هو الذي يقضي به الفطرة، وقد قال الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة : « ولا تسرفو إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » وقال فيما قبل ذلك : « قُلْ أَمْرُ رَبِّي بِالْقَسْطِ ». ١٤

ففي التعدي إلى أحد جانبي الإفراط والتغريط من تهديد المجتمع الإنساني بالانحطاط ، وفساد طريق السعادة ما في انتلام ركن من أركان البناء من تهديده بالإنهدام فقلما ظهر فساد في البر والبحر وتنازع يفضي إلى المحروب المبيدة للنسيل المخرجة للمعمورة إلا عن إتراف الناس وإسرافهم في أمر الزينة أو الرزق، وهو الإنسان إذا جاوز حد الاعتدال ، وتعدى ما خط له من وسط الجادة ذهب لوجهه لا يقف على حد ولا يلوى على شيء فمن الحري أن لا يرفع عنه سوط التربية ويدرك حتى باوضحة ما يقضي به عقله ، ومن هذا القبيل الأمر الإلهي بضرورةيات الحياة كالأكل والشرب واللبس والسكنى وأخذ الزينة .

قال صاحب المئار في بعض كلامه - وما أجود ما قال : - وإنما يعرفها - يعني قيمة

الأمر بأخذ الزينة مع بساطته ووضوحيه - من قرع تواريخته الأُمّ واملل ، وعلم أنَّ أكثر المتوحشين الذين يعيشون في الحرجلات والغابات أفراداً وجماعات يأدون إلى الكهوف والمغار ، والقبائل الكثيرة الوثنية في بعض جزائر البحار وجبال إفريقيَّة كلُّهم يعيشون عراة الأُجسام نساءً ورجالاً، وأنَّ الإِسلام ما وصل إلى قوم منهم إلَّا وعلَّمهم لبس الثياب بما يجده للستر والزينة إيجاباً شرعاً .

ولما أسرف بعض دعاة النصرانية الأوربيَّين في الطعن في الإِسلام لتفير أهلها منه وتحويتهم إلى ملَّتهم ولتحريض أوربة عليهم رد عليهم بعض المنصفين منهم فذكر في رده أنَّ في انتشار الإِسلام في إفريقيَّة منة على أوربة بنشره للمدنية في أهلها بحملهم على ترك العري وإيجابه لبس الثياب الذي كان سبباً لرواج تجارة النسج الأوربيَّة فيهم . بل أقول : إنَّ بعض الأُمّ الوثنية ذات الحضارة والعلوم والفنون كان يغلب فيها معيشة العري حتى إذا ما اهتدى بعضهم بالإِسلام صاروا يلبسون ويتجملون ثم صاروا يصنعون الثياب وقلدهم جيرانهم من الوثنين بعض التقليد .

هذه بلاد الهند على ارتفاع حضارة الوثنين فيها قديماً وحديثاً لا يزال الألف الألف من نسائهم ورجالهم عراة أو أنصاف أو أرباع عراة فترى بعض رجالهم في معاهد تجاراتهم وصناعتهم بين عار لا يستتر إلَّا السوأتين - ويسمونهما « سبيلين » وهي الكلمة العربيَّة التي يستعملها الفقهاء في باب نوافذ الوضوء - أو ساتر لنصفه الأسفل فقط ، وامرأة مكشوفة البطن والفخذين أو النصف الأعلى من الجسم كله أو بعضه ، وقد اعترف بعض علمائهم المنصفين بأنَّ المسلمين هم الذين علَّموهم لبس الثياب ، والأكمل في الأوانى ولا يزال أكثر فقارائهم يضعون طعامهم على ورق الشجر ويأكلون منه ، ولكنهم خير من كثير من الوثنين سترًا وزينة لأنَّ المسلمين كانوا حكاماً لهم ، وقد كانوا ولا يزالون من أرقى مسلمي الأرض علمًا وعملاً وتأثيراً في وثنىي بلادهم .

وأما المسلمون في بلاد الشرق التي يغلب عليها الجهل فهم أقرب إلى الوثنية منهم إلى الإِسلام في اللباس وكثير من الأعمال الدينية ، ومنهم نساء مسلمي « سيم » الالاتي

لاترين في أنفسهنّ عورة إلّا السوأتين كما يبيّن هذا من قبل في حيث يقوى الإسلام يكون الستر والزينة اللاّئقة بكرامة البشر ورقيمهم .

فمن عرف مثل هذا عرف قيمة هذا الأصل الإصلاحي في الإسلام ولو لأن جعل هذا الدين المدنى الأعلى أخذ الزينة من شرع الله أوجبه على عباده لما نقل أمّا وشعوباً كثيرة من الوحشية الفاحشة إلى المدنية الراقية ، وإنّما يجهل هذا الفضل له من يجهل التاريخ وإن كان من أهله بل لا يبعد أن يوجد في متاحفه المتناثر بجين من يجلس في ملهي أو مقهى أو حانة متكتئاً ميلأ طربوه على رأسه يقول : ما معنى جعل أخذ زينة الملابس من أمور الدين ؟ وهو من لوازم البشر لا يحتاجون فيه إلى وحي إلهي ولا شرع ديني ، وقد يقول مثل هذا في قوله تعالى : « كلوا واشربوا » انتهى .

وممّا يناسب المقام ما روي : أن الرشيد كان له طبيب نصري حاذق فقال ذات يوم لعليّ بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علامان : علم الأديان وعلم الأبدان ! فقال له عليّ : قد جمع الله الطب كلّه في نصف آية وهو قوله : « كلوا وشربوا ولا تسرفو » وجمع نبيّنا الطب في قوله : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وأعطي كلّ بدن ما عودته » فقال الطبيب ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّا .

قوله تعالى : « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة » لا ريب أن الخطاب في صدر الآية إما لخصوص الكفار أو يعمّهم وأ المؤمنين جميعاً كما يعمّهم جميعاً ما في الآية السابقة من الخطاب بقوله : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وشربوا ولا تسرفو » ولازمه أن تكون الزينة وطيبات الرزق موضوعة على الشرك بين الناس جميعاً : مؤمنهم وكافرهم .

فقوله : « قل هي للذين آمنوا » الخ مسوق لبيان ما خص الله سبحانه به المؤمنين من عباده من الكرامة والمنيّة ، وإذ قد اشتراكوا في نعمه في الدنيا فهـي خالصة لهم في الآخرة ، ولازم ذلك أن يكون قوله : « في الحياة الدنيا » متعلقاً بقوله : « آمنوا » وقوله : « يوم القيمة » متعلقاً بما تعلق به قوله : « للذين آمنوا » وهو قولنا : كائنة أو ما يقرب منه ،

« وَخَالِصَةً » حَالٌ عَنِ الْضَّمِيرِ الْمُؤْنَثِ وَقَدْ مَتَ عَلَى قَوْلِهِ : « يَوْمُ الْقِيَامَةِ » لِتَكُونَ فاصلَةً بَيْنَ قَوْلِهِ : « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وَ « يَوْمُ الْقِيَامَةِ » وَالْمَعْنَى : قُلْ هُنَّ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَهِيَ خَالِصَةٌ لَهُمْ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ كَمَا شَارَكُوهُمْ فِي الدُّنْيَا فَمَنْ آمَنَ فِي الدُّنْيَا مَلِكٌ نَعْمَهَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

وَبِهَذَا الْبَيَانِ يُظَهِّرُ مَا فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنَّ الْمَرَادَ بِالْخُلُوصِ إِنَّمَا هُوَ الْخُلُوصُ مِنَ الْهُمُومِ وَالْمُنْفَصَاتِ وَالْمَعْنَى : هِيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلَّذِينَ آمَنُوا غَيْرُ خَالِصَةٍ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَشْقَةِ ، وَهِيَ خَالِصَةٌ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مِنْ ذَلِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ وَلَا فِي سِيَاقِ مَا تَقْدِمُهَا مِنَ الْآيَاتِ إِشْعَارٌ بِاحْتِفَافِ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِمَا يَنْغُصُ عِيشَ الْمُتَّعَمِينَ بِهَا وَيَكْدُرُهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَكُونُ قَرِيبَةً عَلَى إِرَادَةِ مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَعْنَى الْخُلُوصِ .

وَكَذَا مَا فِي قَوْلِ بَعْضِ آخَرٍ : أَنَّ قَوْلِهِ : « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَعْلَقُ بِهِ قَوْلُهُ : « لِلَّذِينَ آمَنُوا » وَالْمَعْنَى : هِيَ ثَابَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْأُصَالَةِ وَالْاسْتِحْقَاقِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ يُشَارِكُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي الْبَعْثَ لَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَسْتَحْقُهُمْ مِثْلُهُمْ ، وَهِيَ خَالِصَةٌ لَهُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ - أَوْ حَالَ كَوْنُهَا خَالِصَةٌ لَهُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَقَدْ قَرِئَ نَافِعًا « خَالِصَةً » بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهَا خَيْرٌ وَالبَاقُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِيَّةِ - وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَهِي إِلَيْهِمُ الْعِلُومُ النَّافِعَةُ فِي الْحَيَاةِ الصَّالِحةِ ، وَالْأَوَامِرُ الْمُحرَّضةُ لِإِصْلَاحِ الْحَيَاةِ بِأَخْذِ الزِّينَةِ وَالْأَرْتِزَاقِ بِالطَّبِيبَاتِ وَالْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِ الْمَعَاشِ ثُمَّ التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِ الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ الْمَؤْدُودِيَّةِ إِلَى إِيجَادِ الصَّنَاعَاتِ وَالْفَنَّونَ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِي الرُّقِيِّ فِي الْمَدِينَةِ وَالْحَضَارَةِ ، وَمَعْرِفَةِ قَدْرِهَا وَالشَّكْرِ عَلَيْهَا . كُلُّ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ وَالنَّبُوَّةِ .

وَجْهُ فَسَادِهِ : أَنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ الْأُصَالَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ هُوَ مَدْلُولُ الْآيَةِ فَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ الْآيَةَ أَجْنِبَيَّةٌ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْآيَةَ تَفِيدَ أَنَّ النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ يَسْتَنْتَ شَارِكَةَ الْكُفَّارِ لَهُمْ فِيهَا وَأَنَّ ذَلِكَ بِالْأُصَالَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ فَقَدْ عَرَفَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدْلِيلٌ إِلَّا عَلَى اشْتِراكِ الطَّائِفَتَيْنِ مَعًا فِي النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَا اخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا فِي الدُّنْيَا فَأَيْنَ حَدِيثُ الْأُصَالَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ ؟

بل ربّما كان الظاهر من أمثال قوله : « ولو لا أن يكون الناس أُمّة واحدة لجعلنا من يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة و معارج عليها يظهرون - إلى أن قال - وإن كل ذلك لما مات الحياة الدنيا والآخرة عند ربّك للمتقين » الزخرف : ٣٥ خلاف ذلك وأن زهرة الحياة الدنيا أجدر أن يخصّوا به .

وقد امتنَ الله تعالى في ذيل الآية على أهل العلم بتفصيل البيان إذ قال : « كذلك يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

قوله تعالى : « قل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيُّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » إلى آخر الآية . قد تقدّم البحث المستوفى عن مفردات الآية فيما مرّ ، وأنّ الفوائح هي المعاصي البالغة فيها وشناعة كالزنا واللّواط ونحوهما ، والإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته وذلةً وهو أنّا وسقوطاً كشرب الخمر الذي يستعقب للإنسان تهلكة في جاهه وماليه وعرضه ونفسه ونحو ذلك ، والبغى هو طلب الإنسان ما ليس له بحقّ كأنواع الظلم والتعدّي على الناس والاستيلاء غير المشروع عليهم ، ووصفه بغير الحقّ من قبيل التوصيف باللازم نظير التقيد الذي في قوله : « مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا » .

وكان إلقاء الخطاب باباحة الزينة وطيبات الرزق داعيًّا لنفس السامع إلى أن يحصل على ما حرّم الله فألقى الله سبحانه في هذه الآية جماع القول في ذلك ، ولا يشدّ عمّا ذكره شيء من المحرّمات الدينية ، وهي تنقسم بوجه إلى قسمين : ما يرجع إلى الأفعال وهي الثلاثة الأولى ، وما يرجع إلى الأقوال والاعتقادات وهو الآخران ، والقسم الأول منه ما يرجع إلى الناس وهو البغي بغير الحقّ ، ومنه غيره وهو إما ذوق بح وشناعة فالفاحشة ، وإما غيره فالإثم ، والقسم الثاني إما شرك بالله أو افتداء على الله سبحانه .

قوله تعالى : « ولكلّ أُمّة أُجل » إلى آخر الآية هي حقيقة مستخرجة من قوله تعالى في ذيل القصة : « قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » نظير الأحكام الأخرى المستخرجة منها المذكورة سابقاً ، ومفاده أنّ الأُمم والمجتمعات لها أعمار وآجال نظير ما للأفراد من الأعمار والآجال .

وربما استفید من هذا التفريع والاستخراج أنّ قوله تعالى في ذيل القصة سابقاً: «قال فيها تحيون» الخ راجع إلى حياة كلّ فرد فردو كلّ أمّة أمّة، وهي بعض عمر الإنسانية العامة، وأنّ قوله قبله: «ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين» راجع إلى حياة النوع إلى حين وهو حين الانقراض أو البعث، وهذا هو عمر الإنسانية العامة في الدنيا.

قوله تعالى: «يابني آدم إِمَّا يأْتِينَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي» إلى آخر الآيات. «إِمَّا» أصله إن الشرطية دخلت عليها ما، وفي شرطها النون الثقيلة، وكأنّ ذلك يفيد أنّ الشرط متحقق لاحقًا، وأمراد بقص الآيات بيانها وتفصيلها لما فيه من معنى القطع والإبادة عن مكمن الخفاء.

والآية إحدى الخطابات العامة المستخرجة من قصة الجنّة المذكورة هنا وهي رابعها وآخرها يبيّن للناس التشريع الإلهي العام للدين باتباع الرسالة وطريق الوحي، والأصل المستخرج عنه هو مثل قوله في سورة طه: «قال أهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٍ فَإِمَّا يأْتِينَكُمْ مِّنْ هُدٍ فَبَيْنَ أَنْ إِقْيَانَ الْهُدٍ مِّنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِطْرِيقِ الرِّسَالَةِ

﴿بحث روائي﴾

في الدر المنشور أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: «قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوأتمكم» قال: نزلت في الحمس من قريش ومن كان يأخذ مأخذها من قبائل العرب: الأنصار والأوس والخزرج وخزاعة وثقيف وبني عامر بن صعصعة وبطون كنانة بن يسرى كانوا لا يأكلون اللحم، ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها، ولا يضطربون وبراً ولا شرعاً إنما يضطربون الأدم، ويلبسون صبيانهم الرهاط، وكانوا يطوفون عراةً إلا قريشاً. فإذا قسموا طرحا ثيابهم التي قدموا فيها، وقالوا: هذه ثيابنا التي تظهرنا إلى ربّنا فيها من الذنوب والخطايا ثم قالوا لقريش: من يغيرنا مئزراً؟ فإن لم يجدوا طافوا

عراة فإذا فرغوا من طوافهم أخذوا ثيابهم التي كانوا وضعوا .
و فيه : أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : كان الناس يطوفون بالبيت
عراة يقولون : لانطوف في ثياب أذنينا فيها فجاعت امرأة فألفت ثيابها و طافت ووضعت يدها
على قبليها وقالت :

اليوم يبدو بعضه أو كله
فنزلت هذه الآية : خذوا زينتكم عند كل مسجد - إلى قوله - والطيبات من
الرُّزق .

أقوال : وروي ما يقرب منه عن ابن عباس و مجاهد و عطاء لكنك قد عرفت أنَّ
الآيات المصدرة بقوله « يا بني آدم » أحكام و شرائع عامة لجميع بني آدم من غير ان
يختص بأمة دون أمة فهذه الآحاد من الاخبار لا تزيد على اجتهاد من المنقل عنهم
للاجحية فيها ، وأعدل الروايات في هذا المعنى الروايات الآياتتان .

في الدر المنشور : أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس
قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة فامرهم الله بالزينة والزينة للباس و هوما يواري
السوآت و ما سوى ذلك من حيد البز و المتعار .

و فيه : أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان أهل
الجهالية يحرّون أشياء أحلّها الله من الشياب وغيرها و هو قول الله : « قل أرأيتم ما أنزل
الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً و حلالاً » و هو هذا فأنزل الله : « قل من حر زينة
الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا » يعني :
شارك المسلمين الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا فـ « كلوا من طيبات طعامها ، ولبسوا
من جياد ثيابها ، و نكحوا من صالح نسائهم ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا
وليس للمشركيين فيها شيء .

أقوال : والرواياتان - كماترى - ظاهرتان في التطبيق دون سبب النزول ، والمعول
على ذلك .

و فيه : أخرج أبوالشينخ عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ . ما من عبد عمل

خيراً أو شرّاً إلّا كسي رداء عمله حتّى يعرفوه ، و تصديق ذلك في كتاب الله : « ولباس التقوى ذلك خير الآية .

و في تفسير العيّاشي عن زراة و حران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام عن قوله « يا بني آدم قد أنزلنا » الآية لباس التقوى ثياب بيض .
و في الدر المنشور أخرج ابن مردويه عن عثمان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يقرئ : « وريasha » ولم يقل : وريشا .

و في تفسير القمي قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى قال : فاما للباس فاللباس التي تلبسون ، و أمّا الرياش فالملاع و الملا ، و أمّا لباس التقوى فالعفاف إن العفيف لا يبدو له عورة و إن كان عارياً من اللباس ، و الفاجر بادي العورة و إن كان كاسياً من اللباس .

أقول : وما في الروايتين من معنى لباس التقوى من الأخذ ببعض المصادر وقد تكرر نظير ذلك في الروايات .

و في تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى : « و إذا فعلوا فاحشة قالوا » الآية قال : قال الذين عبدوا الأصنام فرد الله عليهم فقال : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء » إلى آخر الآية .

و في البصائر عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن محمد بن منصور قال : سأله عن قول الله تبارك و تعالى : « و إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا و الله أمرنا بها » إلى آخر الآية فقال : أرأيت أحداً يزعم أن الله أمرنا بالزنا و شرب الخمور و شيء من المحارم ؟ فقلت : لا ، فقال : بما هذه الفاحشة التي يدعون أن الله أمرنا بها ؟ فقلت : الله أعلم و رسوله ، فقال : فإن هذه في أئمة الجور ادعوا أن الله أمر بالاتمام بهم لم يأمر الله بهم فرد الله عليهم وأخبرنا أنهم قالوا عليه الكذب فسمى الله ذلك منهم فاحشة .

أقول : ورواه في الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن أبي وهب عن محمد بن منصور قال : سأله و ساق الحديث ، وروي ما في معناه في تفسير

العياشي عن محمد بن منصور عن عبد صالح فعلم أن في السندي أبا وهب وعن يروي الحسين ابن سعيد وأن الحديث مروي عن موسى بن جعفر عليهما السلام .

وكيف كان فالرواية لانطبق بحسب مضمونها على حين نزول الآية ولاما ذكر فيه من الحجّة ينطبق على موردها فإن أهل الجاهلية كانت عندهم أحكام كثيرة متعلقة بأمور من قبيل الفحشاء ينسبونه إلى الله سبحانه كالطواف بالبيت عارياً .

لكن الحجّة المذكورة فيه من حيث انطباق الآية على مصاديق بعد زمن النزول أقرب انطباقاً على أئمة الجور والحكام الظلمة فإن المسلمين مررت بهم أعصار يتولى فيها أمورهم أمثال الداعي زيد بن أبيه وابنه عبد الله والحجاج بن يوسف وعترة آخرون ، وحول عروشهم وكراسيهم عدة من العلماء يفتون بنفوذ أحكامهم ووجوب طاعتهم بأمثال قوله تعالى : أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَمْرُكُمْ . فالرواية ناظرة إلى انطباق الآية على مصاديقها بعد عصر النزول .

و في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليهما السلام قال : سمعته يقول : من زعم أن الله يأمر بالفحشاء فقد كذب على الله ، ومن زعم أن الخير والشر إليه فقد كذب على الله .

و فيه : عن مساعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليهما السلام : من زعم أن الله أمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله ، و من زعم أن الخير والشر بغير مشيّة منه فقد أخرج الله من سلطاته ، ومن زعم أن المعاصي عملت بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله أدخله الله النار .

اقول : و قوله عليهما السلام : و من زعم أن الخير والشر بغير مشيّة منه الخ ناظر إلى قول المفوضة باستقلال العبد في أفعال الخير والشر كما في قوله في الرواية السابقة : و من زعم أن الخير والشر إليه الخ ناظر إلى قول المجبرة : إن الخير والشر والطاعة والمعصية إنما تستند إلى إرادة الله من غير أن يكون لا إرادة العبد ومشيّته دخل في صدور الفعل وإن أمكن وجده إرجاع الضمير إلى العبد ليكون إشارة إلى قول المفوضة

وفي التهذيب باسناده عن ابن مسakan عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سأله عن قول الله عز وجل : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » قال : هذه القبلة .
اقول : و هو من قبيل الجري والانطباق كما تبيّن من البيان السابق ، وروى مثله العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحد هم عليهم السلام .

وفي التهذيب باسناده عن الحلبـي عن أبي عبدالله عليه السلام ، وفي تفسير العياشي عن زرارـة وهران ومحـدين مسلم عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام في قوله : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » قال : مساجد محدثة فامرـوا أن يقيموا وجوهـم شطر المسجد الحرام .

اقول : الظاهر أن مراده عليه السلام أن معنى إقامة الوجوه في الآية التوجه إلى الله باستقبال القبلة عند كل مسجد يصلـى فيه ثم القبلة تعينـت بمثـل قوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثـ ما كـنتم فـولـوا وجوهـكم شـطـرهـ » البقرة : ١٤٤ وهي الكعبـة إذ قد تقدـم في الكلام على آيات القـبلـة أن الكعبـة إنـما جـعلـت قبلـة في المـديـنة بـعدـ الـهـجـرةـ ، والـآـيـةـ الـتـيـ نـحـنـ فـيـهاـ وـهـيـ مـنـ سـوـرـةـ الـأـعـرـافـ مـكـيـةـ وـلـعـلـ أـصـلـ الـجـعـلـ فـيـ هـذـهـ السـوـرـةـ ثـمـ تـفـصـيلـ التـشـرـيعـ أـوـ التـفـسـيرـ فـيـ سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ الـمـدـيـنـةـ إـنـ سـاعـدـ سـيـاقـ آـيـاتـ القـبـلـةـ عـلـىـ ذـلـكـ كـمـاـ أـنـ الـأـحـكـامـ الـأـخـرـ الـمـفـصـلـةـ مـنـ الـوـاجـبـاتـ وـالـمـحـرـمـاتـ تـشـتمـلـ السـوـرـ الـمـكـيـةـ عـلـىـ إـجـالـهـاـ وـتـشـرـعـ تـفـاصـيلـهـاـ أـوـ تـفـسـرـ وـتـبـيـنـ فـيـ السـوـرـ الـمـدـيـنـةـ .

قولـه عليـهـ السـلامـ : مـسـاجـدـ مـحدثـةـ الـخـ معـناـهـ أـنـ الـمـرـادـ بـكـلـ مـسـاجـدـ فـيـ الـآـيـةـ الـمـسـاجـدـ يـحـدـثـهـ الـمـسـلـمـونـ فـيـ أـكـنـافـ الـأـرـمـنـ ، وـالـمـرـادـ بـإـقـامـةـ الـوـجـوـهـ تـوـلـيـةـ الـوـجـوـهـ الـتـيـ فـيـ آـيـةـ الـكـعـبـةـ وـهـيـ اـسـقـابـ الـشـطـرـ مـنـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ .

وفي تفسير العياشي عن الحسين بن مهران عن أبي عبدالله عليـهـ السـلامـ في قوله : « وأقيموا وجوهـكمـ عندـ كلـ مـسـجـدـ » يعنيـ الأـئـمـةـ .

اقول : الظاهر أن المراد به أئمة الجماعات ، وسيجيـء له معنى آخر .
وفيهـ : عنـ الحـسـينـ بـنـ مـهـرـانـ عـنـهـ عليـهـ السـلامـ فـيـ قولـهـ : « خـدـواـ زـيـنـتـكـمـ عـنـدـ كـلـ مـسـجـدـ »
قالـ : يعنيـ الـأـئـمـةـ .

أقول : وهو كالحديث السابق فإن تقديم الإمام زينة الصلاة ومن المستحب شرعاً تقديم خيار القوم ووجوههم لإمامه ويمكن أن يكون المراد بالأئمة أئمّة الدين على ما سيجيء من رواية العلاء بن سيبابة في آخر البحث .

وفي الدر المنشور أخرج العقيلي وأبوالشيخ ابن مردوه وابن عساكر عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » قال : صلوا في ظالكم .

أقول : وروي هذا المعنى بعد طرق أخرى عن علي وأبي هريرة وابن مسعود وشداد بن الأوس وغيرهم عنه عليهما السلام .

وفيه : أخرج ابن مردوه عن ابن عباس قال : وجّهني علي بن أبي طالب إلى ابن الكواء وأصحابه وعلى قميص رقيق وحلّة فقالوا له : أنت ابن عباس وتلبس مثل هذه الشاب ؟ فقلت : أول ما خاصمكم به قاتل الله : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، وخذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس في العيددين بردية حبرة .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن أبي العلاء عن أبي عبدالله عليهما السلام قال : بعث أمير المؤمنين عليهما السلام عبد الله بن عباس إلى ابن الكواء وأصحابه وعليه قميص رقيق وحلّة فلما نظروا إليه قالوا : يا ابن عباس أنت خيرنا في أنفسنا وأنت تلبس هذا اللباس ؟ فقال ، وهذا أول ما خاصمكم فيه قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وقال الله عز وجل : خذوا زينتكم عند كل مسجد .

وفي الكافي بإسناده عن فضالة بن أبى يوب في قول الله عز وجل : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » قال : في العيد والجمعة .

أقول : ورواه في التهذيب عن فضالة عن عبد الله بن سنان عن أبي عبدالله عليهما السلام ، وروى ما في معناه العياشي في تفسيره عنه ، وفي المجمع عن أبي جعفر عليهما السلام .

وفي الفقيه سئل أبوالحسن الرضا عليهما السلام عن قول الله عز وجل : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » قال من ذلك التمشّط عند كل صلاة .

أقول : وفي معناه غيرها من الروايات .

و في تفسير العياشي عن خيثمة بن أبي خيثمة قال : كان الحسن بن علي عليهما السلام إذا قام إلى الصلاة ليس أجود ثيابه . فقيل له : يا ابن رسول الله لم تلبس أجود ثيابك ؟ فقال : إن الله جليل يحب الجمال فأتجمل لربّي وهو يقول : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » فاحب أنلبس أجود ثيابي .

اقول : والحديث مروي من طرق أهل السنة أيضاً .

وفي الكافي بإسناده عن يونس بن إبراهيم قال : دخلت على أبي عبد الله عليهما السلام وعليه جبة خز وطيلسان خز فنظر إلىي فقلت : جعلت فدائ على جبة خز وطيلسان خز هذا ما تقول فيه ؟ فقال : لا بأس بالخز قلت : وسداه أبليس قال : وما بأس يا إبراهيم فقد أصيب الحسين عليهما السلام وعليه جبة خز ثم ذكر قصة عبد الله بن عباس مع الخوارج واحتاججه عليهم باليدين .

وفيه : بإسناده عن أَحْمَدَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلَيٍ رَفِعِهِ قَالَ : مَرْسَيْفَانُ التَّوْرِيُّ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَرَأَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليهما السلام وَعَلَيْهِ أَثْوَابٌ كَثِيرَةٌ الْقِيمَةُ حَسَانٌ قَالَ : وَاللَّهِ لَا تَنْهِنِهِ وَلَا تُبَخِّنْهُ فَدَنَا مِنْهُ فَقَالَ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا لَبِسَ رَسُولُ اللَّهِ مِثْلَ هَذَا الْلِبَاسِ وَلَا عَلَيْهِ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَبَائِكَ ! فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليهما السلام : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام فِي زَمَانٍ قَطْرٍ مَقْتَرٍ ، وَكَانَ يَأْخُذُ لَقْتَرَهُ وَإِقْتَارَهُ ، وَإِنَّ الدِّنِيَا بَعْدَ ذَلِكَ أَرْخَتْ عَزَّالِهَا وَأَحْقَقَ أَهْلَهَا بِهَا أَبْرَارُهَا ثُمَّ تَلَّا : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » فَنَحَنْ أَحْقَقَ مَنْ أَخْذَ مَا أُعْطِاهُ اللَّهُ .

يَا ثُورِيٌّ مَا تَرَى عَلَيٌّ مِنْ ثُوبٍ إِنَّمَا لَبِسْتَهُ لِلنَّاسِ ثُمَّ اجْتَذَبَ بِيَدِ سَفِيَّانٍ فَجَرَّهَا إِلَيْهِ ثُمَّ رَفَعَ الثُّوبَ الْأَعْلَى وَأَخْرَجَ ثُوبًا تَحْتَ ذَلِكَ عَلَى جَلْدِهِ غَلِيلًا ثُمَّ قَالَ : هَذَا لَبِسْتَهُ لِنَفْسِي وَمَا رَأَيْتُهُ لِلنَّاسِ ثُمَّ جَذَبَ ثُوبًا عَلَى سَفِيَّانَ أَعْلَاهُ غَلِيلًا خَشْبًا وَدَخَلَ ذَلِكَ الثُّوبَ لِيَنْ قَالَ : لَبِسْتَ هَذَا الْأَعْلَى لِلنَّاسِ ، وَلَبِسْتَ هَذَا لِنَفْسِكَ تَسْتَرُهَا .

وفيه بإسناده عن ابن القديح قال : كان أبو عبد الله عليهما السلام متكتئاً على فلقيه عباد بن كثير وعليه ثياب مروية حسان فقال : يا أبا عبد الله إنك من أهل بيت النبوة ، وكان أبوك فيما لهذه الشاب المروية عليك ؟ فلو لبست دون هذه الثياب . فقال له أبو عبد الله عليهما السلام :

ويمك يابعـاد من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ إن الله عز وجل
إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه . ليس به بأس .

وفي الدر المنشور أخرج الترمذى وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

وفي قرب الأسناد للحميرى عن أَمْرَى بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي نَصْرٍ عَنْ الرَّضَا ؓ في حديث
طويل : قال ؓ لي : ما تقول في الديباس الخشن ؟ فقلت : بلغني أن الحسن كان يلبس ،
وأن جعفر بن محمد كان يأخذ الثوب الجديد فيأمر به فيغمس في الماء فقال لي : البس وجمل
فإن علي بن الحسين كان يلبس العجبة الخز بخمس مائة درهم ، والمطراف الخز بخمسين
ديناراً فيشتتو فيه فإذا خرج الشتاء باعه وتصدق بشمنه ، وتلا هذه الآية : « قل من حرم
زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

أقول : و الروايات في هذه المعانى كثيرة جداً ، ومن أجمعها معنى الرواية

الآتية .

في تفسير العياشى عن أبان بن تغلب قال : قال أبو عبد الله ؓ : أترى الله أعطى
من أعطى من كرامته عليه أو منع من منعه هو ان به عليه ؟ لا ولكن أمال مال الله يضيعه عند
الرجل وداعع ، وجو زلهم أن يأكلوا قصداً ، ويشربوا قصداً ، ويلبسوا قصداً ، وينكحوا قصداً ،
ويركبوا قصداً ، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلمـوا به شعثهم فمن فعل ذلك
كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويركب حلالاً ، وينكح حلالاً ، ومن عدا ذلك كان
عليه حراماً ، ثم قال : ولا تسرفوا إنـه لا يحب المسرفين .

أترى الله أئمن رجلاً على مال خوـل له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف درهم ويجزيه
فرس بعشرين درهماً ، ويشتري جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين ديناراً و قال
ولا تسرفوا إنـه لا يحب المسرفين .

وفي الكافي بـإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله ؓ قال : نكون بطريق مكة ونريد الإحرام فنطلب ولا يكون معنا خالة فنتدلى بها من النورة
فنتدلى بالدقيق وقد دخلني من ذلك ما الله أعلم به ؟ فقال : مخافة الإسراف ؟ قلت : نعم ،

قال : ليس فيما أصلح البدن إسرافٌ إنّي ربما أمرت بالنقى فيلت بالزmit فأندّلك به ، إنّما الإِسراف فيما أفسد الماء وأضر بالبدن . قلت : وما الإِقتار ؟ قال : أكل الخبز والملح وافت تقدر على غيره . قلت : فماقصد ؟ قال : الخبز واللحوم واللبن والخلّ والسمون مرّة هذا ومرّة هذا .

و في الكافي بإسناده عن علي بن يقطين عن أبي الحسن عليه السلام قال : قال : قول الله عزّ وجلّ : « قل إنّما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإِثم والبغى بغير الحق » فأمّا قوله : ما ظهر منها يعني الزنا المعلن ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواحش في الجاهلية للفواحش ، وأمّا قوله عزّ وجلّ : وما بطن يعني ما نكح من الأزواج الآباء لأنّ الناس كانوا قبل أن يبعث النبي عليه السلام إذا كان للرجل زوجة ومات عنها تزوجها ابنة من بعده إذا لم تكن أمّه فحرّم الله عزّ وجلّ ذلك ، وأمّا الإِثم فإنّها الخمر بعينها .

أقول : والرواية ملخصة من كلامه عليه السلام مع المهدي وقد روتها في صورة المحاجة في الكافي مسندة وفي تفسير العياشي مرسلة و أوردناها في روايات آية الخمر من سورة المائدة .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن منصور قال : سألت عبداً صالحًا عليه السلام عن قول الله : « إنّما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » قال : إنّ القرآن ظهرأ و بطنأ فأمّا ما حرم به في الكتاب هو في الظاهر ، والباطن من ذلك أئمّة الجور ، وبجميع ما أحلّ في الكتاب هو في الظاهر والباطن من ذلك أئمّة الحق .

أقول : ورواه في الكافي عن محمد بن منصور مسندأ ، وفيه : فجميع ما حرم الله في القرآن هو الظاهر ، والباطن من ذلك أئمّة الجور ، وبجميع ما أحلّ الله في القرآن هو الظاهر ، والباطن من ذلك أئمّة الحق .

أقول : انطباق المعاصي والحرّمات على أولئك والمحلّلات على هؤلاء لكون كل واحد من الطائفتين سبباً للقرب من الله أو البعاد عنه ، أولئك من اتباع كلّ سبيلاً طائفتين من الأفعال .

ومن هذا الباب ما في التهذيب باسناده عن العلاء بن سيبابة عن أبي عبد الله عليهما السلام في قوله تعالى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » قال : الغسل عند لقاء كل إمام ، وكذا ما تقدّم من روایتي الحسين بن مهران .

وفي الدر المنشور أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن المغيرة بن شعبة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأة لضربيه بالسيف فبلغ ذلك رسول الله عليهما السلام فقال : أتعجبون من غيره سعد ؟ فوالله لا نا غير من سعد والله أغير مني ، ومن أجله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا شخص غير من الله .

وفي تفسير العياشي عن علي بن أبي حزرة قال : سمعت أبو عبد الله عليهما السلام يقول : قال النبي عليهما السلام : ما من أحد غير من الله تبارك وتعالى ، ومن غير من حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؟

وفيه عن أبي عبد الله عليهما السلام في قوله : « إِذَا جاءَ أَجْلَهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » قال : هو الذي يسمى ملك الموت .

اقول : وقد تقدّمت روایات في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « هو الذي قضى أجلاً وأجل مسمى عندـه » الأنعام : ٢ .

﴿ بحث روائي مختلط بغيره ﴾

في تفسير القمي في روایة أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في قوله : « كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حقاً عليهم الضلال » قال : خلقهم حين خلقهم مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيناً ، وكذلك يعودون يوم القيمة مهتد وضال .

قال علي بن إبراهيم : قال رسول الله عليهما السلام : الشقي من شقي في بطن أمّه والسعيد من سعد في بطن أمّه .

اقول : الروایة وإن كانت عن أبي الجارود وهو مطعون غير أنّ القوم قبلوا ما رواه

عن أبي جعفر عليه السلام في حال استقامته قبل انحرافه عنه ، على أنّ الآية قد فسرت بمثل ما في هذه الرواية في غيرها كرواية إبراهيم اليلبي عن أبي جعفر عليه السلام وغيره ، وقد وقع هذا المعنى في روايات أخرى واردة في تفسير آيات القدر ، وهي روايات جمّة مختلفة يشترك جميعها في الدلالة على أنّ آخر الخلق يشاكل كلّاً لها ، وعود الإنسان يناظر بيده ، وأنّ المبتدئ في آخر أمره مهند من أول ، وأنّ الضالّ كذلك ضالّ من أول ، والشقى شقى في بدء خلقته والسعيد سعيد فيه ، والروايات على اختلاف بياناتها كلاًّيات ليست في مقام إثبات السعادة والشقاوة الذاتيتين بمعنى ما يقتضيه ذات الإنسان ويلزم ماهيّته كالزوجيّة للأربعة فإنّ ذلك مما لا ينبغي توهّمه إذ لو رجع إلى مجرد التصوير العقليّ من غير مطابقة للواقع الخارجيّ لم يستلزم أثراً حقيقياً لتأخر الوجود عن مهیّات الأشياء وعروضه لها في الذهن والخارج على خلافه ، ولو رجع إلى افتضاء ذاتيّ حقيقيّ تملك به الماهيّة الإنسانية سعادتها أو شقاوتها بحيث لا يبقى الله سبحانه في خلقه إلاّ أن يظهر منها ما كان دفيناً في ذاته كامناً في باطنها كان في ذلك أبطالاً لا طلاق ملك الله سبحانه وتحديداً لسلطانه ، والكتاب والسنة والعقل معاوضة على نفيه ،

على أنّ ذلك يوجب اختلال نظام العقل في جميع ما يبني عليه العقلاه في أمورهم واتفاقهم على توقيع التأثير في باب التعليم والتربية ، وتسامحهم على وجود ما يستتبع المدح والذمّ أو يتّصف بالحسن والقبح يدفعه .

وكذا يوجب لغوية تشرع الشرائع وإنزال الكتب وإرسال الرسل ، ولا معنى لإتمام الحجة في الذاتيات بأيّ معنى صورناها بعد ما كانت مستحيلة الانفكاك عن الذوات .

والكتاب الكريم يسلم نظام العقل ويصدق بناء الإنسان بذريان أعماله في الحياة على الاختيار ، ويبين فيما يبيّن أنّ الله سبحانه خلق الإِنسان من طين ثمّ جعل نسله من ساللة من ماء مهين ثمّ أنبته بناتاً حسناً حتى أنعم عليه بالبلوغ والعقل ، يفعل باختياره ويميّز بين الحسن والقبح ، والخير والشرّ ، والنفع والضرر والطاعة والمعصية ، والثواب والعقاب بعقله ، ثمّ أنعم عليه بتكميله دينيّةً فما اتّبع عقله وأطاع ربّه فيما يأمره وينهاه كان

سعیداً وجوزي أحسن المجزاء، وإن خالف عقله واتبع هواه وعصى ربّه كان شقیقاً وذاقاً وبال أمره، والدار دار امتحان وابتلاء، والعمل اليوم، والجزاء غداً.

وأساس هذا البيان - كما ترى - على قضيّتين اثنتين : إحداهما : أنَّ بين الفعل الاختياريِّ وغيره فرقاً ، وهي قضيّة عقلية ضروريَّة ، والثانية : أنَّ الأفعال الاختياريَّة تتّصف بحسن وقبح وتستتبع مدحًا وذمًا وثوابًا وعقاباً ، وهي قضيّة عقلائيَّة لا يسع لعاقل أن ينكرها وهو واقع تحت النظام الاجتماعيِّ الحاكم عليه مدى حياته .

وبالجملة لا مجال للقول بالسعادة والشقاوة الذاتيَّتين بالمعنى المتفقُّد أبداً فما ورد من الآيات والروايات التي تعطف آخر الأمر على أوْلَه إِنْسَماً تستند الأمر إلى الخلق والإيجاد دون ذات الإنسان بما أَنَّه إنسان ، وقد عرفت أنَّ ارتباط السعادة والشقاء بأفعال الإنسان الاختياريَّة على ما تقتضيه القضيّتان المتفقُّدتان مما لا يشهده شكٌّ ولا يدخله ريب فما معنى هذه الآيات والروايات ؟

والروايات الواردة في مطابقة العود البدء على كثرتها البالغة تختلف في مضامينها وأنحاء بيانها طبقاً للأيات :

فمنها : ما دلَّ على ذلك إيجالاً ، وأنَّ الله خلقهم حين خلقهم صنفين : شقيٌّ وسعيد ، وَكَافِرٌ وَمُؤْمِنٌ كرواية أبي الجارود المتفقُّدة ، وما مرَّ في ذيل قوله تعالى : « هو الذي يصوّرُكُم في الأرحام كيف يشاء » آل عمران : ٦ من رواية الكافي في خلقة الجنين .

وهذا القسم من الروايات يحاذى قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » التغابن : ٢ وقوله : هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أحجنة في بطون أمّهاتكم فلا تزكُوا أنفسكم هو أعلم بمن أتّقى » النجم : ٣٢ ، وقوله تعالى كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حُقّ عليهم الضلاللة » الآية .

ولا كثير إشكال فيها فإنَّ الآيات كما يشهد به سياقها ويدلُّ عليه ذيل الأخيرة منها وإنَّما تدلُّ على قضاء إيجاليٍّ بكون النوع الإنسانيٍّ مشتملاً على فريقين ، وإنَّما يفصل الإيجال ، ويتعيّن كلُّ من الطائفتين ، وتنميّز من غيرها في مرحلة البقاء بأفعال اختياريَّة تستتبع سعادة أو شقاوة ، وتنستدعي الاهتمام بال توفيق أو أن يتحقّق له الضلاللة

بوليّة الشياطين، وبعبارة أخرى الذي في بدء الخليقة قضاء مشروط ثم يخرج عن الاشتراط إلى الإطلاق بالأعمال الاختيارية بعد ذلك.

ومنها : ما يدلّ تفصيلاً أنَّ الله سبحانه خلق الناس مختلفين فمنهم من خلقه من طين الجنة وإليه مر جعه ، ومنهم من خلقه من طينة النار وإليها مآلهم في البصائر عن عليٍّ بن الحسين عليهما السلام أنه قال : أخذ الله ميثاق شيعتنا معنا على ولايتنا لا يزدلون ولا ينقضون إنَّ الله خلقنا من طينة علَّيْنِ وخلق شيعتنا من طينة أسفل من ذلك ، وخلق عدوَّنا من طينة سجِّين وخلق أوليائهم من طينة أسفل من ذلك .
أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة جداً .

وفي المحسن عن عبدالله بن كيسان قال : قلت لا بني عبد الله عليهم السلام : جعلت فداك أنا مولاك عبدالله بن كيسان فقال : أمّا النسب فأعرفه ، وأمّا أنت فلست أعرفك قال : قلت : ولدت بالجبيل ونشأت بأرض فارس ، وأنا أخالط الناس في التجارات وغير ذلك فاري الرجل حسن السمع وحسن الخلق والأمانة ثم افتقشه فافتّشه عن عداوتكم ، وأخالط الرجل وأرى فيه سوء الخلق وقلة أمانة وزعارة ثم افتقشه فافتّشه عن ولايتكم فكيف يكون ذلك .

فقال : أمّا علمت يا ابن كيسان أنَّ الله تبارك وتعالى أخذ طينة من الجنة وطينة من النار فخلطهما جميعاً ثم نزع هذه من هذه فما رأيت من أولئك من الأمانة وحسن السمع وحسن الخلق فهم مسْتَهُم من طينة الجنة ، وهم يعودون إلى ما خلقوا منه ، وما رأيت من هؤلاء من قلة الأمانة وسوء الخلق والزعارة فهم مسْتَهُم من طينة النار ، وهم يعودون إلى ما خلقوا منه

أقول : والروايات في هذا المعنى أيضاً كثيرة .

وفي العلل عن حبة العرنبي عن عليٍّ عليه السلام قال : إنَّ الله خلق آدم من أديم الأرض ف منه السباح ، ومنه الملح ، ومنه الطيب فكذلك في ذريته الصالح والطالح .
أقول : وحديث الخلق من طينة علَّيْنِ وسجِّين إشارة إلى قوله تعالى : كلاماً إنَّ كتاب الفجّار لفي سجِّين وما أدرَاك ما سجِّين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذب بين - إلى

أُنْ قَالَ - كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيْنَا وَمَا أَدْرَاكُ مَا عَلَيْنَا كِتَابٌ مِّنْ قَوْمٍ يَشَهِدُهُ
الْمُقْرَّبُونَ » المطففين : ٢١ أَمَّا الْآيَاتُ فَسِيَّاطٌ يُبَيَّنُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُحَلَّهَا ، وَأَمَّا
الرِّوَايَاتُ فَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَى لَا تَخْلُو عَنْ جَهَةِ بَيَانِ بَمْ دُلُولِهَا مُدْلُولٌ مَا تَقدَّمُ عَلَيْهَا .

وَذَلِكَ أَنَّهَا تَدْلِي عَلَى أَنَّ الْمَادَةَ الْأَرْضِيَّةَ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَوْصَافِهَا لَهَا ارْتِبَاطٌ
بِأَحَوَالِ الْإِنْسَانِ وَأَوْصَافِهِ مِنْ حِيثِ الصَّالِحِ وَالظَّالِمِ عَلَى حِسْبِ مَا نَشَاهِدُهُ فِي الْخَارِجِ أَنَّ
اِخْتِلَافَ الْمَوَادِ لَهَا تَأْثِيرٌ مَّا قَطْعِيٌّ فِي اِخْتِلَافِ الصُّورِ الطَّارِئَةِ عَلَيْهَا وَالآثارُ الْبَارِزَةُ مِنْهَا
وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى الاقْتِضَاءِ دُونَ الْعِلْمِيَّةِ التَّامَّةِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ الْإِنْسَانَ مُخْلُقٌ مِّنَ الطِّينِ ثُمَّ قَوْلُهُ : إِنَّ أَصْلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ
مِنَ النَّارِ يَفِيدُ أَنَّ مِنَ الْأَرْضِ مَا هُوَ مِنَ الْجَنَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنَ النَّارِ وَإِلَيْهَا يَؤُولُ فَإِنَّهَا
تَصِيرُ إِنْسَانًا ثُمَّ يَسْلُكُ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا يَسْلُكُ إِلَى كُلِّ مِنْهَا مَا يَنْسَبُهَا
فِي مَادَّةِ الْخَلْقَةِ فَهَذَا الْمَوْجُودُ الْمَادِيُّ الْأَرْضِيُّ هُوَ الَّذِي يَصْفُو فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ وَيَكُونُ طِينَهُ
طِينَ الْجَنَّةِ ، أَوْ يَزِيدُ فِي التَّكَدُّرِ وَالْانْجَطَاطِ فَيَدْخُلُ النَّارَ فَيَكُونُ وَقُوَّدًا لَهَا .

وَيَشْعُرُ بِهِ بَعْضُ الْإِشْعَارِ قَوْلُهُ تَعَالَى حَكَايَةً عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا
وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبُوُّءُ مِنَ الْجَنَّةِ حِيثُ نَشَاءُ » الْآيَةُ الزَّمْرُ : ٧٤ فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ
أَنَّ الْمَرْادَ مِنَ الْأَرْضِ هُوَ هَذَا الْأَرْضُ يَسْكُنُهَا الْإِنْسَانُ وَيَمْوَتُ فِيهَا وَيَبْعَثُ مِنْهَا ، وَهِيَ
الْمَرْادَةُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَإِلَيْهِ يَشِيرُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : « يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ »
إِبْرَاهِيمٌ : ٤٨ .

فَكَانَ الْمَرْادُ بِطِينَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي الرِّوَايَاتِ الطِّينِيَّةِ الَّتِي سَتَكُونُ مِنْ أَجْزَاءِ الْجَنَّةِ
أَوِ النَّارِ ، وَخَاصَّةً بِالنَّظَرِ إِلَى بَعْضِ تَعْبِيرَاتِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : مِنْ طِينَةِ عَلَيْنَا وَمِنْ طِينَةِ
سَجِّينٍ وَمِنْ طِينَةِ الْجَنَّةِ وَمِنْ طِينَةِ النَّارِ .

وَعَلَى هَذَا فَاطِرَادُ أَنَّ إِلَّا إِنْسَانًا مَا مُخْرَجُوهُ بِحِسْبِ قُرْبِ كِبَيْ أَجْزَاءُ بَدْنِهِ مِنَ الْمَادَةِ الْأَرْضِيَّةِ إِمَّا
مَادَّةٌ طَيِّبَةٌ أَوْ مَادَّةٌ خَبِيثَةٌ ، وَهِيَ بِحِسْبِ وَصْفِهَا الْبَارِزِ فِيهَا مُؤْثِرٌ فِي إِدْرَاكَاهُ وَ
عَوْاطِفِهِ الْبَاطِنِيَّةِ وَقُوَّاهُ ثُمَّ إِذَا شَرَعَتْ قَوَامُهُ وَعَوْاطِفُهُ الْمُنَاسِبَةُ مَادَّتْهُ فِي الْعَمَلِ تَأَيَّدَتْ أَعْمَالُ الْمَادَّةِ
بِأَعْمَالِ الْعَوْاطِفِ وَالْقُوَّى وَبِالْعَكْسِ وَلَمْ يَزُلْ عَلَى ذَلِكَ يَشْتَدُّ أُمْرُهُ حَتَّى يَقُمَ إِنْسَانًا سَعِيدًا

أو شقيّاً على حسب ما نظمه الله من عمل الأسباب وأراده ، والله في البداء بتسليط سبب آخر أقوى من الأسباب الموجودة الفعالة يبدل مجرى سير الإنسان وينبع من تأثير الأسباب المخالفة له .

ترى الإنسان المتكوّن من نطفة صالحة غير مؤففة مرتبة في رحم سالمة وممدّة بأغذية صالحة في هواء سالم ومحيط سالم أشدّ استعداداً للسلوك في المسلك الإنساني ، وأفقد ذهناً ، وألطاف إدراكاً ، وأقوى للعمل فالأمزجة السالمة بالوراثة ثم بامداد النطفة بأسبابها وانتها كالممناطق المعتدلة أقرب إلى قبور الكمالات الإنسانية ، وامتداد الرديئة ماءً وهواءً والصعبة الخشنة في أسبابها الحيوية كالممناطق الاستوائية والقطبية أقرب إلى الخشونة والقسوة والبلاد من غيرها .

ثم الأمزجة السالمة من موائع لطف الإدراك تنشأ ذاتاً ذاتاً أرواح لطيفة لها عقولٌ جيّدة وعواطف رقيقة تميل بالإنسان إلى ما فيه صلاح إنسانيته من العقائد والإرادات والأعمال ، وتقرّ به من المواد الحافظة للبقاء إلى ما يزيد في تأييد الروح في عمله ، ولا يزال يتعاكـس التأثير حتى يتمـ الآثر ، ونظير الكلام جاري في جانب الشقاء قال تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدـ ينـ لهم سبلـنا و إنـ الله مـلـ المـحسـنـينـ » العنكبوت : ٦٩ و قال : « ثمـ كانـ عـاقـبةـ الـذـينـ أـسـوـاـ السـوـآـيـ أـنـ كـذـ بـواـ بـآـيـاتـ اللهـ وـ كـانـواـ بـهـاـ يـسـتـهـزـؤـنـ » الروم ١٠: والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومع ما نعلم من تأثير المواد الأرضية في نحو حياة الإنسان السعيدة والشقيّة لسنا بحصي من الأسباب الدخيلة في هذا الباب إلا بعض الأسباب العامة البينة التي ليس لها قدر تجاه ما يجهله منها كما سمعت من حديث سلامـة مزاجـ الأـ بوـينـ والعـدـاءـ الـمـدـ للـبقاءـ والمـنـطـقةـ منـ الـأـرـضـ الـتـيـ يـعـيشـ فـيـهـاـ الـإـنـسـانـ وـغـيرـهـاـ ،ـ فـهـنـاكـ أـسـبـابـ لـاـ تـحـصـيـ كـثـرـةـ خـفـيـةـ عنـاـ ،ـ وـمـنـ شـوـاهـدـ ذـلـكـ نـوـادـرـ الـأـفـرـادـ الـذـينـ يـنـشـأـونـ فـيـ غـيـرـ مـاـ نـحـسـبـهـ مـنـشـأـ لـهـمـ وـالـلـهـ يـخـرـجـ الـحـيـ مـنـ الـطـيـتـ وـيـخـرـجـ الـمـيـتـ مـنـ الـحـيـ .

وبالجملة سعادة الإنسان في حياته أعني سعادته في علمه وعمله لها ارتباط تام بطيب مواده الأصلية فهي التي تقبل ما يناسبها من الروح : وهي التي تهتمي إلى الجنـةـ ،ـ وـ

كذلك شقاء الإنسان في علمه بترك العقل والركوع على الأوهام والخرافات التي تزيّنهما له عواطف الشهوة والغضب ، وفي عمله بالتمتع من لذائذ المادة ، والاكتناف والاسترسال في الشهوات الحيوانية والاستكبار عن كل حقيقة لا يوافق هواه .

فهذا القبيلان من الأسباب المادية يسوقان الإنسان إلى الحق والباطل والسعادة والشقاء والجنحة والنار غير أنّهما مقتضيان من غير علمية تامة ، والله سبحانه وتعالى ألميشية فيما والبداء با ظهار سبب آخر يقهر ما يخالفه من الأسباب ، وقد تقدّم ما يدل عليه في حديث خلقة الجنين في أوائل سورة آل عمران . وفي معناه أحاديث أخرى ثبتت لله ألميشية وجواز المحو والإثبات في الأمور .

ويمكن أن توجه هذه الأخبار بوجه آخر أدق يحتاج تعلّمه إلى صفاء في الذهن وقد صدق في المعارف الحقيقية ، وهو أن السعادة والشقاوة في الإنسان إنما تتحقّقان بفعلية الإدراك واستقراره ، والإدراك ليتجزّد عن المادة ليس بمقيد بقيودها ولا محكمة بأحكامها ومنها الزمان الذي هو مقدار حر كتها ، ونجن وإن كننا نقدر بالنظر إلى كون المادة تنتهي بحر كتها إلى هذه الفعلية أن السعادة بعد زمان الحر كة لكنّها بحسب حقيقة نفسها غير مقيدة بالزمان فما بعد الحر كة منها هو بعينه قبل الحر كة وذلك نظير ما ننسى أموراً حادثة إلى فعل الله سبحانه فنقيد فعله بالزمان نقول : خلق الله زيداً في زمان كذا ، وأهلك قوم نوح ، ونجي قوم يوئس ، وبعث محمد عليه السلام في عصر كذا فنقيد فعله بالزمان وإنما هو كذلك من حيث نظرنا إلى نفس الحادثة وكونها مأخوذة في نفسها من دون الزمان والحر كة التي انتهت إلى وجودها وأما لوأخذت مع زمانها وسائل قيود ذاتها على ماعليه الأمر في نفسه فال فعل الإلهي غير مقيد بالزمان لأنّه موجود بمجموع الحادث وزمانه وسائل ما يقيّد به ، وإن كننا - بالنظر إلى اتحاد ما لفعله الحادث المقيّد بالزمان - نقيد فعله بالزمان كما نقول : اليوم علمت أن كذا كذا ، ورأيتها الساعة فنقيد العلم باليوم وال الساعة وليس بمقيد بهما مكان تجرّده ، وإنما المقيّد هو العمل الدماغي أو العصبي المادي الذي يصاحب العلم مصاحبة الاستعداد للمستعد له .

فلا نسان ملأا كان انتهاءه إلى تجرّد علمي بالسعادة أو الشقاء - وإن كان مقارناً

لِجَنَّةَ جَسْمَانِيَّةً أَوْ نَارَ كَذَلِكَ عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ - فَمَا لَهُ مِنْ أَمَالٍ فِي نَفْسِهِ لَازِمٌ لَهُ وَصَحٌّ أَنْ يُؤْخَذُ قَبْلَ كَمَا يُؤْخَذُ بَعْدُ ، وَأَنْ يُسَمَّى بَدْءًا كَمَا يُسَمَّى عِوَادًا فَافْهِمْ ذَلِكَ .

وَمِنْهَا : ما يَدِلُّ عَلَى اِنْتِهَاءِ خَلْقِ النَّاسِ إِلَى اِلْمَاءِ الْعَذْبِ الْفَرَاتِ وَالْمَلْحِ الْأَجَاجِ كَمَا فِي الْعَلْمِ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ مَاءً عَذْبًا فَخَلَقَ مِنْهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ ، وَجَعَلَ مَاءً مِنْهُ أَهْلَ مَعْصِيَتِهِ ثُمَّ أَمْرَهُمَا فَاخْتَلَطَا فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا وُلِدَ الْمُؤْمِنُ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا الْكَافِرُ إِلَّا كَافِرًا .

وَفِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَنَانِ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : سَأَلْتُهُ عَنْ أُولَى مَا خَلَقَ اللَّهُ فَقَالَ : إِنَّ أُولَى مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا خَلَقَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ . قَلَتْ : جَعَلْتَ فَدَاكَ مَا هُوَ ؟ قَالَ : اِلْمَاءِ . قَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ اِلْمَاءَ بِحَرَبَيْنِ أَحَدُهُمَا عَذْبٌ . وَالآخَرُ مَلْحٌ فَلَمَّا خَلَقَهُمَا نَظَرَ إِلَى الْعَذْبِ فَقَالَ : يَا بَحْرٌ فَقَالَ : لَبِسْكٌ وَسَعْدِيَكِ . قَالَ : فَيْكِ بْرَ كَتِي وَرَحْمَتِي وَمِنْكِ أَخْلَقَ أَهْلَ طَاعَتِي وَجَنَّتِي ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْآخَرِ فَقَالَ : يَا بَحْرٌ ، فَلَمْ يَجِدْ فَاعِدَادَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : يَا بَحْرٌ ، فَلَمْ يَجِدْ فَقَالَ : عَلَيْكِ لِعْنَتِي وَمِنْكِ أَخْلَقَ أَهْلَ مَعْصِيَتِي وَمِنْ أُسْكِنَتِهِ نَارِي ثُمَّ أَمْرَهُمَا أَنْ يَمْتَرِجَا فَامْتَرَجَا .

قَالَ : فَمَنْ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ .

وَفِي تَفْسِيرِ العَيَّاشِيِّ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَيْسَى عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَالَ طَاءً : كَنْ عَذْبًا فَرَأَتَا أَخْلَقَ مِنْكُمْ جَنَّتِي وَأَهْلَ طَاعَتِي ، وَقَالَ طَاءً : كَنْ مَلْحًا أَجَاجًا أَخْلَقَ مِنْكُمْ نَارِي وَأَهْلَ مَعْصِيَتِي فَأَجْرَى الْمَاءِينَ عَلَى الطِّينِ الْحَدِيثِ وَهُوَ طَوِيلٌ . أَقُولُ : وَفِي مَعْنَى كُلِّ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْثَلَاثَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٍ أُخْرَى مَرْوِيَّةٌ عَنْ عَلَيِّ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ وَغَيْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَإِنَّمَا أُورَدَنَا مَا أُورَدَنَا بِعِنْوانِ الْأَنْوَذِجِ .

وَهَذِهِ الرِّوَايَاتِ تَنْتَهِي إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْنَيْ وَلَا تَضْعُفُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، وَمَا يَسْتَوِي الْبِحْرُ أَنْ هُوَ عَذْبٌ فَرَاتٌ سَائِعٌ شَرَابٌ وَهُوَ هَذِهِ مَلْحٌ أَجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ " تَأَكَلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرُجُونَ حَلِيَّةً تَلْسِبُونَهَا وَتَرِي الْفَلَكَ فِيهِ

ما خر لتبغوا من فضله ولعلكم تشكرنون» الفاطر : ١٢ وأنت ترى موقع الآية الثانية من الأولى ، وأيتها بمنزلة التمثيل لبيان مضمون الآية وشرح اختلاف الناس في أنفسهم في عين اتحادهم في الإنسانية واشتراكهم في بعض المنافع والآثار . وقد قال تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «الأنبياء : ٣٠».

وقوله تعالى : « وهو الذي من جن البحرین هذا عذب فرات وهذا ملح أحاج وجعل بينهما بربخاً وحجرأً محجوراً وهو الذي خلق من الماء بشراً يجعله نسباً وصهرأً وكان ربّك قديرأ » الفرقان : ٥٤ ، وسيجيء بيان الآيات في محلها .

وأما الروايات فإنها - كما قرئ - في معناها تعود قسمين :

أحدhem : ما يذكر أن الماءين العذب الفرات والملح أحاج أجريا على الطين الذي خلق منه الإنسان فاختطف الطين باختلاف الماء ، وهذا القسم يرجع إلى الصنف المتقدم من الأخبار الدالة على أن اختلاف الخليقة يعود إلى اختلاف الطينة المأخوذة لها فالكلام فيه كالكلام في أخبار الطينة وقد قدّمناه .

و ثانيةهما : ما دل على أن الخليقة أعم من خلقة الإنسان وغيره . حتى الجنة والنار تنتهي إلى الماء ثم اختلاف الماء منشأ لاختلاف الناس في السعادة والشقاوة أما اختلاف الخليقة باختلاف العذوبة والملوحة فيعود أيضاً إلى القسم الأول ويجري فيه الكلام السابق فإنّ القسم الأول من هذه الأخبار يعود كالمفسّر لهذا القسم الثاني ثم هما معاً كالمفسّر لأخبار الطينة السابقة .

وأما انتهاء الخليقة إلى أصل أولى هو الماء فسيجيء البحث فيه فيما يناسبه من محله إن شاء الله العزيز .

ومنها : ما دل على أن الاختلاف يعود إلى اختلاف الخليقة من النور والظلمة كما في العلل عن الصادق عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى خلقنا من نور مبتدع من نور سنيخ ذلك النور في طينة من أعلى عليين ، وخلق قلوب شيعتنا ماخليق منه أبدانا ، وخلق أبدانهم من طينة دون ذلك فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خلقت مما خلقنا منه ، ثم قراء « كلاماً إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدرك ما عليهم كتاب مرقوم يشهد له المقربون » . وإن الله تبارك

وتعالى خلق قلوب أعدائنا من طينة من سجين ، وخلق أبدانهم من دون ذلك ، وخلق قلوب شيعتهم ممّا خلق منه أبدانهم فقلوبهم تهوي إلينهم . ثم قرء : «إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لِفِي سَجِينٍ وَمَا أَدْرَاكُ مَا سَجِينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَلِلْيَوْمِ يَوْمَدِلِلِمَكْذِبِينَ» .

أقول : وفي معناه روايات أخرى ، وهو في الحقيقة راجع إلى ما تقدّم من الروايات الدالة على انتهاء الخلقة إلى طينة علّيin وطينة سجين ، وإنما يصير بعد خلقه من هذه الطينة نوراً وظلمة ، ولعل ذلك لكون طينة السعادة مما يظهر به الحق وتتجلى به المعرفة بخلاف طينة الشقاوة الملازمة للمجعل الذي هو ظلمة وعمى فطينة السعادة نور ، وكثيراً مما يسمّي القرآن العلم والهدي نوراً كما يسمّي الإيمان حياة قال تعالى : «أَوْمَنْ كَانْ مِيَّتَا فَأَحْيَيْنَا هُوَ نُورٌ يَمْشِي بِهِ النَّاسُ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» .
الأَنْعَامَ : ١٢٢

وقال : «الله ولِي» الّذين آمنوا يخرّجهم من الظلمات إلى النور و الّذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » البقرة : ٤٥٧ ، وفي كون النور أصلاً لخفة طائفة من الموجودات كالأنبياء والملائكة واللوح والقلم والعرش والكرسي و الجنة أخبار كثيرة أخرى سيأتي بعضها فيما سيأتي إن شاء الله .

و منها : مادل على لحق حسنات الأشقياء بالسعادة يوم القيمة وبالعكس كما في العلل باسناده عن إبراهيم الليثي عن الباقر ع تكلّم في حديث طويل : ثم قال : أخبرني يا إبراهيم عن الشمس إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان فهو بأئن من الفرس ؟ قلت : في حال طلوعه بأئن . قال أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالفرص حتى يعود إلينه ؟ قلت : نعم . قال : كذلك يعود كل شيء إلى سنته وجوهره وأصله فإذا كان يوم القيمة نزع الله عزّ وجلّ سنج الناصب وطينته مع أثقاله وأوزاره من المؤمن فيلحقها كلّها بالناصب ، وينزع سنج المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب بر واجتها من الناصب فيلحقها كلّها بمؤمن .

أفترى هنا ظلماً وعدواناً ؟ قلت : لا يا ابن رسول الله . قال : هذا والله القضاء الفاصل والحكم القطع ، والعدل البيّن ، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون هذا يا إبراهيم الحق

من ربّك فلَا تكن من الممترِينَ . هذَا مِنْ حُكْمِ الْمَلَكُوتِ .

قَالَتْ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَا حُكْمُ الْمَلَكُوتِ ؟ قَالَ : حُكْمُ اللَّهِ وَحُكْمُ أَنبِيائِهِ وَقَصَّةُ الْخَضْرِ وَمُوسَى حِينَ اسْتَصْبَحَهُ فَقَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ معي صَبَرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تَحْطُطْ بِهِ خَبْرًا إِنْهُمْ يَا إِبْرَاهِيمَ وَاعْقُلْ ، أَنْكَرَ مُوسَى عَلَى الْخَضْرِ وَاسْتَفْطَعَ أَفْعَالَهُ حَتَّى قَالَ لَهُ الْخَضْرُ : يَا مُوسَى مَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ، وَإِنَّمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْحَدِيثُ .

أَقُولُ : الرَّوَايَةُ تَبْنِيَ البَيَانَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : لِيَمْيِيزَ اللَّهُ الْخَبِيرُ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيَجْعَلُ الْخَبِيرَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيُرَكِّمَ كُلُّهُ فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ » الْأَنْفَالُ : ٣٧ وَ آيَاتٍ أُخْرَى ذَكَرَهَا تَعَالَى فِي مِنْتَهِيَ الرَّوَايَةِ ، وَالآيَةِ - كَمَا تَرَى - تَذَكَّرُ أَنَّ سَبْحَانَهُ سَيَقْصَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الطَّيِّبُ مِنَ الْخَبِيرِ وَيَمْيِيزُ بَيْنَهُمَا تَمِيزًا تَامًا لَا يَبْقَى فِي قَسْمِ الطَّيِّبِ مِنْ خَلْطِ الْخَبَاشَةِ شَيْءٌ ، وَلَا فِي سُنْنَةِ الْخَبِيرِ مِنْ خَلْطِ الطَّيِّبِ شَيْءٌ ثُمَّ يَجْمِعُ كُلُّ خَبِيرٍ بِرَدِّ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ وَإِلَى حَاقِ بَعْضِهِ بَعْضٍ ، وَيَرْجِعُ الْآثارُ وَالْأَعْمَالُ حِينَئِذٍ إِلَى مَوْضِعَاهَا ، وَتَرْدَدُ الْفَرْوَعُ إِلَى أُصُولِهَا لِمَحَالَةِ ، وَلَازَمَ ذَلِكَ اجْتِمَاعُ الْحَسَنَاتِ جَمِيعًا فِي جَانِبِ وَرْجُوعِهَا إِلَى سَعَادَةِ الدَّارِ الَّذِي لَا تَمَازِجُهُ شَقاوةُ أَصْلَا ، وَاجْتِمَاعُ السَّيَّاَتِ جَمِيعًا فِي جَانِبِ وَرْجُوعِهَا إِلَى مَنْشَاهُ الْخَالِصِ فِي مَنْشَايْتِهِ . وَهُوَ الَّذِي تَبَيَّنَهُ الرَّوَايَةُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَخْبَرْنِي يَا إِبْرَاهِيمَ عَنِ الشَّمْسِ الْخَ الخ تمثيل بظاهر الحسن على كون الأثر مظهراً ملؤقره محساناً خالقه قائماً به ملازماً لوجوده ، وقوله تَعَالَى : هَذَا وَاللهُ الْقَضَاءُ الْفَاصِلُ الْخَ هذامع كونه يحسب باديء النظر خلاف العدل مبني على ما تحيكم به الضرورة من وجوب المناسبة والسنخية بين الفاعل و فعله و المؤثر و أثره ، ولازمه الحكم بأن كل فعل من الأفعال إنما يملكه من الفواعل ما يناسبه في ذاته لا مالاً يناسبه ، وإن كان قضاء النظر السطحي المعتمد على ظاهر الحسن بخلافه .

فالنفع من حيث كونه حركات كذا وسكنات كذا فهو للموضع الذي يتحرّك ويسكن بها ، وأمّا من حيث كونه معنى من المعاني حسنة أو سيئة ومن آثار السعادة أو من آثار الشقاوة فإنّما هو لذات سعيدة أو شقيقة تناسبه في وصفه ، ولو كان هناك موضوعان لهما حكمان مختلفان ثم وجد شيء من حكم كل في الآخر فإنّما هو لامتزاج وقع

بين الم موضوعين واحتلاط بمعنى أن وراء هذا الفعل موضوعه الأصلي " القائم بأمره وإن ظهر في ظاهر النظر في غير موضوعه كالحرارة الظاهرة في الماء التي عاملها الأصلي " نار أو شمس مثلاً وإن كانت صفة بارزة في الماء ظاهرة فالحرارة للنار مثلاً وإن ظهرت في الماء وهذا مما لا يرتاب فيه الخير بالآيات الحقيقة .

وعلى هذا تكون الحسنيات للمحسنين ذاتاً والسعادة جوهرًا وسنخاً، والسيّات للمسين ذاتاً والأشقياء طينة وأصلاً بحسب ظرف الحقيقة ووعاء الحق " فهو الذي يقتضيه العدل الحقيقي " .

ولainاقضه أمثال قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره » الزلزال : ٨ ، قوله : « ألا ترر وازرة وزر أخرى » النجم ٣٨ ، قوله : « لَهَا مَا كسبت وعليها مَا اكتسبت » البقرة : ٢٨٦ ، إلى غير ذلك من الآيات الحاكمة بأنّ تبعة كلّ فعل إنّما هو لفاعله إنّ خيراً فخير وإنّ شرّاً فشرّ .

وذلك أنّ الذي تحكم به الآيات في محله ولا يتخطّاه لكن ممّا كان فاعل الفعل بحسب النظر الاجتماعي " الدنوي " هو الذي تقوم به الحركة والسكن المسمى " فعلاً " فالله تعالى تبعة الفعل من مدح أوذم " أو ثواب أو عقاب دنويين ، وأمّا بحسب النظر الحقيقي " ففاعل الفعل الأصل الذي يساند الفعل ويناسبه وهو غير من قامت به الحركات والسكنات المسمّاة " فعلاً ، ورجوع هذا الفعل ومآلاته من الآثار الحسنة أو السيئة إلى هذا الأصل ليس من رجوع تبعة الفعل إلى غير فاعله حتى تناقضه الآيات الكريمة فهذا الحكم الباطني " الذي يسميه كتاب الله حكماً ملوكوتياً في طول الحكم الظاهري " الذي ناله في حياتنا الاجتماعية .

وإذ كان يوم القيمة هو اليوم الذي تبلّي فيه السرائر وتطهّر فيه الحقائق ولا يحتجب الحق " فيه بشيء " - كمامرت الإشارة إليه كراراً - كان هو مجلّي هذا الحكم الملوكوتى الذي يلحق كلّ حكم بحقيقة موضوعه فيرجع به كلّ شيء إلى أصله قال تعالى : « وبدالهم من الله مالم يكُونوا يحتسبون » الزمر : ٤٧ ، وقال : لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٤٢ ، وقال : « أحقنا بهم ذرّيّتهم وما ألتّناهم من عليهم من شيء » الطور : ٢١ ، وقال : « وليرحملن أثقالهم وأنقلّاً مع أثقالهم » العنكبوت : ١٣ .

ومن هنا يظهر وجه اختصاص هذا الحكم الملكوتي « يوم القيمة مع أنّ البرزخ هو ما بين الموت والبعث أيضاً من ظروف المجازاة ومن أيام الله . و ذلك لأنّ الظاهر من كلامه تعالى أنّ البرزخ من تتمة الملك الأرضي محسوب من الدنيا كما يدلّ عليه قوله تعالى : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فسائل العادين قال إن لبثتم إلّا قليلاً » المؤمنون : ١٤ ، قوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الروم : ٥٦ .

فالحياة البرزخية كأنّها من بقایا الحياة الدنيوية محكومة ببعض أحكامها ، و الناس فيها بعد في طريق التصفية والتخلص إلى سعادتهم و شقاوتهم ، والحكم الفصل الذي يحتاج إلى السنخ الخالص والذات الممحوضة بعد هذه الحياة .

و من هنا يظهر أيضاً سرّ ما يظهر من القرآن والحديث أنّ الله سبحانه يجازي الكفار جزاء حسناتهم التي أتوا بها في الدنيا وأمّا في الآخرة فأعمالهم فيها حبط ، ولا يقيم لهم يوم القيمة وزناً ، وليس لهم فيها إلّا النار فافهم ذلك .

وقوله ﷺ : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » تعليم منه لما يسمى من الحكم الملكوتي بالآية ، و ذلك أنّ السؤال عن شيء سواء كان فعلًا فاعل أو قضاء قضى به قاضٍ أو خبراً أخبر به مخبر إنما هو طلب من الفاعل أو القاضي أو المخبر أن يبيّن مطابقة ما أتي به الواقع ويطبقه على الحقّ فإنّ ما نأتي به من الأمر إنما هو مجازاة منا للواقع الحقّ ولا ينقطع السؤال إلّا إذا بين لنا وجه الحقّ فيه وكونه مطابقاً للواقع أمّا إذا كان الفعل الذي أتي به أو الحكم الذي حكم به أو الخبر الذي أخبر به مثلاً نفس الواقع بلا واسطة فلامعني للسؤال البستة .

فإذا سألك سائل مثلاً : لم ضربت اليتيم ؟ أو لم قضيت أنّ المال لزيد ؟ أو من أين أخبرت أنّ زيداً قائم ؟ لم ينقطع السؤال دون أن تقول مثلاً : ضربته للتأديب ، وأن تقول إنّ زيداً ورثه عن أبيه مثلاً وأن قرينه زيداً وهو قائم مثلاً ، وهذا هو الحقّ الواقع المسؤول عنه ، وأمّا كون الأربعه زوجاً ، أو كون العشرة أكبر منخمسة أو بطلان حياة

زيد لوجزه رأسه من بدنـه مثلاً فهذه الأمور نفس الواقع الحق ولا معنى لأن يسأل عن الاربعة لم صرـت زوجـاً أو عن العـشرة لم صـارت أكبرـ من الخـمسـة ؟ أو عن فعلـ من الأفعالـ أو أثرـ من الآثارـ وعنهـ فاعـلهـ وغاـيـتهـ لمـ كانـ كـماـ كانـ ؟ أو لمـ فعلـ سـبـبهـ التـامـ ماـ فعلـ ؟ فـانـ ذلكـ هـذـرـ .

وـ اللهـ سـبـحانـهـ فعلـهـ نفسـ الـواقعـ الحقـ ،ـ وـقولـهـ نفسـ العـينـ الـخـارـجـيـةـ ولاـ يـنتـهـيـ إـلـىـ غيرـهـ فـلاـ معـنىـ لـالـسـؤـالـ عـنـهـ بـلـمـ وـكـيـفـ .ـ وـجـمـيعـ القـضـاـيـاـ الـحـقـةـ الـتـيـ نـطـبـقـ عـلـيـهـاـ عـقـائـدـنـاـ أوـ أـفـعـالـنـاـ التـكـونـ حـقـةـ إـنـمـاهـيـ مـأـخـوذـةـ مـنـ الـخـارـجـ الـذـيـ هوـ فـعـلـهـ فـلـاتـحـكـمـ فيـ شـيءـ منـ فـعـلـهـ ،ـ وـإـنـمـاـ تـلـازـمـ بـوـجـهـ فـعـلـهـ مـلـازـمـةـ التـابـعـ لـالـمـتـبـوعـ وـالـمـنـتـزـعـ لـالـمـنـتـزـعـ عـنـهـ فـاـفـهـمـ ،ـ وـبـقـرـيرـ آخرـ الفـعـلـ الـأـلـهـيـ إـنـمـاـ يـظـهـرـ بـالـأـسـبـابـ الـكـوـنـيـةـ فـيـ بـمـنـزلـةـ الـآـلـاتـ وـالـأ~دـوـاتـ لـاـ يـظـهـرـ لـهـ فـعـلـ إـلـاـ بـتـوـسـطـهـ ،ـ وـالـسـيـأـئـلـ إـنـمـاـ يـسـأـلـ عـنـ فـعـالـهـ لـجـهـلـهـ بـالـأـسـبـابـ مـثـلـاـ إـذـاـ مـاتـ زـيدـ بـسـقوـطـ حـائـطـ عـلـيـهـ بـغـتـةـ سـأـلـ سـائـلـ :ـ لـمـ أـهـلـكـ اللـهـ زـيدـاـ وـلـمـ يـرـ حـمـ شـيـاـ بـهـ وـلـأـبـوـيهـ الـمـسـكـيـنـيـنـ ؟ـ فـانـ أـجـبـ بـاـنـهـدـامـ الـحـائـطـ عـلـيـهـ نـقـلـ السـؤـالـ إـلـىـ أـنـهـ لـمـ هـدـمـ عـلـيـهـ الـحـائـطـ ؟ـ فـإـذـاـ أـجـبـ بـأـنـ السـمـاءـ أـمـطـرـتـ فـاسـتـرـخـتـ أـصـلـهـ وـمـالـ بـهـ التـقـلـ فـسـقـطـ وـكـانـ تـحـتـهـ زـيدـ فـمـاتـ بـهـ نـقـلـ السـؤـالـ إـلـىـ إـمـطـارـ السـمـاءـ وـهـلـمـ جـرـاـ ،ـ وـلـاـ يـقـعـ السـؤـالـ إـلـاـ عـلـىـ أـثـرـ مـيـهـولـ الـعـلـةـ ،ـ وـأـمـاـ الـأـثـرـ الـمـعـلـومـ الـعـلـةـ فـلـاـ يـقـعـ عـنـهـ سـؤـالـ وـلـيـسـ إـلـاـ أـنـ السـيـأـئـلـ بـجـهـلـهـ يـقـدـرـ لـزـيدـ حـيـاتـ مـسـتـنـدـةـ إـلـىـ عـلـلـ لـيـسـ بـيـنـهـاـ هـذـهـ الـتـيـ فـاجـأـهـ بـسـلـسـلـتـهـ فـتـوـهـمـ أـنـ اللـهـ سـبـحانـهـ فـعـلـ بـهـ مـاـ فـعـلـ جـزـافـاـ مـنـ غـيـرـ سـبـبـ ،ـ وـلـذـلـكـ بـادـرـ إـلـىـ السـؤـالـ وـلـوـ أـحـاطـ بـعـلـلـ الـحـوـادـثـ لـمـ يـسـأـلـ قـطـ ،ـ وـ وـقـدـ تـقـدـمـ بـعـضـ الـكـلـامـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ لـاـ يـسـأـلـ عـمـاـ يـفـعـلـ »ـ الـغـخـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـ اـعـتـراـضـاتـ إـبـلـيـسـ فـيـ مـحاـورـهـ الـمـلـائـكـةـ .ـ

وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ حـكـمـ اللـهـ وـحـكـمـ أـنـبـيـائـهـ الـغـخـ أـيـ قـضـاؤـهـ تـعـالـىـ وـقـضـاءـ أـنـبـيـائـهـ بـأـنـهـ فـإـنـهـ تـعـالـىـ إـنـمـاـ يـقـضـيـ وـيـحـكـمـ الـحـكـمـ الـحـقـ الـذـيـ بـحـسـبـ حـقـيـقـةـ الـأـمـرـ وـبـاطـنـهـ لـاـ بـحـسـبـ الـظـاهـرـ كـمـاـ نـحـكـمـ عـلـيـهـ بـالـاعـتمـادـ عـلـىـ الشـواـهـدـ وـالـأـمـارـاتـ .ـ

فـقـدـ تـبـيـنـ مـعـنىـ لـحـوقـ الـحـسـنـاتـ وـآـثـارـهـ لـلـذـوـاتـ الـطـيـبـةـ وـسـنـخـ النـورـ ،ـ وـ لـحـوقـ الـسـيـّـاتـ وـآـثـارـهـ الـسـنـخـ الـظـلـمـةـ وـالـفـسـادـ وـالـذـوـاتـ الـخـبـيـثـةـ ،ـ وـيـتـبـيـنـ بـمـاـ تـبـيـنـ مـعـنىـ قـوـلـهـ :

« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » الجواب عن شيء آخر ربّه ما يختلي بالبال في بادي النظر وهو أنه لم اختصّ الذوات الطيبة وسنج النور بالحسنات وآثارها ، والذوات الخبيثة وسنج الظلمة بخلافها ؟ ولم استعقبت الحسنات النعمة الدائمة والجنّة الخالدة ، واستعقبت السيّات النّقمة والنّار .

والجواب : أنها آثار واقعية عن روابط خارجية كما تقدّم بيانه في البحث عن نتائج الأفعال لا أحكام وضعية اعتبارية وإن بيّنت في لسان الشرع بنظائر ما تبيّن به تبعات حكمتنا الوضعية الاعتبارية الواقعية في ظرف الاجتماع الإنساني تتميّزا لنظام التشريع .

إذا عرفت ذلك علمت أنّ هذه الاختصاصات ترجع إلى روابط تكوينية بين ذات الأشياء وآثارها الذاتية ولا سؤال في الذاتيات غير أنّك ينبغي أن تتذكّر ما تقدّم أنّ لزوم حكم ذات من الذوات ليس معناه استقلال ذاته باقتضاء ذلك الحكم والأثر ، واستغناؤه عن الله سبحانه في إيجابه وضمه لنفسه فهذا مما يدفعه البيان الإلهي في كتابه بل معناه لزومه لفعله الحق ولا سؤال عن ذلك كما اتضّح معناه .

وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بِأَذْنِ رَبِّهِ وَالذِّي خبث لا يخرج إلّا نكدا » الأعراف : ٥٨ فـ نـ كـ دـ ما هو مـ شـ لـ مـ ضـ روـ بـ لـ اـ قـ ضـاءـ الذـوـاتـ ، وإنـ ما قـ يـ سـ دـ بـ قـوـ لـهـ : « بِأَذْنِ رَبِّهِ » دـ فـ عـ اـ لـ تـ وـ هـ مـ الـ لـ زـوـمـ الذـاـتـيـ بـ معـنـى اـ سـ تـ قـ الـ لـ ذـوـاتـ فيـ التـأـيـدـ مستغنية عنه تعالى ، وفي هذا المعنى ما ورد من قوله عليه السلام : جف القلم بالسعادة مـ لـ مـ آـ مـ نـ وـ اـ تـ قـىـ .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِآيَاتِهِ أَوْ لَمْ يَكُنْ يَنْعَلِمُ
 نَصِيبَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كَفَرْتُمْ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا أَضْلَلُوا عَنْا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْفَارِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا
 فِي أَمَمِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأَنْسِ فِي النَّارِ كَمَا دَخَلْتُ أَمَّةً لَعِنْتُ
 أَخْتَهَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكُوهُمْ فِيهَا جَمِيعًا قَاتَلَ أَخْرِيَهُمْ لَا يَرْجِعُهُمْ رَبُّنَا هُوَ لَاءُ أَضْلَلُونَا
 فَأَتَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكُنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَاتَلَ
 أَوْلَيْهِمْ لِآخِرِهِمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كَفَرْتُمْ
 تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
 السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجُ الجَمْلُ فِي سِمَّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعُهَا
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
 غَلَّ تَبَرِّى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كَنَا
 لَنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُنَا بِالْحَقِّ وَنَوْدُوا أَنْ تَلْكُمُ
 الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كَفَرْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ
 أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًا فَهُلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا قَالُوا نَعَمْ

فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين (٤٤) الذين يصدون عن سبيل الله ويفرون بها عوجاً وهم بالآخرة كافرون (٤٥) وبينهم ما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاب بسمائهم ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطهرون (٤٦) وادا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧) ونادى أصحاب الاعراف رجالاً يعرفوهم بسمائهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كفتم تستكبرون (٤٨) اهؤلاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمته ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون (٤٩) ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمه ما على الكافرين (٥٠) الذين اخذوا دينهم لهوا ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فال يوم انسيتهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون (٥١) ولقد جئناهم بكتاب ففصلناه على عالم هدى ورحمة لقوم يومئون (٥٢) هل ينظرون الا تاویله يوم ياتی تاویله يقول الذين نسوا من قبل قد جاءت رسول ربنا بالحق فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا او فرد قنعمل غير الذي كننا نعمل قد خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٥٣) .

﴿بيان﴾

الآية الأولى تفريع واستخراج من الخطاب العام "آخر المصدّر" بقوله : « يابني آدم » نظير التفريعات المذكورة لسائر الخطابات العامة السابقة ، وما يتلوها بيان ما يستتبعها لكتاب الله وتکذيب آياته من سوء العاقبة ، والإيمان بالله والعمل الصالح من السعادة الخالدة إلّا آيتين من آخرها فإنّ فيهما رجوعاً إلى أول الكلام وبيان التمام الحجة عليهم بنزول الكتاب .

قوله تعالى : « فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذبَ بآياته » تفريع على ما تتضمنه الآية السابقة من أعلام الشريعة العامة المبلغة بواسطة الرسول أي إذا كان الأمر على ذلك وقد أبلغ الله دينه العام جميع أولاد آدم وأخبر بما أعدّه من الجزاء للأخذ به وتركته فمن أظلم ممّن استنكر عن ذلك إما بافتراض الكذب على الله ، ونسبة دين إليه ، ووضعه موضع ما أتى به الرسل من دين التوحيد ، وقد أخبر الله أنّهم وسائل بينه وبين خلقه في تبليغهم دينه ، وإما بالتكذيب لآياته الدالة على وحدانيته وما يتبعه من الشرائع .

ومن هنا يظهر أن افتراء الكذب على الله وإن كان يعم كلّ بدعة في الدين اصوله وفروعه غير أنّ المورد هو الشرك بالله باتخاذ آلهة دون الله ، ويدلّ عليه ما سيأتي من قوله : « قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله » .

قوله تعالى : « أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتّى إذا جاءتهم رسلنا » إلى آخر الآية . المراد بالكتاب ما قضي وكتب أن يصيب إلا إنسان من مقدرات الحياة من عمر ومعيشة وغني وصحّة ومال وولد وغير ذلك ، والدليل عليه تقديره بقوله : « حتّى إذا جاءتهم رسلنا » النّص والمراد به أجل الموت ، ومن المعلوم أنّه غاية للحياة الدنيا بجمع شؤونها ومقارنتها .

والمراد بالنصيب من الكتاب السهم الذي يختص كلّ واحد منهم من مطلق ما كتب له ولغيره ، وفي جعل النصيب من الكتاب هو الذي ينالهم ، والأمر بالعكس بحسب الظاهر

دلالة على أن النصيب الذي فرض للانسان وقضى له من الله سبحانه لم يكن ليخطئه البتة وما لم يفرض له لم يكن ليصيبه البتة.

والمعنى: أولئك الذين كذبوا على الله بالشرك أو كذبوا بآياته بالرد لجميع الدين أو شطر منه ينالهم نصيبهم من الكتاب ، ونصيبهم ما قضى في حقهم من الخير والشر في الحياة الدنيا حتى إذا قضوا أجلهم وجاءتهم رسالتنا من الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه نزلوا عليهم وهم يتوفونهم وياخذون أرواحهم ونفوسهم من أبدانهم سأله ولهم وقالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله من الشركاء الذين كنتم تدعون أنفسهم شركاء الله فيكم وشفاعاؤكم عنده؟ قالوا ضلوا عنة وإنما ضلت أوصافهم ونحوتهم ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بمعاينة حقيقة الأمر أن غير الله سبحانه لا ينفع ولا يضر شيئاً ، وقد أخطأوا في نسبة ذلك إلى أوليائهم .

وفي مضمون الآية جهات من البحث تقدّمت في نظيرة الآية من سورة الأنعام وغيرها .

قوله تعالى : « قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس » الخطاب من الله سبحانه دون الملائكة وإن كانوا وسائط في التوفيق وغيره ، والمخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار وهم الذين توفيت قبليهم أمم من الجن والإنس إلا أن الخطاب في معنى : ادخلوا فيما دخل فيه سابقوكم ولاحقوكم وإنما نظم الكلام هذا النظم ليختلص به إلى ذكر التخاصم الذي يقع بين متقدّميهم ومتاخرهم ، وقد قال تعالى : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » ص : ٦٤ .

وفي الآية دلالة على أن من الجن أممأ يموتون بأجال خاصة قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقى إلى يوم الوقت المعلوم .

قوله تعالى : « كلّمَا دخلت أمّة لعنت أختها » هذا من جملة خصامهم في النار وهو لعن كل دخل من تقدّم عليه في الدخول ، واللعن هو الإبعاد من الرحمة ومن كل خير والأخت المثلث .

قوله تعالى : « حتّى إذا ادار كوا فيها جميعاً إلى آخر الآيتين ادار كوا أي

تدار كوا أي أدرك بعضهم بعضاً اللاحقون السابقين أي اجتمعوا في النار جميعاً .
وأطراد بالأولى والآخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبة أو بحسب
الزمان فإن الأولى منهم مقاماً وهم رؤساء الضلال ، وأئمة الكفر المتبوعون أعادوا تابعيهم
بإضلالهم على الضلال ، وكذا الأولى منهم زماناً وهم الأسلاف المتقدّمون أعادوا
متاًخرّ لهم على ضلالتهم لأنّهم هم الذين جرّوهم بفتح الباب لهم وتمهيد الطريق
لسلوّكهم .

والضعف بالكسر فالسكون ما يكرر الشيء فضعف الواحد اثنان وضعف الاثنين
أربعة غير أنه ربّما أريد به ما يجب تكرار شيء آخر فقط كالاثنين يجب بنفسه تكرار
الواحد فضعف الواحد اثنان وضعفه أربعة ، وربّما أريد به ما يجب التكرار بانضمامه
إلى شيء كالواحد يجب تكرار واحد آخر بانضمامه إليه لأنّهما يصيران بذلك اثنين فكلّ
واحد من جزئي الاثنين ضعف وهو جميعاً ضعفان نظير الزوج فالاثنان زوج وهما زوجان ،
وعلى كلا الاعتبارين ورد استعماله في كلامه تعالى قال تعالى كما في هذه الآية « فَآتَهُمْ عذاباً
ضعفاً » وقال تعالى : « ضعفين من العذاب »

وقوله : « قالت أخراهم لا ولاهم ربنا هؤلاء أضلّونا » الخ نوع من الافتفات لطيف في
بابه فيه رجوع من مخاطبتهما بالمخاومة إلى مخاطبة الله سبحانه بالدعاء عليهم معللاً بظلمهم
فيفيد فائدة التكنيمة بالإشارة إلى الملزم وإفاده الملازمة ، وفيه مع ذلك نوع من الإيجاز
فإنّ فيه اكتفاءً بمحاجرة واحدة عن محاورتين ، والتقدير قالت أخراهم لا ولاهم أنت أشدّ
ظلمًا منا لأنّكم ضالّون في أنفسكم وقد أضلّلتمونا فليعذّبكم الله عذاباً ضعفاً من النار ،
ثم رجعوا إلى ربّهم بالدعاء عليهم وقالوا ربنا هؤلاء أضلّونا فآتّهم عذاباً (الخ) فأجابهم
الله وقال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون ، ثم أجابتهم أولاً لهم وقالوا : مما كان لكم علينا
من فضل (الخ) .

فمعنى الآية : « حتى إذا أدارّ كوا » واجتمعوا بلحوق أخراهم لا ولاهم « فيها »
أي في النار تخاصموا « وقالت أخراهم » وهم اللاحقون مرتبة أو زماناً من التابعين
« لا ولاهم » وهم الملحوقون المتبوعون من رؤسائهم وأئمتهم ، ومن آباءهم والأجيال السابقة

عليهم زماناً المهددين لهم الطريق إلى الضلال أنتم أضلتمونا بـ«عذابكم عليه فلتعدّ» بوا باشد من عذابنا فسألوا ربهم ذلك وقالوا : «ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتاهم عذاباً ضعفاً من النار» يكون ضعف عذابنا لأنّهم ضلّوا في أنفسهم وأضلّوا غيرهم بالإعانة «قال» الله سبحانه «لكلّ» من الأولى والآخرى «ضعف» من العذاب : أمّا أولاً لكم فـ«عذابكم ضلّوا وأعذبكم على الضلال ، وأمّا أنتم فـ«كم ضلّتم وأعذبتمهم على الإضلال باتباع أمرهم وإجابة دعوة الرؤساء منهم ، وتكثير سواد السابقين منهم بالملحوظ بهم «ولكن لا تعلمون» فإنّ العذاب إنّما يتحقق أو يتمّ في مرحلة الإدراك والعلم ، وأنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم في شمول العذاب وإحاطة النار فتتوهّمون أنّ عذابهم مثل عذابكم وليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم إلى إدراكه والشعور به كما أنّهم بالنسبة إليكم كذلك فما عندكم وعندهم من العذاب ضعف ولكن إحاطة العذاب شغلكم عن العلم بذلك .

وهذا خطاب إلهي مبني على القهر والإذلال فيه تعذيب لهم يسمعه أولاهم وأخراهم جميعاً فتعود به أولاهم لآخرهم بالتهكم وتقول كما حكى الله : «وقالت أولاهم لآخرهم فما كان لكم علينا من فضل» بخففة العذاب «فندقوها العذاب بما كنتم تكسبون» في الدنيا من الذنوب والآثام .

قوله تعالى : «إنّ الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم» إلى آخر الآية . السّمّ هو التّقب وبجمعه السموم ، والخياط والمخيط الإبرة .

والّذى نفاه الله تعالى من تفتيح أبواب السماء مطلق في نفسه يشمل الفتح ولو لوج أدعیتهم وصعود أعمالهم ودخول أرواحهم غير أنّ تعقيبه بقوله : «ولا يدخلون الجنة» الخ كالقرينة على أنّ المراد نفي أن يفتح بآياتها للدخول الجنة فإنّ ظاهر كلامه سبحانه أنّ الجنّة في السماء كما هو في قوله : «و في السماء رزقكم وما توعدون» الدّاريات : ٢٢ .

وقوله : «حتّى يلجن الجمل في سّـ«المخيط» من التعليم بالمحال وإنّما يعلق الأمر بالمحال كنایة عن عدم تحققـه وإياساً من وجوده كما يقال : لا أفعل كذا حتى يشتبّ الغراب ويبيض الفار ، وقد قال تعالى في موضع آخر في هذا المعنى : «وما هم بخارجين

من النار » البقرة : ١٦٧ ، و الآية في معنى تعلييل مضمون الآية السابقة ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاثٌ » الخ . جَهَنَّمْ اسم من أسماء نار الآخرة التي بها التعذيب ، وقد قيل : إِنَّهُ مَا يَحْوَذُ مِنْ قَوْلِهِمْ « بَئْرُ جَهَنَّمَ » أي بعيدة القعر وقيل : فارسيّ مَعْرُبٌ ، و « المَهَادُ » الوطاء الذي يفترش ومنه مهد الصبي ، والغواشي بجمع غاشية وهي ما يغشى الشيء ويستره ومنه غاشية السرج . وقد اُفِيدَ بقوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاثٌ » أَنَّهُمْ محاطون بالعذاب من تحتهم ومن فوقهم . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكْلُفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا » الخ . الآية وما يتلوها لبيان حال الطائفتين الكفار والمؤمنين ، ولتكون كالتوطئة لقوله الآتي : « وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ » الخ .

وقوله : « لَا نَكْلُفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا » مسوق للتخفيف وتقوية الرجاء في قلوب المؤمنين فإن تقييد الإيمان بعمل الصالحات - والصالحات جمع محلّي باللام وهو يفيد الاستغراب - يفيض بظاهره أزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشدّ عنها شاذٌ ، وما أقلّ من وفق ذلك من طبقة أهل الإيمان ويسدّ ذلك بباب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر الله سبحانه أن التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعلمه من غير أن يشقّ على نفسه ويتحمل ما لا طاقة له به بعد الإيمان بالله فهو من أهل هذه الآية ، ومن أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

قوله تعالى : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ » تجري من تحتهم الأنهر » الغلّ هو الحقد و ضغن القلوب و عداوتها ، و في مادّتها معنى التوسيط باللطف و الحيلة و منه الغاللة وهي الثوب المتوسط بين الدثار والشعار ، وغلّ الصدور من أعظم ما ينبعض عيش الإنسان ، وما من إنسان يعاشر إنساناً و يتألف به إلّا واتهافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه ويريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرتضيه جاشه صدره بالغلّ وراحـت الألفة و تنفسـت العيشـة فإذا ذهب الله سبحانه بـغلـ الصدور لم يـسؤـ إنسـانـ ما يـشاهـدـهـ منـ أـيـفـعـلـيـ إـلـاطـلاقـ .

وهي اللذة الكبرى وفي قوله : « تجري من تحتهم الأنوار » إشارة إلى أنهم ساكنون في قصورها العالية .

قوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذي هدانا - إلى قوله - بالحق » في نسبة التحميد إليهم دلالة على أن الله سبحانه يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل ولا عمل سيء كما قال تعالى : « لا يسمعون فيها لغو ولا تأييماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً » الواقعه : ٢٦ ففيصح منهم تحميد الله سبحانه ويقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه تعالى بحيث يصيب غرضه ويقع موقعه بذلك المبتدل حتى يناله كل نائل قال تعالى : « سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » الصافات : ١٦٠ ، وقد تقدم القول في معنى الحمد وخصوصية حمده تعالى في تفسير سورة الحمد .

وفي قوله : « هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله » إشارة إلى اختصاص الهدایة به تعالى فليس إلى الإنسان من الأمر شيء .

وفي قوله : « لقد جاءت رسائل ربنا بالحق » اعتراف بحقيقة ما وعدهم الله تعالى بمسان أنيائه ، وهو الذي يأخذون الإعتراف به من أصحاب النار على ما تقصه الآية التالية ، وفي هذا الاعتراف وسائر الاعترافات المأخوذة من الفريقين يوم القيمة من قبل مصدر العظمة والكبراء ظهور منه تعالى بالقهر وتمام الربوبية ، ويكون ذلك من أهل الجنة شكرًا ، ومن أهل النار تماماً للحجّة .

وعتراف أهل المجمع بحقيقة ما وعدهم الله سبحانه بواسطه رسالته هو من الحقائق العالية القرآنية وإن كان بحسب ساذج النظر معنى بسيطًا مبتدلاً ، ولعلنا نوفق لشطر من البحث فيه في ذيل الكلام على هذه الآيات .

قوله تعالى : « ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما کنتم تعملون » في الإشارة بلفظ البعيد - تلکم - إشارة إلى رفعه قدر الجنّة وعلوّ مكانها فإنّ ظاهر السياق - كما قيل - أن النداء إنما هو حين كونهم في الجنّة ، وقد جعلت الجنّة إرثا لهم في قبال عملهم ، وإنما يتحقق الإرث فيما إذا كان هناك مال أو نحوه مما ينتفع به وهو في معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقي لغيره يقال : ورث فلان أباه أي مات وترك مالاً

بقي له ، والعلماء ورثة الأنبياء أى مختصون بما تركوا لهم من العلم ، ويرث الله الأرض أى إِنَّه كان خوّلهم ما بها من مال ونحوه وسوف يموتون فيبقى له ما خوّلهم .
وعلى هذا فكون الجنّة إرثاً لهم أورثوها معناه كونها خلقت معروضة لأن يكسبها بالعمل المؤمن والكافر جميعاً غير أنّ الكافر زال عنها بشركه ومعاصيه فتركتها فبقيت للمؤمن فهو الوارث لها بعمله ، ولو لا عمله لم يرثها قال تعالى : «أُولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس » المؤمنون : ١١ .

وقال تعالى حكاية عن أهل الجنّة : «الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوع من الجنّة حيث نشاء » الزمر : ٧٤ .

وهذا أوضح مما ذكره الراغب في المفردات إذ قال : الوراثة والإرث انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد ، وسمى بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة ميراث وإرث وتراث فقلبت الواو ألفاً وباء قال : وتأكلون التراث ، وقال عليهما السلام : اثبتو على مشاعركم فما ترثكم على إرث أيّكم أى أصله وبقيته . قال الشاعر : فلننظر في صحف كالربا ط فيهن إرث كتاب محى

قال : ويقال لكلّ من حصل له شيء من غير تعب : قد ورث كذا ويقال لكلّ من خوّل شيئاً مهناً : أورث ، قال تعالى : تلك الجنّة التي أورثتموها ، أُولئك هم الوارثون الذين يرثون ، قوله : ويرث من آل يعقوب فإنه يعني وراثة النبوة والعلم والفضيلة دون المال فاما لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه بل قلّما يقتتون المال ويملكونه ألا ترى أنه قال عليهما السلام : «إنما يعيش الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» نصب على الاختصاص فقد قيل : ما تركناه هو العلم وهو صدقة يشترك فيها الأمة ، وما روي عنه عليهما السلام من قوله «العلماء ورثة الأنبياء» فإشارة إلى ما ورثوه من العلم ، واستعمل لفظ الورثة لكون ذلك بغير ثمن ولا منة ، وقال علي رضي الله عنه : أنت أخي ووارثي . قال : وما أرثك ؟ قال : ما ورثت الأنبياء قبلهم كتاب الله وسنّتي ، ووصف الله تعالى نفسه بأنه الوارث من حيث إنّ الأشياء كلّها صائرة إلى الله تعالى (انتهى كلامه) .

وإنّما كان ما قدّمناه أوضح مما ذكره لصعوبة إرجاع ما ذكره من المعانى إلى

أصل واحد هو معنى المادّة .

قوله تعالى : « ونادي أصحاب الجنة أصحاب النار » إلى آخر الآية . هذا في نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتواصيّط أصحاب الجنة وواقع موقع التهكم والسخرية التي تهكم ويسخر به أصحاب الجنة من أصحاب النار . والاستهزاء والسخرية إنما يكون من اللغو الباطل إذا لم يتعلّق به غرض حقّ كالاستهزاء بالحقّ وأهله أمّا إذا كان لغرض المقابلة والمجاراة ولغرض آخر حقّ من غير محدود فليس من قبيل المفوّض الذي لا يصدر عن أهل الجنة قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : « و يصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه قال إن سخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون » هود : ٣٨ ، وقال : « إنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحِكُونَ وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَتَغَامِزُونَ - إِلَى أَنْ قَالَ - فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحِكُونَ » المطففين : ٣٤ .

وأمّا الفرق بين قولهم : « ما وعدنا ربّنا » وقولهم : « ما وعد ربّكم » حيث ذكر المفعول في الوعد الأوّل دون الثاني فلعل ذلك للدلالة على نوع من التشريف فإنّ الظاهر أنّ المراد بما وعد الله جميع ما وعده من الثواب والعقاب لعامة الناس .

و هناك وجه آخر وهو أنّ متعلّق اعتراف المؤمنين وإنكار الكفار من أمر المعاد مختلف في الدنيا فإنّ المؤمنين يثبتون البعث بجميع خصوصياته التي يبيّنها الله لهم ووعدهما إيمانهم ، وأمّا الكفار المنكرون فإنّهم ينكرون أصل البعث الذي اشترك في الوعد به المؤمنون والكافر جميعاً ، ولذلك يحتاج الله سبحانه ويتّم الحجة عليهم بأصله دون خصوصياته كقوله تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم قال أليس هذا بالحقّ قالوا بل وربّنا » الأعراف : ٣٠ وقوله : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ قالوا بل وربّنا » الأحزاب : ٣٤ .

وعلى هذا فقولهم : أنّ قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً اعتراف منهم بحقيقة ما وعدهم الله وكانوا يذعنون به ويشهدون من بعدهم خصوصيات البعث بما قصّهم الله في الدنيا بلسان الأنبياء ، وأمّا الكفار فقد كانوا ينكرون أصل البعث والعقاب ، وهو مما يشرّكون فيه هم والمؤمنون فلذا قيل : « فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً ولم يقل : ما وعدكم ربّكم لأنّ

الوعد بأصل البعث والعقاب لم يكن مختصاً بهم .

وبذلك يظهر الجواب عمّا قيل: إنّ الوفاء بالوعيد واجب دون الوفاء بالوعيد على ما ذكره المتكلمون فما معنى أخذ الاعتراف بحقيقة ما ذكره الله من عقاب الكفار وأماجرمين وأنذرهم به في الدنيا ، وليس تحقّقه بلازم .

وذلك أنّ الملائكة فيما ذكروه من الفرق أنّ الثواب حقّ العامل على ولـيّ الثواب الذي بيده الأمر ، والعقاب حقّ الوليّ المثيب على العامل ، ومن المجاز أن يصرف الشخص نظره من إعمال حقّ نفسه لكن لا يجوز إبطال حقّ الغير فإذا نجاح الوعيد واجب دون إنجاز الوعيد ، وهذا إنما يتمّ في موارد الوعيد الخاصة ومصاديقه في الجملة ، وأمّا عدم إنجاز الوعيد فأصل العقاب على الذنب وإبطال أساس المجازاة على التخلّف فليست كذلك إذ في إبطاله إبطال التشريع من أصله وإخلال النظام العام .

وربّما وجّه الفرق في قوله : « وعدنا ربـنا » « وعد ربـكم » بأنّ المراد بقوله : « وعدنا » ما وعد الله المتقين من خصوصيات ما يعاملهم به يوم القيمة ، وبقوله : « وعد ربـكم » عموم ما وعد به المؤمنين والكفار من الثواب والعقاب يوم القيمة كالذي في قوله : « يا بني آدم إمّا يأتينـكم مني هـدىًّا فمن تبع هـدايـي » إلى آخر الآيات . ومن المعلوم أنّ هذا الوعيد لا يختص بالكفار حتى يقال : وعدكم ربـكم بل التعبير الحقّ وعد ربـكم .

وفيه : أنّ أصل الفرق لا يأس به لكنّه لا يقطع السؤال فللسائل أن يعود فيقول : ما هو السبب الفارق في أنّ أصحاب الجنة لما أوردوا اعتراف نفسمـهم اقتصرـوا بذلكـ ما يخصـهم من أمور يوم القيمة ، وأمّا إذاـسـأـلـوا أصحابـ النارـ سـأـلـوـهمـ عنـ جـمـيعـ ماـ وـعـدـ اللهـ بهـ المؤمنـينـ والـكـفـارـ؟ـ وبـعـبـارـةـ أـخـرىـ هـنـاكـ ماـ يـشـتـرـكـ فـيـهـ الطـائـفـتـانـ وـمـاـ يـخـتـصـ بـهـ كـلـ مـنـهـماـ فـمـاـ بـالـهـ إـذـاـ اـعـتـرـفـواـ هـمـ أـنـفـسـهـمـ بـمـاـ يـخـتـصـ بـأـنـفـسـهـمـ وـيـسـأـلـونـ أـصـحـابـ النارـ الـاعـتـرـافـ بـمـاـ يـشـتـرـكـ فـيـهـ الـجـمـيعـ؟ـ

وربّما وجّه الفرق بأنّ المراد بقوله « ما وعد ربـكم » الذي وعده أصحابـ الجنةـ منـ أنـوـاعـ الثـوابـ الـجـزـيلـ فإنـ أـصـحـابـ النارـ يـشـاهـدـونـ ذـلـكـ كـمـاـ يـجـدـونـ ماـ بـهـ مـنـ أـلـيمـ

العقاب . وهو وجه سخيف ، وعلى سخافته لا يغنى طائلا .

وقوله : « فَإِذْنُ مَوْذُنٍ بَيْنَهُمْ أَنْ لعنة الله على الظالمين » تفريع على تحقق الاعتراف من الطائفتين بجيئاً على حقيقة ما وعده الله سبحانه ، والأذان هو قوله : « لعنة الله على الظالمين » وهو إعلام عامٌ للمفرقين - والدليل عليه ظاهر قوله : « بينهم » - بقضاء الملعنة وهي إبعاد والطرد من الرحمة الإلهية على الظالمين وقدفسر الظالمين الذين ضربت عليهم باللعنة بقوله : « الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ » فهم الكافرون المنكرون للأخرة الذين يقصدون سبيل الله محى فة منحرفة ، ويصرفون غيرهم عن سلوك الصراط المستقيم فهو لاءٌ لهم المعاندون للحق المنكرون للمعاد .

وهذا الوصف يشمل جميع المعاندين للحق الكافرين بالجزاء حتى المنكر بن المصانع الذين لا يدينون بدين فإن الله سبحانه يذكر في كتابه أن دينه وسبيله الذي يهدي إليه وبه هو سبيل الإنسانية الذي تدعو إليه الفطرة الإنسانية والخلقية خص بها الإنسان ليس وراءه إسلام ولا دين .

فالسبيل الذي يسلكه الإنسان في حياته هو سبيل الله وصراطه وهو الدين الإلهي فإن سلكه على استقامة ما تدعوه إليه الفطرة وهو الذي يسوقه إلى سعادته كان هو الصراط المستقيم والإسلام الذي هو الدين عند الله وسبيل الله الذي لا عوج فيه ، وإن سلك غير ذلك سواء كان فيه إذعان بالوهية وعبادة طبعود كململ والأديان الباطلة أو لم يكن فيه خضوع لشيء وعبادة ملعوب كلامادية الممحضة فهو سلوك يبغون فيه سبيل الله عوجاً ، وهو الإسلام محى فـ عن وجهه ، ونعمـة الله التي بدلـت كـفراً . فـفهم ذلك .

وقد أبـهم الله هذا الذي يخبر عنه بـقولـه : « فَإِذْنُ مَوْذُنٍ بَيْنَهُمْ » ولم يعرـفـه من هو ؟ أـ من الإنسـ أمـ من الجنـ أمـ من الملائـكةـ ؟ لكنـ الذي يقتضـيه التـدبـيرـ في كـلامـه تعالىـ أنـ يكونـ هذاـ المؤـذـنـ منـ البـشـرـ لاـ منـ الجنـ ولاـ منـ الملـائـكةـ : أـمـاـ الجنـ فـلمـ يـذـكرـ فيـ شيءـ منـ تـضـاعـيفـ كـلامـهـ تـعالـىـ أـنـ يـتصـدـىـ الجنـ شـيـئـاـ منـ التـوـسـطـ فيـ أـمرـ الإنسـانـ منـ لـدـنـ وـرـوـدـهـ فيـ عـالـمـ الآـخـرـةـ وـهـوـ حـينـ نـزـولـ المـوـتـ إـلـىـ أـنـ يـسـتـقـرـ فيـ جـنـةـ أـوـ نـارـ فـيـخـتـمـ أـمـرـهـ فـلاـ مـوـجـبـ لـاحـتمـالـ كـوـنـهـ مـنـ الجنـ .

وَمَا الْمَلَائِكَةُ فَإِنَّهُمْ وَسَائِطٌ لِأَمْرِ اللَّهِ وَحْمَلَةٌ لِأَرْدَتِهِ بِأَيْدِيهِمْ إِنْفَازٌ الْأُوْمَرِ الْإِلهِيَّةِ ،
وَبِوَسَاطَتِهِمْ يَجْرِي مَا قُضِيَ بِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَقَدْ كَرَّ اللَّهُ سِبْحَانَهُ أَشْيَاءً مِنْ أَمْرِهِمْ وَحُكْمِهِمْ
فِي عَالَمِ الْمَوْتِ وَفِي جَنَّةِ الْآخِرَةِ وَنَارَهَا كَفَولُهُمُ الْمَظَالِمِينَ حِينَ القِبْضِ: «أَخْرُجُوا أَنْفُسَكُمْ»
الْجَنْعُ الْأَنْعَامُ : ٩٣ وَقَوْلُهُمْ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» الْجَنْلُ : ٣٢
وَقَوْلُ مَالِكٍ لِأَهْلِ النَّارِ: «إِنْكُمْ مَا كَثُرْتُونَ» الْجَزْءُ الْزَّخْرُفُ : ٧٧ وَنَظَائِرُ ذَلِكَ .

وَمَا الْمَحْشَرُ وَهُوَ حَظِيرَةُ الْبَعْثِ وَالسُّؤَالِ وَالشَّهَادَةِ وَتَطَابِيرُ الْكِتَبِ وَالْوَزْنِ وَالْحَسَابِ
وَالظَّرْفُ الَّذِي فِيهِ الْحُكْمُ الْفَصْلُ فَلَمْ يَذْكُرْ لِلْمَلَائِكَةِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ الْحُكْمِ أَوِ الْأُمْرِ وَالنَّهِيِّ
وَلَا لِغَيْرِهِمْ صَرِيحًا إِلَّا مَا صَرَّحَ تَعَالَى بِهِ فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ :
كَقُولَهُ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ فِي ذِيلِ هَذِهِ الْآيَاتِ حَكَايَةُ عَنْهُمْ: «وَنَادَوْا
أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» وَقَوْلُهُمْ لِجَمِيعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هُنَاكَ: «اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا
خُوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» وَهَذَا حُكْمٌ وَأُمْرٌ وَتَأْمِينٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَقُولَهُ تَعَالَى فِيمَا يَصِفُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «قَالَ الَّذِينَ أَتَوْا الْعِلْمَ إِنَّ الْخَزْرِيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءُ عَلَى الْكَافِرِينَ» الْجَنْلُ ٢٧
وَقُولَهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَكْرِ سُؤَالِهِ أَهْلِ الْجَمْعِ عَنْ مَدَّةِ لِبَثْمِهِ فِي الْأَرْضِ: «وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا
الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبَثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُنْكُمْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ» الرُّومُ : ٥٦ .

فَهَذِهِ جَهَاتٌ مِنْ تَصْدِيِّ الشَّوْعُونَ ، وَالْقِيَامُ بِالْأُمْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَبَّا اللَّهَ الْإِنْسَانَ بِهِ
دُونَ الْمَلَائِكَةِ مُضَافًا إِلَى أَمْتَالِ الشَّهَادَةِ وَالشَّفَاعَةِ الَّتِيْنِ لَهُ .
فَهَذَا كُلُّهُ يَقْرَبُ إِلَى الْذَّهَنِ أَنْ يَكُونُ هَذَا الْمَؤْذَنُ مِنَ الْإِنْسَانِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ ،
وَيُأْتِي فِي الْبَحْثِ الرَّوَائِيِّ مَا لَهُ تَعْلِقٌ بِالْمَقْامِ .

قُولَهُ تَعَالَى: «وَبَيْنَهُمْ حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرَفُونَ كُلُّاً بِسِيمَاهِمْ»
الْحِجَابُ مَعْرُوفٌ وَهُوَ السِّتَّرُ الْمُقْتَلُّ بَيْنَ شَيْئَيْنِ يَسْتَرُ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخِرِ . وَالْأَعْرَافُ أَعْلَى
الْحِجَابِ ، وَالْتَّلَالُ مِنَ الرَّمْلِ وَالْعَرْفِ لِلْمَدِيْكِ وَلِلْفَرْسِ وَهُوَ الشَّعْرُ فَوْقَ رَقْبَتِهِ وَأَعْلَاهُ كُلُّ
شَيْءٍ فَفِيهِ مَعْنَى الْعَلُوِّ عَلَى أَيِّ حَالٍ ، وَذَكْرُ الْحِجَابِ قَبْلَ الْأَعْرَافِ ، وَمَا ذَكَرَ بَعْدَهُ مِنْ
إِشْرَافِهِمْ عَلَى الْجَمِيعِ وَنَدَائِهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ جَمِيعًا كُلُّ ذَلِكَ يَؤْيِدُ أَنْ يَكُونُ الْمَرَادُ

بالأعراف أعلى الحجاب الذي بين الجنة والنار وهو المحل اشرف على الفريقين أهل الجنة وأهل النار جميعاً.

والسيماء العلامة قال الراغب : السيماء والسيمياء العلامة قال الشاعر :

له «سيمياء لا تشقّ» على البصر

وقال تعالى : «سيماهم في وجوههم» وقد سوّمته أى أعلمته ، وسموّ مين أى معلّمين (انتهى) .

والذى يعطيه التدبر في معنى هذه الآية وما يتحقق بها من الآيات أن هذا الحجاب الذى ذكره الله تعالى إنّما هو بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فهما مرجع الضمير في قوله : «وبينهما» وقد أثبنا الله سبحانه به مثل هذا المعنى عند ذكر حماوة بين المناقفين والمؤمنين يوم القيمة بقوله : «يوم يقول المناقرون والمناقفات للذين آمنوا انظروا نقويس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرجمة وظاهره من قبله العذاب» الحديد . ١٣ وإنّما هو حجاب لكونه يفرق بين الطائفتين ويحجب إحداهما عن الأخرى لأنّه ثوب منسوج مخيط على هيئة خاصة معلق بين الجنة والنار .

ثم أخبر الله سبحانه أنّ على أعراف الحجاب وأعاليه رجالاً مشرفين على الجانبين لارتفاع موضعهم يعرفون كلاً من الطائفتين أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلامتهم التي تختص بهم .

ولاريب في أنّ السياق يفيد أنّ هؤلاء الرجال منحاوزون عن الطائفتين تماماً يزون عن جماعتهم فهل ذلك لكونهم خارجين عن نوع الإنسان كالملائكة أو الجنّة مثلاً ، أو لكونهم خارجين عن أهل الجمع من حيث ما يتعلق بهم من السؤال والحساب وسائر الشؤون الشبيهة بهما فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين إلى طوائف ثلاث : أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الأعراف كما قسمهم الله في الدنيا إلى طوائف ثلاث : المؤمنين والكافر والمستضعفين الذين لم تتم عليهم الحجّة وقصروا عن بلوغ التكليف كضيفاء العقول من النساء والأطفال غير البالغين والشيخ الهرم الخرف والمجنون والسفهاء وأضرابهم ، أو لكونهم مرتفعين عن

موقف أهل الجمع بعما نفهم ؟

لا ريب أنّ إطلاق لفظ « رجال » لا يشمل الملائكة فـإِنَّهُمْ لَا يَتَصَفَّونَ بالرجلية
والأنوثية كما يتتصف به جنس الحيوان وإن قيل : إنّهُم ربما يظهرون في شكل الرجال
فـإِنَّ ذَلِكَ لَا يَصْحِحُ الاتِّصافَ وَ التَّسْمِيَةَ عَلَى أُنَّهُ لَا دَلِيلَ يَدْلِيُ عَلَيْهِ .
ثمّ إنّ التعبير بمثل قوله : « رجال يعرفون » إِنَّهُ خاصّةً بالتنكير يدلّ بحسب
عرف اللّغة على اعتناء تامّ بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظراً إلى دلالة الرجل بحسب
العادة على إِنسان القويّ في تعقله وإرادته الشديد في قوامه .

وعلى ذلك يجري ما يوجد في كلامه تعالى من مثل هذا التعبير كقوله تعالى :
« رجال لا تلهيهم تجارة ولا يبع عن ذكر الله » النور : ٣٧ ، وقوله : « فِيهِ رَجُالٌ يَحْبَّونَ
أَنْ يَتَطَهَّرُوا » التوبه : ١٠٨ ، وقوله « رَجُالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ » الأحزاب : ٢٣
وقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيُّ إِلَيْهِمْ » يوسف : ١٠٩ حتى في مثل قوله :
« مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَنَّا نَعْدُهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ » ص : ٦٢ ، وقوله : « وَأُنَّهُ كَانَ رَجُالٌ
مِنَ الْإِنْسَنِ يَعْوِذُنَّ بِرَجُالٍ مِنَ الْجِنِّ » الجن : ٦ .

فالمراد بـرجال في الآية أفراد تامّون في إنسانيتهم لا محالة ، وإن فرض أنّ فيهم
أفراداً من النساء كان من التغليب .

وأمّا المستضعفون فـإِنَّهُمْ ضعفاء أفراد إِنسان لا مزية في أمرهم توجب الاعتناء
بـشأنهم ، وفيهم النساء والأطفال حتى الأجنحة ، ولا فضل لبعضهم على بعض ، ولـرجالهم
على غيرهم حتى يعبر به عنهم بالـرجال تغليباً فـلوكـانـوا هـمـ الـمـرـادـينـ بـقـوـلـهـ « رـجـالـ يـعـرـفـونـ »
الـخـ لـكـانـ حـقـ التـعـبـيرـ أـنـ يـقـالـ : قـوـمـ يـعـرـفـونـ الـخـ أـوـ أـنـاسـ أـوـ طـائـفةـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ كـمـاـ هوـ
الـمـعـهـودـ مـنـ تـعـبـيرـاتـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ فـيـ أـمـثـالـ هـذـهـ اـمـوـارـ دـكـوـلـهـ تـعـالـىـ : « لـمـ تـعـظـعـونـ قـوـمـاـ
الـهـ مـهـلـكـهـمـ أـوـ مـعـذـبـهـمـ » الأـعـرـافـ : ١٦٤ ، وقوله : « إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » الأـعـرـافـ : ٨٢
وقوله : « فـآمـنـتـ طـائـفةـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ وـكـفـرـتـ طـائـفةـ » الصـفـ : ١٤ .

على أنّ ما يصفهم الله تعالى في الآيات التالية من الأوصاف ويدركهم به من الشؤون
أمور تأبى إِلَّا أن يكون القائمون به من أهل المنزلة والمكانة ، وأصحاب القرب والزلفي

فضلاً أن يكونوا من الناس المتوسطين فضلاً أن يكونوا من المستضعفين :
فأول ذلك أنهم جعلوا على الأعراف ووصفو بأنهم مشرفون على أهل الجمع
عامة ، ومطلون على أصحاب الجنة وأصحاب النار يعرفون كل إنسان منهم بسيمه الخاص
به ، ويحيطون بخصوصيات نفوسهم وتفاصيل أعمالهم ، ولا ريب أن ذلك منزلة رفيعة
يختصون بها من بين الناس ، وليس مشاهدة جميع الناس يوم القيمة وخاصة بعد دخول
الجنة والنار أمراً عاماً موجوداً عند الجميع فإن الله يقول حكاية عن قول أهل النار :
« ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار » ص : ٦٢ ، وقولهم : « ربنا أرنا الذين
أضلّنا من الجن » والإنس يجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسلفين » حم السجدة : ٢٩ .
وقال : « لكل امرء منهم يومئذ شأن يغتنيه » عبس : ٣٧ .

وليس معنى السيماء أن يعلم المؤمنون والكافر بعلامة عامة يعرف صنفهم بها كل
من شاهدهم كبياض الوجه وسوداده مثلاً فإن قوله تعالى في الآية التالية : « ونادي أصحاب
الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء
الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » يفيد أنهم هم يزروا خصوصيات من أحوالهم وأعمالهم من
سيماهم ككونهم مستكبرين أولى بجمع وقد أقسموا كذا وكذا ، وهذه أمور وراء الكفر
وإيمان في الجملة :

وثانياً أنهم يحاورون الفريقين فيكلّمون أصحاب الجنة ويحيّونهم بتحية الجنة ،
ويكلّمون أئمّة الكفر والضلال والطغاة من أهل النار فيقرّون عليهم بأحوالهم وأقوالهم
مسترسلين في ذلك من غير أن يعجزهم حاجز ، وليس التكلّم بمجاز يومئذ إلا للأوحدي
من عباد الله الذين لا ينطقون إلا بحق » قال تعالى : « لا يتتكلّمون إلا من أذن له الرحمن
وقال صواباً النبأ : ٣٨ ، وهذا وراء ما يناله المستضعفون .

وثالثاً : أنهم يؤمّنون أهل الجنة بالتسليم عليهم ثم يأمرنهم بدخول الجنة
في أمن مطلق على ما هو ظاهر السياق في الآيات التالية .

ورابعاً : أنه لا يشاهد فيما يذكره الله من مكانتهم وما يحاورون به أصحاب الجنة
والجبارية المستكبرين من أصحاب النار شيء من آثار الفزع والقلق عليهم ولا اضطراب في

أَقُولَهُمْ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُمْ حُضُورُونَ فِيهِ مُخْتَلِطُونَ بِالْجَمَاعَةِ دَخْلُونَ فِيمَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ
الْأَهْوَالِ الَّتِي تَجْعَلُ الْأَفْنَدَهُ هَوَاءً وَالْجَبَالَ سَرَابًا وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْضُرُونَ إِلَّا
عِبَادَةَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» الصَّافَّاتُ : ١٢٨ فَيُجْعَلُ ذَلِكَ مِنْ خَاصَّةِ مُخْلَصِي عِبَادَهُ ، ثُمَّ أَسْتَنْتَاهُمْ مِنْ كُلِّ
هُولٍ أُعْدَّ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ دُعَاءَهُمْ فِي قَوْلِهِ: «وَإِذَا صَرَفْتَ أَبْصَارَهُمْ تَلَقَّأَ أَصْحَابُ النَّارِ
قَالُوا رَبُّنَا لَا تَجْعَلُنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» وَلَمْ يَعْقِبْهُ بِالرَّدِّ فَدِلْلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ مُجَازَوْنَ
فِيمَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ مُسْتَجَابٌ لِدُعَاؤِهِمْ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَقِبَهُ بِالرَّدِّ كَمَا فِي مَوَارِدِ ذَكْرِهِ
أُدْعِيَةِ أَهْلِ الْجَمْعِ وَمَسَائِلِ أَصْحَابِ النَّارِ وَأُدْعِيَةِ أُخْرَى مِنْ غَيْرِهِمْ .

فِيهِنَّا الْخُصُوصِيَّاتُ الَّتِي تُنَكَّشَفُ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ بِالْتَّدْبِيرِ فِيهَا ،
وَأُخْرَى تَتَبَعُهَا لَا تَبْقِي رِبِّاً لِلْمُتَدْبِرِ فِي أَنَّ هُوَلَاءِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ:
«وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ» جَمْعُ مِنْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ مِنْ غَيْرِ امْلَائَكَةٍ هُمْ أَرْفَعُ مَقَاماً وَأَعْلَى
مَنْزِلَةً مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْجَمْعِ يَعْرُفُونَ عَامَّةَ الْفَرِيقَيْنِ ، لَهُمْ أُنْ يَتَكَلَّمُوا بِالْحَقِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَهُمْ أُنْ يَشْهَدُوا ، وَلَهُمْ أُنْ يَشْفَعُوا ، وَلَهُمْ أُنْ يَأْمُرُوا وَيُقْضَوْا .

وَأَمَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْإِنْسَنِ أَوْ مِنَ الْجَنِّ أَوْ مِنَ الْقَبِيلَيْنِ مُخْتَلِطَيْنِ ؛ فَلَا طَرِيقٌ مِنَ الْلَّفْظِ
يَوْصَلُنَا إِلَى الْعِلْمِ بِهِ غَيْرُ أَنْ شَيْئاً مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى لَا يَدِلُّ عَلَى تَصْدِيِّ الْجَنِّ شَيْئاً مِنْ
شَوْؤُنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا تَوْسِطًا فِي أَمْرٍ يَعُودُ إِلَى الْحُكْمِ الْفَصْلِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْإِنْسَانِ
يَوْمَئِذٍ كَالْشَّهَادَةِ وَالشَّفَاعَةِ وَنَحْوِهِمَا .

وَلَا يَنْافِي مَا قَدْ مَنَاهُ مِنْ أَوْصَافِهِمْ وَنَعْوَتِهِمْ أَمْثَالُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسَ
لَنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأُمُرُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ الْأَنْفَطَارُ : ١٩ . فَإِنَّ آيَةَ مُفْسَرَةَ بِآيَاتِ أُخْرَى تَدْلِلُ عَلَى أَنَّ
الْمَرْادُ بِهَا إِنَّمَا هُوَ ظَهُورُ مَلَكَةِ تَعَالَى لِكُلِّ شَيْءٍ وَإِحْاطَتِهِ بِكُلِّ أَمْرٍ لَا حَدُوثٌ مِنْكُهُ يَوْمَئِذٍ فَإِنَّهُ
مَالِكٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ دَائِمًا لَا وَقْتًا دُونَ وَقْتٍ ، وَلَا يَمْلِكُ نَفْسَ لَنَفْسٍ شَيْئاً دَائِمًا ، لَا فِي الْآخِرَةِ
فَحَسْبُ لَنَفْسِهِ ؛ وَالْمَلَائِكَةُ عَلَى وَسَاطَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ ، وَالشَّهَادَاءُ يَمْلِكُونَ شَهَادَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ ، وَالشَّفَاعَاءُ
يَمْلِكُونَ شَفَاعَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ كَلَامُهُ تَعَالَى قَالَ: «وَتَتَلَاقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا
يَوْمَكُمُ الَّذِي كَنْتُمْ تَوعَدُونَ ، الْأَنْبِيَاءُ : ١٠٣ وَقَالَ: «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» الْمُؤْمِنُ : ٥١ ،

وقال : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إِلَّا من شهد بالحق » وهم يعلمون « . الزخرف : ٨٦ .

فَلَمَّا سُبِّحَانَهُ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ وَلِهِ الْحُكْمُ يَوْمَئِذٍ ، وَلِغَيْرِهِ مَا أَذْنَ لَهُ فِيهِ كَالدُّنْيَا غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ظَهُورُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ظَهُورُ عِيَانٍ لَا يَقْبِلُ الْخَفَاءُ ، وَ حُضُورُهَا بِحِسْبٍ لَا يَغْيِبُ بِغَفْلَةٍ أَوْ جَهْلٍ أَوْ خَطَاً أَوْ بَطْلَانٍ .

وَقَدْ اشْتَدَّ الْخَلَافُ بَيْنَهُمْ فِي مَعْنَى الْآيَةِ حَتَّىٰ سَاقَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَقْوَالٍ لَا تَخْلُوُ عَنِ الْمَجَازِفَةِ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْأَعْرَافِ .

١ - فَمَنْ قَائلٌ : إِنَّهُ شَيْءٌ مَشْرُفٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ .

٢ - وَقَيلٌ : سُورٌ لِهِ عَرْفٌ كَعْرُوفٌ الدِّيْكُ .

٣ - وَقَيلٌ : تَلٌّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ جَلَسَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الذَّنْبِ .

٤ - وَقَيلٌ : السُّورَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِذْ قَالَ : « فَضَرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لِهِ بَابٌ » .

٥ - وَقَيلٌ : مَعْنَى الْأَعْرَافِ التَّعْرِفُ أَيْ عَلَى تَعْرِفٍ حَالُ النَّاسِ رِجَالٌ .

٦ - وَقَيلٌ : هُوَ الصِّرَاطُ .

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الرِّجَالِ الَّذِينَ عَلَى الْأَعْرَافِ عَلَى أَقْوَالٍ أُنْهَيْتُ إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ

قُولًا :

١ - أَنَّهُمْ أُشْرَافُ الْخَلْقِ الْمُمْتَازُونَ بِكَرَامَةِ اللَّهِ .

٢ - أَنَّهُمْ قَوْمٌ أَسْتَوْتُ حَسَنَاتِهِمْ وَسَيَّءَاتِهِمْ فَلَمْ يَتَرَجَّحْ حَسَنَاتِهِمْ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ،
وَلَا غَلَبَتْ سَيَّءَاتِهِمْ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِدُخُولِ النَّارِ فَأَوْقَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأَعْرَافِ لِكُونِهَا
دَرْجَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ .

٣ - أَنَّهُمْ أَهْلُ الْفَقْرَةِ .

٤ - أَنَّهُمْ مُؤْمِنُوا بِالْجَنِّ .

٥ - أَنَّهُمْ أُولَادُ الْكَفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يَلْغُوا فِي الدُّنْيَا أَوْ أَنَّ الْبُلوْغَ .

٦ - أَنَّهُمْ أُولَادُ الزَّنَا .

- ٧ - أَنْهُمْ أَهْلُ الْعِجْبِ بِأَنفُسِهِمْ .
- ٨ - أَنْهُمْ مَلَائِكَةٌ وَاقْفُونَ عَلَيْهَا يَعْرُفُونَ كَلَّا بِسِيمَاهِمْ ، وَإِذَا أُوْرَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَتَّصَفُ بِالْجُولِيَّةِ وَالْأُنُوثِيَّةِ قَالُوا : إِنَّهُمْ يَتَشَكَّلُونَ بِأَشْكَالِ الرِّجَالِ .
- ٩ - أَنْهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كَلَّا يَقْاتِلُونَ عَلَيْهَا تَمْيِيزًا لَهُمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ وَلَا نَهُمْ شَهِداءٌ عَلَيْهِمْ .
- ١٠ - أَنْهُمْ عَدُولُ الْأَمْمِ الشَّهِداءُ عَلَى النَّاسِ يَقْوِمُونَ عَلَيْهَا لِلشَّهَادَةِ عَلَى أُمُّهُمْ .
- ١١ - أَنْهُمْ قَوْمٌ صَالِحُونَ فَقِهَاءُ عُلَمَاءٍ .
- ١٢ - أَنْهُمُ الْعَبَّاسُ وَمَهْزَةٌ وَعَلِيٌّ وَجَعْفُرٌ يَجْلِسُونَ عَلَى مَوْضِعٍ مِنَ الصَّرَاطِ يَعْرُفُونَ مُحَبِّبِيهِمْ بِبِياضِ الْوِجْهِ ، وَمِبِغْضِيهِمْ بِسُوادِهَا ذَكْرُ الْأَلْوَسِيِّ فِي رُوحِ الْمَعْانِي أَنَّ هَذَا القُولُ رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

قال في المنار : ولم نر في شيءٍ من كتب التفسير المأثور ، والظاهر أنَّه نقله عن تفاسير الشيعة ، وفيه أنَّ أصحابَ الْأَعْرَافَ يَعْرُفُونَ كُلَّاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِسِيمَاهِمْ فَيَمْيِيزُونَ بَيْنَهُمْ أَوْ يَشْهُدُونَ عَلَيْهِمْ فَأَيِّ فَائِدَةٍ فِي تَمْيِيزِ هُؤُلَاءِ السَّادَةِ عَلَى الصَّرَاطِ مِنْ كَانَ يَبغِضُهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِينَ وَمِنْ يَبغِضُونَ عَلَيْهَا خَاصَّةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالنَّوَاصِبِ ؟ وَأَيْنَ الْأَعْرَافُ مِنَ الصَّرَاطِ ؟ هَذَا بَعِيدٌ عَنْ نَظَمِ الْكَلَامِ وَسِيقَاهَهُ جَدًّا (انتهى) .

أَقُولُ : أَمَّا الرِّوَايَةُ فَلَا تُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ تفاسير الشيعة بِطْرَقِهِمْ إِلَى الضَّحَّاكِ ، وقد نقله في مجمع البيان عن الشعابيِّ في تفسيره بإسناده عن الضَّحَّاكِ عن ابن عَبَّاسٍ ، وسيأتي ما في روايات الشيعة في رجال الْأَعْرَافَ فِي الْبَحْثِ الرَّوَائِيِّ الَّتِي إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَمَّا طَرْحُهُ الرِّوَايَةُ فَهُوَ فِي مُحَلِّهِ غَيْرُ أَنَّ الَّذِي اسْتَنَدَ إِلَيْهِ فِي طَرْحِهِ لَيْسَ فِي مُحَلِّهِ فَإِنَّهُ يَكْشِفُ عَنْ نَحْوِ السُّلُوكِ الَّذِي يَسْلُكُهُ فِي الْأَبْحَاثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَعَادِ فَإِنَّهُ يَقِيسُ نَظَامَ الْوَقَائِعِ الَّتِي يَقْصِهَا الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّظَامِ الْجَارِيِّ فِي النَّشَأَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَيَعْدُهُ مِنْ نَوْعِهِ فَيَوْجَهُهُ مِنْهَا مَا لَاحَ سَبْبٌ وَقَوْعَهُ ، وَيَبْقَى مَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى النَّظَامِ الدِّينِيِّ عَلَى الْجَمْودِ وَهُوَ الْجَزَافُ فِي الْإِرَادَةِ فَافْهَمْ ذَلِكَ .

وَلَوْ جَازَ أَنْ يَعْنِي تَمْيِيزُ أَهْلِ الْأَعْرَافِ عَنْ تَمْيِيزِ أَهْلِ الصَّرَاطِ فَتَبْطَلُ فَائِدَتُهُ

فيبطل بذلك أصله - كما ذكره - لأنّي الصراط نفسه عن تمييز أهل الأعراف ، وأغني عن المسألة والحساب ، ونشر الدواوين ، ونصب الموازين ، وحضور الأعمال ، وإقامة الشهود وإنطلاق الأعضاء ، ولأنّي بعض هذه عن بعض ، ووراء ذلك كله إحاطة رب العالمين فعلمه يعني عن الجميع ، وهو لا يسأل عمّا يفعل .

وكانهفرض أنّ نسبة الأعراف وهي أعلى الحجاب من الصراط الممدوّن هناك كنسبة السور والجاءط الذي عندنا إلى الصراط الممدوّن الذي يسلكه الطرّاق السالكون لا يجتمع هنا الصراط والسور ولا يتّحدان فلا يسع لأحد أن يكون سالك صراط أو وافقاً عليه ووافقاً على السور معاً في زمان واحد ، ولذلك قال : وأين الصراط من الأعراف ؟ ففاس ما هناك إلى ما هبنا ، وقد عرفت فساده .

ثم الوارد في ظواهر الحديث أنّ الصراط جسر ممدوّن على النار يعبر منه أهل المحشر من موقفهم إلى الجنة فينجي الله الذين آمنوا ويسقط الظالمون من النار فما المانع من أن يكون الحجاب الموعود مضروباً عليه والأعراف في الحجاب ؟

على أنه فات منه أنّ أحد الأقوال في معنى الأعراف أنه الصراط كما رواه الطبرى في تفسيره عن ابن مسعود ورواه في الدر المنشور عن ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : زعموا أنه الصراط .

وأما قوله : « هذا بعيد عن نظم الكلام وسياقه جدّاً » فأوضح فساداً فسياق هذه الأنباء الغيبة والنظم المأخوذ فيها يذكّر لنا أموراً بنعوت عامّة وبيانات مطلقة معانيها معلومة ، وحقائقها مبهمة مجھولة إلا المقدار الذي تهدي إليه بياناته تعالى ، ويوضح بعض أجزاءه بعضاً ، ولا يأبى ذلك أن يقصد ببعض النعوت المذكورة فيها رجال معينون بأشخاصهم إذا اطبقت عليهم الأوصاف المذكورة فيها ، ولا أن ينطبق بعض البيانات على بعض في موارد مع تعدد البيان لفظاً كالعدل والميزان مثلاً .

فهذه اثنتا عشر قولًا ويمكن أن يضاف إلى عدّتها قولان آخران :

أحددهما : أنّهم المستضعفون ممّن لم تتم عليهم الحجّة ولم يتعلّق بهم التكليف كالضعفاء من الرجال والنساء والأطفال غير البالغين ، ويمكن أن يدرج في القول الثاني

العتقد م بـأـن يـقـال : إـنـهـمـ الـذـينـ لـاـ تـرـجـحـ أـعـمـالـهـمـ مـنـ الـحـسـنـاتـ أـوـ السـيـّـاتـ عـلـىـ خـلـافـهـاـ سـوـاءـ كـانـ ذـلـكـ لـعـدـمـ تـمـامـ الـحـجـةـ فـيـهـمـ وـتـعـلـقـ التـكـلـيفـ بـهـمـ حـتـىـ يـحـاسـبـواـ عـلـيـهـ كـاـلـأـطـفـالـ وـالـطـجـانـيـنـ وـأـهـلـ الـفـقـرـةـ وـنـحـوـهـمـ أـوـ لـأـجـلـ اـسـتـوـاءـ حـسـنـاتـهـمـ وـسـيـّـاتـهـمـ فـيـ الـقـدـرـ وـالـوزـنـ فـيـ حـكـمـ الـقـسـمـيـنـ وـاحـدـ .

الثاني : إـنـهـمـ الـذـينـ خـرـجـواـ إـلـىـ الـجـهـادـ مـنـ غـيرـ إـذـنـ آـبـائـهـمـ فـاسـتـشـهـدـواـ فـيـهـاـ فـهـمـ مـنـ أـهـلـ النـارـ مـعـصـيـتـهـمـ وـمـنـ أـهـلـ الـجـنـةـ لـشـهـادـتـهـمـ ! وـعـلـيـهـ رـوـاـيـةـ ، وـيمـكـنـ إـدـرـاجـهـ فـيـ القـوـلـ الثـانـيـ .

وـالـأـقـوـالـ المـذـكـورـةـ غـيرـ مـتـقـابـلـةـ جـمـيعـاـ فـيـ الـحـقـيقـةـ فـإـنـ "الـقـوـلـ بـكـوـنـهـمـ أـهـلـ الـفـقـرـةـ وـالـتـوـلـ بـكـوـنـهـمـ أـلـاـدـ الـكـفـارـ إـنـمـاـ مـلـاـكـهـمـ عـدـمـ تـرـجـحـ شـيـءـ مـنـ الـحـسـنـاتـ وـالـسـيـّـاتـ عـلـىـ الـآـخـرـ فـيـرـجـعـانـ بـوـجـهـ إـلـىـ الـقـوـلـ الثـانـيـ ، وـكـذـاـ الـقـوـلـ بـكـوـنـهـمـ أـلـاـدـ الـزـنـاـ نـظـرـاـ إـلـىـ إـنـهـمـ لـاـ مـؤـمـنـونـ وـلـاـ كـفـارـ ، وـكـذـاـ رـجـوعـ الـقـوـلـ التـاسـعـ وـالـعـاـشـرـ وـالـحادـيـ عـشـ وـالـثـانـيـ عـشـ إـلـىـ الـقـوـلـ الـأـوـلـ بـوـجـهـ .

فـأـصـولـ الـأـقـوـالـ فـيـ رـجـالـ الـأـعـرـافـ ثـلـاثـةـ :

أـحـدـهـاـ : إـنـهـمـ رـجـالـ مـنـ أـهـلـ الـمـنـزـلـةـ وـالـكـرـامـةـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ بـيـنـهـمـ فـيـ إـنـهـمـ مـنـ هـمـ ؟ فـقـيلـ : هـمـ الـأـنـبـيـاءـ ، وـقـيلـ : الشـهـادـةـ عـلـىـ الـأـعـمـالـ ، وـقـيلـ : الـعـلـمـاءـ الـفـقـيـهـاءـ ، وـقـيلـ : غـيرـ ذـلـكـ كـمـاـ مـرـ .

وـالـثـانـيـ : إـنـهـمـ الـذـينـ لـاـ رـجـحانـ فـيـ أـعـمـالـهـمـ لـلـحـسـنـةـ عـلـىـ السـيـّـةـ وـبـالـعـكـسـ عـلـىـ اـخـتـلـافـهـمـ فـيـ تـشـخـصـ الـمـصـدـاقـ .

وـالـثـالـثـ : إـنـهـمـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ ، وـقـدـ مـالـ الـجـمـهـورـ إـلـىـ الـثـانـيـ مـنـ الـأـقـوـالـ ، وـعـدـةـ ماـ اـسـتـنـدـواـ إـلـيـهـ فـيـ ذـلـكـ أـخـبـارـ مـأـثـورـةـ سـنـوـرـدـهـاـ فـيـ الـبـحـثـ الرـوـاـيـيـ الـآـتـيـ إـنـ شـاءـ اللهـ . وـقـدـ عـرـفـتـ إـنـ "الـذـيـ يـعـطـيـهـ سـيـاقـ الـآـيـاتـ هـوـ الـأـوـلـ مـنـ الـأـقـوـالـ حـتـىـ إـنـ بـعـضـهـمـ مـعـ تـمـايـلـهـ إـلـىـ الـقـوـلـ الـثـانـيـ لـمـ يـجـدـ بـدـأـ مـنـ بـعـضـ الـاعـتـرـافـ بـعـدـ مـلـاءـمـةـ سـيـاقـ الـآـيـاتـ ذـلـكـ كـاـلـأـلوـسـيـ" فـيـ رـوـحـ الـمعـانـيـ .

قـوـلـهـ تـعـالـيـ : «ـ وـنـادـواـ أـصـحـابـ الـجـنـةـ أـنـ سـلاـمـ عـلـيـكـمـ لـمـ يـدـخـلـوـهـاـ وـهـمـ يـطـمـعـونـ »

المنادون هم الرجال الذين على الأعراف - على ما يعطيه السياق - و قوله : «أن سلام عليكم» يفسّر ما نادوا به ، و قوله : «لم يدخلوها وهم يطمعون» بجملتان حاليتان فجملة «لم يدخلوها» من أصحاب الجنة ، وجملة «وهم يطمعون» حال آخر من أصحاب الجنة ، و المعنى : أن أصحاب الجنة نودوا وهم في حال لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في أن يدخلوها ، أو حال من ضمير الجمع في «لم يدخلوها» وهو العامل فيه ، و المعنى ، أن أصحاب الجنة نودوا بذلك وهم في الجنة لكنهم لم يدخلوا الجنة على طمع في دخولها لأن ما شاهدوه من أحوال الموقف ودقة الحساب كان أيّاً لهم من أن يفزوا بدخول الجنة لكن قوله بعد : «أهؤلاء الذين» إلى آخر الآية يؤيد أول الاحتمالين وأنهم إنما سلّموا عليهم قبل دخولهم الجنة .

وأما احتمال أن تكون الجملتان حالين من ضمير الجمع في «نادوا» فيوجب سقوط الجملة عن الإفادة كما هو ظاهر، وذلك لرجوع المعنى إلى أن هؤلاء الرجال الذين هم على أعراف الحجاب بين الجنة والنار نادوا وهم لم يدخلوا .

وعلى من يميل إلى أن يجعل قوله : «لم يدخلوها وهم يطمعون» بياناً لحال أصحاب الأعراف أن يجعل قوله : «لم يدخلوها» استئنافاً يخبر عن حال أصحاب الأعراف أو صفة لرجال والتقدير : وعلى الأعراف رجال لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا انح كما نقل عن الزمخشري في الكشاف .

لكن يبعد الاستئناف أن اللازم حينئذ إظهار الفاعل في قوله : «لم يدخلوها» دون إضماره ملakan المبّس كما فعل ذلك في قوله : «ونادى أصحاب الأعراف رجالاً» انح، ويبعّد الوصفية الفصل بين الموصوف والصفة بقوله : «و نادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم» من غير ضرورة هوجبة .

وهذا التقدير الذي تقدّم أعني رجوع معنى قوله : «لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم» إلى آخر الآية إلى قوله : وعلى الأعراف رجال يطمعون في دخول الجنة ويتعوّذون من دخول النار - على ما زعموا - هو الذي مهد لهم الطريق وسواء للقول بأن أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيّأتهم فلم يتراجّح لهم أن يدخلوا الجنة أو

النار فاً وقفوا على الأعراف !

لَكُنْكَ عرَفْتَ أَنْ قَوْلَهُ « لَمْ يَدْخُلُوهَا » الْخَ حَالُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ لَا وَصَفُّ أَصْحَابِ
الْأَعْرَافِ ، وَأَمَّا قَوْلَهُ : « وَإِذَا صَرَفْتَ أَبْصَارَهُمْ » الْخَ فَسِيَّاتِي مَا فِي كُونِهِ بِيَانًا لِحَالِ أَصْحَابِ
الْأَعْرَافِ مِنَ الْكَلَامِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِذَا صَرَفْتَ أَبْصَارَهُمْ تَلَقَّأَ أَصْحَابُ النَّارِ قَالُوا رَبِّنَا لَا تَجْعَلُنَا مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » التَّلَقَّاءُ كَالتَّبِيَانِ مَصْدَرُ لَقِيٍّ يَلْقَى ثُمَّ اسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى جَهَةِ الْلَّقَاءِ ، وَضَمِيرُ الْجَمْعِ
فِي قَوْلِهِ : « أَبْصَارَهُمْ » وَقَوْلُهُ : « قَالُوا » عَائِدٌ إِلَى « رَجَالٍ » وَالتَّعْبِيرُ عَنِ النَّظرِ إِلَى أَصْحَابِ
النَّارِ بِصَرْفِ أَبْصَارِهِمْ إِلَيْهِ كَأَنَّ الْوَجْهِ فِيهِ أَنَّ إِنْسَانًا لَا يَحْبُّ إِلَقاءَ النَّظرِ إِلَى مَا يُؤْمِلُهُ
النَّظرُ إِلَيْهِ وَخَاصَّةً فِي مَثَلِ الْمُورِدِ الَّذِي يَشَاهِدُ النَّاظِرَ فِيهِ أَفْطَعُ الْحَالِ وَأَمْرُ
الْعَذَابِ وَأَشْقَهُ الَّذِي لَا يَطْاقُ النَّظرُ إِلَيْهِ غَيْرُ أَنَّ أَضْطَرَابَ النَّفْسِ وَقُلُقَ الْقَلْبِ بِمَا يَفْتَحُ الْعَيْنَ نِحْوَهُ
لِلنَّظرِ إِلَيْهِ كَأَنَّ غَيْرَهُ هُوَ الَّذِي صَرَفَ نَظَرَهُ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ إِنْسَانًا لَوْ خَلَّيَ وَطَبَعَهُ لَمْ يَرْغَبْ
فِي النَّظرِ وَلَوْ بِوْجَهِ نِحْوَهُ ، وَلَذَا قِيلَ : « وَإِذَا صَرَفْتَ أَبْصَارَهُمْ » الْخَ وَلَمْ يَقُلْ : « وَإِذَا نَظَرُوا
إِلَيْهِ أَوْ مَا يَفِيدُ مَفَادَهُ .

وَمَعْنَى الْآيَةِ : « وَإِذَا نَظَرُ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ أَحْيَانًا إِلَى أَصْحَابِ النَّارِ تَعَوَّذُوا
بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَجْعَلُهُمْ مَعَ أَصْحَابِ النَّارِ فَيَدْخُلُهُمُ النَّارَ ، وَقَالُوا رَبِّنَا لَا تَجْعَلُنَا مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ .

وَلَيْسَ دُعَاؤُهُمْ هَذَا الدُّعَاءُ دَالًاً عَلَى سُقُوطِ مُنْزَلِهِمْ ، وَخُوفُهُمْ مِنْ دُخُولِ النَّارِ كَمَا
يَدْلِلُ عَلَى رَجَائِهِمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ قَوْلُهُ « وَهُمْ يَطْعَمُونَ » وَذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ مَمَّا دَعَاهُمْ أُولُو الْعِزَمِ
مِنَ الرَّسُلِ وَالْأَنبِيَاءِ الْمُكَرَّمُونَ وَالْعِبَادُ الصَّالِحُونَ وَكَذَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَّبُونَ فَلَا دَلَالَةُ فِيهِ
وَلَوْ بِالْشَّعَارِ الْمُضَعِّفِ عَلَى كَوْنِ الدَّاعِيِّ ذَا سُقُوطِ فِي حَالِهِ وَحِيرَةً مِنْ أَمْرِهِ . هَذَا مَا فَسَرُوا
بِهِ الْآيَةُ بِإِرْجَاعِ ضَمِيرِيِّ الْجَمْعِ إِلَى « رَجَالٍ » .

لَكُنْكَ خَيْرٌ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَلَامُ إِلَيْهِ الْظَّهَارُ الَّذِي فِي مُفْتَحِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ فِي قَوْلِهِ :
« وَنَادَى أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ » إِذَا الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ جَارٍ فِي أَوْصَافِ أَصْحَابِ
الْأَعْرَافِ وَأَخْبَارِهِمْ كَقَوْلِهِ : « يَعْرُفُونَ كَلَّا » الْخَ ، وَقَوْلُهُ : « وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » إِلَخَ

وقوله : « لم يدخلوها » النج على احتمال ، و قوله : « وإذا صرفت أبصارهم » النج فكان من اللازم أن يقال : ونادوا - أي أصحاب الأعراف - رجالاً يعرفونهم » النج و ليس في الكلام أي لبس ولا نكتة ظاهرة توجب العدول من الإضمار الذي هو الأصل في المقام إلى الإظهار بمثل قوله : « ونادى أصحاب الأعراف » .

فالظاهر أنّ ضميري الجمع أعني ما في قوله « أبصارهم » و قوله « قالوا » راجعون إلى أصحاب الجنة ، والجملة إخبار عن دعائهم إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار كما أنّ الجملة السابقة بيان لطمعهم في دخول الجنة ، وكل ذلك قبل دخولهم الجنة .

قوله تعالى : « و نادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسمائهم » إلى آخر الآية ، في توصيف الرجال بقوله « يعرفونهم بسمائهم » دلالة على أنّ سماءهم كما يدلّهم على أصل كونهم من أصحاب الجنة يدلّهم على أمور آخر من خصوصيات أحوالهم ، وقد مرّت الإشارة إليه .

وقوله : « قالوا ما أغنی عنكم بمعكم وما كنتم تستكبرون » تقرير لهم وشمائلة ، وكشف عن تقطّع الأسباب الدنيوية عنهم فقد كانوا يستكبرون عن الحقّ ويستذلونه ويغترّون بجمعهم .

قوله تعالى : « هؤلاء الذين أفسّرتم لainالله برجمة » إلى آخر الآية . الإشارة إلى أصحاب الجنة ، والاستفهام للتقرير أي هؤلاء هم الذين كنتم تجزمون قوله أنّهم لا يصيبهم فيما يسلكونه من طريق العبودية خير ، وإصابة الخير هي نيله تعالى وإياهم برجمة ، ووقوع النكرة - برجمة - في حيز النفي يفيد استغراق النفي للجنس ، وقد كانوا ينفعون عن المؤمنين كلّ خير .

و قوله : « أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » أمر من أصحاب الأعراف للمؤمنين أن يدخلوا الجنة بعد تقرير حالهم بالاستفهام ، وهذا هو الذي يفيده السياق .

و قول بعضهم في الآية : إنّها بتقدير القول أي قيل لهم من قبل الرحمن : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم ، ولا أنتم تحزنون من شيء ينبع من

عليكم حاضر كم ، وحذف القول للعلم به من قرائن الكلام كثير في التنزيل وفي كلام العرب الخلاص (انتهى) . مدفوع بعدم مساعدة السياق ودلالة القرائن عليه بوجه كما تقدم بيانه ، وليس إذا جاز تقدير القول في محل " لتبادر معناه من الكلام جاز ذلك في أيّ مقام أريد ، وأيّ سياق أم أيّة قرينة تدلّ على ذلك في المقام ؟

﴿كلام في معنى الاعراف في القرآن﴾

لم يذكر الأعراف في القرآن إلا في هذه الآيات الأربع من سورة الأعراف (٤٦-٤٩) وقد استنتج باستيفاء البحث في الآيات الشريفة أنه من المقامات الكريمة الإنسانية التي تظهر يوم القيمة ، وقد مثله الله سبحانه وبأنه بين الدارين دار الثواب ودار العقاب حجاباً يحيجز إداهما من الأخرى - والحجاب بالطبع خارج عن حكم طرفه في عين أنه مرتبط بهما جميعاً - وللحجب أعراف وعلى الأعراف رجال مشرفون على الناس من الأولين والآخرين يشاهدون كل ذي نفس منهم في مقامه الخاص به على اختلاف مقاماتهم ودرجاتهم ودركاتهم من أعلى علية إلى أسفل سافلين ، ويعرفون كلّاً منهم بما له من الحال الذي يخصه والعمل الذي عمله ، لهم أن يكلّموا من شاؤوا منهم ، ويؤمنوا من شاؤوا ، ويأمروا بدخول الجنة باذن الله .

ويستفاد من ذلك أنّ لهم موقفاً خارجاً من موقف السعادة التي هي النجاة بصالح العمل ، والشقاوة التي هي الهلاك بطالح العمل ، ومقاماً أرفع من المقامين معاً و لذلك كان مصدراً للحكم والسلطة عليهم جميعاً .

ولك أن تعتبر في تفهم ذلك بما تجده عند الملاوك ومصادر الحكم فهناك جماعة من عباد بنعمتهم مشمولون لرحمتهم يستدرّون ضرع السعادة بما تشتهيه أنفسهم ، وآخرون محبوسون في سجونهم معدّبون بأليم عذابهم قد أحاط بهم هوان الشقاوة من كل جانب فهذا نظر فان ظرف السعادة وطرف الشقاوة ، والظرفان متمايزان لا يختلطان بطرف آخر

ثالث يحكم فيهما ويصلح شأن كلّ منهما وينظم أمره وفي هذا الظرف قوم خدمة يخدمون العرش بمداخلتهم الجانبيين وإهداء النعم إلى أهل السعادة، وإيصال النقم إلى أهل الشقاوة، وهم مع ذلك من السعداء، وقوم آخر وراء الخدمة والعمال هم المدبرون لأمر الجميع وهم أقرب الوسائل من العرش، وهم أيضاً من السعداء، فللسعادة مراتب من حيث الإطلاق والتقييد.

وليس من الممتنع على ملك يوم الدين أن يخصّ قوماً برحمته فيدخلهم بحسناهم الجنة ويبسط عليهم بركته بما أنه الغفور ذو الفضل العظيم، ويدخل آخرين في ناره ودار هوانه بما عملوه من سيّاتهم وهو عزيز ذوانقام شديد العقاب ذو البطش، وياذن لطائفة ثلاثة أن يتتوسطوا بينه وبين الفريقين بإجراء أوامرها وأحكامها فيهم أو إصدارها عليهم بإسعاد من سعد منهم وإشقاء من شقي فإنه الواحد القهـار الذي يقهر بوحدته كل شيء كما شاء بتوصیط أو إسعاد أو إشقاء، وقد قال تعالى : « مَنِ الْمَلَكُ الْيَوْمَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهْـارُ » فافهم .

قوله تعالى : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا » الخ إلا فاضه من الفيض وهو سيلان الماء منصباً قال تعالى : « ترى أعينهم تفيض من الدمع » أي يسيل دمعها منصباً ، وعطف سائر مارزقهم الله من النعم على الماء يدل على أن المراد بالإفاضة صب مطلق النعم أعم من الماء وغیره على نحو عموم المجاز ، وربما قيل : إن إلا فاضه حقيقة في إعطاء النعمة الكثيرة فيكون تعليقه على الماء وغیره حقيقة حينئذ .

وكيف كان ففي الآية إشعار بعلو مكان أهل الجنة بالنسبة إلى مكان أهل النار . وإنما أفرز الماء وهو من جملة مارزقهم الله ثم قدّم في الذكر على سائر مارزقهم الله لأن الحاجة إلى بارد الماء أسبق إلى الذهن طبعاً بالنسبة إلى غيره عندما تحيط الحرارة بالإنسان ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « الـذـين اتـخـذـو دـيـنـهـم لـهـوـا وـلـعـبـا ، إـلـى آـخـرـالـآـيـة . اللـهـوـ ماـيـشـغـلـكـ عـمـاـيـهـمـكـ ، وـالـلـعـبـ الـفـعـلـ الـمـأـتـيـ » به لغاية خيالية غير حقيقة ، و الغرور إظهار النصح واستبطان الغش ، والنسيان يقابل الذكر ، وربما يستعار لترك الشيء وعدم الاعتناء بشأنه

كالشيء المنسبي ، وعلى ذلك يجري في الآية ، والجihad النفي والإِنكار . والآية مسوقة لتفصير الكافرين ، ويستفاد منها تفسيرات ثلاثة للمُكفر : أولها : أنه اتّخاذ الإِنسان دينه لهواً ولعباً وغور الحياة الدنيا له ، والثاني : نسيان يوم اللقاء ، والثالث : الجihad بآيات الله ، ولكلّ من التفاسير وجه .

وفي قوله تعالى : « الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهُوَا وَلَعْبًا » دلالة على أنّ الإِنسان لاغنى له عن الدين على أيّ حال حتّى من اشتغل بالله و اللعب ومحض حياته فيما محضاً فإنّ الدين - كما تقدّمت الإِشارة إليه في تفسير قوله : « الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا » الآية - هو طريق الحياة الذي يسلكه الإِنسان في الدنيا ، ولا محيس له عن سلو كه ، وقد نظمه الله سبحانه بحسب ما تهدى إليه الفطرة الإنسانية ودعت إليه، وهودين الإِنسان الذي يخصّه وينسب إليه ، وهو الذي يهمّ الإِنسان ويسوقه إلى غاية حقيقة هي سعادة حياته .

فحيث جرى عليه الإِنسان وسلكه كان على دينه الذي هودين الله الفطريّ ، وحيث اشتغل عنه إلى غيره الذي يلهو عنه ولا يهديه إلا إلى غaiات خيالية وهي اللذائذ المادّية التي لا بقاء لها ولا نفع فيها يعود إلى سعادته فقد اتّخذ دينه لهواً ولعباً وغرّته الحياة الدنيا بسراب زخارفها .

وقوله تعالى : « فَالَّيَوْمَ نَسَأْلُهُمْ كَمَا نَسَأْلُهُمْ يَوْمَ هُنَّا » أي اليوم ننزل لهم ولا نقوم بلوازم حياتهم السعيدة كما نزلوا يومهم هذا فلم يقوموا بما يجب أن يعملوا له و بما كانوا بأياتنا يبحدون ونظير الآية في جعل تكذيب الآيات سبباً لنسيان الله له يوم القيمة قوله : « قَالَ كَذَلِكَ أَقْتَلَكَ آيَاتِنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تَنْسِي » طه : ١٢٦ وقد بدّل هناك الجيد نسياناً .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ » الآية عود إلى بدء الكلام أعني قوله في أول الآيات : « فَمَنْ أَظْلَمُ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أي من أعظم من هؤلاء ظلماً ولقد أتممنا عليهم الحجة وأقمنا لهم البيان فجيئناهم بكتاب فصلناه وأنزلناه إليهم على علم منا بنزوله ؟ .

فقوله «على علم» متعلق بقوله «لقد جئناهم» و الكلمة تتضمن احتجاجاً على حقيقة الكتاب والتقدير : ولقد جئناهم بكتاب حقٌّ : وكيف لا يكون حقاً ؟ وقد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب .

وقوله : «هدى و رحمة لقوم يؤمنون» أي هدى و اراءة طريق للجميع و رحمة للمؤمنين به خاصة ؟ أو هدى و إصالاً بالمطلوب للمؤمنين و رحمة لهم ، والأول أنساب بالمقام وهو مقام الاحتجاج .

قوله تعالى : «هل ينظرون إلا تأويله» إلى آخر الآية . الضمير في تأويله راجع إلى الكتاب ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات» الآية : آل عمران : ٧ أن التأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها حكم أو خبر أو أي أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن و المثل على الممثل .
قوله : «هل ينظرون إلا تأويله» معناه هل ينتظرون هؤلاء الذين يفترضون على الله كذباً أو يكذبُون بما يأته و قد تمت عليهم الحجّة بالقرآن النازل عليهم ، إلا حقيقة الأمر التي كانت هي النعمة على سوق بياناته و تشريع أحكامه والإذار و التبشير الذين فيه ؟ فلولم ينتظروه لم يترکوا الأخذ بما فيه .

ثم يخبر تعالى عن حالهم في يوم إثبات التأويل بقوله : يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه الخ أي إذا انكشفت حقيقة الأمر يوم القيمة يعترفون بالذلة كون له بحقيقة ما جاءت به الرسل من الشرائع التي أوجبو العمل بها ، وأخبروا أن الله سبحانه و يجازيهم عليها .

وإذ شاهدوا عند ذلك أنهم صفر الأيدي من الخير ، هالكون بفساد أعمالهم سألهما أحد أمرىء يصلاح به ما فسده من أمرهم إما شفعاء ينجوونهم من الهلاك الذي أطلق عليهم أو أنفسهم ، بأن يرددوا إلى الدنيا فيعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملونه من السيّارات ، وذلك قوله حكاية عنهم : «فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنّا

نعمل ؟

وقوله تعالى : «قد خسروا أنفسهم و ضلّ عنهم ما كانوا يفترضون» فصل في معنى

التعليل ماحكى عنهم من سؤال أحد أمرىء : إِمَّا الشففاء و إِمَّا الردّ إِلَى الدِّينِ كَأَنَّه قيل : ملائكة يسألون هذا الذي يسألون ؟ فقيل : « قد خسروا أنفسهم » فيما بدّلوا دينهم لهواً ولعباً ، وأختاروا الجحود على التسليم وقد زال عنهم الافتراضات المضللة التي كانت تحييهم عن ذلك في الدنيا فبان لهم أُنْهَمٌ في حاجة إلى من يصلح لهم أُعْمَالَهُم إِمَّا أنفسهم أو غيرهم ممّن يشفع لهم .

وقد تقدّم في مبحث الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب أنّ في قوله « فهل لنا من شفاعة فيشفعونا » دلالة على أنّ هناك شفاعة يشفعون للناس إذ قال : من شفاعة ، ولم يقل : من شفيع فيشفع لنا .

بحث روائي

في الكافي بـإسناده عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ ثُمَّ مسلم عن أبي جعفر عَلَيْهِ الْكَلَمُ قال في قوله تعالى « وما أضلنا إِلَّا المُجْرَمُونَ » إِذ دعوهُم إِلَى سبِيلِهِم ذلك قول الله عزّ وجلّ فيهِم بِعِهْدِهِم إِلَى النار « قالت أُخْرَاهُم لَا وَلَاهُمْ رَبَّنَا هُؤُلَاءِ أَضَلُّوْنَا فَآتَهُمْ عِذَابًا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ » وقوله : ، كُلُّمَا دخلت أُمَّةٌ لعنة أختها حتّى إذا ادار كوا فيها يتبرّأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً يريدهُ أنّ بعضهم يحجّ بعضًا رجاء الفلاح فيفلتوا من عظيم ما نزل بهم ، وليس بأوان بلوي ولا اختبار ولا قبول معذرة ولا حين نجاة .

اقول : قوله عَلَيْهِ الْكَلَمُ : قوله كُلُّمَا دخلت أُمَّةٌ لعنة نقل للآية بالمعنى .

وفي الدر المنشور في قوله تعالى : « لَا يَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : قرئ رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ : « لَا يَفْتَحَ لَهُمْ » بالياء .

وفيه أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد وهناد بن السري وعبد بن حميد وأبوداود في سننه وابن حجر وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر وملأ يلحد فجلس رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ وجلسنا حوله و كان على رؤوسنا

الطير ، وفي يده عود ينكث به الأرض فرفع رأسه فقال : استعذنا من عذاب القبر مرّتين أو ثالثاً .

ثم قال : إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء يمض الوجوه كأنَّ وجههم الشمس ، معهم أكفان من كفن الجنّة وحنوط من حنوط الجنّة حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيسْتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله و رضوان فتخرج تسيل كما تسيل قطر من في السقاء وإنْ كنتم ترون غير ذلك فياخذنها فإذا أخذنها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذنها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط فتخرج منها كأطيب نفحه مسک وجدت على وجه الأرض فتصعدون بها فلاميرٌ ون على ملاء من ملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فتفتح لهم فيشيشه من كل سماء مقرٌّ بوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في علیين ، وأعيدهو إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيعاد روحه في جسده .

فياقيمه الملائكة فيجلسانه فيقولان له : من ربّك ؟ فيقول : ربِّي الله فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقته فینادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنّة وألبسوه من الجنّة وافتتحوا له باباً إلى الجنّة فياقيمه من روحها وطبيتها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذي يسرّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ! فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول ، أنا عبادك الصالح فيقول : ربِّ أقم الساعة أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

قال : وإنَّ العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة و انقطاع من الدنيا نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم متسوّح فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت

حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله و غضب فيفرّق في جسده فينتزع عنها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها .

فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، و يخرج منها كأنتن ريح حيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرّون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا تفتح له . ثم قرأ رسول الله عليه صلوات الله عليه عليه : لاتفتح لهم أبواب السماء .

فيقول الله عزّ وجلّ : أكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلی فيطرح روحه طرحا . ثم قرئ رسول الله عليه صلوات الله عليه عليه : ومن يشرك بالله فكانت ما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو يهوي به الريح في مكان سحيق ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربّك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، فيقولن له : مادينك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لأدري ! فيقولان له . ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لأدري ! فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرمواه من النار ، واقتربوا له ببابا إلى النار ف يأتيه من حرّها وسمومها ، و يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه .

ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الشياب مفترن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشرّ . فيقول : أنا عمالك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة .

أقول : و الرواية من المشهورات رواها جمع من المؤلفين في كتبهم كما رأيت ، وفي معناها روايات من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أودعنا بعضها في البحث الروائي الموضع في ذيل قوله تعالى : « ولا تقولوا ملائكة مقتول في سبيل الله أموات » الخ البقرة : ١٥٤ في الجزء الأول من الكتاب .

وفي تفسير العياشي عن سعيد بن جناح قال : حدثني عوف بن عبد الله الأزدي عن جابر بن زيد الجعفي عن أبي جعفر عليهم السلام في حديث قبض روح الكافر : فإذا أُوتى

بروحه إلى السماء الدنيا أغلقت منه أبواب السماء ، وذلك قوله : « لا تفتح لهم أبواب إلى آخر الآية . يقول الله : ردّوها عليه فمنها خلقناكم وفيها نعيدهم ومنها نخر جسمكم تارة أخرى .

أقول : دوسي ما في معناه في المجمع عنه تاليفه .

وفي الدر المنشور أخرج ابن مardon عن عائشة : أن النبي صلوات الله عليه تلا هذه الآية : « لهم من جهنّم مهادون فوقهم غواش » قال : هي طبقات من فوقه ، وطبقات من تحته لا يدرى ما فوقه أكبر أو ما تحته ؟ غير أنه ترفعه الطبقات السفلية وتضنه الطبقات العليا ، ويصيق فيما بينهما حتى يكون منزلة الزجاج في القدر .

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي رض ابن أبي طالب قال : فيما والله أهل بدر نزلت هذه الآية : « ونزعنا ما في صدورهم من غل ». غل رض .

أقول : وقوع الجملة في سياق هذه الآيات وهي مكثية يأبى نزولها يوم بدر أو في أهل بدر ، وقد وقعت الجملة أيضاً في قوله تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » إخواننا على سرر متقابلين صلوات الله عليه الحجر : ٤٧ وهي أيضاً في سياق آيات الجنة ، وهي مكثية . وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : بلغني أن النبي صلوات الله عليه قال : يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ بعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل رض .

وفيه أخرج النسائي رض وابن أبي الدنيا وابن جرير في ذكر الموت وابن مardon عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلوات الله عليه : كل أهل النار يرى منزلة من الجنة يقول : لو هدانا الله ، فيكون حسرة عليهم ، وكل أهل الجنة يرى منزلة من النار فيقول : لو لا أن هدانا الله . فهذا شكرهم .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والدارمي رض ومسلم والترمذى رض والنمسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مardon عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلوات الله عليه : « ونودوا أن تلهم الجنة اورتتموها بما كنتم تعملون » قال : نودوا أن صحوا

فلا تسقموا ، وأنعموا فلا تيأسوا ، وشبّوا فلا ثبرموا ، واحلدوا فلا تموتوا .

اقول : وفي معنى وراثة الجنّة أخبارُ أخر سياطي إن شاء الله .

وفي الكافي وتفسير القمي بـإسنادهما عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالى : « وَأَذْنَ مُؤْذِنٍ بَيْنَهُمْ أَنْ لعنة الله على الظالمين » قال المؤذن أمير المؤمنين عليه السلام .

اقول : ورواه العياشي عنه عليه السلام ورواه في روضة الوعاظين عن الباقر عليه السلام قال : المأذن على عليه السلام .

وفي المعاني بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال : خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة منصرفه من النهر والنهر وببلغه أن معاوية يسبّه ويعييه ويقتل أصحابه فقام خطيباً، وذكر الخطبة إلى أن قال فيها : و أنا المأذن في الدنيا والآخرة قال الله عز وجل : « فَأَذْنَ مُؤْذِنٍ بَيْنَهُمْ أَنْ لعنة الله على الظالمين » أنا ذلك المأذن ، وقال : « وَأَذْنَ مِنَ الله وَرَسُولِهِ » أنا ذلك الأذان .

اقول : أي أنا المأذن بذلك الأذان بقرينة صدر الكلام ويشير عليه به إلى قصة آيات البراءة .

وفي المجمع روى الحكم أبو القاسم الحسکاني بإسناده عن محمد بن الحنفية عن علي أنه قال : أنا ذلك المأذن .

وبإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : لعلي في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس قوله : فَأَذْنَ مُؤْذِنٍ بَيْنَهُمْ يقول : ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقّي .

اقول : قال الآلوسي في روح المعاني في قوله تعالى « فَأَذْنَ مُؤْذِنٍ » الآية : هو على ما روی عن ابن عباس صاحب الصور ، وقيل : مالك خازن النار ، وقيل : ملك من الملائكة غيره ما يأمره الله تعالى بذلك ، ورواية الإمامية عن الرضا وابن عباس : أنه على كرم الله وجهه مما لم يثبت من طريق أهل السنة و بعيد عن هذا الإمام أن يكون مؤذناً وهو إذا ذاك في حظائر القدس (انتهى) .

و قال صاحب المختار في تفسيره بعد نقله عنه : و أقول : إنّ واضعي كتب المخرج والتعديل لرواة الآثار لم يضعوها على قواعد المذاهب ، وقد كان في أئمتهم من يعدّ في شيعة عليّ وآلـهـ كعبد الرزاق والحاكم ، وما منهم أحد إلـاـ وقد عدّ كثيراً من الشيعة في روایتهم ، فإذا ثبتت هذه الرواية بسند صحيح قبلناها ولا نرى كونه في حظائر القدس مانعاً منها ، ولو كنـاـ نعقل لا سنـادـ هذا التأذـينـ إلـيـهـ كـرـمـ اللهـ وجهـهـ معـنىـ يـعـدـ بهـ فـضـيـلـةـ أوـ مـثـوـبـةـ عندـ اللهـ تعالىـ لـقـبـلـنـاـ الروـاـيـةـ بماـ دونـ السـنـدـ الصـحـيـحـ ماـ لمـ يـكـنـ مـوـضـعـاـ أوـ مـعـارـضاـ بـرـوـاـيـةـ أـقـوىـ سـنـداـ أـوـ أـصـحـ مـنـتاـ (انتهى) .

ولقد أجاد فيما أفاد غير أنّ الآحاد من الروايات لا تكون حجـةـ عندـناـ إلـاـ إذا كانت محفوفة بالقرائن المفيدة للعلم أعني الوثوق التام الشخصيّ سواء كانت في أصول الدين أو التاريخ أو الفضائل أو غيرها إلـاـ في الفقه فإنّ الوثيق النوعيّ كاف في حجـةـ الرواية كل ذلك بعد عدم مخالفـةـ الكتابـ والتـفـصـيلـ موـكـلـ إلـىـ فـنـ أـصـولـ الفـقـهـ .

وأـمـاـ كـوـنـ هـذـاـ التـأـذـينـ فـضـيـلـةـ فـلاـ يـنـبـغـيـ الـأـرـتـيـابـ فـيـهـ وـ لـيـعـتـبـرـ التـأـذـينـ الـأـخـرـوـيـ بالـتأـذـينـ الدـيـنـوـيـ فـالـتأـذـينـ هـوـ إـعـلـامـ الـحـكـمـ مـنـ قـبـلـ صـاحـبـهـ لـيـسـتـقـرـ عـلـىـ الـمـحـكـومـينـ فـاـمـؤـذـنـ هـوـ الـرـابـطـ يـرـبـطـ صـاحـبـ الـحـكـمـ بـالـمـحـكـومـينـ بـتـقـرـيرـ حـكـمـهـ عـلـيـهـمـ وـالـرـابـطـةـ فـيـ شـرـفـهـ وـ خـسـتـهـ يـتـبـعـ الـطـرـفـينـ ، وـ مـنـ الـواـضـحـ إـذـ كـانـ هـوـ اللهـ عـزـ اـسـمـهـ كـانـ فـيـ ذـلـكـ مـنـ الـشـرـفـ وـ الـكـرـامـةـ مـاـ لـاـ يـعـادـلـهـ شـيـءـ كـمـاـ فـيـ وـسـاطـةـ إـبـرـاهـيمـ عـنـ اللهـ سـبـحـانـهـ فـيـ قـوـلـهـ : « وـ أـذـانـ فـيـ النـاسـ بـالـحـجـّـ »ـ الحـجـّـ : ٢٧ـ وـ وـسـاطـةـ عـلـيـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ إـبـلـاغـ آـيـاتـ الـبـرـاءـةـ : « وـ أـذـانـ مـنـ اللهـ وـ رـسـوـلـهـ إـلـىـ النـاسـ »ـ الـحـجـ بـرـاءـةـ : ٣ـ هـذـاـ فـيـ الـأـذـانـ وـ إـعـلـامـ التـشـرـيعـيـ الـذـيـ يـسـتـقـرـ بـهـ حـكـمـ الـحـاـكـمـ عـلـىـ الـمـحـكـومـينـ بـهـ ، وـ أـمـاـ الـأـذـانـ غـيـرـ التـشـرـيعـيـ كـمـاـ فـيـ أـذـانـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ أـنـ لـعـنـةـ اللهـ عـلـىـ الـظـالـمـينـ فـيـهـ استـقـرارـ الـبـعـدـ التـامـ وـ الـلـعـنـ الـمـطـلـقـ الـدـائـمـ عـلـىـ الـظـالـمـينـ بـعـدـ إـشـهـادـهـمـ حـقـيـقـةـ الـوـعـدـ الـإـلهـيـ الـذـيـ بـلـغـهـمـ مـنـهـ تـعـالـىـ مـنـ طـرـيقـ أـنـبـيـائـهـ وـرـسـلـهـ ، وـ فـيـهـ تـبـيـيـتـ ماـ فـيـ ظـهـورـ حـقـائقـ الـوـعـدـ وـ الـوـعـيدـ لـلـظـالـمـينـ مـنـ النـتـيـجـةـ الـعـائـدـ إـلـيـهـمـ فـاـفـهـمـ ذـلـكـ وـلـاـ يـهـوـنـ عـلـيـكـ أـمـرـ الـحـقـائقـ ، وـ لـاـ تـسـاهـلـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـهـاـ إـنـ كـنـتـ ذـاـ قـدـمـ فـيـهـ .

وهذا هو الذي يشير إليه علي عليه السلام نفسه فيما مرّ من خطبته إذ قال : وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة .

والرواية - كما تقدّم - مرويّة بطرق متعدّدة من الشيعة عن علي عليه السلام والباقي والرضا عليه السلام من طرق أهل السنة ما رواه الحاكم بإسناده عن ابن الحنفية عن علي عليه السلام وبإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس والرجل جيد الرواية ضابط في الحديث ينقل في التفاسير الروائية وغيرها رواياته في التفسير لكنهم لم يذكروا روايته هذه حتى مثل السيوطي الذي يستوفي في الدر المنشور ما رواه في التفسير ترك ذكر الحديث ، وما أدرى ما هو السبب فيه ؟

وفي الدر امتنور أخرج أبوالشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : يوضع الميزان يوم القيمة فيوزن الحسنات والسيّمات فمن رجحت حسناته على سيّاته مثقال صوابة دخل الجنة ، ومن رجحت سيّاته على حسناته مثقال صوابة دخل النار .

قيل : يا رسول الله فمن استوى حسناته وسيّاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال : سُئل رسول الله صلوات الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال : أنتم قوم آخر جتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا في الجنة حيث شئتم .

أقول : وروي القول بكون أهل الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيّاتهم عن ابن مسعود وحذيفة وابن عباس من الصحابة .

وفي الكافي بإسناده عن حمزة الطيسار قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : الناس على ستة اصناف - إلى أن قال - قلت : وما أصحاب الأعراف ؟ قال : قوم استوت حسناتهم وسيّاتهم فإن دخلتهم النار فبدنو بهم ، وإن دخلتهم الجنة فبرحته . الحديث

وفيه بإسناده عن زراوة قال : قال لي أبو جعفر عليه السلام : ما تقول في أصحاب الأعراف

فقلت : ما هم إلّا مؤمنون أو كافرون إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون ، وإن دخلوا النار فهم كافرون . فقال : والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين ولو كانوا مؤمنين لدخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون ، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون ، ولكنهم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فقصرت بهم الأعمال ، وإنهم كما قال الله عز وجل .

فقلت : أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار ؟ فقال : أتر كلامكم كما ترجمتم الله .
قلت : أفارجمهم ؟ قال : نعم أرجهم كما أرجأهم الله إن شاء أدخلهم الجنة برحمته ، وإن شاء ساقهم إلى النار بذنبهم ولم يظلمهم . فقالت : هل يدخل الجنة كافر ؟ قال : لا . قلت : فهل يدخل النار إلّا كافر ؟ فقال : لا إلّا من يشاء الله . يا زارارة إني أقول : ما شاء الله أma إن كبرت رجعت وتحملت عنك عدك .

أقول : قوله عليه السلام : أma إن كبرت الخ أي إن استعظمت قولي ولم تقبله خرجت عمما كنت عليه من الحق وانحل ما عقدت عليه قلبك من التصديق .

والروايات - كما ترى - يفسر أصحاب الأعراف بمن استوت حسناتهم وسيآتهم في الميزان ، وفي بعضها أن قوله تعالى : « لم يدخلوها وهم يطمعون » الخ من كلامهم ، وهذا لا ينطبق على آيات الأعراف البالغة كما مر بياته .

على أنك عرفت فيما تقدم من تفسير قوله تعالى : « والوزن يومئذ الحق » الخ الأعراف : ٨ أن الميزان الذي يذكره إما أن يشتعل و هو رجحان الحسنات أو يخفي وهو رجحان السيّات ، ولا معنى حينئذ لاستواء الحسنات والسيّات الذي هو قبل الميزان وخفة معا ! فلو فرض أن هناك من لا يشخص الميزان رجحان بعض أعماله على بعض مثلا كان من لا يقام له وزن يوم القيمة كالكافر الذي أحبطت أعماله ، والمستضعف الذي لم يتم عليه الحجّة ولم يتعلّق به التكليف .

نعم ربّما يستفاد من الرواية الأخيرة أن المراد بالذين استوت حسناتهم وسيآتهم هم المستضعفون المرجون لأمر الله إن يشاً يغفر لهم وإن يشاً يعذّ بهم . فالاستواء كناية عن عدم الرجحان ، ويندفع حينئذ إشكال الوزن لكن يبقى الإشكال من جهة الانطباق على ظاهر الآيات وفيها من صفات رجال الأعراف وأصحابه ما لا يتّصف به إلّا السابقون

المقرّ بون المتصدّرون في حظيرة الكرامة والسعادة ، وهؤلاء المستضعفون إنّ صحيحة عدّهم من أهل السعادة فهم نازلون في أدنى منازلها .

وفي المجمع قال أبو عبد الله : الأعراف كثبان بين الجنة والنار يوقف عليها كلّ نبّيٍّ وكلّ خليفة مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده وقد سبق المحسّنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه : انظروا إلى إخوانكم المحسّنين قد سبقوه في الإسلام عليهم المذنبون : وذلك قوله : « ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » ثم أخبر سبحانه وتعالى : أنّهم لم يدخلوها وهم يطمعون يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله بشفاعة النبيٍّ والإمام ، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون : ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

ثم ينادي أصحاب الأعراف وهو الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار مقرعين لهم ما أغنّى عنكم جعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم يعني أهؤلاء المستضعفين الذين كنتم تستضعفونهم وتحتقرنهم بفقرهم وتستطيلون بدنياكم عليهم ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله بذلك لهم : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

أقول : وروى القمي في تفسيره عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن مرثد عن أبي عبد الله عليه السلام ما يقرب منه .

وهذه الرواية - كما ترى - تذكر المستضعفين مكان من استوت حسنااتهم وسيأتي لهم صريحاً ثم تذكر أنّ هناك جماعة من المستضعفين يطمعون في دخول الجنة ويتغذون من دخول النار من غير أن تفسّر بهم الرجال الذين ذكر الله تعالى أنّهم على الأعراف يعرفون كُلّاً بسيماهم ، ويسمّيهم أصحاب الأعراف . ويسهل حينئذ انتطاباً مضمونها على الآيات ، ولا يبقى من الإشكال إلا ظهور الآيات في أنّ المسلمين على أهل الجنة هم أصحاب الأعراف والرجال الذين على الأعراف .

والظاهر أنّ في الروايات اختلافاً و هو ناش عن سوء فهم بعض النقلة ثم النقل ولعلّ الذي يبيّنه النبي عليه السلام أو بعض الأئمة أنّ هناك جماعة من المستضعفين يدخلهم الله الجنة بشفاعة أو مشيّة ثم غيره النقل بالمعنى وأخرجه إلى الصورة التي تراها ، وهذا

ظاهر كسائر الروايات الواردة عن ابن عباس وابن مسعود وحذيفة وغيرهم القائلة إن "الرجال على الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيّئاتهم مع ما فيها من الاختلاف في المتنون وكذا رواية القمي عن الصادق عليه السلام فراجعها تعرف صدق ما أدى عيناً .

وفي البصائر بسناده عن جابر بن يزيد قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن الأعراف ما هم ؟ قال : هم أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى .

أقول : السائل يأخذ الأعراف والرجال الذين عليه واحداً وعلى ذلك ورد الجواب منه عليه السلام فكانه أخذ جمعاً لعرف بمعنى العريف والعارف وفي هذا المعنى روايات كثيرة ي يأتي بعضها .

و فيه بسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام : وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاماً بسمائهم قال : نحن أصحاب الأعراف من عرفنا فماله إلى الجنة ومن أنكرنا فما ماله إلى النار .

أقول : قوله : من عرفنا ومن أنكرنا إن كان فعلاً وفاعلاً فهو ، وإن كان فعلاً ومفعولاً كان على وزان سائر الروايات من عرفهم وعرفوه ، ومن أنكرهم وأنكروه .

و فيه بسناده عن الأصبغ بن نباتة قال : كنت عند أميراً ومؤمنين عليه السلام فقال له رجل « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاماً بسمائهم » فقال له علي عليه السلام : نحن الأعراف نعرف أنصارنا بسمائهم ، ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا ، ونحن الأعراف نوقف يوم القيمة بين الجنة والنار فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه ، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه وذلك قول الله عزوجل .

لو شاء لعرف الناس نفسه حتى يعرفوا حده ويأتونه من بابه ، جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه .

أقول : ورواه أيضاً بسناده عن مقرن عن أبي عبدالله عليه السلام والرجل السائل هو ابن الكواء ، وروى هذه القصة أبيه الكليني في الكافي عن مقرن قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : جاء ابن الكواء الخ .

والظاهر أن المراد بالمعرفة والإذنكار في الرواية المعرفة بالحب والبغض أي لا يدخل

الجنة إلا من عرفنا بالولایة وعرفناه بالطاعة ، ولا يدخل النار إلا من أنكر ولا يتناوأً انكرنا طاعته ، وهذا غير معرفتهم الجميع بآياتهم ، وإنما أشكال انتباقه على قوله تعالى « رجال يعرفون كلاماً بسمائهم » وقوله تعالى « ونادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسمائهم » الخ ولعل ذلك إنما نشأ من نقل بعض الرواية الرواية بالمعنى ، ويؤيد ما استظهرناه ما يأتي في الرواية التالية .

وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكتاني بإسناده رفعه إلى الأصبغ بن نباتة قال : كنت جالساً عند علي عليه السلام فأتاه ابن الكواء فسألته عن هذه الآية فقال ويحك يا ابن الكواء نحن نوقف يوم القيمة بين الجنة والنار فمن نصرنا عرفناه بسمائهم فأدخلناه الجنة ومن أغضنا عرفناه بسمائهم فأدخلناه النار .

وفي تفسير العياشي ع عن هلقام عن أبي جعفر عليه السلام قال : سأله عن قول الله : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاماً بسمائهم » ما يعني قوله : « وعلى الأعراف رجال ؟ » قال : ألستم تعرفون عليكم عرفاء على قبائلكم ليعرفوا من فيها من صالح أو طالع ؟ قلت : بل قال : فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلاماً بسمائهم .

اقول : وهو مبني على أخذ الأعراف جمعاً للمعرف كأقطاب جمع قطب والعرف هو المعروف من الأمور ولعله مصدر بمعنى المفعول فمعنى « على الأعراف رجال » و « كل على أمرهم وأحوالهم المعروفة منهم رجال ، ولا ينافي ذلك ما تقدم أن الأعراف أعلى الحجاب وكذا ما تقدم في بعض الروايات أن الأعراف كثبان بين الجنة والنار فإن المعرفة التي هي مادة المفظ حافظة لمعناه في مشتقاته وموارد استعمالها على أي حال .

واعلم أن الأخبار من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام في ما يقرب من هذه المعانى في الأعراف كثيرة جداً ، وفيما أوردناه للإشارة إلى أنواع مضامينها في تفسير الأعراف وأصحاب الأعراف كفاية .

وفي تفسير البرهان عن الشعابي رض في تفسيره عن ابن عباس أنه قال : الأعراف موضع عال من الصراط عليه العباس وحزة وعلي رض بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين يعرفون شيعتهم ببياض الوجوه وببغضهم بسود الوجوه .

اقول : وقد تقدّم في البيان السابق نقل الرواية عن جمّع البيان عن تفسير الشعابي عن الضحاك عن ابن عباس .

وفي الدر المنشور أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن مالك الهملاي عن أبيه : قال قائل : يارسول الله ﷺ ما أصحاب الأعراف قال : هم قوم خرجوا في سبيل الله بغير إذن آبائهم فاستشهدوا فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة فهم آخر من يدخل الجنة .

اقول : وهذا المعنى مروي بطرق أخرى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عباس وقد تقدّم الإشكال عليه بعدم الانطباق على ظاهر الآيات ، والأصول المسلمة تعطي أنّه إن تعيّن الخروج وجوباً عينياً لم يؤثّر فيه عدم إذن الوالدين ، وإن لم يتعيّن وبقي على الكفاية كان الخروج حرماً ولم ينفعه القتل في المعركة إلا أن يكون مستضعفًا من جهة الجهل بالحكم فيعود إلى القول بكون أصحاب الأعراف هم المستضعفين و يجري فيه البحث السابق .



إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
 الْعَرْشِ يُفْسِي الظِّلَالَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْوَمَ مُسْخَرَاتٍ
 بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ (٥٤) أَدْعُوكُمْ تَضَرُّعًا
 وَخَفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
 وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
 الرِّيحَ بَشْرًا بَيْنَ يَدِيهِ رَحْمَتَهُ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتَ سَحَابًا ثُقَالًا سَقَاهُ بِالْمَدِ مَيْتٍ فَانْزَلَنَا
 بِهِ الْمَاءُ فَاخْرَجَنَا بِهِ مِنْ كُلِّ التَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمُوْتَىٰ لِعِلْمَكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)
 وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِأَذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكَدِّأَ كَذَلِكَ
 نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) .

* بيان *

الآيات متصلة بما قبلها من تبطة بها فإن الآيات السابقة كانت تبيّن وبالشكل
 بالله والتکذيب بآياته وأن ذلك يسوق الإنسان إلى هلاك مؤبد وشقاء مخلد ، وهذه الآيات
 تعلّل ذلك بأن رب الجميع واحد إليه تدبر الكل يجب عليهم أن يدعوه ويشكره الله ،
 وتوكله توعد رب العالمين من جهتين :

إحداهما : أنه تعالى هو الذي خلق السموات والأرض جميعاً ثم دبر أمرها بالنظام
 الأحسن الجاري فيها الرابط بينها جميعاً فهو رب العالمين .

والثانية : أنه تعالى هو الذي يهيئ لهم الأرزاق بإخراج أنواع التمرات التي

يرتزقون بها بخلق ذلك بأعجب الطرق المتّخذة لذلك وألطفها وهو الإِمطار فهو ربّهم لا ربّ سواه .

قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَّةِ أَيَّامٍ »
سيأتي البحث في معنى السماء والأيام السّتة التي خلقنا فيها في تفسير سورة حم السجدة
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ - إِلَى قَوْلِهِ - بِأَمْرِهِ » الاستواء الاعتدال على
الشيء والاستقرار عليه ، وربما استعمل بمعنى التساوى ، يقال : استوى زيد وعمرو وأي تساوا
قال تعالى : « لَا يَسْتَوِونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ »

والعرش ما يجلس عليه الملائكة وربما كنّى به عن مقام السلطنة ، قال الراغب في
المفردات : العرش في الأصل شيء مسقّف ، وبجمعه عروش قال : « وهي خاوية على عروشها »
ومنه قيل : عرشت الكرم وعرشتها إذا جعلت له كهيئة سقف . قال : والعرش شبه الهودج
للمرأة تشبيهاً في الهيئة بعرش الكرم ، وعرشت البئر جعلت له عريشا ، وسمّي مجلس
السلطان عرضاً اعتباراً بعلوه . قال : وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم ،
وليس كما يذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً - تعالى عن ذلك -
لامحولاً والله تعالى يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِنَّ
أَمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ » ، وقال قوم : هو الفلك الأعلى والكرسيي فلك الكواكب ،
واستدلّ بما روی عن رسول الله ﷺ : ما السماوات السبع والأرضون السبع في جنب
الكرسيي إلا كحلقة ملقاء في أرض فلاته والكرسيي عند العرش كذلك (انتهى) .

وقد استقرّت العادة منذ القديم أن يختص العظماء من ولادة الناس وحكّامهم و
مُصادر أمرهم من المجلس بما يختص بهم ويتميّزون به عن غيرهم كالبساط والملائكة حتى
آل الأمر إلى إيجاد السرور والتختوت فاتّخذ للملك ما يسمى عرشاً وهو أعظم وأرفع
وأخصّ بملك ، والكرسيي يعمّه وغيره ، واستدعي التداول والتلازم أن يعرف الملك
بالعرش كما كان العرش يعرف بملك في أول الأمر فصار العرش حاملاً لمعنى الملك ممثلاً

مِقَامُ السُّلْطَانَةِ إِلَيْهِ يَرْجُعُ وَيَنْتَهِيُ، وَفِيهِ تَوْحِيدٌ أَزْمَّةً الْمُلْكَةِ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِهَا وَإِدَارَةِ شُؤُونِهَا.

واعتبر لاستيصال ذلك مملكة من الممالك قطنت فيها أمّة من الأمم لعوامل طبيعية أو اقتصادية أو سياسية استقلوا بذلك في أمرهم وتميزوا عن غيرهم فأوجدوا مجتمعًا من المجتمعات الإنسانية واختلطوا وامتزجوا بالأعمال ونتائجها ثم اقتسموا في التمتع بالنتائج فاختص كل بشيء منها على قدر زنته الاجتماعية.

كان من الواجب أن تحفظ هذه الوحدة والاتصال المتكون بالمجتمع بمن يقوم عليها فإن التجربة القطعية أوضحت لـ«الإنسان» أن العوامل المختلفة والأعمال والإرادات المتشتتة إذا وجّهت نحو غرض واحد وسيرت في مسیر واحد لم تدم على نعمت الاتحاد والملامة إلا أن تجمع أزمات الأمور المختلفة في زمام واحد وتوضع في يد من يحفظه ويديم حياته بالتدبير الحسن فتحبي به الجميع وإلا فسرعان ما تتلاشى وتتشتت.

ولذلك نرى أن المجتمع المتقدم ينوع الأعمال الجزئية نوعاً ثُم يقدّم زمام كل نوع إلى كرسي من الكراسي كالدوائر والمصالح الجزئية المحلية ؟ ثم ينوع أزمات الكراسي فيعطي كل نوع كرسيًا فوق ذلك ، وعلى هذا القياس حتى ينتهي الأمر إلى زمام واحد يقدم إلى العرش ويهدى لصاحب العرش .

ومن عجيب أمر هذا الزمام وانبساطه وسعته في عين وحدته أن الأمر الواحد الصادر من هذا المقام يسير في منازل الكراسي التابعة له على كثرتها واختلاف مراتبها فيتشكل في كل منزل بشكل يلائمه ويعرف فيه ، ويتصوّر لصاحبها بصورة ينفع بها ويأخذها ملائكة لعمله . يقول مصدر الأمر : «ليجر الأمر» فتأخذه المصالح المالية تكليفاً ماليًا ومصالح السياسة تكليفاً سياسياً ، ومصالح الجيش تكليفاً داعياً وعلى هذا القياس كلّما صعد أو قرل .

فجميع تفاصيل الأعمال والإرادات والأحكام المجرأة فيها المنبسطة في المملكة وهي لا تتحصى كثرة أو لا تنتهي لا تزال تتوحد وتجمّع في الكراسي حتى تنتهي إلى العرش فتقراكم عنده بعضها على بعض وتندمج وتتدخل وتتوحد حتى تصير واحداً هـ في وحدته

كل التفاصيل فيما دون العرش ، وإذا سار هذا الواحد إلى مادونه لم ينزل يتكلّر ويتفصل حتى ينتهي إلى أعمال أشخاص المجتمع وإراداتهم .

هذا في النظام الوضعي الاعتباري الذي عندنا ، وهو لا محالة مأخوذ من نظام التكوين ، والباحث عن النظام الكوني يجد أن الأمر فيه على هذه الشاكلة فالحوادث الجزئية تنتهي إلى عمل وأسباب جزئية ، وتنتهي هي إلى أسباب أخرى كليّة حتى تنتهي الجميع إلى الله سبحانه غير أن الله سبحانه مع كل شيء وهوحيط بكل شيء ، وليس كذلك الملك من ملوكنا لحقيقة ملكه تعالى واعتبارية ملك غيره .

في عالم الكون على اختلاف مراحله مرحلة تنتهي إليها جميع أزمة الحوادث الملقاة على كواهل الأسباب ، وأزمة الأسباب على اختلاف أشخاصها وأنواعها ، وترتب مراتبها هو المسمى عرشاً كما سيجيء ، وفيه صور الأمور الكونية المدبرة بتدبير الله سبحانه كيما شاء ، وعند ذلك مقاييس الغيب .

فقوله تعالى : « ثم استوى على العرش » كنایة عن استيلائه على ملوكه وقيامه بتدبير الأمر قياماً ينبعط على كلّ ما دقّ وجلّ ، ويترسّح منه تفاصيل النظام الكوني ينال به كلّ ذي بغية بغيته ، وتقضى لكلّ ذي حاجة حاجته ، ولذلك عقب حديث الاستواء في سورة يونس في مثل الآية بقوله « يدبر الأمر » إذ قال : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » يونس : ٣ .

ثم فصل بقوله : « يغشى الليل النهار » ويستره به « يطلب النهار الليل ليغشيه و يستره » حيثناً أي طلباً حيثناً سريعاً ، وفيه إشعار بأنّ الظلمة هي الأصل ، والنهار الذي يحصل من إنارة الشمس ما يواجهها مما حولها ، عارض للليل الذي هو الظلمة المخروطية الالزامية لأقلّ من نصف كره الأرض المقابل للجانب المواجه للشمس كانه يعقب الليل ويهمّج عليه .

وقوله : « والشمس والقمر والنجم مسخرات بأمره » أي خلقهنّ والحال أئتها مسخرات بأمره يجرين على ما يشاء وما يشاء وقرى الجمیع بالرفع ، وعلى ذلك

فالشمس مبتدء والقمر والنجم معطوفة عليها ، ومسخرات خبره ، والباء في قوله : « بأمره » للسببية .

ومجموع قوله : « يغشى الليل النهار » الخ يجري مجرى التفسير لقوله : « ثم استوى على العرش » على ما يعطيه السياق ، وهو الذي تعطيه أذلاب الآيات القرآنية التي يذكر فيها العرش فإنّها تذكر معه شيئاً من التدبير أو ما يؤول إليه بحسب المعنى . قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » الخلق هو التقدير بضم شيء إلى شيء وإن استقر ثانياً في عرف الدين وأهله في معنى الإيجاد أو الابداع على غير مثال سابق ، وأمّا الأمر فيستعمل في معنى الشأن وبجمعه أمور ، ومصدراً بمعنى يقرب من بعث الإنسان غيره نحو ما يريده يقال أمرته بكلّ أمراً ، وليس من بعيد أن يكون هذا هو الأصل في معنى اللّفظ ثم يستعمل الأمر اسم مصدر بمعنى نتيجة الأمر وهو النظم المستقر في جميع أفعال المأمور المتبسط على مظاهر حياته ، فينطبق في الإنسان على شأنه في الحياة ثم يتواتر فيه فيستعمل بمعنى الشأن في كلّ شيء فأمر كلّ شيء هو الشأن الذي يصلح له وجوده ، وينتظم له تفاصيله وسكناته وشتى أعماله وإراداته ، يقال : أمر العبد إلى مولاه . أي هو يدبر حياته ومعاشه ، وأمر المال إلى مالكه ، وأمر الإنسان إلى ربّه أي بيده تدبيره في مسیر حياته .

ولا يرد عليه أنّ الأمر بمعنى الشأن يجمع على « أمور » وبمعنى يقابل النهي على « أوامر » وهو ينافي رجوع أحد هما إلى الآخر معنى ! فإنّ أمثل هذه التقىنات كثيرة في اللغة يعثر عليها المتبّع الناقد فالامر كالمتوسط بين من يملكه وبين من يملك منه كالمولى والعبد ويضاف إلى كلّ منها يقال : أمر العبد وأمر المولى قال تعالى : « وأمره إلى الله » البقرة : ٢٧٥ ، وقال : « أتى أمر الله » النحل : ١ .

وقد فسر سبحانه أمره الذي يملكه من الأشياء بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملکوت كلّ شيء » يس : ٨٤ فبين أنّ أمره الذي يملكه من كلّ شيء سواء كان ذاتاً أو صفة أو فعلًا وأثراً هو قول كن وكلمة الإيجاد وهو الوجود الذي يفضيه عليه فيوجد هو به ، فإذا قال : لشيء : كن فكان ، فقد أفضى عليه

ما وجد به من الوجود ، وهذا الوجود الملوهوب له نسبة إلى الله سبحانه وهو بذلك الاعتبار أمره تعالى وكلمة « كن » الإلهية ، وله نسبة إلى الشيء الملوهوب ، وهو بذلك الاعتبار أمره الراجع إلى ربّه ، وقد عبّر عنه في الآية بقوله : « فيكون » .

وقد ذكر تعالى لكل من النسبتين - وإن شئت فقل : لا يجاد المنسوب إليه تعالى وللوجود المنسوب إلى الشيء - نعمتاً وأحكاماً مختلفة سنبحث عنها إن شاء الله في محلٍ يناسبه .

والحاصل : أنَّ الأمر هو الإيجاد سواء تعلق بذات الشيء أو بنظام صفاتيه وأفعاله فأمر ذات الأشياء إلى الله وأمر نظام وجودها إلى الله لأنَّها لا تملك لنفسها شيئاً بيته ، والخلق هو الإيجاد عن تقدير وتأليف سواء كان ذلك بنحو ضمّ شيء إلى شيء كضمُّ أجزاء النطفة بعضها إلى بعض وضمُّ نطفة الذكور إلى نطفة الإناث ثمَّ ضمُّ الأجزاء الغذائية إليها في شرائط خاصة حتى يخلق بدن إنسان مثلاً ، أم من غير أجزاء مؤلفة كتقدير ذات الشيء البسيط وضمُّ ما له من درجة الوجود وحده وماله من الآثار والروابط التي لمع غيره فالأصول والأوليات مقدرة مخلوقة كما أنَّ المركبات مقدرة مخلوقة قال الله تعالى : « وخلق كلَّ شيء فقدَّره تقديرًا » الفرقان : ٢ ، وقال : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى طَهَ : ٥٠ ، وقال : « اللَّهُ خَالقُ كُلَّ شَيْءٍ » الزمر : ٦٢ فعوْدَم خلقه كُلَّ شيء .

فقد اعتبر في معنى الخلق تقدير جهات وجود الشيء وتنظيمها سواء كانت متمايزة منفصلة بعضها عن بعض أم لا بخلاف الأمر .

ولذا كان الخلق يقبل التدرج كما قال : « خلق السموات والأرض في ستة أيام » بخلاف الأمر قال تعالى : « وما أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلْمَحٌ بِالْبَصَرِ » القمر : ٥٠ ، ولذلك أيضاً نسب في كلامه إلى غيره الخلق كقوله : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةً الطَّيْرَ بِإِذْنِي فَتَنْفِخُ فِيهِ » المائدة : ١١٠ ، وقال : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » المؤمنون ١٤ . وأمّا الأمر بهذه المعنى فلم ينسبة إلى غيره بل خصّه بنفسه ، وجعله بينه وبين ما يريد حدوثه وكيفونته كالروح الذي يحيي به الجسم .

انظر إلى قوله تعالى : « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ » وقوله :

« ولتجرى الفلك بأمره » الروم : ٤ ، قوله : ينزل الملائكة بالروح من أمره » النحل : ٢ ، قوله : « وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ إلى غير ذلك من الآيات تجد أنه تعالى يجعل ظهور هذه الأشياء بسببية أمره أو بمحاجة أمره . فتخلاص أن "الخالق والأمر يرجعان بالأخرة إلى معنى واحد وإن كانوا مختلفين بحسب الاعتبار .

فإذا انفرد كلّ من الخلق والأمر صحّ أنّ يتعلّق بكلّ شيء ، كلّ بالعنابة الخاصة به ، وإذا اجتمعوا كان الخلق أخرى بأن يتعلّق بالذوات لما أنها أوجدت بعد تقدير ذواتها وآثارها ، و يتعلّق الأمر بآثارها والنظام الجاري فيها بالتفاعل العامّ بينها لما أنّ الآثار هي التي قدرت للذوات ولا وجه لتقدير المقدّر فافهم ذلك .

ولذلك قال تعالى : « ألا له الخلق والأمر » فأتي بالعطف المشعر بالمخايرة بوجهه ، و كان المراد بالخلق ما يتعلّق من الإيجاد بذوات الأشياء ، وبالأمر ما يتعلّق بآثارها والأوضاع الحاصلة فيها والنظام الجاري بينها كما ميّز بين الجهتين في أول الآية حيث قال : « خلق السماوات والأرض في ستة أيام » وهذا هو إيجاد الذوات « ثمّ استوى على العرش يدبر الأمر » وهو إيجاد النظام الأحسن بينها بيقاع الأمر تلو الأمر والإتيان بالواحد منه بعد الواحد .

وما ربّما يقال : إنّ الأمر لا يقتضي المغايرة ، ولو اقتضى ذلك لدلّ في قوله : « من كان عدوًّا لله وما لائكته ورسله وجبريل » البقرة : ٩٨ على كون جبريل من غير جنس الملائكة ! مدفوع بأنّ المراد مغايرة مَا ولو اعتباراً لقبح قولنا جائي زيد وزيد ورأيت عمراً وعمراً فلا حيص عن مغايرة مَا ولو بحسب الاعتبار ، وجبريل مع كونه من جنس الملائكة يغايره غيره بما له من المقام المعلوم والقوّة وأملكانه عند ذي العرش .

وقوله تعالى : « فتبارك الله رب العالمين » أي كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من في العالمين فهو ربّهم .

﴿كَلَامُ فِي مَعْنَى الْعَرْشِ﴾

للناس في معنى العرش بل في معنى قوله : « ثم استوى على العرش » والآيات التي في هذا المساق مسالك مختلفة ، فأكثر السلف على أنها وما يشا كلها من الآيات من المتشابهات التي يجب أن يرجع علمها إلى الله سبحانه ، وهؤلاء يرون البحث عن الحقائق الدينية والتطلع إلى ما وراء ظواهر الكتاب والسنة بدعة ، والعقل يخطئهم في ذلك والكتاب والسنة لا يصدقانهم فآيات الكتاب تحرّض كلّ التحرير على التدبر في آيات الله وبذل الجهد في تكميل معرفة الله ومعرفة آياته بالتدبر والتفكير والنظر فيها والاحتياج بالحجج العقلية ، ومتفرقات السنة امتداداً معنى توافقها ، ولا معنى للأمر بالمقدرة والنهي عن النتيجة ، وهؤلاء هم الذين كانوا يحرّمون البحث عن حقائق الكتاب والسنة - حتى البحث الكلامي الذي بناؤه على تسليم الظواهر الدينية ووضعها على ما تفيده بحسب الفهم العامي ثم الدفع عنها بما تيسّر من المقدّمات المشهورة والمسلمة عند أهل الدين - ويعدوّنها بدعة فلنفتر كلام وشأنهم .

وأمام طبقات الباحثين فقد اختلفوا في معناه على أقوال :

١ - : حمل الكلمة على ظاهر معناها فالعرش عندهم مخلوق كهيئة السرير له قوائم ، وهو موضوع على السماء السابعة والله تعالى عمّا يقول الظالمون - مستوي عليه كاستواء الملوك منها على عروشهم ، وأكثر هؤلاء على أنّ العرش والكرسي شيء واحد ، وهو الذي وصفناه .

وهو لهم الطبيعة من المسلمين ، والكتاب والسنة والعقل تخاصهم في ذلك وتنزّه رب العالمين أن يماثل شيئاً من خلقه ويشبهه في ذاته ، أو صفة ، أو فعل تعالى وقدس .

٢ - : أنّ العرش هو الفلك التاسع المحيط بالعالم الجسماني والمحدد للجهات والأطلس الخالي من الكواكب ، والراسم بحر كتبه اليومية للزمان ، وفي جوفه مماساً

به الكرسي" وهو الملك الثامن الذي فيه الثواب ، وفي جوفه أفلانك السبعة الكلية التي هي أفلان السيارات السبع : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة و عطارد والقمر بالترتيب محيطاً بعضها ببعض .

وهذه هي التي يفرضها علم الهيئة على مسلك بطلميوس لتنظيم الحركات العلوية الظاهرة للحس طبقوا عليها ما يذكره القرآن من السماوات السبع والكرسي" والعرش فيما وجدوا من أحكامها المذكورة في الهيئة والطبيعتيات لا يخالف الظواهر قبلوه ، وما وجدوه يخالف الظواهر الموجودة في الكتاب ردّه كقولهم : ليس للملك المحدد وراء لا خالاً ولا ملاً ، وقولهم بدوام الحركات الفلكية ، واستحالة المحرق والآلتام عليها ، وكون كل فلك يماس" بسطحه سطح غيره من غير وجود بعد بينها ولا سكنة فيها ، وكون أجسامها بسيطة متشابهة لا ثقب فيها ولا باب .

والظواهر من القرآن والحديث تثبت أنّ وراء العرش حجبًا وسدادات ، وأنّ له قوائم ، وأنّ له حلة ، وأنّ الله سيطوي السماء كطي" السجل" لكتبه ، وأنّ في السماء سكنا من الملائكة ليس فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك راكع أو ساجد يلجمونه وينزلون منه ويصعدون إليه ، وأنّ للسماء أبواباً ، وأنّ الجنة فيها عند سدرة المنتهى التي ينتهي إليها أعمال العباد إلى غير ذلك مما ينافي بظاهره ما افترضه علماء الهيئة والطبيعتيات ، والقائلون منا إنّ "السماء والكرسي" والعرش هي ما افترضوه من أفلان التسعة الكلية يدفعون ذلك كله بمخالفة الظواهر .

ولم ينبههم هذا الاختلاف في الوصف على أنّ ما يصفه القرآن غير ما يفترضه أولئك لتوجيه الحركات العلوية حتى أو ضحت الأبحاث الأخيرة العميقه في الهيئة والطبيعتيات المؤيدة بالحس" والتجربة بطلان الفرضيات السابقة من أصلها فاضطر هؤلاء إلى فسخ تطبيقهم ورفع اليد عنه .

٣ - : أن لا مصدق للعرش خارجاً وإنما قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » و « الرحمن على العرش استوى » كنایة عن استيلائه تعالى على عالم الخلق ، وكثيراً ما يطلق الاستواء على الشيء على الاستيلاء عليه كما قيل :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق
أو أن الاستواء على العرش معناه الشروع في تدبير الأمور كما أن الملوك إذا
أرادوا الشروع في إدارة أمور مملكتهم استروا على عروشهم وجلسوا عليه والشرع والأخذ
في أمر وجميع ما ينبع عن تغيير الأحوال وتبدلها وإن كانت مت荡عة في حقه تعالى لتنزله
تعالى عن التغير والتبدل لكن شأنه تعالى يسمى شرعاً وأخذنا بالنظر إلى حدوث الأشياء
بذواتها وأعيانها يومئذ فيسمى شأنه تعالى وهو الشمول بالرجمة إذا تعلق بها شرعاً وأخذنا
بالتدبر نظير سائر الأفعال الحادثة المقيدة بالزمان المنسوبة إليه تعالى ، كقولنا خلق
الله فلاناً ، وأحياناً فلاناً وأمات فلاناً ، ورزق فلاناً ، ونحو ذلك .

وفي : أن كون قوله : « ثم استوى على العرش » جارياً مجرى الكنية بحسب
اللفظ وإن كان حقاً لكنه لا ينافي أن يكون هناك حقيقة موجودة تعتمد عليها هذه العناية
اللفظية ، والسلطة والاستيلاء والملك والإمارة والسلطنة والرئاسة والولاية والسيادة ؛ وجميع
ما يجري هذا المجرى فيما أمور وضعية اعتبارية ليس في الخارج منها إلا آثارها على
ماسماته منا كراراً في الأبحاث الاعتبارية السابقة ، والظواهر الدينية تشابه من حيث
البيان ما عندنا من بيانات أمورنا وشؤوننا الاعتبارية لكن الله سبحانه يبين لنا أن هذه
البيانات وراءها حقائق واقعية ، وجهات خارجية ليست بوهمية اعتبارية .

فمعنى الملك والسلطنة والإحاطة والولاية وغيرها فيه سبحانه هو المعنى الذي يفهمه
من كل من هذه الألفاظ عندنا لكن المصاديق غير المصاديق فلها هناك مصاديق حقيقة
خارجية على ما يليق بساحة قدره تعالى وأمما عندنا من مصاديق هذه المفاهيم فهي
أوصاف ذهنية ادعائية وجهات وضعية اعتبارية لا تتعدد الوهم ، وإنما وضعناها وأخذنا
بها للحصول على آثار حقيقة هي آثارها بحسب الدعوى فلا يسمى الرئيس رئيساً إلا
لأن يتبع الذين نسميه لهم مسؤلين إراداته وعزائمها لأن الجماعة بدن حقيقة وهو
رؤسهم حقيقة ، ولا نسمى جزء الهيئة المؤتلفة عضواً لأنّه يد أو رجل أو كبد أو رئة حقيقة
بل لأن يتصدّى من الأمور المقصودة في هذا التشكيل والمجتمع ما يتصدّى له عضو من
الأعضاء الموجودة في بدن الإنسان مثلاً .

وهذا هو الذي يسميه الله تعالى لعباً ولهواً إذ يقول : « وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب » العنكبوت : ٦٤ فالمقصود الدنيوية من زينة ومال وأولاد وتقدّم ورئاسة وحكومة وأمثالها ليست إلّا عناوين وهميّة لا تتحقّق لها إلّا في الأوهام ، وليس الاشتغال بها لغير المقاصد الأخروية إلّا اشتغالاً بأمور وهميّة صور خيالية ، ولا المسابقة في تحصيلها إلّا كمسابقة الأطفال في تحصيل التقدّم في اطلاعات التي يشغلوه بها ، وليس إلّا تحصيل حالة خيالية ليس منها في خارجه عين ولا أثر .

وحشاً لله سبحانه أن يذم هذه الحياة الفانية الغارّة ، ويسمّيها لعباً لما تشتمل عليه من الشؤون الهميّة ثم يكون تعالى وتقدّس أوّل الملاعب !

وبالجملة قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » في عين أنه تمثيل يدين به أن له إحاطة تدبره يدل على أن هناك مرحلة حقيقة هي امقام الذي يجتمع فيه جميع أزمه الأمور على كثرتها واختلافها ، ويدل عليه آيات آخر تذكر العرش وهذه وينسبه إليه تعالى كقوله تعالى : « وهو رب العرش العظيم » التوبة : ١٢٩ وقوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله » المؤمن : ٧ ، قوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » الحاقة : ١٧ و قوله : « حافين من حول العرش » الزمر : ٧٤ .

فالآيات - كما ترى - تدل بظاهرها على أن العرش حقيقة من الحقائق العينية وأمر من الأمور الخارجية ، ولذلك نقول : إن للعرش في قوله : « ثم استوى على العرش » مصداقاً خارجياً ، ولم يوضع في الكلام مجرّد تتميم المثل كما نقوله في أمثال كثيرة مضروبة في القرآن فلا نقول في مثل آية النور مثلاً : إن في الوجود زجاجة إلهيّة أو شجرة زيتونه إلهيّة أو زيتنا إلهيّاً ، ونقول : إن في الوجود عرشاً إلهيّاً أو لوهاً وقلماً إلهيّين وكتاباً مكتوباً فافهم ذلك .

وهذا العرش الذي يستفاد من مثل قوله : « ثم استوى على العرش » أنه مقام في الوجود يجتمع فيه أزمه الحوادث والأمور كما يجتمع أزمه المملكة في عرش الملك على التفصيل الذي تقدّم في بيان الآية يدل على تتحقق هذه الصفة له قوله تعالى : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلّا بازنه » يونس : ٣ ففسر الاستواء على

العرش بتدبير الأمر منه ، وعقبه قوله : « ما من شفيع إلّا بازنه » و الآية لما كانت في مقام وصف الربوبية والتدبير التكويني كان امداد بالشفاعة الشفاعة في أمر التكوين ، وهو السببية التي توجد في الأسباب التكوينية التي هي وسائل متخللة بين الحوادث والكائنات وبينه تعالى كالنار المتخللة بينه وبين الحرارة التي يخلقها ، والحرارة المتخللة بينه وبين التخلخل أو ذوبان الأجسام فنفي السببية عن كل شيء إلّا بازنه لا فادة توحيد الربوبية التي يفيده صدر الآية : « إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ».

وفي قوله : « ما من شفيع إلّا بازنه » بيان حقيقة أخرى وهي رجوع التخلّف في التدبير إلى التدبير بعينه بواسطة الإِذن ، فإن الشفيع إنما يتوسط بين المشفوع له المحكوم بحكم ، والمشفوع عنده ، ليغرس بالشفاعة مجرى حكم سيجري لولا الشفاعة فالشمس ألمضية بامواجهة مثلاً شفيعة متوسطة بين الله سبحانه و بين الأرض لاستنارتها بالنور ولولا ذلك لكان مقتضى تقدير الأسباب العامة ونظمها أن تحيط بها الظلمة ثم الحال من سقف أو أي حجاب آخر شفيع آخر يسأله تعالى أن لا يقع نور الشمس على الأرض بالاستقامه وهكذا .

فإذا كانت شفاعة الشفيع وهو سبب مغير ماسبقه من الحكم مستندة إلى إذنه تعالى كان معناه أن التدبير العام الجاري إنما هو من الله سبحانه ، وأن كل ما يتمّ من الوسائل لا يطال تدبيره وتغيير مجرى حكمه أعم مما يتخذه الأسباب التكوينية وما يتخذه الإنسان من التدابير المفرار عن حكم الأسباب الجارية الإلهية كل ذلك من التدبير الإلهي .

ولذلك نرى الأشياء الرديئة تعصي فلا تقبل الصور الشريفة والمواهب السامية ، لقصور استعدادها عن قبوله ، وهذا الرد منها بعينه قبول ، والامتناع من قبول التربية بعينه قريبة أخرى إلهية والإنسان على ما به من الجهل يستعلي على ربّه ويستنكف عن الخضوع لعظمته وهو بعينه انتقاد لحكمه ، و يمكن به وهو بعينه محکور به قال تعالى : « وما يمکرون إلّا بأنفسهم وما يشعرون » الأَنْعَام : ١٢٣ ، وقال تعالى : « وما يضلّون إلّا أنفسهم وما يشعرون » آل عمران : ٦٩ ، وقال تعالى : « وما أنت بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولی »

ولا نصير » الشورى : ٣١ .

فقوله : « ما من شفيع إِلَّا بِإِذْنِهِ » يدل على أن شفاعة الشفعاء أو الأسباب المخالفة التي تحول بين التدبير الإلهي و بين مقتضياته داخلة من جهة أخرى وهي جهة الإذن في التدبير الإلهي فافهم ذلك .

فما مثل الأسباب والعوامل المتخالفة المترادفة في الوجود إِلَّا كمثل كفتي الميزان تتعارك بالارتفاع والانخفاض ، والثقل والخفق لكن اختلافهما يعنيه اتفاق منهما في إعانة صاحب الميزان في تشخيص ما يريد تشخيصه من الوزن .

و يقرب من آية سورة يونس في الدلالة على شمول التدبير ونفي مدبر غيره تعالى قوله : « ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٌ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » السجدة : ٤ ويقرب من قوله : « ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَدِيرُ الْأُمْرَ » في الإشارة إلى كون العرش مقاماً تنتشىء فيه التدابير العامة وتصدر عنه الأوامر التكوينية قوله تعالى : « ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالَ مَا يَرِيدُ » البروج : ١٦ وهو ظاهر .

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى : « وَقَرِي الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ » الزمر : ٧٥ فإنَّ الملائكة هم الوسائل الحاملون لحكمه وال مجرون لأمره العاملون بتدبيره فليكونوا حافين حول عرشه .

وكذا قوله تعالى : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » المؤمن : ٧ ، وفي الآية مضافاً إلى ذكر احتفافهم بالعرش شيء آخر وهو أن هناك حلة يحملون العرش ، وهم لا محالة أشخاص يقوم بهم هذا المقام الرفيع والخلق العظيم الذي هو مرکز التدابير الإلهية ومصدرها ، ويؤيد ذلك ما في آية أخرى وهي قوله : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ » الحاقة : ١٧ .

وإذ كان العرش هو المقام الذي يرجع إليه جميع أزمات التدابير الإلهية والأحكام البوسيطة الجارية في العالم كما سمعت ، كان فيه صور جمجمة الواقع بنحو الإجمال حاضرة عند الله معلومة له ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كَنْتُمْ وَالله

بما تعلمون بصير» الحميد : ٤ فقوله : « يعلم ما يلجه » الخ يجري بجري التفسير للاستواء على العرش فالعرش مقام العلم كما أنه مقام التدبير العام الذي يسع كل شيء، وكل شيء في جوفه .

ولذلك هو محفوظ بعد رجوع الخلق إليه تعالى لفصل القضاة كما في قوله : « وترى الملائكة حافين من حول العرش » موجود مع هذا العالم المشهود كما يدل عليه آيات خلق السموات والأرض، موجود قبل هذه الخلقة كما يدل عليه قوله : « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء » هود : ٧ .

قوله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفيه إلى آخر الآيتين . التضرع هو التذلل من الضراعة وهي الضعف والذلة . والخفية هي الاستئثار ، وليس من بعيد أن يكون كنایة عن التذلل جيء به لتأكيد التضرع فإن المذلل يكاد يختفي من الصغار والهوان . الآية السابقة : « إن ربكم الله الذي خلق » الآية تذكر ربوبيته وحده لا شريك له من جهة أنه هو الخالق وحده ، وإليه تدبر خلقه وحده فتعقيبه بها تين الآيتين بمنزلة أخذ النتيجة من البيان ، وهي الدعوة إلى دعائه وعبديته ، والحكم بأخذ دين يوافق ربوبيته تعالى وهي الربوبية من غير شريك في الخلق ولا في التدبير .

ولذلك دعا أولاً إلى دين العبودية فقال : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفيه إنّه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » فأمر أن يدعوه بالتضرع والتذلل وأن يكون ذلك خفية من غير المجاهرة البعيدة عن أدب العبودية الخارجة عن زيهها - بناءً على أن تكون الواو في « تضرعاً وخفيه » للجمع - وأن يدعوه بالتضرع والابتهاج الملازم عادة للجهر بوجهه أو بالخفية إخفاهاً فإن ذلك هو لازم العبودية ومن عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبودية وإن الله لا يحب المعتدين .

ومن الممكن أن يكون المراد بالتضرع والخفية : الجهر والسر وإنما وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر في الدعاء منافيًّا لأدب العبودية إلا أن يصاحب التضرع . هذا فيما بينهم وبين الله ، وأمّا فيما بينهم وبين الناس فإن لا يفسدو في الأرض بعد إصلاحها فليس حقيقة الدين فيما يرجع إلى حقوق الناس إلا أن يصلح شأنهم بارتفاع

المظالم من بينهم و معاملتهم بما يعینهم على التقوى ، ويقرّ بهم من سعادة الحياة في الدنيا والآخرة .

ثم كرّر الدعوة إليه وأعاد البث إلى دعائه بالجمع بين الطريقين الذين لم ينزل البشر يعبدون ربًّا أو الأرباب من أحدهما وهم طريق الخوف وطريق الرجاء فإنَّ قوماً كانوا يتخدرون الأرباب خوفاً فيعبدونهم ليس لهم من شرورهم ، وكان قوم يتخذون الأرباب طمعاً فيعبدونهم لينالوا خيرهم وبركتهم لكنَّ العبادة عن محض الخوف ربما ساق الإنسان إلى اليأس والقنوط فدعاه إلى ترك العبادة ، وقد شوهد ذلك كثيراً ، والعبادة عن محض الطمع ربما قاد إلى استرداد الوقاحة وزوال ذي العبودية فدعاه إلى ترك العبادة ، وقد شوهد أيضاً كثيراً فجمع سبحانه بهم دعا إلى الدعاء باستعمالها معاً قال: « وادعوه خوفاً وطمعاً » ليصلح كلَّ من الصفتين ما يمكن أن تفسد الآخرى ، وفي ذلك وقوع في مجرى الناموس العام الم الجاري في العالم أعني ناموس الجذب والدفع .

وقد سمى الله سبحانه هذا الاعتدال في العبادة والتجنُّب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها إحساناً وبشر العجائز لدعوه بأنَّهم يكونون حينئذ محسنين فتقرب منهم رحمته إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين .

ولم يقل : رحمة الله قريبة قيل : لأنَّ الرحمة مصدر يستوي فيه الوجهان ، وقيل : لأنَّ أمراء بالرحمة الإحسان ، وقيل : لأنَّ قريب فعال بمعنى المفعول فيستوي فيه المذكور وأ المؤنة ونظيره قوله تعالى : « لعلَّ الساعة قريب » الشورى : ١٧ .

قوله تعالى : « وهو الذي يرسل الرِّياح شرّاً بين يدي رحمته » إلى آخر الآية وفي الآية بيان لربوبيته تعالى من جهة العود كما أنَّ في قوله : « إنَّ ربكم الله » الآية بياناً لها من جهة البدء .

وقوله : « بشراً » وأصله البشر بضمّتين جمع بشير كالنذر جمع نذير ، وأمراء بالرحمة المطر ، وقوله : « بين يدي رحمته » أي قدّام المطر ، وفيه استعارة تخييلية بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذي ينتظره أهلـه فيقدم وبين يديه بشير يبشر بقدومـه .

وأقلالـالحمل ، والسحاب والسماء الغمام والغمامة كتمـر وتمرة وكون السحاب

فهلاً باعتبار حمله ثقل الماء ، قوله « لِبَلْ مِيتٌ » أي لأجل باد ميت أو إلى بلد ميت والباقي ظاهر .

والآية تتحتّج بـ إحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنّهما من نوع واحد ، وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد وليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدمين من أصلهم فإنّ أنفسهم وأرواحهم باقية محفوظة وإن تغيرت أبدانهم ، كما أنّ النسبات يتغيّر ما على وجه الأرض منها ويبقى ما في أصله من الروح الحية على انعزال من النشوء والنمو ثم تعود إليه حياته الفعالة كذلك يخرج الله الموتى فيما إحياء الموتى في الحشر الكلي يوم البعث إلا كإحياء الأرض الميتة في بعثة الجزرئ العائد كل سنة ، وللكلام ذيل سيوافيك في محل آخر إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه » إلى آخر الآية . النكـد القليل . والآية بالنظر إلى نفسها كالمثل العام المضروب لترتيب الأعمال الصالحة والآثار الحسنة على الذوات الطيبة الكريمة كخلافها على خلافها كما تقدّم في قوله : « كما بدأكم تعودون » لكنّها بانضمامها إلى الآية السابقة تفيد أنّ الناس وإن اختلفوا في قبول الرحمة فالاختلاف من قبلهم والرحمة الإلهية عامة مطلقة .

﴿ بحث روائي ﴾

لم ينقل عن طبقة الصحابة بـ حـث حـقـيـقـي عن مثل العرش والكرسي وسائر الحقائق القرآنية وحتى أصول المعارف كمسائل التوحيد وما يلحق بها بل كانوا لا يتعـدون الظواهر الدينية ويقفون عليها ، وعلى ذلك جرى التابعون وقدماء المفسـرـين حتى نقل عن سفيان ابن عيينة أنـه قال : كـلـمـا وصف الله من نفسه في كتابه فتفسـيرـه تلاوته والسكوت عليه ، وعن الإمام مالك أنـ رـجـلاً قال له : يا أبا عبد الله ، استوى على العرش ، كيف استوى ؟ قال الرواـيـيـ : فـمـا رـأـيـتـ مـالـكـاـ وـجـدـ منـ شـيـءـ كـمـوـجـدـتـهـ منـ مـقـالـتـهـ وـعـلـاهـ الرـحـضـاءـ يـعـنيـ العـرـقـ وأـطـرـقـ الـقـوـمـ . قال : فـسـرـيـ عنـ مـالـكـ فـقـالـ : الـكـيـفـ غـيـرـ مـعـقـولـ ، وـالـاسـتوـاءـ مـنـهـ غـيـرـ مـجـهـولـ ،

و الإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإنني أخاف أن تكون ضالاً ، وأمر به فآخر جـ .

وكان قوله : الكيف غير معقول الخ مأخوذه عمما روي^(١) عن أم سلمة أم المؤمنين في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والتجدد به كفر .

فهذا نحو سلو كهم في ذلك لم يورث منهم شيء إلا ما يوجد في كلام الإمام علي[ؑ] ابن أبي طالب والأئمة من ولده بعده عليهم السلام ونحن نورد بعض ما عثرنا عليه في كلامهم .

ففي التوحيد بسانده عن سلمان الفارسي فيما أجاب به علي[ؑ] الجاثيلق : فقال علي[ؑ] : إن الملائكة تحمل العرش ، وليس العرش كما تظن كهيمة السرير ولكن شئ محدود مخلوق مدبر وربك مالكه لا أنه عليه ككون الشيء على الشيء . الخبر .

وفي الكافي عن البرقي رفعه قال : سأله الجاثيلق عليه[ؑ] فقال : أخبرني عن الله عز وجل يحمل العرش أو العرش يحمله ؟ فقال عليه[ؑ] : الله عز وجل حامل العرش والسماءات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وذلك قول الله عز وجل : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تنزلوا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً » .

قال : فأخبرني عن قوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » فكيف ذاك وقلت : إنه يحمل العرش والسماءات والأرض ؟ فقال أمير المؤمنين عليه[ؑ] : إن العرش خلقه الله تبارك وتعالى من أنوار أربعة : نور أحمر منه أحمرت الحمرة ، ونور أخضر منه أخضرت الخضراء ، ونور أصفر منه أصفرت الصفرة ونور أبيض منه أبيض البياض . وهو العلم الذي حمله الله الحملة ، وذلك نور من نور عظمته بعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين ، وبعظمته ونوره عاده المغاهلون ، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات

(١) رواه في الدر المنشور عن ابن مردويه واللالكاني في السنة عنها .

والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المتشتتة فكل شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فكل شيء محمول؛ والله تبارك وتعالى ألمسك لهما أن تزولا ، والمحيط بهما من شيء ، وهو حياة كل شيء ونور كل شيء سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا .
قال له : فأخبرني عن الله أين هو ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام : هو هبنا و هبنا و فوق وتحت ومحيط بنا ومعنا ، وهو قوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو ربهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » فالكرسي محيط بالسماءات والأرض وما بينهما وما تحت الشري ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، وذلك قوله : « وسع كرسيه السماءات والأرض ولا يؤده حفظهما و هو العلي العظيم » .

فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حملهم الله علمه ، وليس يخرج من هذه الأربعه شيء خلقه الله في ملكته ، وهو ملوكوت الذي أراه الله أصفياءه وأراه خليله فقال : « وكذلك نبي إبراهيم ملوكوت السماءات والأرض ولهم من الموقن » وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حيت قلوبهم ، وبنوره اهتدوا إلى معرفته الخبر .

أقول : قوله أخبرني عن الله عز وجل يحمل العرش أو العرش يحمله الخ ظاهر في أن الجاثليق أخذ الحمل بمعنى حمل الجسم للجسم ، قوله عليه السلام : الله حامل العرش والسماءات والأرض الخ أخذ للحمل بمعناه التحليلي وتقسيئ له بمعنى حمل وجود الشيء وهو قيام وجود الأشياء به تعالى قياماً تبعياً محسناً لا استقلالياً ، ومن المعلوم أن لازم هذا المعنى أن يكون الأشياء محملة له تعالى لا حاملة .

ولذلك لما سمع الجاثليق ذلك سأله عليه السلام عن قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » فإن حمل وجود الشيء بمعنى المتفق يختص به تعالى لا يشاركه فيه غيره مع أن الآية تنسبه إلى غيره ! ففسر عليه السلام ثانياً بحمل العلم و فسر العرش بالعلم .

غير أن ذلك حيث كان يوهم المنافضة بين التفسيرين زاد عليه في توضيح ما ذكره

من كون العرش هو العلم أنّ هذا العلم غير ما هو المبادر إلى الأفهام العامة من العلم وهو العلم الحصولي^١ الذي هو الصورة النفسانية بل هو نور عظمته وقدرته حضرت لهؤلاء الحملة باِذن الله وشوهدت لهم فسمّي ذلك حملة ، وهو مع ذلك محمول له تعالى ولا منافاة كما أنّ وجود أفعالنا حاضرة عندنا محمولة لنا وهي مع ذلك حاضرة عند الله سبحانه وله محمولة له وهو المالك الذي ملّكتنا إياها .

فنور العظمة الإلهية وقدرته الذي ظهر به جميع الأشياء هو العرش الذي يحيط بما دونه وهو ملكه تعالى لكلّ شيء دون العرش وهو تعالى الحامل لهذا النور ثمّ الذين كشف الله لهم عن هذا النور يحملونه باِذن الله ، والله سبحانه وله هو الحامل والمحمول جميعاً .

فالعرش في قوله : « ثمّ استوى على العرش » - وإن شئت قلت : الاستواء على العرش - هو المالك ، وفي قوله : « ويحمل عرش ربّك » الآية هو العلم ، وهما جميعاً واحد ، وهو المقام الذي يظهر به جميع الأشياء ويتمّ كز فيه إجمال جميع التدابير التفصيلية الجارية في نظام الوجود فهو مقام الملك الذي يصدر منه التدابير ، ومقام العلم الذي يظهر به الأشياء . وقوله عليه السلام : فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين الخ يريده أنّ هذا المقام هو المقام الذي ينشأ منه تدبير نظام السعادة الذي وقع فيه مجتمع المؤمنين وتسير عليه قافلتهم في مسیرهم إلى الله سبحانه ، وينشأ منه نظام الشقاء الذي ينبع على جميع المعاندين أعداء الله الباهلين بمقام ربّهم بل المقام الذي ينشأ منه النظام العالمي العام الذي يعيش تحته كلّ ذي وجود ، ويسير به سائرهم للتقرّب إليه بأعمالهم وستّنهم سواء علموا بما هم فيه من ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى أو جهلوا .

وقوله عليه السلام : « وهو حياة كلّ شيء ونور كلّ شيء » كالتعليق المبين لقوله قبله : بكلّ شيء محمول يحمله الله إلى آخر ما قال . ومحصله أنّه تعالى هو الذي به يوجد كلّ شيء ، وهو الذي به يدرك كلّ شيء فيظهر به طريقه الخاصّ به في مسیر وجوده ظهور الطريق المظلم لسائره بواسطة النور فهي لا تملك لأنّ نفسها شيئاً بل الله سبحانه هو المالك لها الحامل لوجودها .

وقوله ﷺ : هو هننا و هننا و فوق و تحت الخ يريده أنَّ الله سبحانه وَهُوَ كَانَ مَقْوِمًا لِوْجُودِ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظًا وَحَامِلًا لَهُ لَمْ يَكُنْ مَحْلٌ مِنَ الْمَحَالِ خَالِيًّا عَنْهُ ، وَلَا هُوَ مُخْتَصٌ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ ، وَكَانَ مَعْنَى كُوْنَهُ فِي مَكَانٍ أَوْ مَعْ شَيْءٍ ذِي مَكَانٍ أَنَّهُ تَعَالَى حَافِظٌ لَهُ وَ حَامِلٌ لَوْجُودِهِ وَمُحِيطٌ بِهِ ، وَهُوَ كَذَا غَيْرِهِ مَحْفُوظٌ بِحَفْظِهِ تَعَالَى وَمَحْمُولٌ وَمَحاطٌ لَهُ .

وهذا يَؤُولُ إِلَى عِلْمِهِ الْفَعْلِيِّ بِالْأَشْيَاءِ ، وَنَعْنَى بِهِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ حَاضِرٌ عَنْهُ تَعَالَى غَيْرُ مَحْجُوبٍ عَنْهُ ، وَلَذِلِكَ قَالَ ﷺ أَوْلًا : « فَالْكَرْسِيُّ » مَحِيطٌ بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الشَّرْقِ » فَأَشَارَ إِلَى الْإِحْاطَةِ ثُمَّ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ : « وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى » فَأَشَارَ إِلَى الْعِلْمِ فَأَنْتَجَ ذَلِكَ أَنَّ الْكَرْسِيَّ » وَيَعْنِي بِهِ الْعَرْشُ مَقَامُ الْإِحْاطَةِ وَالْتَّدِيرِ وَالْحِفْظِ ، وَأَنَّهُ مَقَامُ الْعِلْمِ وَالْحُضُورِ بِعِينِهِ ، ثُمَّ طَبَّقَهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَسَعَ كَرْسِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » آيَةٌ .

وقوله ﷺ : « وَلَيْسَ يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ شَيْءٌ خَلْقُ اللَّهِ فِي مَلْكُوتِهِ » كَأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْأَلْوَانِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذَكُورَةِ فِي أَوْلَى كَلَامِهِ ﷺ وَسِيجِيٌّ كَلَامٌ فِيهَا فِي أَحَادِيثِ الْمَعْرَاجِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وقوله ﷺ : « وَهُوَ الْمَلْكُوتُ الَّذِي أَرَاهُ اللَّهُ أَصْفَيَاهُ » فَالْعَرْشُ هُوَ الْمَلْكُوتُ غَيْرُ أَنَّ الْمَلْكُوتَ اثْنَانِ مَلْكُوتَ أَعْلَى وَمَلْكُوتَ أَسْفَلٍ ، وَالْعَرْشُ لَكُونَهِ مَقَامُ الْإِجَالَ وَبَاطِنَ الْبَابِينِ مِنَ الْغَيْبِ كَمَا سِيَّاسَتِيَّ مَا يَدْلِلُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْرَوَايَةِ كَانَ الْأُخْرَى بِهِ أَنْ يَكُونَ الْمَلْكُوتُ الْأَعْلَى .

وقوله ﷺ : وَكَيْفَ يَحْمِلُ حَمْلَةُ الْعَرْشِ اللَّهُ تَعَالَى كَيْدٌ وَتَثْبِيتٌ لِأَوْلَى الْكَلَامِ : أَنَّ الْعَرْشَ هُوَ مَقَامٌ حَمْلٌ وَجُودُ الْأَشْيَاءِ وَتَقوِيمُهُ فَهُمْ حَمْلُونَ لَهُ سَبَّاحَانُهُ لَا حَامِلُونَ كَيْفٌ وَجُودُهُمْ وَسِيرُ وَجُودُهُمْ يَقُومُ بِهِ تَعَالَى لَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَا عَتَبَارُهُ ﷺ هَذَا الْمَقَامُ الْوَجْدَوِيُّ عَلَمًا عَبَرَ عَنْ وَجُودِهِمْ وَعَنْ كَمَالِ وَجُودِهِمْ بِالْقُلُوبِ ، وَنُورُ الْاَهْتِدَاءِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ إِذَا قَالَ : وَبِحَمَامَتِهِ حَيَّتْ قَلُوبَهُمْ وَبِنُورِهِ اهْتَدَوْا إِلَى مَعْرِفَتِهِ .

وَفِي التَّوْحِيدِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ حَنْسَانَ بْنِ سَدِيرٍ قَالَ : سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ قَالَ : إِنَّ الْعَرْشَ صَفَاتٌ كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ ، لَهُ فِي كُلِّ سُبْبٍ وَضَعْ فِي الْقُرْآنِ صَفَةٌ

على حدة فقوله : « ربُّ العرش العظيم » يقول : ربُّ إِلَكِ الْعَظِيمِ ، وقوله : « الرَّحْمَانُ عَلَى
الْعَرْشِ اسْتَوَى » يقول : عَلَى إِلَكِ احْتَوَى ، وَهَذَا عِلْمُ الْكِيْفَوِيْفَيَةِ فِي الْأَشْيَاءِ .
ثُمَّ العرش في الوصل مفرد^(١) عن الكرسيِّ لِأَنَّهُمَا بَابًا مِنْ أَكْبَرِ أَبْوَابِ الْغَيْوَبِ
وَهُمَا جَمِيعًا غَيْبَانٌ ، وَهُمَا فِي الْغَيْبِ مَقْرُونَانِ لِأَنَّ الْكَرْسِيَّ هُوَ الْبَابُ الظَّاهِرُ مِنَ الْغَيْبِ
الَّذِي مِنْهُ مَطْلَعُ الْبَدْعِ وَمِنْهُ الْأَشْيَاءُ كَلَّهَا ، وَالْعَرْشُ هُوَ الْبَاطِنُ الَّذِي يَوْجَدُ فِيهِ عِلْمُ
الْكِيْفِ وَالْكَوْنِ وَالْقَدْرِ وَالْحَدِّ وَالْأَيْنِ وَالْمَشِيَّةِ وَصَفَةُ الْإِرَادَةِ وَعِلْمُ الْأَلْفَاظِ وَالْحَرْكَاتِ
وَالْتَّرْكِ وَعِلْمُ الْعُودِ وَالْبَدْعِ .

فَهُمَا فِي الْعِلْمِ بَابًا مَقْرُونَانِ لِأَنَّ مَلِكَ الْعَرْشِ سُوَى مَلِكِ الْكَرْسِيِّ ، وَعِلْمُهُ أَغْيَبُ
مِنْ عِلْمِ الْكَرْسِيِّ فَمِنْ ذَلِكَ قَالَ : « ربُّ العرش العظيم » أَيْ صَفَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ صَفَةِ الْكَرْسِيِّ
وَهُمَا فِي ذَلِكَ مَقْرُونَانِ .

قَلْتُ : جَعَلْتَ فَدَاكَ فَلَمْ صَارِ فِي الْفَضْلِ جَارِ الْكَرْسِيِّ ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ صَارَ
جَارِهِ لِأَنَّ عِلْمَ الْكِيْفَوِيْفَيَةِ فِيهِ وَفِيهِ الظَّاهِرُ مِنْ أَبْوَابِ الْبَدْعِ وَإِنْتَهَا وَحدَّ رَفِيقَهَا وَفِتْقَهَا
فِيهِنَّانِ جَارَانِ أَحَدُهُمَا حَمَلَ صَاحِبَهُ فِي الْصَّرْفِ ، وَبِمِثْلِ صَرْفِ الْعُلَمَاءِ ، وَلَيُسْتَدِلُّوا عَلَى
صَدْقِ دُعَاهُمَا لِأَنَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

أَقُولُ : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ لِلْعَرْشِ صَفَاتَ كَثِيرَةٍ الَّتِي يُؤَيِّدُ مَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا أَنَّ
الْاسْتِوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ لَبِيَانِ اجْتِمَاعِ أَزْمَةِ التَّدَايِيرِ الْعَالَمِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي آخرِ
الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ : وَبِمِثْلِ صَرْفِ الْعُلَمَاءِ .

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ « وَهَذَا عِلْمُ الْكِيْفَوِيْفَيَةِ فِي الْأَشْيَاءِ » الْمَرَادُ بِهِ الْعِلْمُ بِالْعُلُلِ الْعَالِيَّةِ
وَإِلَّا سَبَابُ الْقَصْوَى لِلْمَوْجُودَاتِ فَإِنَّ لِفَظَ « كَيْفُ » عَرْفًا كَمَا يُسَأَلُ بِهِ عَنِ الْغَرْضِ الْمُسْمَىِّ
اصْطَلَاحًا بِالْكِيْفِ كَذَلِكَ يُسَأَلُ بِهِ عَنِ سَبَبِ الشَّيْءِ وَلَمَّا يُقَالُ : كَيْفُ وَجَدَ كَذَا ؟ وَكَيْفُ
فَعَلَ زَيْدَ كَذَا وَهُوَ لَا يُسْتَطِعُ ؟

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثُمَّ العَرْشُ فِي الْوَصْلِ مَفْرَدٌ عَنِ الْكَرْسِيِّ الَّتِي مَرَادُهُ أَنَّهُ الْعَرْشُ
وَالْكَرْسِيُّ وَاحِدٌ مِنْ حِيثِ إِنَّهُمَا مَقَامُ الْغَيْبِ الَّذِي يَظْهِرُ مِنْهُ الْأَشْيَاءُ وَيَنْزَلُ مِنْهُ إِلَى هَذَا

(١) مَفْرَدٌ خَلِ.

العالم لكن العرش في الصلة الكلامية تتميز عن الكرسي لأن هذا المقام في نفسه ينقسم إلى مقامين وينشعب إلى بينهما مقر ونان غير متبانين : أحدهما الباب الظاهر الذي يلي هذا العالم ، والآخر الباب الباطن الذي يليه ثم بيّنه قوله : لأن الكرسي هو الباب الظاهر الخ .

قوله ^{عليه السلام} لأن الكرسي هو الباب الظاهر الذي منه مطلع البدع ومنها الأشياء كلّها أي طلوع الأمور البدعة على غير مثال سابق ، ومنها يتحقق الأشياء كلّها لأن جميعها بدعة على غير مثال سابق ، وهي إنما تكون بدعة إذا كان مما لا يتوقع تتحققها من الوضع السابق الذي كان أنتج الأمور السابقة على هذا الحادث التي تذهب هي ويقوم هذا مقامها فيؤول الأمر إلى البداء بمحاجة حكم سبب وإثبات حكم الآخر موضعه فجميع الواقع الحادث في هذا العالم المستندة إلى عمل الأسباب المتزاحمة ، والقوى المتضادة بدع حادثة وبداءات في الإرادة .

وفوق هذه الأسباب المتزاحمة والإرادات المتنافرة التي لا تزال تتنازع في الوجود سبب واحد وارادة واحدة حاكمة لا يقع إلا ما يريد فهو الذي يحجب هذا السبب بذلك السبب ويفير حكم هذه الارادة بتلك الارادة ويفيد إطلاق تأثير كل شيء بغيره كمثل الذي يريد قطع طريق لغاية كذا فأخذني طيّه ، وبينما هو يطوي الطريق يقف احياناً ليستريح زماناً ، فعلة الوقوف ربّما تنازع علة الطي والحركة وتوقفها عن العمل ، والإرادة بغير الإرادة لكن هناك إرادة أخرى هي التي تحكم على الإرادتين جميعاً وتنظم العمل على ما تميل إليه بتقديم هذه تارة وتلك أخرى ، والإرادتان أعني سببي الحركة والسكن وإن كانت كلّ منهما تعمل لنفسها وعلى حدتها وتنازع صاحبتهما لكنهما جمعاً متضقنان في طاعة الإرادة التي هي فوقهما ، ومتعاضدان في إجراء ما يوجبه السبب الذي هو أعلى منها وأسمى .

فالمقام الذي ينفصل به السبيبان المتنافيان وينشا منه تنازعهما بمنزلة الكرسي ، والمقام الذي يظهران فيه متألمين متألفين بمنزلة العرش ، وظاهر أن الثاني أقدم من الأول ، وأنهما يختلفان بنوع من الإجمال والتفصيل ، والبطون والظهور .

وآخر بالمقامين أن يسميا عرشاً وكرسيّاً لأنّ فيما خواص عرش الملك و

كرسيه فإنَّ الكرسيِّ: الَّذِي يَظْهُرُ فِيهِ أَحْكَامُ الْمَلَكِ مِنْ جَهَةِ عَمَالَتِهِ وَأَيْدِيهِ الْعَمَالَةِ، وَكُلُّهُمْ يَعْمَلُ بِحِيَالِ نَفْسِهِ فِي نَوْعٍ مِنْ أُمُورِ الْمُمْلَكَةِ وَشُؤُونِهَا وَرَبِّما تَنَازَعَتِ الْكَرَاسِيَّ فِي قِدْمِ حُكْمِ الْبَعْضِ عَلَى الْبَعْضِ وَنَسْخِ حُكْمِ الْبَعْضِ، لَكُنَّهَا جَمِيعاً تَنَوَّفُ وَتَتَحَدَّدُ فِي طَاعَةِ أَحْكَامِ الْعَرْشِ وَهُوَ الْمُخْتَصُّ بِالْمَلَكِ نَفْسِهِ فَعِنْهُ حُكْمُ الْمَحْفُوظِ عَنْ تَنَازُعِ الْأَسْبَابِ غَيْرِ الْمَنْسُوخِ بَنْسَخِ الْعَمَالَةِ وَالْأَيْدِيِّ، وَفِي عَرْشِهِ إِجْمَالُ جَمِيعِ التَّفَاصِيلِ وَبِاطْنَهُ مَا يَظْهُرُ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَمَالَةِ وَالْأَيْدِيِّ.

وَبِهَذَا الْبَيَانِ يَتَضَعَّفُ مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَأَنَّ الْكَرْسِيَّ هُوَ الْبَابُ الظَّاهِرُ الْخُفْقُولُهُ «مِنْهُ مَطْلُعُ الْبَدْعِ» أَيْ طَلَوعُ الْأُمُورِ الْكَوْنِيَّةِ غَيْرِ الْمَسْبُوقَةِ بِمَثَلِهِ، وَقَوْلُهُ «وَمِنْهَا الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا» أَيْ تَفَاصِيلُ الْخَلْقَةِ وَمَفَرَّاتُهَا الْمُخْتَلِفَةُ الْمُتَشَتَّتَةُ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْعَرْشُ هُوَ الْبَابُ الْبَاطِنُ» قَبْلَ كَوْنِ الْكَرْسِيِّ هُوَ الْبَابُ الظَّاهِرُ، وَالْبَطْوَنُ وَالظَّهُورُ فِيهِمَا بِاعتِبَارِ وَقَوْعَةِ التَّفَرُّقِ فِي الْأَحْكَامِ الصَّادِرَةِ وَعَدْمِ وَقْوَعَهُ، وَقَوْلُهُ: يُوجَدُ فِيهِ الْخُفْقُولُ أَيْ جَمِيعِ الْعِلُومِ وَالصُّورِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَى إِبْجَالِهَا تَفَاصِيلُ الْأَشْيَاءِ . وَقَوْلُهُ: «عِلْمُ الْكَيْفِ» كَأَنَّ الْمَرَادَ بِالْكَيْفِ خَصْوَصِيَّةٌ صُدُورِ الشَّيْءِ عَنْ أَسْبَابِهِ، وَقَوْلُهُ: «وَالْكَوْنُ» الْمَرَادُ بِهِ تَكَمِّلَةُ وَجُودِهِ كَمَا أَنَّ الْمَرَادَ بِالْعُودِ وَالْبَدْءِ أَوْلَى وَجُودَاتِ الْأَشْيَاءِ وَنَهَايَتِهَا وَقَوْلُهُ: «وَالْقَدْرُ وَالْحَدُّ» الْمَرَادُ بِهِمَا وَاحِدٌ غَيْرُ أَنَّ الْقَدْرَ حَالٌ مَقْدَارُ الشَّيْءِ بِحَسْبِ نَفْسِهِ، وَالْحَدُّ حَالُ الشَّيْءِ بِحَسْبِ إِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ وَمَنْعِهِ أَنْ يَدْخُلْ حَوْمَةَ نَفْسِهِ وَيَمْازِجَهُ، وَقَوْلُهُ: «وَالْأَيْنُ» هُوَ النَّسْبَةُ الْمَلْكَيَّةُ، وَقَوْلُهُ «وَالْمَشِيَّةُ وَصَفَةُ الْإِرَادَةِ» هُمَا وَاحِدٌ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا الْمَرَادُ بِالْمَشِيَّةِ اصْلَاهَا وَبِصَفَةِ الْإِرَادَةِ خَصْوَصِيَّتِهِ .

وَقَوْلُهُ: «وَعِلْمُ الْأَلْفَاظِ وَالْمُحْرَكَاتِ وَالْتَّرْكِ» عِلْمُ الْأَلْفَاظِ هُوَ الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ انتِشَاءِ دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ بِارْتِبَاطِهَا إِلَى الْخَارِجِ بِحَسْبِ الْطَّبَعِ فَإِنَّ الدَّلَالَةَ الْوَضْعِيَّةَ تَنْتَهِي بِالْآخِرَةِ إِلَى الْطَّبَعِ، وَعِلْمُ الْمُحْرَكَاتِ وَالْتَّرْكِ، الْعِلْمُ بِالْأَعْمَالِ وَالْتَّرْوِكِ مِنْ حِيثِ ارْتِبَاطِهَا إِلَى الذَّوَاتِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا الْمَرَادُ بِمِجْمَوعِ قَوْلِهِ: «عِلْمُ الْأَلْفَاظِ وَعِلْمُ الْمُحْرَكَاتِ وَالْتَّرْكِ» الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ انتِشَاءِ اعْتِبارَاتِ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي مِنْ الْأَفْعَالِ وَالْتَّرْوِكِ، وَانتِشَاءِ الْلُّغَاتِ مِنْ حَفَائِقِهَا الْمُنْتَهِيَّةِ إِلَى مَنْشَأِ وَاحِدٍ، وَالْتَّرْكُ هُوَ السَّكُونُ النَّسْبِيُّ فِي مَقَابِلِ الْمُحْرَكَاتِ .

وقوله : « لأنّ علم الكيفيّة فيه » الضمير للعرش ، و قوله : « و فيه الظاهر من أبواب البداء » الضمير للكرسيّ ، و البداء ظهور سبب على سبب آخر و إبطاله أثره ، و ينطبق على جميع الأسباب المتفايرة الكونية من حيث تأثيرها .

وقوله عليه السلام : « فهذا جaran أحدهما حمل صاحبه في الصرف » المراد به على ما يؤيده البيان السابق أنّ العرش والكرسيّ جاران متناسيان بل حقيقة واحدة مختلفة بحسب مرتبتي الإيجاز والتفصيل ، وإنما نسب إلى أحدهما أنه حمل الآخر بحسب صرف الكلام وضرب المثل ، و بالأمثال تبيّن المعارف الدقيقة الغامضة للعلماء .

وقوله : « وليستدلّوا على صدق دعواهما » أي دعوى العرش والكرسيّ أي وجعل هذا المثل ذريعة لأن يستدلّ العلماء بذلك على صدق المعرفات الحقة الملقاة عليهم في كيّفية انتشار التدبير الجاري في العالم من مقامي الإيجاز والتفصيل و الباطن و الظاهر . فافهم ذلك .

وفي التوحيد : باسناده عن الصادق عليه السلام أنه سُئل عن قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » الآية ، فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون : إنّ العرش كان على الماء و الرب فوقه ! فقال : كذبوا ، من زعم هذا فقد صير الله محمولاً ووصفه بصفة المخلوقين ، ولزمه أنّ الشيء الذي يحمله هو أقوى منه . قال : إنّ الله حمل دينه وعلمه الماء قبل أن تكون سماء أو أرض أو جنّ أو إنس أو شمس أو قمر .

أقول : وهو كسابقه في الدلالة على أنّ العرش هو العلم ، والماء أصل الخلقة و كان العلم الفعلى متعلقاً به قبل ظهور التفاصيل .

وفي الاحتجاج عن علي عليه السلام : أنه سُئل عن بعد ما بين الأرض و العرش . فقال : قول العبد مختصراً : لا إله إلا الله .

أقول : وهو من لطائف كلامه عليه السلام أخذه من قوله تعالى « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ووجهه أنّ العبد إذا نفي عن غيره تعالى الألوهية بـ خلاص الألوهية والاستغلال له تعالى أوجب ذلك نسيان غيره ، والتوجّه إلى مقام استئناد كلّ شيء إليه تعالى ، وهذا

هو مقام العرش على مامر ^{بيانه}.

ونظيره في اللطافة قوله ^{تَعَالَى} وقد سُئل عن بعد ما بين الأرض والسماء : مد البصر ودحوة المظلوم .

وفي الفقيه وال المجالس والعلل للصدقون : روی عن الصادق ^{عليه السلام} أنّه سُئل لمسمى الكعبة كعبه ؟ قال : لأنّها مربعة فقيل له : ولم صارت مربعة ؟ قال : لأنّها بحداء البيت المعمور وهو مربع . فقيل له : ولم صار البيت المعمور مربعاً ؟ قال : لأنّه بحداء العرش وهو مربع ، فقيل له : ولم صار العرش مربعاً ؟ قال : لأنّ الكلمات التي فني عليها إسلام أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، والإله لا إله ، والله أكبر . الحديث .

أقول : وهذه الكلمات الأربع ولاها : تتضمن التنزيه والتقديس والثانية التشبيه والثناء ، والثالثة التوحيد الجامع بين التنزيه والتشبيه والرابعة : التوحيد الأعظم المختص بالإسلام ، وهو أنّ الله سبحانه أكبر من أن يوصف فإنّ الوصف تقيد وتحديد وهو تعالى أجل من أن يحدد حد ويفيده قيد ، وقد تقدّم نبذة عن الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : «لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة» الآية .

وبالجملة يرجع المعنى إلى تفسيره بالعلم على ما مرّ ، والروايات المختلفة في هذا المعنى كثيرة كما ورد أنّ آية الكرسي ^{وآخر البقرة} وسورة محمد من كنوز العرش ، وما ورد أنّ ص نهر يخرج من ساق العرش ، وما ورد أنّ الأفق المبين قاع بين يدي العرش فيه أنهار تطرد فيه من القدران عدد النجوم .

وفي تفسير القمي ^{عن عبد الرحيم الأنصاري عن الصادق ^{عليه السلام} قال : سأله عن «نـ والقلم» قال : إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها : الخلد ، ثم ^ـ قال لنهر في الجنة : كن مداداً فيجد النهر ، وكان أشدّ بياضاً من الشليح وأحلى من الشهد . ثم ^ـ قال للقلم : اكتب . قال : يا ربّ ما أكتب ؟ قال : اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيمة فكتب القلم في رق أشدّ بياضاً من الفضة وأصفي من الياقوت ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ، ولا ينطق أبداً فهو الكتاب المكتون الذي منه النسخ كلّها (الحديث) وسيجيئ تمامه في سورة نـ إنشاء الله تعالى .}

أقول : وفي معناها روايات أخرى ، وفي بعضها لما استزاد الرواية بياناً وأصرّ عليه قال ﷺ: القلم ملك واللوح ملك ، فيبين بذلك أنّ ما وصفه تمثيل من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس لتفہیم الغرض .

وفي كتاب روضة الوعظين عن الصادق عن أبيه عن جده ﷺ قال : في العرش تمثال ما خلق الله في البر والبحر . قال : وهذا تأويل قوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّ له إلا بقدر معلوم » .

أقول : أي وجود صور الأشياء وتماثيلها في العرش ، هو الحقيقة التي يبنت علىها بيان الآية ، وقد تقدّم توضيحة معنى وجود صور الأشياء في العرش ، وفي معنى هذه الرواية ما ورد في تفسير دعاء « يا من أظهر الجميل » .

وفيه أيضاً عن الصادق عن أبيه عن جده ﷺ في حديث : « وإن بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خلقان الطير المسرع مسيرة ألف عام ، والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله ، والأشياء كلّها في العرش كحلقة في فلأة .

أقول : والجملة الأخيرة مما نقل عن النبي ﷺ من طرق الشيعة وأهل السنة ، والذى ذكره ﷺ بناءً على ما تقدّم تمثيل ، ونظائره كثيرة في رواياتهم ﷺ .

ومن الدليل عليه أنّ ما وصف في الرواية من عظم العرش بأي حساب فرض يوجد الدوائر التي ترسمها الأشعة النورية ما هي أعظم منه بكثير فليس التوصيف إلا لتقريب المعقول من الحسّ .

وفي العمل عن عمل محمد بن سنان عن الرضا ﷺ : علة الطواف بالبيت أنّ الله تبارك وتعالى قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، فرددوا على الله تبارك وتعالى هذا الجواب فعلموا أنّهم أذنوا فندموا فلاذوا بالعرض واستغفروا فأحبّ الله عزّ وجلّ أن يتبعـد بمثل ذلك العباد فوضع في السماء الرابعة بيته بحذاء العرش يسمى «الضراح» ثم وضع في السماء الدنيا بيته يسمى «البيت المعمور» بحذاء الضراح ثم وضع البيت بحذاء البيت المعمور ثم أمر آدم فطاف به فجرى

في ولده إلى يوم القيمة . الحديث .

اقول : الحديث لا يخلو عن الغرابة من جهات ، وكيف كان فبناءً على تفسير العرش بالعلم يكون معنى لواز الملائكة بالعرش هو اعتراضهم بالجهل وإرجاع العلم إليه سبحانه حيث قالوا : «سبحانك لاعلم لنا إِلَّا مَا عَلِمْتَنَا إِنْكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» وقد من الكلام في هذه القصة في أوائل سورة البقرة . وفي الرواية ذكر الشراح و البيت المعمور في السماء ومعظم الروايات تذكر في السماء بيتاً واحداً وهو البيت المعمور في السماء الرابعة ، وفيها إثبات الذنب للملائكة وهم معصومون بنص القرآن ، ولعل المراد من العلم بالذنب العلم بنوع من القصور .

وأما كون الكعبة بحذاء البيت المعمور فالظاهر أنه محاذة معنوية لا حسنية جسمانية ، ومن الشاهد عليه قوله «فوضع في السماء الرابعة بيتاً بحذاء العرش» إذ المحصل من القرآن والحديث أنّ العرش والكرسي محيطان بالسماءات والأرض ، ولا يتحقق معنى المحاذة بين المحيط والمحيط إذا كانت الإحاطة جسمانية .

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام : أن حملة العرش أحدهم على صورة ابن آدم يسترزق الله ولدآدم . والثاني على صورة الدب يُسترزق الله للطير ، والثالث على صورة الأسد يسترزق الله للسباع ، والرابع على صورة الثور يسترزق الله للبهائم ، ونكس الثور رأسه منذ عبد بنو إسرائيل العجل فإذا كان يوم القيمة صاروا ثمانية . الخبر .

اقول : والأخبار فيما يقرب من هذا المعنى كثيرة متضاغفة ، وفي بعضها عدد الأربع حملة للكرسي ، وهو الخبر الوحيد الذي يذكر للكرسي حملة - فيما عثرنا عليه . وقد أوردناها في تفسير آية الكرسي في سورة البقرة .

وفي حديث آخر : حملة العرش ثمانية : أربعة من الأوّلين وأربعة من الآخرين : فأما الأربعة من الأوّلين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وأما الأربعة من الآخرين : فمحمد وعلي والحسن والحسين عليهما السلام .

اقول : بناءً على تفسير العرش بالعلم لا ضير في أن تعدد أربعة من الملائكة حملة له

ثم تعدد عدّة من غيرهم حملة له .

اقول : و الروايات في العرش كثيرة متفرقة في الأبواب ، وهي تؤيد ما منّ تفسيره بالعلم ، ومما ظهر مافي الجسمية منها ، مفسرة بما تقدّم وأمّا كون العرش جسماً في هيئة السرير موضوعاً على السماء السابعة فممّا لا يدلّ عليه حديث يعبأ بأمره بل من الروايات ما يكذّب كالرواية الأولى المتفقّدة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « خلق السموات والأرض في ستة أيام » الآية
قال : قال عليه السلام : في ستة أوقات .

وفي تفسير البرهان : صاحب ثاقب المناقب أسنده إلى أبي هاشم الجعفري عن محمد ابن صالح الأرماني قال : قلت لأبي محمد العسكري عليه السلام عن قوني عن قول الله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » فقال : لله الأمر من قبل أن يأمر و من بعد أن يأمر ما يشاء ، فقلت في نفسي هذا تأويل قول الله : « ألا له الخلق والأمر رب العالمين » فأقبل علي وقال : هو كما أسررت في نفسك : ، ألا له الخلق والأمر رب العالمين .

اقول : معناه أن قوله : ألا له الخلق والأمر » يفيد إطلاق الملك قبل الصدور وبعده لا كمثلنا حيث نملك الأمر - فيما نملك - قبل الصدور فإذا صدر خرج عن ملكتنا و اختيارنا .

وفي الدر المنشور أخرج ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله عليه السلام : من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح و حمد نفسه فقد كفرو حبط ما عمل ، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أبيائه لقوله : ألا له الخلق والأمر رب العالمين .

اقول : المراد من الكفر بالعجب هو الكفر بالنعمة أو بكون الحسنات لله على ما يدل عليه القرآن ، والمراد بنفي كون شيء من الأمر للعباد نفي الجعل بنحو الاستقلال دون التبعي من الملك والأمر .

وفي الكافي بإسناده عن ميسرة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت قول الله عزوجل « ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » قال : فقال : يا ميسرة إن الأرض كانت فاسدة فأحيتها الله عزوجل بنبيه ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها .

اقول : ورواه العياشي في تفسيره عن ميسير عن أبي عبدالله عليهما السلام مرسلأ .
 وفي الدر المنشور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى قال :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا
 فكانت منها بقية فبلى الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجداب أمسكت
 الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيungan
 لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ،
 ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .



٢٠٣

لـ

رسالة

* * *

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكُمْ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكُنْتُنِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
(٦١) ابْغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَانْصُحْ لَكُمْ وَاعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْ
عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِقَاتُوكُمْ وَلَعْلَكُمْ
تَرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَانْجِنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِأَيْمَانِهِمْ كَانُوا أَقْوَمًا عَمِينَ (٦٤) .

* (بيان) *

تعقيب لما تقدّم من الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك بالله سبحانهه والتکذيب
لآياته بذكر قصة نوح عليه السلام وإرساله إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله وترك عبادة غيره
وماوا جهته به عامة قومه من الإنكار والإصرار على تکذيبه فأرسل الله إليهم الطوفان و
أنجى نوحًا والذين آمنوا معه ثم أهلك الباقين عن آخرهم . ثم عقب الله قصته بقصص عدة
هن رسلاه كهود صالح وشعيب ولوط وموسى عليهما السلام للغرض بعينه .

قوله تعالى : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» إلى آخر الآية . بده الله سبحانهه بقصته
وهو أول رسول يذكر الله سبحانهه تفصيل قصته في القرآن كما سيأتي تفصيل القول في قصته
في سورة هود إن شاء الله تعالى .

واللام في قوله : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» للقسم جي ، بها التأكيد لأنّ وجه الكلام إلى
المشركين وهم ينكرون النبوة ، و قوله : «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ»

ناداهم بقوله : «يَا قَوْمٌ فَأَضَافُهُمْ إِلَى نَفْسِهِ لِيَكُونُ جَرِيًّا عَلَى مَقْتَضِي النَّصْحِ الَّذِي سِيَخْبُرُهُمْ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَدِعَاهُمْ أَوْلَى مَا دِعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ دِعَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنْتِقَاءِ كُلِّ إِلَهٍ غَيْرِهِ فَيَكُونُ دُعَوةً إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ غَيْرُهُ ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ .

ثُمَّ أَنذَرَهُمْ بِقَوْلِهِ : «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمَ عَظِيمٍ» وَظَاهِرُهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ دُعَوةً إِلَى أَصْلَيْنِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَهُمَا التَّوْحِيدُ وَالْمَعَادُ وَأَمَّا الْأَصْلُ ثَالِثٌ وَهُوَ النَّبُوَّةُ فَسِيَصْرَحُ بِهِ فِي قَوْلِهِ : «يَا قَوْمَ لِيَسْ بِي ضَلَالٌ وَلَكُنْتُمْ رَسُولًا» الآيَةُ .
عَلَى أَنَّ فِي نَفْسِ الدُّعَوَةِ وَهِيَ دُعَوةً إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْعِبَادَةِ لَا يَعْرُفُونَهَا وَكَذَا إِنْذارًا بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَهُ وَهُوَ عَذَابُ الْقِيَامَةِ إِشْعَارًا بِالرِّسَالَةِ مِنْ قَبْلِ مَنْ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَمِنَ الشَّاهِدِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي جَوَابِهِ : «أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكْرُ مَنْ رَبُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيَنذِرَكُمْ» فَإِنَّهُ يَدْلِلُ عَلَى تَعْجِيبِهِمْ مِنْ رِسَالَتِهِ بِاستِمَاعِ أَوْلَى مَا خَاطَبُهُمْ بِهِ مِنَ الدُّعَوَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ : «يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» .

قَوْلُهُ تَعَالَى : «قَالَ أَمَلًا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكِ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أَمَلًا هُمْ أَشَرَافُ الْقَوْمِ وَخَوَاصُهُمْ سَمِّوْا بِهِ لَا نَهْمَ يَمْلَؤُونَ الْقُلُوبَ هِبَةً وَالْعَيْوَنَ بَهْلًا وَزِينَةً ، وَإِنَّمَا رَمَوُا بِالضَّلَالِ الْمُبِينِ وَأَكْدُوهُ تَأْكِيدًا شَدِيدًا لَا نَهْمَ لَمْ يَكُونُوا لِيَتَوقَّعُوا أَنَّ مُعْتَرِضًا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ بِالْدُّعَوَةِ إِلَى رُفْضِ آلِهَتِهِمْ وَتَوْجِيهِ الْعِبَادَةِ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ بِالرِّسَالَةِ وَإِنْذارٌ فَتَعْجِبُهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَأَكْدُوا ضَلَالَهُ مَدْعَينَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الضَّلَالِ تَحْقِيقًا . وَالرُّؤْيَا هِيَ الرُّؤْيَا بِحسبِ الْفَكْرِ أَعْنَى الْحَكْمِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : «قَالَ يَا قَوْمَ لِيَسْ بِي ضَلَالٌ» الآيَةُ أَجَابُهُمْ بِنَفْيِ الضَّلَالِ عَنْ نَفْسِهِ وَالْأَسْتَدْرَاكُ بِكُونَهُ رَسُولًا مِنَ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ ، وَذَكْرُهُ بِوَصْفِهِ «رَبُّ الْعَالَمِينَ» لِيَجْمِعَ لَهُ الْبُوَيْسَةَ كُلُّهَا قَبْلَ تَقْسِيمِهِمْ إِيَّاهَا بَيْنَ آلِهَتِهِمْ بِتَخْصِيصِ كُلِّ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِنْ شَوْوَنَهَا وَأَبْوَابِهَا كَرْبَوْيَةُ الْبَحْرِ وَرَبَوْيَةُ الْأَرْضِ وَرَبَوْيَةُ السَّمَاءِ وَغَيْرُ ذَلِكَ .
وَقَدْ جَرَّ دَلَائِلًا جَوَابِهِ عَنِ التَّأْكِيدِ لِلإِشَارَةِ إِلَى ظَهُورِ رِسَالَتِهِ وَعَدْ ضَلَالَتِهِ تَجَاهَ إِصْرَارِهِمْ بِذَلِكَ وَتَأْكِيدِهِمْ دُعَاهُمْ .

قوله تعالى : « أُبلغكم رسالات ربِّي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون » أخبرهم بأوصاف نفسه فيَّنْ أنه يبلغهم رسالات ربِّه ، وهذا شأن الرسالة ومقتضها القريب الضروري ، وفي جمع الرسالة على كونها كثيرة وأنَّ له مقاصد أمره ربِّه أن يبلغها إِيَّاهُم وراء التوحيد والمعاد فِي نَبِيِّهِ رسول من أولي العزم صاحب كتاب وشريعة .

ثم ذكر أنَّه ينصح لهم وهو عظاته بالإنذار والتبيشير ليغرس بهم من طاعة ربِّهم ويعدهم عن الاستكبار والاستنكاف عن عبوديته كل ذلك بذكراً ماعرَّفَهُ الله من بيده الخلقه وعدوها وسننه تعالى الجارية فيها ، ولذا ذكر ثالثاً أنَّه يعلم من الله ما لا يعلمون كوقائع يوم القيمة من التواب والعقاب وغير ذلك ، وما يستتبع الطاعة والمعصية من رضاه تعالى وسخطه ووجوه نعمه ونقمه .

ومن هنا يظهر أنَّ الجمل الثلاث كلَّ مسوق لغرض خاصٌّ أعني قوله : « أُبلغكم » الآية و«أنصح لكم» و«أعلم» الآية وهي ثلاثة أوصاف متواتية لا كما قيل : إنَّ الأوليان صفتان ، والثالثة جملة حالية عن فاعل « وأنصح لكم » .

قوله تعالى : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربِّكم » إلى آخر الآية استفهمان إنكارياً ينكر تعجبهم من دعوه الرسالة ودعوته إِيَّاهُم إلى الدين الحقّ وإن مراد بالذكر ما يذكر به الله وهو المعرف الحقة التي أُوحِيتُ إِلَيْهِ ، وقوله : « من ربِّكم » متعلق بمقدار أي ذكر كائن من ربِّكم .

وقوله : « لينذركم » و« لتقسووا » و« لعلّكم ترجمون » متعلقات بقوله : « جاءكم » ومعنى لغرض أن ينذركم الرسول ، ولتقسووا أنتم ، ويؤدي ذلك إلى رجاء أن تشملكم الرحمة الالهية فإنَّ التقوى وإن كان يؤدي إلى النجاة لكنها ليست بعلمة تامة ، وقد اشتمل ما حكى من إنجاز كلامه على معارف عالية إلهية .

قوله تعالى : « فكذّ بوه فأنجيناه والذين معه في الفلك » الفلك السفينة يستعمل واحداً وبعما على ما ذكره الراغب ويذكُر ويؤونَّ كما في الصحاح ، وقوله : « قوماً عميّن » موصوف وصفة . وعmin بجمع عمي كخشن صفة مشبّهة من عمي يعمى ، عمي كالأعمى إِنَّ العمي يختصُّ بعمى البصرة والأعمى بعمى البصر . كما قيل ، ومعنى الآية ظاهر .

* * *

وَإِلَيْيَ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٌ قَالَ يَا قَوْمٍ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ إِفْلَأٌ
 تَنْقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيْكُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُمَكُمْ
 مِنَ الْكَادِيَنَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمٍ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٍ وَلَكُنْتُمْ رَسُولُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)
 أَبْلَغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُمْ نَاصِحٌ إِمَّا مِنْ
 رِبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَإِذْ كَرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خَلِفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ نُوحٍ
 وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بِصَطَّةً فَإِذْ كَرُوا أَلَاءَ اللَّهِ لَعْنَكُمْ تَفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا
 إِنَّا جَعَلْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ أَبَاوْنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كَفَتْ مِنَ
 الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رِبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضْبٌ أَتَجَادُ لُوْنَى فِي
 أَسْمَاءِ سَمَيَّتْهُمْ وَهَا أَنْتُمْ وَأَبْأَوْكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوْا إِنَّى
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (٧١) فَانْجِيَّنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْنَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِأَيْمَانِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٣) .

(بيان)

قوله تعالى : « وَإِلَيْيَ عادٍ أَخَاهُمْ هُودٌ قَالَ يَا قَوْمٍ اعْبُدُوا اللَّهَ » إلى آخر الآية
 الآخر وأصله أخو هو المشارك غيره في الولادة تكونيناً ملن ولده وغيره أب أو أم أو هما معاً ،
 أو بحسب شرع الهي ” كالآخر الرضاعي ” أو سنة اجتماعية كالآخر بالدعاء على ما كان يراه
 أقوام فهذا أصله ثم استعير لكل من ينتسب إلى قوم أو بلدة أو صنعة أو سجية و نحو

ذلك يقال : أخوبني تميم وأخو يشرب وأخو الحياكة وأخو الكرم ، ومن هذا الباب قوله : « وإلى عاد أخاهم هوداً .

والكلام في قوله : « قال يا قوم عبدوا الله ما لكم من إله غيره » كالكلام في نظير الخطاب من القصة السابقة . فإن قلت : لم حذف العاطف من قوله « قال يا قوم » ولم يقل : فقال كما في قصة نوح ؟ قلت : هو على تقدير سؤال كأنه لما قال : « وإلى عاد أخاهم هوداً » قيل : فما قال هود ؟ فاجيب وقيل : قال يا قوم عبدوا الله الآية كذا قاله الزمخشري في الكشاف .

ولا يجري هذا الكلام في قصة نوح لأنّه أول قصة أوردت ، وهذه القصة قصة بعد قصة يهياً فيها ذهن المخاطب للسؤال بعد ما وعى إحال القصة وعلم أنّ قصة الرسال تتضمن دعوة هوداً وقبولاً فكان بالحربي إذا سمع المخاطب قوله « وإلى عاد أخاهم هوداً » أن يسأل فيقول : ما قال هود لقومه ؟ وجوابه قال لهم النحو .

قوله تعالى : « قال املاً الذين كفروا من قومه » إلى آخر الآية . لما كان في هذا الملاً من يؤمن بالله ويستر إيمانه كما سيأتي في القصة بخلاف الملاً من قوم نوح قال هنا في قصة هود : « قال املاً الذين كفروا من قومه » وقال في قصة نوح : « قال املاً من قومه » كذا ذكره الزمخشري وقوله تعالى حكاية عن قولهم : « إنّا لنريك في سفاهة وإنّا لننظرك من الكاذبين » أكدوا كلامهم مرّة بعد مرّة لأنّهم سمعوا منه مقالاً ما كانوا ليتوقعوا صدوره من أحد ، وقد أخذت آلهتهم موضعها من قلوبهم ، واستقرّت سنّة الوثنية بينهم استقراراً لا يجترئ معه أحد على أن يعرض عليها فتعجبوا من مقاله فردوه ردّاً عن تعجب ، فجربوه أولًا لأنّ فيه سفاهة وهو خفة العقل التي تؤدي إلى الخطأ في الآراء ، ثانياً بأنّهم يظنون بطنّ قويّ جدًا أنه من الكاذبين ، وكأنّهم يشرون بالكافر إلى أنبيائهم لأنّ الوثنين ما كانوا ليذعنوا بالنبوة وقد جاءهم أنبياء قبل هود كما يذكره تعالى بقوله : « وتلك عاد جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله »

هود : ٥٩

قوله تعالى : « قال يا قوم ليس بي سفاهة » الكلام في الآية نظير الكلام في

نظيره من قصّة نوح غير أُنْ عاداً زادوا وقاحة على قوم نوح حيث إِنَّ أُولئك رموا نوحاً بالضلال في الرأي وهؤلاء رموا هوداً بالسفاهة لكن هوداً لم يترك ما به من وقار النبوة، ولم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوة الإلهيَّة فأجابهم بقوله : «يا قوم» فاظهر عطفته عليهم وحرصه على إنجائهم «ليس بي سفاهة ولكنني رسول من رب العالمين» فجبرى على تجرييد الكلام من كل تأكيد واكتفى بمجرد رد تهمتهم وإثبات ما كان يدعوه من الرسالة للدلالة على ظهوره .

قوله تعالى : «أُبلغكم رسالات ربِّي وأنا لكم ناصح أمين» أي لا شأن لي بما أُنْبيِّي رسول إِلَّا تبليغ رسالات ربِّي خالصاً من شوب ما تظنون بي من كوني كاذباً فلست بغاش لكم فيما أُريد أن أحملكم عليه ، ولا خائن لما عندي من الحق بالتغيير ولا لما عندي من حقوقكم بالإضاعة ، فما أُريد منكم من التدين بدین التوحيد هو الذي أراه حقاً ، وهو الذي فيه نفعكم وخيركم ، فإنّما وصف نفسه بالإيمان محاذة لقولهم : «وإِنَّا لننظركم الكاذبين» .

قوله تعالى : «أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكْرُ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَى آخر الآية . البصطة هي البسطة قليلاً مجاورتها الطاء وهو من حروف الإطباق كالصراط والسراط . والآلة جمع ألى بفتح الهمزة وكسرها بمعنى النعمة كأنه جمع أنى وانى .

ثم أُنكر عليهم تعجبهم من رسالته إليهم نظير ما تقدّم من نوح عليه السلام وذكرهم نعم الله عليهم ، وخصّ من بينها نعمتين ظاهرتين هما أَنَّ الله جعل لهم خلفاء في الأرض بعد نوح ، وأنَّ الله خصّهم من بين الأقوام ببسطة الخلق وعظم الهيكل البدنى المستلزم لزيادة الشدة والقوة ، ومن هنا يظهر أَنَّهم كانوا ذوي حضارة وتقدير ، وصيت في الأساس والقدرة . ثم أُتبعهما بالإشارة إلى سائر النعم بقوله تعالى : «فَادْكُرُوا آلَاءَ الله لِعَلَّكُمْ تَفْلِحُون» .

قوله تعالى : «قَالُوا أَجَئْنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَه وَنَذِرْ مَا كَانَ يَعْبُدَ آباؤُنَا» الآية فيه تعلق منهم بتقليد الآباء ، وتعجيز هود مشوباً بنوع من الاستهزاء بما اندرهم به من العذاب .

قوله تعالى : « قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » إلى آخر الآية . الرّجس والرّجز هو الأمر الذي إذا وقع على الشيء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه ، ولذا يطلق على القاذورة لأنّ « إِنَّ اِنْسَانَ يَتَنَفَّرُ وَيَبْعَدُ عَنْهُ ، وَعَلَى الْعَذَابِ لَا نَّعْذَبُ » المعدّب - اسم مفعول - يبتعد عنّمن يعذّبه أؤمن الناس الآمنين من العذاب .

أجباهم بأنّ إصرارهم على عبادة الأوثان بتقليد آباءهم أوجب أن يتحقق عليهم البعد عن الله بالرجس والغضب ؛ ثم فرّع عليه أن هددهم بما يستعجلون من العذاب ، وأخبرهم بنزوله عليهم لا محالة ، وكثّى عن ذلك بأمرهم بالانتظار وإخبارهم بأنّه مثلهم في انتظار نزول العذاب فقال : « فَانْتَظِرُوْا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظَرِيْنَ » .

وأمّا قوله : « أَتَبْجَدُ لَوْنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمِّيَّتُهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » فهو ردّ لما استندوا إليه في اللوهية آلهتهم وهوأنّهم وجدوا آباءهم على عبادتها - وهم أكمـلـ منهم وهمـنـ في طبقتهم كهودـ وأعقلـ . فيجب عليهم أن يقلدوـهمـ .

ومحصلةـ أنـكمـ وآباءـكمـ سـوـاءـ فيـ أـنـكـمـ جـمـيعـاـ أـتـيـتـمـ بـأـشـيـاءـ لـيـسـ لـكـمـ عـلـىـ ماـ أـدـعـيـتـ من صفتـهاـ وهيـ الـلوـهـيـةـ منـ سـلـطـانـ وـهـوـ الـبـرـهـانـ وـالـحـجـةـ الـقـاطـعـةـ فـلـاـ يـبـقـيـ لـهـاـ مـنـ الـلوـهـيـةـ إـلـاـ أـسـمـاءـ الـتـيـ سـمـيـتـهـاـ بـهـاـ إـذـ قـلـتـمـ : إـلـهـ الـخـصـبـ وـإـلـهـ الـحـرـبـ وـإـلـهـ الـبـرـ ، وـلـيـسـ لـهـذـهـ الـاسـمـاءـ مـصـادـيقـ إـلـاـ فـيـ أـوـهـاـمـكـمـ . فـهـلـ تـبـجـدـ لـوـنـيـ فـيـ الـاسـمـاءـ ، وـلـلـإـنـسـانـ أـنـ يـسـمـيـ كـلـ مـاـ شـاءـ بـمـاـ شـاءـ إـذـ لـمـ يـعـتـبـرـ تـحـقـقـ الـمـعـنـىـ فـيـ الـخـارـجـ .

وقد تكرّر في القرآن الاستدلال على بطلان الوثنية بهذا البيان : « أسماء سميّتُوها أنتُمْ وآباؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » وهو من ألطاف البيان وأرقه ، وأبلغ الحجّة واقطعها إذ لو لم يأت الإنسان ما يدعوه بحجّة برهانية لم يبق ما يدعوه من النعوت إلـا التـسـمـيـةـ وـالـتـعـبـيرـ ، ومن أبده الجهل أن يعتمد إلـا إنسـانـ عـلـىـ مـشـلـ هـذـهـ النـعـوتـ المـوـهـوـمـ .

وهذا البيان يطرد ويجرّي بالتحليل في جميع الموارد التي يشق فيها إلـا إنسـانـ على غير الله سبحانه من الأسباب ، ويعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلق قلبه بها ، وطاعته لها ، وقرّ به منها فإنّ الله سبحانه هدّ في موارد من كلامه طاعة غيره والرّكون إلى من سواه عبادة

له قال : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مِّنْ أَنفُسِكُمْ وَأَنْ أَعْبُدُنِي » .

قوله تعالى : فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنْنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، تَنْكِيرُ الرَّحْمَةِ لِلَّدْلَالَةِ عَلَى النَّوْعِ أَيْ بِنَوْعِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَهِيَ الرَّحْمَةُ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّصْرَةِ الْمَوْعِدَةِ لِهِمْ قَالَ تَعَالَى : « إِنَّا لَنَنْصُرَ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْاَشْهَادُ » اَمْؤْمِنٌ : ٥١
وقال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » الرُّومُ : ٤٧ .

وقوله : « وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » الْآيَةُ كُنْيَةٌ عَنْ إِهْلَاكِهِمْ وَقَطَعْ نَسْلَهُمْ فَإِنَّ الدَّابِرَ هُوَ الَّذِي يُلِي الشَّيْءَ مِنْ خَلْفِهِ فَرِبِّمَا وَصَفَ بِهِ الْأُمْرُ السَّابِقُ عَلَى الشَّيْءِ كَمُسْ
الدَّابِرَ ، وَرِبِّمَا وَصَفَ بِهِ الْلَّاْحَقُ كَدَابِرِ الْقَوْمِ وَهُوَ الَّذِي فِي آخِرِهِمْ فَنْسِبَةُ الْقِطْعَةِ إِلَى
الدَّابِرِ بِعِنْيَةٍ أَنَّ النَّسْلَ الْلَّاْحَقَ دَابِرٌ مُتَّصِلٌ بِالْإِنْسَانِ فِي سَبْبِ مُمْتَدٍ ، وَإِهْلَاكِ الْإِنْسَانِ
كَذَلِكَ كَأَنَّهُ قَطَعَ هَذَا السَّبْبَ الْمَوْصُولَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَسْلِهِ .

وَسِيَّاطِي تَفْصِيلُ الْبَحْثِ عَنْ قَصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ الْمُبَارَكَاتُ في تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .



لَهُ

طَهَّر

مَيِّنَة

تَعْنَى

رِبَّهُ نَاسَ

دَلِيلَهُ

قَلْبَهُ هَاجَسَهُ

وَإِلَى شَمْوَدَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 قَدْ جَاءَكُمْ بِيَنْتَهِيَةِ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ أَيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ
 وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَا خَذُوهَا عَذَابُ الْيَمِّ (٧٣) وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خَلْفَكُمْ مِنْ
 بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّا كُمْ فِي الْأَرْضِ تَقْتَلُونَ مِنْ شَهْوَاهُمْ قُصُورًا وَأَنْجَحْتُونَ الْجِبَالَ
 يَئُوْتَا فَإِذْ كَرِبُوا أَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدُينَ (٧٤) قَالَ الْمُلَائِكَةُ لِلَّذِينَ
 اسْتَكَبُرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِمَنْ أَمْنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَالِحًا هُرْسَلَ
 مِنْ رَبِّهِ قَاتَلُوا إِنَّا بِمَا أَرْسَلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكَبُرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 أَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَاحِحُ الْقِنَا
 بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جَائِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّتِي عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَّبْتُ لَكُمْ
 وَلِكُنْ لَا تَتَبَعُونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

﴿بيان﴾

قوله تعالى : «والى شمود أخاهم صالحًا» إلى آخر الآية . شمود أمة قديمة من العرب سكنتها أرض اليمن بالأحلاف بعث الله إليهم «أخاهم صالحًا» وهو منهم «فقال ياقوم عبدوا الله مالكم من إله غيره» دعاهم إلى التوحيد وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام على النحو الذي دعا نوح وهود عليهما السلام قومهما المشركون .

وقوله : «قد جاءتكم بيسنة من ربكم» أي شاهد قاطع في شهادته و يبيّنه قوله

بالإشارة إلى نفس البيّنة: «هذه ناقة الله لكم آية» وهي الناقة التي أخرجها الله لهم من الجبل آية لنبوّته بدعائه عليهما ، وهي العناية في إضافة الناقة إلى الله سبحانه .
وقوله : «فذروهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ» الآية تفرّيع على كون الناقة آية لله ، وحكم لا يخلو عن تشديده عليهم يستتبع كلمة العذاب التي تفصل بين كل رسول وأمّته قال تعالى «ولكل أُمّة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» يونس : ٤٧ ، و في الآية تلوّيح إلى أن تخليةهم الناقة و شأنها في الأكل والسير في الأرض كانت عما يشق عليهم فكانوا يتحرّجون من ذلك ، وفي قوله : «في أرض الله» إيماء إلى فو صاحم و حذّرهم أن يمنعوها من إطلاقها و يمسّوها بسوء كالعقر والنحير فإنّ وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم .

قوله تعالى : «وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ» إلى آخر الآية . دعاهم إلى أن يذكروا نعم الله عليهم كما دعا هودا إلى ذلك ، و ذكرهم أن الله جعلهم خلفاء يخلفون أمّاً من قبلهم كعاد ، و بوآهم من الأرض أي مكّنهم في منازلهم منها ، يستخدون من سهولها - والسهل خلاف الجبل سمي به لسهولة قطعه - قصوراً وهي الدور التي لها سور على ما قيل ، وينجتون الجبال بيوتا يأوون إليها ويسكنونها .

ثم جمع الجميع ولخصها في قوله : «فَادْكُرُوا آلَاهَ اللَّهِ» وأوردده في صورة التفرّيع مع أنه إجمال للتفصيل الذي قبله بإيهام المغایرة كأنه لـما أمر بذلك النعم وعد من تفاصيل النعم أشياء كانوا لهم لا يعلمون بها قيل ثانيا : فإذا كان الله فيكم آلاء نعم عظيمة أمثال التي ذكرت فاذكروا آلاء الله .

وأمّا قوله : «وَلَانْتَشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» فمعطوف على قوله : «فَادْكُرُوا» عطف اللازم على ملزومه ، و فسر العشيّ بالفساد و فسر بالاضطراب و المبالغة قال الراغب في المفردات : العشي والعشيّ يتقابلان نحو جذب وجذب إلا أن العشي أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسناً ، والعشيّ فيما يدرك حكماً يقال : عشي يعشى شيئاً ، وعلى هذا : «فلا ينشوا في الأرض مفسدين» . انتهى .

قوله تعالى : «قَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ اسْتَكَبُرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا مِنْهُمْ»

إلى آخر الآياتين ، دل سبحانه ببيان قوله : « لِلَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا » بقوله : « لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ » على أن المستضعفين هم المؤمنون وأن المؤمنين إنما كانوا من المستضعفين ولم يكن ليؤمن به أحد من المستكبرين . والباقي ظاهر .

قوله : « فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » إلى آخر الآية عقر النخلة قطعها من أصلها ، وعقر الناقة نحرها ، وعقر الناقة أيضاً قطع قوائمها ، والعتو هو التمرد والامتناع وضمن في الآية معنى الاستكبار بدليل تعديته بعن ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فَأَخْذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ » إلى آخر الآياتين الرجفة هي الاضطراب والاهتزاز الصديد كما في زلزلة الأرض وتلاطم البحر ، والجثوم في إلا نسان والطير كالبروك في البعير .

وقد ذكر الله تعالى سبب هلاكهم أنه أخذتهم الرجفة ، وقال في موضع آخر : « وَأَخْذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصِّحَّةَ » هود : ٦٧ وفي موضع آخر : « فَأَخْذَتْهُمْ صاعقةُ العَذَابِ الْهَوَنَ » حم السجدة : ١٧ و الصواعق السماوية لا تخلي عن صحة هائلة تقارنها ، ولا ينفك ذلك غالباً عن رجفة في الأرض هي نتيجة انتهاء الاهتزاز الجوي الشديد إلى الأرض ، وتوجّف من جهة أخرى القلوب وترتعد الأركان ، فالظاهر أن عذابهم إنما كان بصاعقة سماوية اقتربت صحة هائلة ورجفة في الأرض أو في قلوبهم فأصبحوا في دارهم أي بلدهم جاثمين ساقطين على وجوههم وركبهم .

والآية تدل على أن ذلك كان مرتقباً بما كفروا وظلموا آية من آيات الله مقصوداً بها عذابهم عذاب الاستئصال ، ولا نظر في الآية إلى كيفية حدوثها ، والباقي ظاهر .



وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ أَنْفَاحَةً مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ إِلَّا نَتَمَ قَوْمٌ مُّهْرِفُونَ (٨١) وَمَا
 كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرِيَّتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَآهَلَهُ إِلَّا مَرْأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرَأً فَانْظَرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤).

(بيان)

قوله تعالى : « ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة » إلى آخر الآية ظاهره أنه من عطف القصة على القصة أي عطف قوله : « لوطاً على نوحًا » في قوله في القصة الأولى : « ولقد أرسلنا نوحًا » فيكون التقدير ولقد أرسلنا لوطاً إذ قال لقومه الخ لكن المعهود من ظائز هذا النظم في القرآن أن يكون بتقدير « إذ كر » بدلالة السياق ، وعلى ذلك فالتقدير : واذ كر لوطاً الذي أرسلناه إذ قال لقومه الخ والظاهر أن تغيير السياق من جهة أن « لوطاً من الأنبياء التابعين لشريعة إبراهيم عليه السلام » لا شريعة نوح عليه السلام ، ولذلك غير السياق في بدء قصته عن السياق السابق في فحص نوح و هو و صالح وغيره في بدء قصته ثم رجع إلى السياق في قصة شعيب عليهما السلام .

و قد كان لوط - على مasisati إن شاء الله من تفصيل قصته في سورة هود - مرسلًا إلى أهل سديم وغيره يدعوهم إلى دين التوحيد وكانوا مشركين عبادة أصنام .
 و قوله : « أتأتون الفاحشة » يزيد بالفاحشة اللواط بدليل قوله : « إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً » وفي قوله : « مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ » أي أحد من الأمم و

الجماعات دلالة على أنّ تاریخ ظهور هذه الفاحشة الشنيعة تنتهي إلى قوم لوط ، وسيأتي في جل ما يتعلق به من الكلام في تفصیل قصته في سورة هود .

قوله تعالى : « إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ » الآية ، إتيان الرجال كنایة عن العمل بهم بذلك ، وقوله « شهوة » قرینة عليه و قوله « من دون النساء » قرینة أخرى على ذلك ، ويفيد مضافاً إلى ذلك أنّهم كانوا قد ترکوا سبيل النساء و اكتفوا بالرجال ، ولتعدّ بهم سبيل الفطرة والخلقة إلى غيره عدّهم متتجاوزين مسرفين فقال : « بل أنتم قوم مسرفون » .

ولكون عملهم فاحشة مبتدعة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين استفهم عن ذلك مقارناً : « إِنَّ » المفيدة للتحقيق فأفاد التعجب والاستغراب والتقدير : « إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ » آية .

قوله تعالى : « وما كان جواب قومه إلا أن قالوا » إلى آخر الآية . أي لم يكن عندهم جواب فهدّدوه بالإخراج من البلد فأنّ قولهم : « أخرجوهم من قريتكم » الآية ليس جواباً عن قول لوط لهم : « أتاؤتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقُوكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ » الآية فجواب الكلام في ظرف المناظرة إما إمضاؤه والاعتراف بحقيقةه وإما بيان وجه فساده ، وليس في قولهم : « أخرجوهم » إلى آخره شيء من ذلك فوضع ماليس بجواب في موضع الجواب كنایة عن عدم الجواب ، ودلالة على سفههم .

وقد استهانوا أمر لوط إذ قالوا : « أخرجوهم من قريتكم » الآية أي أنّ القرية أي البلدة لكم وهم نزلاء ليسوا منها وهم يتنزّهون عمّا تأتونه و يتظاهرون ، ولا يهمّنكم أمرهم فليسوا إلا أنساناً لاغدة لهم ولا شدة .

قوله تعالى : « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايْرِينَ » فيه دلالة على أنه لم يكن آمن به إلا أهله ، وقد قال تعالى في موضع آخر « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » الذاريات : ٣٦ .

وقوله « كانت من الغايرين » أي الماضين من القوم ، وهو استعارة بالكنایة عن الهلاك والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » ذكر الإِمْطَار

في مورد ترقب ذكر العذاب يدل على أن العذاب كان به وقد نكر المطر للدلالة على غرابة أمره وغزارة أثره ، وقد فسره الله تعالى في موضع آخر بقوله : « و أمطرنا عليها حِجَّارَةً مِنْ سُجَّيلٍ هَنْضُودٍ مَسْوَدٍ مَعْنَدِ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَعِيدُ » هود : ٨٣ .
وقوله : « فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » توجيهه خطاباً إلى النبي ﷺ ليعتبر به هو وأُمّته .



وَإِلَيْ مَدِينَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا إِنَّكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوهُمْ الْكِبِيرَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَهْنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوْجَا وَإِذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرُوكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يُحَكَمَ اللَّهُ يَعْلَمُنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَائِكَةُ إِنَّكُمْ رُوَا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكُمْ يَا شَعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكُمْ مِنْ قَرِيْتَنَا وَلَنَعُودَنَ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلُو كُلَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا إِنْ نَعُودُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بِيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ إِنَّكُمْ كَفَرْتُمْ مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبْعَثْمُ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَásِرُونَ (٩٠) فَأَخْذُنَّهُمْ الرَّجْفَةَ فَأَصْبِحُوْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَّحْتُكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) .

﴿بيان﴾

قوله تعالى : « وَإِلَى مَدِينَةِ أَخَاهُمْ شَعِيبًا » الآية معطوف على القصة الأولى وهي قصة نوح عليه السلام ، وقد بنى عليه دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكوريين في القصص الم提قدمة .

وقوله : « قَدْ جَاءَتُكُم مِّنْ رَبِّكُمْ » يدل على مجده باية تدل على رسالته ولكن الله سبحانه لم يذكر ذلك في كتابه وليس هذه الآية هي آية العذاب التي يذكرها الله تعالى في آخر قصته فإن عامّة قومه من الكفار لم ينتفعوا بها بل كان فيها هلاكهم ، ولا معنى لكون آية العذاب آية للرسالة مبينة للدعوة .

على أنه يفرّع قوله : « فَأَوْفُوا الْكِيلَ وَالْمِيزَانَ » الآية ، على مجيء الآية ظاهراً ، إنما يستقيم الدعوة إلى العمل بالدين قبل نزول العذاب وتحقق الهلاك . وهو ظاهر . وقد دعاهم أولاً بعد التوحيد الذي هو أصل الدين إلى إيفاء الكيل والميزان وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم فقد كان الإفساد في المعاملات رائجاً فيهم شائعاً بينهم .

ثم دعاهم ثانياً بقوله : « وَلَا تَنْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا إِلَى الْكُفَّارِ » عن الإفساد في الأرض بعد ما أصلاحها الله بحسب طبعها والفطرة الإنسانية الداعية إلى إصلاحها كي ينتظم بذلك أمر الحياة السعيدة ، والإفساد في الأرض وإن كان بحسب إطلاق معناه يشمل جميع امراضي والذنوب مما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق الناس كائنة ما كانت لكن مقابلته لما قبله وما بعده يخصه - تقريراً - بلا إفساد الذي يسلب الأمان العام في الأموال والأعراض والنفوس كقطع الطرق ونهب الأموال وهتك الأعراض وقتل النفوس المحرمة .

ثم علل دعوته إلى الأمرين بقوله : « ذَلِكُمْ خَيْرُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ » أما كون إيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم خيراً فلان حياة الإنسان الاجتماعية في استقامتها مبنية على المبادلة بين الأفراد بإعطاء كلّ منهم ما يفضل من حاجته ، وأخذ ما يعادله مما يتقمّ به نفسه في ضروريات الحياة وما يتبعها ، وهذا يحتاج إلى أمن عام

في المعاملات تحفظ به أوصاف الأشياء ومقاديرها على ماهي عليه فمن يجوّز لنفسه البخس في أشياء الناس فهو يجوّز ذلك لـكـلـ من هـوـمـثـلـهـ ، وهو شـيوـعـهـ ، وإـذـاـشـاعـ الـبـخـسـ والـغـشـ والـغـرـرـ منـ غـيـرـأـنـ يـؤـمـنـ حلـولـ السـمـ مـحـلـ الشـفـاءـ وـالـرـدـيـ مـكانـ العـجـيدـ ، وـالـخـلـيـطـ مـكـانـ الخـالـصـ ، وبـالـأـخـرـةـ كـلـ شـيـءـ مـحـلـ كـلـ شـيـءـ بـأـنـوـاعـ الـحـيـلـ وـالـعـلاـجـاتـ كانـ فـيـهـ هـلـاكـ الـأـمـوـالـ وـالـنـفـوسـ جـمـيـعـاـ .

وـأـمـاـ كـوـنـ الـكـفـ عنـ إـفـسـادـ الـأـرـضـ خـيـراـ لـهـمـ فـلـاـنـ سـلـبـ الـأـمـنـ الـعـامـ يـوقـفـ رـحـىـ المـجـتمـعـ الـإـنـسـانـيـ عـنـ حـرـ كـتـهـ مـنـ جـمـيـعـ الـجـهـاتـ وـفـيـ ذـلـكـ هـلـاكـ الـحـرـثـ وـالـنـسـلـ وـفـنـاءـ الـإـنـسـانـيـةـ .

فـالـمعـنـىـ : إـيـفـاءـ الـكـيـلـ وـالـمـيزـانـ وـعـدـمـ الـبـخـسـ وـالـكـفـ عنـ الـفـسـادـ فيـ الـأـرـضـ خـيـرـ لـكـمـ يـظـهـرـ لـكـمـ خـيـرـيـتـهـ إـنـ كـنـتـمـ مـصـدـقـينـ لـقـوـلـيـ مـؤـمـنـيـنـ بـيـ ، أوـ اـمـعـنـىـ : ذـلـكـ خـيـرـ لـكـمـ تـعـلـمـونـ أـنـهـ خـيـرـ إـنـ كـنـتـمـ ذـوـيـ إـيمـانـ بـالـحـقـ .

وـرـبـمـاـ قـيـلـ : إـنـ الـمـعـنـىـ ذـلـكـ خـيـرـ لـكـمـ إـنـ كـنـتـمـ مـؤـمـنـيـنـ بـدـعـوـتـيـ فـإـنـ خـيـرـ الـمـؤـمـنـ لاـيـنـتـفـعـ بـسـبـبـ مـاعـنـدـهـ مـنـ الـكـفـرـ الـقـاضـيـ بـشـقـائـهـ وـخـسـرـ اـنـهـ وـضـلـالـ سـعـيـهـ بـهـذـهـ الـخـيـرـاتـ الـدـنـيـوـيـةـ بـحـسـبـ الـحـقـيـقـةـ لـأـنـ اـنـتـفـاعـهـ إـنـمـاـ هوـ اـنـتـفـاعـ فيـ مـوـطـنـ خـيـالـيـ وـهـوـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ الـتـيـ هـيـ لـعـبـ ، وـإـنـ الدـارـ الـآـخـرـةـ لـهـيـ الـحـيـوانـ لـوـكـانـوـاـ يـعـلـمـونـ .

هـذـاـ كـلـهـ عـلـىـ تـقـدـيرـ كـوـنـ اـمـشارـ إـلـيـهـ بـقـوـلـهـ : «ـ ذـلـكـ »ـ هـوـ إـيـفـاءـ الـكـيـلـ وـمـاـ بـعـدـهـ كـمـاـ هـوـ ظـاهـرـ الـسـيـاقـ ، وـأـمـاـ أـخـذـ إـشـارـةـ إـلـىـ جـمـيـعـ مـاـ تـقـدـمـ ، وـجـعـلـ الـمـرـادـ بـالـإـيمـانـ هـوـ الـإـيمـانـ الـمـصـطـلـحـ دـوـنـ الـإـيمـانـ الـلـغـوـيـ كـمـاـ اـحـتـمـلـهـ بـعـضـهـمـ فـهـوـ أـشـبـهـ باـشـمـرـاطـ الشـيـءـ بـنـفـسـهـ لـرـجـوعـ الـمـعـنـىـ إـلـىـ تـحـوـقـوـلـنـاـ : إـنـ كـنـتـمـ مـؤـمـنـيـنـ فـالـعـبـادـةـ لـلـهـ وـحـدـهـ بـالـإـيمـانـ بـهـ وـإـيـفـاءـ الـكـيـلـ وـالـمـيزـانـ وـعـدـمـ الـفـسـادـ فيـ الـأـرـضـ خـيـرـ لـكـمـ .

وـيـرـدـ عـلـىـ الـوـجـهـيـنـ الـأـخـيـرـيـنـ جـمـيـعـاـ أـنـ ظـاهـرـ قـوـلـهـ : «ـ إـنـ كـنـتـمـ مـؤـمـنـيـنـ »ـ ثـبـوتـ اـنـصـافـهـمـ بـالـإـيمـانـ قـبـلـ حـالـ الـخـطـابـ فـإـنـهـ مـقـتـضـىـ تـعـلـيقـ الـحـكـمـ بـقـوـلـهـ : «ـ كـنـتـمـ مـؤـمـنـيـنـ »ـ الـمـؤـلـفـ مـنـ مـاضـيـ الـكـوـنـ النـاقـصـ وـاسـمـ الـفـاعـلـ مـنـ الـإـيمـانـ ، الـمـقـتـضـىـ لـاستـقـرارـ الصـفـةـ فـيـهـ زـمـانـاـ ، وـلـاـ يـخـاطـبـ بـمـثـلـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ الـقـوـمـ الـذـيـنـ فـيـهـمـ الـكـافـرـ وـ الـمـؤـمـنـ وـ الـمـسـكـبـرـ وـ الـمـنـقـادـ

ولو كان كما يقولون لكان من حقه الكلام أن يقال : ذلکم خير لكم إن آمنت أو إن تومنوا فالظاهر أنه لامحیص من كون المراد بالإيمان غير الإيمان المصطلح .

قوله تعالى : « ولا تقدعوا بكل صراط توعدون وتصدّون عن سبيل الله من آمن به تبغونها عوجا » الآية ظاهر السياق أن « توعدون وتصدّون » حالان من فاعل « لا تقدعوا » و قوله « يبغونها » حال من فاعل « تصدّون » .

ثم دعاهم ثالثاً إلى ترك التعرّض لصراط الله المستقيم الذي هو الدين فإن في الكلام تلويناً إلى أنفسهم كانوا يقدعون على طريق المؤمنين بشعيّب عليه السلام ويوعذونهم على إيمانهم به والحضور عنده والاستماع منه وإجراء العبادات الدينية معه ، ويصرّفونهم عن التدين بدبن الحق وسلوكه في طريقة التوحيد وهم يسلكون طريق الشرك ، ويطلبون سبيل الله الذي هو دين الفطرة عوجا .

وبالجملة كانوا يقطعون الطريق على الإيمان بكل ما يستطيعون من قوة واحتياط فنهاهم عن ذلك ، ووصاهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ويعتبروا بالنظر إلى ما يعلمونه من تاريخ الأمم الغابرة ، وما آل إليه أمر المفسدين من عاقبة السوء .

فقوله : « واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » كلام مسوق سوق العظة والتوصية وهو يقبل التعلق بجميع ما تقدم من الأوامر والنواهي فقوله : « و اذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم » أمر بتذكّر تدرّجهم من القلة إلى الكثرة بازدياد النسل فإن ذلك من نعم الله العظيمة على هذا النوع الإنساني لأن الإنسان لا يقدر على أن يعيش وحده من غير اجتماع إذ الغاية الشريفة والسعادة العالمية الإنسانية التي يمتاز بها عن سائر أنواع الحيوانية وغيرها اقتضت أن تهب العناية الالهية له أدوات وقوى مختلفة وتركيبياً وجودياً خاصاً لا يستطيع أن يقوم بضروريات حوائجه العجيبة المتقنة وحده بل بالتعااضد مع غيره في تحصيل اماكله والمشرب والملبس والمسكن والمنكح وغيرها تعاضداً في الفكر والإرادة والعمل .

ومن المعلوم أنه كلما ازداد عدد المجتمعين ازدادت القوة المركبة الاجتماعية ، و اشتددت في فكرتها وإرادتها وعملها فأحسست وشعرت بدفائق الحوائج ، وتنبهت للطائف

من الحيل لتسخير القوى الطبيعية في رفع نوافتها .
فمن ألمن الإلهية أن النسل الإنساني "أخذ دائمًا في الزيادة متدرج من الفلة إلى الكثرة ، وذلك من الأركان في سير النوع من النقص إلى الكمال فليست الأمم العظيمة كالشراذم الفليلة التي تتخطّف من كل جانب ، ولا الأقوام والعشائر الكبيرة كالطوائف الصغيرة التي لا تستقل" في شأن من شؤونها السياسية والاقتصادية والحرية وغيرها مما يوزن بزنة العلم والإرادة والعمل .

وأماماً عاقبة المفسدين فيكفي في التبصر بها ما نقل من عواقب أحوال الأمم المستعلية المستكبرة الطاغية التي ملأت القلوب رعباً ، و النفوس دهشة ، و خربت الديار ، و نهبت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأفنت الجموع ، واستعبدت العباد ، وأذلت الرقاب .

مهلهم الله في عتوهم واعتداءهم حتى إذا بلغوا أوج قدرتهم ، واستروا على أريكة شوكتهم غرّتهم الدنيا بزینتها واجتذبهم الشهوات إلى خلاعاتها فألهلتهم عن فضيلة التعقل واشتغلوا بمالهم الحياة والعيش واتخذوا إلههم هو لهم وأضلهم الله على علم فسلبو القدرة والارادة ، وحرموا النعمة فتفرقوا أيادي سبا .

فكم في ذكر الدهر من أسماء القياصرة والفراعنة والأكاسرة والفعافرة وغيرهم لم يبق منهم إلا أسماء إن لم تنس ، ولم تثبت من هي مئتهم إلا أحاديث فمن السنة الإلهية الجارية في الكون أن تبني حياة الإنسان على التعقل فإذا تعدى ذلك وأخذ في الفساد والإفساد أبي طباع الكون ذلك ، وضادته الأسباب بقوامها ، وطحنته بجموها ، وضررت عليه بكل ذلك ومسكته .

قوله تعالى : « وإن كان طائفه منكم آمنوا بالذى أرسلت به » إلى آخر الآية . ثم داعم رابعاً إلى الصبر على تقدير وقوع الاختلاف بينهم بالإيمان والكفر فإنه كان يوصيهم جميعاً قبل هذه الوصيّة بالاجتماع على الإيمان بالله والعمل الصالح ، وكأنّه أحسن منهم أن ذلك مما لا يكون البُتْة ، وأن الاختلاف كائن لاحالة ، وأن الملايين المستكبرين من قومه وهم الذين كانوا يوعدون ويصدرون عن سبيل الله سيأخذون في إفساد الأرض وإيذاء المؤمنين ويوجب ذلك في المؤمنين وهن عزيمتهم ، وتسلط الناس على قلوبهم فأسرهم جميعاً بالصبر

وانتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم وهو خير الحاكمين .

فإن في ذلك صلاح المجتمع أمّا المؤمنون فلا يقعون في البأس من الحياة الآمنة ، والاضطراب والجيرة من جهة دينهم ، وأمّا الكفار فلا يقعون في ندامة الإقدام من غير رؤية وفسدة المظلمة على جهالة فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين فهو خير الحاكمين لا يساهل في حكم إذا حان حينه ، ولا يجور في حكم إذا ما حكم .

قوله : « فاصبروا » بالنسبة إلى الكفار أمر إرشادي و بالنسبة إلى المؤمنين أمر مولوى أو إرشادي ، وهو إرشاد الجميع إلى ما يصلح حالهم .

قوله تعالى : « قال إِلَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنْخُرْ جَنَّكَ يَا شَعِيبَ ، الآية لم يسترشد الملاك المستكبارون من قومه بما أرشدهم إليه من الصبر وانتظار الحكم الفصل في ذلك من الله سبحانه بل بادروه بتهدیده وتهديده لمؤمنين باخراجهم من أرضهم إلا أن يرجعوا إلى ملتهم بالارتداد عن دين التوحيد .

وفي تأكيدتهم القول «لنخر جنّك» و«لتعودون» بالقسم ونون التأكيد دلالة على قطعهم العزم على ذلك ، ولذا بادر عليهم بعد استماع هذا القول منهم إلى الاستفصال من الله سبحانه .

قوله تعالى : « قَالَ أَوْلَوْ كَنَّا كَارَهِينَ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عَدْنَا فِي مُلْكِكُمْ » الآية أجاب عليهم بكرامة العود في ملتهم بدليل ما بعده من الجمل ، ولازم ذلك اختيار الشق الآخر على تقدير الاضطرار إلى أحدهما كما أخبروه .

وقد أجاب عليهم عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه ، وذكر أنه ومؤمنين به جميعاً كارهون للعود إلى ملتهم فإن في ذلك افتراء الكذب على الله سبحانه بنسبته الشركاء إليه ، وما يتبعها من الأحكام المفتراة في دين الوثنية قوله : « قد افترينا على الله كذبا » الآية بمنزلة التعليل لقوله : « أَوْلَوْ كَنَّا كَارَهِينَ » .

ومن أسف الدلال الاحتياج بقوله : « إِنْ عَدْنَا فِي مُلْكِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا » على أن شعيباً عليهم كان قبل نبوة مشركاً ثنياً - حاشاه - وقد تقدم آنفأً أنه يتكلم عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه وقد كانوا كفاراً مشركاً قبل الإيمان به فأنجاهم الله من ملة

الشرك وهداهم بشعيب إلى التوحيد فقول شعيب : « نجـاـنا اللـهـ » تكلـم عن المجموع بنسبة وصف الجلـ إـلى الكلـ ، هذا لو كان المراد بالتنجـية الظـاهـرـية من الشرـكـ الفـعلـيـ وأـمـالـوـأـرـيدـ بـهـاـ التـنـجـيـةـ الـحـقـيقـيـةـ وـهـيـ إـخـرـاجـ مـنـ كـلـ ضـلـالـ مـحـقـقـ مـوـجـودـ أـمـقـدـ رـمـقـبـ كـانـ شـعـيـبـ - وـهـوـ لـمـ يـشـرـكـ بـالـلـهـ طـرـفـةـ عـيـنـ - وـقـومـهـ - وـهـمـ كـانـواـ مـشـرـ كـيـنـ قـبـلـ زـمـانـ إـيمـانـهـ بـشـعـيـبـ - جـمـيعـاـ مـمـنـ نـجـاـهـمـ اللـهـ مـنـ الشـرـكـ إـذـاـ يـمـلـكـ إـلـاـ إـنـسـانـ لـنـفـسـهـ الـهـالـكـةـ ضـرـاـ وـلـأـنـفـعـاـ وـمـاـ أـصـابـهـ مـنـ خـيـرـ فـهـوـ مـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ .

وقوله : « وما يكون لنا أن نعود فيها إـلاـ أـنـ يـشـاءـ اللـهـ رـبـنـاـ » كالـإـضـرـابـ وـالـتـرـقـيـ بالـجـوابـ القـاطـعـ كـائـنـهـ قـالـ : نـحـنـ كـارـهـونـ العـوـدـ إـلـىـ مـلـكـمـ لـأـنـ فـيـ اـفـتـرـاءـ عـلـىـ اللـهـ بـلـ إـنـ ذـلـكـ مـاـ لـاـ يـكـوـنـ الـبـتـةـ ، ذـلـكـ أـنـ كـرـاهـةـ شـيـءـ إـنـمـاـ تـوـجـبـ تـعـسـرـ التـلـمـيـسـ بـهـ دـوـنـ تـعـذـرـهـ فـأـجـابـ ثـلـثـلـةـ ثـانـيـاـ بـتـعـذـرـ الرـعـودـ بـعـدـ جـوـابـهـ أـوـلـاـ بـتـعـسـرـهـ ، وـهـوـ مـاـذـ كـرـنـاهـ مـنـ إـلـاـضـرـابـ وـالـتـرـقـيـ .

ولـمـاكـانـ قـوـلـهـ : « وما يكون لنا أن نعود فيها » فيـ معـنـيـ أـنـ يـقـالـ : « لـنـ نـعـودـ إـلـيـهاـ أـبـداـ » وـالـقـطـعـ فيـ مـثـلـ هـذـهـ الـعـرـفـاتـ مـاـ هوـ بـعـيـدـ عـنـ أـدـبـ النـبـوـةـ فـإـنـهـ فيـ مـعـنـيـ لـنـ نـعـودـ عـلـىـ أـيـ تـقـدـيرـ فـرـضـ حـتـىـ لـوـشـاءـ اللـهـ ، وـهـوـ مـنـ الـجـهـلـ بـمـقـامـهـ تـعـالـىـ ، اـسـتـشـنـيـ مـشـيـةـ اللـهـ سـبـحـانـهـ قـوـلـهـ : « إـلاـ أـنـ يـشـاءـ اللـهـ رـبـنـاـ » فـإـنـ إـلـاـ إـنـسـانـ كـيـفـماـ كـانـ جـائـزـ الـخـطاـ فـنـ الـجـائـزـ أـنـ يـخـطـئـ بـذـنـبـ فـيـعـاقـبـهـ اللـهـ بـسـلـبـ عـنـيـتـهـ بـهـ فـيـطـرـهـ مـنـ دـيـنـهـ فـيـهـمـلـكـ عـلـىـ الـضـلـالـ .

وـفـيـ الـجـمـعـ بـيـنـ الـأـسـمـيـنـ فـيـ قـوـلـهـ : « اللـهـ رـبـنـاـ » إـشـارةـ إـلـىـ أـنـ اللـهـ الـذـيـ يـحـكـمـ مـاـ يـشـاءـ هـوـ الـذـيـ يـدـبـرـ أـمـرـنـاـ وـهـوـ إـلـهـ وـرـبـ ، عـلـىـ مـاـ يـقـضـيـهـ دـيـنـ الـوـثـنـيـةـ لـاـ كـمـاـ يـعـلـمـهـ دـيـنـ الـوـثـنـيـةـ فـإـنـهـ يـسـلـمـ الـأـلوـهـيـةـ اللـهـ ثـمـ يـفـرـزـ الـرـبـوـيـةـ بـمـخـتـلـفـ شـؤـونـهـاـ بـيـنـ الـأـوـثـانـ وـيـسـمـيـهـاـ رـبـ الـبـحـرـ وـرـبـ الـبـرـ وـهـكـذاـ .

وـقـوـلـهـ : « وـسـعـ رـبـنـاـ كـلـ شـيـءـ عـلـمـاـ » كـالـتـعـلـيلـ لـتـعـقـيـبـ الـكـلـامـ بـالـاسـتـشـنـاءـ كـأـنـهـ قـيلـ لـمـ اـسـتـشـنـتـ بـعـدـ مـاـ أـطـلـقـتـ الـكـلـامـ وـقـطـعـتـ فـيـ الـعـزـمـ ؟ فـقـالـ : لـأـنـهـ وـسـعـ رـبـنـيـ كـلـ شـيـءـ عـلـمـاـ وـلـأـحـيـطـ مـنـ عـلـمـهـ إـلاـ بـمـاـ شـاءـ فـمـنـ الـجـائـزـ أـنـ يـتـعـلـّقـ مـشـيـةـهـ بـشـيـءـ غـائـبـ عـنـ عـلـمـيـ سـاءـنـيـ أـوـ سـرـنـيـ كـانـ يـتـعـلـّقـ عـلـمـهـ بـأـنـاـ سـنـخـالـفـهـ فـيـ بـعـضـ أـوـ اـمـرـهـ فـيـشـاءـ عـودـنـاـ إـلـىـ مـلـكـمـ ، وـإـنـ

كُنَّا إِلَيْهِمْ كَارِهِينَ لَهُ ، وَلَعِلَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ السَّبِيلُ فِي تَعْقِيبِ هَذَا القُولُ بِمِثْلِ قُولِهِ : «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» فَإِنَّ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَانَ حَسْبَهُ وَصَانَهُ مِنْ شَرٍّ مَا يَخَافُ .

وَلَمَّا بَلَغَ الْكَلَامُ هَذَا الْمَبْلَغُ وَقَدْ أَخْبَرُوهُمْ بِعِزْمِهِمْ عَلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ : الْإِخْرَاجُ أَوِ الْعُودُ ، وَأَخْبَرُوهُمْ شَعِيبَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ بِالْعَزْمِ الْفَاطِعِ عَلَى عَدَمِ الْعُودِ إِلَى مُلْتَهِمُ الْبَتَّةِ الْتَّجَانِ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى رَبِّهِ وَاسْتَفْتَحُ بِقُولِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ : «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَفْتَحْ بَيْنَهُمْ أَيِّ بَيْنَ شَعِيبٍ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَهُوَ الْحَكْمُ الْفَصْلُ فَإِنَّ الْفَتْحَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ يَسْتَلِزُمُ إِبْعَادَ كُلَّ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ حَتَّى لا يَمْسُّهُمْ هَذَا ذَاكُ وَلَا ذَاكُ هَذَا دُعَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ بِالْفَتْحِ وَكَنْتَ بِهِ عَنِ الْحَكْمِ الْفَصْلِ وَهُوَ الْهَلاَكُ أُوْمًا هُوَ بِمِنْزِلَتِهِ وَأَبْيَمُ الْخَاسِرِ مِنَ الرَّابِعِ وَالْهَاكِلِ مِنَ النَّاجِيِّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُ وَأَنَّ الْخَزِيِّ إِلَيْهِ يَوْمَ وَالسُّوءِ عَلَى الْكَافِرِينَ لَكُنْهُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ أَخْذَ بِالنَّصْفِ لِلْحَقِّ وَتَأدِبُ بِإِرْجَاعِ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ كَمَا أَتَى بِنَظِيرِ ذَلِكَ فِي قُولِهِ السَّابِقِ : «فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» .

وَخَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ أَسْمَانُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ ، وَقَدْ تَقدَّمَ الْبَحْثُ عَنْ مَعْنَى الْحَكْمِ فِيمَا مِنْهُ ، وَعَنْ مَعْنَى الْفَتْحِ آنَفًا ، وَسِيَجيِّ عَالِكَلَامُ الْمُسْتَوْفِيِّ فِي الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِيِّ فِي تَفْسِيرِ قُولِهِ تَعَالَى : «وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنِيُّ فَادْعُوهُ بِهَا» آيَةً ١٨٠ مِنَ السُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُولِهِ تَعَالَى : «وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ : هَذَا تَهْدِيدٌ مِنْهُمْ مِنْ آمِنٍ بِشَعِيبٍ أَوْ أَرَادَ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيَكُونَ مِنْ جَمْلَةِ الْإِبْعَادِ وَالصَّدِّ الَّذِينَ كَانُوا شَعِيبَ يَنْهَا عَنْهُمَا بِقُولِهِ : «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تَوْعِدُونَ وَتَصْدِّقُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» وَيَكُونُ إِفْرَادُ هَذَا بِالذِّكْرِ هُنْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَفْوَالِهِمْ لِيَكُونُ كَالتَّوْطِئَةُ وَالْتَّهْمِيدُ مَا سَيَأْتِي مِنْ قُولِهِ بَعْدَ ذَكْرِ هَلَّا كَهُمْ : «الَّذِينَ كَذَّبُوا شَعِيبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ» .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْاتِّبَاعُ بِمَعْنَاهُ الظَّاهِرِ الْعَرْفِيِّ وَهُوَ اقْتِنَاءُ أَثْرِ الْمَاشِي عَلَى الطَّرِيقِ وَالسَّالِكِ السَّلِيلِ بِأَنْ يَكُونَ الْمَلَائِكَةُ الْمُسْتَكْبِرُونَ مَلَّا اضْطَرُّوهُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ : الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضِهِمْ أَوِ الْعُودُ فِي مُلْتَهِمُ ثُمَّ سَمِعُوهُ يَرْدُ عَلَيْهِمُ الْعُودَ إِلَى مُلْتَهِمُ رَدًّا قَاطِعاً ثُمَّ

يدعو بمثل قوله : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » لم يشكوا أنه سيترکهم ويهاجر إلى أرض غير أرضهم ، و يتبعه في هذه المهاجرة المؤمنون به من القوم خاطبوا عند ذلك طائفة المؤمنين بقولهم : « لئن اتبعتم شعيباً إتّسّكم إذاً لخاسرون » فهذا دوهم وخوفهم بالخسار إن تبعوه في الخروج من أرضهم ليخرج شعيب وحده فإنّهم إنّما كانوا يعادونه إيماناً بالأصلحة ، وأمّا المؤمنون فإنّما كانوا يبغضون من جهته ولا جله .

وعلى أي الوجهين كان فالآية كالتوضئة والتمهيد للآية الآية : « الذين كذّبوا شيئاً كانوا هم الخاسرين » كما تقدّمت الإشارة إليه .

قوله تعالى : فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » أصبحوا أى صاروا أودخلوا في الصباح ، وقد تقدّم معنى الآية في نظيرتها من قصة صالح .

قوله تعالى : « الذين كذّبوا شيئاً كان لم يغنو فيها - إلى قوله - الخاسرين » قال الراغب في المفردات : وغنى في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره بمعنى قال : كأن لم يغنو فيها (انتهى) . و « كأن » مخفف كأن خفف لدخوله الجملة الفعلية .

قوله : « الذين كذّبوا شيئاً كان لم يغنو فيها » فيه تشبيه حال المكذّبين من قومه بمن لم يطيلوا الإقامة في أرضهم فإنّ أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها في عيشرة أو أهل أو دار أو ضياع وعقار ، وأمّا من تمكّن في أرض واستوطنه وأطال مقامها وبها وتعلق بها بكل ما يقع به التعلق في الحياة المادية فإنّ تركها له متعرّ كالمتعرّد و خاصة ترك الأمة القاطنة في أرض أرضاً وما اقتتنه فيها طول مقامها . وقد ترك هؤلاء وهم أمة عريقة في الأرض دارهم وما فيها ، في أيسر زمان أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين .

وقد كانوا يزعمون أنّ شيئاً ومن تبعه منهم سيحشرون في خاب ظنهم وانقلب الدائرة عليهم فكانوا هم الخاسرين فمكر وامكر الله والله خير الماكرين .

وإلى هذا يشير تعالى حيث ذكر أولاً قولهم : إنّ متبعي ، شعيب خاسرون ثم

ذكر نزول العذاب وأبهم الذين أخذتهم الرجفة فقال : « فأخذتهم الرجفة » ولم يقل : فأخذت الذين كفروا الرجفة ، ثم صرّح في قوله : « الذين كذّبوا شعيباً » الآية أنّ الحكم الإلهي والهلاك والخسران كان لشعيب ومن تبعه على الدين كذّبواه من قومه فكانوا هم الخاسرين المذكور بهم ، وهم يزعمون خلافه .

قوله تعالى : « فتوّل عنهم » إلى آخر الآية . ظاهر السياق أنّه إنّما توّلى بعد نزول العذاب عليهم وهلاكهم ، وأنّ الخطاب خطاب اعتبار ، وقوله : « فكيف أسي » الخ هو من الأسي أي كيف أحزن ، والباقي ظاهر .



* * *

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخْذَنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لِعَلَيْهِمْ
 يَضْرِعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَلَنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَمِيمَةَ حَتَّى عَفُوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ أَبَاءَنَا
 الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ فَاخْذَنَا هُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ
 آمَنُوا وَأَتَقَوْا فَلَتَهَنَّأُوا عَلَيْهِمْ بِرَحْمَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَدَّبُوا فَاخْذَنَا هُمْ
 بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَامْنَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَنْ يَاتِيهِمْ بِآيَاتٍ وَهُمْ نَاجِمُونَ
 (٩٧) أَوْ أَمْنَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَنْ يَاتِيهِمْ بِآيَاتٍ ضَحْيَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَامْنَوا
 مَكَرَ اللَّهِ ذَلِيلًا مِنْ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْمُحَارِسُونَ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلنَّاسِ يَرْثُونَ
 الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا إِنْ لَوْ شَاءَ اصْبَنَاهُمْ بِذَنْبِهِمْ وَنَطَبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
 لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تَلْمَذَ الْقَرْيَةِ نَصْرًا عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَدَّبُوا مِنْ قَبْلِ كَذِيلَكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
 الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
 لَفَاسِقِينَ (١٠٢).

* بيان *

الآيات متصلة بما قبلها ، وهي تلخص القول في فصص الأمم العابرة فتذكرة أنَّ
 أكثراهم كانوا فاسقين خارجين عن زيق العبودية لم يفوا بالعهد الإلهي والميثاق الذي
 أخذ منهم لا ول يوم ، وتبيّن أنَّ ذلك كان هو السبب في وقوعهم في مجرى سنن خاصة
 إلهية يتبع بعضها بعضاً ، وهي أنَّ الله سبحانه كان كلما أرسل إليهم نبياً من أنبيائه
 يمتحنهم ويخبرهم بالباءاء والضراء فكانوا يعرضون عن آيات الله التي كانت تدعوهם

إلى الرجوع إلى الله والتضرع والإذابة إليه ، ولا ينتبهون بهاتيك المنبهات ، وهذه سنة .

ولإذا لم ينفع ذلك بدللت هذه السنة بسنة أخرى ، وهي الطبع على قلوبهم بتقسيتها وصرفها عن الحق ، وتعليقها بالشهوات المادية وزينات الحياة الدنيا و زخارفها ، وهذه سنة المكر .

ثم تبعها سنة ثلاثة وهي الاستدراج ، وهي بتبدل السيئة حسنة ، والنقمة نعمة والبأساء والضراء ، سراء ، وفي ذلك تقر لهم يوماً فيوماً وساعة فساعة إلى العذاب الإلهي حتى يأخذهم بعثة وهم لا يشعرون به لأنهم كانوا يرون أنفسهم في مهد الأمان والسلام فرحين بما عندهم من العلم ، وما في اختيارهم من الوسائل الكافية على زعمهم في دفع ما يهددهم بهلاك أو يؤذنهم بالزوال .

وقد أشار الله سبحانه في خلال هذه الآيات إلى حقيقة ناصعة هي المدار الذي يدور عليه أساس نزول النعم والنعم على العالم الإنساني حيث يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقو الفتنا عليهم برؤس السماء » الآية .

وتوضيحها أن العالم بما فيه من الأجزاء متعلق الأبعاض منربط الأطراف يتصل بعضها ببعض اتصال أعضاء بدن واحد وأجزاءه بعضها بعض في صحتها وسلامتها واستقامتها في صدور أفاعيلها ، وقيامها بالواجبات من أعمالها فالتفاعل بالآثار والخصوص جاري بينها عام شامل لها .

والجميع على ما يديننه القرآن الشريف سائر إلى الله سبحانه سالك نحو الغاية التي قدّرت له فإذا اختل أمر بعض أجزاءه وخاصة الأجزاء الشريفة ، وضعف أثره وانحرف عن مستقيم صراطه بان أثر فساده في غيره ، وانعكس ذلك منه إلى نفسه في الآثار التي يرسلها ذلك الغير إليه ، وهي آثار غير ملائمة لحال هذا الجزء المنحرف - وهي المحنة والبلية التي يقايسها هذا السبب من ناحية سائر الأسباب - فإن استقام بنفسه أو باعانته من غيره عاد إليه رفاه حاله السابق ، ولو استمر على انحرافه وأعوجاجه ، وأدام فساد حالة دامت له المحنة حتى إذا طغى وتجاوز حدّه ، وأوقفت سائر الأسباب المحيطة به في عتبة

الفساد انتهضت عليه سائر الأسباب و هاجت بقوها التي أو دعها الله سبحانه فيها لحفظ وجوداتها فحطمته و دكته ومحته بغتة وهو لا يشعر .

وهذه السنة التي هي من السنن الكونية التي أقرّها الله سبحانه في الكون غير متخلفة عن الإنسان ، ولا إلا إنسان مستثنى منها فالامة من الأمم إذا انحرفت عن صراط الفطرة انحرافاً يصدقه عن السعادة الإنسانية التي قدّرت غاية مسيره في الحياة كان في ذلك اختلال حال غيره مما يحيط به من الأسباب الكونية المرتبطة به ، وينعكس إليه أثره السيئ الذي لا سبب له إلا انحرافه عن الصراط وتوجيهه آثاراً سيئة من نفسه إلى تلك الأسباب ، وعند ذلك يظهر اختلالات في اجتماعاتهم ، ومحن عامة في روابطهم العامة كفساد الأخلاق ، وقسوة القلوب ، وفقدان العواطف الرقيقة ، وتهاجم الوائب وترافق المصائب والبلايا الكونية كامتناع السماء من أن تمطر ، والأرض من أن تنبت ، والبركات من أن تنزل ، ومفاجأة السيل والطوفانات والصواعق والزلزال وخسف البقاع وغير ذلك كل ذلك آيات إلهية تنبئ الإنسان وتدعوا الأمة إلى الرجوع إلى ربّه ، والعود إلى ما تركه من صراط الفطرة المستقيم ، وامتحان بالعسر بعد ما امتحن باليسر .

تأمل في قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لذريتهم بعض الذي عملوا عليهم يرجعون » الروم : ٤١ تراه شاهداً ناطقاً بذلك فالآية تذكر أن المظالم والذنوب التي تكسبها أيدي الناس توجب فساداً في البر والبحر مما يعود إلى الإنسان كوقوع الحروب وانقطاع الطرق وارتفاع الأمان وغير ذلك ، أو لا يعود إليه كاختلال الأوضاع الجوية والأرضية الذي يستضرّ به الإنسان في حياته ومعاشه .

ونظيره بوجه قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى : ٣٠ على ما سيجيء إن شاء الله من تقرير معناه ، وكذلك قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ ، وما في معناه من الآيات .

وبالجملة فإن رجعت الأمة بذلك - وما أفلّه وأندره في الأمم - فهو ، وإن استمرّت على ضلالها وخطّطها طبع الله على قلوبهم فأعادوا ذلك ، وأصبحوا يحسبون أنّ الحياة

الإنسانية ليست إلا هذه الحياة المضطربة الشفقة التي تزاحمها أجزاء العالم المادي وتضطهدنا النواقب والرزايا ، ويحطمها قهر الطبيعة الكونية - و أن ليس للإنسان إلا أن يتقدم في العلم ، ويتجهز بالجيل الفكرية في مبارزتها ويستخدم وسائل كافية في دفع قهرها وإبطال مكرها كما اتى بذلك اليوم وسائل يكفي لدفع الفحط والجدب والوباء والطاعون وسائل الأمراض العامة السارية ، وأخرى تنفي بها السيول والطوفانات والصواعق ، وغير ذلك مما يأتي به طاغية الطبيعة ، ويهدّد النوع بالهلاك ،

قتل إلا إنسان ما أكفره ! أخذه الخيلاء فظن أن التقدّم فيما يسميه حضارة وعلمًا يعده أنه سيغيب طبيعة الكون ، ويبطل عزائمها ، ويقهرها على أن تطيعه في مشيّته ، وتنقاد لأهوائه ، وهو أحد أجزائها المحكومة بحكمها الضعيفة في تركيبها ولو اتبّع الحق فهو أهون لهم لفساد السماوات والأرض ، ولو فسّدت لكان إلا إنسان الضعيف من أقدم أجزائها في الفساد وأسرعها إلى الهلاك .

ويخيّل إليه أنَّ الذي ترومه المعرفة الدينية هو أن تبطل نسبة الحوادث العظام إلى أسبابها الطبيعية ثم تضع زمامها في يد صانعها فيكون شريكًا من الشركاء ، للأسباب الآخر آثارها من الحوادث - وهي الحوادث التي يسعنا البحث عن عملها وأسبابها - وللسبب الذي هو الصانع بقيّة الآثار من الحوادث كالحوادث العامة والواقع الجوي كالوباء والفحط والأمطار والصواعق وغيرها ثم إذا كشف عن العلل الطبيعية المكتنفة لهذه الأمور زعم أنه في غنى عن رب العالمين وتدبر رب بيته .

وقد فاته أنَّ الله عز اسمه ليس سبباً في عرض الأسباب ، وعلمة في صفات العلل المادية والقوى الفعالة في الطبيعة بل هو الذي أحاط بكل شيء ، وخلق كل سبب فساقه وقاده إلى مسببه وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ولا يحيط بخلقه ومسببه غيره فله أن يتسبّب إلى كل شيء بما أراده من الأسباب المجهولة عندنا الغائبة عن علومنا .

وإلى ذلك يشير نحو قوله تعالى : « إنَّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا » الطلاق : ٣ ، قوله : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يوسف : ٢١ ، قوله : « وما أنتم بمعجزتين في الأرض وما لكم من دون الله من ولية ولا

نصير» الشورى : ٣١ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وكيف يسع للإنسان أن يحارب الله في ملكه ، ويستخد بفكره وسائل لا بطال حكمه وإرادته ، وليس هو سبحانه في عرضها بل هو في طولها أي هو الذي خلق الإنسان وخلق منه هذه الإرادة ثم الفكر ثم الوسائل المتّخذة ، ووضع كلاماً في موضعه ، وربط بعضها ببعض من بعدها إلى ختمها حتى أنهاها إلى الغاية الأخيرة التي يريد الإنسان بجهالته أن يحارب بالتوسل إليها ربّه في قضائه وقدره ، وينافقه في حكمه ، وهو أحد الأيدي العمّالة لما يريده ويحكم به وبعض الأسباب المجرية لما يقدّره ويقضى به وإلى هذا الموقف الفضيح الإنساني يشير تعالى بعد ذكر أخذه الإنسان بالأساء والضرّاء بقوله : « ثمّ بدّلنا مكان السيمّة الحسنة حتى عفوا و قالوا قد منّا آباءنا الشرّاء والسرّاء فأخذناهم بعنة وهم لا يشعرون » على ما سيجيء إن شاء الله تعالى من تقرير معنى الآية عن قريب .

فهذه حقيقة برهانية تقرر أنّ الإنسان كغيره من الأنواع الكونية مرتبطة الوجود بسائر أجزاء الكون المحيطة به ، ولا يُعمله في مسیر حياته وسلوکه إلى منزل السعادة ارتباط بغيره فإن صحت للكون صاحت أجزاء الكون له وفتحت له برّكات السماء ، وإن فسدت أو سدت الكون وقابلة الكون بالفساد فإن رجع إلى الصلاح فيها ، وإلا جرى على فساده حتى إذا تعرّق فيه انتهض عليه الكون وأهلكه بهدم بنائه وإعفاء أثره ، وطهر الأرض من رجسه .

وكيف يمكن للإنسان وأنّى يسعه أن يعارض الكون بعمله و هو أحد أجزائه التي لا تستقلّ دونه البتّة ؟ أو يما كره بفكرة وإنّما يفكّر بترتيب القوانين الكلية المأخوذة منه ؟ فافهم ذلك .

فهذه حقيقة برهانية والقرآن الكريم يصدّقها وينصّ عليها فالله سبحانه هو الذي خلق كلّ شيء فقدّره تقديراً ، وهدأه إلى ما يسعده ، ولم يخلق العالم سدى ، ولا شيئاً من أجزاءه ومنها الإنسان لعباً ، بل إنّما خلق ما خلق ليتقرّب منه ويرجع إليه ، وهيّأ له منزلة سعادة يندفع إليها بحسب فطرته بإذن الله سبحانه ، وجعل له سبيلاً ينتهي إلى

سعادةه فإذا سلك سبيله الفطريّ فهو و إلّا فإن انحرف عنه انحرافاً لا مطمع في رجوعه إلى سويّ الصراط فقد بطلت فيه الغاية ، وحّقّت عليه كلمة العذاب .

قوله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نبيٍّ » إلى آخر الآية . قيل : البأساء في امّال كالفقر ، والضراء في النفس كالمرض ، وقيل : يعني بالبأساء ما نالهم من الشدّة في أنفسهم وبالضراء ما نالهم في أموالهم ، وقيل : غير ذلك . وقيل : إنّ البأس والبأساء يكثرون استعمالهما في الشدّة التي هي بالنكبة والتكميل كما في قوله تعالى : « والله أشدّ بأساً وأشدّ تكميلاً » .

ولعلّ قوله بعد : « الضراء والسراء » حيث أريد بهما ما يسوء الإنسان وما يسره يكون قرينة على إرادة مطلق ما يسوء الإنسان من الشدائـد من الضراء ، ويكون قوله : « بالبأساء والضراء من ذكر العام بعد الخاص .

يذكر سبحانه أنّ السنة الإلهيّة جرت على أنه كلّما أرسل نبياً من الأنبياء إلى قرية من القرى - وما يرسلهم إليهم إلّا ليهدّيهم سبيـل الرشاد - ابتلاهم بشيء من الشدائـد في النفوس والأموال رجاء أن يبعثهم ذلك إلى التصرّع إليه سبحانه ليتم بذلك أمر دعوتهم إلى الإيمان بالله والعمل الصالـح .

فالابتلاءات والمحن نعم العون لدعوة الأنبياء فإنّ الإنسان ما دام على النعمة شغله ذلك عن التوجّه إلى من أنعمها عليه واستغنى بها ، وإذا سلب النعمة أحـس بالحاجة ، ونزلت عليه الذلة والمسكـنة ، وعلاه الجزع ، وهـدـه الفتنـاء فيعـشهـذلك بحسب الفطرة إلى الاتجاه والتصرّع إلى من يده سدّ خلـته ودفع ذلكـه ، وهو الله سبحانه وإن كان لا يشعر به وإذا نـبهـ عليهـ كانـ منـ المـرجـوـ اـهـتـدـأـهـ إلىـ الحـقـ قالـ تعالىـ : « وـ إـذـاـ نـعـمـنـاـ عـلـىـ إـلـيـهـ أـعـرـضـ وـ نـأـيـ بـجـانـبـهـ وـ إـذـاـ مـسـهـ الشـرـ فـذـوـ دـعـاءـ عـرـيـضـ » حـمـ السـجـدةـ : ٥١ .

قوله تعالى : « ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » إلى آخر الآية تبديل الشيء شيئاً وضع الشيء الثاني مكان الشيء الأول والسيئة والحسنة معناهما ظاهر ، والمراد بهما ما هما كالشدة والرخاء ، والخوف والأمن ، والضراء والسراء كما يدلّ عليه قوله بعد : « قد مس آباؤنا الضراء والسراء » .

وقوله : «حتى عفوا» من العفو وفسر بالكثرة أي حتى كثروا أموالاً ونفوساً بعد ما كان الله قدّلهم بالابتلاءات والمحن ، وليس ببعيد - وإن لم يذكروه - أن يكون من العفو بمعنى إنجاء الأثر كقوله :

ربع عفاه الدهر طولاً فانمحى
فيكون المراد أنّهم محووا بالحسنة التي أتوها آثار السيئة السابقة وقالوا :
«قدّمس آباءنا الشرّ أو السرّاء» أي أنّ الإنسان وهو في عالم الطبيعة المتحوّلة المتغيرة من حكم موافقه أن يمسّه الشرّاء والسرّاء ، وتعاقب عليه الحدثان مما يسوءه أو يسرّه من غير أن يكون لذلك انتساب إلى امتحان الإلهي ونقطة ربانية .

ومن الممكن بالنظر إلى هذا المعنى الثاني أن يكون قوله : «وقالوا» الخ عطف تفسير لقوله : «عفوا» والمراد أنّهم محووا رسم الامتحان الإلهي بقولهم : إنّ الشرّاء والسرّاء إنّما هما من عادات الدهر المتبادلة المتدالة يداولنا بذلك كما كان يداول آباءنا كما قال تعالى : «ولئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولن هذا لي وما أظنّ الساعة قائمة» حم السجدة : ٥٠ .

و «حتى» في قوله : «حتى عفوا وقالوا» الآية ، للغاية ، والمعنى : ثم آتيناهم النعم مكان النقم فاستغرقوا فيها إلى أن نسوا ما كانوا عليه في حال الشدة وقالوا : إن هذه الحسنات وتلك السياسات من عادة الدهر فانتهى بهم إرسال الشدة ثم الرخاء إلى هذه الغاية ، وكان ينبغي لهم أن يتذكّروا عند ذلك ويهتدوا إلى مزيد الشكر بعد التضرّع لكنّهم غيرروا الأمر فوضعوا هذه الغاية مكان تلك الغاية التي رضيّها لهم ربّهم فطبع الله بذلك على قلوبهم فلا يسمعون كلمة الحقّ .

ولعلّ قوله : «الشرّاء والسرّاء» قدم فيه الشرّاء على السرّاء ليحاذى ما في قوله تعالى : «ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة» من الترتيب .

وفي قوله : «فأخذناهم بعثة وهم لا يشعرون» تلوين إلى جهل الإنسان بجريان الأمر الإلهي ، ولذا كان الأخذ بعثة وفجأة من غير أن يشعروا به ، وهم يظنون أنّهم عاملون بمحاري الأمور ، وخصوصيات الأسباب ، لهم أن يتّقدوا ما يهدّ دهم من أسباب الهاك

بوسائل دافعة يهدىهم إلية العلم قال تعالى : « فلما جاءتهم رسالتهم بالبيانات فرحا بما عندهم من العلم » المؤمن : ٨٣ .

قوله تعالى : ولو أَنْ أَهْلَ الْقُرْيَ آمَنُوا وَاتَّقُوا الْفِتْحَنَا عَلَيْهِمْ بِرَبَّكُوكَاتْ » إلى آخر الآية . البركات أنواع الخير الكثير ربما يتلى الإنسان بفقده كالأمن والرخاء والصحّة والمال والأولاد وغير ذلك .

وقوله : « لَفِتَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرَبَّكَاتْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » فيه استعارة بالكتابية فقد شبهت البركات بمجاري تجري منها عليهم كل ما يتعمدون به من نعم الله لكنها سدت دونهم فلا يجري عليهم منها شيء لكنهم لو آمنوا واتقووا لفتحها الله سبحانه فجري عليهم منها برکات السماء من الأمطار والثلوج والحر والبرد وغير ذلك كل في موقعه وبالمقدار النافع منه ، وبرکات الأرض من النبات والفاكهه والأمن وغيرها ففي الكلام استعارة المجازي للبرکات ثم ذكر بعض لوازمه وآثاره وهو الفتح للمستعار له .

وفي قوله : ولو أَنْ أَهْلَ الْقُرْيَ آمَنُوا وَاتَّقُوا » الآية دالة على أن افتتاح أبواب البركات مسبب لا إيمان أهل القرى بجيعها وتقواهم أى أن ذلك من آثار إيمان النوع الإنساني وتقواه لا إيمان البعض وتقواه فإن إيمان البعض وتقواه لا ينفك عن كفر البعض الآخر وفسقه ، ومع ذلك لا يرتفع سبب الفساد وهو ظاهر .

وفي قوله : « وَلَكُنْ كَذَّ بُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » دالة على أن الأخذ بعنوان المجازاة ، وقد تقدم في البيان المذكور آنفًا ما يتبيّن به كيفية ذلك ، وأنه في الحقيقة أعمال الإنسان ترد إليه .

قوله تعالى : « أَفَمَنْ أَهْلَ الْقُرْيَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَيْمَانَّا وَهُمْ نَائِمُونَ » البيات والتبييت قصد العدو ليلاً ، وهو من المكر لأن الليل سكن يسكن فيه الإنسان ويميل بالطبع إلى أن يستريح وينقطع عن غيره بالنوم والسكنون .

وقد فرغ مضمون الآية على ما قبله أي إذا كان هذا حال أهل القرى أنه يغترّون بما تحت حسائهم عمّا وراءه فيفجرون ويأخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون فهل أمنوا أن يأتيهم عذاب الله ليلاً وهم في حال النوم ، وقد عتمتهم الغفلة .

قوله تعالى : أَوْمَنْ أَهْلَ الْقُرْيَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا صَحِّي وَهُمْ يَلْعَبُونَ » الضَّحِي صَدَرَ النَّهَارَ حِينَ تَنْبَسُطُ الشَّمْسُ ، وَالْمَرَادُ بِاللَّعْبِ الْأَعْمَالُ الَّتِي يَشْتَغِلُونَ بِهَا لِرَفْعِ حَوَافِجِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمُتَمَتَّعُ مِنْ مَزَايَا الشَّهْوَاتِ ، وَهِيَ إِذَا لَمْ تَكُنْ فِي سَبِيلِ السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَطَلْبُ الْحَقِّ كَانَ لَعْبًا ، فَقُولُهُ : « وَهُمْ يَلْعَبُونَ » كُنْيَاةٌ عَنِ الْعَمَلِ لِلْدُنْيَا وَرِبَّمَا قِيلَ : إِنَّهُ اسْتِعَارَةٌ أَيِّ يَشْتَغِلُونَ بِهَا لَا نَفْعُ فِيهِ كَائِنُهُمْ يَلْعَبُونَ ، وَلَيْسَ يَعْيَدُ أَنْ يَكُونَ قُولُهُ فِي الْآيَةِ الْسَّابِقَةِ « وَهُمْ نَاءِمُونَ » كُنْيَاةٌ عَنِ الْغَفْلَةِ . وَمَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ .

قوله تعالى : « أَفَأَمْنَوْا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنْ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » مَكْرُ بِهِ مَكْرًا أَيْ مَسْهَهُ بِالضَّرِّ أَوْ بِمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الضرُّ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ وَهُوَ إِنَّمَا يَصْحُّ مِنْهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ عَلَى نَحْوِ الْمُجَازَاةِ كَأَنْ يَأْتِي الْإِنْسَانُ بِالْمُعْصِيَةِ فَيُؤَاخِذُهُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ مِنْ حِيثُ لَا يَشْعُرُ أَوْ يَفْعُلُ بِهِ مَا يَسْوَقُهُ إِلَيْهِ الْعَذَابُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَأَمَّا الْمَكْرُ الْأَبْتَدَائِيُّ هُنْ غَيْرُ تَحْقِيقِ مُعْصِيَةِ سَابِقَةٍ فَمَمَّا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ تَعَالَى وَقَدْ مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ كَرَارًا .

وَمَا أَلْطَفَ قُولُهُ تَعَالَى : « أَفَأَمْنَوْ أَهْلَ الْقُرْيَ » وَ« أَوْمَنْ أَهْلَ الْقُرْيَ » ثُمَّ قُولُهُ : « أَفَأَمْنَوْ مَكْرَ اللَّهِ » ، وَالثَّالِثُ - وَهُوَ الَّذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ - بَعْ جُمْ وَتَلْخِيصٍ لِلْإِنْكَارِيَنِ الْسَّابِقِيَنِ فِي الْآيَتَيْنِ ، وَقَدْ أَظْهَرَ فِي الْآيَتَيْنِ جَمِيعًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقُولَ فِي الثَّانِيَةِ : أَوْ أَمْنَوْ الْخَلِيلُوْدُ الْضَّمِيرُ فِي الْآيَةِ الْثَّالِثَةِ إِلَى مَنْ فِي الْآيَتَيْنِ جَمِيعًا كَأَنَّهُ أَخْذَ أَهْلَ الْقُرْيَ وَهُمْ نَاءِمُونَ غَيْرُ أَهْلِ الْقُرْيِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ .

وقوله : « فَلَا يَأْمُنْ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَيْنَ فِي الْآيَتَيْنِ أَوْلَيْنِ أَنَّ الْأَمْنَ مِنْ مَكْرَ اللَّهِ نَفْسِهِ مَكْرَ اللَّهِ يَتَعَقَّبُهُ الْعَذَابُ إِلَهِي » فَالآنُونُ مِنْ مَكْرَ اللَّهِ خَاسِرُونَ لَأَنَّهُمْ مُمْكُورُ بِهِمْ بِهَذَا الْأَمْنِ بِعِينِهِ .

قوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَهِدِ اللَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا » إِلَى آخرِ الْآيَةِ . الظَّاهِرُ أَنَّ فَاعِلَ قُولُهُ : « يَهِدِ » ضَمِيرٌ رَاجِعٌ إِلَى مَا أَبْجَلَهُ مِنْ قَصْصِ أَهْلِ الْقُرْيَ ، وَقُولُهُ : « لِلَّذِينَ يَرْثُونَ » مَفْعُولُهُ عَدِيٌّ إِلَيْهِ بِاللَّامِ لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى التَّبَيْنِ ، وَالْمَعْنَى : أَوْلَمْ بَيْتَنَ مَا تَلَوَنَاهُ مِنْ قَصْصِ أَهْلِ الْقُرْيَ لِلَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا هَادِيًّا لَهُمْ ، وَقُولُهُ : أَنَّ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ » الْآيَةُ مَفْعُولٌ « يَهِدِ » وَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا الْأَخْلَافُ

الّذين ورثوا الأرض من أسلافهم .

و محصل المعنى : أَولم يتبين أخْلَافُ هؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّا آخَذْنَاهُم بِمُعَاصِيهِمْ بعد ما امتحناهم ثم طبعنا على قلوبهم فلم يستطعوا أن يسمعوا مواتعه أنيابهم أَنَّا لَوْ نَشَاءُ لَا صَبَنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْنَعُنَا مِنْهُمْ مَانِعٌ أَوْ يَتَقَوَّلُ بِأَسْنَانِ بَشِّيٍّ .
وربما قيل : إِنْ قَوْلَهُ : « يَهُدُ » مِنْزَلَةُ اللازمِ وَالمعنىُ : أَولم يَفْعُلْ بِهِمُ الْهَدَايَا ؟
أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبَنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَ نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَوْلَمْ يَهُدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقَرْوَنِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ». الم السجدة : ٢٦ .

وقوله : « وَنَطَّبَعَ عَلَى قَلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » فَمَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ « أَصَبَنَاهُمْ لَا إِنْ »
الماضي هُنَّا فِي مَعْنَى الْمُسْتَقْبِلِ ، وَالْمَعْنَى أَوْلَمْ يَهُدِ لَهُمْ أَنْ لَوْ نَشَاءُ نَطَّبَعَ النَّعْ ، وَقَوْلٌ : جَمَّةٌ
مُعْتَرَضَةٌ تَذَيِّلِيَّةٌ ، وَ فِي الْآيَةِ وَجْهٌ وَأَقْوَالٌ أُخْرَى خَالِيَّةٌ عَنِ الْجَدْوِيِّ .
قَوْلُهُ تَعَالَى « تَلَكَ الْقَرْيَ نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا » إِلَى آخر الآيَةِ . تَلْخِيصُ ثَانٍ
لِفَصْصِهِمْ الْمُقْصُوصَةِ سَابِقًا بَعْدِ التَّلْخِيصِ الَّذِي مَرَّ فِي قَوْلِهِ : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ »
إِلَى آخر الآيَتَيْنِ أَوِ الْآيَاتِ الْثَلَاثِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّلْخِيصَيْنِ أَنَّ الْأَوَّلَ تَلْخِيصٌ مِنْ جَهَةِ صَنْعِ اللَّهِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
ثُمَّ تَبْدِيلِ السَّيِّئَةِ حَسْنَةً ثُمَّ الْأَخْذُ بِغَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَالثَّانِي تَلْخِيصٌ مِنْ جَهَةِ حَالِهِمْ
فِي أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ الدُّعَوَةِ إِلَاهِيَّةٌ ، وَهُوَ أَنْهُمْ وَإِنْ جَاءَتْهُمْ رَسْلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ لِكَنْهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا
لِتَكَذِّبِهِمْ مِنْ قَبْلٍ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلٍ ، وَهَذَا مِنْ طَبْعِ اللَّهِ عَلَى قَلُوبِهِمْ .
وَقَوْلُهُ : « وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلٍ » ظَاهِرٌ الْآيَةُ أَنَّ قَوْلَهُ « بِمَا » مُتَعَلِّقٌ
بِقَوْلِهِ « لِيُؤْمِنُوا » وَلَازِمٌ ذَلِكَ أَنْ تَكُونُ « مَا » مُوصَولةً وَيُؤْيِدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ
« فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ » يُونِسٌ : ٧٤ فَإِنَّهُ أَظْهَرَ فِي كَوْنِ « مَا » مُوصَولةً
مَكَانَ ضَمِيرٍ « بِهِ » وَيُؤْوِلُ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِمَا دَعَوْا إِلَيْهِ أَوْلَأَ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ عِنْدَ
الْدُّعَوَةِ النَّبِيَّيَّةِ ثَانِيًّا .

وَيُؤْيِدُهُ ظَاهِرٌ قَوْلُهُ « فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » فَإِنَّهُ هَذَا التَّرْكِيبُ يَدِلُّ عَلَى نَفِي التَّهْيِئَةِ
الْقَبْلِيَّةِ يُقَالُ : مَا كَنْتَ لَا تَيِّ فَلَانَا ، وَمَا كَنْتَ لَا كَرِمٌ فَلَانَا وَقَدْ فَعَلَ كَذَا أَيِّ لَمْ يَكُنْ مِنْ

شأني كذا ولم أكن بمتاهي لکذا ، وفي التنزيل : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » آل عمران : ١٧٩ أي كان في إرادته التمييز من قبل .

وقال تعالى : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهدى لهم سبلا » النساء : ١٣٧ .
ويؤيده أيضاً قوله في الآية التالية : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » فإن ظاهر السياق أن هذه الآية معطوفة عطف تفسير على قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل » فيتبين بها أنّهم كانوا عهد إليهم بعهد ففسقوا عنه وكذّبوا به حين عهد إليهم ثم إذا جاءتهم الرسل بالبيّنات كذّبواهم ولم يؤمنوا بهم ، وما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل .

والآية أعني قوله : « ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل » مذيلة بقوله : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » فدل ذلك على أنّ ما وصفه من مجيء الرسل بالبيّنات وعدم إيمانهم لتكذيبهم بذلك قبلًا هو من مصاديق الطبع المذكور ، وحقيقة أن الله ثبت التكذيب في قلوبهم ومكنته من نفوسهم حتى إذا جاءتهم الرسل بالبيّنات لم يكن محلّ لقبول دعوتهم لكون المجل مشغولاً بضدّه ، فتنطبق هاتان الآياتان بحسب المعنى على الآيتين الأولىين أعني قوله : « وما أرسلنا في قرية مننبي إلا أخذنا أهلها » إلى آخر الآيتين حيث تصفان سنة الله أنه يرسل آيات دالة على حقيقة أصول الدعوة من التوحيد وغيره بأخذهم بالبأساء والضراء ثم تبديل السيدة حسنة ثم يطبع على قلوبهم جراء لجرهم .

وعلى هذا فالمعنى في الآية : لقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات لكنهم ملائمونا بالآيات المرسلة إليهم الداعية لهم إلى التضرع إلى الله والشكر لا حسانه بل شكوا فيها بل حملوها على عادة الدهر وتصريف الأيام وتقليلها الإنسان من حال إلى حال فكذّبوا بهذه الآيات ، واستقر التكذيب في قلوبهم فلما دعاهم الأنبياء إلى الدين الحق لم يؤمنوا بما كانوا يدعون إليه من الحق وبما كانوا يذكرون لهم بها من الآيات لأنّهم كذّبوا بها من

قبل وما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل فإنَّ الله عزَّ وجلَّ طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

فعدم إيمانهم أثر الطبع الإلهي، والطبع أثر تكذيبهم بدلالة الابتلاء بالأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثانية، ومن الدليل عليه قوله: «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ملأاً ظلموا و جاءتهم رسالهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين» يونس: ١٣، وقوله: «ثم بعثنا من بعده - يعني نوحًا - رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين» يونس: ٧٤ وعلى هذا فقوله: «فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل» تفريغ على قوله: «ولقد جاءتهم رسالهم بالبيّنات»، وأمراد بما كذّبوا به الآيات البيّنات التي ذكرتهم بها الأنبياء من آيات الآفاق والأُنفُس وما جاؤوا به من الآيات المعجزة فالجميع آياته، وأمراد بتكذيبهم بهامن قبل، تكذيبهم بها من حيث دلالة عقولهم بمشاهدتها أنهم مربوبون لله لا رب لهم سواه، وبعدم إيمانهم ثانية عدم إيمانهم بها حين يذكّرهم بها الأنبياء. فالمعني فما كانوا ليؤمنوا بما يذكّرهم به ويأتي به الأنبياء من الآيات التي كذّبوا بها حين ذكرتهم بها عقولهم، وأرسلها الله إليهم ليدكروا و يتضرّعوا إليه و يشكروا له. وعلى هذا فأمراد بالعهد في قوله في الآية التالية: «وما وجدنا لأكثراهم من عهد وإن وجدنا لأكثراهم لفاسقين» هو العهد الذي عهده الله سبحانه وإليهم من طريق العقل بلسان الآيات: أن لا يعبدوا إلّا إيه، وأمراد بالفسق خروجهم عن ذلك العهد بعدم الوفاء به.

ولهذا العهد تحقق سابق على هذا التحقيق وهو أنَّ الله سبحانه أخذه بعينه منهم حين خلقهم وسواهم بخلق أبيهم آدم وتسويته ثم جعله مثالاً للإنسانية العامة فأسجد له الملائكة وأدخله الجنة ثم عهد إليه حين أمر بهبوطه الأرض أن يعده هو وذرّيته ولا يشرّكوا به شيئاً.

وقد قدر الله سبحانه هنا لك ما قدر فهدي بحسب تقديره قوماً ولم يهد آخرين ثم إذا وردوا الدنيا وأخذوا في سيرهم في مسير الحياة اهتدى الأوّلون، وفسق عن عهده

الآخرون حتى طبع الله على قلوبهم وحّقّت عليهم الضلاله في الدنيا بعد أعمالهم السيئة كما تقدّم بيانه في تفسير قوله : « كما بدواكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلاله » الآية ٣٠ من السورة .

فمعنى الآية على هذا : فما كانوا ليؤمنوا عند دعوة الأنبياء بما كذّبوا به ولم يقبلوه عند أخذ العهد الأول ، وما وجدنا لا كثراً من وفاء في الدنيا بالعهد الذي عهداه هناك وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين خارجين عن حكم ذلك العهد .

فهذا معنى لكنه غير مناف للمعنى السابق فإن أحد المعنيين في طول الآخر وليس بما تعارضين فإن تعين طريق الإنسان وغايته من سعادة وشقاوة بحسب القدر لا ينافي إمكان سعادته وشقاوته في الدنيا ، وإناطة تحقق كلّ منها باختياره ذلك وانتخابه . وللقوم في تفسير الآية أقوال أخرى :

١ - أن المراد بتكذيبهم من قبل ، تكذيبهم من حين مجيء الرسل إلى حين الإصرار والعناد ويقوله : « فما كانوا ليؤمنوا » الخ كفراً لهم حين الإصرار ، والمعنى فما كانوا ليؤمنوا حين العناد بما كذّبوا به من أول الدعوة إلى ذلك الحين ، وهذا وجه سخيف لا شاهد له من جهة اللفظ البister .

٢ - أن المراد بتكذيبهم قبلاً ، تكذيبهم بأصول الشرائع الإلهية التي لا يختلف في شيء منها كالتوحيد والمعاد ، ومسألة حسن العدل وقبح الظلم مثلاً مما يستقلّ به العقل ، وبتكذيبهم بعدها تكذيبهم بتفاصيل الشرائع ، والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بهذه الشرائع المفصلة وهي التي كذّبوا بها قبل إجهالاً قبل الدعوة التفصيلية ، وفيه أنه خلاف ظاهر الآية فلا يقال للكافر بالله وبسائر ماثبوته فطريّاً عند العقل أنه تكذيب . على أن ما تقدّم من القرائن على خلافه يكذّبه .

٣ - أن الآية على حد قوله تعالى : « ولو ردّوا العادوا لما نهوا عنه » فالمعني : ما كانوا لو أهلّكناهم ثم أحينناهم ليؤمنوا بما كذّبوا به قبل إهلاكهم . هذا . وهو أسفٌ ما قيل في تفسير الآية .

٤ - أن ضمير « كذّبوا » راجع إلى أسلافهم كما أن ضمير « ليؤمنوا »

للاختلاف : والمعنى : فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أسلافهم ، وفيه : أنه قول من غير دليل وظاهر سياق قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا » أأن مرجع الثلاثة جميعاً واحد ، ومن الممكن أن يقرر هذا الوجه بما يرجع إلى الوجه الآتي .

٥ - أن الكلام مبني علىأخذ عامة أهل القرى من أسلافهم وأخلاقهم واحداً بعث إليه الرّسل ، وهم مأخوذون كالشخص الواحد فيكون تكذيب الأسلاف لأنبيائهم تكذيباً من الأخلاف لهم ، وعدم إيمان الأخلاف أيضاً عدم إيمان من الأسلاف وهذا كما يذكر القرآن أهل الكتاب وخاصة اليهود ثم يؤخذ أخلاقهم بما قدّمه أيديي أسلافهم ، وتنسب إلى لاحقيهم مظالم سابقيهم في آيات كثيرة فيكون المعنى : هؤلاء البشر منذ خلقوا إلى اليوم جاءتهم رسالاتهم بالبيانات فما كان يؤمن آخرهم بما كذب به أوّلهم . هذا .

وفيه : أنه وإن كان في نفسه معنى صحيحاً لكن السياق لا يلائم فالكلام مسوق لبيان حال الأمم الغابرة كما يدل عليه قوله : « تلك القرى نقص عليك من أنبيائها » ولو كانوا مأخوذين على نعمت الوحدة الممتدة بامتداد أعصارهم حتى يكون لها أول آخر وصدر و ذيل يكفر بأخرها وذيلها بما كذب به بأولها وصدرها كان من حق الكلام أن يدل على مثل هذا الاستمرار في قوله : جاءكم رسالاتهم بالبيانات » فيقال : كانت تأتيهم رسالاتهم بالبيانات أو ما يؤدّي هذا المعنى لا بمثل قوله : « جاءكم » الظاهر في اعتبار الدفعة والمرّة فافهم ذلك .

وذلك كما في قوله تعالى : « كلّمَا جاءهم رسول بما لا يهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » المائدة : ٧٠ فمن المعلوم أنه ربّما كان المكذبون غير القاتلين ، وقد تنسب الجميع إلى مجتمع واحد لكن دل على استمرار مجيء الرسول ، ونظيره قوله : « ذلك فإنه كانت تأتيهم رسالاتهم بالبيانات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتوّلوا واستغنى الله » التغابن : ٦ ، وكذا قوله في قصص الأنبياء بعد نوح : « ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبيانات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » يونس : ١٤ فإن مفاد قوله « بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم » : بعثنا كل رسول إلى قومه .

- ٢١٧ -

٦ - أنَّ الباء في قوله : «بِمَا كَذَّبُوا» سببيةٌ وما مصدريةٌ ، و المراد بتكذيبهم من قبل ما اعتادوه من تكذيب الرسل أو كلَّ حَقٍّ و اجههم ، والمعنى : فما كانوا ليؤمنوا بسبب التكذيب الذي تقدَّم منهم للرسل أو لكلَّ حَقٍّ ، بِرَبِّهِمْ .

وفيه : أنَّه محيجوج بنظير الآية وهو قوله : «فَمَا كَانُوا لِيؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ» فإنَّ وجود ضمير «به» فيه دليل على أنَّ ما موصولة . على أنَّ ظاهر الآية أنَّ الباء للتعدية ، و «بِمَا» متعلقة بقوله : «لِيؤْمِنُوا» . على أنَّه بوجه راجع إلى الوجه الأوَّل .

٧ - أنَّ المراد بما أُشير إليه آخرًا تكذيبهم الذي أُسرَّ و يوم الميثاق والمعنى : فما كانوا ليؤمنوا عند دعوة الأنبياء في الدنيا بما كَذَّبُوا به قبله يوم الميثاق .

وفيه : أنَّه معنى صحيح في نفسه غير أنَّه من البطن دون الظهر الذي عليه يدور التفسير ، و الدليل عليه قوله بعده : «كَذَّلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ» فـأُنْهَى يصرح بأنَّ عدم إيمانهم كذلك إنْسَاكَان بالطبع على قلوبهم ، وإنَّ اللَّهَ طَبَعَ عَلَى قلوبِهِمْ بتكذيبهم السابق فلم يؤمنوا به عند الدعوة اللاحقة ، والطبع لا يكون ابتدائياً في الدنيا بل لجرائم سابق فيها ، وهذا أحسن شاهد على أنَّ هذا التكذيب الذي أورث لهم الطبع على قلوبهم كان في الدنيا ثمَّ الطبع أوجب لهم أن لا يؤمنوا بما كَذَّبُوا به من قبل .

وفي هذا المعنى آيات أخرى تدلُّ على أنَّ الطبع و الختم الإلهي إنَّما هو عن جرم سابق دينويٌّ ، وليس مجرَّد سبق التكذيب في الميثاق ينتج الطبع الابتدائي في الدنيا فـأُنْهَى ممَّا لا يليق به سبحانه البesta وقد قال : «يُضْلَلُ» به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلُّ به إلَّا الفاسقين » البقرة : ٢٦ .

قوله تعالى : «وَمَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرَهُمْ مِنْ عَهْدِ» إلى آخر الآية قال في المجمع : من عهد أي من وفاه بعهده كما يقال : فلان لاعهد له أي لوفاه له بالعهد ، و ليس بحافظ للعهد (انتهى) و من العجائز أن يراد بالعهد عهد الله الذي عهده إليهم من ناحية آياته أو عهدهم الذي عاهدوا الله عليه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ومن ناحية حاجة أنفسهم و دلالة عقولهم ، وقد ظهر معنى الآية ممَّا تقدَّم .

بحث روائي

في الكافي بإسناده عن الحسين بن الحكم قال : كتبت إلى العبد الصالح أخبره أنسٌ
شاكٌ وقد قال إبراهيم : « رب أرنى كيف تحيي الموتى » فـأـنـي أـحـبـ أنـ قـرـينـي شـيـئـاـ منـ
ذـلـكـ . فـكـتـبـ إـلـيـهـ : إـنـ إـبـراـهـيمـ كـانـ مـؤـمـنـاـ وـأـحـبـ أـنـ يـزـدـادـ إـيمـانـاـ ، وـأـنـتـ شـاكـ وـلـشـاكـ
لـأـخـيرـ فـيـهـ ، وـكـتـبـ : إـنـّـاـ الشـاكـ مـالـمـ يـأـتـ الـيـقـيـنـ فـإـذـاـ جـاءـ الـيـقـيـنـ لـمـ يـجـزـ الشـاكـ .
وـكـتـبـ : إـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ يـقـولـ : « وـمـاـ وـجـدـنـاـ لـأـكـثـرـهـمـ مـنـ عـهـدـ وـإـنـ وـجـدـنـاـ
أـكـثـرـهـمـ لـفـاسـقـيـنـ » قـالـ : نـزـلتـ فـيـ الشـاكـ .

أقول : وانطباقه على ما مر في البيان السابق ظاهر، وقد روى ذيل الحديث العياشي
عن الحسين بن الحكم الواسطي وفيه : نزلت في الشاك .



لَمْ يَعْثُنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ يَا يَا تَنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةٌ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانْظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبُيُونَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 فَارْسِلْ مَعِيَ بْنَى إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْنَتَ بِآيَةً فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنْ
 الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَالْقَوْنِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُبْيَسٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ
 بِيَضَاءِ الْمَنَاظِرِيَنَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلَيْهِمْ (١٠٩)
 يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا ارْجِهِ وَاخْأُهُ وَاوْرِسِلْ
 فِي الْمَدَائِنِ حَاسِرِيَنَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلَيْهِمْ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ
 فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّا لَأَجْرَأَاهُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمْ يَنْ
 الْمُقْرَبُونَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِيُّنَ (١١٥)
 قَالَ الْقَوْافِلُمَا الْقَوْفَا سَحْرُ وَاعِيَنَ النَّاسُ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُ وَبِسَحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)
 وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَىٰ أَنَّ الْقَوْنِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ
 الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَبَوْا هُنَّا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِيَنَ (١١٩)
 وَالْقَوْنِي السَّحَرَةُ سَاجِدِيَنَ (١٢٠) قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَ
 هَرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنَ آمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرُ مَكْرُ ثَمَوْهُ
 فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَا قَطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ وَ
 ارْجَلِكُمْ مِنْ خَلْأَفِ ثُمَّ لَا صِلْبِنَكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رِبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)
 وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ
 تَوَقَّنَا مُسْلِمِيَنَ (١٢٦) .

﴿بيان﴾

شروع في قصص موسى عليه السلام ، وقد خس بالذكر منها مجبيه إلى فرعون و دعوه الرسالة إليه لنجاهة بني إسرائيل و إتيانه بالآياتين اللتين آتاه الله إياهما ليلة الطور ، وهذه القصة هي التي تشتمل عليها هذه الآيات ثم إجمال قصتها حين إقامته في مصر بين بني إسرائيل لا ينجوهم ، وما نزل على قوم فرعون من آيات الشدة إلى أن أنجى الله بني إسرائيل ؛ ثم تذكر قصة نزول التوراة وعبادة بني إسرائيل العجل ، ثم قصصاً متفرقةً من بني إسرائيل يعتبر بها المعتبر .

قوله تعالى : «ثُمَّ بَعْثَانَنِ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةِهِ» إلى آخر الآية .
 في تغير السياق في أول القصة دلالة على تجدد الاهتمام بأمر موسى عليه السلام فإنه من أولى العزم صاحب كتاب وشريعة ، وقد ورد الدين ببعنته في مرحلة جديدة من التفصيل بعد اطهالتين اللتين قطعهما ببعثة نوح وإبراهيم عليهما السلام ، وفي لفظ الآيات شيء من الإشارة إلى تبدل المراحل فقد قال تعالى أولاً : «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» «وَإِلَى عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا» «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا» فجرى على سياق واحد لأنّ هوداً و صالحًا كانوا على شريعة نوح ؛ ثم غير السياق فقال : «وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ لَا نَنْلُوْطًا من أهل المرحلة الثانية في الدين وهي مرحلة شريعة إبراهيم ، وكان لوط على شريعة ثم عاد إلى السياق السابق في بدء قصة شعيب ، ثم غير السياق في بدء قصة موسى بقوله : «ثُمَّ بَعْثَانَنِ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةِهِ» لأنّه ثالث أولى العزم صاحب كتاب جديد وشريعة جديدة ، ودين الله وشرعه وإن كان واحداً لا تناقض فيه ولا تنافي غير أنه مختلف بالإجمال والتفصيل والكمال وزيادته بحسب تقدم البشر تدريجاً من النقص إلى الكمال ، و استعداده لقبول المعارف الإلهية عصراً بعد عصر إلى أن ينتهي إلى موقف علمي هي أعلى المواقف

فيختتم عند ذلك الرسالة والنبوة ، ويستقر الكتاب و الشريعة استقراراً لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعة جديدة ، ولا يبقى للبشر بعد ذلك الا التدرج في الكمال من حيث انتشار الدين وانبساطه على المجتمع البشري واستيعابه لهم ، وإلا التقدم من جهة التحقق بحقائق المعارف ، والترقي في مراقي العلم والعمل التي يدعو إليها الكتاب ، ويحرض عليها الشريعة والأرضن الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

فقوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى يا ياتنا » إلى آخر الآية إجمال لقصص موسى عليهما السلام ثم يؤخذ في التفصيل من قوله : « وقال موسى يا فرعون » الآية ، وإننا وإن كننا نسمّي هذه القصص بقصة موسى وقصة نوح وقصة هود وهكذا فإنّها بحسب ما سردت في هذه السورة قصص الأمم والأقوام الذين أرسل إليهم هؤلاء الرسل الكرام يذكّر فيها حالهم فيما واجهوا به رسول الله من الإنكار والرد ، وما آل إليه أمرهم من نزول العذاب الإلهي الذي أفنى جمعهم ، وقطع دابرهم ولذلك ترى أنّ عامّة القصص المذكورة مختومة بذلك نزول العذاب وهلاك القوم .

ولاتنس ما قدّمناه في مفتتح الكلام أنّ الغرض منها بيان حال الناس في قبول العهد الإلهي المأْخوذ منهم بعياً ليكون إنذاراً للناس عامّة وذكرى للمؤمنين خاصة ، وأنّه الغرض الجامع بين ما في سور « الم » وما في سورة « ص » من الغرض وهو الإنذار و الذكرى .

فقوله : « ثم بعثنا من بعدهم » أي من بعد من ذكرنا من الأنبياء وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهما السلام « موسى إلى فرعون و ملائئه » أي إلى ملك مصر والأشراف الذين حوله ، و « فرعون » لقب كان يطلق على ملوك مصر كالمخديو كما كان يلقب بقىصر وكسرى وفغفور ملوك الروم وإيران والصين ، ولم يصرّح القرآن الكريم اسم هذا الفرعون الذي أرسل إليه موسى فأغرقه الله بيده .

وقوله : « يا ياتنا » الظاهر أنّ المراد بها ما أتى به في أول الدعوة من إلقاء العصا فإذا هي ثعبان ، وإخراج بيده من حبيبه فإذا هي بيضاء ، والآيات التي أرسلها الله إليهم

بعد ذلك من الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصالات ، ولم ينقل القرآن الكريم لنبيه من الأنبياء من الآيات الكثيرة ما نقله عن موسى عليه السلام .

وقوله : « فظلموا بها » أي بالآيات التي أرسل بها على ما سينكره الله سبحانه في خلال القصة ، وظلم كل شيء بحسبه ، وظلم الآيات إنما هو التكذيب بها و إِنكار لها .

وقوله : « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ذكر عاقبة الْفَسَاد في الاعتبار بأمرهم لأنهم كانوا يفسدون في الأرض ويستضعفونبني إسرائيل ، وقد كان في متن دعوة موسى حين ألقاه إلى فرعون : « فأرسل معيبني إسرائيل » وفي سورة طه : « فأرسل معنابني إسرائيل ولا تعد بهم » طه : ٤٧ .

قوله تعالى : « و قال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين » شروع في تفصيل قصة الدعوة كما تقدّمت الإشارة إليه ، وقد عرّف نفسه بالرسالة ليكون تمثيلاً لذ كرماً أرسل لأجله ، وذكره تعالى باسمه رب العالمين أنساب ما يتصور في مقابلة الوثنين الذين لا يرون إلاّ لأنّ لكل قوم أولكل شأن من شؤون العالم وطرف من أطرافه ربّاً على حدة .

قوله تعالى : حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق » إلى آخر الآية تأكيد لصدقه في رسالته أي أنا حري « بأن أقول قول الحق » ولا أنساب إلى الله في رسالته منه إليك شيئاً من الباطل لم يأمرني به الله سبحانه ، وقوله : « قد جئتم بدينتكم من ربكم » في موضع التعليل بالنسبة إلى جميع ما تقدّم أو بالنسبة إلى قوله : « إني رسول من رب العالمين » لأنّه هو الأصل الذي يتفرّع عليه غيره .

ولعلّ تعدية « حقيق » بعلى من جهة تضمينه معنى حريص على كذا حقيقة به ، والمعروف في اللغة تعدية حقيق بمعنى حري بالباء يقال : فلان حقيق بالإلزام أي حري به لائق .

وقرئ : « حقيق على » بتشدد الياء والحقيقة على هذا ما خُوذ من حق عليه كذا أي وجب ، والمعنى واجب على أن لا أقول على الله إلا الحق فالحقيقة خبر ومبتدأه قوله :

أن لا أقول الآية والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قال إن كنت جئت بيأة فأنت بها إن كنت من الصادقين » الشرط في صدر الآية أعني قوله : « إن كنت جئت بيأة » يتضمن صدقه تَكْتِلَتِ الْأَيَّةُ فِي نَفْهِ إِذَا كَانَ جَائِيًّا الآية واقعاً فقد مَدَقَ في إخباره بأنّه قد جاء بيأة لكن الشرط في ذيل الآية تعرّيف يومي به إلى أنه ما يعتقد بصدقه في إخباره بوجود آية معه ، فكانه قال : إن كنت جئت بيأة فأنت بها وما أظنك تصدق في قولك . فلا تقرار في الشرط .

قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاه فَإِذَا هِيَ شَعْبَانَ مَبِينٍ » الفاء جوابية كما قيل أي فأجابه بالقاء عصاه ، وهذه هي فاء التفريع والجواب مستفاد من خصوصية المورد ، و الشعبان الحية العظيمة ولا تنافي بين وصفه هبنا بالشعبان المبين وبين ما في موضع آخر من قوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَهَا تَهْتَزُ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَيْ مَدِيرًا وَلَمْ يَعْبُرْ » القصص : ٣١ والجان هي الحية الصغيرة لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجن إنما جاء في قصة ليلة الطور وقد قال تعالى فيها في موضع آخر : « فَالْفَاقِهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » طه : ٢٠ وأما ذكر الشعبان فقد جاء في قصة إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك .

قوله تعالى : « وَنَزَعَ يَدِهِ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ الْمَنَاظِرِينَ » أي نزع يده من جيبيه على ما يدل عليه قوله تعالى : « وَاضْمِمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » طه : ٤٢ و قوله : « اسْلِكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » القصص : ٣٢ .

والأخبار وإن وردت فيها أن يده تَكْتِلَتِ الْأَيَّةُ كانت تضي كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ عند إرادة الإعجاز بها لكن الآيات لا تقص أزيد من أنها كانت تخرج بباء للمنظرين إلا أن كونها آية معجزة تدل على أنها كانت تبيض ابتساما لا يشك الناظرون في أنها حالة خارقة للعادة .

قوله تعالى : « قَالَ مَلَأً مِنْ قَوْمٍ فَرَعُوْنَ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلَيْمٌ » لم يذكر تعالى ما قاله فرعون عند ذلك ، وإنما الذي ذكر محاورة الملايين بعضهم بعضا كانوا منهم في مجلس مشاوراة يذاكر بعضهم بعضا ويشير بعضهم إلى ما يراه ويصوّبه آخرون فيقدّمون ماصوّبوه من رأي إلى فرعون ليعمل به فهم طلاقاً تشاوروا في أمر موسى وما شاهدوه من آياته المعجزة

قالوا : إنّ هذا لساحر علیم ، وإذا كان ساحراً غير صادق فيما يذکره من رسالته اللهم سبحانك
فإنما يتوصّل بهذه الوسيلة إلى نجاةبني إسرائيل واستقلالهم في أمرهم ليتأيّد بهم ثم
يخرج جنكم من أرضكم ويذهب بطريقتكم المثلث فماذا تأمرون به في إبطال كيده ، و إخراج
ناره التي أو قدها أمن الواجب مثلاً أن يقتل أو يصلب أو يسجن أو يعارض بساحر
مثله .

فاستصوّروا آخر الآراء ، وقدّمهوه إلى فرعون أن أرجه و أخيه وابعث في المدائن
حاشرين يأتوك بكلّ ساحر علیم .

ومن ذلك يظهر أنّ قوله تعالى « فما ذا تأمرون » حكاية ما قاله بعض الملاّء البعض
وقوله « قالوا أرجه » الخ حكاية ما قدّمهوه من رأي الجميع إلى فرعون وقد اتفقا عليه ،
وقد حكى الله سبحانه في موضع آخر من كلامه هذا القول بعينه من فرعون يخاطب بهملاً .
قال تعالى : « قال للملائكة حوله إنّ هذالساحر علیم يريده أن يخرجكم من أرضكم بسحره
فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكلّ سحّار علیم
الشعراء : ٣٧ .

ويظهر مما في الموضعين أنّهم إنما شاوروا حول ما قاله فرعون ثم صوّبوه ورأوا أن
يجيئه بسحر مثل سحره ، وقد حكى الله أيضاً هذا القول عن فرعون يخاطب به موسى حتى
بالذى أشار إليه الملاّء من معارضة سحره بسحر مثله إن قال : « قال أجيئنا لتخرجننا
من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتيك بسحر مثله » طه : ٥٧ و لعلّ ذلك محصل ما خرج
من مشاورتهم حول ما قاله فرعون بعد ما قدم إلى فرعون فخاطب به موسى من
قبل نفسه .

وللملاّء جلسة مشاورة أخرى أيضاً بعد قدم السحرة إلى فرعون ناجي فيها بعضهم
بعضاً بمثل ما في هذه الآيات قال تعالى : « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى قالوا
إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما ويدهبا بطريقتكم المثلث »
طه : ٦٣ .

فتبيّن أنّ أصل الكلام لفرعون ألقاه إليهم ليتشاوروا فيه و يروا رأيهم فيما يفعل

به فرعون فتشاوروا و صدّقوا قوله و أشاروا بالإرجاء و بجمع السحرة للمعارضة قبليه ثم ذكره موسى ثم اجتمعوا للمساعدة و المعاينة ثانياً بعد مجيء السحرة واتفقاً أن يجتمعوا عليه و يعارضوه بكلٍّ ما يقدرون عليه من السحر صفاً واحداً .

قوله تعالى : «يريد أن يخر جكم من أرضكم فما ذا تأمرون» أي يريد أن يتايد بيضي إسرائيل فيتملك مصر ، ويبطل استقلالكم وينخر جكم من أرضكم ، وكثيراً ما كان يتافق في الاعصار السابقة أن يهجم قوم على قوم فيتغلبوا عليهم فيشغلوا أرضهم ويتملّكوا ديارهم فيخر جوهم منها ويشرّدتهم في الأرض .

قوله تعالى : «قالوا أرجه و أخاه وأرسل في المدائن حاشرين» إلى آخر الآية التالية . أرجه بسكون الهاء أمر من الإرجاء بمعنى التأخير و الهاء للمسكت أي آخره و أخاه ولا تعجل لهما بشرٌ كالقتل ونحوه حتى ترمي بظلم أو قسوة و نحوهما بل أبعث في المدائن من جنودك حاشرين يجمعون السحرة فإذا توك بهم ثم عارض سحر موسى بسحر السحرة .

وقريء : أرجه بكسر الجيم والهاء وأصله أرجئه قلبت الهمزة ياءً ثم حذفت ، و الهاء ضمير راجع إلى موسى ، وأخوه هو هارون عليه السلام .

قوله تعالى : «وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لاجراً» إلى آخر الآية التالية أي فأرسل حاشرين فحشرواهم وجاء السحرة كلٌ ذلك محفوظ للإيجاز .

وقولهم : «إن لنا لاجراً» سؤال للأجر جيء به في صورة الخبر للتاكيد ، وإفادهُ الطلب الإنثائي في صورة الإخبار شائع ، ويمكن أن يكون استفهاماً بحذف أداته ، و يؤيده قراءة ابن عامر : أئن لنا لاجراً ، و قوله : «قال نعم وإنكم من المقربين» إجابة لمسؤولهم مع زيادة وعدهم بالتقريب .

قوله تعالى : قالوا يا موسى إماماً أن تلقى وإنما أن تكون نحن الملقين» خيروه بين أن يكون هو الملقي بعصاه ، وبين أن يكونوا هم الملقين لما أعدوه من العجب والعصي وهذا التخيير في مقام استعداد لما قابلته ، ولا محالة يفيد التخيير في الابتداء بالإلقاء فمعناه إن شئت ألق عصاك أو لا وإن شئت ألقينا حبالنا وعصيننا أو لا .

و فيه نوع من التجليل للدلالة على أنهم لا يبالون بأمره سواء ألقى قبلهم أو بعدهم فلا يهابونه على أى حال لوثوقهم بأنهم هم الغالبون ، ولا يخلو التخيير مع ذلك عن نوع من التأدب .

قوله تعالى : « قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس » إلى آخر الآية السحر هنا نوع تصرف في حاسة الإنسان بـ دراك أشياء لاحقيقة لها في الخارج ، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » البقرة : ١٠٢ في الجزء الأول من الكتاب ، والاسترهاب الإخافة ، ومعنى الآية ظاهر ، وقد عد الله فيها سحرهم عظيما .

قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى أن ألق » إلى آخر الآيتين . أن تفسيرية و اللقف واللقفان تناول الشيء بسرعة ، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه و لذا يطلق على الكذب ، وفي الآية وجوه من الإيجاز ظاهرة ، والتقدير : وأوحينا إلى موسى بعد ما ألقوا أن ألق عصاك فألقها فإذا هي حية وإذا هي تلفق ما يأفكون .

وقوله ، « فوقع الحق » فيه استعارة بالكتنائية بتشبيه الحق بشيء كانه معلم لا يعلم عاقبة حاله أیستقر في الأرض بالوقوع عليها والتمكّن فيها أم لا ؟ فوقع واستقر « وبطل ما كانوا يعملون » من السحر .

قوله تعالى : « فغلبوا هنا لك و انقلبوا صاغرين » أى غالب فرعون وأصحابه « هنالك » أى في ذلك المجمع العظيم الذي تهاجم عليهم فيه الناس من كل جانب ففي لفظ « هنالك » إشارة إلى ذلك وهو للبعد ، « وانقلبوا صاغرين » أى عادوا وصاروا أذلاء مهانين .

قوله تعالى : « و ألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون » أبهم فاعل الالقاء في قوله : « وألقى السحرة ساجدين » وهو معلوم فإن السحرة هم الذين ألقوا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، وذلك للاشارة إلى كمال تأثير آية موسى فيهم وإدهاشها إياهم فلم يشعروا بأنفسهم حين ما شاهدوا عظمة الآية وظهورها عليهم إلا وهم ملقون ساجدون فلم يدرروا من الذي أوقع بهم ذلك ،

فاضطربُّتْهُمُ الآيةُ إِلَى الْخُرُورِ عَلَى الْأَرْضِ ساجدين ، وَالإِيمَانُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي اتَّخَذَهُ مُوسَى وَهَارُونَ ، وَفِي ذَكْرِ مُوسَى وَهَارُونَ دَلَالَةٌ عَلَى إِيمَانِهِمَا مَعَ إِيمَانِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَرَبِّمَا قيلَ : إِنَّ إِيمَانَهُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ أَدْفَعَ تُوهُّمَهُمْ أَنْ يَكُونُوا إِيمَانَهُمْ لِفَرْعَوْنَ فَإِنَّهُ كَانَ يَدْعُ إِلَيْهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا يَسْتَنُوْهُ بِقَوْلِهِمْ « رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ » وَلَمْ يَأْخُذَا فَرْعَوْنَ رَبَّهُمْ أَنْدَفَعَ ذَلِكَ التُوهُّمُ . وَلَا يَخْلُو عَنْ خَفَاءِ فِي الْوَثْنِيَّةِ مَا كَانَتْ تَقُولُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ بِحَقِيقَةِ مَعْنَاهُ بِمَعْنَى مِنْ يَمْلِكُ الْعَالَمِينَ وَيَدْبِرُ أَمْرَ جَمِيعِ أَجْزَائِهَا بِالْاسْتِقْامَةِ بَلْ قَسَّمُوا أَجْزَاءَ الْعَالَمَ وَشَوَّهُنَّهَا بَيْنَ أَرْبَابِ شَتَّى ، وَإِنَّمَا أَعْطَوْا اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَقَامَ إِلَهِ الْآلهَةِ وَرَبِّ الْأَرْبَابِ لِأَرْبَابِ وَمَرْبُوبِهَا .

وَالَّذِي ادْعَاهُ فَرْعَوْنُ لِنَفْسِهِ عَلَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » النازعات : ٤٢ إِنَّمَا هُوَ الْعَلوُّ مِنْ جَهَةِ الْقِيَامِ بِحَاجَةِ النَّاسِ - وَهُمْ أَهْلُ مَصْرِ خَاصَّةً - عَنْ قَرْبِ وَاتِّصَالِ لَا مِنْ جَهَةِ الْقِيَامِ بِرَبِّيَّةِ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ أَحَاطَتِ الْخَرَافَاتِ عَلَى الْوَثْنِيَّةِ بِحِيثُ لَا يَسْتَبِعُهُ أَنْ يَتَفَوَّهُوا بِكُونِ فَرْعَوْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِنْ خَالَفُوا أَصْوَلَ مَذَاهِبِهِمْ قُطْعًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « قَالَ فَرْعَوْنُ آمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » إِلَى آخِرِ الْآيَتِينِ خَاطَبَهُمْ فَرْعَوْنُ بِقَوْلِهِ : « آمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » تَأْنِفًا وَاسْتِكْبَارًا ، وَهُوَ إِخْبَارٌ يُفِيدُ بِحَسْبِ اطْقَامِ الْإِنْكَارِ وَالْتَّوْبِيهِنَّ ، وَمِنْ الْجَائزِ أَنْ يَكُونَ اسْتِفَهَامًا إِنْكَارِيَّاً أَوْ تَوْبِيَخِيَّاً مَحْدُوفًا إِلَادَةً .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّهُمْ هَذَا مَكْرُ مَكْرُمُوْهُ فِي الْمَدِينَةِ » الآيةُ يَتَّهِمُهُمْ بِالْمُواطَاهِ وَالْمُواضِعَةِ فِي الْمَدِينَةِ يَرِيدُ أَنْهُمْ طَالِبُونَ اجْتِمَاعًا فِي مَدِينَتِهِ بَعْدَ مَا حَشَرُوهُمُ الْحَاشِرُونَ مِنْ مَدَائِنَ مُخْتَلَفَةٍ شَتَّى فَجَاؤُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَقُوا مُوسَى أَجْعَوْا عَلَى أَنْ يَمْكِرُوا بِفَرْعَوْنَ وَأَصْحَابِهِ فَيَتَسَلَّطُوا عَلَى الْمَدِينَةِ فَيَخْرُجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، وَذَلِكَ لَا نَهُمْ لَمْ يَشَاهِدُوا مُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ فَلَوْ كَانُوا تَوَاطَّوْا عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ فِي مَدِينَتِهِ .

أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ إِيمَانَهُمْ بِقَوْلِهِ : « آمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » ثُمَّ اتَّهَمُهُمْ بِأَنَّهُمْ

تواطؤوا جميعاً على المكر ليخرجوا أهل المدينة منها بقوله : « إنَّ هذَا مُكْرٌ » الخ ليثبت لهم جرم الإِفساد في الأرض المنتج له سياستهم وتنكيلهم بأشد العقوبات .

ثم هدّدهم بقوله : « فَسُوفَ تَعْلَمُونَ » ثم يبيّنه وفصله بقوله : « لَا قَطْعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلَافٍ ثُمَّ لَا صَلْبَنَّكُمْ أَجْعَنَّ » فهذا هدّدهم تهديداً أكيداً أو لاً بقطع الآيدي والأرجل من خلاف وهو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى وبالجملة قطع كل من اليد والرجل من خلاف الجهة التي قطعت منها الأخرى .

وثانياً بالصلب وهو شدّ المجرم بعد تعذيبه على خشبة ورفع الخشبة باثبات جانبه على الأرض ليشاهده الناس فيكون لهم عبرة ، وقد تقدّم تفصيل بيانه في فصص المسيح عليه السلام في تفسير سورة آل عمران .

قوله تعالى : « قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » إلى آخر الآيات . جواب السحرة وهم القائلون هذا المقال وقد قابلوه بما يبطل به كيده ، وتنقطع به حجّته ، وهو أنك تهدّى دنا بالعذاب قبال ما تنقم مثنا من الإيمان برّبنا ظنناً منك أنَّ ذلك شرٌ لنا من جهة انقطاع حياتنا به وما نقايسه من ألم العذاب ، وليس ذلك شرًّا فَإِنَّا نرجُم إلى ربّنا ، ونجيا عنده بحياة القرب السعيدة ، ولم نجترم إلّا ما تعددَ أنت لنا جرماً وهو إيماننا برّبنا فما دوننا إلّا الخير .

وهذا معنى قوله : « قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » وهو إيمان منهم بالمعاد « وما تنقم مثنا إلّا أنْ آمَنَا بآيات ربّنا مثنا جاءتنا » وعدوا أمر العصا - على الظاهر - آيات كثيرة لاشتماله على جهات كل منها آية كصيروتها ثعباناً ، ولقفها حبالهم وعصيّهم واحداً بعد واحد ، ورجوعها إلى حالتها الأولى .

والنقم هو الكراهة والبغض يقال : نقم منه كذا ينقم من باب ضرب وعلم : إذا كرمه وأبغض .

ثم أخذتهم الجذبة الإلهيّة من غير أن يذعوا مثما هدّدهم به ، واستغاثوا برّبهم على ما عزم به من تعذيبهم وقتلهم فسألوه تعالى قائلين : « رَبِّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا - على ما

يريد أن يوقع بنا من العذاب الشديد - و توفّنا مسلمين » إن قتلنا .
 وفي إطلاق الإفراج على إعطاء الصبر استعارة بالكتناء فشبّهوا نفوسهم بالآنية ،
 والصبر بملاء ، وإعطاءه بإفراج الآباء بملاء وهو صبه فيه حتى يغمره ، وإنما سأله ذلك
 ليفيض الله عليهم من الصبر مالا يجزعون به عند نزول أي عذاب وألم ينزل بهم .
 وقد جاؤوا بالعجب العجاب في مشافهتهم هذه مع فرعون وهو الجبار العنيد الذي
 ينادي « أنا ربكم الأعلى » ويعبده ملك مصر فلم يذعرهم ما شاهدوا من قدرته وسطوته
 فأغاروا عن حجتهم بقلوب مطمئنة ، ونفوس كريمة ، وعزّم راسخ ، وإيمان ثابت ، وعلم
 غريب ، وقول بلieve ؛ وإن تدبّرت ما حكاه الله سبحانه من مشافهتهم ومحاورتهم فرعون في
 موقفهم هذا في هذه السورة وفي سوري طه والشعراء أرشدوك ما في خلال كلامهم من الحجاج
 البالغة إلى علوم جمة ، وحالات روحية شريفة ، وأخلاق كريمة ، ولو لا محظوظ الخروج عن
 طور هذا الكتاب لأوردنا شذرة منها في هذا المقام فلينتظر إلى حين .

﴿ بحث روائي ﴾

ما قصّه الله في كتابه من قصة مجيء موسى بما آتاه الله من الرسالة ، وأيده به
 من آياتي العصا واليد البيضاء ، ومعه أخوه هارون إلى فرعون وإيتائه بالأيات ثم جمع فرعون
 للسحرة ومعارضته بسحرهم ، وإظهار الله آية موسى على سحرهم ، وإيمان السحرة لا يتجاوز
 ما ذكر في هذه الآيات بحالا .

وقد اشتملت الروايات الواردة من طرق الشيعة أو طرق أهل السنة على هذه المعانى
 غير أنها تشتمل مع ذلك من تفاصيل القصة على أمور عجيبة لم يتعرّض لها كتاب الله كما
 ورد : أن عصا موسى كان من آس الجنة ، وأنها كانت عصا آدم وصلت إلى شعيب ثم أعطاها
 موسى ، وفي بعض الروايات أنها كانت عصا آدم أعطاها ملك موسى حين توجه إلى مدين
 وكانت تضيء له بالليل ، ويضرب بها الأرض في النهار فيخرج له رزقه وفي بعضها : أنها
 كانت تتنطق إذا استنطقت ، وكانت إذا صارت ثعباناً عند فرعون بعد ما بين لحييه اثنا عشر

ذراعاً ، وروي أربعون ذراعاً وفي بعضها ثمانون ذراعاً وأنّها ارتفعت في السماء ميلاً ، وفي بعضها أنها وضعت أحدهما شفريها على الأرض والآخر على سور قصر فرعون ، وفي بعضها : أنها أخذت قبة فرعون بين أيابها ، وحملت على الناس فانهزموا مزدحدين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ، وفي بعضها : أنها كانت ثمانون ذراعاً ، وفي بعضها : أنها كانت في العظم كالمدينة ، وفي الرواية : أنّ فرعون أحدث في ثيابه من حول مارأى ، وفي بعضها : أنه أحدث في ذلك اليوم أربع مائة منّة وفي بعضها : أنه استمر معه داء البطن حتى غرق وفي الروايات أنه عليك كان إذا أخرج يده من جبيه كان يغلب نورها نور الشمس .

وفي الرواية : أنّ السحرة كانوا سبعين رجلاً ، وفي بعضها : ستّمائة إلى تسعمائة وفي بعضها : اثنى عشر ألفاً ، وفي بعضها خمسة عشر ألفاً ، وفي بعضها : سبعة عشر ألفاً ، وفي بعضها : تسعه عشر ألفاً ، وفي بعضها بضعة وثلاثين ألفاً ، وفي بعضها : سبعين ألفاً ، وفي بعضها : ثمانين ألفاً .

وفي الرواية أنّهم كانوا أخذوا السحر من رجلين جوسيين من أهل « نينوى » وفيهما : أنه كان اسم رئيسهم شمعون ، وفي بعضها : يوحنا ، وفي بعضها أنه كان لهم رؤساء أربعة أسماؤهم : سابور ، وعاذور ، وحطط ، ومصفي .

وكذا ورد في نفس فرعون : أنّ اسمه الوليد بن المصعب بن الريان ، وأنّه كان من أهل اصطخر فارس ، وفي بعضها : أنه من أبناء مصر ، وفي بعضها : أنّ فرعون هذا هو فرعون يوسف عاش أربعين سنة ولم يشب ولا أبىض منه شعر .

وفي بعضها : أنه بنى مدارن يتحصن فيها من موسى ، وجعل فيما بينها آجام وغياض ، وجعل فيها الأسد ليتحصن بها من موسى فلما بعث الله موسى إلى فرعون دخل المدينة فلما رأه الأسد تبصّر وولت مدبرة ، ثم لم يأت مدينة إلا افتح له بابها حتى انتهى إلى قصر فرعون الذي هو فيه .

قال : فقعد على بابه ، وعلىه مدرعة من صوف ومعه عصاه فلما خرج الآذن قال : استاذن لي على فرعون فلم يلتقط إلينه قال : فقال له موسى : أنا رسول رب العالمين فلم يلتقط إلينه قال : فمكث بذلك ما شاء الله يسأله أن يستاذن له قال : فلما أكثر عليه قال : أما

وَجَدَ رَبَّ الْعَالَمِينَ مِنْ يَرْسُلَهُ غَيْرَكَ ؟

قال : فغضب موسى فضرب الباب بعصاه فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلا افتتح حتى نظر إليه فرعون وهو في مجلسه فقال : أدخلوه قال : فدخل عليه وهو في قبة له مرتفعة كثيرة إلا رفيع ثمانيون ذراعاً فقال : أنا رسول رب العالمين إليك . قال : فقال : فأنت آية إن كنت من الصادقين قال : فألقى عصاه وكان له شعبتان . قال : فإذا هي حية قد وقع إحدى الشعتين على الأرض والشعبة الأخرى في أعلى القبة . قال : فنظر فرعون جوفها وهي تلهب نيراها . قال : وأهوى إليه فأخذت وصاح يا موسى خذها .

إلى غير ذلك مما يشتمل عليه الروايات من العجائب في هذه القصة وأغلبها أمور سكت عنها القرآن لا سبيل إلى ردّ أغلبها إلا الاستبعاد ، ولا إلى قبولها إلا حسن الظن بكل رواية مروية ، وهي ليست بمتوترة ولا محفوفة بقرائن قطعية بل جلها من رسائل أو موقوفة أو ضعيفة من سائر جهات الضعف على ما بينها من التعارض فالغرض منها أولى .



وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ أَتَدْرِي مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذْرَكُ وَآتَيْتَكَ قَالَ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَا فِي وَقْتِهِمْ
فَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَسْتَعِنُ بِاللهِ وَأَصْبِرُ وَإِنَّ الْأَرْضَ لِللهِ يُورِثُهَا
مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أَوْدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ
بَعْدِ مَا جَعَلْنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيُسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيُنَظِّرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخْذَنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْأَسْنَينَ وَنَقْصٍ مِنَ الشَّمَرَاتِ
لِعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) إِنَّا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةَ فَأَتَوْا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَاتٌ
يُطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهِمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْخَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقَمَلُ وَالضَّفَادُعُ وَالْدَّمُ
آيَاتٍ مُّهَمَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ
الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهْدَتِكَ لَنَا فَكَشَفَ عَنَّا الرِّجْزُ
لَقَوْمِنَّ لَكَ وَلَنْرِسَلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى
أَجَلِهِمْ بِالْغَوَّةِ إِذَا هُمْ يَنْكُنُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
بِإِنَّهُمْ كَذَّبُوا يَا يَأْتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ
كَانُوا يَسْتَضْعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
الْحَسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمِرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمَهُ
وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧).

﴿بيان﴾

الآيات تشمل على إهمال ماجرى بينه وبين فرعون وقومه أيام إقامة موسى بينهم بعد القيام بالدعوة يدعوهـم إلى الله وإلى إطلاق بنـي إسرائـيل ويأتـهم بالآية بعد الآية حتى أنجـاه الله تعالى وقومـه ، وأغرـق فـرعـون وجـنـودـه ، وـأورـثـ بنـي إسرائـيل الأـرضـ المبارـكةـ مـشارـقـهاـ وـمـغارـبـهاـ .

قوله تعالى : «وقـالـ اـمـلـاـ مـنـ قـوـمـ فـرـعـونـ أـتـذـرـ مـوـسـيـ وـقـوـمـهـ إـلـىـ آـخـرـ الـآـيـةـ . هـذـاـ إـغـرـاءـ مـنـهـ لـفـرـعـونـ وـتـحـرـيـضـ لـهـ أـنـ يـقـتـلـ مـوـسـيـ وـقـوـمـهـ ، وـلـذـلـكـ رـدـ فـرـعـونـ قـوـلـهـ بـأـنـهـ لـاـ يـهـمـنـاـ قـتـلـهـمـ فـإـنـاـ فـوـقـهـمـ فـاـهـرـونـ عـلـىـ أـيـ حـالـ بـلـ سـنـعـيـدـ عـلـيـهـمـ سـابـقـ عـذـابـنـاـ فـنـقـتـلـ أـبـنـاهـمـ وـنـسـتـحـيـيـ نـسـاءـهـمـ ، وـلـوـكـانـ مـاـ سـأـلـوـاـ مـطـلـقـ تـعـذـيـبـهـمـ غـيرـ القـتـلـ لـمـ يـقـعـ قـوـلـهـ : «إـنـاـ فـوـقـهـمـ فـاـهـرـونـ» مـوـقـعـهـ ذـلـكـ الـوـقـوعـ .

وقـولـهـ : «وـيـذـرـكـ وـآـلـهـتـكـ» تـأـكـيدـ لـتـحـرـيـضـهـمـ إـيـامـهـ عـلـىـ قـتـلـهـمـ ، وـالـمـعـنـىـ أـنـ مـوـسـيـ يـتـرـكـ وـآـلـهـتـكـ فـلـاـ يـعـبـدـ كـمـ مـعـ ماـ يـفـسـدـ هـوـ وـقـوـمـهـ فـيـ الـأـرـضـ ، وـفـيـهـ دـلـالـةـ عـلـىـ أـنـ فـرـعـونـ كـمـاـ كـانـ يـدـعـيـ الـأـلـوـهـيـةـ ، وـيـسـتـبـعـدـ النـاسـ لـنـفـسـهـ كـانـ يـعـبـدـ آـلـهـةـ أـخـرـىـ ، وـهـوـ كـذـلـكـ وـالـتـارـيـخـ يـثـبـتـ نـظـائـرـ لـذـلـكـ فـيـ الـأـمـمـ السـالـفـةـ ، وـقـدـ نـقـلـ : أـنـ عـظـمـاءـ الـبـيـوتـ وـسـادـاتـ الـقـوـمـ فـيـ الـرـوـمـ وـمـالـكـ أـخـرـىـ غـيرـهـاـ كـانـ يـعـبـدـهـمـ مـرـؤـوـسـوـهـمـ مـنـ بـيـهـمـ وـعـشـائـرـهـمـ ، وـهـمـ أـنـسـهـمـ كـانـواـ يـعـبـدـونـ آـبـاهـمـ الـأـوـلـيـنـ وـأـصـنـامـاـ أـخـرـىـ غـيرـهـمـ كـمـاـ يـعـبـدـهـمـ ضـعـفـائـهـمـ ، وـأـيـضاـ بـينـ الـأـرـبـابـ الـتـيـ تـعـبـدـهـاـ الـوـثـنـيـةـ مـاـ هـوـ رـبـ لـغـيـرـهـ مـنـ الـأـرـبـابـ أـوـ رـبـ آـخـرـ كـرـبـوـبـيـةـ الـأـبـ وـالـأـمـ لـلـابـنـ وـغـيرـ ذـلـكـ .

إـلـاـ أـنـ قـوـلـهـ لـقـوـمـهـ فـيـمـاـ حـكـاهـ اللـهـ سـبـحـانـهـ . «أـنـاـ رـبـكـمـ الـأـعـلـىـ» النـازـعـاتـ : ٢٤ـ ،
وـقـولـهـ : «مـاـ عـلـمـتـ لـكـمـ مـنـ إـلـهـ غـيرـيـ» القـصـصـ : ٣٨ـ ظـاهـرـ فـيـ أـنـهـ كـانـ لـاـ يـتـسـخـذـ لـنـفـسـهـ

ربّاً، وكان يأمر قومه أن لا يعبدوا إلّا إياه، ولذلك قال بعضهم : إنّه كان دهريّاً لا يعترف بصنائع ، ويأمر قومه بترك عبادة الآلهة مطلقاً ، وقصر العبادة فيه ، ولذلك قرّه بعضهم على ما قيل - «ولهلك» بكسر الهمزة وفتح اللام واثبات الألف بعدها كالعبادة وزناً ومعنى .

لكنّ الاُوجّه أنّه كان يريد بقوله : «ما علّمت لكم من إله غيري» نفي إله يخصّ قومه القبطيين يملّكهم ويدبر أمورهم غير نفسه كما هو المعهود من عقائد الوثنيين أنّ لكلّ صنف من أصناف الخلائق كالسماء والأرض والبرّ والبحر وقوم كذا ، أو من أصناف الحوادث والأمور كالسلم والحرب والحبّ والجمال ربّاً على حدة ، وإنّما كانوا يعبدون من بينها ما يهمّهم عبادته كعبادة سكان سواحل البحار ربّ البحر والطوفان .

فمعنى كلامه أنّي أنا ربّكم معاشر القبطيين لا ما اتّخذه موسى وهو يدعى أنّه ربّكم أرسله إليّكم ، و يؤيّد ما ذكرناه ما احتفّ به من القرينة بقوله : «ما علّمت لكم من إله غيري» فائِنَّه تعالى يقول : «وقال فرعون يا أيّها الملائكة علّمتموني ما علّمتموني فأؤقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى وإنّي لأنظنه من الكاذبين» ^{٣٨} الفصل : ^{٣٨} فظاهرها أنّه كان يشكّ في كونه إلهًا موسى ، وأنّ معنى قوله : «ما علّمتم لكم من إله غيري» نفي العلم بوجود إله غيره لا العلم بعدم وجود إله غيره ، وبالجملة فكلامه لا ينفي إلهًا غيره .

وأمّا احتمال كون فرعون دهريّاً غير قائل بوجود الصانع فالظاهر أنّه الذي يوجد في كلام الرازبي قال في التفسير الكبير ما لفظه :

الذّي يخطر بيالي أنّ فرعون إن قلنا : إنّه ما كان كامل العقل لم يجز في حكمه الله تعالى إرسال الرسول إليه ، وإن كان عاقلاً لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالق السموات والأرض ، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاة أن يعتقدوا فيه ذلك لأنّ فساده معلوم بضرورة العقل .

بل الأقرب أن يقال : إنّه كان دهريّاً ينكر وجود الصانع ، وكان يقول : مدبر هذا العالم السفليّ هو الكواكب ، وأمّا المجدى في هذا العالم للخلق ولتنك الطائفه والمريبي

لهم فهو نفسه فقوله : «أنا ربكم الأعلى» أي مربتكم والنعم عليكم والمطعم لكم ، وقوله : «ما علمت لكم من إله غيري» أي لا أعلم لكم أحداً يجب عليكم عبادته إلا أنا .

وإذا كان مدحه بذلك لم يبعد أن يقال : إنّه كان قد اتّخذ أصناماً على صور الكواكب ويعبدوها ويقرّب إليها على ما هو دين عبادة الكواكب ، وعلى هذا التقدير فلا امتناع في جمل قوله تعالى : «ويذكر وآلهتك» على ظاهره فهذا ما عندى في هذا الباب انتهى . وقد أخطأ في ذلك فليس معنى الألوهية والربوبية عند الوثنيين وعبدة الكواكب خالقية السموات والأرض بل تدبير شيء من أمور العالم كما احتمله أخيراً ، ولا في الدهريين من يعبد الكواكب ، ولا في الصابئين وعبدة الكواكب من ينكر وجود الصانع .

بل الحق أنّ فرعون - كما تقدّم - كان يرى نفسه ربّاً مصر وأهله ، وكان إنّما ينكر كونهم مربوبي إله آخر على قاعدتهم لأنّهم أو غيرهم من العالم ليسوا مخلوقين لله سبحانه .

وقوله تعالى : «قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نسائهم وإنّا فوقهم فا هرون» وعد منه للملائكة من قومه أن يعيده إلىبني إسرائيل تعذيبه السابق وهو قتل أبنائهم واستحياء نسائهم واستبقاءهن للخدمة ، وعقبه بقوله : «وإنّا فوقهم فا هرون» وهو تطهير قلوبهم وإسكان ما في نفوسهم من الاضطراب والطيش .

قوله تعالى : «قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا» إلى آخر الآية . وهذا من موسى عليه السلام بعث لبني إسرائيل واستنهاض لهم على الاستعانة بالله على مقصدهم وهو التخلص من إسارة آل فرعون واستعبادهم ثم بعث على الصبر على شدائدهم بهـ فرعون من ألوان العذاب ، و الصبر هو رائد الخير و فرط كل فرج ؛ ثم عمل ذلك بقوله : «إن الأرض لله يورثها من يشاء» .

ومحصّله أنّ فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحكها من يشاء ، ويمنع من التمتع بها من يشاء بل هي لله يورثها من يشاء ، وقد جرت السنة الإلهية أن يخص بحسن

العاقبة من يتقىه من عباده فإن استعنت بالله وصبرتم في ذات الله على ما يهدكم من الشدائـد - وهو التقوى - أورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون . ولذلك عقب قوله : «إن الأرض لله» الآية بقوله : «والعاقبة للمتقين» العاقبة ما يعقب الشيء كالبادئ طاً بيده بالشيء ، وكون العاقبة مطلقاً للمتقين من جهة أنَّ السنة الإلهيَّة تقضي بذلك ، وذلك أنَّه تعالى نظم الكون نظماً يؤدي كلَّ نوع إلى غاية وجوده وسعادته التي خلق لأجلها فإن جرى على صراطه الذي ركب عليه ، ولم يخرج عن خطَّ مسراه الذي خطَّ له بلغ غاية سعادته لا محالة ، والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع أيضاً حاله هذا الحال إن جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة واتقى الخروج عنه والتعدي منه إلى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه هداه الله إلى عاقبته الحسنة ، وأحياء الحياة الطيبة ، وأرشده إلى كلَّ خير يبتغيه .

قوله تعالى : «قالوا أُوذينا من قبل أنْ تأتينا ومن بعد ما جئتنا » الآية وإن المجيء في الآية بمعنى واحد ، والاختلاف في التعبير للتقدير ، وما قيل إنَّ المعنى من قبل أن تأتينا بالآيات ومن بعد ما جئتنا لا دليل على ما فيه من التقدير . على أنَّ غرضهم إظهار أنَّ مجيء موسى وقد عدوا أنَّ الله ينجيهم بيده من مصيبة الإسارة وهاوية المذلة لم يؤثر أثره فإنَّ الأذى الذي كانوا يحملونه ويؤذون به على حاله ، ولا تعلق لغرضهم بأنَّه أتاهم بالآيات البشارة . وهذا الكلام شكوى منهم يبتئونها إلى موسى عليه السلام .

قوله تعالى : «قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف ت عملون » وهذا جواب من موسى عن قوله لهم : «أُوذينا » الخ يسلِّمُ لهم به ويعزِّزُ لهم بالرجاء ، وهو في الحقيقة تكرار لقوله السابق : استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأرض لله» الآية كأنَّه يقول : ما أمرتكم به أن تقووا الله في سبيل مقصدمكم كلمة حيَّة ثابتة فإن علمتم بها كان من المرجو أن يهلك الله عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض بما يراكم إيتاها ولا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاءً جزافاً ، ولا يكرمكم إكراماً مطلقاً من غير شرط ولا قيد بل ليتحقق لكم بهذا الملك ويبتليكم بهذا القسليط والاستخلاف فيننظر كيف تعملون قال تعالى : «وتلك الأيام نداولها بين الناس ولتعليم الله الذين آمنوا و يتَّخذون منكم شهداء »

آل عمران : ١٤٠ .

وهذا مما يخطئ به القرآن ما يعتقد اليهود من كرامتهم على الله كرامة لا تقبل عزلاً، ولا تحتمل شرطاً ولا قيداً، والتوراة تعدد شعب إسرائيل شعب الله الذي لهم الأرض المقدسة كأنهم ملوكها من الله سبحانه ملكاً لا يقبل نقاًلاً ولا إفالة.

قوله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » السنون جمع سنة وهي القحط والجدب ، وكأنّ أصله سنة القحط ثم قيل : السنة إشارة إليها ثم كثرة الاستعمال حتى تعنيت السنة لمعنى القحط والجدب .

والله سبحانه يذكر في الآية - ويقسم - أنه أخذ آل فرعون وهم قوم المختصون به من القبطيين بالقحوط المتعددة ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون .

وهما نوعان من الآيات التي أرسلها الله إلى آل فرعون ، وظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منها فصلاً فصلاً ، ولذا جمع السنين ولا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنة وسنة . على أنه يقول : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه » الآية وظاهره الحسنة التي بعد السيئة ثم السيئة التي بعد هذه الحسنة .

قوله تعالى : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه » إلى آخر الآية . كانوا إذا جاءهم الخصب ووفر النعمة وسعة الرزق بعذر ارتفاع السنة ونقص الثمرات قالوا : « لنا هذه » يريدون به الاختصاص وإنما قلنا : إنّهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنة ونقص الثمرات لأنّ الإنسان بحسب الطبع لا ينتقل إلى ذكر النعمة بما هي نعمة ، ولا يتنتبه لقدرها إلا بعد مشاهدة النعمة التي هي خلافها ، ولا داعي يدعوا آل فرعون إلى ذكر النعمة الحسنة وتخصيصها بأنفسهم لو لا أنّهم رأوا خلافها وعدوه أمرًا بدعاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى ومن معه ثم إذا بدللت السيئة حسنة عدّوها لأنفسهم فالتطيير عند السيئة بحسب الواقع قبل قولهم في الحسنة : لنا هذه وإن كان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنّهم لو لم يزعموا ولم يرتكز في فنونهم من اعتيادهم بالرفاهية ووفر النعمة والخصب أنّهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبة عليهم فإنّ من لم تروّحه الراحة والعافية لا يتحرّج عن خلافهما .

ولعلّ هذا هو الوجه في تقاديمه تعالى اغترارهم بالنعمة قبل تطيرهم عند النعمة ثم ذكر الحسنة بكلمة «إذا» والسيئة بلفظة «إن» حيث قال : «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبّهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه» فقد جعل مجيء الحسنة كالأصل الثابت فذكره فإذا والتعرّيف بلام الجنس، ثم ذكر إصابة السيئة بطريق الشرط، ونَكَرَ السيئة ليدلّ على ندرتها وكوتها اتفاقية .

والتطير مشتقٌ من الطير باعتبار اشتغاله على نسبة من النسب ، وهي نسبة التشّوّم فإنّهم كانوا يتشاركون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشّوّم وهو التطير، ومعناه التشّوّم بالطير حتى سمى مطلق النصيب أو النصيب من الشرّ والشّأمة طائرًا . فقوله تعالى : «ألا إنما طاؤرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون» معناه أن نصيبهم من الشرّ والشّوّم الذي يتحقّق به أن يسمى نصيب الشرّ وهو العذاب ، هو عند الله ، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون لظنّهم أنّ ما تجنيه أيديهم يفوت وينزول ولا يحفظ عليهم . وربما يذكّر للطائر في الآية معانٍ أخرى ككتاب الأعمال الذي سمّاه الله طائراً وغير ذلك لكنّ الأنسب بالسياق هو الذي تقدّم .

قوله تعالى : «وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين» مهما من أسماء الشرط معناه أي شيء ، وقولهم هذا إياتا منهم طوسي من أن يؤمنوا به وإن أتى بأي آية وفي قولهم : «من آية لتسحرنا بها» استهزاء به حيث سمّوها آية وجعلوا غرضه منها أن يسحرهم أي إنك تأتينا بالسحر وتسمّيهما آية .

قوله تعالى : «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والمد آيات مفصّلات» الآية ، الطوفان - على ما قاله الراغب - كل حادثة تحيط بالإنسان ، وصار متعارفاً في الماء انتباхи في الكثرة ، وفي المجمع : أنه السيل الذي يعم بتغيريقه الأرض ، وهو مأخذ من الطوف فيها (انتبه) .

والقمّل بالضم والتشديد قيل : كبار القردان ، وقيل : صغار الذباب وبالفتح فالسكون معروف . والجراد والضفادع والمد معروفة .

والتفصيل تفريق الشيء إلى أجزاء مفصولة منفصلة بعضها عن بعض ، ولازم ذلك

تميّز كلّ بعض وظهوره في نفسه فقوله : «آيات مفصلات» يدلّ على أنها أرسلت إليهم لا مجتمعة ودفعه بل متفرقة منفصلة بعضها عن بعض ظاهرة في أنها آيات إلهية مقصودة غير اتفاقية ولا جزافية .

ومن الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله في الآية التالية : «ولما وقع عليهم الرجز قالوا» الآية الظاهر أنّ الآية كانت تأتيهم عن إخبار من موسى وإنذار ثم إذا نزلت بهم ودهمthem التجأوا إليه فسألوه أن يدعوه لهم لتفكشف عنهم ، وأعطوه عهداً إن كشفت عنهم آمنوا به وأرسلوا معه بنى إسرائيل فلماً كشفت نكثوا ونقضوا ، وعلى هذا القياس .

قوله تعالى : «ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربّك» إلى آخر الآية . الرجز هو العذاب ويعني به العذاب الذي كانت تشتمل عليه كلّ واحدة من الآيات المفصلات فإنه آيات عذاب ونkal وقوله : «بما عهد عندك» على ما يؤيده المقام أي بما التزم عندك أن لا يردّ دعاءك فيما تسأله ، واللام عندئذ للقسم ، والمعنى ادع لنا ربّك بالعهد الذي له عندك .

وقوله : «لئن كشفت عنّا الرجز لنؤمن لك ولرسلنْ معك بنى إسرائيل» هو ما عاهدوا به موسى لكشف الرجز عنهم .

قوله تعالى : «فلماً كشفنا عنهم الرجز إلى أجلهم بالغوه إذا هم ينكثون» النكث نفس العهد ، وقوله : «إلى أجلهم بالغوه» متعلق بقوله : «كشفنا» وهو يدلّ على أنه كان يضمّ إلى المعاهدة أجل مضروب لأن يقول موسى عليه إن الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا وترسلوا معهم بنى إسرائيل إلى أجل كذا ، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلماً كشف العذاب عنهم وحلّ الأجل المضروب نكثوا ونقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله وعاهدوا موسى عليه . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فانتقمنا منهم فأغارناهم في اليم» اليم البحر ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «وأوردنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها» إلى

آخر الآية . الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام وفلسطين ويؤيده أو يدل عليه قوله بعد : « التي باركنا فيها » فإن الله سبحانه لم يذكر بالبركة غير الأرض المقدسة التي هي واحي فلسطين إلا ما وصف بها الكعبة المباركة والمعنى : أورثنا بنبي إسرائيل وهم المستضعفون الأرض المقدسة بمسارقها ومغاربها وإنما ذكرهم بوصفهم فقال : القوم الذين كانوا يستضعفون ليدل على عجيب صنعه تعالى في رفع الوضيع ، وتفوية المستضعف ، وتمليكه من الأرض مالا يقدر على مثله عادة إلا كل قوي ذو أعضاد وأنصار .

وقوله : « وتمت كلمة ربكم الحسنى » الآية يريد به ما قضاه في حقهم أنه سيورنهم الأرض ويهلك عدوهم ، وإليه إشارة موسى عليه السلام في قوله لهم وهو يسلّم لهم يؤكّد رجاءهم : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض » ويشير سبحانه إليه في قوله : « ونزير أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين » القصص ٥ و تمام الكلمة خروجها من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعلية ، وعلل ذلك بصبرهم .

وقوله : « ودمروا ما كان يصنع فرعون وقومه » الآية أي أهللنا ما كانوا يصنعونه وما كانوا يسفرون من القصور والأبنية وما كانوا يعشرون من الكرم وغيره .

* بحث روائي *

في المجمع : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق بن بشمار ، ورواه علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام - دخل حديث بعضهم في بعض - قالوا : مَا آمنت السحر ورجع فرعون مغلوباً وأبيه هو وقومه إلا إقامة على الكفر قال هامان لفرعون : إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس كل من آمن به من بنى إسرائيل فتابع الله عليهم الآيات ، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات .

ثم بعث عليهم الطوفان فخرّب دورهم ومساكنهم حتى خرجن إلى البرية وضرروا

الخيام ، وامتلأت بيوت القبط ماءً ، ولم يدخل بيوتبني إسرائيل من الماء قطرة ، وأقاموا على وجه أرضيهم لا يقدرون على أن يحرثوا فقالوا موسى : ادع لنا ربّك أن يكشف عنّا المطر فؤمن لك ونرسل معكبني إسرائيل فدعه ربّه فكشف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا وقال هامان لفرعون : لئن خلّيتبني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك وأنبت الله لهم في تلك السنة من الكلاء والزرع والثمر ما أعشيت به بلادهم وأخصبته فقالوا : ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً .

فأنزل الله عليهم في السنة الثانية - عن علي بن إبراهيم - وفي الشهر الثاني - عن غيره من المفسّرين - الجراد فجرّدت زروعهم وأشجارهم حتى كانت تجرّد شعورهم ولحاظهم ، وتأكل الأثواب والثياب والأمتعة ، وكانت لاتدخل بيوتبني إسرائيل ولا يصيّبهم من ذلك شيء فعيجوها وضجّوا واجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً ، وقال : يا موسى ادع لنا ربّك أن يكشف عنّا الجراد حتى أخلّي عنبني إسرائيل فدعا موسى ربّه فكشف عنه الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت .

وقيل : لأنّ موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغارب فرجعت الجراد من حيث جاءت حتى كان لم تكن قطّ ، ولم يدع هامان فرعون أن يخلّي عنبني إسرائيل .

فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة - في رواية عليّ بن إبراهيم - وفي الشهر الثالث - عن غيره من المفسّرين - **القمل** وهو الجراد الصغار الذي لأجنحة له ، وهو شرّ ما يكون وأخبيته فأتى على زروعهم كلّها واجتثّها من أصلها فذهبت زروعهم ، ولحسن الأرض كلّها .

وقيل : أسر موسى أن يمشي إلى كثيب أغرى بقرية من قرى مصر تدعى عين الشمس فأثاره فصر به بعصاه فانثال عليهم قملاً فكان يدخل بين ثوب أحددهم فيغضّه ، وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلىء قملاً قال سعيد بن جبير : القمل السوس الذي يخرج من العجوب فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلم يرد منها ثلاثة أفةزة فلم يصادوا بيلاه كان أشدّ عليهم من القمل ، وأخذت أشعارهم وأبصارهم وأشفار عيونهم وحواجزهم ، ولزتمت جلودهم كأنّها الجدرى عليهم ، ومنعتهم النوم والقرار فصرخوا واصروا و قال فرعون

ملوسى : ادع لناربك لئن كشفت عننا القمّل لأُكفن عن بنى إسرائيل فدعوا موسى حتى
ذهب القمّل بعد ما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا .
فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة - وقيل : في الشهر الرابع - الضفادع فكانت تكون
في طعامهم وشرابهم ، وامتلأت منها بيوتهم وأبنيتهم فلا يكشف أحد ثوبا ولا إناة ولا
طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع . وكانت تشب في قدورهم فتفسد عليهم ما فيها ، وكان
الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهمن أن يتكلّم فيليب الضفدع في فيه ، ويفتح فاه
لأكلته فيسبق الضفدع أكلاته إلى فيه فلقوها منها أذى شديدًا فلم رأوا ذلك بكوا وشكوا
ذلك إلى موسى وقالوا : هذه المرة نتوب ولا نعود فادع الله أن يذهب عنها الضفادع فإنما
ئؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربّه فكشف عنهم
الضفادع بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ثم نقضوا العهد وعادوا
لكرفهم .

فلما كانت السنة الخامسة أرسل الله عليهم الدم فسال ماء النيل عليهم دماً فكان
القطبي يراه دماً ، والإسرائيلى يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلى كان ماء ، وإذا شربه
القطبي كان دماً ، وكانقطبي يقول للإسرائيلى : خذ الماء في فيك وصبّه في في فكان
إذا صبّه في قمّل يتحول دما ، وأن فرعون اعتبره العطش حتى أتاه ليضطر إلى
مضخ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماء في فيه دما فنكثوا في ذلك سبعة أيام
لما كلون إلا الدم ، ولا يشربون إلا الدم . قال زيد بن أسلم الدم الذي سلط عليهم كان
الرعن فأتوا موسى فقالوا : ادع لنا ربّك يكشف عننا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك
بني إسرائيل فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا ولم يخلّوا عن بنى إسرائيل .
في تفسير العياشى عن محب بن قيس عن أبي عبد الله عليه السلام : لئن كشفت عننا الرجز
لنؤمن لك » قال : الرجز هو الثلوج ثم قال : بلاد خراسان بلاد رجز .
أقول : والرواية لاتنطبق على الآية ذاك الانطباق .

* * *

وَجَاؤْنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ
 قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ
 هُؤُلَاءِ مُتَبَرِّمُهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغْيِرُ اللَّهُ أَبْغِيْكُمْ إِلَهًا
 وَهُوَ فَضْلُّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يُسَوِّمُونَكُمْ
 سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيُسْتَحْيِيْنَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رِبِّكُمْ
 عَظِيمٌ (١٤١) وَأَعْدَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَاتَّمَّنَا هَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ
 لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هُرُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَاصْلِحْ وَلَا تَقْبِعْ سَبِيلَ
 الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ إِرْبَيْنِ انْظُرْ
 إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِينِي وَلِكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقْرَرَ مَكَانُهُ فَسُوفَ تَرِينِي فَلَمَّا
 تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تَبَتَّ
 إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ
 بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَيَخْذُلُ مَا أَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
 الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيْلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذْهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرَ قَوْمَكَ
 يَا خُذْهَا بِأَحْسَنِهَا سَارِيْكَمْ دَارَالْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنِّيَايَاتِي الَّذِينَ يَكْبُرُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ أَيَّةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
 لَا يَتَخَذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيْرِ يَتَخَذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِيَايَاتِنَا وَ

كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيْمَانِهَا وَلِقَاءُ الْآخِرَةِ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ
حَلِيلِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارُ الْمَرْأَةِ يَرَوُا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ
وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأُوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلَّوْا قَالُوا لَئِنْ
لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا نَكُونَ مِنَ الظَّاهِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى
قَوْمِهِ عَصَبَانَ أَسِفًا قَالَ يَشَّسَّمَا خَلْفَتُمْنِي مِنْ بَعْدِي أَعْجِلُتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى
الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرِهِ إِلَيْهِ قَالَ أَبْنَ امَّ إِنَّ الْقَوْمَ أَسْتَهْفُونِي وَ
كَادُوا يَقْتلُونِي فَلَمَّا تَشَمَّتْ بِي الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)
قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَاخِي وَادْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَإِنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)
إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّنَا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَّلِكَ
تَجْزِي الْأَمْفَتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا الْسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمُنُوا إِنَّ رَبَّكَ
مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ
وَفِي نَسْخِتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤).

بيان

شرع في بعض قصر، بني إسرائيل بعد تخلصهم من إسرارة آل فرعون مما يناسب
غرض القصص المسرودة سابقا وهو أن الدعوة الدينية ما توجهت إلى أمة إلا كان الكفر
إليها أسبق ، والناقضون لعهد الله فيهم أكثر في خص الله المؤمنين منهم بمزيد كرامته، وعدّ بـ
الكافر بن بشديد عذابه .

وقد ذكر في الآيات مجاوزةبني إسرائيل البحر ومسألهم بعد المجاوزة موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، وفيها عبادتهم للعجل بعد ما ذهب موسى لمقاتل ربّه وفي ضمنها حديث نزول التوراة عليه .

قوله تعالى : « وجاؤنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ » الآية ، العكوف الإقبال على الشيء و ملازمته على سبيل التعظيم . ذكره الراغب في المفردات ، و قوله ما « أَجْعَلْنَا إِلَيْهَا كَمَا لَهُمْ آلَهَةٌ » أي كما لهم آلهة مجعلوه .

كانت بنو إسرائيل على شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام ، وقد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق ويعقوب ويوسف ، وهم على دين التوحيد الذي لا يعبد فيه إلا الله سبحانه وحده لاشريك له المتعالي عن أن يكون جسماً أو جسمانياً يعرض له شكل أو قدر غير أنّ بنينا إسرائيل كما يستفاد من قصصهم كانوا قوماً مادّين حيث يجرون في حياتهم على أصلحة الحسن ولا يعنون بماوراء المحس إلا اعتناء تشريفياً من غير أصلة ولا حقيقة ، وقد مكثوا تحت إسارة القبط سنين متطاولة ، وهم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلك أرواحهم وإن كانت العصبية القومية تحفظ لهم دين آباءهم بوجه .

ولذلك كان جلهم لا يتصورون من الله سبحانه إلا أنه جسم من الأجسام بل جوهر اللوهي يشا كل الإنسان كما هو الظاهر المستفاد من التوراة الدائرة اليوم ، و كلما كان موسى يقرب الحق من أذهانهم حوّلهم إلى أشكال وتماثيل يتوجهونها له تعالى ، لهذه العلة لما شاهدوا في مسيرهم قوماً يعكفون على أصنام لهم استحسنوا مثل ذلك لأنفسهم عليهم السلام أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة يعكفون عليها .

فلم يجد موسى عليه السلام بدّا من أن ينزل في بيان توحيد الله سبحانه إلى ما يقارب فهمهم على قصوره فلامهم أولاً على جهلهم بمقام ربّهم معوضوح أنّ طريق الوثنية طريق باطل هالك ثم عرف لهم ربّهم بالصفة ، وأنّه لا يقبل صنماً ولا يحدّ بمثال كمما سيجيء .

قوله تعالى : « إِنَّ هُؤُلَاءِ مُتَّبِرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » المتبّر من التبار وهو الهلاك ، وأمراد قوله : « مَا هُمْ فِيهِ » سبب لهم الذي يسلكونه وهو عبادة الأصنام

والمراد بقوله : « ما كانوا يعملون » أعمالهم العبادية ، ومعنى أنّ هؤلاء الوثنية طريقتهم هالكة وأعمالهم باطلة فلا يحقّ أن يميل إلّي إنسان عاقل لأنّ الغرض من عبادة الله سبحانه وتعالى أن يهتدي به إنسان إلى سعادة دائمة وخير باق .

قوله تعالى : « قال أغيث الله أبغيكم إلّهاً و هو فضلكم على العالمين » « أبغيكم » أي أطلب لكم والتمن ، يعرف ربّهم ويصفه لهم ، و قوله : « أغيث الله أبغيكم إلّهاً » فيه تأسيس أنّ كلّ إلّه أبغيه لكم يجعل أوصنع فأنّما هو غير الله سبحانه و الذي يجب عليكم أن تعبدوا الله ربّكم بصفته الربوبية التي هي تفضيله إياكم على العالمين . فكان لهم قالوا . اجعل لنا إلّهاً كما لهم آلهة فقال : كيف التمن لكم ربّاً مصنوعاً وهو غير الله ربّكم ، وإذا كان غيره فعبادته متبرّضة باطلة ؟ فقالوا : فكيف نعبده ولا نراه ولا سبيل لنا إلى ما لانشاهده ؟ كما يقوله عبدة الأصنام . فقال : اعبدوه بما تعرفونه من صفتة فأنّه فضلكم على سائر الأمم بأياته الباهرة ودينه الحق و إنجائكم من فرعون و عمله ، فالآية - كما قرئ - ألطف بيان وأوجز برهان يجلّ عن الحق الصريح للأذهان الضعيفة التعقل .

قوله تعالى : « وإن أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب » إلى آخر الآية . سامه العذاب يسومه أي جعله ذلك على طريق الإذلال ، والتنقيل إلا كثار في القتل والاستحياء الاستبقاء للخدمة وقد تقدم ، والظاهر أنّ قوله : « وفي ذلكم » إشارة إلى ما ذكر من سوء تعذيب آل فرعون لهم .

والآية خطاب امتناني للموجودين من أخلاقهم حين النزول يمتنن الله فيها عليهم بما منّ به على آبائهم في زمن فرعون كما قيل ، والأنسب بالسياق أن يكون خطاباً لأصحاب موسى بعينهم مسوقاً سوق التجحّب إذ نسوا عظيم نعمة الله عليهم إذ أنجاهم من تلك البليدة العظيمة ، ونظيره في الغيبة قوله تعالى فيما سيأتي : « ألم يروا أنه لا يكلّهم ولا يهدّيهم سبيلاً » .

قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثالثين ليلة وأتممناها بعشرين فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة » إلى آخر الآية . الميقات قريب المعنى من الوقت قال في المجمع : الفرق بين الميقات و

الوقت أن الميقات مأقدّر ليعمل فيه عمل من الأعمال ، والوقت وقت الشيء وقدره ، ولذلك قيل : موافقة الحجّ وهي الموضع التي قدّرت للإحرام فيها (انتهى) .

وقد ذكر الله سبحانه وآياته المواعدة وأخذ أصلها ثلاثة ثم أتمّها بعشرين ليلًا آخر ثم ذكر الفذلّة وهي الأربعون ، وأمّا الذي ذكره في موضع آخر إذ قال : « وَإِذْ وَاعْدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لِيَلَةً » البقرة : ٥١ فهو المجموع المتحصل من المواعدتين أعني أن آية البقرة تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعدة ، وآية الأعراف على أن ما في آية البقرة مجموع المواعدتين .

وبالجملة يعود المعنى إلى أنه تعالى وعده ثلاثة ليلة للتقرّيب والتكميل ثم وعده عشرة آخر لإتمام ذلك فتم ميقات ربّه أربعين ليلة ، وعلمه ذكر الليلي دون الأيام مع أن موسى مكث في الطور الأربعين بأيامها ولاليها ، والمعتارف في ذكر المواقف والأزمنة ذكر الأيام دون الليلي - لأن الميقات كان للتقرّب إلى الله سبحانه و مناجاته و ذكره ، وذلك أخص بالليل و أنساب ما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق وزيادة تهيه و النفس للأنس وقد كان من برّات هذا الميقات نزول التوراة .

وهذا كما يشير إلى مثله قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَرْسَلُ قُمُّ الْلَّيل إِلَّا قَلِيلًا - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّا سَنُنَقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاسَةَ اللَّيلَ هِيَ أَشَدُّ وَطَاءً وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبَّحَاطَوْيَلًا » المزمل : ٢ . و قوله تعالى : « وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » إنّما قاله حين مَا كان يفارقهم للميقات ، و الدليل على ذلك قوله : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » فإن الاستخلاف لا يكون إلا في غيبة . وإنّما عَبَرَ بِلَفْظِ « قَوْمِي » دون بنى إسرائيل لتجري القصة على سياق سائر القصص المذكورة في هذه السورة فقد حكى فيها عن لفظ نوح وهو دو صالحة وغيرهم : ياقوم ياقوم ، وعلى ذلك أجريت هذه القصة فعبر فيها عن بنى إسرائيل في بضعة موضع بل لفظ القوم ، وقد عَبَرَ عنهم في سورة طه بيني إسرائيل .

وأمّا قوله لأخيه ثانيا : « وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَبَعَ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » فهو أمر له بالإصلاح وأن لا يتبع سبيل أهل الفساد ، وهارون عليه السلام نبي مرسلا معصوم لا تصدر عنه المعصية ، ولا يتأتّي منه اتباع أهل الفساد في دينهم ، وموسى عليه السلام أعلم بحال أخيه فليس مراده

نَهِيَهُ عَنِ الْكُفُرِ وَالْمُعْصِيَةِ بِلَأَنَّ لَا يَتَّبِعُ فِي إِدَارَةِ أُمُورٍ قَوْمَهُ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ وَيُسْتَصْوِبُهُ
الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْقَوْمِ أَيَّامَ خَلَاقَتْهُ مَادَامُ مُوسَى خَائِبًا .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : « وَأَصْلَحَ » فَإِنَّهُ يَدْلِلُ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ : « وَلَا تَتَّبِعُ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » أَنْ يَصْلُحَ أَمْرُهُمْ وَلَا يُسِيرُ فِيهِمْ سِيرَةً هِيَ سَبِيلُ الْمُفْسِدِينَ الَّذِي يَسْتَحْسِنُونَهُ
وَيُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ .

وَمِنْ هَنَا يَتَّأَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي قَوْمِهِ يَوْمَئِذٍ جَمْعٌ مِنَ الْمُفْسِدِينَ يَفْسِدُونَ وَيَقْلِبُونَ عَلَيْهِ
الْأُمُورَ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ فَنَهَى مُوسَى أَخَاهُ أَنْ يَتَّبِعَ سَبِيلَهُمْ فَيَشُوّشُوا عَلَيْهِ الْأُمُرُ ، وَ
يَكْيِدُوا وَيَمْكِرُوا بِهِ فَيَتَفَرَّقُ جَمْعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَتَشَتَّتُ شَمْلُهُمْ بَعْدَ تِلْكَ الْمَحْنِ وَالْأَذَى
الَّتِي كَابَدَهَا فِي إِحْيَا كَلْمَةِ الْاِتَّحَادِ بَيْنَهُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا جَاءَ مُوسَى طِيقَاتِنَا وَكَلْمَهُ رَبِّهِ قَالَ رَبُّ أَرْنِي أُنْظِرْ إِلَيْكِ
قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقِرَّ مَكَانَهُ فَسُوفَ تَرَانِي » الآيَةُ ، التَّجَلِّي
مَطَاوِعَةُ التَّجَلِّيَةِ مِنَ الْجَلَاءِ بِمَعْنَى الظَّهُورِ ، وَالدَّلَكُ هُوَ أَشَدُ الدَّقَّ ، وَجَعَلَهُ دَكَّاً أَيْ مَدْكُوكَا
وَالْخَرُورُ هُوَ السَّقْوَطُ ، وَالصَّعْقَةُ هُوَ الْمَوْتُ أَوِ الْغَشْيَةُ بِجَمْودِ الْمَحْوَسِ وَبَطْلَانِ إِدْرَاكِهَا ، وَ
إِلَّا فَاقَةُ الرَّجُوعِ إِلَى حَالِ سَلَامَةِ الْعُقْلِ وَالْحَوَاسِّ يَقَالُ : أَفَاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ أَيْ رَجَعَ إِلَى حَالِ
اسْتِقْامَةِ الشَّعْورِ وَالْإِدْرَاكِ .

وَمَعْنَى الآيَةِ عَلَى مَا يَسْتَفِدُ مِنْ ظَاهِرِ نَظْمَهَا أَنَّهُ « مَا جَاءَ مُوسَى طِيقَاتِنَا » الَّذِي
وَقَتَّنَاهُ لَهُ « وَكَلْمَهُ رَبِّهِ » بِكَلَامِهِ « قَالَ » أَيْ مُوسَى « رَبُّ أَرْنِي أُنْظِرْ إِلَيْكِ » أَيْ أَرْنِي
نَفْسَكَ أَنْظِرْ إِلَيْكِ أَيْ مَكْنَسِيَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْكِ حَتَّى أَنْظِرْ إِلَيْكِ وَأَرَاكَ فَإِنْ الرَّؤْيَا فَرَعَ
النَّظَرُ ، وَالنَّظَرُ فَرَعُ التَّمْكِينِ مِنَ الرَّؤْيَا وَالتَّمْكِينِ مِنَهَا ، « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى لَنْ تَرَانِي »
أَبْدَا « وَلَكِنْ انْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ » وَكَانَ جَبَلًا بِحَيَالِهِ مَشْهُودًا لَهُ أُشِيرُ إِلَيْهِ بِلَامِ الْعَهْدِ
الْحَضُورِيِّ « وَلَكِنْ انْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقِرَّ مَكَانَهُ فَسُوفَ تَرَانِي » أَيْ لَنْ تَطْبِقْ رَؤْيَتِي
فَانْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِّي أَظْهِرْ لَهُ فَإِنْ اسْتَقِرَّ مَكَانَهُ وَأَطْلَقْ رَؤْيَتِي فَاعْلَمْ أَنِّي تَطْبِقُ النَّظَرَ
إِلَيْيَ وَرَؤْيَتِي « فَلَمَّا تَجَلَّ » وَظَهَرَ « رَبِّهِ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ » بِتَجَلِّيَهِ « دَكَّاً » مَدْكُوكَا مَتَلاشِيَا
فِي الْجَوَّ أُوسَائِحًا « وَخَرَّ مُوسَى صَعْقاً مِيتَا أَوْمَغْشِيَا عَلَيْهِ مِنْ هُولِ مَا رَأَى » فَلَمَّا أَفَاقَ

قال سبحانه تبت إليك رجعت إليك مما افترحته عليك «وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» **بأنك لاترى** . هذا ظاهر الفاظ الآية .

والذى يعطى التدبر فيها أنّ حديث الرؤية والنظر الذى وقع في الآية إذا عرضناه على الفهم العامي المتعارف حمله على رؤية العين ونظر الإِبصار ، ولا نشك ولن نشك أنّ الرؤية والإِبصار يحتاج إلى عمل طبيعي في جهاز الإِبصار يهسي للبصر صورة مماثلة لصورة الجسم المبصري شكله ولو نه .

وبالجملة هذا الذي نسميه الإِبصار عمل طبيعي يحتاج إلى مادة جسمية في البصر والباصر جميعاً ، وهذا لاشك فيه .

والتعليم القرآني يعطي إعطاءً ضروريًا أن الله سبحانه لا يماثله شيء بوجه من الوجوه البتة وليس بجسم ولا جسماني ، ولا يحيط به مكان ولا زمان ، ولا تحيط به جهة ولا توجد صورة مماثلة لأوصابه له بوجه من الوجوه في خارج ولا ذهن البتة .

وما هذا شأنه لا يتعلّق به الإِبصار بالمعنى الذي نجده من أنفسنا البتة ، ولا تنطبق عليه صورة ذهنية لافي الدنيا ولا في الآخرة ضرورة ، ولا أنّ موسى ذات النبي العظيم أحد الخمسة أولى العزم وسادة الأنبياء عليه السلام ممن يليق بمقامه الرفيع وموقفه الخطير أن يجهل ذلك ، ولا أن يمني نفسه بأنّ الله سبحانه أن يقول بي بصر الإنسان على أن يراه ويشاهده سبحانه منز هاً عن وصمة الحر كة والزمان ، والجهة والمكان ، وألوان المادة الجسمية وأعراضها فـ **قوله** أشبهه بغير الجد منه بالجد **فما محصل القول** : إنّ من الجائز في قدرة الله أن يقول سبباً مادياً أن يتعلّق عمله الطبيعي المادي مع حفظ حقيقة السبب وهوية أثره . بأمر هو خارج عن المادة وآثارها متعال عن القدر والنهاية ؟ فهذا الإِبصار الذي عندنا وهو خاصة مادية من المستحيل أن يتعلّق بما لا أثر عنده من المادة الجسمية وخواصها فإن كان موسى يسأل الرؤية فإِنّما سأل غير هذه الرؤية البصرية ، وباطلازمه ما ينفيه الله سبحانه في جوابه فإِنّما ينفي غير هذه الرؤية البصرية فاما هي فبديهية الانتفاء لم يتعلّق بها سؤال ولا جواب .

وقد أطلق الله الرؤية وما يقرب منها معنى في موارد من كلامه وأثنيها كقوله تعالى

«وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» القيامة : ٢٣ ، و قوله : «ما كذب القواد ما رأى» النجم : ١١ ، و قوله : «من كان يرجو لقاء الله فain أجل الله لاَت» العنكبوت : ٥ ، و قوله : «أولم يكف بربك أنسه على كل شيء شهيد إلا إنهم في مسية من لقاء ربهم إلا إنه بكل شيء محيط» حم السجدة : ٥٤ و قوله : «فمن كان يرجو لقاء ربـه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربـه أحداً» الكهف : ١١٠ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المتبعة للرؤى وما في معناه قبل الآيات النافية لها كما فيهذه الآية : «قال لن قراني» ، و قوله : «لاتدرـ كـه الأـ بـصـارـ وـهـ يـدـرـ كـهـ الأـ بـصـارـ» الأنعام : ١٠٣ وغير ذلك .

فهل المراد بالرؤى حصول العلم الضروري سمى بها مبالغة في الظهور و نحوها

كما قيل ؟

لاريـبـ أنـ الآـيـاتـ تـثـبـتـ عـلـمـاـ مـاـ ضـرـورـيـاتـ الـشـائـنـ فيـ تـشـخـيـصـ حـقـيقـةـ هـذـاـ عـلـمـ الضـرـورـيـ فـإـنـاـ لـاـ نـسـمـيـ كـلـ عـلـمـ ضـرـورـيـ رـؤـيـةـ وـمـاـ فيـ مـعـنـاهـ مـنـ الـلـقـاءـ وـنـحـوـهـ كـمـاـ نـعـلمـ بـوـجـودـ إـبـرـاهـيمـ الـخـلـيلـ وـإـسـكـنـدـرـ وـكـسـرـىـ فـيـمـاـ مـضـىـ وـلـمـ نـرـهـ ، وـنـعـلمـ عـلـمـاـ ضـرـورـيـاتـ بـوـجـودـ لـنـدـنـ وـشـيـكـاـكـوـ وـمـسـكـوـاـ وـلـمـ نـرـهـ ، وـلـاـ نـسـمـيـهـ رـؤـيـةـ وـإـنـ بـالـغـنـاـ ، فـأـنـتـ تـقـوـلـ : أـعـلـمـ بـوـجـودـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ الـتـلـاثـةـ وـإـسـكـنـدـرـ وـكـسـرـىـ كـأـنـيـ رـأـيـتـهـمـ ، وـلـاـ تـقـوـلـ رـأـيـتـهـمـ أـوـأـرـاهـمـ ، وـتـقـوـلـ : أـعـلـمـ بـوـجـودـ لـنـدـنـ وـشـيـكـاـكـوـ وـمـسـكـوـاـ ، وـلـاـ تـقـوـلـ : رـأـيـتـهـاـ أـوـأـرـاهـاـ .

وـأـوـضـحـ مـنـ ذـلـكـ عـلـمـنـاـ الضـرـورـيـ بـالـبـدـيـهـيـاتـ الـأـوـلـيـةـ الـتـيـ هـيـ لـكـيـسـتـهـاـ غـيرـ مـادـيـةـ وـلـاـ مـحـسـوـسـةـ مـثـلـ قـوـلـنـاـ : «الـواـحـدـ نـصـفـ الـاثـنـيـنـ» وـ«الـأـرـبـعـةـ زـوـجـ» وـ«الـإـضـافـةـ قـائـمـةـ بـطـرـفـيـنـ» فـإـنـهـاـ عـلـمـ ضـرـورـيـ يـصـحـ إـطـلـاقـ الـعـلـمـ عـلـيـهـاـ وـلـاـ يـصـحـ إـطـلـاقـ الرـؤـيـةـ الـبـتـةـ . وـنـظـيـرـ ذـلـكـ جـمـيعـ الـتـصـدـيـقـاتـ الـعـقـلـيـةـ الـفـكـرـيـةـ ، وـكـذـاـ الـمـعـانـيـ الـوـهـمـيـةـ وـبـالـجـمـلـةـ هـاـ نـسـمـيـسـهـاـ بـالـعـلـمـ الـمـحـصـولـيـةـ لـاـ نـسـمـيـسـهـاـ رـؤـيـةـ وـإـنـ أـطـلـقـنـاـ عـلـيـهـاـ الـعـلـمـ فـقـوـلـ : عـلـمـنـاـهـاـ وـلـاـ نـقـوـلـ : رـأـيـنـاـهـاـ إـلـاـ بـمـعـنـىـ الـفـضـاءـ وـالـحـكـمـ لـاـ بـمـعـنـىـ الـمـشـاهـدـةـ وـالـوـجـدـانـ .

لـكـنـ بـيـنـ مـعـلـومـاتـنـاـ مـاـ لـاـ نـتوـقـفـ فـيـ إـطـلـاقـ الرـؤـيـةـ عـلـيـهـ وـاستـعـمـالـهـافـيـهـ ، نـقـوـلـ : أـرـىـ أـفـيـ أـنـاـ وـأـرـانـيـ أـرـيدـ كـذـاـ وـأـكـرـهـ كـذـاـ ، وـأـحـبـ كـذـاـ وـأـبـغـضـ كـذـاـ وـأـرـجـوـ كـذـاـ وـأـتـمنـيـ كـذـاـ أـيـ أـجـدـ ذـاـيـ وـأـشـاهـدـهـاـ بـنـفـسـهـاـ مـنـ غـيرـ أـنـ اـحـتـجـبـ عـنـهـاـ بـحـاجـبـ ، وـأـجـدـ وـأـشـاهـدـ

هُرادي الباطنة الّتي ليست بمحسوسة ولا فكريّة ، وأجدني باطن ذاتي كراهة وحبًا وبغضًا ورجاءً وتمنيًّا وهكذا .

وهذا غير قول القائل : رأيتك تحبّ كذا وتبغض كذا وغير ذلك فإنَّ معنى كلامه أبصراك في هيئة استدللت بها على أنَّ فيك حبًا وبغضًا ونحو ذلك ، وأمّا حكاية الإِنسان عن نفسه أنَّه يراه يريد ويكره ويحبّ ويبغض فإنه يريد به أنَّه يجب هذه الأمور بنفسها وواقعيتها لأنَّه يستدلّ عليها فيقضي بوجوها من طريق الاستدلال بل يجبها من نفسه من غير حاجب يحجبها ولا توسل بوسيلة تدلّ عليها البتة .

وتسمية هذا القسم من العلم الّذى يجب فيه الإِنسان نفس المعلوم بواقعيته الخارجية رؤية مطردة ، وهي علم لا إِنسان بذاته وقواه الباطنة وأوصاف ذاته وأحواله الداخلية ، وليست فيها مداخلة جهة أو مكان أو زمان أو حالة جسمانية أخرى غيرها فافهم ذلك وأجد التدبر فيه .

والله سبحانه فيما أثبت من الرؤية يذكر معها خصوصيات ويضم إلية ضمائم يدلّنا ذلك على أنَّ المراد بالرؤية هذا القسم من العلم الّذى نسميه فيما عندنا أيضًا رؤية كما في قوله : « أولم يكف برّبك أنَّه على كل شيء شهيد لأنَّهم في مرية من لقاء ربِّهم لأنَّه بكل شيء محظط » الآية حيث أثبت أو لا أنَّه على كل شيء حاضر أو مشهود لا يختص بجهة دون جهة وبمكان دون مكان وبشيء دون شيء بل شهيد على كل شيء محظط بكل شيء فلو وجده شيء لوجده على ظاهر كل شيء وباطنه وعلى نفس وجданه وعلى نفسه ، وعلى هذه السمة لقاوته لو كان هناك لقاء لا على نحو اللقاء الحسّي الّذى لا يتأتى البتة إلا بمواجهة جسمانية وتعيين جهة مكان وزمان ، وبهذا يشعر ما في قوله : « ما كذب النّؤاد ما رأى » من نسبة الرؤية إلى الفؤاد الّذى لا شبهة في كون المراد به هو النفس الإنسانية الشاعرة دون اللحم الصنوبرى المعلق على يسار الصدر داخلاً .

ونظير ذلك قوله تعالى : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلَّا لأنَّهم عن ربِّهم يومئذ محبوبون » المطففين : ١٥ دلّ على أنَّ الذي يحجبهم عنه تعالى رين المعاصي والذنوب الّتي اكتسبوها فحال بين قلوبهم أي أنفسهم وبين ربِّهم فتحجبهم عن تشريف

المشاهدة ، ولو رأوه لرأوه بقلمو بهم أي أنفسهم لأن بصارهم وأحداقهم .
وقد أثبت الله سبحانه في موارد من كلامه قسماً آخر من الرؤية وراء رؤية الجارحة
كقوله تعالى : كلاًّ لو تعلمو علم اليقين لترونَّ الجحيم ثم لترونُها عين اليقين » التكاثر ٧
وقوله : « و كذلك نرى إبراهيم ملوكوت السماوات والأرض ليكون من المؤمنين »
الأنعام : ٧٥ ، وقد تقدم تفسير الآية في الجزء السابع من الكتاب ، وبيننا هناك أن
الملوكوت هو باطن الأشياء لا ظاهرها المحسوس .

في بهذه الوجوه يظهر أنه تعالى يثبت في كلامه قسماً من الرؤية والمشاهدة وراء الرؤية
البصرية الحسنية ، وهي نوع شعور في الإنسان يشعر بالشيء بنفسه من غير استعمال آلية
حسنية أو فكرية ، وأن للإنسان شعوراً بربه غير ما يعتقد بوجوده من طريق الفكر و
استخدام الدليل بل يجده وجداً من غير أن يحجبه عنه حاجب ، ولا يجره إلى الغفلة
عنه إلا اشتغاله بنفسه وبمعاصيه التي اكتسبها ، وهي مع ذلك غفلة عن أمر موجود مشهود
لازوال علم بالكلية ومن أصله فليس في كلامه تعالى ما يشعر بذلك البقة بل عبر عن هذا
الجهل بالغفلة وهي زوال العلم بالعلم لازوال أصل العلم .

في هذا ما يبيّنه كلامه سبحانه ، ويؤيد هذه العقل بساطع براهينه ، وكذا ما ورد من
الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهما السلام على ما سنتقلها ونبحث عنها في البحث الروائي » الآتي
إن شاء الله تعالى .

والذي ينجلي من كلامه تعالى أن هذا العلم المسمى بالرؤبة واللقاء يتم للصالحين
من عباد الله يوم القيمة كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها
ناظرة » القيمة : ٢٣ فهناك موطن التشرف بهذا التشريف ، وأماماً في هذه الدنيا والإنسان
مشتغل بيده ، ومنغمر في غمرات حواسه الطبيعية ، وهو سالك طريق اللقاء والعلم
الضروري بأيات ربها ، كادح إلى ربها كدحأ ليلقيه فهو بعد في طريق هذا العلم لن يتم
له حتى يلقي ربها قال تعالى : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحأ فملقيه
الانشقاق : ٦ وفي معناه آيات كثيرة أخرى تدل على أنه تعالى إليه المرجع والمصير و
الانتهى ، وإليه يرجعون وإليه يقلبون .

فهذا هو العلم الضروري "الخاص" الذي أثبتته الله تعالى لنفسه وسمّاه رؤية و لقاءً ولا يهمّنا البحث عن أنها على نحو الحقيقة أو المجاز فإنّ القرآن كما عرفت قائمته على إرادة ذلك فإن كانت حقيقة كانت قرائن معينة، وإن كانت مجازاً كانت صارفة ، و القرآن الكريم أول كاشف عن هذه الحقيقة على هذا الوجه البديع فالكتب السماوية السابقة على ما بآيدينا ساكتة عن إثبات هذا النوع من العلم بالله وتخلو عنه الأبحاث المأثورة عن الفلاسفة الباحثين عن هذه المسائل فإنّ العلم الحضوري عندهم كان منحصراً في علم الشيء بنفسه حتى كشف عنه في الإسلام فللقرآن المنّة في تنقیح المعارف الإلهية .

ولنرجع إلى الآية المبحوث عنها :

فقوله : « وَمَا جاء موسى ملِيقاتنا وَ كَلْمَه رَبِّه قَالَ رَبِّ أَرْزِي أُنْظَرْ إِلَيْكَ » سؤال منه للرؤبة بمعنى العلم الضروري على ما تقدم من معناه فإنّ الله سبحانه له خصّه بما حباه من العلم به من جهة النظر في آياته ثم زاد على ذلك أن اصطفاه برسالته وبتكليمه وهو العلم بالله من جهة السمع رجاءً أن يزيده بالعلم من جهة الرؤبة وهو كمال العلم الضروري بالله ، والله خير مرجو ومأمول .

فهذا هو المسؤول دون الرؤبة بمعنى لا يتصار بالتحقيق الذي يجعل موسى علية السلام ذلك النبي الكريم أن يجهل بامتناعه عليه تعالى وتقديره .

وقوله : « قَالَ لَنْ تَرَانِي » نفي مؤبد للرؤبة ، و إن أثبت الله سبحانه الرؤبة بمعنى العلم الضروري في الآخرة كان تأييد النفي راجعاً إلى تحقق ذلك في الدنيا مادام لا إنسان شتغال بتدمير بدنـه ، و علاج ما نزل به من أنواع الحاجـةـ الـضروريـةـ ، و الانقطاع إليه تعالى بتمام معنى الكلمة لا يتم إلا بقطع الرأبة عن كلّ شيء حتى البدن و توابعه وهو الموت .

فيؤول المعنى إلى أنك لن تقدر على رؤيتي والعلم الضروري بي في الدنيا حتى تلقيني فتعلم بي عملاً اضطراريـاً تريده ، والتعبير في قوله : « لَنْ تَرَانِي » بـ « لَنْ » الظاهر في تأييد النفي لainـيـ في ثبوت هذا العلم الضروري في الآخرة فالانتفاء في الدنيا يقبل التأييد أيضاً كما في قوله تعالى : « إِنَّكَ لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تُبلِغَ الْجَبَالَ طُولاً » أسرى : ٣٧.

وقوله : «إِنَّكَ لَنْ تُسْتَطِعَ مَعِي صِرَاطًا» الكهف : ٦٧ .
ولو سُلِّمَ أَنَّهُ ظَاهِرٌ فِي تَأْيِيدِ النَّفْيِ لِلْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا فَإِنَّهُ لَا يَأْبِي التَّقْيِيدِ كَمَا قَوْلُهُ
تَعَالَى : «وَلَنْ تَرْضَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّىٰ تَتَبَعَ مَلَكَتَهُمْ» البقرة : ١٢٠ فَلَمْ يَجُوزْ
أَنْ تَكُونَ أَمْثَالُ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرٌ» مَقِيدٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ
مُبَيِّنٌ مَعْنَى التَّأْيِيدِ امْسْتَفَادٌ مِنْهَا .

وَالَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ رَجُوعِ نَفْيِ الرَّؤْيَاةِ فِي قَوْلِهِ : «لَنْ تَرَانِي» إِلَىٰ نَفْيِ الطَّاقَةِ وَ
الْاسْتِطاعَةِ يَؤْيِدُهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ : «وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقِرْ» مَكَانَهُ فَسُوفَ تَرَانِي»
فَإِنْ فِيهِ تَنْظِيرٌ لِإِرَاءَةِ نَفْسِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَجْلِيِّ الْجَبَلِ ، وَالْمَرَادُ أَنَّ ظَهُورِي وَتَجْلِي لِلْجَبَلِ
مِثْلُ ظَهُورِي لَكَ فَإِنْ اسْتَقِرْ الجَبَلُ مَكَانَهُ أَيْ بَقِيَ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهُوَ جَبَلٌ عَظِيمٌ فِي الْخَلْقَةِ
قَوْيٌ فِي الطَّاقَةِ فَإِنَّكَ أَيْضًا يَرْجِي أَنْ تَطْبِقَ تَجْلِيِّ رَبِّكَ وَظَهُورَهُ .

فَقَوْلُهُ : «وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقِرْ» مَكَانَهُ فَسُوفَ تَرَانِي» لَيْسَ دَاسْتَدَلَارُ
عَلَىٰ اسْتِحَالَةِ التَّجْلِيِّ كَيْفَ وَقَدْ تَجَلَّى لَهُ ؟ بَلْ إِشَاهَادُو تَعْرِيفُ لِعدَمِ اسْتِطاعَتِهِ إِطَاقَتِهِ لِلتَّجْلِيِّ
وَعدَمِ اسْتِقْرَارِهِ مَكَانَهُ أَيْ بَطَلَانُ وَجُودُهُ لَوْقَعُ التَّجْلِيِّ كَمَا بَطَلَ الْجَبَلُ بِالْدَّائِرِ .
وَقَوْلُهُ : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاوَخْ مُوسَى صَعْقاً» وَبِصِيرَوْرَةِ الْجَبَلِ
دَكَّاً أَيْ مَدْكُوكًا مَتَحَوِّلاً إِلَى ذَرَّاتِ تَرَابِيَّةٍ صَغَارٌ بَطَلَتْ هُوَيْتَهُ وَذَهَبَتْ جَبَلِيَّتَهُ وَ
قَضَى أَجْلَهُ .

وَقَوْلُهُ : «وَخَرٌّ مُوسَى صَعْقاً» ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الَّذِي أَصْعَقَهُ هُوَ هُولٌ مَارَأَى وَ
شَاهَدَ غَيْرَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَذَكَّرْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعَبَانٌ مِنْ تَلْقَافِ الْأَلْوَافِ
مِنْ الشَّعَابِينَ وَالْحَيَّاتِ ، وَفَلَقَ الْبَحْرُ فَأَغْرَقَ الْأَلْوَافَ ثُمَّ الْأَلْوَافَ مِنْ آلِفَرْعَوْنِ فِي لَحْظَةِ وَ
نَقْ الْجَبَلِ فَوْقَ رُؤُوسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَأَنَّهُ ظَلَّةٌ ، وَأَتَىٰ بِآيَاتِ هَائلَةٍ أُخْرَىٰ وَهِيَ أَهُولَ
مِنْ اندِكَالِكَ جَبَلٌ وَأَعْظَمُ ، وَلَمْ يَصُعِّقَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَمْ يَدْهُشَهُ .

وَانْدِكَالِكَ الْجَبَلُ أَهُونُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ بِحَسْبِ الظَّاهِرِ فِي أَمْنِ مِنْ أَنْ يَصِيبَهُ فِي ذَلِكَ
خَطَرٌ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا دَكَّهُ لِيَشْهِدَ كَيْفِيَّةَ الْأَمْرِ !

فَهَذَا كَلْمَهُ يَشْهِدُ أَنَّ الَّذِي أَصْعَقَهُ إِنَّمَا هُوَ مَا تَمَشَّلُ لَهُ مِنْ مَعْنَى مَا سَأَلَهُ وَعَظِيمَةُ

الْقَهْرُ الْإِلَهِيُّ الَّذِي أَشْرَفَ أَنْ يُشَاهِدَهُ وَلَمْ يُشَاهِدَهُ هُوَ وَإِنَّمَا شَاهِدَهُ الْجَبَلُ فَأَلَّا أَمْرَهُ إِلَى ذَكَرِ الْإِنْدِكَاكِ الْعَجِيبِ الَّذِي لَمْ يَسْتَقِرْ مَعَهُ مَكَانًا وَلَا طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَيُشَهِّدُ بِذَلِكَ أَيْضًا تَوْبَتِهِ عَلَيْهِ بَعْدَ إِلَيْفَاقَةٍ كَمَا سِيَّأْتِي .

وَقُولُهُ : « فَلَمَّا أُفْاقَ قَالَ سَبِّحَانَكَ تَبَتَّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » تَوْبَةٌ وَرَجْوُهُ مِنْهُ عَلَيْهِ بَعْدَ إِلَيْفَاقَةٍ إِذْتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الَّذِي سَأَلَهُ وَقَعَ فِي غَيْرِ مَوْقِعِهِ فَأَخْذَتِهِ الْعِنَايَاةُ الْإِلَهِيَّةُ بِتَعْرِيفِهِ ذَلِكَ ، وَتَعْلِيمِهِ عِيَانًا بِإِشَاهَادَةِ دَكَّ الْجَبَلِ بِالتَّجْلِيِّ أَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنِ .

فَبِدَا بِتَنْزِيهِهِ تَعَالَى وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا كَانَ يُرَى مِنْ إِمْكَانِ ذَلِكَ ثُمَّ عَقْبَهُ بِالتَّوْبَةِ عَمَّا أَفْدَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُطْمِعُ فِي أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ فِي التَّوْبَةِ أَنْ تَكُونَ دَائِمًا عَنِ الْمُعْصِيَةِ وَجَرْمِهِ بَلْ هُوَ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ تَعَالَى لِشَائِبَةِ بَعْدِ كِيفِ كَانَ كَمَا تَقْدَدَ الْبَحْثُ فِيهِ فِي الْجَزْءِ الْرَّابِعِ مِنَ الْكِتَابِ .

ثُمَّ عَقْبَهُ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِالْإِقْرَارِ وَالشَّهَادَةِ بِقُولِهِ : « وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » أَى أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَوْمِي بِأَنَّكَ لَا تَرَى . هَذَا مَا يَدْلِلُ عَلَيْهِ الْمَقَامُ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنِ قَوْمِي بِمَا آتَيْتَنِي وَهَدَيْتَنِي إِلَيْهِ آمَنْتُ بِكَ قَبْلَ أَنْ يَؤْمِنُوا فَحَقْقِيقَةُ بِي أَنْ أَتُوبَ إِلَيْكَ إِذَا عَلِقَ بِي تَقْصِيرٌ أَوْ قَصْرٌ . لَكِنَّهُ مَعْنَى بَعِيدٍ .

قُولُهُ تَعَالَى : « قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخَدَمْتُكَ وَكَنْ مِنَ الشَاكِرِينَ » الْمَرَادُ بِالْاِصْطِفَاءِ الْاِخْتِيَارُ عَلَى وَجْهِ التَّصْفِيَةِ ، وَلَذَلِكَ عَدِيَ إِلَى النَّاسِ بِعْلَى ، وَالْمَرَادُ بِالرِّسَالَاتِ هُوَ مَا حَمَلَ مِنَ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الْمَعْارِفِ وَالْحِكْمَ وَالشَّرَائِعِ لِيُلْيَلِّهِ النَّاسَ سَوَاءً كَانَ التَّحْمِيلُ بِوَاسْطَةِ مَلَكٍ أَوْ بِتَكْلِيمٍ بِلَا وَاسْطَةٍ مَلَكٍ فَهِيَ غَيْرُ الْكَلَامِ وَإِنْ حَمَلَتِ بِكَلَامٍ فَإِنَّ الْكَلَامَ أَمْرٌ ، وَالْمَعْنَى الَّتِي يَتَلَقَّهَا السَّامِعُ مِنْهَا أَمْرٌ آخَرُ .

وَالْمَرَادُ بِالْكَلَامِ هُوَ مَا شَافَهَهُ بِهِ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ مَلَكٍ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى هُوَ مَا يَكْشِفُ بِهِ عَنْ مَكْنُونِ الْغَيْبِ ، وَأَمْمًا أَنْ يَكُونَ مِنْ نَوْعِ الْكَلَامِ الدَّائِرِ بِيَنِّنَا مَعَاشِ الْإِنْسَانِ فَلَا فِي إِنَّ الْكَلَامَ عِنْدَنَا هُوَ أَنَا نَصْطَلِحُ وَنَتَعَهَّدُ فِيمَا بَيْنَنَا عَلَى تَخْصِيصِ صَوْتٍ مُخْصُوصٍ مِنَ الْأَصْوَاتِ مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى لِيَنْتَقِلَ ذَهَنُ السَّامِعِ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ثُمَّ نَتَوَسَّلُ عَنْدَ إِرَادَةِ

تفهيمه إلى إيجاد تموّج خاصٌ في الهواء يبتديي مناً وينتهي إلى السامع لتنقل به ما في ضميرنا إلى ضمير السامع المخاطب، والتكلّم بهذا الوجه يستلزم التجسّم في المتكلّم والله سبحانه عنه ، ومجرّد إيجاد الصوت وتمويج الهواء بإيجاد أسباب الصوت في مكان لا يدلّ على كون المعانى التي ينتقل إليها الذهن مقصودة لله سبحانه ما لم تكشف الإرادة بأمر آخر وراء نفس الصوت كما أنّ من أوجد منا بدقّ أو ضرب أو نحوهما صوتاً يدلّ على معنى لم نحكم بإن رأته ذلك مالم يكشف من حاله أو مقاله قبلًا أنه قاصد لمعنى ما يوجده من الأصوات .

وما كلام به الله سبحانه موسى عليه السلام مما حكاه القرآن الشريف خال عن سؤال الدليل على كونه كلامه ، وعلى كونه تعالى مریداً لمعناه فلم يسأل موسى ربّه حين سمع النداء من جانب الطور الأيمن من الشجرة : هل هذا منك يا ربّ ؟ وهل أنت مرید معناه ؟ بل أیقّن بذلك إيقاناً ، ونظير الكلام جاري في سائر أقسام الوحي غير الكلام .

وهذا يكشف كشفاً قطعياً عن ارتباط خاصٍ من السامع بإن رأدة مصدر الكلام والوحي يوجب الانتقال إلى المعنى المقصود وإلا فمجرّد صدور صوت له معنى مفهوم في اللغة منه تعالى لا يستلزم صحة الانتساب إليه تعالى ولا كونه كلامه كيف ؟ وبجميع الألفاظ الصادرة من المتكلّمين بما أنها أصوات تنتهي إليه تعالى وليس كلاماً له تعالى بل المتكلّم بها غيره ، وكثيراً ما يحدث من تصادم الأُجسام المختلفة أصوات ذوات معان في اللغة ولا ينعدّ كلاماً له تعالى .

وبالجملة تكليمه تعالى هو إيجاده اتصالاً وارتباطاً خاصاً بين مخاطبه وبين الغيب ينتقل به بمشاهدة بعض مخلوقاته إلى معنى مراد ، ولا نمنع مقارنته ذلك بأصوات يوجدها الله تعالى في خارج أوسمع أو غير ذلك ، وقد تقدّم بعض الكلام في الكلام فيما تقدّم . وسيأتي منه تتمة في تفسير سورة الشورى إن شاء الله تعالى .

وكيف كان قوله تعالى : « قال ياموسى إني أصطفيتك » الآية وارد في مورد الامتنان وموعظة موسى عليه السلام أن يكتفي بما اصطفاه الله به من رسالته و كلامه و يشكّره ولا يسترّيه .

قوله تعالى : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ » الآية الملوح صحفة معدّة للكتابة فيه لأنّه يلوح ويظهر بما فيه من الخطّ وأصله من لوح البرق إذا ملع .

وقوله : « مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » من فيه للتبعيض كما يؤيد هذه السياق اللاحق ، و قوله : « مَوْعِظَةً » الظاهر أنه بيان لكلّ شيء ، ويعطف عليه قوله : « وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ » وتنكير قوله : « تَفْصِيلًا » لا إفاده إلا بهام والتبعيض ، ويؤول المعنى إلى مثل قولنا : وكتبنا طوسي في الألواح وهي التوراة النازلة مختارات من كلّ شيء ونعني بذلك أنّا كتبنا له موعظة وتفصيلاً ما وتشريحاً ما لـ « كُلِّ شَيْءٍ » حسب ما يحتاج إليها قومه في الاعتقاد والعمل .

ففي الكلام دلالة على أنّ التوراة لم تستكمم بجميع ما تمسّ به حاجة البشر من المعرف والشرائع ، وهو كذلك كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدَّقًا مَا بَيْنَ يَدِيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِمَّ مَا عَلَيْهِ » المائدة : ٤٨ وقد تقدّم تفسيره .

وقوله : « فَخَذُوهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرُّ قَوْمَكَ يَأْخُذُوهَا بِأَحْسَنِهَا » عطف تفريع على قوله : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ » الآية لأنّه مشعر بمعنى القول ، و التقدير : و قلنا إنّا كتبنا لك في الألواح من كلّ شيء فخذوها بقوّة .

والأخذ بالقوّة كنایة عن الأخذ بالجهد والحرز فإنّ من يجد ويحزم في أمر يستعمل ما عنده من القوّة فيه حذراً أن يفوته فالأخذ بالقوّة لازم الأخذ بالجهد والحرز كثيّ به عنه .

وقوله : « وَأْمُرُّ قَوْمَكَ يَأْخُذُوهَا بِأَحْسَنِهَا » الظاهر أنّ الضمير في « بِأَحْسَنِهَا » راجع إلى الأشياء المدلول عليها بقوله قبلًا : « مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » من المواقع وتفاصيل الآداب والشائع والأخذ بالأخير كنایة عن ملازمة الحسن في الأمور واتباعه و اختياره فإنّ من يهمّ بأمر الحسن في الأمور فإذا وجد سبيلاً وحسنًا اختار الحسن الجميل ، وإذا وجد حسناً وأحسن منه أضطرّه حبّ الجمال إلى اختيار الأحسن وتقديمه على الحسن فالأخذ بأحسن الأمور

لازم حب الجمال وملازمة الحسن فكنتي به عنه ، وامعنى : وأمر قومك يجتنبوا السيّات ويلازمو ما تهدي إلية التوراة من الحسنات ، ونظير الآية في التكينة قوله تعالى : «الذين يستمعون القول فيتبّعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب» : ١٨

وقوله : «سأرِيكُمْ دارَ الْفَاسِقِينَ» ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء الفاسقين هم الذين يفسقون بعدم ائتمار قوله : «وَأَمْرُ قَوْمٍ يَأْخُذُونَ بِأَحْسَنِهَا» على ما تقدّم من معناه من ملازمة طريق الإحسان في الأمور واتّباع الحق والرشد فإنّ من فسق عن الطريق صرفه الله عن الصراط المستقيم إلى تتبع السيّات والميل عن الرشد إلى الغي كما يفصله في الآية التالية وكانت عاقبة أمره خسراناً وآل أمره إلى الهلاك .

وعلى هذا فما في الآية التالية : «سأصرّف عن آياتي» الآية تفسير أو كالتفسير لقوله : «سأرِيكُمْ دارَ الْفَاسِقِينَ» وقيل المراد بدار الفاسقين جهنّم ، وفي الكلام تهديد وتحذير ، وقيل المراد بهامناظل فرعون وقومه بمصر ، وقيل : منازل عاد وثمود ، وقيل المراد دار العمالة وغيرهم بالشام وأنّ الله سيدخلهم فيها فironها ، وقيل : المراد سيجيئكم قوم فساق تكون الدولة لهم عليكم .

قوله تعالى : «سأصرّف عن آياتي الذين يتکبرون في الأرض بغير الحق» وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها «الآية تقيد التکبر في الأرض بغير الحق مع أن التکبر فيها لا يكون إلا بغير الحق» كتقيد البغي في الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز ويراد به الدلالة على وجہ الذم في العمل وأن التکبر كالبغي مذموم لكونه بغير الحق .

وأما ما قيل : إن القيد احترازي للدلالة على أن المراد هو التکبر المذموم دون التکبر الممدوح كالتکبر على أعداء الله والتکبر على المتكبر ، وهو تکبر بالحق . ففيه أن المذكور في الآية ليس مطلقاً التکبر بل التکبر في الأرض ، وهو الاستعلاء على عباد الله واستذلالهم والتغلب عليهم ، وهذا لا يكون إلا بغير الحق .

وقوله : وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها «عطف على قوله : «يتکبرون» وبيان

لأحد أوصافهم وهو الإصرار على الكفر والتكذيب.

وكذا قوله : « وإن يروا سبيلاً الرشد لا يتّخذونه سبيلاً » الآية و تكرار الجملتين المثبتة والمنفيّة بجميع خصوصياتهما للدلالة على اعتنائهم الشديد و مراقبتهم الدقيقة على مخالفة سبيل الرشد و اتباع سبيل الغيّ بحيث لا يغدرون بخطا ولا يحتمل في حقّهم جهل أو اشتباها .

وقوله : « ذلك بأنّهم كذّبوا بما ياتنا » إلى آخر الآية تعلييل لما تحقق فيهم من رذائل الصفات أي إنّما جروا على ما جروا بسبب تكذيبهم لآياتنا و غفلتهم عنها ، ومن المحتمل أن يكون تعليلاً لقوله تعالى : « سأصرف عن آياتي » .

قوله تعالى : « والذين كذّبوا بما ياتنا لقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » معنى الآية ظاهر و يتحقق منها :

أولاً : أنّ الجزاء هو نفس العمل وقد تقدّم توضيحة كراهاً في أبحاثنا السابقة .

وثانياً : أنّ الحبط من الجزاء فإنّ الجزاء بالعمل وإذا كان العمل حابطاً فاحباطه هو الجزاء ، والحبط إنّما يتعلق بالأعمال التي فيها جهة حسن فتكون نتيجة إحباط الحسنات ممّن له حسنات وسيّات أن يجزى بسيّاته جزاءً سيّاً ويجزى بحسناته بما حبطها فيتم حضنه له الجزاء السبيّ .

ويمكن أن تنزل الآية على معنى آخر وهو أن يكون المراد بالجزاء ، الجزاء الحسن و قوله : « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » كناتية عن أنّهم لا يثابون بشيء إذ لا عمل من الأعمال الصالحة عندهم ملكان الحبط قال تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فيجعلناه هباءً منتشرة » الفرقان : ٢٣ ، والدليل على كون المراد بالجزاء هو الثواب أنّ هذا الجزاء هو جزاء الأفعال المذكورة في الآية قبلًا ، وأمراد بها بقرينة ذكر الحبط هي الأفعال الصالحة .

ومن هنا يظهر فساد ما استدلّ به بعضهم بالآية على أنّ تارك الواجب من غير أن يستغله بضده لعقوبة لانّه لم يعمل عملاً حتى يعاقب عليه وقد قال تعالى : « هل يجزون

إلا ما كانوا يعلمون» .

وجه الفساد أن المراد بالجزاء في الآية الثواب ، و المعنى أنهم لا ثواب لهم في الآخرة لأنهم لم يأتوا بحسنة ولم يعملوا عملاً يثابون عليها .
على أن ثبوت العقاب على مجرد ترك الأوامر الإلهية مع الغضب عمما يشتغل به من الأفعال المضادة كالضروري من كلامه تعالى قال الله عز وجل : « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم » الجن : ٢٣ إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « واتّخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار » إلى آخر الآية ، الحلي على فعول جمع حلي كالشدي جمع شدي ، وهو ما يتخلّى ويترى به من ذهب أو فضة أو نحوهما ، والعجل ولد البقرة ، والخوار صوت البقر خاصة ، وفي قوله تعالى « جسداً له خوار » وهو بيان للمعجل - دلالة على أنه كان غير ذي حياة ، وإنما وجدوا عنده خواراً كخوار البقر .

و الآية و ما بعده تذكر قصة عبادة بني إسرائيل للعجل بعد ما ذهب موسى إلى ميقات ربه واستبطئوا رجوعه إليهم ، فكادهم السامري وأخذ من حليّهم فصاخ لهم عجلاً من ذهب له خوار كخوار العجل و ذكر لهم أنه إلههم وإله موسى فسجدوا له و اتّخذوه إليها ، وقد فصل الله سبحانه القصة في سورة طه تفصيلاً ، والذى ذكره في هذه الآيات من هذه السورة لا يستغنى عمّا هناك ، وهو يؤيد نزول سورة طه قبل سورة الأعراف .

وكيف كان فقوله : « واتّخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً » معناه اتّخذ قوم موسى من بعدها به ميقات ربّه قبل أن يرجع - فإنه سيدرك رجوعه إليهم غضبان - عجلاً عبدوه ، وكان هذا العجل الذي اتّخذوه « جسداً له خوار » ثم ذمّهم الله سبحانه بأنّهم لم يعبّروا بما هو ظاهر جليّ بين عند العقل في أول نظره أنه لو كان هو الله سبحانه لكلّهم و لهدّهم السبيل فقال تعالى : « أولم يروا أنه لا يكلّمهم ولا يهدّهم سبيلاً » .

و إنّما ذكر من صفاته المنافية للإلهية عدم تكليمه أيّاًهم و عدم هدايته لهم و سكت عن سائر ما فيه كالجسمانية و كونه مصنوعاً و محدوداً ذا مكان و زمان و شكل إلى غير ذلك مع أن الجميع ينافي الإلهية لأن هاتين الصفتين أعني التكليم و الهدایة

من أوضح ما تستلزم منه الْأُلوهِيَّة من الصفات عند من يَتَّخِذ شيئاً إلَيْهَا إِذْ من الواجب أن يعبده بما يرتبه ، ويسلك إلَيْهِ من طريق يوصل إلَيْهِ ، ولا يعلم ذلك إِلَّا من قبل إِلَهِ بوجه فهو الذي يجب أن يهديه إِلَى طريق عبادته بنوع من التكليم والتفييم ، وقدراؤا أَنَّه لا يكُلُّمُهم ولا يهديهم سبيلاً .

على أَنَّهُمْ عهدوا من موسى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَكْلُمُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ بِوَاسْطَتِهِ ، وَقَدْ قَالُوا حِينَ أَخْرَجَ السَّامِرِيَّ لَهُمُ الْعِجْلَ : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى طَه : ٨٨ فَلَوْ كَانَ الْعِجْلُ هُوَ الَّذِي أَوْ مَا إِلَيْهِ السَّامِرِيُّ لَكُلَّمُهُمْ وَهَدَاهُمْ سبيلاً . وَبِالْجَمْلَةِ فَقَدْ كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ عِنْدَ عَوْلَمِهِمْ لَوْ عَقَلُوا أَنَّهُ لَيْسُ هُوَ ، وَلِذَلِكَ أَرْدَفَهُ بِقَوْلِهِ : « اتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَاطِمِينَ » كَأَنَّهُ قَيْلَ : فَلَمْ اتَّخِذُوهُ وَأَمْرُهُ بِذَاكِ الوضوح ، فَقَيْلَ : « اتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَاطِمِينَ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا سَقطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلَّوْا قَالُوا إِلَى آخر الآية .

قال في المجمع : معنى « سقط في أَيْدِيهِمْ » وقع البلاء في أيديهم أَيْ وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عند ما يجده ممّا كان خفي عليه ، ويقال : سقط في يده ، وأُسْقط في يده و بغير ألف أَفْصَح ، وقيل : معناه صار الذي يضر به ملقي في يده (انتهى) .

وقد ذكر في مطولاً لـ التفاسير وجوه كثيرة توجّه بها هذه الجملة ، جلّها أو كلّها لاتخلو من تعسّف ، وأقرب الوجوه ما نقلناه عن المجمع منقولاً عن بعضهم فإنَّ ظاهر سياق الآية أَنَّ الْمَرْاد بقوله : « وَمَا سَقطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلَّوْا » أَنَّهُم مَا التقووا إِلَى مَا فَعَلُوهُ وَأَجَالُوا النَّظَرَ فِيهِ دِيقَانًا ثانِيًّا وَرَأَوْا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلَّوْا قَالُوا : كَذَا وَكَذَا فَالْجَمْلَةُ تَفِيدُ مَعْنَى التَّنْبِيَّةِ مَا زَهَلُوا عَنْهُ وَالتَّبَصَّرُ بِمَا أَغْفَلُوهُ كَأَنَّهُمْ عَمِلُوا شَيْئًا فَقَدْ مَوَهُ إِلَى مَنْ عَمِلُوا لَهُ فَرَدَهُ إِلَيْهِمْ وَرَمَهُ بِهِ نَحْوَهُمْ فَتَنَاهُوا بِأَيْدِيهِمْ فَسَقَطَ فِيهَا فَرَأَوْا مِنْ قَرِيبٍ أَنَّهُمْ ضَلَّوْا فِيمَا زَعْمُوا ، وَأَهْمَلُوا فِيهِ أَمْرًا مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَهْمَلُوهُ ، وَفَاتَ مِنْهُمْ مَا فَسَدَ بِفَوْتِهِ مَا عَمِلُوهُ ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ تَجْرِي الْجَمْلَةُ مِهْرِيَّ المَلِئِ السَّائِرِ .

وَالآيَةُ أَعْنِي قَوْلُهُ « وَمَا سَقطَ » بحسب المعنى مترتب على الآيات التالية فاَنْهُمْ إِنَّمَا تَبَيَّنُوا أَضَالِّهِمْ بَعْدَ رَجُوعِ مُوسَى إِلَيْهِمْ كَمَا تَفَصَّلُ ذَلِكَ سُورَةُ طَهِ لِكُنَّهُ سُبْحَانَهُ

كأنه قد الآية لأنها مشتملة على حديث ندامتهم على ما صنعوا وتحسرونهم مما فات منهم ، وقد أظهروا ذلك بقولهم : «لَئِنْ لَمْ يَرْجُنَا رَبُّنَا وَيغفر لنا لنكونن من الخاسرين» والأخرى بالندامة والحسرة أن يذكروا مع ما تعلقنا به من غير فصل طويل ، ولذا لما ذكر اتخاذهم العجل في الآية الأولى وصله بندامتهم وحسناتهم في الآية الثانية .
ولأن ذيل حديث رجوع موسى في الآية التالية مشغول بدعائه لنفسه وأخيه ففصل بينه وبين هذا الذي هو صورة دعاء .

قوله تعالى : «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضِبَانَ أَسْفًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْأَسْفَ بكسير السين صفة مشبّهة من الأسف وهو شدة الغضب والحزن ، والخلافة القيام بالأمر بعد غيره ، و العجلة طلب الشيء و تحريره قبل أوانه على ما ذكره الراغب يقال : عجلت أمرًا كذا أي طلبته قبل أوانه الذي له بحسب الطبع فمعنى الآية : و لمّا رجع موسى إلى قومه وهو في حال غضب وأسف لما أخبره الله تعالى لدى الرجوع بأن قومه ضلوا بعبادة العجل بعده فوبخهم و ذمّهم بما صنعوا وقال : بسم الله خلفتكم من بعدي أُعجلتكم أمر ربكم و طلبتموه قبل بلوغ أجله ، وهو أمر من بيده خيركم وصلاحكم ولا يجري أمرًا إلا على ما يقتضيه حكمته البالغة ، ولا يؤثر فيه عجلة غيره ولا طلبه ولا رضاه إلا بما شاء ، و الظاهر أن المراد بأمر ربهم أمره الذي لا يجله واعد موسى طيقاته ، وهو نزول التوراة .

وربما قيل : إن معنى «أُعجلتكم أمر ربكم» : أُعجلتكم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر من ربكم ؟ وقيل : المعنى استعجلتم وعد الله وثوابه على عبادته فلمّا لم تنالوه عدلتم إلى عبادة غيره ؟ وقيل : المعنى أُعجلتكم عمّا أمركم به ربكم وهو انتظار رجوع موسى حافظين لعهده فبنيتم على أن المنيقات قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم فغيرتم هذا ، وما قدّمناه من الوجه أنساب بالسياق .

و بالجملة اشتدّ غضب موسى عليهما ملائكته لما شاهد قومه ووبخهم وذمّهم بقوله : «بسم الله خلفتكم من بعدي أُعجلتكم أمر ربكم» - وهو استفهام إنكارى - «وألقى الألواح» وهي الألوح التوراة «وأخذ برأس أخيه» قابضًا على شعره «بجره إليه» وقد قال له - فيما

حکی الله في سورة طه : يا هارون ما منعك إِذ رأيْتَم ضلّوا أَن لَا تَتَبَعَنْ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ^(١) ؟
 « قال » هارون يا « ابن أُمّ » وإنما خاطبه بذكر أمّهـا دون أن يقول : يا أخي
 أو يا ابن أبي للترقيق وتهسيـح الرجمة « إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَهْتَلُونِي » لما خالـقـتهم
 في أمر العجل و منعـهم عن عبادـته « فَلَا تَشْمَتْ بِي الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »
 بحسبـاني كـأـحدـهم في مـخـالـقـتكـ ، وكان مـمـا قالـ لهـ - على ما حـكـاهـ اللهـ في سـورـةـ طـهـ - إـنـي
 خـشـيتـ أـنـ تـقـولـ فـرـقـتـ بـيـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ وـلـمـ تـرـقـبـ قـوـلـيـ ^(٢) .

وـظـاهـرـ سـيـاقـ الآـيـةـ وـكـذاـ ماـ فيـ سـورـةـ طـهـ مـنـ آـيـاتـ القـصـةـ أـنـ مـوسـىـ غـضـبـ عـلـىـ
 هـارـونـ كـمـاـ غـضـبـ عـلـىـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ غـيرـ أـنـهـ غـضـبـ عـلـيـهـ حـسـبـانـاـ مـنـهـ أـنـهـ لـمـ يـبذـلـ الجـهـدـ
 فيـ مقـاـوـمـةـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ مـاـ زـعـمـ أـنـ الصـالـحـ فيـ ذـلـكـ مـعـ أـنـهـ وـصـاهـ عـنـ المـفـارـقـةـ وـوصـيـةـ مـطـلـقـةـ
 بـقـوـلـهـ : « وـأـصـلـحـ وـلـاتـبـعـ سـبـيلـ الـمـفـسـدـيـنـ » وـهـذـاـ مـقـدـارـ مـنـ الـاخـتـلـافـ فيـ السـلـيـقـةـ وـالـمـشـيـةـ
 بـيـنـ نـبـيـيـنـ مـعـصـومـيـنـ لـادـلـيـلـ عـلـىـ مـنـعـهـ ، وـإـنـمـاـ العـصـمـةـ فـيـمـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ حـكـمـ اللهـ سـبـحـانـهـ
 دـوـنـ مـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ السـلـائـقـ وـطـرـقـ الـحـيـاةـ عـلـىـ اـخـتـلـافـهـ .

وـكـذاـ مـاـ فـعـلـهـ مـوسـىـ بـأـخـيـهـ مـنـ أـخـذـ رـأـسـهـ يـجـرـهـ إـلـيـهـ كـأـنـهـ مـقـدـمـةـ لـضـربـهـ حـسـبـانـاـ
 مـنـهـ أـنـهـ اـسـتـقـلـ بـالـرـأـيـ زـاعـمـاـ الـمـصلـحةـ فيـ ذـلـكـ وـتـرـكـ أـمـرـ مـوسـىـ فـمـاـ وـقـعـ مـنـهـ إـنـمـاـ هوـ
 قـادـيبـ فيـ أـمـرـ إـرـشـادـيـ لـاـعـقـابـ فيـ أـمـرـ مـوـلـوـيـ » وـإـنـ كـانـ الـحـقـ فيـ ذـلـكـ مـعـ هـارـونـ ،ـ
 وـلـذـلـكـ مـلـقاـ قـصـ عـلـيـهـ الـقـصـصـ عـذـرـهـ فيـ ذـلـكـ ،ـ وـدـعـاـ لـنـفـسـهـ وـلـأـخـيـهـ بـقـوـلـهـ :ـ رـبـ اـغـفـرـ لـيـ
 وـلـأـخـيـ الخـ .

وـقـدـ وـجـهـ قـوـلـهـ :ـ وـأـخـذـ بـرـأـسـ أـخـيـهـ يـجـرـهـ إـلـيـهـ »ـ بـوـجوـهـ أـخـرـ :ـ
 الـأـوـلـ :ـ أـنـ مـوسـىـ إـنـمـاـ فـعـلـ ذـلـكـ مـسـتـعـظـمـاـ لـفـعـلـهـ مـفـكـرـاـ فـيـمـاـ كـانـ مـنـهـ كـمـاـ
 يـفـعـلـ الـإـنـسـانـ ذـلـكـ بـنـفـسـهـ عـنـدـ الـوـجـدـ وـشـدـةـ الـغـضـبـ فـيـقـبـضـ عـلـىـ لـحـيـتـهـ وـيـعـضـ عـلـىـ شـقـقـهـ
 فـأـجـرـيـ مـوسـىـ أـخـاءـ هـارـونـ مـجـرـيـ نـفـسـهـ فـصـنـعـ بـهـ مـاـ يـصـنـعـ الـإـنـسـانـ بـنـفـسـهـ عـنـدـ الـغـضـبـ
 وـالـأـسـفـ .

الـثـانـيـ :ـ أـنـهـ أـرـادـ أـنـ يـظـهـرـ مـاـ اـعـتـرـاهـ مـنـ الـغـضـبـ عـلـىـ قـوـمـهـ لـإـكـبـارـهـ مـنـهـمـ مـاـ صـارـواـ

إليه من الكفر والارتداد فصدر ذلك منه لا علامهم عظم الحال عنده لينز جروا عن مثله في مستقبل الأحوال.

الثالث : أنه إنما جرّه إلى نفسه ليناجيه ويستفسر حال القوم منه ، و ذلك لما ذكرهارون ماذ كر ، قبله منه ودعاليه .

الرابع : أنه لما رأى أن بهارون مثل ما به من الغضب والأسف أخذ برأسه متوجعاً له مسكنناً لما به من القلق فكره هارون أن يظنّ الجهال أنه استخفاف وإهانة فأظهر براءة نفسه و دعاليه أخوه وجمله هذه الوجوه أو كلّها لاتلائم سياق الآيات .
وقوله في صدر الآية « ولما راجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا » يدل على أنه كان عالماً بأمر ارتداد قومه من قبل ، وهو كذلك فإن الله سبحانه - كما حكى في سورة طه - قال له وهو في الميقات : فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلّهم السامري ^(١) .

وإنما ظهر حكم غضبه عند ما شاهد قومه فاشتذ عليهم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه كل ذلك فعله بعد مراجع إليهم لاحينما أخبره بذلك ربّه ، وإخبار الله سبحانه أنه أصدق من الحسن لأن الحسن يصدق ويكتب ، والله سبحانه لا يقول إلا الحق .
وذلك لأن للعلم حكمًا وللمشاهدة حكمًا آخر ، والغضب هييجان القوة الدافعة للدفع أو الانتقام ، ولا يتحقق مورد للدفع والانتقام بمجرد تحقق العلم لكن الحسن و المشاهدة تصاحب وجود المغضوب عليه عند العصيان فيتاتي منه الدفع والانتقام بالقول والفعل ، ولا يؤثر العلم قبل المشاهدة إلا حزناً وغمّاً و نظير ذلك بمقابلة أنت لو بشرت بقدوم من تحببه وتتوق نفسك إلى لقائه فلك عند تحقق البشري حال وهو الفرح ، و عند لقاء العبيب حال آخر و حكم جديد ، وكذا إذا شاهدت أمراً عجيباً وأنت وحدك كان حكمه التعجب ، وإذا شاهدته ومعك غيرك تعجبت وضحكت ، ولو نظائر آخر .

قوله تعالى : « قال رب اغفر لي ولاخي وأدخلنا في رحمتك » الآية دعاء منه ^{عليهم السلام}
وقد تقدّم في الكلام على المغفرة في آخر الجزء السادس من الكتاب أن المغفرة أعم مورداً من المعصية .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سِينَالْهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ » الآية تفكير الغضب وكذا الذلة للاشعار بعظمتهم وقد أبىهم الله سبحانه ما سينالهم من غضبه وذلة الحياة فلم يبيس ما هما فمن المحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى ماجرى عليهم بعد ذلك من تحريق العجل المعبود ونسفه في اليم نسفاً طرد الساميّ وقيل جمع منهم ، أوأن يكون امراد به ما ضرب الله على قومهم من الذلة والمسكنة والقتل والإبادة والإسرارة ، ويمكن أن يكون المراد بالغضب هو عذاب الآخرة فيجمع لهم بذلك هوان الآخرة وذلة الدنيا .

وكيف كان فذيل الآية : « وَكَذَلِكَ نَجِزِي الْمُفْتَرِينَ » بظاهره يدل على أن ذلك أعني نيل غضب رب سبحانه وذلة الحياة الدنيا سنة جارية إلهية في المفترين على الله وهذا الذي يذر عليه الآية يهدي إليه الأبحاث العقلية أيضاً كما مرّ مراراً .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » ضمير « من بعدها » الأول راجع إلى السيئات ، والثاني إلى التوبة ، ومعنى الآية ظاهر .

و الآية وإن كانت في نفسها عامة لكنها بالنظر إلى المورد بمنزلة الاستثناء من الذين اتّخذوا العجل المذكورين في الآية السابقة فالتبوية إذا تحققت بحقيقة معناها في أي سببية كانت لم يمنع من قبولها مانع كما تقدّم في تفسير قوله تعالى : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ » الآية : النساء : ١٧ .

وهذه الآية والتي قبلها معتبرستان في القصة ، ووجه الخطاب فيهما إلى النبي ﷺ والدليل على ذلك قوله في الآية الأولى : « وَكَذَلِكَ نَجِزِي الْمُفْتَرِينَ » وفي الآية الثانية : « إِنَّ رَبَّكَ » الآية وظاهر السياق أن الكلام فيهما جاري على حكاية الحال الماضية بدليل قوله : « سِينَالْهُمْ غَضَبٌ » .

قوله تعالى : « وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخْذَ الْأَلْوَاحِ » الآية، الرهبة هي خوف مع تحرّز : والباقي ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنشور : أخرج ابن أبي شيبة و أحمد والنسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مارديه عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة قلت : يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواع كما للكفار ذات أنواع ، وكان الكفار ينوطون سلامهم بسدرة ويعكفون حولها . فقال النبي ﷺ : الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل موسى : « اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة » إنكم تربكون سenn الذين قبلكم .

اقول : ورواهما أيضاً بطرق أخرى عن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ ذلك ، وفيها : أنها كانت شجرة سدرة عظيمة كان يناظر بها السلاح فسميت ذات أنواع وكانت تعبد من دون الله .

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى : « وجاؤنَا بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ » الآية عن محمد ابن شهر آشوب : أن رأس الجالوت قال لعلي عليه السلام : لم تلبسوأ بعد نبيكم إلا ثلاثة سنن حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف ! فقال علي عليه السلام : و أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم : « إِعْجَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلَهَةٌ » .

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليهما السلام قال : إن موسى لما خرج وادعا إلى ربته وادعهم ثلاثة يوماً فلما زاد الله على الثلاثين عشرأ قال قومه : أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا .

وفي الدر المنشور : أخرج البزار و ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى : يارب أهذا كلامك الذي كلمتني به ؟ قال : يا موسى إنما كلمنتك بقوّة عشرة آلاف لسان ولـي قوّة الألسن كلـها وأقوى من ذلك .

فلمّا رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا : ياموسى صنفت لنا كلام الرحمن فقال : لا تستطعونه ألم تروا إلى أصوات الصواعق الذي يقبل في أحلى حلاوة سمعتموه ؟ فذاك قريب منه وليس به .

أقول : أمّا ذيل الرواية فهو تمثيل للتقرير وليس به بأس ، وأمّا صدره فيه خفاء ولعلّ المراد بقوّة عشرة آلاف لسان ما في العشرة آلاف من قوّة التفهم لو تأييد بعضها ببعض فإنّ السن الناس مختلفة في قوّة التفهم فالمراد أنّ ذلك يعادل من حيث إعطاء التفهم والكشف عن المراد عشرة آلاف لسان لوجم بعضها مع بعض . وعلى هذا يكون المراد بالغايرة في قوله : « **كَلِمَة** بغير الكلام الذي **كَلِمَه** يوم نداء » التفاوت من حيث كيّفية التفهم .

وفي المعاني باسناده عن هشام قال : كنت عند الصادق جعفر بن محمد عليه السلام إذ دخل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعين فقال له معاوية بن وهب : يا ابن رسول الله ما تقول في الخبر المرويّ : أنّ رسول الله عليه السلام رأى ربّه ؟ على أيّ صورة رآه ؟ وفي الخبر الذي رواه أنّ المؤمنين يرون ربّهم في الجنة ؟ على أيّ صورة يرونـه ؟ فتبسم ثم قال : يا معاوية ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة وثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه ثم لا يعرف الله حقّ معرفته . ثم قال : يا معاوية إنّ **مُحَمَّداً** عليه السلام لم يـر الـربّ تبارك وتعالى بـمشاهدة العـيـان ، وإنّ الرؤـيـة عـلـى وجـهـينـ : رؤـيـة القـلـبـ ، ورؤـيـة البـصـرـ فـمـنـ عـنـيـ بـرـؤـيـة القـلـبـ فـهـوـ مـصـيبـ ، وـمـنـ عـنـيـ بـرـؤـيـة البـصـرـ فـقـدـ كـذـبـ وـكـفـرـ بـالـلـهـ وـآـيـاتـهـ لـقـولـ رسولـ اللهـ عليه السلام : من شبـهـ اللهـ بـخـلـقهـ فـقـدـ كـفـرـ .

ولقد حدّثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليه السلام قال : سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له : يا أخـا رسولـ اللهـ هل رأـيـتـ ربـكـ ؟ فـقـالـ : لم أـعـبدـ ربـاًـ لم أـرـهـ لـمـ تـرـهـ العـيـانـ بـمـشـاهـدـةـ العـيـانـ وـلـكـنـ تـرـاهـ القـلـوبـ بـحـقـائـقـ الـإـيمـانـ .

وإذا كان المؤمن يرى ربّه بـمشاهدةـ البـصـرـ فـإـنـ كـلـ من جـازـ عـلـيـهـ البـصـرـ وـ الرـؤـيـةـ فـهـوـ مـخـلـوقـ ، وـلـابـدـ لـلـمـخـلـوقـ مـنـ خـالـقـ فـقـدـ جـعـلـتـهـ إـذـاـ مـخـلـقـاـ ، وـمـنـ شبـهـهـ بـخـلـقهـ فـقـدـ اـتـخـذـ مـعـ اللهـ شـرـيـكاـ .

وileم ألم يسمعوا القول الله تعالى : « لا تدر كه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار وهو اللطيف الخير ؟ » قوله موسى : « لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى رب الجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً وإنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سُمَّ الخياط فدكده الأرض ، وصعدت الجبال ، وخر موسى صعقاً أي ميّتاً « فلما أفاق » ورد عليه روحه « قال سبحانك تبت إليك » من قول من زعم أنك ترى ورجعت إلى معرفتي بك : أن الأ بصار لا تدر كاك « و أنا أول المؤمنين » بأنك ترى ولاترى وأنت بالمنظار الأعلى (الحديث) .

وفي التوحيد باسناده عن علي عليه السلام في حديث : وسأل موسى وجري على لسانه من حمد الله عز وجل : « رب أرنى أنظر إليك » فكانت مسألته تملأ أمراً عظيمـاً ، وسأل أمراً جسيماً فعوتب فقال الله عز وجل : « لن تراني » في الدنيا حتى تموت راني في الآخرة ، ولكن إن أردت أن تراني « فانظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » فأبدا الله بعض آياته وتجلى ربنا للجبل فقطقتع الجبل فصار رميما « وخر موسى صعقاً ثم أحياه الله وبعثه فقال : « سبحانك تبت إليك و أنا أول المؤمنين » يعني أول من آمن بك منهم بأنه لا يراك .

اقول : الرّواياتان - كما ترى - يؤيدان ما تقدم في البيان السابق ، و

يتحصل منها :

* أوّلاً : أن السؤال إنما كان عن رؤية القلب دون رؤية البصر المستحيل عليه تعالى بالي وجه تصور ، وحاشا مقام الكليم عليه السلام أن يجعل من ساحة رب الم嚴重ة ما هو من البداهة على مكان وهو يسمى القوم الذين اختارهم للمبقات سفهاء إذ سأوا الرؤية إذ يقول لربه : « أتيلكنا بما فعل السفهاء منا » الأعراف : ١٥٥ فكيف يقدّم هو نفسه على مسامع سفهاء ؟

وقد كان النزاع والمشاجرة في الصدر الأول وخاصة في زمن الصادقين إلى زمان الرضا عليه السلام في المسألة بالغاً أوج شدّته ينكرها المعتزلة مطلقاً وثبتتها الأشاعرة في الآخرة وهناك طائفة أخرى ثبّتها في الدنيا والآخرة جميعاً ، والفريقان جميعاً يستدللان بالأيات ولم

تزل المنازعـة قـائمة عـلـى سـاقـهـا لـم تـنـقـطـع ظـاهـرـاً إـلـا بـسـيـوـفـآـلـأـيـوبـالـتـيـ أـبـادـتـ الـمـعـتـزـلـةـ وـالـمـحـقـتـ طـالـعـهـمـ بـغـارـبـهـمـ.

وجملـةـ اـحـتـجـاجـ الـمـعـتـزـلـةـ ،ـ أـنـهـمـ كـانـواـ يـسـتـدـلـونـ بـقـولـهـ فـيـ الـآـيـةـ :ـ «ـ لـنـ تـرـانـيـ»ـ وـبـسـائـرـ ماـيـنـفـيـ الرـؤـيـةـ الـبـصـرـيـةـ مـنـ طـرـيقـ الـعـقـلـ وـالـنـقـلـ ،ـ وـيـؤـوـلـونـ مـاـيـدـلـ عـلـىـ جـواـزـهـاـ مـنـ الـآـيـاتـ وـالـرـوـاـيـاتـ ،ـ وـجـمـلـةـ اـحـتـجـاجـ الـأـشـاعـرـةـ أـنـهـمـ كـانـواـ يـسـتـدـلـونـ بـالـتـنـظـيـرـ الـوـاقـعـ فـيـ الـآـيـةـ بـقـولـهـ :ـ «ـ وـلـكـنـ اـنـظـرـ إـلـىـ الـجـبـلـ فـإـنـ اـسـتـقـرـ مـكـانـهـ فـسـوـفـ تـرـانـيـ»ـ الـآـيـةـ وـبـمـاـ فـيـ غـيرـهـاـ مـنـ الـآـيـاتـ وـبـعـضـ الـرـوـاـيـاتـ مـنـ جـواـزـهـاـ فـيـ الـآـخـرـةـ ،ـ وـيـؤـوـلـونـ مـاـعـدـاـ ذـلـكـ عـلـىـ مـاـهـوـ شـأنـ الـأـبـحـاثـ الـكـلـامـيـةـ عـنـهـمـ وـرـبـمـاـ اـسـتـدـلـ لـذـلـكـ بـأـنـهـ لـادـلـيلـ عـلـىـ وـجـوبـ اـنـحـصـارـ الرـؤـيـةـ الـبـصـرـيـةـ فـيـ الـجـسـمـانـيـاتـ فـمـنـ الـجـائزـ أـنـ يـتـعـلـقـ بـغـيرـ الـأـمـورـ الـمـادـيـةـ .ـ وـبـأـنـ الـإـبـصـارـ يـتـعـلـقـ بـالـجـوـهـرـ وـالـعـرـضـ ،ـ وـلـاجـمـعـ بـيـنـهـمـ إـلـاـ الـمـوـجـودـ الـمـطـلـقـ فـكـلـ مـوـجـودـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـعـلـقـ بـهـ الـإـبـصـارـ وـإـنـ لـمـ يـكـنـ جـسـمـاـ أـوـ جـسـمـانـيـاـ .ـ

وـقـدـ اـتـضـاحـ بـطـلـانـ هـاتـينـ الـحـجـتـيـنـ وـمـاـ يـسـانـخـهـمـاـ مـنـ الـحـجـجـ وـ الـأـقـاوـيلـ فـيـ هـذـهـ الـأـزـمـنـةـ اـتـضـاحـاـ كـادـ يـلـحـقـ بـالـبـدـيـهـيـاتـ .ـ

وـعـلـىـ أـيـ حـالـ لـاـ يـهـمـنـاـ إـيـرـادـ مـاـ أـورـدـوـهـ مـنـ الـجـانـبـيـنـ مـنـ نـقـضـ وـ إـبـرـامـ فـمـنـ أـرـادـ الـوقـوفـ عـلـيـهـمـاـ أـمـكـنـهـ أـنـ يـرـاجـعـ الـكـتـبـ الـكـلـامـيـةـ وـمـطـوـلـاتـ تـفـاسـيـرـ الـفـرـيقـيـنـ .ـ

وـالـذـيـ تـحـصـلـ مـنـ سـابـقـ بـحـثـنـاـ -ـ أـوـلـاـ -ـ أـنـ الـرـؤـيـةـ الـبـصـرـيـةـ سـوـاءـ كـانـتـ عـلـىـ هـذـهـ الصـفـةـ الـتـيـ هـيـ عـلـيـهـاـ الـيـوـمـ أـوـ تـحـوـلـتـ إـلـىـ أـيـ صـفـةـ أـخـرـىـ هـيـ مـعـهـاـ مـادـيـةـ طـبـيـعـيـةـ مـتـعـلـقـةـ بـقـدـرـ وـشـكـلـ وـلـونـ وـضـوءـ تـعـمـلـهـاـ أـدـأـةـ مـادـيـةـ طـبـيـعـيـةـ فـإـنـهـاـ مـسـتـحـمـلـةـ التـعـلـقـ بـالـلـهـ سـبـحـانـهـ فـيـ الـدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ ،ـ وـعـلـيـهـ يـدـلـ الـبـرـهـانـ وـمـاـ وـرـدـ مـنـ الـآـيـاتـ وـالـرـوـاـيـاتـ فـيـ نـفـيـ الـرـؤـيـةـ .ـ نـعـمـ هـنـاكـ عـلـمـ ضـرـوريـ خـاصـ يـتـعـلـقـ بـهـ تـعـالـىـ غـيرـ الـعـلـمـ الـضـرـوريـ الـحـاـصـلـ بـالـاسـتـدـلـالـ تـسـمـيـ رـؤـيـةـ .ـ وـإـيـسـاهـ تـعـنـيـ الـآـيـاتـ وـ الـرـوـاـيـاتـ الـظـاهـرـةـ فـيـ إـثـبـاتـ الـرـؤـيـةـ مـاـ فـيهـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـثـيرـ الـصـرـيـحـةـ فـيـ ذـلـكـ ،ـ وـمـوـطـنـ هـذـهـ الـمـعـرـفـةـ الـآـخـرـةـ .ـ

وـ ثـانـيـاـ أـنـ قـولـهـ تـعـالـىـ :ـ «ـ رـبـ أـرـنيـ أـفـظـرـ إـلـيـكـ»ـ الـآـيـةـ أـجـنبـيـةـ أـصـلـاـ عنـ الـرـؤـيـةـ الـبـصـرـيـةـ الـحـسـنـيـةـ إـثـبـاتـاـ وـنـفـيـاـ وـسـؤـالـاـ وـجـوابـاـ ،ـ وـإـنـسـماـ يـدـورـ الـكـلـامـ فـيـهـ مـدارـ الـرـؤـيـةـ بـالـمـعـنـىـ

الآخر الذي هو رؤية القلب بحسب ما أصطلح عليه في الروايات . وقد روى الصدوق في العيون فيما سأله المأمون عن الرضا عليه السلام أنه أجاب عن سؤال الرؤية في الآية ، أن موسى إنما سأله ذلك عن لسان قومه لأنفسه فـ إنه لهم طـ أ قالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم أحياهم الله سأله موسى أن يسأله لنفسه فـ رد عليهم بالإستحالة فأصر و عليه فقال : « رب أرني » أي على ما يقتربه على قومي .

والرواية كما أشرنا إليه في أخبار جنة آدم ضعيفة السند على أنها لا تتوافق الأصول المسلمة في أخبار أئمـة أهل البيت عليهم السلام فإن أخبارهم وخاصة خطب على والرضا عليه السلام ملولة من حديث التجلي والرؤية القلبية فلاموجبه عليه السلام أن يتلزم كون الرؤية المذكورة في الآية سؤالاً وجواباً هي الرؤية البصرية ثم الجواب بطريق جدل لا ينطبق كثيراً انطباق على الآية لكونه خلاف ظاهرها البشـة ، وخلاف ظاهر حال موسى فإنه لهم لواقتروا عليه ذلك لـ رد عليهم كما رد عليهم بقوله : « إنكم قوم تجهلون » حين قالوا : « يا موسى اجعل لنا إلهـا كما لهم آلهـة » .

*وثانياً : يتحصل من الروايتين أن موسى عليه السلام ما أـ جـيب إلى الرؤية بالمعنى المذكور في الدنيا ، وإنما أـ جـيب إليها في الآخرة ، وظاهر أنه يستفاد ذلك من قوله تعالى : « فـ لـمـ تـجـ لـي رـ بـهـ لمـ جـبـ لـهـ دـ كــ وـ خــ مـ وـسـ يـ صـ عــ فـ إــنـ ــ الـ ــ اـ ســتـ دــ رـ أــكــ في قوله : « ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » أن الذي فرض في الجبل هو بعينه مثل ما فرض في موسى فهو لا يطيق الظهور والإـ رــاءـةـ كما أن ذلك لا يطيقه ، وقد وقع التجلي للجبل فـ لــ دـ لــ بهـ وـ صــ عـ قــ بهـ وـ صــ عـ قــ فالتجلي في نفسه ممكن لكنه بالنسبة إلى المتجلـي له يوجـبـ انـ دــ كــ كــ وهوـ وـ صــ عـ قـــ وهذا يـ شــ عـ رــ أنـ ــ التجـلـيـ لـ ــ اـ مــانـ ــعــ منهـ في نفسهـ معـ الصـعـقـةـ وـ المـوـتـ ، وـ قدـ استـفـاضـتـ الروـاـيـاتـ منـ طـرـقـ أـئـمـةـ أـهـلـ الـبـيـتـ عليـهمـ السـلامــ أنـ ــ اللهـ سـبـحـانـهـ يـ تــجـ لــ لـ ــ أـهـلـ الـجـنـةـ ، وـ أـنــ لـهـمـ فيـ كـلـ جـمـعـةـ زـوـرـةـ كـمـاـ وـقـعـ ذـلـكـ فيـ قـوـلـهـ تعالىـ : « وجـوهـ يـوـمـ نـاضـرـةـ إـلـيـ رـبـهـ نـاظـرـةـ »ـ الـقـيـامـةـ : ٢٣ـ .

وـ ثـالـثـاًـ تـحـصـلـ منـ الـرـوـاـيـتـينـ :ـ أـنـ صـعـقـةـ مـوـسـيـ عليـهـ السـلامــ كـانـتـ موـتاًـ ثـمـ رـدــ اللهـ إـلـيـهـ

و رابعاً : أَنْ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ نُورٍ مُقْدَارًا مَا يَخْرُجُ مِنْ الْخِيَاطِ
مِنَ النُّورِ مِنْ قَبْلِ تَمْثِيلِ الْمَعْنَى بِالْأُمُورِ الْمُحْسُوسَةِ فَلَا نُورُهُ تَعَالَى نُورٌ حَسِيٌّ ، وَلَا أَنَّهُ
يَتَقدِّرُ بِأَمْرٍ حَسِيٍّ كَسْمَ الْخِيَاطِ ، وَلَذِكَرِ مُشَكِّلِ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ بِوُضُعِ طَرْفِ
إِبَهَامِ عَلَى أَنْمَلَةِ الْخَنَصُرِ كَمَا سِيَّاَتِي ، وَالغَرْضُ عَلَى أَيِّ تَقْدِيرٍ يَسَانُ صَفْرَهُ وَحَقَارَتَهُ .
وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَالْتَّجَلِيُّ إِنَّمَا هُوَ بِمَا يَكْفِي لِدَكَّهُ وَصَعْقَتَهُ ، وَأَمَّا كَمَالُ نُورِهِ
تَعَالَى فَهُوَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ لَا يَسْبَدُهُ مَفْرُوضٌ فَلَا نِسْبَةٌ بَيْنَ الْمُتَنَاهِيِّ وَغَيْرِ الْمُتَنَاهِيِّ .
وَفِي الدِّرْسِ الْمُنْتَوَرِ أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَعَبْدِ بْنِ حَمْدٍ وَالترْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ جَرِيرٍ
وَابْنُ الْمَنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ عَدِيٍّ فِي الْكَاملِ وَأَبْوَا الشِّيْخِ وَالْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ
مَرْدُوِيَّهُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الرُّؤْيَا مِنْ طَرْقِ عَنْ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ
هَذِهِ الْآيَةَ : «فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّا» قَالَ : هَكُذا وَأَشَارَ بِإِصْبَعِيهِ ، وَوُضُعَ
طَرْفُ إِبَهَامِهِ عَلَى أَنْمَلَةِ الْخَنَصُرِ - وَفِي لُفْظِهِ : عَلَى الْمَفْصِلِ الْأَعْلَى مِنَ الْخَنَصُرِ - فَسَاخَ
الْجَبَلُ وَخَرَّ مُوسَى صَعْقاً - وَفِي لُفْظِهِ : فَسَاخَ الْجَبَلُ فِي الْأَرْضِ - فَهُوَ يَهُوِي فِيهَا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ .

أَقُولُ : وَوُقُوعُ فِي أَحَادِيثِ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنَّ الْجَبَلَ دَكٌّ فَصَارَ
رَمِيمًا ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ سَاخٌ فِي الْبَحْرِ فَهُوَ يَهُوِي حَتَّى السَّاعَةِ وَفِي بَعْضِهَا : إِلَى هَذِهِ
السَّاعَةِ ، وَالْمَحْصُولُ مِنْ تَفْسِيرِ بَعْضِهَا بَعْضُ أَنَّهُ صَارَ رَمِيمًا فَزُرَ الْبَحْرُ فَلَمَّا يَلِيَرِي مِنْهُ أُثْرٌ
أَبْدًا وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : فَسَاخَ الْجَبَلُ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الْبَحْرِ فَهُوَ يَسْبِخُ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ إِلَى السَّاعَةِ .

وَفِيهِ أَخْرَجَ أَبُو الشِّيْخِ وَابْنَ مَرْدُوِيَّهُ مِنْ طَرِيقِ ثَابِتِ عَنْ أَنْسِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
فِي قَوْلِهِ : «فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» قَالَ : أَظْهَرَ مُقْدَارَهُ وَوُضُعَ إِبَهَامُهُ عَلَى خَنَصُرِ
إِصْبَعِ الصَّغِيرِ . فَقَالَ حَمْدٌ - رَاوِيُ الْحَدِيثِ - : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ - الرَّاوِيُّ عَنْ أَنْسٍ - مَا تَرِيدُ
إِلَى هَذَا ؟ فَضَرَبَ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ يَا حَمْدٌ ؟ وَمَا أَنْتَ يَا حَمْدٌ ؟ يَحْدُثُنِي أَنْسُ بْنُ
مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَقُولُ أَنْتَ : مَا تَرِيدُ إِلَى هَذَا ؟
وَفِيهِ أَخْرَجَ الْحَكِيمُ التَّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأُصُولِ وَأَبُونَعِيمٍ فِي الْحَلْمِيَّةِ عَنْ ابْنِ

عَبْسَاسُ قَالَ : تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةُ : «رَبٌّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا مُوسَى إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيٌّ إِلَّا مَاتَ ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهَّدَهُ وَلَا رَطْبٌ إِلَّا فَرَقَ ، وَإِنَّمَا يَرَانِي أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ لَا تَمُوتُ أَعْيُنُهُمْ ، وَلَا تَبْلُى أَجْسَادُهُمْ .

أَقُولُ : وَالرَّوَايَةُ نَظِيرَةٌ مَا تَقدَّمَ مِنْ رِوَايَةِ التَّوْحِيدِ عَنْ عَلِيٍّ تَعَالَى وَتَقدَّمَ تَوْضِيْحُ مَعْنَاهَا .

وَفِي تَفْسِيرِ العَيَّاشِيِّ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّكُمَا قَالَ : مَّا سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى «قَالَ رَبٌّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقْرَرَ مَكَانَهُ فَسُوفَ تَرَانِي » قَالَ : فَلَمَّا صَعدَ مُوسَى عَلَى الْجَبَلِ فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأَقْبَلَتِ الْمَلَائِكَةُ أُفَوَاجًا فِي أَيْدِيهِمُ الْعَمَدُ ، وَفِي رَأْسِهَا النُّورُ يَمْرُونَ بِهِ فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ ، يَقُولُونَ : يَا ابْنَ عُمَرَانَ اثْبِتْ فَقْدَ سَأْلَتِي عَظِيمًا . قَالَ : فَلَمْ يَنْزِلْ مُوسَى وَاقْفًا حَتَّى تَجْلِي رَبُّنَا جَلَّ جَلَالَهُ فَجَعَلَ الْجَبَلَ دَكَّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقا فَلَمَّا أَنْ دَرَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ أَفَاقَ «قَالَ سَبِّحَنَكَ تَبَتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّكُمَا يَقُولُ : إِنَّ مُوسَى بْنَ عُمَرَانَ مَّا سَأَلَ رَبَّهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ وَعَدَ اللَّهُ أَنْ يَقْعُدَ فِي مَوْضِعِ ثُمَّ أَمْرَ الْمَلَائِكَةَ تَمَرَّ عَلَيْهِ مَوْكِبًا كَبِيرًا بِالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالرِّيحِ وَالصَّوَاعِقِ فَكَلَّمَا مِنْهُ مَوْكِبًا كَبِيرًا كَبِيرًا فَرَأَيْتَهُ فِي رَفِيعِ رَأْسِهِ فَيَسْأَلُ : أَيْكُمْ رَبِّي ؟ فِي جَابَهُ هُوَ آتٌ وَقَدْ سَأَلَتْ عَظِيمًا يَا ابْنَ عُمَرَانَ .

أَقُولُ : وَالرَّوَايَةُ مَوْضِعَةٌ ، وَمَا تَشْمَلُ عَلَيْهِ لَا يَقْبِلُ الْاِنْطِبَاقَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَسَلَّمَاتِ الْاُصُولِ الْمُتَّخِذَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ .

وَفِي الْبَصَائرِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْفَارَسِيِّ وَغَيْرِهِ فَرَفَعَهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّكُمَا : أَنَّ الْكَرْوَيَّيْنَ قَوْمٌ مِنْ شَيْعَتِنَا مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ جَعَلُوهُمُ اللَّهُ خَلْفَ الْعَرْشِ لَوْ قَسَّمُ نُورَ وَاحِدَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِكَفَاهُمْ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مُوسَى عَلِيِّكُمَا مَّا سَأَلَ رَبِّهِ مَا سَأَلَ أَمْرًا وَاحِدًا مِنَ الْكَرْوَيَّيْنَ تَجْلِي لِلْجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكَّا .

أَقُولُ : مَحْصُلُ الرَّوَايَةِ أَنَّ تَجْلِيَهُ سَبِّحَانَهُ يَقْبِلُ الْوَسَائِطَ كَمَا أَنَّ سَائِرَ الْأُمُورِ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ تَعَالَى كَالْتَوْفِيِّ وَالْإِحْيَا وَالرِّزْقِ وَالْوَحْيِ وَغَيْرِهَا يَقْبِلُ الْوَسَائِطَ فَهُوَ تَعَالَى

يتجلى بالوسائل كما يتوفى بملك الموت ، ويحيي بصاحب الصور ، ويرزق بميكائيل و يوحى بجبرئيل الروح الأمين ، وسيوافيك شرح الرواية في موضع مناسب له إن شاء الله . وللكرهيبين ذكر في التوراة .

و في الدر المنشور أخرج ابن مرسديه والحاكم وصححه عن أنس : أنّ النبي ﷺ قرأ « فلما تجلى رب الجبل »

قرء « دكّاً » منونة ولم يمدده .

و فيه أخرج ابن مرسديه عن أنس أنّ النبي ﷺ قرأ « فلما تجلى رب الجبل »

جعله دكّاء » مثقلة ممدودة .

و فيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن معاوية بن قرۃ عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ

فلما تجلى رب الجبل طارت لعظمته ستة أجبل فوقعن بالمدينة : أحد وورقان ورضوى .

ووقع بمكة ثور وثیر وحراء .

اقول : و رواه أيضاً عن ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مرسديه عن أنس عن

النبي ﷺ .

و فيه أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ قال : مَا

تجلى الله موسى تطايرت سبعة أجبال في الحجاز منها خمسة ، وفي اليمن اثنان : في

الحجاز أحد وثیر وحراء وثور وورقان ، وفي اليمن حصور وصیر .

اقول : و روی في تقطّع الجبل غير ذلك ، وهذه الروايات على ما فيها من الاختلاف

في عدد الجبال المتطايرة إن كان المراد بها تفسير دكّ الجبل لم ينطبق على الآية ، وإن

أريد غير ذلك فهو وإن كان ممكن الواقع غير أنه لا يكفي لإثباته أمثال هذه الأحاديث .

وكذا ما ورد من طرق الشيعة وأهل السنة أنّ ألواح التوراة كانت من زبرجد ،

وفي بعضها من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ : أنّ ألواح التي أنزلت على موسى

كانت من سدر الجنّة كان طول اللوح اثنين عشر ذراعاً ، وفي بعضها : كتب الله ألواح

موسى وهو يسمع صريف الأقلام في ألواح ، وفي بعض أخبارنا أنّ هذه ألواح مدفونة

في جبل من جبال اليمن ، أو التقمها حجر هناك فهي محفوظة في بطنه إلى غير ذلك من

آحاد الأخبار غير المؤيدة بقرارئن قطعية . على أنّ البحث التفسيري لا يتوقف على الغور

في البحث عنها .

و في روح المعاني قال : وعن علي كرّ ماله وجهه أَنَّهُ قرأ « جوار » بجيم مضمومة و همزة . قال و هو الصوت الشديد .

و في الدر المنشور في قوله تعالى : « وألقى الألواح » الآية أخرج أَحْمَد و عبد بن حميد و البزاز و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الطبراني و أبو الشيخ و ابن مرسديه عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : ليرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخباره ربّه تبارك و تعالى أَنْ قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رأهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر .

وفي تفسير العياشي عن محمد بن أبي هزيمة عمن ذكره عن أبي عبدالله عليهما السلام قال : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَخْبَرَ مُوسَى أَنَّ قَوْمَهُ اتَّخَذُوا عَجَلاً [جسداً ظ] لِهِ خَوَارٌ فَلَمْ يَقُعْ مِنْهُ مَوْقِعُ الْعَيَانِ فَلَمَّا رَأَاهُمْ أَشْتَدَّ غَضْبُهُ فَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ مِنْ يَدِهِ ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليهما السلام : وللمرؤية فضل على الخبر .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينة عن السدي عن أبي جعفر عليهما السلام قال : ما أخلص عبداً ليمان بالله أربعين يوماً أو قال : ما أَجَلَّ عبداً كر الله أربعين يوماً إِلَّا زهده الله في الدنيا ، وبصره داءها ودواعها ، وأثبتت الحكمة في قلبه ، وأنطق به لسانه . ثم قال : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ سَيِّنُوهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَبْحِزِي الْمُفْتَرِينَ » فلاترى صاحب بدعة إِلَّا ذليلًا ، و مفترياً على الله عز وجل و على رسوله وعلى أهل بيته إِلَّا ذليلًا .

بحث روائي آخر

*نور دفتها بعض ماورد عن أئمّة أهل البيت عليهما السلام في معنى رؤية القلب *

في التوحيد والأمالي بإسناده عن الرضا عليهما السلام في خطبة له قال : أحد لا يتأول عدل ظاهر لا يتأول المباشرة ، متجلّ لابنته لالرؤية ، باطن لا يمزألة .

أقول : وحديث تجليه تعالى الدائم لخلقهم متكرر في كلام علي والأئمة من ذريته عليهم السلام ، وقد نقلنا شذرات من كلامه عليهم السلام في مباحث التوحيد في ذيل قوله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ .

وفي التوحيد باسناده عن الصادق عليهم السلام في كلام له في التوحيد : واحد صمد أزلبي صمدي ، لاظل لا يمسكه ، وهو يمسك الأشياء بأظلتها ، عارف بالجهول ، معروف عند كل جاهل ، لا هو في خلقه ولا خلقه فيه .

أقول قوله عليهم السلام « معروف عند كل جاهل ظاهر في أن له تعالى معرفة عند خلقه لا يطرب عليها غفلة ، ولا يغشاها جهل ، ولو كانت هي المعرفة الحاصلة من طريق الاستدلال لزالت بزوال صورته عن الذهن إذا كان المراد من قوله : « معروف عند كل جاهل » أن إلا إنسان يجهل كل شيء ولا يجهل ربّه ، وأما لو كان المراد أن الله سبحانه معروف عند كل جاهل به فكون هذه المعرفة غير المعرفة الحاصلة بالاستدلال أظهر .

وقوله عليهم السلام : « لاظل لا يمسكه له يمسك الأشياء بأظلتها » الأظلمة والظلال اصطلاح منهم عليهم السلام والمراد بظل الشيء حدّه ، ولذلك كان منفيًا عن الله سبحانه ثابتًا في غيره ، وقد فسره أبو جعفر الباقر عليهم السلام في بعض ^(١) أحاديث الذر الذر والطينة حيث ذكر : أن الله خلق طائفة من خلقه من طينة الجنة ، وطائفة أخرى من طينة النار ثم بعثهم في الظلال فقيل : وأي شيء الظلال ؟ فقال عليهم السلام : ألم تر إلى ظلك في الشمس شيء وليس بشيء ؟ فالحدود الوجودية بالنظر إلى وجود الأشياء غيره وليس غيره ، وبها تتعين الأشياء ولو لا لها بطلت ، ولعل الاصطلاح ماخوذ من آية الظلال .

وفي الإرشاد وغيره عن أمير المؤمنين عليهم السلام في كلام له : إن الله أجل من أن يحتجب عن شيء أو يحتجب عنه شيء .

وعنه عليهم السلام : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله .

وعنه : لم أعبد ربّاً لم أره .

(١) رواها في الكافي باسناده عن عبدالله بن محمد الحنفي وعقبة جمعيا عنه عليه السلام ، وسنوردها إن شاء الله في ذيل قوله تعالى : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » يونس : ٧٤ .

وفي النهج عنه لم تره العيون بمشاهدة الإِبصار ، ولكن رأته القلوب بحة-ائق
الإِيمان .

وفي التوحيد باسناده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال : سأله عن الله عز وجل
هل يراه المؤمنون يوم القيمة ؟ قال : نعم وقد رأوه قبل يوم القيمة . قلت : متى ؟ قال حين
قال لهم : « ألسنت ربكم ؟ قالوا بلى » ثم سكت ساعة ثم قال : وإن المؤمنين ليروننه في
الدنيا قبل يوم القيمة . ألسنت تراه في وقتك هذا .

قلت : فأخذت بهذا عنك ؟ فقال : لا ، فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل
بمعنى ما تقوله ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر ، وليس الرؤية بالقلب كالرؤبة بالعين تعالى الله
عما يصفه المشبهون والملاحدون .

اقول : وظاهر من الرواية أن هذه الرؤية ليست هي الاعتقاد والإِيمان القلبي
المكتسب بالدليل كما أنها غير الرؤية البصرية الحسية ، وأن المانع من تكثير استعمال
لفظ الرؤية في مورده تعالى وإذاعة هذا الاستعمال انصراف اللفظ عند الأفهام العامة إلى
الرؤية الحسية الممنفية عن ساحة قدره ، وإلأحقيقة الرؤية ثابتة وهي نيل الشيء بمشاهدة
العلمية من غير طريق الاستدلال الفكري بل هناك عدّة من الأخبار تنكر أن يكون الله
سبحانه معلوماً معروفاً من طريق الفكر وسيأتي بعضها .

وفي التوحيد باسناده عن موسى بن جعفر عليه السلام في كلام له في التوحيد : ليس بيته
وين خلقه حجاب غير خلقه فقد احتجب بغير حجاب محجوب ، واستتر بغير ستار مستور ،
لإله إلّا هو الكبير المتعال .

اقول : وهذا المعنى مروي عن الرضا عليه السلام أيضاً على ما في العلل وجواب التوحيد .
والرواية الشريفة تفسّر معنى حصول المعرفة به تعالى معرفة لاتقبل الجحالة ، ولا
يطرء عليها زوال ولا تغيير ولا خطأ البتة فهي توضح أنه سبحانه غير محتاج عن شيء إلّا
بنفس ذلك الشيء فالالتفات إلى الأشياء هو العائق عن الالتفات إلى مشاهدته تعالى . ثم
حكم عليه السلام أن هذا الحاجب الساتر غير مانع حقيقة فهو حجاب غير حاجب وستار
غير ساتر .

وينتظر مجتمع الكلامين أنّه سبحانه مشهود لخلقه معروف لهم غير غائب عنهم غير أنّ استغلالهم بأنفسهم والتقواتهم إلى ذاتهم حجبهم عن النبي على أنّهم يشهدونه دائمًا فالعلم موجود أبدًا ، والعلم بالعلم مفقود في بعض الأحيان ، وقد بنى الصادق عليه السلام على هذا الأساس فيما أجاب به بعض من شكري إليه كثرة الشبهات فقال عليه السلام له : هل ركبت السفينة فانكسرت وغرقت وفقط وفقط على لوحه خشبة منها تلعب بك الأمواج فانقطعت عن كلّ سبب ينجيك ؟ قال نعم قال : فهل تعلق قلبك إذ ذاك بشيء ؟ قال : نعم قال : ذلك الشيء وهو الله^(١).

وفي جوامع التوحيد عن الرضا عليه السلام قال : خلقة الله الخلق حجاب بينه و بينهم .

وفي العمل بإسناده عن الشمالي قال : قلت لعلي بن الحسين عليهما السلام : لا يعلم حجب الله عز وجلّ الخلق عن نفسه ؟ قال : لأنّ الله تبارك و تعالى بنائهم بنية على الجهل . اقول : يظهر من روایة التوحيد السابقة أنّ بناء هم على الجهل هو خلقهم بحيث يستغلون بأنفسهم .

وفي المحسن بإسناده عن أبي جعفر عليهما السلام قال : إن الله عز وجلّ كان ولا شيء غيره نوراً لاظلام فيه ، وصادقاً لا كذب فيه ، وعاملاً لاجهل فيه ، وحياناً لاموت فيه ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك لا يزال أبداً (الحديث) .

وفي التوحيد بإسناده عن الرضا عليهما السلام في حديث : كان - يعني رسول الله عليهما السلام - إذا نظر إلى ربّه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتى يستبين لهما في الحجب . وفيه أيضاً بإسناده عن محمد بن الفضيل قال : سألت أبا الحسن عليهما السلام هل رأى رسول الله عليهما السلام ربّه عز وجلّ ؟ فقال : نعم بقلبه رآه أما سمعت الله عز وجلّ يقول : « ما كذب القواد ما رأى » لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد .

وفيه بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق عليهما السلام في حديث : ومن زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك لأنّ الحجاب و المثال و الصورة غيره

(١) الحديث منقول بالمعنى .

وإِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ مُوْحَدٌ فَكَيْفَ يُوحَدُ مِنْ زَعْمٍ أَنَّهُ عَرَفَهُ بِغَيْرِهِ ؟ إِنَّمَا عَرَفَ اللَّهُ مِنْ عِرْفَةِ الْلَّهِ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِهِ فَلَيَسْ يَعْرِفُ غَيْرَهُ ، لَيَسْ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمُخْلُوقِ شَيْءٌ ، وَاللَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ لَا مِنْ شَيْءٍ .

تَسَمَّى بِأَسْمَائِهِ فَهُوَ غَيْرُ أَسْمَائِهِ ، وَالْأَسْمَاءُ غَيْرُهُ ، وَالْمَوْصُوفُ غَيْرُ الْوَاصِفِ ، فَمِنْ زَعْمِ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يَعْرِفُ فَهُوَ ضَالٌّ عَنِ الْمَعْرِفَةِ ، لَا يَدْرِكُ مُخْلُوقَ شَيْءًا إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَدْرِكُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَاللَّهُ خَلَوْمَنْ خَلْقَهُ وَخَلْقَهُ خَلَوْمَنْهُ .

اقول : الرواية تثبت معرفة الله لـكل مخلوق يدرك شيئاً مامن الأشياء، وتثبت أن هذه المعرفة غير المعرفة الفكرية التي تحصل من طريق الأدلة والآيات، وأن القصر على المعرفة الاستدلالية لا يخلو عن جهل بالله، وشرك خفي .

بيان ذلك بما تعطيه الرواية من المقدّمات أن المعرفة المتعلقة بشيء إِنَّمَا هي إِدرا كه فيما وقع في ظرف الإِدراك فهو الذي تتعلّق به المعرفة حقيقة لغيره، فلو فرضنا أَنَّا عرّفنا شيئاً من الأشياء بشيء آخر هو واسطة في معرفته فالذي تعلّق به إِدرا كنا هو الوسط دون الطرف الذي هو ذروسط، فلو كانت المعرفة بالوسط مع ذلك معرفة بذوي الوسط كان لازمه أن يكون ذلك الوسط بوجه هو ذا الوسط حتّى تكون المعرفة بأحد هما هي بعينها معرفة بالآخر فهو هو بوجهه وليس هو بوجهه فيكون واسطة رابطة بين الشيئين فزيد الخارجي الذي نتصوّره في ذهننا هو زيد بعينه ولو كان غيره لم نكن تصوّرنا بل تصوّرنا غيره، وعاد عند ذلك علومنا جهالات .

وإذا كان لا واسطة بين الخالق والمخلوق ليكون رابطة بينهما فلا تمكن معرفته سبحانه بشيء آخر غير نفسه فلو عرف بشيء كان ذلك الشيء هو نفسه بعينه، وإن لم يعرف بنفسه لم يُعرف بشيء آخر أبداً فدعوى أَنَّه تعالى مُعْرُوف بشيء من الأشياء كتصوّر أو تصديق أو آية خارجية شرك خفي لأنَّه إثبات واسطة بين الخالق والمخلوق يكون غيرهما بعيمعاً وما هذا وصفه غير محتاج الوجود إلى الخالق تعالى فهو مثله وشريكه فالله سبحانه لو عرف عرف بذاته، ولو لم يُعرف بذاته لم يُعرف بشيء آخر البُتْتَة لكنَّه سبحانه مُعْرُوف، فهو

معروف بذاته أي أن ذاته المتعالية والمعروفة شيء واحد بعينه فمن المستحيل أن يكون مجهولاً لأن ثبوت ذاته عين ثبوت معروفيته.

وأمام بيان كونه تعالى معروفا فلأن شيئاً من الأشياء المخلوقة لا يستقل عنه تعالى بذاته بوجه لا في خارج ولا في ذهن ، فوجوده كالنسبة والربط الذي لا يمكنه الاستقلال عن طرفه بوجه من الوجوه ، فإذا تعلق علم مخلوق بشيء من الأشياء أي وقع المعلوم في ظرف علمه لم يتحقق هناك إلا ومعه خالقه مستكيناً بوجوده عليه وإلا لاستقل دونه فلا يجد عالم معلوم إلا وقد وجدا الله سبحانه قبله ، و العالم نفسه حيث كان مخلوقاً لم يستقل بالعلم إلا بالله سبحانه الذي قوّم وجود هذا العالم ، ولو استقل به دونه كان مستقلان دونه غير مخلوق له ، فالله سبحانه يحتاج إليه العالم في كونه عالماً كما يفتقر إليه وجود المعلوم في كونه معلوماً أي أن العلم يتعلق باستقلال ذات المعلوم أي أن الله سبحانه هو المعلوم أو لا وبعلم به المعلوم ثانياً كما أنه تعالى هو العالم أو لا وبه يكون الشيء عالماً ثانياً ففهم ذلك وتدبر في قوله تعالى : «ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» البقرة: ٢٥٥ وفي قوله عليه السلام : «مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله » .

فقد تبيّن أنّه تعالى معروف لأن ثبوت علم ما بمعلوم ما في الخارج لا يتم إلا بكونه تعالى هو المعروف أو لا ، وثبوت ذلك ضروري .

فقوله عليه السلام «من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو صورة أو مثال فهو مشرك» كان المراد بالحجاب هو الشيء الذي يفرض فاصلاً بينه تعالى وبين العارف ، وبالصورة الذهنية المقارنة للأوصاف المحسوسة من الأضواء والألوان والأقدار وبالمثال ما هو من المعاني العقلية غير المحسوسة ، أو المراد بالصورة المحسوسة ، وبالمثال الصورة المتخيلة ، أو المراد بالصورة التصوّر وبالمثال التصديق ، وكيف كان فالعلوم الفكرية داخلة في ذلك ، والأخبار في نفي كون العلم الفكري إحاطة علمية بالله كثيرة جداً .

وكون هذه المعرفة شركاً لا ثباتها أبداً ليس بخالق ولا مخلوق كما عرفت آنفاً ، ولزوم كونه مشاركاً معه بوجه مبائننا له بوجه ، ولذلك عقب عليه السلام الكلام بقوله : « وإنما هو واحد موحد » أي أنه لا يشار كه في ذاته شيء بوجه من الوجوه حتى يجب ذلك

تر كَبَه وانتفاء وحدته كما أَنَّ الصورة العلميَّة تشارك المعلوم الخارجي في معناه وماهيتها وتفارقه في وجوده فيصير المعلوم بذلك مِن كُلَّا من ماهيَّة وجود.

«فَكَيْفَ يُوحَّدُ مِنْ زَعْمِ أَنَّهُ يَعْرَفُ بَغْيَرِهِ» مع إثباته شرِيكًا له في وجوده وتر كَبَاه له في ذاته «إِنَّمَا عَرَفَ اللَّهُ مِنْ عَرْفِهِ بِاللَّهِ» أَيْ بِنَفْسِ ذاتِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ «وَمَنْ لَمْ يَعْرَفْهُ بِهِ فَلَيُسَيِّدْهُ إِنَّمَا يَعْرَفُ بَغْيَرِهِ» كُلُّ ذَلِكَ «لَا نَهُ لَيْسَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمُخْلُوقِ شَيْءٌ» أَيْ أَمْرٌ يُرْبِطُهُمَا هُوَ غَيْرُهُمَا «وَاللَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ لَا مِنْ شَيْءٍ» يَكُونُ رابطًا بَيْنَهُمَا مُوصَلاً لِلْخَالِقِ إِلَى الْمُخْلُوقِ وَبِالْعَكْسِ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الصَّانِعَ يُرْبِطُهُ إِلَى مُصْنَوعِهِ مُثَالَهُ الَّذِي فِي ذَهَنِ الصَّانِعِ، وَالْمَادَةُ الْخَارِجِيَّةُ الَّتِي يَبْدِئُهُ .

وقوله عليه السلام «تَسَمَّى بِأَسْمَائِهِ فَهُوَ غَيْرُ أَسْمَائِهِ» في موضع دفع اعتراض مقدَّرٍ، وهو أَنْ يقال : إِنَّا إِنَّمَا نَعْرَفُهُ بِسُبْحَانِهِ بِأَسْمَائِهِ الْحَاكِيَّةِ لِجَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، فَدَفَعَهُ بِأَنَّ نَفْسَ التَّسَمِّيِّ بِالْأَسْمَاءِ يَقْضِي بِأَنَّ الْأَسْمَاءَ غَيْرِهِ إِذْ لَوْ لَمْ تَكُنْ غَيْرُهُ لَكَانَ مَعْرِفَتُهُ بِأَسْمَائِهِ مَعْرِفَةً لَهُ بِنَفْسِهِ لَا بِشَيْءٍ آخَرَ ثُمَّ أَكَدَهُ بِأَنَّ الْأَسْمَاءَ وَاصِفَةٌ، وَالذَّاتُ مُوصَفَةٌ «وَالْمَوْصُوفُ غَيْرُ الْوَاصِفِ» .

فَإِنْ رَجَعَ الْمُعْتَرِضُ وَقَالَ : إِنَّا نَؤْمِنُ بِمَا نَجْهَلُهُ، وَلَا يُمْكِنُنَا مَعْرِفَتُهُ بِنَفْسِهِ إِلَّا بِمَا تَسَمَّى مَعْرِفَةً بِهِ بِنَوْعِ الْمَجَازِ كَالْمَعْرِفَةِ بِالآيَاتِ وَ«زَعْمُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يَعْرَفُ فَهُوَ ضَالٌّ عَنِ الْمَعْرِفَةِ» لَا يَدْرِي مَا ذَا يَقُولُ فَإِنَّهُ يَدْرِكُ شَيْئًا لَا مَحَالَةَ لَا مَجَالَ لَهُ لَا إِنْكَارَ ذَلِكَ «وَلَا يَدْرِكُ مَخْلُوقَ شَيْئًا إِلَّا بِاللَّهِ» فَهُوَ يَعْرَفُ اللَّهَ وَإِلَّا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَعْرَفَ بِهِ ، وَلَا تَنَالُ «وَلَا تَدْرِكُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ إِلَّا بِاللَّهِ» وَلَا رَابِطَةٌ مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمُخْلُوقِ «وَاللَّهُ خَلَوَ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلَقَهُ خَلْوَ مِنْهُ» .

فَقَدْ تَحْصَلُ مِنَ الرِّوَايَةِ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ بِسُبْحَانِهِ ضَرُورِيٌّ لِكُلِّ هَدْرَكِ ذِي شَعْورٍ مِنْ خَلْقِهِ إِلَّا أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ ضَالٌّ عَنِ الْمَعْرِفَةِ مُخْتَلِطٌ عَلَيْهِ، وَالْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ يَعْرَفُهُ بِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْرَفُهُ وَيَعْرُفُ كُلَّ شَيْءٍ بِهِ، وَفِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَعْانِي رِوَايَاتٌ أُخْرَى .

واعلم أنّ الروايات من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جدّاً لا حاجة إلى إيرادها على كثرتها.

واعلم أنّا لم نورد بحثاً فلسفياً في مسألة الرؤية لأنّ الذي تتضمنه غالباً ما أوردناه من الروايات من البيان بيان فلسطفي فلم تمس الحاجة إلى عقد بحث على حدة.



وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخْذَهُمُ الرَّجْفَةَ قَالَ رَبِّ
 لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلٍ وَإِيَّاهُ أَتَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنْهَا إِنْ هِيَ إِلَّا
 فِتْنَكَ تُضْلِلُ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلَيْسَنَا فَاغْفِرُ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَأَكْتَبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَدَنَا إِلَيْكَ
 قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَبُهَا لِلَّذِينَ يَتَقَوَّنُونَ
 وَيُقْتَوْنَ الزَّكُورَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُقْرِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَمَّعُونَ الرَّسُولَ
 النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَبْدُو نَهَرًا مَكْتُوبًا عِنْهُمْ فِي الْتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا هُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ
 وَيَضْعُعُ عَنْهُمْ إِعْرَاهُمْ وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّزُوهُ
 وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزَلَ مَعَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا
 النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيَمْتِي فَمَنْوَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لِعُلُومِهِ تَهَذَّدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أَمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ
 وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَعْنَا هُمْ أَنْفُتِي عَشَرَةً أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
 إِذَا سَقَيْتَهُ قَوْمَهُ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَنْتَا عَشَرَةً عَيْنًا قَدْ
 عَلِمْ كُلُّ اُنْسٍ مُشَرِّبِهِمْ وَظَلَمْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلَوِيَّ كَلَوْا
 مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلَمُونَ (١٦٠).

﴿بيان﴾

فصل آخر من قصص بني إسرائيل يذكر فيها آيات كثيرة أُنزلها الله إليهم وحباهم بها يهدىهم بها إلى سبيل الحق ، ويدلّهم على منهج التقوى فكفروا بها وظلموا أنفسهم .

قوله تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً طيقاتنا » أي اختار من قومه فالقوم منصوب بنزع الخافض .

والآية تدل على أن الله سبحانه عيّن لهم ميقاتاً فحضره منهم سبعون رجلاً اختارهم موسى من القوم ، ولا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن الله سبحانه لم يبيّن هنا ما هو الغاية المقصودة من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ولم تأخذهم إلا لظلم عظيم ارتكبوا حتى أدى بهم إلى الهالك بدليل قول موسى عليه السلام : « رب لو شئت أهلكتم من قبل وإيتاي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » فيظهر من هنا أن الرجفة أهلكتهم .

ويتأيد بذلك أن هذه القصة هي التي يشير سبحانه إليها بقوله : « وإن قاتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة و أنتم تنتظرون ثم بعشناكم من بعد موتكم لعلكم تشکرون » البقرة : ٥٦ ، وبقوله : « يسألوك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألا موسى أكبّر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فغفونا عن ذلك » النساء : ١٥٣ .

ومن ذلك يظهر أن المراد بالرجفة التي أخذتهم في الميقات رجفة الصاعقة لا رجفة في أبدانهم كما احتمله بعض المفسّرين ولا ضير في ذلك فقد تقدّم نظير التعبير في قصة قوم صالح حيث قال تعالى : « فأخذتهم الرجفة فأصبّحوا في دارهم جاثمين » الأعراف : ٧٨ ، وقال فيهم : « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » حم السجدة : ١٧ .

و في آية النساء المنسولة آنفًا إشعار بـأَنَّ سُؤالِهِم الرُّؤْيَا كَانَ مُرْبُوتًا بِنَزْولِ الْكِتَابِ وَأَنَّ اتِّخَادَ الْعَجْلِ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَكَانُوهُمْ حَضَرُوا الْمِيقَاتِ لِنَزْولِ التُّورَاةِ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا الرُّؤْيَا لِيَكُونُوا عَلَى يقينٍ مِّنْ كَوْنِهَا كِتَابًا سَمَاوِيًّا نَازِلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ هُؤُلَاءِ الْمُخْتَارِينَ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِأَصْلِ دُعَوةِ مُوسَى ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نُرَى اللَّهُ جَهْرًا » تَعْلِيقٌ إِيمَانَهُمْ بِهِ مِنْ جَهَةِ نَزْولِ التُّورَاةِ عَلَيْهِ عَلَى الرُّؤْيَا .

وبهذا كله يتبيّد أن هذه القصة جزء من قصة الميقات و نزول التوراة ، وأن موسى عليه السلام لما أراد الحضور ملقيات ربّه و نزول التوراة اختار هؤلاء السبعين فذهبوا معه إلى الطور ولم يقنعوا بتكميل الله كليميه ، و سأّلوا الرؤية فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله بدعاوة موسى ، ثم كلام الله موسى و سأل الرؤية وكان مكان ، و لما كان اتّخاذبني إسرائيل العجل بعد غيبتهم و ذهابهم ملقيات الله ، وقد وقع هذا المعنى في بعض الأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهما السلام كما سيجيء إن شاء الله .

وعلى أي حال العناية في هذه القصة بيان ظلمهم و نزول العذاب عليهم و دعاء موسى لهم لا بيان كون هذه القصة جزءاً من القصة السابقة لو كانت جزءاً ، ولا معايرتها لها لو كانت مغایرة فلا دلالة في المفظ تنبئه على شيء من ذلك .

وماقيل : إن ظاهر الحال أن تكون هذه القصة مغایرة للمتقدمة إذ لا يليق بالفصاحة ذكر بعض القصة ثم النقل إلى أخرى ثم الرجوع إلى الأولى فإنّه اضطراب يصان عنه كلامه . على أنه لو كانت الرجفة بسبب سؤال الرؤية لقيل : أتّهلكنا بما قال السفهاء مثلاً لابما فعل ، ولم يذكره هنا أفهم قالوا شيئاً ، وليس من المعلوم أن يكون قولهم « أرنا الله جهرة » صدر منهم ههنا بل الحق أنها قصص ثلاث : قصة سؤالهم الرؤية و نزول الصاعقة ، و قصة ميقات موسى و صعقته ، و قصة ميقات السبعين وأخذ الرجفة ، و سنوردها في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

ولذلك ذكر بعضهم : أن هذا الميقات غير الميقات الأول ، وذلك أنّهم لما عبدوا العجل أمر الله موسى أن يأتي في أفال منهن إلى الطور فيعتذروه من عبادة العجل فاختار

منهم سبعين فأتوا الطور فقالوا ما قالوا فأخذتهم رجفة في أبدانهم كادت تهلكهم ثم انكشفت عنهم بدعاء موسى .

وذكر بعض آخر أن هارون طاها مات اتهم بنو إسرائيل موسى في أمره ، وقالوا له : أنت حسدته فينا فقتلته ، وأصرّ وأعلى ذلك فاختار منهم سبعين وفيهم ابن هارون فأتوا قبره فكلّمه موسى فبَرَّه هارون من قتله فقالوا : ما نقضي يا موسى ادع لنا ربّك يجعلنا أنبياء فأخذتهم الرجفة فصعقوا .

وذكر آخر أنّ بنى إسرائيل سألوا موسى الرؤية فاختار منهم السبعين فجاؤوا إلى الطور فقالوا ما قالوا وأخذتهم الرجفة فهللوا ثم أحياهم الله بدعاء موسى إلا أنها قصة مستقلة ليست بجزء من قصة موسى .

وأنت خير بـأن شيئاً من هذه الأقوال وبالخصوص القولان الأولان لا دليل عليه من لفظ القرآن ، ولا يؤيد هذه أثر معتبر ، وتقسيط القصة الواحدة إلى قصص متعددة ، وانتقال من حديث إلى آخر لتعلقه عنایة بذلك غير عزيز في القرآن الكريم ، وليس القرآن كتاب قصة حتى يعاب بالانتقال عن قصة قبل تمامها ، وإنما هو كتاب هداية ودلالة وحكمة يأخذ من القصص ما يهمه .

وأمّا قوله : « بما فعل السفهاء » وقد كان الصادر منهم قوله لا فعلاً فالوجه في ذلك أن المؤاخذة إنما هو على المعصية ، والمعصية تعد عملاً وفعلاً وإن كانت من قبيل الأقوال كما قال تعالى : « إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحرير : ٧ فإنه شامل لقول كلمة الكفر والكذب والافتراء ونحو ذلك بلا ريب ، والظاهر أنهم عذّبوا بما كان يستلزمهم قوله من سوء الأدب والعناد والاستهانة بمقام ربّهم .

على أن ظاهر تلك الأقوال جليعاً أنهم إنما عذّبوا بالرجفة قبال ما قالوه دون ما فعلوه فالإشكال على تقدير وروده مشترك بين جميع الأقوال فالاقرب كون القصة جزءاً من سبقتها كما تقدّم .

قوله تعالى : « قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل وأيّاً - إلى قوله - من تشاء » يزيد على ذلك أن يسأل ربّه أن يحييهم خوفاً من أن يهلكهم بنو إسرائيل فيخرجوا

به عن الدين ، و يبطل بذلك دعوته من أصلها فهذا هو الذي يتغىّب غير أن المقام والحال يمنعانه من ذلك فهذا هو ~~عليكم~~ واقع أمم معصية موبقة من قومه صرعتهم ، و غضب إلهي شديد أحاط بهم حتى أهلكهم .

ولذلك أخذ يهدى الكلام رويداً ويستر حرمته بجمل من الثناء حتى يهيج الرجمة على الغضب ، ويشير الحنان و الرأفة الإلهية ثم يتخلص إلى مسألته وذكر حاجته في جو خال من موانع الإجابة .

« قال » مبتدئاً باسم الروبيّة المهيّجة للرجمة « ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل ، فالامر إلى مشيتك ، ولو أهلكتهم من قبل « وإياتي » لم يتوجه من قومي إلى تهمة في هلاكهم ، ثم ذكر أنه ليس من شأن رحمة و سنة ربّيتك أن يؤخذ قوماً بفعل سفهائهم فقال في صورة الاستفهام تأدّباً : « أتلهكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ثم أكدّ القول بقوله : « إن هي الأفتنتك » و امتحنوك « تضلّ بها » أي بالفتنة « من تشاء و تهدي من تشاء أي أن هذا المورد أحد موارد امتحانك و ابتلائك العام الذي تبتلي به عبادك و تجريه عليهم ليضلّ من ضلّ و يهدي من اهتدى ، وليس من سنتك أن تهلك كلّ من افتن بفتنتك فانحرف عن سويّ صراطك .

و بالجملة أنت الذي سبقت رحمتك غضبك ليس من دأبك أن تستعجل المسيئين من عبادك بالعقوبة ، أو تعاقبهم بما فعل سفهاؤهم ، وأنت الذي أرسلتني إلى قومي و وعدتني أن تنصرني في نجاح دعوتي ، و هلاك هؤلاء المصعوقين يجعل عليّ التهمة من قومي . قوله تعالى : « أنت ولينا فاغفر لنا وارجعنا وأنت خير الغافرين » شروع منه ~~عليكم~~ في الدعاء بعد ما قدّمه من الثناء ، و بدأ بقوله : « أنت ولينا » و ختمه بقوله : « وأنت خير الغافرين » ليقع ما يسألة بين صفتني ولالية الله الخاصة به ، ومفترته التي هي خير مغفرة ثم سأّل حاجته بقوله : « فاغفر لنا وارجعنا » لأنّه خير حاجة يرتضي الله من عباده أن يسألوها عنه ، ولم يصرّح بخصوص حاجته التي بعثته إلى الدعاء ، وهي إحياء السبعين ^{الذين أهلكهم الله تذللوا واستحبوا} .

و حاجته هذه مندرجة في قوله : « فاغفر لنا وارجعنا » لامحالة فإنّ الله سبحانه

يذكر في آية سورة البقرة أنه بعثهم بعد موتهم ، ولم يكن ليحييهم بعد ما أهلكهم إلا بشفاعة موسى عليه السلام ولم يذكر من دعائه المرتبط بحالهم إلا هذا الدعاء فهو إنما سأله ذلك تلويحاً بقوله : « فاغفر لنا » الخ كما تقدم لاتصرحوا .

قوله تعالى : « وَاكْتَبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٍ وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَدَنَا إِلَيْكَ » أي رجعنا إليك من هاد يهود إذا رجع ، وهو أعني قوله : « إِنَّا هَدَنَا إِلَيْكَ » تعليل لهذا الفصل من الدعاء سأله فيه أن يكتب الله أي يقضى لهم بحسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة و المطراد بالحسنة لا محالة الحياة والعيشة الحسنة فإن الرجوع إلى الله أي سلوك طريقته والتزام سبيل فطرته يهدي الإنسان إلى حياة طيبة و عيشة حسنة في الدنيا والآخرة جمعاً ، وهذا هو الوجه فيما ذكرنا أن قوله : « إِنَّا هَدَنَا إِلَيْكَ » تعليل لهذا الفصل من دعائه فإن الحياة الطيبة من آثار الرجوع إلى الله ، وهي شيء من شأنه أن يرزقهون - لو رزقا - في مستقبل أمرهم ، وهو المناسب للكتابة والقضاء ، وأمّا الفصل الأول من الدعاء أعني قوله : « فاغفر لنا وارجعنا » الخ فتكتفي في تعليله الجمل السابقة عليه ، وما احتف به من قوله : « أنت ولستا » و قوله : « و أنت خير الغافرين » ولا يتعلق بقوله : « إِنَّا هَدَنَا إِلَيْكَ » فافهم ذلك .

قوله تعالى : « قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَ رَحْمَتِي وَسْعَتْ كُلُّ شَيْءٍ » هذا جواب منه سبحانه موسى ، وفيه مجازة لما قدّمه موسى قبل مسألته من قوله : « رب لَوْ شئت أهلكتهم من قبل و إِسْتَأْيِ » ، وقد فيد الله سبحانه إصابة عذابه لقوله : « من أشاء » دون سعة رحمته لأن العذاب إنما ينشأ من اقتداء من قبل المعدّين لامن قبله سبحانه قال تعالى : « مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بَعْدَ أَبْكِمْ إِنْ شَكْرَتُمْ وَ آمْنَتُمْ » النساء : ١٤٧ و قال : « لِمَنْ شَكْرَتُمْ لَأُزِيدَنَّكُمْ وَ لِمَنْ كَفَرَتُمْ إِنْ عَذَابِي أَشَدُّ يَدِي » إبراهيم : ٧ فلا يعذّب الله سبحانه باقتداء من ربوبيته ولو كان كذلك لعذّب كل أحد بل إنما يعذّب بعض من تعلق به مشيته ، ولا يتعلق مشيته إلا بعذاب من كفر بأنعمه فالعذاب إنما هو باقتداء من قبل المعدّين لکفرهم لامن قبله .

على أن كلامه سبحانه يعطي أن العذاب إنما حقيقته فقدان الرحمة ، و النعمة

عدم بذل النعمة ، ولا يتحقق ذلك إلّا لعدم استعداد المعدّب بواسطة الكفران و الذنب لا فاضة النعمة عليه وشمول الرحمة له فسبب العذاب في الحقيقة عدم وجود سبب الرحمة .
و أمّا سعة الرحمة و إفاضة النعمة فمن المعلوم أنّه من مقتضيات الالوهية ولو ازام صفة الربوبيّة فما من موجود مخلوق إلّا و وجوده نعمة لنفسه ولكثير ممّن دونه لارتباط أجزاء الخلقة ، وكلّ ما عنده من خير أو شرّ نعمة إمّا لنفسه ولغيره كالقوّة والثروة وغيرهما التي يستفيد منها الإنسان وغيره ، وإمّا لغيره إذا كان نعمة بالنسبة إليه كالعاهات والآفات والبلايا يستضرّ بها شيء و ينتفع أشياء وعلى هذا فالرحمة الإلهية واسعة كلّ شيء فعلاً لأشنان ، ولا يختصّ بمؤمن ولا كافر ولا ذي شعور ولا غيره ولا دنيا ولا آخرة ، والمشيّة لازمة لها .

نعم تتحقق العذاب والنعمة في بعض الموارد - وهو معنى قياسي - يوجب أن يتحقق هناك رحمة تقابلها وتقاس إليها فإنّ حرمان البعض من النعمة التي أنعم الله بها على بعض آخر إذا كان عذاباً كان ما يجده البعض الآخر رحمة تقابل هذا العذاب ، وكذا تزول ما يتّالم به و يؤذى على بعض كالعقوبات الدنيوية والأخروية إذا كان عذاباً كان الأمّن والسلامة التي يجدها البعض الآخر رحمة بالنسبة إليه و مقابلة وإن كانت الرحمة المطلقة بالمعنى الذي تقدّم بيانه يشملها جميعاً .

فهناك رحمة إلهية عامة يتنعم بها المؤمن والكافر والبر والفاجر وذو الشعور وغير ذي الشعور فيؤخذون بها ويزفون بها في أول وجودها ثمّ في مسيرة الوجود ماداموا سالكين سبيل البقاء ، ورحمة إلهية خاصة وهي العطية الهنية التي يوجد بها الله سبحانه في مقابلة الإيمان والعبودية ، وتختص لحالات بمؤمنين الصالحين من عباده من حياة طيبة نورانية في الدنيا ، وجنّة ورضوان في الآخرة ولا تنصيب فيها للكافرين وال مجرمين ، و يقابل الرحمة الخاصة عذاب وهو إلا ملائم الذي يصيب الكافرين وال مجرمين من جهة كفرهم و جرهم في الدنيا كعذاب الاستئصال والمعيشة الضنك وفي الآخرة من النار و آلامها ، ولا يقابل الرحمة العامة شيء من العذاب إذ كلّ ما يصدق عليه اسم شيء فهو من مصاديق الرحمة العامة لنفسه أو لغيره ، وكونه رحمة هي المقصودة في الخلقة ، وليس وراء الشيء شيء .

إذا تحقق هذا تبيّن أنّ قوله تعالى : « عذابي أُصيّب به من أشاء ورحمتي وسعت كلّ شيء » بيان لخصوص العذاب وعموم الرحمة وإنما قابل بين العذاب والرحمة العامة مع عدم تقابلهما لأنّ ذكر الرحمة العامة توطئة وتمهيد لما سيدركه من صدورها رحمة خاصة في حقّ المتقين من المؤمنين .

وقد اتضح بما تقدّم أنّ سعة الرحمة ليست سعة شائنة وأنّ قوله : « ورحمتي وسعت كلّ شيء » ليس مقيداً بالمشيّة المقدّرة بل من لوازم سعة الرحمة كما تقدّم ، وذلك لأنّ الظاهر من الآية أنّ المراد بالرحمة العامة وهي تسع كلّ شيء بالفعل وقد شاء الله ذلك فلزمتها فلا محلّ لتقدير « إن شئت » خلافاً لظاهر كلام جمع من المفسّرين .

قوله تعالى : فساكتبهاللذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمّنون تفريع على قوله : « عذابي أُصيّب به من أشاء ورحمتي » الآية أي لازم وجوب إصابة العذاب بعض الناس وسعة الرحمة لكلّ شيء لأنّ أوجب الرحمة على البعض الباقى ، وهم الذين يتّقون ويؤتون الزكاة الآية .

وقد ذكر سبحانه والذين تنالهم الرحمة بأوصاف عامة وهي التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بآيات الله من غير أن يقيّدتهم بما يخصّ قومه قوله : للذين يتّقون منكم ونحو ذلك لأنّ ذلك مقتضى عموم البيان في قوله : « عذابي أُصيّب به من أشاء » الآية وبيان العام ينتهي نتيجة عامة .

وإذا قوبلت مسألة موسى بالآية كانت الآية بمنزلة المقيدة لها فإنّه ~~يقيّد~~ سأل الحسنة والرحمة لقومه ثم عللها بقوله : « إنّا هدنا إلّيك » فكان معنى ذلك مسألة الرحمة لكلّ من هاد ورجع منهم بأن يكتب الله حسنة الدنيا والآخرة مجرّد هودهم وعودهم إليه فكان فيما أجابه الله بهأنّه سيكتب رحمته للذين آمنوا واتّقوا فكان قال : أكتب رحمتك ملن هاد إلّيك منا فأجابه الله أن سأكتب رحمتي ملن هاد واتّقى وآمن بآياتي فكان في ذلك تقيد مسألته .

ولا ضير في ذلك فإنّه سبحانه هو الهدى لأنبيائه ورسله المعلم لهم يعلم كلّمه أن يقيّد مسألته بالتقوى وهو الورع عن محارمه وبالإيمان بآياته وهو التسلّيم لأنبيائه و

لله حكم النازلة إليهم ، ولا يطلق الهدى وهو الرجوع إلى الله بالإيمان به ، فهذا تصرف في دعاء موسى بتقييده كما تصرف تعالى في دعاء إبراهيم بالتقيد في قوله : « قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرستي قال لاني نال عهدي الظالمين » البقرة : ١٢٤ وبالعميم والإطلاق في قوله فيما يحكي من دعائه لأهل مكّة : « وارزق أهله من الشمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتنعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير البقرة : ١٢٦ فقد تبيّن أولاً أن الآية تتضمّن استجابة تعلّى لدعاء موسى : « واكتب لذا في هذه الدنيا حسنة و في الآخرة » بتقييده ما له فمن العجيب ما ذكره بعضهم : أن الآية بسياقها تدل على أن الله سبحانه ردد دعوة موسى ولم يستجبها ، وكذا قول بعضهم : إن موسى عليه السلام دعا لقومه فاستجابه الله في حق أمّة مخل عليه قاله بناء على بيانية قوله : « الّذين يتّبعون الرسول » الآية من قوله : « لِلّذين يَتّقُونَ » الآية وسيجيء .

وثانياً : أنه تعالى استجاب ما اشتمل عليه الفصل الأول من دعائه فإذا تعلّى لم يردّه ، وحاشا أن يحكي الله في كلامه دعاء لاغياً غير مستجاب ، و قوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلّذين » الآية فإنه يحاذى مسألة هل هي من الحسنة المستمرة الباقية في الدنيا والآخرة لقومه ، وأمّا طلب المغفرة لذنب دفعي صدر عنهم بقولهم : « أرنا اللّه جهراً » فلا يحاذيه قوله : « فَسَأَكْتُبُهَا » الآية بوجه ، فسكتوه تعالى عن رد دعوته دليلاً إجابتها كما في سائر الموارد التي تشابهه في القرآن .

ويلوّح إلى استجابة دعوته لهم بالمغفرة قوله في القصة في موضع آخر « ثُمَّ بَعْثَنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » البقرة : ٥٦ فمن بعيد المستبعد أن يحييهم الله بعد إهلاكهم ولم يغفر لهم ذنبهم الذي أهلكوا به .

وعلى أي حال معنى الآية : « فَسَأَكْتُبُهَا » أي سأكتب رحمتي وأفضيها وأوجّها استعيير الكتابة للإيجاب لأن الكتابة أثبت وأحكم « لِلّذين يَتّقُونَ » ويتجنبون المعاصي وترك الواجبات « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » وهي الحق المالي أو مطلق الإفراق في سبيل الله الذي ينموا به أمال ، ويصلح به مفاسد الاجتماع ، ويتم به نوافعه ، وربما قيل : إنّ أطراد بها زكاة النفس وطهارتها ، وإيتاء الزكاة إصلاح أخلاق النفس . وليس بشيء .

« وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ » أَي يَسْلُمُونَ مَا جَاءَتْهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنِ الْآيَاتِ وَالْعَالَمَاتِ سَوَاءً كَانَتْ آيَاتٍ مَعْجَزَةً كَمَعْجَزَاتِ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمْ ، أَوْ حَكْمًا سَمَاوِيًّا كَشْرَائِعِ مُوسَى وَأَوْامِرِهِ وَشَرَائِعِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، أَوْ الْأَنْبِيَاءُ أَنفُسُهُمْ أَوْ عَالَمَاتٍ صَدَقَ الْأَنْبِيَاءُ كَعَالَمٍ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي كِتَابٍ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَكُلُّ ذَلِكَ آيَاتٍ لَهُ تَعَالَى يَجْبُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا وَيُسْلِمُوا إِلَيْهَا ، وَلَا يَكُنُّ بِهَا بَهْرًا .

وَفِي الْآيَةِ التَّقْفَاتِ مِنْ سِيَاقِ التَّكَلُّمِ مَعَ الْغَيْرِ إِلَى الْغَيْبِيَّةِ فَإِنَّهُ قَالَ أَوْلًا : « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا طِيقَاتِنَا » ثُمَّ قَالَ : « قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ » الْآيَةُ وَكَانَ النَّكْتَةُ فِيهِ إِظْهَارٌ مَالِهِ سِبْحَانَهُ مِنَ الْعُنْيَادِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِاسْتِجَابَةِ دُعَاءِ الدَّاعِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي قَبْلِ عَلَيْهِمْ هُوَ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشارِكَهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَلَوْ بِالْتَّوْسِطِ فَإِنَّ التَّكَلُّمَ بِلَفْظِ الْمُتَكَلِّمِ مَعَ الْغَيْرِ إِلَّا ظَهَارُ الْعَظَمَةِ مَلْكَانَ أَنَّ الْعَظِيمَاءَ يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَنْبَاعِهِمْ فَإِذَا أُرِيدَ إِظْهَارُ عِنْيَادِيَّةَ بِالْمُخَاطَبِ أَوْ بِالْخُطَابِ تَكَلُّمَ بِلَفْظِ الْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ .

وَعَلَى هَذَا جَرِيَّ كَلَامِهِ تَعَالَى فَاخْتَارَ سِيَاقَ الْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ الْمَنَاسِبُ مَعْنَى الْمُنَاجَاهَةِ وَالْمُسَارَّةِ فِيمَا حَكَى مِنْ أَدْعِيَةِ أَنْبَيَائِهِ وَأُولَيَائِهِ وَاسْتِجَابَتْهُ لَهُمْ فِي كَلَامِهِ كَأَدْعِيَةِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَدُعَاءِ مُوسَى لِيَلِةَ الطُّورِ ، وَأَدْعِيَةِ سَافِرِ الصَّالِحِينَ وَاسْتِجَابَتْهُ لَهُمْ ، وَلَمْ يَعْدِلْ عَنْ سِيَاقِ الْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ إِلَّا لَنَكْتَةٍ زَائِدَةً .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ » وَمَا فِيهِ مِنَ الْعَدُولِ مِنَ التَّكَلُّمِ وَحْدَهُ - السِّيَاقُ السَّابِقُ - إِلَى التَّكَلُّمِ مَعَ الْغَيْرِ فَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّكْتَةَ فِيهِ إِيجَادُ الاتِّصالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَةِ التَّالِيَّةِ الَّتِي هِيَ نُوعٌ مِنَ الْبَيَانِ لِهَذِهِ الْجَمْلَةِ أَعْنِي قَوْلَهُ : « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ » فَإِنَّ الْآيَةَ التَّالِيَّةَ - كَمَا سِيَحِيَّ - بِمَنْزِلَةِ الْمُعْتَرَضَةِ مِنَ النَّتِيْجَةِ الْمُأْخُوذَةِ فِي ضَمْنِ الْكَلَامِ الْجَهَارِيِّ ، وَسِيَاقُهَا سِيَاقٌ خَارِجٌ عَنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْقَطْعَةِ الْمُتَعَرَّضَةِ لِلْمُشَافَهَةِ وَالْمُنَاجَاهَةِ بَيْنِ مُوسَى وَبَيْنِهِ تَعَالَى رَاجِعٌ إِلَى السِّيَاقِ الْأَصْلِيِّ » السَّابِقُ الَّذِي هُوَ سِيَاقُ الْمُتَكَلِّمِ مَعَ الْغَيْرِ .

فَبِتَبَدِيلِ « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ » إِلَى قَوْلِهِ : « وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ »

يتصل الآية التالية بسابقتها في السياق بنحو لطيف فافهم ذلك وتدبر فيه فإنّه من عجيب السياقات القرآنية .

قوله تعالى : **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي** الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل - إلى قوله - كانت عليهم ». قال الراغب في المفردات : الإصر عقد الشيء وحبسه بغيره يقال : أصرته فهو مأمور ، وأمأصر وأمأصر - بفتح الصاد وكسرها - محبس السفينة قال تعالى : ويضع عنهم إصرهم أي الأمور التي تضبطهم وتقيدهم عن الخيرات ، وعن الوصول إلى الثوابات ، وعلى ذلك : ولا تحمل علينا إصرًا ، وقيل : ثقلًا وتحقيقه ماذكرت . (انتهى) والأغلال جمع غل وهو ما يقيس به .

وقوله : **«الذين يتبعون الرسول النبي الأمي»** الآية بحسب ظاهر السياق بيان قوله : **«والذين هم بآياتنا يؤمنون»** ويؤيد ما هو ظاهر الآية أن كونه عليه صلوات الله رسولًا نبيًا أميًّا وياصر بما عروف وينهى عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كل ذلك من أمارات النبوة الخاتمية وآياتها المذكورة لهم في التوراة والإنجيل فمن الإيمان بآيات الله الذي شرطه الله تعالى لهم في كلامه : أن يؤمنوا بالآيات المذكورة لهم أمارات لنبوة محمد عليه صلوات الله .

غير أن من المسلم الذي لامرية فيه أن الرحمة التي وعد الله كتابته لليهود بشرط التقوى والإيمان بآيات الله ليست بحيث تختص بالذين آمنوا منهم بالنبي عليه صلوات الله ، ويحرم عنها صالحون بني إسرائيل من لدن أجاب الله دعوة موسى عليه صلوات الله إلى أن بعث الله مهداً عليه صلوات الله فأمن به شرذمة قليلة من اليهود ، فإن ذلك مما لا ينبغي توهمه أصلا . وبين موسى وعيسى عليه صلوات الله ، وكذا بعد عيسى عليه صلوات الله ممن آمن به من بني إسرائيل جم غير من المؤمنين الذين آمنوا بالدعوة الإلهية قبل الله منهم إيمانهم ووعدهم بالخير ، والكلام الإلهي بذلك ناطق فكيف يمكن أن تقصر الرحمة الإلهية المبسوطة على بني إسرائيل في جماعة قليلة منهم آمنوا بالنبي عليه صلوات الله ؟

قوله : **«الذين يتبعون الرسول النبي الأمي»** الآية وإن كان بياناً لقوله : **«والذين هم بآياتنا يؤمنون»** إلا أنه ليس بياناً مساوياً في السعة والضيق لمبينه بل بيان مستخرج

من مبينه انتزع منه ، وخص بالذكر ليستفاد منه فيما هو الغرض من سوق الكلام ، وهو بيان حقيقة الدعوة المحمدية ، ولزوم إجابتهم لها وتلبيتهم لداعيها .

ولذلك في القرآن الكريم نظائر من حيث التضييق والتوصعة في البيان كما قال تعالى حاكياً عن إبليس : « فبغزتك لا غوينهم أجمعين » الآية ثم قال في موضع آخر حاكياً عنه : « لا تخدن من عبادك نصيباً مغروضاً ولا ضلّنهم ولا منيّنهم ولا من لهم فليتّسّكن آذان الأفهام ولا أمر لهم فليغيّر خلق الله » النساء : ١١٩ فإن القول الثاني المحكي عن إبليس مستخرج من عموم قوله المحكي أو لا : « لا غوينهم أجمعين » .

وقال تعالى في أول هذه السورة : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم - إلى أن قال يا بني آدم إما يأتينكم رسلاً منكم » الآية وقد تقدّم أن ذلك من قبيل استخراج الخطاب من الخطاب لغرض التعميم إلى غير ذاك من النظائر .

فيؤول معنى يائسة قوله : « الذين يتبعون الرسول » إلى استخراج بيان من بيان للتطبيق على مورد الحاجة كأنه قيل : فإذا كان المكتوب من رحمة الله لبني إسرائيل قد كتب للذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بأياتنا يؤمنون فمصادقه اليوم - يوم بعث محمد عليه السلام - هم الذين يتّبعونه من بني إسرائيل لأنهم الذين اتقوا وآتوا الزكاة ، وهم الذين آمنوا بأياتنا فإنهم آمنوا بموسى وعيسى ومحّل عليهم وهم آياتنا ، وآمنوا بمعجزات هؤلاء الرسل وما فرّ عليهم من الشرائع والأحكام وهي آياتنا ، وآمنوا بما ذكرنا لهم في التوراة والإنجيل من أمارات نبوة محمد عليه السلام وعلامات ظهوره ودعوه ، وهي آياتنا .

ثم قوله : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » الآية أخذ فيه « يتبعون » موضع يؤمنون ، وهو من أحسن التعبير لأن الإيمان بأيات الله سبحانه كذبائه وشرائعهم إنما هو بالتسليم والطاعة فاختير لفظ الاتّباع للدلالة على أن الإيمان بمعنى الاعتقاد المجرد لا يعني شيئاً فإن ترك التسليم والطاعة عملاً تکذيب بأيات الله وإن كان هناك اعتقاد بأنه حق .

وذكره عليه السلام بهذه الأوصاف الثلاث : الرسول النبي الأمي ، ولم يجتمع له في موضع من كلامه تعالى إلا في هذه الآية والآية التالية ، مع قوله تعالى بعده : « الذي

يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل « تدل على أنه عليه السلام كان مذكورة فيهما معرفةً بهذه الأوصاف الثلاث . »

ولولا أن الغرض من توصيفه بهذه الثلاث هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكورة له في كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث : « الرسول النبي الأمي » وخاصة الصفة الثالثة نكتة ظاهرة .

وكذلك ظاهر الآية يدل أو يشعر بأن قوله : يأمرهم بالمعروف وينهوا عن المنكر إلى آخر الأمور الخمسة التي وصفه عليه الله بها في الآية من علامته المذكورة في الكتابين ، وهي مع ذلك من مختصات النبي عليه الله ولملته البيضاء فإن الأم الصالحة وإن كانوا يقولون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كماد كره تعالى من أهل الكتاب في قوله : ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمّة قائمة - إلى أن قال - و يأمرن بالمعروف و ينهون عن المنكر و يسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » آل عمران : ١١٤ .

وكذلك تحليل الطيبات وتحريم العباث في الجملة من جملة الفطريات التي أجمع عليها الأديان الإلهية ، وقد قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق » الأعراف : ٣٢ .

وكذلك وضع الإصر والأغلال وإن كان مما يوجد في الجملة في شريعة عيسى عليه الله كما يدل عليه قوله فيما حكى الله عنه في القرآن الكريم : « ومصدقًا ما بين يدي من التوراة ولا حل لكم بعض الذي حرّم عليكم » آل عمران : ٥٠ ويشعر به قوله خطاباً لبني إسرائيل : « قد جئتكم بالحكمة و لا يُبَيِّن لكم بعض الذي تختلفون فيه » الزخرف : ٦٣ .

إلا أنه لا يرتاب ذو ريب في أن الدين الذي جاء به محمد عليه الله بكتاب من عند الله مصدقًا ما بين يديه من الكتب السماوية - وهو دين الإسلام - هو الدين الوحيد الذي ينفح في جثمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ما يسعه من روح الحياة ، وبلغ به من حد الدعوة الخالية إلى درجة الجهاد في سبيل الله بالأموال والآنف ، وهو الدين الوحيد الذي أحصى جميع ما يتعلق به حياة الإنسان من الشؤون والأعمال ثم قسمها إلى طيبات

فأحلّها ، وإلى خبائث فحرّ منها ، ولا يعادله في تفصيل القوانين المشرّعة أي شريعة دينية وقانون اجتماعي ، وهو الدين الذي نسخ جميع الأحكام الشاققة الموضوّعة على أهل الكتاب واليهود خاصة ، وما تكلّفها علماؤهم ، وابتعدوا أحبارهم ورهبانهم من الأحكام المبتدعة .

فقد اختصّ الإسلام بكمال هذه الأمور الخمسة وإن كانت توجد في غيره نماذج من ذلك .

على أن كمال هذه الأمور الخمسة في هذه الملة البيضاء أصدق شاهد وأبين بيّنة على صدق الناھض بدعوتها عليهما السلام ، ولو لم تكن تذكر أمارات له في الكتابين فإن شريعته كمال شريعة الكليم والمسيح عليهما السلام وهل يطلب من شريعة حقة إلا عرفاً منها المعروف وإنكارها المنكر ، وتحليلها الطيبات ، وتجريمهَا الخبائث ، وإنفاؤها كل إصر وغل ؟ وهي تفاصيل الحق الذي يدعو إليه الشرائع الالهية فليعترف أهل التوراة والإنجيل أن الشريعة التي تتضمّن كمال هذه الأمور بتفصيلها هي عين شريعتهم في مرحلة كاملة .

وبهذا البيان يظهر أن قوله تعالى : « يأمرهم بالمعروف وينهيا عن المنكر » الآية يفيد بمجموعه معنى تصديقه لما في كتابهم من شرائع الله تعالى كأنه قيل مصدقاً ما بين يديه كما في قوله تعالى : « وَلَمَّا جاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْذِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فِرِيقٌ مِّنَ الظَّالِمِينَ أَوْتُوا السَّكَّابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانُوكُلُّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » البقرة : ١٠١ وقوله : « وَلَمَّا جاءهُمْ كِتَابَ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَقْبَلُونَ عَلَى الظَّالِمِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » البقرة : ٨٩ يريد مجيء النبي عليهما السلام بكمال ما في كتابهم من الشريعة مصدقاً لها ثم كفرهم به وهم يعلمون أنه المذكور في كتبهم المبشر به بلسان الأنبيائهم كما حكى سبحانه عن المسيح في قوله : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مَصْدِقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ مِّنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمَهُ أَحَدٌ » الصافات : ٦ .

وسنبحث عن بشاراته عليهما السلام الواقعه في كتبهم المقدسة بما تيسّر من البحث إن شاء الله

غير أنه تعالى لم يقل : مصدقاً لما بين يديه بدل قوله « يأمرهم بالمعروف » الآية لأنّ وجه الكلام إلى جميع الناس دون أهل الكتاب خاصةً ، ولذا أمر نبيه عليه السلام في الآية التالية بقوله : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » ولم يقيّد الكلام في قوله : « فالذين آمنوا به » الخ بما يختصّ به بأهل الكتاب .

قوله تعالى : « **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ** » إلى آخر الآية . التعزيز النصرة مع التعظيم ، والمراد بالنور النازل معه القرآن الكريم ذكر بمنتهي النورية ليدلّ به على أنه ينير طريق الحياة ، ويضيّع الصراط الذي يسلكه الإنسان إلى موقف السعادة والكمال ، والكلام في هذا الشأن ،

وفي قوله تعالى : « أُنزَلَ عَلَيْهِ أُنزَلٌ إِلَيْهِ وَ « مَعَ » تدلّ على المصاحبة والمقارنة تلوينه إلى معنى الأمارة والشهادة التي ذكرناها كأنّه قيل : واتّبعوا النور الذي أُنزَلَ عَلَيْهِ وهو بما يحتوي عليه من كمال الشرائع السابقة ، ويظهره بالإضاءة شاهد على صدقه ، وأمارة أنه هو الذي وعد به أنبياؤهم ، وذكر لهم في كتبهم فقوله : « مَعَهُ » حال من نائب فاعل « أُنزَلٌ » . وقد وقع نظيره في قوله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » القراءة : ٢١٢ .

وقد اختلف المفسرون في توجيه هذه المعية ومعناها : فقيل : إنّ الظرف - معه - متعلق بـ«أُنزَلٌ» ، والكلام على حذف مضارف أي مع نبوّته أو إرساله عليه السلام لأنّه لم ينزل معه ، وإنّما أُنزَل مع جبرئيل ، وقيل : متعلق بـ«اتّبعوا» والمعنى شاركوا النبي عليه السلام في تباعه ، أو المعنى اتبعوا القرآن مع اتباعهم له وقيل : حال عن فاعل اتبعوا ، والمعنى اتبعوا القرآن مصاحبين للنبي عليه السلام في اتباعه ، وقيل : « مع هنا » بمعنى على وقيل : بمعنى عند ، ولا يخفى بعد الجميع .

وقوله « **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ** » الآية بمنزلة التفسير لقوله في صدر الآية : « **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّبُّوْلَ** » ، وأنّ المراد باتّباعه حقيقة اتباع كتاب الله المشتمل على شرائمه ، وأنّ الذي له عليه السلام من معنى الاتّباع هو الإيمان بنبوّته ورسالته

من غير تكذيب به، واحترامه بالتسليم له ونصرته فيما عزم عليه من سيرته .
والكلام أعني قوله : «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الآية نتيجة متفقة على قوله في صدر الآية : «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآية بناءً على ما قدّمناه من أنه بيان خاصٌ مستخرج من قوله : «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» الذي هو بيان عامٌ ، واطمعنى إذا كان اتباع الرسول بهذه الأوصاف والنعوت هو من الإيمان بآياتنا الذي شرطناه علىبني إسرائيل في قبول دعوة موسى لهم ببساط الرحمة في الدنيا والآخرة وفيه الفلاح بكتابه الحسنة في الدنيا والآخرة فاللذين آمنوا به - إلى آخر ما شرط الله - أولئك هم المفلحون .

قوله تعالى : «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً - إِلَى قَوْلِهِ - وَيَمْبَتِ» ملاحة من الأوصاف التي وصف بها نبيه عليهما السلام أنّ عنده كمال الدين الذي به حياة الناس الطيبة في أي مكان فرضوا وفي أي زمان قدر وجودهم ، ولا حاجة للناس في طيب حياتهم إلى أزيد من أن يؤمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، وتحلل لهم الطيبات ، وتحرم عليهم الخبائث ، ويوضع عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم أمر نبيه عليهما السلام أن يعلن بنبوته الناس جميعاً من غير أن تختص بقوم دون قوم فقال : «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا رسول الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً» .

وقوله : «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيَمْبَتِ» صفات وصف الله بها ، وهي بمجموعها بمنزلة تعليم يبين بها إمكان الرسالة من الله في نفسها أو لا وإمكان عمومها لجميع الناس ثانيةً فيرتفع به استدلال الناس ببني إسرائيل أن يرسل إليهم من غير شعبهم وخاصة من الأميين وهم شعب الله ومن مزاعمهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل ، وهم خاصة الله وأبناءه وأحباؤه ، وبه يزول استبعاد غير العرب من جهة العصبية القومية أن يرسل إليهم رسول عربيٌ .

وذلك أنّ الله الذي اتّخذه رسولاً هو الذي له ملك السماوات والأرض والسلطنة العامة عليها ، ولا إله غيره حتى يملك شيئاً منها فله أن يحكم بما يشاء من غير أن يمنع عن حكمه ما نعم يزاجه أو تعلّق إرادته برادة غيره فله أن يتّخذ رسولاً إلى عباده وأن يرسل رسوله إلى بعض عباده أو إلى جميعهم كيف شاء .

وهو الذي له الإحياء والإماتة فله أن يحيي قوماً أو الناس جميعاً بحياة طيبة سعيدة والسعادة والهدى من الحياة كما أن الشقاوة والضلال موت قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله ولرسوله إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال ٢٤ ، وقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » الأنعام ١٢٢ ، وقال : « إنما يسْتَجِيبُ الَّذِينَ يسمعون ، والمُوتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » الأنعام ٣٦ .

قوله تعالى : « فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ » إلى آخر الآية تفرع على ما تقدم أي إذا كان الحال هذا الحال فآمنوا بي فإني ذاك الرسول النبي الأمي الذي بشر به في التوراة والإنجيل ، وأنا أؤمن بالله ولا أكفر به وأؤمن بكلماته وهي ما قضى به من الشرائع النازلة علي وعلى الأنبياء السالقين ، واتبعوني لعلكم تفلاحون .

هذا ما يقتضيه السياق ، و منه يعلم وجه الاختلاف من التكلم إلى الغيبة في قوله « وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي » الآية فإن الظاهر من السياق أن هذه الآية ذيل الآية السابقة ، وهما جميعاً من كلام النبي ﷺ .

ووجه الاختلاف - كما ظهر مما تقدم - أن يدل بالآيات الموضعية مكان ضمير المتكلّم على تعليم الأمر في قوله : « فَآمَنُوا » وقوله : « فَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

والمراد بالاهتداء الاهتداء إلى السعادة الآخرة التي هي رضوان الله والجنة لا الاهتداء إلى سبيل الحق فإن الإيمان بالله ورسوله واتباع رسوله بنفسه اهتداء ، فيرجع معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » إلى معنى قوله في الآية السابقة في نتيجة الإيمان والاتباع : « أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : « وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبَهُ يُعَدَّلُونَ » وهذا من نصفة القرآن مدح من يستحق المدح ، وحمد صالح أعمالهم بعد ما قرّ عهم بما صدر عنهم من السياسات فالمراد أنهم ليسوا جميعاً على ما وصفنا من مخالفة الله ورسوله ، والتزام الضلال والظلم بل منهم أمة يهدون الناس بالحق و بالحق يعدلون فيما بينهم فالباء في قوله : « بالحق » للالة وتحتمل الملاسة .

وعلى هذا فالآية من الموارد التي نسبت الهدایة فيها إلى غيره تعالى وغير الأنبياء

وَالْأَئُمَّةُ كَمَا فِي قُولِهِ حَكَايَةً عَنْ مُؤْمِنْ أَلْفَرْعَوْنَ وَلَمْ يَكُنْ بَنِي "ظَاهِرًا" : « وَقَالَ الَّذِي أَمِنَ يَا قَوْمَ اتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشادِ » الْمُؤْمِنْ : ٣٨ .

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرْادُ بِهَذِهِ الْأَئُمَّةِ مِنْ قَوْمِ مُوسَى تَعَالَى الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئُمَّةُ الَّذِينَ نَشَوْرُوا فِيهِمْ بَعْدِ مُوسَى وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي كَلَامِهِ بِالْهَدَايَةِ كَقُولِهِ تَعَالَى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا طَّافِلًا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَوْقِنُونَ » الْمَسْجِدَةُ : ٢٢ وَغَيْرُهُ مِنَ الْآيَاتِ وَذَلِكَ أَنَّ "الْآيَةَ أَعْنِي" قُولُهُ : « أَئُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدَلُونَ » لَوْ جَعَلْتُ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَاهَا مِنَ الْبَدَايَةِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ بِالْحَقِّ لَمْ يَتِيسِّرْ لِغَيْرِ النَّبِيِّ وَالْإِمَامِ أَنْ يَتَابَّسْ بِذَلِكَ وَقَدْ تَقدَّمَ كَلَامُ فِي الْهَدَايَةِ فِي تَفْسِيرِ قُولِهِ تَعَالَى : « قَالَ إِنِّي جَاعَلُكُمْ لِلنَّاسِ إِمَاماً » الْبَقْرَةُ : ١٢٤ . وَقُولُهُ : « فَمَنْ يَرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِي يَشْرِحْ صَدْرَهُ » الْأَنْعَامُ : ١٢٥ « وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ .

قُولُهُ تَعَالَى : « وَقَطَّعْنَاهُمْ أَنْتِي عَشَرَةَ أَسْبَاطًا أَمَّا » إِلَى آخرَ الْآيَةِ السَّبْطِ بِحَسْبِ الْلُّغَةِ وَلَدُ الْوَلَدِ أَوْ وَلَدُ الْبَنْتِ » وَالْجَمْعُ أَسْبَاطٌ ، وَهُوَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَعْنَى قَوْمٍ خَاصٌّ فَالْسَّبْطُ عِنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْقَبِيلَةِ عِنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعَرَبِ . وَقَدْ نَقَلَ عَنْ أَبْنِ حَاجِبٍ أَنَّ "أَسْبَاطًا" فِي الْآيَةِ بَدَلَ مِنَ الْعَدْدِ لِتَميِيزِهِ وَإِلَّا لَكَانُوا سَتَّةً وَثَلَاثَيْنِ سَبْطًا عَلَى إِرَادَةِ أَفْلَى الْجَمْعِ مِنْ "أَسْبَاطًا" وَتَميِيزِ الْعَدْدِ مُحْذَفٌ لِلْمَدَلَّةِ عَلَيْهِ بِقُولِهِ : « أَسْبَاطًا » وَالتَّقْدِيرُ وَقَطَّعْنَاهُمْ أَنْتِي عَشَرَةَ فَرَقَةً أَسْبَاطًا هَذَا . وَرَبِّمَا قِيلَ : إِنَّهُ تَميِيزٌ لِكُونِهِ بِمَعْنَى الْمُفْرَدِ وَالْمَعْنَى أَنْتِي عَشَرَةَ بَعْيَادَةً مَثَلًا .

وَقُولُهُ : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذَا سَقَاهُ قَوْمُهُ الْآيَةَ الْأَنْجِسَ هُوَ الْأَنْجِسَ وَقِيلَ : الْأَنْجِسَ خَرُوجُ الْمَاءِ بَقْلَةً ، وَالْأَنْجِسَارُ خَرُوجُهُ بِكَشْرَةٍ ، وَظَاهِرٌ مِنْ قُولِهِ : فَانْجِسَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَةً عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلَّ أَنْسَ مُشَرِّبِهِمْ » أَنَّ "الْعَيْنَ" كَانَتْ بَعْدَ الْأَسْبَاطِ وَأَنَّ كُلَّ سَبْطٍ اخْتَصَّ بَعْنَانَهُ مِنَ الْعَيْنَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَتْ عَنْ مَشَاجِرَةٍ بَيْنَهُمْ وَمَنَافِسَةٍ ، وَهُوَ يُؤَيِّدُ مَا فِي الْرَوَايَاتِ مِنْ قَصَّتِهَا . وَبَاقِي الْآيَةِ ظَاهِرٌ .

وَقَدْ عَدَ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ مَعْجَزَاتِ مُوسَى تَعَالَى وَآيَاتُهُ : الشَّعْبَانُ ، وَالْيَدَالِيَّضَاءُ ، وَسَنِي أَلْفَرْعَوْنَ وَنَقْصَ شَمَرَاتِهِمْ ، وَالْطَّوْفَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْقَمَلُ ، وَالصَّفَادُعُ .

والدم ، وخلق البحر ، وإهلاك السبعين ، وإحياءهم ، وابتجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، والتطليل بالغمam ، وإنزال المن" و السلوى ، وتنق الجبل فوقهم كأنه ظلة ، و يمكنك أن تضيف إليها التكليم و نزول التوراة ، ومسخ بعضهم قردة خاسئن . وسيجيء تفصيل البحث في قصته عليه السلام في تفسير سورة هود إن شاء الله .

بحث روائي

في تفسير العياشي " عن محمد بن سالم يمّاع القصب عن الحارث بن المغيرة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له : إنّ عبد الله بن عجلان قال في مرضه الذي مات فيه : أنه لا يموت فمات . فقال : لاغفر الله شيئاً من ذنبه أين ذهب إنّ موسى اختار سبعين رجلاً من قومه فلماً أخذتهم الرجفة قال : ربّ أصحابي أصحابي . قال : إني أبد لك بهم من هو خير لكم منهم فقال : إني عرفتهم ووجدت ربي لهم . قال : فبعث الله له أنبياء . **أقول** : المراد أنّ الله بدّل له عبد الله بن عجلان أصحاباً هم خير منه كما فعل بموسى ، والخبر غريب في بابه ولا يوافق ظاهر الكتاب .

وفي البرهان عن ابن باويه بإسناده عن سعد بن عبد الله القمي في حديث طويل عن القائم عليه السلام قال : قلت : فأخبرني يا مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار إمام لأنفسهم . قال : مصلح أو مفسد ؟ قلت : مصلح . قال : فهل يجوز أن يقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحدهم ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟ قلت : بل قال : هي العلة التي أوردها لك برهاناً :

أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله ، وأنزل عليهم الكتاب وأيدتهم بالعصمة إذهم أعلام الامم ^(١) وأهدى للاختيار منهم مثل موسى وعيسى هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علميهما اذا هما بالاختيار أن يقع خيرتهما على امنافق وهما يظنان أنه مؤمن ؟ قلت : لا . فقال : هذا موسى كليم الله مع وفور عقله ، وكمال علمه ، ونزول الوحي عليه

(١) كما في النسختين المطبوعتين من البرهان ولعله تصحيح : إذهم أعلم الامم .

اختار من أعيان قومه ، ووجوه عسکره ملقات ربّه سبعين رجلاً ممن لا يشكّ في إيمانهم وإخلاصهم فوّقعت خيرته على المناافقين قال الله عزّ وجلّ : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً ملقاتنا - إلى قوله - لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

فلمّا وجدنا اختيارات من قد اصطفاه للنبوة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظنّ أنه الأصلح دون الأفسد علمنا أنَّ الاختيار ليس إلا من يعلم بما تخفي الصدور ، وتكنَّ الضمائر وتنصرف عليه السرائر ، وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوى الفساد لما أرادوا أهل الصلاح .

أقول : الآية فيها منقوله بالمعنى بمعنى أنها ملقة من آيات القصة في سوري الأعراف والنساء .

وفي الدر المنشور أخرج ابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن نوف الحميري قال : لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً ملقات ربّه قال الله موسى : أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً ، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم ، وأجعلكم تقرؤون التوراة من ظهور قلوبكم فيقرؤها الرجل منكم والمرأة والحرّ والعبد والصغير والكبير .

قال موسى : إنَّ الله قد جعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً . قالوا ، لأنريد أن نصلّى إلا في الكنائس : قال : ويجعل السكينة معكم في بيوتكم قالوا : لأنريد إلا كما كانت في التابوت . قال : ويجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهور قلوبكم فيقرؤها الرجل منكم والمرأة والحرّ والعبد والصغير والكبير قالوا : لأنريد أن نقرأها إلا نظراً . قال الله : فسأكتبها للذين يتقدّون ويؤتون الزكاة - إلى قوله - المفلحون .

قال موسى : أتيتك بوفد قومي فجعلت وفادتهم لغيرهم أجعلني من هذه الأمة . قال : إنَّ نبيّهم منهم . قال : أجعلني من هذه الأمة قال : إنَّك لن تدركهم . قال : ربّ أتيتك بوفد قومي فجعلت وفادتهم لغيرهم . قال : فأوحى إلهي « ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحقّ و به يعدلون » . قال : فرضي موسى . قال نوف : ألا تحمدون ربّاً شهد غيبتكم ، وأخذلكم بسمعكم ، وجعل وفادة غيركم لكم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن نوف البكري : أنَّ موسى لما اختار من

قومه سبعين رجلاً قال لهم : فدوا إلى الله وسلوه فكانت ملوسي مسألة ولهم مسألة فلما انتهى إلى الطور المكان الذي وعده الله به قال لهم موسى : سلوا الله قالوا : أرنا الله جهرة قال : ويحكم تسألون الله هذا مرّتين ؟ قالوا : هي مسألتنا أرنا الله جهرة فأخذتهم الرجفة فصعقوا فقال موسى : أي رب . جئتكم بسبعين من خياربني إسرائيل فأرجع إليهم وليس معنיהם أحد فكيف أصنع ببني إسرائيل ؟ أليس يقتلوني ؟ فقيل له : سل مسألتك . قال : أي رب إني أسألك أن تبعثهم فبعثهم الله فذهبت مسائلهم وسائلته ، وجعلت تلك الدعوة لهذه الأمة .

أقول : وإنما أوردنا الروايتين لكونهما بما فيهما من القصة شبيهتين بالموقوفات لكنهما مع الاختلاف لا ينطبقان على شيء مما فيها من أطراف القصة وتزول الآيات، على ظاهر شيء من الآيات فمسائلهم إنما هي الرؤبة وقد ردت إليهم ، ومسألة موسى عليه السلام إنما هي بعثهم ، وقد أحييت فبعثوا ، وكتابة الرحمة علىبني إسرائيل ، وقد أحييت بشرط التقوى والإيمان بأيات الله ، ولم يجعل شيء من وفادتهم لغيرهم ، والخطاب بقوله : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » للنبي عليه السلام دون موسى على ما يعطيه السياق .

ونظير الروايتين في عدم الانطباق على الآية ما روی عن ابن عباس في قوله : « وكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة » قال : فلم يعطها موسى قال : « عذاري أصيّب بها من أشاء - إلى قوله - المفلحون ، والمراد أنه لم يعطها بل أعطيتها هذه الأمة وقد مرّ أن ظهور الآية في غير ذلك .

ونظير ذلك ماروي عن السدي في قوله تعالى : « إن هي إلا فتنتك » الآية قال : قال موسى : يارب إن هذا السامري أمرهم أن يتّخذوا العجل أرأيت الروح من نفخها فيه ؟ قال رب : أنا ، قال : فأنت إذا أضلتهم ، وروى العيساشي في تفسيره مثله عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام مرسلاً ، وفيه : قال موسى : يارب ومن أخار العجل ؟ قال : أنا . قال موسى عنده : إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من يشاء .

وذلك أن الآية أعني قوله : « إن هي إلا فتنتك » من كلامه عليهما السلام في قصة هلاك

السبعين ، وأين هي من قصّة العجل ؟ إلّا أن يتكرّر منه ذلك .

وفي الدر المنشور أخرج أحمد وابن داود عن جندب بن عبد الله البجلي " قال جاء أعرابي فناخ راحلته ثم عقلها ثم خلف رسول الله عليه السلام ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا تشرك في رحمننا أحدا . فقال رسول الله عليه السلام : لقد حضرت رحمة واسعة إن الله خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها المخلوق جنّها وإنسها وبهائمها ، وعنه تسعة وتسعون . وفيه أخر أحاديث مسلم عن سلمان عن النبي عليه السلام قال : إن الله مائة رحمة فمنها رحمة يترأّم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيمة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن سلمان موقوفاً وابن مردويه عن سلمان قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق مائة رحمة يوم خلق السماوات والأرض كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض فأعطيت منها رحمة إلى الأرض فبها تراحم الخالق ، وبها تعطف الوالدة على ولدها ، وبها تشرب الطير والوحوش من الماء ، وبها تعيش الخالق فإذا كان يوم القيمة انتزعها من خلقه ثم أفضّلها على المتقين ، وزاد تسعة وتسعين رحمة ثم قرأ : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتّقون » .

أقول : وهذا المعنى مروي أيضاً من طرق الشيعة عن أمّة أهل بيته عليهما السلام ، والرواية الثانية كأنّها نقل بالمعنى للرواية الأولى ، وقد أفسد الرواية المعنى بقوله : « فإذا كان يوم القيمة انتزعها من خلقه » وليت شعرى إذا سلب الرحمة عن غير المتقين من خلقه فيما ذا يبقى ويعيش السماوات والأرض والجنة والنار ومن فيها وأملاكها وغيرهم ولا رحمة تشتملهم .

والأخسّ في التعبير ماورد في بعض رواياتنا - على ما ذكر - أن الله يومئذ يجمع المائة للمؤمنين ، وجمع المائة لهم واستعمالها فيهم غير انتزاعها عن غيرهم وتخسيصها بهم فالأول جائز معقول دون الثاني فافهم ذلك .

وفيه أخرج الطبراني عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث : و الذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيمة مخفرة يتطاول بها إلليس رجاء أن تقصيه .

أقول : ومن طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ما في معناه .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي يكر المذلي قال : ملّا نزلت « و رحمتي وسعت كل شيء » قال إبليس : يارب وأنامن الشيء فنزلت فسأكتبها للذين يتّقون » الآية فزّعها الله من إبليس .

أقول : والظاهر أنّه فرض وتقدير من أبي بكر ، ولا ريب في قسم إبليس بالرّحمة العامة التي يشتمل عليهما صدر الآية ، وحرمانه من الرحمة الخاصة الأخرى التي يتضمّنها ذيلها .

في تفسير البرهان عن نهج البيان روى عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أنّه قال : أي الخلق أعجب إيمانا ؟ فقالوا : الملائكة ، فقال : الملائكة عند ربّهم فما لهم لا يؤمنون ؟ فقالوا : الأنبياء . فقال : الأنبياء يوحى إليهم فما لهم لا يؤمنون ؟ فقالوا : نحن . فقال : أنا فيكم فما لكم لا يؤمنون ؟ إنّما هم قوم يكونون بعدكم فيجدون كتاباً في ورق فيؤمنون به ، وهذا معنى قوله : « واتّبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

أقول : والخبر لا يbas به ، وهو من الجري والانطباق ، وفي بعض الروايات أنَّ النور هو على عليهم السلام وهو أيضاً من قبيل الجري أو الباطن .

وفي الدر المنشور أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلّها في النار إلا فرقة ، وافتّرقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلّها في النار إلا فرقة ، وتفترق هذه الأُمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلا فرقة . فاما اليهود فإن الله يقول : « ومن قوم موسى أُمّة يهودون بالحق وبه يعدلون » وأما النصارى فإن الله يقول : « منهم أُمّة مقتصدة » فهذه التي تنجو ، وأما نحن فيقول : « و ممّن خلقنا أُمّة يهودون بالحق وبه يعدلون » وهذه التي تنجو من هذه الأُمّة .

وفي تفسير العياشي عن أبي الصهبان البكري قال : سمعت على بن أبي طالب عليهم السلام دعا رأس الجالوت وأسقف النصارى فقال : إني سائلكم عن أمر و أنا أعلم به منكم ولاتكتمني .

يا رأس الجالوت بالذى أنزل التوراة على موسى ، وأطعمهم الملن والسلوى ، وضرب لهم في البحر طريقاً يبسأ ، وفجر لهم من الحجر الطوري إثنتي عشرة عيناً لكل سبط من بنى إسرائيل عيناً إلا ما أخبرتني على كم افترقت بنو إسرائيل بعد موسى ؟ فقال : فرقة واحده فقال : كذبت والذى لا إله إلا هو لقد افترقت على إحدى وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة فإن الله يقول : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » فهذه التي تنجو .

وفي المجمع أنّهم قوم من وراء الصين وبينهم وبين الصين واد من الرمل لم يغيروا ولم يبدّلوا . قال : وهو المروي عن أبي جعفر عليهما السلام .

أقول : الرواية ضعيفة غير مسلمة ، ولا خبر عن هذه الامة اليهودية الهادبة العادلة اليوم ، ولو كانوا اليوم لم يكونوا هادين ولامهتدين لنسخ شريعة موسى بشرعية عيسى عليهما السلام أو لا ثم نسخ شريعتهما جميعاً بشرعية محمد عليهما السلام ثانية ، ولذا اضطر بعض من أورد هذه القصة الخرافية فأضاف إليها أن النبي عليهما السلام نزل إليهم ليلة المعراج ودعاهم فآمنوا به وعلّمهم الصلاة .

وقد اختلقو لهم قصصاً عجيبة مختلفة ، فعن مقاتل : أنّ مما فضل الله به محمدأً عليهما السلام أنّه عاين ليلة المعراج قوم موسى الذين من وراء الصين ، وذلك أنّ بنى إسرائيل حين عملوا بالمعاصي وقتلو الذين يأمرن بالقسط من الناس دعوا ربّهم وهو بالأرض المقدسة فقالوا : اللهم أخرجننا من بين أظهرهم . واستجواب لهم فجعل لهم سريراً في الأرض فدخلوا فيه ، وجعل معهم نهرأً يجري ، وجعل لهم مصباحاً من نور بين أيديهم فساروا فيه سنة ونصفاً ، وذلك من بيت المقدس إلى مجلسهم الذي هم فيه فأخرجهم الله إلى أرض يجتمع فيها الهوام والبهائم والسباع مختلطين بها ليست فيها ذنوب ولا معاشر ، فأناهم النبي عليهما السلام تلك الليلة ومعه جبريل فآمنوا به وصدقواه وعلّمهم الصلاة : وقالوا : إنّ موسى قد بشّرهم به .

وعن الشعبي قال : إن الله عباداً من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس لا يرون أن الله عصاه مخلوق رضاهم الدر والياقوت ، وجبالهم الذهب والفضة لا يزرون ولا

يَحْصِدُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ عَمَلاً ، لَهُمْ شَجَرٌ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ لَهَا أُوراقٌ عَرَاضٌ هِيَ لِبُوسِهِمْ ، وَلَهُمْ شَجَرٌ
عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ لَهَا شَمْرٌ فَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .
إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مَمَّا وَرَدَ فِي قَصْصَتِهِمْ ، وَهِيَ جَمِيعًا مِبْعَوْلَةٌ ، وَقَدْ عَرَفْتُ مَعْنَى الْآيَةِ
فِي الْبَيَانِ امْتَقَدٌ .



وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكَنَنَا هَذِهِ الْقُرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً
 وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَدًا تَغْفِرُ لَكُمْ خَطَّيَاكُمْ سَبْزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَلَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
 بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَسَيَلِهِمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ
 فِي السَّبَتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرَّاعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِقُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
 كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لَمْ تَعْظِلُنَّ قَوْمًا
 إِلَّهٌ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مَعْذِلُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَعْلَمُهُمْ
 يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَاذَ كَرِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَا نَعْشَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ
 ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَهِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نَهَا وَعَنْهُ قَلَّنَا
 لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَعْشَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)
 وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذِلْكَ وَبَلَوْنَاهُمْ
 بِالْحَسَنَاتِ وَالْسَّيِّئَاتِ لِعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا
 الْكِتَابَ يَاخْذُونَ عَرْضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيَغْفِرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِثْلُهِ
 يَاخْذُوهُ إِنَّمَا يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيقَاتُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا
 مَا فِيهِ وَالَّذِي أَخْرَجَهُمْ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ
 بِالْكِتَابِ وَاقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّمَا لَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ نَقْنَنَا الْجِبَلَ
 فَوَقَهُمْ كَانَهُ ظَلَمَهُ وَظَنَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خَذَلُوا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَإِذْ كَرِّرُوا مَا فِيهِ
 لَعْلَكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١).

﴿بيان﴾

في الآيات بيان فحص أخرى من فحص بنى إسرائيل فسقوا فيها عن أمر الله ، ونقضوا ميشاقيه فأخذهم الله بعقوبة أعمالهم وسلط عليهم من الظالمين من يسومهم سوء العذاب فهو لاء أسلافهم وقد خلف من بعدهم أخلاق يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ويساهلون في أمر الدين ، وهذا حالهم إلا قليل منهم لا يعدون الحق .

قوله تعالى : « وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقُرْيَةَ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ الْقُرْيَةُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ أُمِرُوا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ أَهْلِهَا مِنَ الْعَمَالَقَةِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا فَتَمَرَّدُوا عَنِ الْأَمْرِ ، وَرَدُّوا عَلَى مُوسَى تَكَبِّلَتْهُ فَابْتَلُوا بِالْتِيهَ ، وَالْفَصَّةُ مذكورة في سورة المائدة آية ٢٠ - ٢٦ .

قوله : « وَقُولُوا حَطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سَجَدًا » الآية تقدم الكلام في نظيره من سورة البقرة آية : ٥٩ - ٥٨ ، **قوله :** « سَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » في موضع الجواب عن سؤال مقدّر كأنّه طلب قال : « يغفر لكم خططيّاتكم » قيل : ثم ماذا فقال : « سَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » .

قوله تعالى : وَاسْأَلُوهُمْ عَنِ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . أي اسأل بنى إسرائيل عن حال أهل القرية « الَّتِي كَانَتْ حاضِرَةً الْبَحْرِ » أي قريبة منه مشقة عليه من حضر الأمر إذا أشرف عليه وشهده « إِذْ يَعْدُونَ » ويتجاوزون حدود ما أمر الله به في أمر « السبت » وتعظيمه وترك الصيد فيه « إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيْثَانَهُمْ » والسمك الذي في ناحيتها « يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرْعًا » بجمع شارع وهو الظاهر البيّن « وَيَوْمَ لَا يَسْبِطُونَ لَا تَأْتِيهِمْ » أي إنّ تجاوزهم عن حدود ما أمر به الله كان إذ كانت الحيتان تأتيهم شرعًا يوم منعوا من الصيد وأمرروا بالسبت ، وأمّا إذا مضى اليوم وأبيح لهم الصيد وذلك غير يوم السبت فكان لا تأتيهم الحيتان وكان ذلك من بلاء الله وامتحانه ابتلاءهم بذلك لشروع الفسق بينهم فبعثتهم الحرث على صيدها على مخالفته أمر الله سبحانه ، ولم يمنعهم تقوى عن التعدي ، ولذلك قال : « كَذَلِكَ نُبَلُّوهُمْ » أي نمحنهم « بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ » ،

قوله تعالى : «إِذْ قَالَتْ أُمّةٌ مِّنْهُمْ لَمْ تَعْظُمُنَّ قَوْمًا إِلَّا هُمْ مَهْلِكُهُمْ» إلى آخر الآية
إنما قال هذه الأمة ما قال ، لأنّة أخرى منهم كانت تعظهم وتنهاهم عن مخالفات أمر الله
في السبت .

فالتقدير : «إِذْ قَالَتْ أُمّةٌ مِّنْهُمْ لَمْ تَعْظُمُنَّ أُخْرَى كَانَتْ تَعْظِيْمُهُمْ» حذف للإيجاز وظاهر
كلامهم : «لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّ بهم عذاباً شديداً» أنّهم كانوا أهل تقوى
يتجنبون مخالفات الأمر إلا أنّهم تركوا نهיהם عن المنكر فخالطوهם وعاشروهم ولو كان هؤلاء
اللّئون من المتعدّين الفاسقين لوعاظهم أولئك الملومون ، ولم يجيئوهم بمثل قولهم :
معدنة إلى ربكم الخ ، وأنّ المتعديين طغوا في تعدّيهم وتجاهروا في فسقهم فلم يكونوا
لينتهوا بنهي ظاهراً غير أنّ الأمة التي كانت تعظهم لم يتأسّوا من تأثير العطة فيهـم ، وكانوا
يرجون منهم الانتهاء لو استمرّوا في عظتهم ، ولا أقلّ من انتهاء بعضهم ولو بعض الانتهاء ،
وليكون ذلك معدنة منهم إلى الله سبحانه با ظهار أنّهم غير مواقفين لهم في فسقهم منز جرون
عن طغيانهم بالتمرّد .

ولذلك أجابوا عن قولهم : «لم تعظون» الخ بقولهم : «معدنة إلى ربكم ولعلّهم
يتّقدون» أي إنما تعظهم ليكون ذلك عذرآ إلى ربكم ، ولا نرجوا منهم أن يتّقدوا
هذا العمل .

وفي قولهم : «إِلَى رَبِّكُمْ» حيث أضافوا الرب إلى اللّئيمين ولم يقولوا : إلى ربنا
إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بـنا بل أنتم أيضاً مثلـنا يجب عليـكم أن تعظوـهم
لأنّ ربكم مكان ربوبيـته يجب أن يعتذر إلـيه ، ويـبذل الجهد في فراغ الذمة من تـكاليفـه
والوظائفـ التي أحـالـها إلـى عـبـادـه ، وـأنـتم مـربـوبـون لـه كـما نـحن مـربـوبـون فـعليـكم منـ التـكـلـيفـ
ما هو عـلـينا .

قوله تعالى : «فَلَمَّا نـسـوا مـا ذـكـرـوا بـهـ أـنجـيـنـا الـذـيـنـ يـنـهـونـ عـنـ السـوـءـ» اـمـرـادـ
بنـسيـانـهـ ما ذـكـرـوا اـنـقـطـاعـ تـأـثـيرـ الذـكـرـ فـيـ نـفـوسـهـمـ وـإـنـ كـانـوا ذـاكـرـينـ لـنـفـسـ التـذـكـرـ حـقـيقـةـ
فـإـنـمـاـ الـأـخـذـ إـلـهـيـ مـسـبـبـ عنـ الـاستـهـانـةـ بـأـمـرـهـ وـإـعـرـاضـ عنـ ذـكـرـهـ ، بـلـ حـقـيقـةـ النـسـيـانـ
بـحـسـبـ الطـبـعـ مـانـعـ عـنـ فـعـلـيـةـ التـكـلـيفـ وـحـلـولـ العـقوـبـةـ .

فَالْإِنْسَانُ يَطْوِفُ عَلَيْهِ طَائِفٌ مِّنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ يَذْكُرُهُ بِتَكَالِيفِ هَامَةٍ إِلَهِيَّةٍ ثُمَّ إِنْ أَسْتَقَامَ وَثُبِّتَ، وَإِنْ تَرَكَ الْأَسْتِقَامَةَ وَلَمْ يَزْجُرْهُ زَاجِرٌ بَاطِنِيٌّ وَلَا رَدْعَهُ رَادِعٌ نَفْسَانِيٌّ عَدَا حَدُودَ اللَّهِ بِالْمُعْصِيَةِ غَيْرَ أَنَّهُ فِي بَادِئِهِ أَمْرَهُ يَتَأَلَّمُ تَأَلَّمًا بَاطِنِيًّا وَيَتَحْرُجُ تَحْرُجًا قَلْبِيًّا مِّنْ ذَلِكَ ثُمَّ إِذَا عَادَ إِلَيْهَا ثَانِيًّا مِّنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ زَادَتْ صُورَةُ الْمُعْصِيَةِ فِي نَفْسِهِ تَمَكَّنَاهُ، وَضَعَفَ أَثْرُ التَّذَكِيرِ وَهَانَ أَمْرُهُ، وَكَلِمَاهُ عَادَ إِلَيْهَا وَتَكَرَّرَتْ مِنْهُ الْمُخَالَفَةُ زَادَتْ تَلْكَ قُوَّةً وَهَذِهِ ضَعْفًا حَتَّى يَزُولَ أَثْرُ التَّذَكِيرِ مِنْ أَصْلِهِ، سَاوِيَ وَجُودُهُ عَدَمُهُ فَلَيْلَقُ بِالنَّسِيَانِ فِي عَدْمِ التَّأْثِيرِ، وَهُوَ الْمَرْادُ بِقُولِهِ : «فَلَمَّا نَسَوا مَا ذَكَرُوا» أَيْ زَالَ أَثْرُهُ كَأَنَّهُ مُنْسَيٌّ زَائِلٌ الصُّورَةُ عَنِ النَّفْسِ . وَفِي الآيَةِ دَلَالةٌ عَلَى أَنَّ النَّاجِينَ كَانُوا نَاهِيُّنَ عَنِ السُّوءِ فَقَطْ، وَقَدْ أَخْذَ اللَّهُ الْبَاقِيَنَ، وَهُمُ الَّذِينَ يَعْدُونَ فِي السُّبْتِ وَالَّذِينَ قَالُوا : «لَمْ يَعْظِمُوهُنَّ» الْخَ .

وَفِيهِ دَلَالةٌ عَلَى أَنَّ الْلَائِمَينَ كَانُوا مُشَارِكِينَ لِلْمُعَادِينَ فِي ظُلْمِهِمْ وَفَسْقِهِمْ حَيْثُ تَرَكُوا عَظِيمَهُمْ وَلَمْ يَهْجُرُوهُمْ .

وَفِي الآيَةِ دَلَالةٌ عَلَى سُنَّةِ إِلَهِيَّةٍ عَامَّةٍ ، وَهِيَ أَنَّ عَدْمَ رَدِيعِ الظَّالِمِينَ عَنْ ظُلْمِهِمْ بِمَنْعِهِ وَعَظَةِ إِنْ لَمْ يُمْكِنْ الْمَنْعُ أَوْ هِيجَرَةِ إِنْ لَمْ تُمْكِنِ الْعَظَةُ أَوْ بَطْلَقَةِ مُشَارِكِهِمْ فِي ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّ الْأَخْذَ إِلَهِيًّا الشَّدِيدَ كَمَا يَرْصُدُ الظَّالِمِينَ كَذَلِكَ يَرْصُدُ مُشَارِكِهِمْ فِي ظُلْمِهِمْ .

قُولُهُ تَعَالَى : «فَلَمَّا عَتُوا عَمَّا نَهَا وَعَنْهُ قَلَنَا لَهُمْ كَوْنُوا قَرْدَةٌ خَاسِئَنِ» الْعَتُوُّ الْمُبَالَغَةُ فِي الْمُعْصِيَةِ وَالْقَرْدَةُ جَمْعُ الْقَرْدِ وَهُوَ الْحَيْوَانُ الْمُعْرُوفُ ، وَالْخَاسِئُ الطَّرِيدُ الْبَعِيدُ مِنْ خَسِّ الْكَلْبِ إِذَا بَعْدَ .

وَقُولُهُ : «فَلَمَّا عَتُوا عَمَّا نَهَا وَعَنْهُ» أَيْ عَنْ تَرْكِ مَا نَهَا وَعَنْهُ فَإِنَّ الْعَتُوَّ إِنْمَا يَكُونُ عَنْ تَرْكِ الْمُنْهَيَاتِ لَا عَنِ نَفْسِهَا ، وَالْبَاقِي ظَاهِرٌ .

قُولُهُ تَعَالَى : «وَإِذْ تَأْذَنُ رَبِّكَ لِيَعْشُنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» إِلَى آخرَ الآيَةِ تَأْذَنُ وَأَذْنُ بِمَعْنَى أَعْلَمُ ، وَاللَّامُ فِي قُولِهِ : «لِيَعْشُنَّ» لِلْقَسْمِ ، وَالْمَعْنَى : وَإِذْ كَرِيْإِذْ أَعْلَمُ رَبِّكَ أَنَّهُ قَدْ أَقْسَمَ لِيَعْشُنَّ عَلَى هُؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ بَعْثًا يَدُومُ عَلَيْهِمْ مَادَامَتِ الدِّينِيَا مِنْ يَدِيْهِمْ وَيَوْلِيهِمْ سُوءُ الْعَذَابِ .

وقوله : «إِنَّ رَبَّكَ لسرير العقاب» معناه أنَّ من عقابه ما يسرع إلى الناس كعقاب الطاغي لطغيانه قال تعالى : «الَّذِينَ طغوا فِي الْبَلَادِ إِلَى أَنْ قَالَ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاطِرٍ صَادِ» الفجر : ١٤ والدليل على ما فسرنا به قوله بعده : «وَإِنَّهُ لغفور رحيم» فإنَّ الظاهر أنَّه لم يؤت به إلا للدلالة على أنَّه تعالى ليس بسرير العقاب دائمًا وإنَّ الفوضيون الآية ليس مما يناسب التذليل بأسمي الغفور الرحيم لتمحضه في معنى المؤاخذة والانتقام فمعنى قوله : «إِنَّ رَبَّكَ لسرير العقاب وَإِنَّهُ لغفور رحيم» أنَّه تعالى غفور للذنب رحيم بعباده لكنه إذا قضى بعض عباده بالعقاب لاستيحا بهم ذلك بطغيان وعتو ونحو ذلك فسر عان ما يتبعهم إذ لا مانع يمنع عنه ولا عائق يعوقه .

ولعلَّ هذا هو معنى قول بعضهم : إنَّ معنى قوله «إِنَّ رَبَّكَ لسرير العقاب» سرير العقاب ممن شاء أن يعاقبه في الدنيا ، وإنَّ كان الأنساب أن يقول : إنَّ ذلك معنى قوله : «إِنَّ رَبَّكَ لسرير العقاب وَإِنَّهُ لغفور رحيم» ، ويرتفع به ما يمكن أن يتوهّم أنَّ كونه تعالى سرير العقاب ينافي كونه حليماً لا يسرع إلى المؤاخذة .

قوله تعالى : «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ إِلَى آخر الآية . قال في المجمع : دون في موضع الرفع بالابتداء ، ولكنَّه جاء منصوباً لتمكّنه في الظرفية ، و مثله على قول أبي الحسن «لقد تقطع بينكم» هو في موضع الرفع فجاء منصوباً لهذا المعنى ، وكذلك في قوله : «يَوْمَ القيمة يفصل بينكم» بين في موضع رفع لقيمه مقام الفاعل ، وإنْ شئتَ كان التقدير : و منهم جماعة دون ذلك فحذف الموصوف و قامت صفتة مقامه . انتهى .

و المراد بالحسنات والسيّرات نعماء الدنيا وضرّاؤها والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فَخَلَفَ مَنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ ورثوا الْكِتَابَ» إلى آخر الآية العرض ما لا ثبات له ومنه قوله تعالى : «عرض الحياة الدنيا» النساء : ٩٣ أي ما لا ثبات له من شؤونها ، والمراد بعرض هذا الأدنى عرض هذه الحياة الدنيا والدار العاجلة غير أنَّه أشير إليها بلفظ التذكير لأنَّها شيئاً ليس له من الخصوصيات إلا أنَّ يشار إليه تجاهلاً بخصوصياتها تحذيراً لشأنها كأنَّها لا يخصّ بنعت من النوع يرغب فيها ، وقد تقدّم

نظيره في قول إبراهيم عليه السلام على ما حكاه الله : « هذا ربّي هذا أكبّر » الأنعام : ٧٨ يزيد الشمس .

وقوله : « ويقولون سيفرلنا » قول جزافي لهم قالوه ، ولامعوٌ لهم فيه إلا الاغترار بشعفهم الذي سمّوه شعب الله كما سمّوا أنفسهم أبناء الله وأحبّاءه ، ولم يقولوا ذلك لوعده النفس بالتوّبة لأنّ ذلك قيد لا يدلّ عليه الكلام ، ولا أنّهم قالوا ذلك رجاءً للمغفرة الإلهيّة فإنّ للرجاء آثاراً لاتلائم هذه المشية إذ رجاء الخير لا ينفك عن خوف الشر الذي يقابل له وكما أنّ الرجاء يستدعي شيئاً من ثبات النفس وطمئنها كذلك الخوف يوجب قلق النفس واضطرايّها ومساءتها فآية الرجاء الصادق توسط النفس بين سكون واضطراب ، وجذب ودفع ، ومسرة ومساءة ، وأمّا من توغل في شهوات نفسه وانغمض في لذائذ الدنيا من غير أن يتذكّر بعقوبة ما يجنيه ويقرفه ثم إذا دفعه رادع من نفسه أو غيره بما أوعد الله الظالمين ، وذكّره شيئاً من سوء عاقبة المجرمين قال : إنّ الله غفور رحيم يتخلّص به من اللوم ، ويخلص به إلى صافي لذائذه الدنيا فليس ما يتظاهر به رجاءً صادقاً بل أمنية نفسانية كاذبة ، وتسوييل شيطانيٍّ موبق فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً .

وقوله : « وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » أي لم يقنعوا بما أخذوه من العرض بمرة حتى يكون ترکهم ذلك ورجوعهم إلى اتسقاء محارم الله نحوّا من التوبة ، وقولهم : « سيفر لنا » نوعاً من الرجاء يتلبّس به التائبون بل كلّما وجدوا شيئاً من عرض الدنيا أخذوه من غير أن يراقبوا الله تعالى فيه فالجملة أعني قوله : « وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » في معنى قوله تعالى في وصفهم في موضع آخر : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » المائدة : ٧٩ .

وقوله : « ودرسو ما فيه » كان الواو للحال ، والجملة حال عن ضمير « عليهم » وقيل الجملة معطوفة على قوله : « ورثوا الكتاب » في صدر الآية ، ولا يخلو من بعد .

والمعنى : « فخالف من بعدهم » أي من بعد هؤلاء الأسلاف من بنى إسرائيل وحالهم في تقوى الله واجتناب محارمه ما وصف « خلف ورثوا الكتاب » وتحملوا ما فيه من المعارف والأحكام والمواعظ وال عبر ، وكان لازمه أن يتّسّقوا ويختاروا الدار الآخرة ، ويترکوا أعراض

الدنيا الفانية الصارفة عمّا عند الله من الشواب الدائم «يأخذون عرض هذا الأدنى» وينكبون على اللذائذ الفانية العاجلة ، ولا يبالون بامتعصية وإن كثرت «و يقولون سيعذر لنا» قوله «بغير الحق» ولابر جعون عن المعصية باطّرّة واطّرّتين بل هم على قصد العود إليها كلّما أمكن «وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه» ولا يتناهون عمّا اقترفوه من المعصية .

«ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب» وهو الميثاق المأْخوذ عليهم عند حملهم إيمانه «أن لا يقولوا على الله إلا الحق» و «الحال أنّهم درسوا ما فيه» و علموا بذلك أنّ قوله : «سيغفر لنا» قول بغير الحق ليس لهم أن يتغفّرّوا به ، وهو يجرّّهم على معاصي الله و هدم أركان دينه . «و» الحال أن «الدار الآخرة خير للذين يتّسقون» لدؤام ثوابها وأمنها من كل مكره «أفلا تعقلون» .

قوله تعالى : «وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَفَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» قال في المجمع : أمسك ومسك وتمسّك واستمسك بالشيء بمعنى واحد أي اعتض به . انتهى .

و تخصيص إقامة الصلاة بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها و كونها كنّا من الدين يحفظ بها ذكر الله والخوض إلى مقامه الذي هو بمنزلة الروح الحية في هيكل الشرائع الدينية .

والآية تعدد التمسّك بالكتاب إصلاحاً والإصلاح يقابل الإفساد و هو الإفساد في الأرض أو إفساد المجتمع البشري فيها ، ولا تفسد الأرض ولا المجتمع البشري «إلا بـإفساد طريقة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والدين الذي يشتمل عليه الكتاب الإلهي» النازل في عصر من الأعصار هو المتضمن لطرق الفطرة بحسب ما يستدعيه استعداد أهلها فإن الله سبحانه يذكر في كلامه أن الدين القائم الذي يقوم بحوائج الحياة هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، والخلق التي لاحقيقة لهم وراءها قال : «فَاقْرُمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» الروم : ٣٠ ثم قال : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ» آل عمران : ١٩ والإسلام هو التسلیم لله سبحانه في سنته الجارية في تكوينه المبنية عليها تشریعه .

فالأَيْتَان - كَمَا ترَى - قَنَادِيَان بِأَنَّ دِينَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ تَطْبِيقُ الْإِنْسَانَ حَيَاتَهُ عَلَى مَاقْتَصِيهِ فِيهِ قَوَانِينَ التَّكْوِينِ وَنَوْاَمِيسِهِ حَتَّى يَقْفَى بِذَلِكَ مَوْقَفًا تَحرَّكَ نَفْسِيَّةَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ثُمَّ يَسِيرُ فِي مُسِيرِهِ أَيْ يَعُودُ بِذَلِكَ إِنْسَانًا نَسَمِيهُ إِنْسَانًا طَبِيعِيًّا وَيَتَرَبَّى تَرَبِّيَةً يَسْتَدِعِيهَا ذَاتُهُ بِحَسْبِ مَا رَكِبَ عَلَيْهِ تَرَكِيَّبِهِ الطَّبِيعِيِّ .

فَمَا تَقْتَصِيهِ نَفْسِيَّةُ الْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الْخُضُورِ إِلَى الْمَبْدِئِ الغَيْبِيِّ الَّذِي يَقْوِمُ بِإِيجَادِهِ وَإِبْقَائِهِ وَإِسْعَادِهِ ، وَتَوْفِيقِ شَؤُونِ حَيَاتِهِ مَعَ الْقَوَانِينِ الْحَاكِمَةِ فِي الْكَوْنِ حَكْمَةً حَقِيقِيَّةً هُوَ الدِّينُ الْمَسْمَىٰ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي يَدْعُوا إِلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَائِرُ كِتَابِ اللَّهِ السَّمَاوِيَّةِ الْمَنْزَلَةَ عَلَى أُنْبِيَاءِهِ وَرَسُولِهِ .

فَإِصْلَاحُ شَؤُونِ الْجَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَخْلِيقُهَا مِنْ كُلِّ دُخْلِ خَرَافِيِّ ، وَوَضْعِ الْإِصرِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي اخْتَلَقَتْهَا الْأَوْهَامُ وَالْأَهْوَاءُ ثُمَّ وَضَعْتُهَا عَلَى النَّاسِ ، جَزْءٌ مَعْنَىُ الدِّينِ الْمَسْمَىٰ بِالْإِسْلَامِ لِأَثْرِهِ وَحْكَمُ مِنْ أَحْكَامِهِ حَتَّى تَخْتَلِفُ فِيهِ الْآرَاءُ فَيُسَلِّمُهُ مُسْلِمًا ، وَيَرْدَدُهُ رَادًا ، وَيَبْحِثُ فِيهِ بَاحِثٌ مُنْصَفٌ فَيَتَبَعُ مَاؤُدًا إِلَيْهِ جَهْدُ نَظَرِهِ .

وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الَّذِي يَدْعُى إِلَيْهِ النَّاسُ بِمَنْطِقِ الدِّينِ الإِلَهِيِّ هُوَ الشَّرَاعِنُ وَالسَّنَنُ الْقَائِمَةُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَاوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ لَا أَنَّهُ يَضْعُفُ مَجْمُوعَةً مِنْ مَعَارِفٍ وَشَرَاعِنُ ثُمَّ يَدْعُى أَنَّ الْمَصَالِحَ الْإِنْسَانِيَّةَ تَطَابِقُهُ وَهُوَ يَطَابِقُهَا فَافْهَمْ ذَلِكَ .

وَإِيْسَاكَ أَنْ تَنْتَهِمُ أَنَّ الدِّينَ الإِلَهِيَّ مَجْمُوعُ أُمُورِ مَعَارِفٍ وَشَرَاعِنَاتٍ تَقْلِيدِيَّةً لَأَرْوَحُ لَهَا إِلَّا رُوحُ الْمَجَازَفَةِ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، وَلَا سَانَ لَهَا إِلَّا لِسَانُ التَّأْمُرِ الْجَافِ وَالْتَّحْكِيمِ الْجَافِيِّ وَقَدْ قُضِيَ شَارِعُهَا بِوَجْبِ اتِّبَاعِهَا وَالْأَنْقِيادِ لَهَا تَجَاهِيًّا لَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمُ نَعِيمٌ مُخْلَدٌ لِلْمَطْيِعِينَ مِنْهُمْ ، وَالْعَذَابُ الْأَوْبَدُ لِلْمَعَاصِينَ ، وَلَارَابِطُ لَهَا يَدِنِي بِطَهَّرَهَا بِالنَّوْاَمِيسِ التَّكَوِينِيَّةِ الْمَمَاسَةُ لِلْإِنْسَانِ الْحَاكِمَةِ فِي حَيَاتِهِ الْقَائِمَةِ بِشَؤُونِهَا الْقِيَمَةِ بِإِصْلَاحِهَا فَتَعُودُ الْأَعْمَالُ الْدِينِيَّةُ أَغْلَالًا غَلَّتْ بِهَا أَيْدِيُ النَّاسِ فِي دُنْيَاَهُمْ ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ ضَمَنَتْ إِصْلَاحَهَا إِرَادَةُ مُوْلَوِيَّةِ إِلَهِيَّةٍ فَحَسِبَ ، وَلَيْسَ لِلْمَنْتَهِيَّ بِالدِّينِ فِي دُنْيَاَهُمْ مِنْ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ إِلَّا مَا اسْتَلَدَّهُ بِالْعَادَةِ كَمَنْ اعْتَادَ بِالْأَفْيَوْنِ وَالْسَّمِّ حَتَّى عَادَ يَلْتَذَّ بِمَا يَتَأَلَّمُ بِهِ الْمَزَاجُ الطَّبِيعِيُّ السَّالِمُ ، وَيَتَأَلَّمُ بِمَا يَلْتَذَّ بِهِ غَيْرِهِ .

فهذا من الجهل بالمعارف الدينية ، والفرية على ساحة شارعه الطاهره يدفعه الكلام
الإلهي ” فكم من آية تتبّرء من ذلك بتصریح أو تلویح أو بـ شارة أو كنایة وغير ذلك .
وبالجملة الكتاب الإلهي يتضمن مصالح العباد ، وفيه ما يصلح المجتمع الإنساني
بـ جرائه فيه بل الكتاب الإلهي هو الكتاب الذي يشتمل على ذلك ، والدين الإلهي هو
مجموع القوانين المصلحة ، ومجموع القوانين المصلحة هو الدين فلا يدعون الدين الناس إلا
إلى إصلاح أعمالهم وسائر شؤون مجتمعهم ويسمى ذلك إسلام الله لأن من جرى على مجرى
الإنسان الطبيعي ” الذي خطّ له التكوين فقد أسلم للتکوين وافقه بأعماله فيما يقتضيه
وموافقته والسير على المسير الذي مهّده وخطّه إسلام الله سبحانه في ما يريده منه .
وليس يدعون الدين إلى متابعة ممّا قوانيذه ومحظياته ثم يدعى أن في ذلك خيرهم
وسعادتهم حتى يكون لشاك أن يشك فيه .

والآية أعني قوله : « وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ » الآية في نفسها عامّة مستقلّة
لأنّها بحسب دخولها في سياق الكلام في بنى إسرائيل معنوية بشأنهم ، و المراد بالكتاب
بهذا النّظر التوراة وهي والإنجيل

قوله تعالى : « وَإِذْ نَقَنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأْنَهُ ظَلَّةً » الآية . النّقق قلع الشيء من
أصله ، والظلّة هي الغمامه ، وما يستظلّ بها من نحو السقف ، والباقي ظاهر .
والآية تقصّ رفع الطور فوق رؤوس بنى إسرائيل ، وقد تقدّمت هذه القصة مكرّرة
في سورتي البقرة والنّساء .

* بحث روائي *

في تفسير القمي عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن ابن أبي عمير عن أبي عبيدة عن
أبي جعفر عليهما السلام قال : وجدنا في كتاب على عليهما السلام أنّ قوماً من أهل إيله من قوم ثمود وإن
الحيتان كانت سيفت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك فشرعت إليهم يوم سبتهم
في ناديهم وقد أتوا بهم في أنهارهم وسواقيهم فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها وبأكلونها

فليبيوا في ذلك ماشاء الله لاينهابهم الأخبار ، ولا يمنعهم العلماء عن صيدها ، ثم " إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم أنّما نهيت عن أكلها يوم السبت ولم تنهوا عن صيدها فاصطادوها يوم السبت وأكلوها في ماسوى ذلك من الأيام .

قالت طائفة منهم : الآن نصطادها فمعت وانحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا : تنهياكم عن عقوبة الله أن تتعربوا ضوا الخلاف أمره ، واعتنلت طائفة منهم ذات اليسار فسكتت ولم تعظهم ، فقالت للطائفة التي وعظتهم : لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذباً شديداً ؟ فقالت الطائفة التي وعظتهم : معدنة إلى ربكم ولعلهم يتّقون فقال الله عزّ وجلّ : فلما نسوا ما ذكرنا به يعني لما ترکوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة فقالت الطائفة التي وعظتهم : لا والله لانجحا معكم ولا نباتكم الليلة في مدینتكم هذه التي عصيت الله فيها مخافة أن ينزل عليكم البلاء فيعمّتنا معكم .

قال : فخر جوا عنهم من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء فنزلوا قريباً من المدينة فباتوا تحت السماء فلما أصبح أولياء الله المطهرون لأمر الله غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية فأتوا بباب المدينة فإذا هو مصمت فدققاوا فلم يجابوه ولم يسمعوا منها حسّ أحد فوضعوا فيها سلماً على سور المدينة ثم أصعدوا رجالاً منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقو فرد يتعاونون و لهم أذناب فكسرموا الباب فعرفت الطائفة أنسابها من الإنس ، ولم يعرف إلا إنس أنسابها من القردة فقال القوم للقردة : ألم تنهكم ؟

قال على " عليهما السلام " : والذى فلق الحبة و بره النسمة إني لا أعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون ولا يغيرون بل ترکوا ما أمرنا به فتفرقوا ، وقد قال الله : فبعداً للقوم الظالمين ، فقال الله : « و أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعداً بئس بما كانوا يفسقون » .

أقول : ورواه العيسائي في تفسيره عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليهما السلام . وروي هذا المعنى في الدر المنشور عن عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عكرمة عن ابن مباس غير أنّ فيها أنّ المذكورين في الآية حي من اليهود من أهل إيمانه وظاهره أنّهم كانوا من بنى إسرائيل ورواية أبي جعفر عليهما السلام تصرّح بأنّهم كانوا من قوم

ثمود ، وليس من البعيد أن يكونوا قوماً من عرب ثمود دخلوا في دين اليهود لقرب دارهم وجوارهم فإنّ إيلة كما يقال : كانت بلدة بين مصر والمدينة على شاطئ البحر . وربما قيل : إنّ القرية التي أشارت إليها الآية هي مدین ، وقيل : هي طبرية . وقيل : هي قرية يقال لها : مقنا ، بين مدین وعينونا .

وفي رواية ابن عباس التي أشرنا إليها وغيرها مما روی عنه أيضاً أنه كان يبكي ويقول : نجي الناهون ، وهلك الفاعلون ، ولأدرى ما فعل بالساكتين ، وفي رواية عكرمة : قلت لابن عباس : أي جعلني الله فداك ألا ترى أنّهم كرهو ما هم عليه وخالفوهم وقالوا لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ قال : فأمرني فكسست ثوبين غليظين . يريد أنه استحسن قوله بنجاتهم لكرهاتهم فعلهم واعتقادهم بأنّهم معاقبون لا محالة فخلع على بثوبين ، وأخذ بقولي .

وقد أخطأ عكرمة فإنّ القوم وإن كانوا كرهوا فعلهم ولم يشاركونهم في الصيد المحرّم لكنّهم افترقوا معصية هي أعظم من ذلك وهو ترك النهي عن المنكر ، وقد نبههم الناهون بذلك إذ قالوا : معدنة إلى ربكم ولعلمهم يتّسقون ، وكلامهم يدلّ على أنّ المقام لم يكن مقام اليأس عن تأثير الموعظة حتى يسقط بذلك التكليف ، وما يئس منهم الناهون هجر وهم وفارقوهم ، ولم يهجرهم الآخرون ولم يفارقونهم على مافي الروايات . على أنّ الله تعالى قال : «أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بما كانوا يفسقون» فلم يذكر في جانب النجاة إلا الذين ينهون عن السوء وأخذ في جانب الأخذ الذين ظلموا دون الذين صادوا ، ولا مانع من شمول «الذين ظلموا» لأولئك التاركين للنهي عن المنكر .

وأمّا قوله : «فلما عتوا عمنا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة» فإنّ كان معناه عتوا عن ترك ما نهوا عنه كما تقدّم عن المفسرين كان هذا العذاب بحسب دلالة هذه الآية مختصّاً بالصادفين لكنّها لا تمنع عموم الآية السابقة لاصادين والساكتين بمعنى الاشتراك في الظلم والفسق ، وإن كان معنى الآية الإعراض عمّا نهوا عنه من غير تقدير الترك وما بمعناه اختصّت الآية ببيان عذاب الساكتين وكان عذاب الصادفين مبيّناً في الآية

السابقة : « فلما نسوا ما ذكروا به » الآية كما يومئه إليه بعض الروايات الآتية . وفي المجمع : أنه هلكت الفرقان ، ونجت الفرقة الناهية . روی ذلك عن

أبي عبدالله عليه السلام .

أقول : ولا ينافي نص الآية على مسخ العاتين فإن الهلاك يعم مثل المنسخ . على أن الأخبار متظافرة في أن الممسوخ لا يعيش بعد المنسخ إلا أياماً ثم يهلك . وفي الكافي عن سهل بن زياد عن عمرو بن عثمان عن عبدالله بن المغيرة عن طلحة بن يزيد عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهرؤن عن السوء » قال : كانوا ثلاثة أصناف : صنف ائتمروا وأمرروا ونجوا ، وصنف ائتمروا ولم يأمرروا فهمروا .

أقول : والرواية - كماترى - مبنية على كون قوله : « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا فردة » الآية ناظراً إلى عذاب الساكتين دون المتركتين المصيد المحرّم ومعنى « عتوا عما نهوا » كفوا عن الصيد الذي نهوا عنه ولا حاجة حينئذ إلى تقدير الترك ونحوه في الكلام ويبقى لبيان عذاب الفرقة الأخرى قوله في الآية السابقة .

ولامانع من هذا المعنى إلا أن مقتضى المقام أن يذكر السبب لعذاب الساكتين كفّهم عن مواعظة الفاعلين لاعتوهم عما نهوا عنه مع ما في استعمال العتو في مورد الكفر والإعراض من بعد ، والرواية مع ذلك ضعيفة وقد رواها الصدوق بالسند بعيته عن طلحة عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية وفيها : قال : كانوا ثلاثة أصناف : صنف ائتمروا وأمرروا ، وصنف ائتمروا ولم يأمرروا ، وصنف لم يأتُمروا ولم يأمرروا فهمروا ورواه العياشي عن طلحة عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام في الآية قال : افترق القوم ثلاث فرق فرقه انتهت واعتزلت ، وفرقه أقامت ولم يقارب الذنوب ، وفرقه اقترفت الذنوب فلم ينج من العذاب إلا من انتهت قال جعفر : قلت لأبي جعفر عليهما السلام : ما صنع بالذين أقاموا ولم يقاربوا الذنوب ؟ قال أبو جعفر عليهما السلام : بلغني أنهم صاروا ذرّاً ، والظاهر أنها جميعاً رواية واحدة على ما في سندها من الضعف ، وفي متنها من التشويش والاختلاف .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عبد الله عن أبي عبدالله عليهما السلام قال : « إن الله

خص عباده بآيتين من كتابه : أَن لَا يَقُولُوا حَتَّى يَعْلَمُوا ، وَلَا يَرْدِوا مَا لَمْ يَعْلَمُوا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « أَلَمْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ » وَقَالَ : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يَحْتِطُوا بِعِلْمِهِ وَمَلَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ » .

أقوال : و رواه العياشي عن إسحاق عنه عليه السلام ، و روى مثله عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي الحسن الأول عليه السلام .

وفي تفسير القمي في معنى قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقَنَا الْجَبَلَ » الآية قال الصادق عليه السلام : مَلَّا أُنْزَلَ اللَّهُ التُّورَةَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَقْبِلُوهُ فَرَفَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جَبَلَ طُورَ سِينَاءَ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ : إِنْ لَمْ تَقْبِلُوا وَقْعَ عَلَيْكُمُ الْجَبَلَ فَقَبِلُوهُ وَطَاطُؤُوهُ رُؤُسَهُمْ .

وفي الاحتجاج عن أبي بصير قال : كان مولانا أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام جالساً في الحرم وحوله جماعة من أوليائه إذ أقبل طاووس اليماني في جماعة من أصحابه . ثم قال لا بي جعفر عليه السلام : أنا ذلن لي في السؤال ؟ قال : أذنا لك فسائل . فسأله عن سوائل وأجابه وكان فيما سأله قال : فأخبرني عن طائر طار ولم يطر قبلها ولا بعدها ذكره الله عز وجل في القرآن ، ما هو ؟ فقال : طور سينا أطاره الله عز وجل علىبني إسرائيل الذين أظلهم بجناح منه فيه ألوان العذاب حتى قبلوا التوراة ، وذلك قوله عز وجل : « وَإِذْ نَتَقَنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظَلَّةٌ وَظَنَّوْا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ » الآية .

أقوال : وقد روی ما في معنى الرواية الأولى من طرق أهل السنة عن ثابت بن الحجاج قال : جاءتهم التوراة بجملة واحدة فكبر عليهم فأبوا أن يأخذونه حتى ظلم الله عليهم الجبل فأخذوه عند ذلك .

والرواية الثانية من طرقهم عن ابن عباس في مسائل كتبها هرقل ملك الروم إلى معاوية يسألها عنها فقيل له : لست هناك وإنك متى تخطي شيئاً في كتابك إليه يغتنمه فيك فاكتب إلى ابن عباس فكتب إليه بها فارسل ذلك إلى قيسرون فقال قيسرون : ما يعلم هذا إلا نبي أو أهل بيته .

واعلم أن في الآية بعض روایات آخر تقدّمت في نظيرة الآية من سورة البقرة فراجعها إن شئت .

* * *

وَإِذْ أَخْذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشَهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
 الْسَّتِيرِ بِكُمْ قَالُوا بَلِي شَهَدْنَا إِنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كَنَاعَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٣)
 أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا اشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِ وَكُنَا ذَرِيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
 الْمُبْطِلُونَ (١٧٤) وَكَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِعَاهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٥).

﴿بيان﴾

الآيات تذكر الميثاق من بني آدم على الروبيّة وهي من أدق الآيات القرآنية معنى، وأعجبها نظماً.

قوله تعالى : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَأَشَهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
 الْسَّتِيرِ بِكُمْ قَالُوا بَلِي شَهَدْنَا » أخذ الشيء من الشيء يجب انفصل الماخوذ منه واستقلاله دونه بنحو من الأحياء ، وهو يختلف باختلاف العنايات المتعلقة بها والاعتبارات الماخوذة فيها كأخذ اللقمة من الطعام وأخذ الجرعة من ماء القدح وهو نوع من الأخذ ، وأخذ المال والأثاث من زيد الغاصب أو الجoward أو البائع أو المعير وهو نوع آخر ، أو أنواع مختلفة أخرى ، وكأخذ العلم من العالم وأخذ الألهة من المجلس وأخذ الحظ من لقاء الصديق وهو نوع وأخذ الولد من والده للتربية وهو نوع إلى غير ذلك .

فمجرد ذكر الأخذ من الشيء لا يوضح نوعه إلا بيان زائد ، ولذلك أضاف الله سبحانه إلى قوله : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » الدال على تفريقيهم وتفصيل بعضهم من بعض ، قوله : « مِنْ ظُهُورِهِمْ » ليدل على نوع الفصل والأخذ ، وهو أخذ بعض المادة منها بحيث لا تنقص المادة الماخوذ منها بحسب صورتها ولا تنقلب عن تمامها واستقلالها ثم تكميل الجزء الماخوذ شيئاً تاماً مستقلأً من نوع الماخوذ منه فيؤخذ الولد من ظهر من

يلده ويولده ، وقد كان جزءاً ثم يجعل بعد الأخذ و الفصل إنساناً تاماً مستقلاً من والديه بعد ما كان جزءاً منها .

ثم يؤخذ من ظهر هذا الماخوذ مأخوذ آخر وعلى هذه الوتيرة حتى يتم الأخذ وينفصل كل جزء عمما كان جزءاً منه ، و يتفرق الأناسي وينتشر الأفراد وقد استقل كل منهم عن سواه و يكون لكل واحد منهم نفس مستقلة لها مالها وعليها ما عليها ، فهذا مفاد قوله : « وإن أخذ ربكم منبني آدم من ظورهم ذريتهم » ولو قال : أخذ ربكم منبني آدم ذريتهم أو نشرهم و نحو ذلك بقي المعنى على إبهامه .

وقوله : « وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم » ينبي عن فعل آخر إلهي تعلق بهم بعد ما أخذ بعضهم من بعض و فصل بين كل واحد منهم وغيره و هو إشهادهم على أنفسهم ، والإشهاد على الشيء هو إحضار الشاهد عنده وإراءته حقيقته ليتحمله علمات حملها شهودياً فأشهادهم على أنفسهم هو إراءتهم حقيقة أنفسهم ليتحملوا ما أريد تحملهم من أمرها ثم يؤدوا ما تحملوا إذا سئلوا .

ولنفس في كل ذي نفس جهات من التعلق والارتباط بغيرها يمكن أن يستشهد إلا إنسان على بعضها دون بعض غير أن قوله : « ألسنت بربكم » يوضح ما أشهدوا لأجله وأريد شهادتهم عليه ، وهو أن يشهدوا ربوبيته سبحانه لهم فيؤدوا عنها عند المسألة .

فالإنسان وإن بلغ من الكبر والخيال ما بلغ ، وغرّته مساعدة الأسباب ماغرّته واستهروته لايسعه أن ينكر أنه لا يملك وجود نفسه ولا يستقل بتدير أمره ، ولو ملك نفسه لوقاها مما يكرهه من الموت وسائر آلام الحياة ومصابها ، ولو استقل بتدير أمره لم يفتقر إلى الخضوع قبلاً الأسباب الكونية ، والوسائل التي يرى لنفسه أنه يسودها ويحكم فيها ثم هي كالإنسان في الحاجة إلى مأواها ، والانقياد إلى حاكم غائب عنها يحكم فيها لها أو عليها ، وليس إلى إنسان أن يسد خلتها ويرفع حاجتها .

فالحاجة إلى رب - مالك مدبر - حقيقة الإنسان ، والفقر مكتوب على نفسه ، والضعف مطبوع على ناصيته ، لا يخفى ذلك على إنسان له أدنى الشعور الإنساني ، والعالم و البجاهل و الصغير و الكبير و الشريف و الوضيع في ذلك سواء .

فَالإِنْسَانُ فِي أُيُّ مَنْزِلٍ مِّنْ مَنَازِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ نَزَلَ يُشَاهِدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّ لَهُ رَبًا يَمْلِكُهُ وَيَدْبِرُ أُمْرَهُ، وَكَيْفَ لَا يُشَاهِدُ رَبَّهُ وَهُوَ يُشَاهِدُ حَاجَتَهُ الْذَّاتِيَّةَ؟ وَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ وَقْوَعُ الشَّعُورُ بِالْحَاجَةِ مِنْ غَيْرِ شَعُورٍ بِالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ؟ فَقُولُهُ: «أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ» بِيَانِ مَا أَشْهَدَ عَلَيْهِ، وَقُولُهُ: «قَالُوا بَلِّي شَهَدْنَا» اعْتِرَافٌ مِّنْهُمْ بِوَقْوَعِ الشَّهَادَةِ وَمَا شَهَدُوهُ، وَلَذَا قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ تُشَيرُ إِلَى مَا يُشَاهِدُ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا أَنَّهُ مُحْتَاجٌ فِي جُمِيعِ جَهَاتِ حَيَاتِهِ مِنْ وَجُودِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَجُودُهُ مِنَ الْمُوَازِمِ وَالْأُحْكَامِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّا خَلَقْنَا بْنَيَّ آدَمَ فِي الْأَرْضِ وَفَرَّقْنَاهُمْ وَمِيزْنَاهُمْ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ بِالْتَّنَاسُلِ وَالْتَّوَالِدِ، وَأَوْقَنْنَاهُمْ عَلَى احْتِياجِهِمْ وَمِرْبُوبِيَّتِهِمْ لَنَا فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ قَائِلِينَ: بَلِّي شَهَدْنَا أَنْفُكَ رَبَّنَا.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قُولُهُمْ: «بَلِّي شَهَدْنَا» مِنْ قَبْلِ القُولِ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ إِسْنَادِ لَازْمِ الْقُولِ إِلَى الْقَائِلِ بِالْمُلْزَمِ حِيثُ اعْتَرَفُوا بِحَاجَتِهِمْ وَلِزْمِهِ الْاعْتِرَافِ بِمَنْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ لِسَانِ الْحَالِ وَالْقُولِ بِلَازْمِ الْقُولِ: أَنَّ الْأَوَّلَ اِنْكَشَافُ الْمَعْنَى عَنِ الشَّيْءِ لَدَلَالَةِ صَفَّةِ مِنْ صَفَاتِهِ وَحَالِهِ مِنْ أَحْوَالِهِ عَلَيْهِ سُوءُ شَعْرٍ بِهِ أَمْ لَا كَمَا تَفَصِّحُ آثارُ الدِّيَارِ الْخَرْبَةِ عَنْ حَالِ سَاكِنِيهَا، وَكَيْفَ لَعْبُ الْدَّهْرِ بِهِمْ؟ وَعَدْتُ عَادِيَةَ الْأَيَّامِ عَلَيْهِمْ؟ فَأَسْكَنْتُ أَجْرَاهُمْ وَأَخْمَدْتُ أَنْفَاسَهُمْ، وَكَمَا يَتَكَلَّمُ سِيمَاءُ الْبَأْسِ الْمُسْكِينُ عَنْ فَقْرِهِ وَمُسْكِنَتِهِ وَسُوءِ حَالِهِ. وَالثَّانِي اِنْكَشَافُ الْمَعْنَى عَنِ الْقَائِلِ لِقُولِهِ بِمَا يَسْتَلِزِمُهُ أَوْ تَكَلَّمُهُ بِمَا يَدْلِلُ عَلَيْهِ بِالْالْتَزَامِ فَعَلَى أَحَدِ هَذِينَ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْقُولِ أَعْنَى الْقُولُ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْقُولُ بِالْاسْتِلَازِ يَحْمِلُ اعْتِرَافَهُمُ الْمُطْحَكِيَّ بِقُولِهِ تَعَالَى: «قَالُوا بَلِّي شَهَدْنَا» وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ وَأَنْسَبُ فَإِنَّهُ لَا يَكْتُفِي فِي مَقَامِ الشَّهَادَةِ إِلَّا بِالصَّرِيحِ مِنْهَا اِمْدَلِولُ عَلَيْهِ بِالْمُطَابِقَةِ دُونَ الْالْتَزَامِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ عَلَى أَيِّ نَحْوٍ تَحْقَقَتْ فِيهِ مِنْ سُنْخِ الْاِسْتِشَهَادِ الْمَذْكُورِ فِي قُولِهِ: «أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ» فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوَى الْجَوَابُ بَعْنَ الْمُسَانِ الَّذِي سَأَلُوهُمْ يَهُ، وَلَذَلِكَ كَانَ هَنَاكَ نِحْوُ ثَالِثٍ يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ وَالْمُجاَوِبَةُ فَإِنَّ الْكَلَامَ الْإِلَهِيَّ يَكْشِفُ بِهِ عَنِ الْمَقَاصِدِ الْإِلَهِيَّةِ بِالْفَعْلِ، وَالْإِيجَادُ كَلَامٌ حَقِيقِيٌّ - وَإِنْ كَانَ بِنِحْوِ التَّحْلِيلِ - كَمَا تَقدَّمَ مِنْهُ مِنْ مِبَاحَثِنَا السَّابِقَةِ فَلِيَكُنْ هَنَا قُولُهُ: «أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ» وَقُولُهُمْ: «بَلِّي شَهَدْنَا» مِنْ ذَاكَ الْقَبِيلِ، وَسِيَجِيَّهُ لِلْكَلَامِ تَمَّةً.

وَكَيْفَ كَانَ قَوْلُهُ : « وَإِذَا أَخْذَ رَبِّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » الآيَةُ يَدِلُّ عَلَى تَفْصِيلِ بَنِي آدَمَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِشْهَادُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَخْذُ الاعْتِرَافَ عَلَى الرَّبُوبِيَّةِ مِنْهُ ، وَيَدِلُّ ذِيلُ الآيَةِ وَمَا يَتَلَوُهُ أَعْنِي قَوْلُهُ : « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَسَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلِ وَكَنَّا ذَرِيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفْتَهَ لَكُنَا بِمَا فَعَلْنَا امْبِطَلُونَ » عَلَى الْغَرْضِ مِنْ هَذَا الْأَخْذِ وَالْإِشْهَادِ .

وَهُوَ عَلَى مَا يَقِيِّدُهُ السِّيَاقُ إِبْطَالُ حِجَّتَيْنِ لِلْعَبَادَةِ عَلَى اللَّهِ ، وَبِيَانِ أَنَّهُ لَوْلَا هَذَا الْأَخْذُ وَالْإِشْهَادُ وَأَخْذُ الْمِيثَاقِ عَلَى اِنْحِصارِ الرَّبُوبِيَّةِ كَانَ لِلْعَبَادَةِ أَنْ يَتَمَسَّكُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَحَدِي حِجَّتَيْنِ يَدْفَعُونَ بِهَا تَمَامَ الْحِجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي شُرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَالْقَضَاءِ بِالنَّارِ عَلَى ذَلِكَ هُنَّ اللَّهُ سَبِّحَا نَاهِيَ .

وَالْتَّدَبُّرُ فِي الآيَتَيْنِ وَقَدْ عَطَفَتْ إِحْدَى الْحِجَّتَيْنِ عَلَى الْآخْرِيِّ بِأَوْ التَّرْدِيدِيَّةِ ، وَبَنِيتُ الْحِجَّتَيْنِ جَمِيعًا عَلَى الْعِلْمِ الْلَّازِمِ لِلْإِشْهَادِ ، وَنَقْلَتَا جَمِيعًا عَنْ بَنِي آدَمَ الْمَأْخُوذِينَ الْمُفْرِقَيْنِ يَعْطِي أَنَّ الْحِجَّتَيْنِ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَقْدِيرِيِّيْ دُمْ الْإِشْهَادِ كَذَلِكَ .

وَالْمَرَادُ أَنَّا أَخْذَنَا ذَرِيَّتَهُمْ مِنْ ظَهُورِهِمْ وَأَشَهَدْنَاهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ فَاعْتَرَفُوا بِرَبِّهِمْ بِيَسْتَنَا فَقَمَتْ لَنَا الْحِجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَوْلَا نَفْعَلُ هَذَا وَلَمْ نَشْهُدْ كُلَّ فَرِيدَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ أَخْذِهِ فَإِنْ كَنَّا أَهْمَلْنَا إِشْهَادَ مِنْ رَأْسِ فَلَمْ يَشْهُدْ أَحَدٌ نَفْسَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّهِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ لَا قَامُوا جَمِيعًا الْحِجَّةَ عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا غَافِلِينَ فِي الدِّنِ عَنْ رَبِّهِمْ بِيَسْتَنَا ، وَلَا تَكْلِيفٌ عَلَى غَافِلٍ وَلَا مَؤَاخِذَةٌ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ » .

وَإِنْ كَنَّا لَمْ نَهْمِلْ أَمْرَ إِشْهَادِ مِنْ رَأْسٍ ، وَأَشَهَدْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ دُونَ بَعْضٍ بَأَنَّا أَشَهَدْنَا إِلَيْهِمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْهَامِ الْعَظِيمِ دُونَ ذَرِيَّتَهُمْ ثُمَّ أَشْرَكَ الْجَمِيعَ كَانَ شُرِكَ الْآبَاءِ شُرِكًا عَنْ عِلْمٍ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّبُّ لِأَرْبَّ غَيْرِهِ فَكَانَتْ مُعْصِيَةً مِنْهُمْ ، وَأَمَّا الذَّرِيَّةُ فَإِنَّمَا كَانَ شُرِكَهُمْ بِمَجْرِيِّ التَّقْلِيدِ فِيمَا لَاسْبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ لَا إِجْعَالًا وَلَا تَفْصِيلًا ، وَمَتَابِعَةً عَمَلِيَّةً حَضُورَةً لِآبَائِهِمْ فَكَانَ آبَاؤُهُمْ هُمُ الْمُشَرِّكُونَ بِاللَّهِ الْعَاصُونَ فِي شُرِكِهِمْ لِعِلْمِهِمْ بِحَقِيقَةِ

الأمر ، وقد قادوا ذرّيّتهم الضعاف في سبيل شركهم بتربيتهم عليه و تلقينهم ذلك ، ولا سبيل لهم إلى العلم بحقيقة الأمر و إدراك ضلال آباءهم وإضلالهم إِيَّاهُم ، فكانت الحجّة لهؤلاء الذرّيّة على الله يوم القيمة لأنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَعَصَوْا بِذَلِكَ وَأَبْطَلُوا الْحَقَّ هُمَّ الْآباءُ فِيهِمُ الْمُسْتَحْقُونَ لِلْمُؤَاخِذَةِ ، والفعل فعلهم ، وَأَمَّا الذرّيّة فلم يعرّفوا حقاً حتّى يؤمرُوا به فيعصوا بمخالفته فهم لم يعصوا شيئاً ولم يبطلوا حقاً ، وحينئذ لم تتمّ حجّة على الذرّيّة فلم تتمّ الحجّة على جميع بني آدم ، وهذا معنى قوله تعالى : «أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلِ وَكُنَّا ذرّيّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفْتَهَلُكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطَلُونَ» .

فإن قلت : هنا بعض تقادير أخر لا يفي به البيان السابق كما لوفرض إشهاد الذريّة على أنفسهم دون الآباء مثلاً أو إشهاد بعض الذريّة مثلاً كما أنَّ تكامل النوع الإنساني في العلم والحضارة على هذه الوتيرة يرث كلَّ جيل ما ترَكه الجيل السابق ويزيد عليه بأشياء فيحصل للآخر ما لم يحصل للسابق .

قلت : على أحد التقديرتين المذكورتين تتمّ الحجّة على الذرّيّة أو على بعضهم الذين أشهدو ، وَأَمَّا الآباء الذين لم يشهدوا فليس عندهم إلا الغفلة المضحة عن أمر الروبيّة فلا يستحقّون بشر�� إذ لم يشهدوا ، ولا يسع لهم التقليد إذ لم يسبق عليهم فيه سابق كما في صورة العكس فيدخلون تحت المحتجّين بالحجّة الأولى : «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» .

وَأَمَّا حديث تكامل الإِنسان في العلم والحضارة تدريجياً فـإِنَّما هو في العلوم النظرية الاكتسافية التي هي نتائج وفروع تحصل للإِنسان شيئاً فشيئاً ، وَأَمَّا شهود الإِنسان نفسه وأنَّه يحتاج إلى رب يُرِيُّ به فهومن مواد العلم التي إِنَّما تحصل قبل النتائج ، وهو من العلوم الفطرية التي تنطبع في النفس انطباعاً أو لِيَّا ثم يتفرّع عليها الفروع ، وما هذا شأنه لا يتأخّر عن غيره حصولاً ، وكيف لا ؟ نوع الإِنسان إِنَّما يتدرج إلى معارفه وعلومه عن الحس الباطني بالحاجة كما قرر في محله .

فامتحنّ من الآيتين أنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فصل بين بني آدم بأخذ بعضهم من بعض ثم أشهدهم جميعاً على أنفسهم وأخذ منهم الميثاق بربوبيته فهم ليسوا بغافلين عن هذا المشهد

وَمَا أَخْذُ مِنْهُمْ مِنَ الْمِياثِقِ حَتَّىٰ يَحْتَجُ كُلُّهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ ذَلِكَ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ
بِالرَّوْبِيَّةِ أَوْ يَحْتَجُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا أَشْرَكُ وَعَصَىٰ أَبْوَاهُمْ وَهُمْ بُرَّآءٌ.

ولذلك ذكر عدد من المفسرين أن المراد بهذا الطرف المشار إليه قوله : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ » هو الدنيا ، والآياتتان تشيران إلى سنة الخلقة الالمية الجارية على الإنسان في الدنيا فإن الله سبحانه يخرج الذريّة الإنسانية من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمّهاتهم ومنها إلى الدنيا ، ويشهد لهم في خلال حياتهم على أنفسهم ، ويرون آثار صنعه وآيات وحدانيته ، ووجوه احتياجاتهم المستغرفة لهم من كل جهة الدالة على وجوده ووحدانيته فكانه يقول لهم عند ذلك : ألسنت بربكم ، وهم يجيبونه بسان حالهم : بل شهدنا بذلك وأنت ربنا لا رب غيرك ، وإنما فعل الله سبحانه ذلك لئلا يتحجّوا على الله يوم القيمة بأنّهم كانوا غافلين عن المعرفة ، أو يتحجّز الذريّة بأنّ آباءهم هم الذين أشركوا ، وأمّا الذريّة فلم يكونوا عارفين بها وإنما هم ذريّة من بعدهم نشووا على شركهم من غير ذنب .

وقد طرح القوم عدة من الروايات تدل على أن الآياتين تدلان على عالم الذر ، وأن الله أخرج ذريّة آدم من ظهره فخرجوها كالذر فأشهدهم على أنفسهم وعرفهم نفسه ، وأخذ منهم الميثاق على روبيته فتمت بذلك الحجّة عليهم يوم القيمة .

وقد ذكروا وجهاً في إبطال دلالة الآياتين عليه ، وطرح الروايات بمخالفتها لظاهر الكتاب :

١ - أنت لا يخلو إماماً أن جعل الله هذه الذريّة المستخرجة من صلب آدم عقلاً أو لم يجعلهم كذلك فإن لم يجعلهم عقلاً فلا يصح أن يعروا التوحيد ، وأن يفهموا خطاب الله تعالى ، وإن جعلهم عقلاً وأخذ منهم الميثاق وبني صحة التكليف على ذلك وجب أن يذكروا ذلك ولا ينسوه لأنّ أخذ الميثاق إنّما تتم الحجّة به على المأمور منه إذا كان على ذكر منه من غير نسيان كما ينص عليه قوله تعالى : « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۚ وَتَحْنَ لَا تَذَكَّرْ وَرَاءَ مَا تَحْنَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقَةِ الْدِنَوِيَّةِ الْحَاضِرَةِ شَيْئاً فَلَيْسَ الْمَرَادُ بِالآيَةِ إِلَّا مَوْقِفُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا يَشَاهِدُ فِيهِ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّ

يملكه ويدبر أمره ، وهو رب " كل شيء .

٢ - أنه لا يجوز أن ينسى الجمع الكبير والجم" الغير من العقلاء أمراً قد كانوا عرفوه وميّزوه حتى لا يذكره ولا واحد منهم ، وليس العهد به بأطول من عهد أهل الجنة بحوادث مضت عليهم في الدنيا وهم يذكرون ما وقع عليهم في الدنيا كما يحكى به تعالى في مواضع من كلامه كقوله : « قال قائل منهم إني كان لي قريبين ، إلى آخر الآيات الصافات : ٥١ وقد حكى نظير ذلك من أهل النار كقوله : « وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار » ص : ٦٢ إلى غير ذلك من الآيات .

ولو جاز النسيان على هؤلاء الجماعة مع هذه الكثرة لجائز أن يكون الله سبحانه قد كلف خلقه فيما مضى من الزمن ثم أعادهم ليثبّتهم أو ليعاقبهم جراءً لأعمالهم في الخلق الأول وقد نسوا ذلك ، ولازم ذلك صحة قول التناسخية أنّ المعاد إنما هو خروج النفس عن بدنها ثم دخولها في بدن آخر لتجدد في الثاني جراءً للأعمال التي عملتها في الأول .

٣ - ما أورد على الأخبار الناطقة بأنّ الله سبحانه أخذ من صلب آدم ذريته وأخذ منهم الميثاق ، بأنّ الله سبحانه قال : « أخذ ربكم من بني آدم » ولم يقل : من آدم ، وقال : « من ظهورهم » ولم يقل من ظهره ، وقال : « ذريتهم » ولم يقل : ذريته ثم أخبر بأنه إنما فعل بهم ذلك لئلا يقولوا يوم القيمة إنّا كنّا عن هذا غافلين أو يقولوا إنما أشرك آباءنا من قبل وكنّا ذريّة من بعدهم» الآية ، وهذا يتضمن أن يكون لهم آباء مشرّكون فلا يتناول ظاهر الآية أولاد آدم لصلبه .

ومن هنا قال بعضهم : إنّ الآية خاصة ببعض بني آدم غير عامة لجميعهم فإنّها لا تشمل آدم وولده لصلبه ، وبجميع المؤمنين ومن المشرّكين من ليس له آباء مشرّكون بل تختصّ بالمشركين الذين لهم سلف مشرك .

٤ - أنّ تفسير الآية بعالم الذريّة ينافي قولهم - كما في الآية - « إنما أشرك آباءنا لدلالته على وجود آباء لهم مشركين ، وهو ينافي وجود الجميع هناك بوجود واحد جمعي .

٥ - ما ذكره بعضهم أنّ الروايات مقبولة مسلمة غير أنها ليست بتأويل للآية ،

والّذِي تَفَصَّلَ مِنْ حَدِيثِ عَالَمِ النَّرِّ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ فَعَلَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ بِنَبِيِّ آدَمَ قَبْلَ وُجُودِهِمْ فِي هَذِهِ النَّشأَةِ لِيَجْرِوا بِذَلِكَ عَلَى الْأَعْرَاقِ الْكَرِيمَةِ فِي مَعْرِفَةِ رَبِّهِ بَيْتَهُ كَمَا رُوِيَ : أَنَّهُمْ وَلَدُوا عَلَى الْفَطْرَةِ ، وَكَمَا قِيلَ : إِنَّ نَعِيمَ الْأَطْفَالِ فِي الْجَنَّةِ ثَوَابٌ إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ فِي عَالَمِ النَّرِّ .

وَأَمَّا الْآيَةُ فَلَيَسْتَ تَشِيرًا إِلَى مَا تَشِيرُ إِلَيْهِ الرَّوَايَاتُ فَإِنَّ الْآيَةَ تَذَكَّرُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ لِتَنْقِطُ بِهِ حِجَّتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَنَّا عَنِ هَذَا غَافِلِينَ ، وَلَوْكَانَ الْمَرْادُ بِهِ مَا فَعَلَ بِهِمْ فِي عَالَمِ النَّرِّ لَكَانَ لَهُمْ أَنْ يَحْتَجِجُوا عَلَى اللَّهِ فَيَقُولُوا : رَبُّنَا إِنَّكَ أَشَهَدْنَا أَنْفُسَنَا يَوْمَ أَخْرَجْنَا مِنْ سَلْبِ آدَمَ فَكَنَّا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّكَ رَبُّنَا كَمَا أَنَّا يَوْمَ—وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ—عَلَى يَقِينٍ مِّنْ ذَلِكَ لِكَنَّكَ أَنْسَيْتَنَا مَوْقِفَ الْإِشَادَةِ فِي الدِّينِ الَّتِي هِيَ مَوْطِنُ التَّكْلِيفِ وَالْعَمَلِ ، وَوَكَّلْنَا إِلَيْ عَوْلَانَا فَعَرَفَ رَبُّهُمْ بِعْقَلَهُ ، وَأَنْكَرَهَا مِنْ أَنْكَرَهَا بِعْقَلَهُ كُلًّا ذَلِكَ بِالْأَسْتِدْلَالِ فَمَا ذَنَبْنَا فِي ذَلِكَ وَقَدْ نَزَعْتَ مِنَّا عِنْ الْمَشَاهِدَةِ ، وَجَهَزْنَا بِجَهَازٍ شَأْنَهُ الْأَسْتِدْلَالُ وَهُوَ يَخْطُئُ وَيُصَبِّبُ ؟

٦ - إِنَّ الْآيَةَ لَا صِرَاطَةَ لَهَا فِيمَا تَدْلِيْلُهُ عَلَى الْرَّوَايَاتِ لِإِمْكَانِ جَمْلَهَا عَلَى التَّمَثِيلِ ، وَأَمَّا الرَّوَايَاتُ فَهِيَ إِمَّا مَرْفُوعَةٌ أَوْ مَوْقُوفَةٌ أَوْ حَجِّيَّةٌ فِيهَا .

هَذِهِ جَمْلَةُ مَا أُورَدَوْهُ عَلَى دَلَالَةِ الْآيَةِ وَحْجِيَّةِ الرَّوَايَاتِ ، وَقَدْ زَيَّفَهَا الْمُثَبِّتُونَ لِنَشأَةِ النَّرِّ وَهُمْ عَامَّةٌ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَجَمِيعُهُمْ مِّنْ الْمُفَسِّرِينَ بِأَجُوبَةٍ :

فَالْجَوابُ : عَنِ الْأَوَّلِ : إِنَّ نَسِيَانَ الْمَوْقِفِ وَخَصْوَصِيَّاتِهِ لَا يَضُرُّ بِتَمَامِ الْحِجَّةِ وَإِنَّمَا الْمَضْرُرُ نَسِيَانُ أَصْلِ الْمِيَاثِقِ وَزُوَّالُ مَعْرِفَةِ وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى : وَهُوَ غَيْرُ مُنْسِيٍّ وَلَا زَائِلٌ عَنِ النَّفْسِ وَذَلِكَ يَكْفِيُ فِي تَمَامِ الْحِجَّةِ أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَرْدَتَ أَنْ تَأْخُذَ مِيَاثِقًا مِّنْ زَيْدٍ فَدَعْوَتَهُ إِلَيْكَ وَأَدْخَلْتَهُ بَيْتَكَ ، وَأَجْلَسْتَهُ مَجْلِسَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ بَشَّرْتَهُ وَأَنْذَرْتَهُ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَمْ تَزُلْ بِهِ حَتَّى أَرْضَيْتَهُ فَأَعْطَاكَ الْعَهْدَ وَأَخْذَتْ مِنْهُ الْمِيَاثِقَ فِيهَا مَخْوذٌ بِمِيَاثِقَهُ مَا دَامَ ذَا كَرَاءً لَا صَلَهُ وَإِنْ نَسِيَ حُضُورَهُ عِنْدَكَ وَدَخُولَهُ بَيْتَكَ وَجَمِيعُ مَا جَرَى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَقْتُ أَخْذِ الْمِيَاثِقِ غَيْرُ أَصْلِ الْعَهْدِ .

وَالْجَوابُ عَنِ الثَّانِي : إِنَّ الْأَمْتَنَاعَ مِنْ تَجْوِيزِ نَسِيَانِ الْجَمْعِ الْكَثِيرِ لِذَلِكَ مِجْرَدٌ

استبعاد من غير دليل على الامتناع مضافاً إلى أنّ أصل المعرفة بالربوبية مذكورة غير منسية كما ذكرنا وهو يكفي في تمام الحجّة ، وأمّا حديث التناسخ فليس الدليل على امتناع التنساخ منه حصراً في استحالة نسيان الجماعة الكثيرة ما مضى عليهم في الخلق الأوّل حتى لو لم يستحلّ ذلك صحيحاً القول بالتناسخ بل لا بطال القول به دليلاً آخر كما يعلم بالرجوع إلى محله ، وبالجملة لا دليل على استحالة نسيان بعض العوالم في بعض آخر .

والجواب عن الثالث : أنّ الآية غير ساكتة عن إخراج ولد آدم لصلبه من صلبه فإنّ قوله تعالى : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » كافٌ وحده في الدلالة عليه فإنّ فرضبني آدم فرض إخراجهم من صلاب آدم من غير حاجة إلى مؤونة زائدة ، ثمّ إخراج ذرّيتهم من ظهورهم بإخراج أولاد الأولاد من صلاب الأولاد ، وهكذا ، ويتحصل منه أنّ الله أخرج أولاد آدم لصلبه من صلبه ثمّ أولادهم من أصلابهم ثمّ أولاد أولادهم من أصلاب أولادهم حتى ينتهي إلى آخرهم نظير ما يجري عليه الأمر في هذه النشأة الدنيوية التي هي نشأة التوالد والتناسل .

وقد أجاب الرازبي عنه في تفسيره بأنّ الدلالة على إخراج أولاد أولاده لصلبه من صلبه من ناحية الخبر كما أنّ الدلالة على إخراج أولاد أولاده من أصلاب آبائهم من ناحية الآية فمجموع الآية والخبر تتم الدلالة على المجموع . وهو كما ترى .

وأمّا الأخبار المشتملة على ذكر إخراج ذريّة آدم من صلبه ، وأخذ الميثاق منهم فهي في مقام شرح القصة لا في مقام تفسير ألفاظ الآية حتّى يورد عليها بعدم موافقة الكتاب أو مخالفته .

وأمّا عدم شمول الآية لأولاد آدم من صلبه لعدم وجود آباء مشركون لهم وكذا بعض من عداهم فلا يضر شيئاً لأنّ مراد الآية أنّ الله سبحانه إنّما فعل ذلك لئلا يقول المشركون يوم القيمة : إنّما أشرك آباءنا لا أن يقول كلّ واحد واحد منهم : إنّما أشرك آبائي فهذا ممّا لم يتعلّق به الغرض البالتبّة فالقول قول المجموع من حيث المجموع لا قول كلّ واحد فيؤول المعنى إلى أنّ التولم نفعل ذلك لكان كلّ من أردنا إهلاً كه يوم القيمة يقول : لم أشرك أنا وإنّما أشرك من كان قبلي ولم أكن إلا ذريّة وتابعاً لا متبعاً .

والجواب عن الرابع يظهر من الجواب عن سابقه وقد دلت الآية والرواية على أن الله فصل هناك بين الآباء والأبناء ثم ردّهم إلى حال الجمع .

و الجواب : عن الخامس ، أنه خلاف ظاهر بعض الروايات وخلاف صريح بعض آخر منها ، وما في ذيله من عدم تمام الحجّة من جهة عروض النسيان ظهر الجواب عنه من الجواب عن الإشكال الأول .

و الجواب عن السادس : أن استقرار الظهور في الكلام كاف في حجيته ، ولا يتوقف ذلك على صفة الصراحة ، و إمكان الحمل على التمثيل لا يوجب الحمل عليه ما لم يتحقق هناك مانع عن حمله على ظاهره ، وقد تبيّن أن لا مانع من ذلك .

و أمّا أن الروايات ضعيفة لا معول عليها فليس كذلك فإن فيها ما هو الصحيح وفيها ما يوثق بتصوره كما سيجيء إن شاء الله تعالى في البحث الروائي التالي .

هذا ملخص ما جرى بينهم من البحث في ما استفید من الآية من حديث عالم الذر إثباتاً ونفيماً ، واعتراضًا وجواباً ، واستيفاء التدبر في الآية والروايات ، والتأمل فيما يرومها المثبتون باثباتهم ويدفعه المنكرون بإنكارهم يوجب توجيه البحث إلى جهة أخرى غير ما تшاجر فيه الفريقان باثباتهم ونفيهم .

فالذى فهمه المثبتون من الرواية ثم حملوه على الآية ، وانتهوا لاثباته محصله : أن الله سبحانه بعد ما خلق آدم إنساناً تاماً سوياً أخرج نطفة التي تكونت في صلبه - ثم صارت هي بعينها أولاده الصليبيين - إلى الخارج من صلبه ثم أخرج من هذه النطفة نطفتها التي ستكون أولاداً له صليبيين ففصل بين أجزائهما والأجزاء الأصلية التي اشتقت منها ثم من أجزاء هذه النطف أجزاءً أخرى هي نطفتها ، ثم من أجزاء الأجزاء أجزاءً أخرى ولمن ينزل حتى أتى آخر جزء مشتق من الأجزاء المتعاقبة في التجزئي وبعبارة أخرى أخرج نطفة آدم التي هي مادة البشر وزعّها بفضل بعض أجزائه من بعض ما لا يحصى من عددبني آدم بحذاء كل فرد ما هو نصيبه من أجزاء نطفة آدم ، وهي ذرّات منبثة غير محصورة .

ثم جعل الله سبحانه هذه الذرات المنبثة عند ذلك - أو كان قد جعلها قبل ذلك -

كل ذرّة منها إنساناً تاماً في إنسانيته هو بعينه الإنسان الدنيوي" الذي هو جزء المقدم له فالجزء الذي لزيد هناك هو زيد هذا بعينه ، والذى لعمرو هو عمرو وهذا بعينه يجعلهم ذوى حياة وعقل يجعل لهم ما يسمعون به وما يتكلّمون به ، وما يضمنون به معانى فيظهرونها أو يكتّمونها و عند ذلك عرّفهم نفسه فخاطبهم فأجابوه ، و أعطوه إلا قرار بالربوبية إمّا بموافقة ما في ضميرهم طال في لسانهم أو بمخالفته ذلك .

ثم إن الله سبحانه ردهم بعد أخذ الميثاق إلى مواطنهم من الأصلاب حتى اجتمعوا في صلب آدم وهي على حياتها ومعرفتها بالربوبية وإن نسوا ما وراء ذلك مما شاهدوه عند الإشهاد وأخذ الميثاق ، وهم بأعيانهم موجودون في الأصلاب حتى يؤذن لهم في الخروج إلى الدنيا فيخرجون وعندهم ما حصلوا في الخلق الأول من معرفة الربوبية ، وهي حكمهم بوجود رب لهم من مشاهدة أنفسهم محتاجة إلى من يملّكهم ويدبر أمرهم .

هذا ما يفهمه القوم من الخبر والآية ويرون إثباته ، وهو مما يدفعه الضرورة ، ويفسّيه القرآن والحديث بالرّيب ، وكيف الطريق إلى إثبات أن ذرّة من ذرات بدن زيد وهو الجزء الذري الذي انقلب من صلب آدم من طريق نطفته إلى ابنه ثم إلى ابن ابنه حتى انتهى إلى زيد - هو زيد بعينه ، وله إدراك زيد وعقله وضميره وسمعه وبصره ، وهو الذي يتوجه إليه التكليف ، وتتم له الحجّة ويحمل عليه العهود والمواثيق ، ويقع عليه الثواب والعقاب ؟ وقد صح بالحجّة القاطعة من طريق العقل والنقل أن إنسانية الإنسان بنفسه التي هي أمر وراء المادة حادث بحدوث هذا البدن الدنيوي و قد تقدّم شطر من البحث فيها .

على أنّه قد ثبت بالبحث القطعي أن هذه العلوم التصديقية البديهيّة والنظريّة و منها التصديق بأنّ له ربّا يملكه ويدبر أمره تحصل للإنسان بعد حصول التصورات والجميع تنتهي إلى الإحساسات الظاهرة والباطنة ، وهي تتوقف على وجود التركيب الدينيي المادي فهو حال العلوم الحصولية التي منها التصديق بأنّ له ربّا هو القائم برفع حاجته .

على أنّ هذه الحجّة إن كانت متوقفة في تمامها على العقل و المعرفة معاً فالعقل

مسلوب عن الذرّة حين أُرجعت إلى موطنها الصّلبّي حتّى تظهر ثانيةً في الدنيا، وإن قيل إنّه لم يسلب عنها ماتجري في الأصلاب والأرحام فهو مسلوب عن الإنّسان ما بين ولادته وبلوغه أعني أيام الطفولية، ويختل بذلك أمر الحجّة على الإنّسان، وإن كانت غير متوقفة عليه بل يكفي في تمامها مجرّد حصول المعرفة فـأي حاجة إلى الإشّهاد وأخذ الميثاق وظاهر الآية أن الإشّهاد وأخذ الميثاق إنماهما لأجل إتمام الحجّة فلماحالة يرجع معنى الآية إلى حصول المعرفة فيؤول المعنى إلى ما فسّرها به المنكرون.

وبتقرير آخر: إن كانت الحجّة إنما تتم بمجموع الإشّهاد والتعرّيف وأخذ الميثاق سقطت بنسیان البعض، وقد نسي الإشّهاد والتکلیم وأخذ الميثاق، وإن كان الإشّهاد وأخذ الميثاق جمعاً مقدمة لثبت المعرفة ثم زالت المقدمة ولزّمت المعرفة، وبها تمام الحجّة تمت الحجّة على كلّ إنسان حتّى الجنين والطفل والمعتوه والجاهل، ولا يساعد عليه عقل ولا نقل، وإن كانت المعرفة في تمام الحجّة بها متوقفة على حصول العقل والبلوغ وتحوز ذلك، وقد كانت حصلت في عالم الذرّ فتمّت الحجّة ثم زالت وبقيت المعرفة حجّة ناقصة ثم كملت ثانيةً لبعضهم في الدنيا فتمّت الحجّة ثانيةً بالنسبة إليهم، فـكما أنّ لحصول العقل في الدنيا أسباباً تكوينية يحصل بها، وهي حوادث المتّكرّرة من الخير والشرّ وحصول الملائكة المميّزة بينهما من التجارب حصولاً تدرّيجياً ينتهي من جانب إلى حدّ من الكمال، ومن جانب إلى حدّ من الضعف لا يعبأ به، كذلك المعرفة لها أسباب إعدادية تهيّئ الإنسان إلى التلّبس بها، وليس تحصل قبل ذلك، وإنّما كانت تحصل في ظرفنا هذا بأسبابها المعدّة لها كالعقل فأي حاجة إلى تكوينه تكويناً آخر في سالف من الزمان لا إتمام الحجّة والحجّة تامة دونه؟ وماذا يعني ذلك؟

على أنّ هذا العقل الذي لاتتم حجّة ولا ينفع إشّهاد ولا يصحّ أخذ ميثاق بدونه حتّى في عالم الذرّ المفروض هو العقل العملي الذي لا يحصل للإنسان إلا في هذا الظرف الذي يعيش فيه عيشة اجتماعية فـتتّكرّر عليه حوادث الخير والشرّ، وتـهيّج عواطفه وإحساساته الباطنة نحو جلب النفع ودفع الضرّ فـتتعاقب عليه الأعمال عن علم وإرادة فيخطيء ويصيّب حتّى يتدرّب في تمييز الصواب من الخطأ، والخير من الشرّ، والنفع من الضرّ

والظرف الذي يثبتونه أعني ما يصفونه من عالم الذر ليس بموطن للعقل العملي إذ ليس فيه شرائط حصوله وأسبابه .

ولو فرضوه موطنًا له وفيه أسبابه وشروطه كما يظهر مما يصفونه تعويلاً على مافي ظواهر الروايات أن الله دعاهم هناك إلى التوحيد فأجابه بعضهم بسان يوافقه قلبه ، وأجابه آخرون وقد أضمروا الكفر وبعث إليهم الأنبياء والوصياء فصدقهم بعض وكذا بهم آخرون ولا يجري ما هنا إلا على ماجرى به ماهنا ذلك إلى غير ذلك مما ذكروه كان ذلك إثباتاً لنشأة طبيعية قبل هذه النشأة الطبيعية في الدنيا نظير ما يثبته القائلون بالأدوار والأكوار^(١) واحتاج إلى تقديم كينونة ذرية أخرى تتم بها الحجّة على من هنا ذلك من الإنسان لأنَّ عالم الذر على هذه الصفة لا يفارق هذا العالم الحيوي الذي نحن فيه الآن فلو احتاج هذا الكون الدنيوي إلى تقديم إشهاد وتعريف حتى يحصل المعرفة وتتم الحجّة لاحتاج إليه الكون الذري من غير فرق فارق البُتة .

على أنَّ الإنسان لا يحتاج في تحقق المعرفة في هذه النشأة الدنيوية إلى تقدُّم وجود ذرية يقع فيه الإشهاد ويوجد فيه الميثاق حتى تثبت بذلك المعرفة بالربوبيّة، لم يكن في ذلك فرق بين إنسان وإنسان فما بال آدم وحْواً استثنى من هذه الكلية؟ فإن لم يحتاجا إلى ذلك لفضل فيهما أو لكرامة لهما ففي ذريةٍ منهما هو أفضل منها وأكرم! وإن كان لتمام خلقتهما يومئذ فأثبتت فيهما المعرفة من غير حاجة إلى إحضار الوجود الذري فلكل من ذريةٍ منهما أيضاً خلقة تامة في ظرفه الخاص به فلم يؤخر إثبات المعرفة فيهما ولهم إلى تمام خلقتهم بالولادة حتى تتم عند ذلك الحجّة؟ وأي حاجة إلى التقديم؟

فهذه جهات من الإشكال في تتحقق الوجود الذري للإنسان على ما فهموه من الروايات ، لاطريق إلى حلها بالأبحاث العلمية ، ولا جمل الآية عليه معها حتى بناءً على عادة القوم في تحويل المعنى على الآية إذا دلت عليه الرواية وإن لم يساعد عليه لفظ الآية لأنَّ الرواية القطعية الصدور كالآية مصونة عن أن تنطق بالمحال ، وأمّا الحشوية وبعض

(١) وهو أن الحوادث معلولة للحرّكات الفلكية ففي كل دور تام لحركة فلك الثواب و هو ثلاثة وستون ألف سنة تعود الحوادث كعین ما كانت في الدورة السابقة من غير فرق

المحمد^نين ممّن يبطل حجّة العقل الضروريّة قبل الرواية ، ويتمسّك بالآحاد في المعارف اليقينيّة فلا بحث لنا معهم . هذا ما على المثبتين .

بقي الكلام فيما ذكره النافون أنَّ الآية تشير إلى ما عليه حال الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، وهو أنَّ الله سبحانه أخرج كلامًا من آحاد الإنْسَان من الأصلاب والأرحام إلى مرحلة الانفصال والتفرق ، وركب فيهم ما يعرفون به ربوبيتهم واحتياجاتهم إليه كأنه قال لهم إذا وجّه وجوههم نحو أنفسهم المستقرة في الحاجة : ألسْت بِرَبِّكُمْ ؟ وَكَانُوكُمْ مَا سمعوا هذا الخطاب من لسان الحال قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا بذلك ، وإنما فعل الله ذلك لتتمم عليهم حجّته بالمعرفة وتقطع حجّتهم عليه بعدم المعرفة ، و هذا ميشاق مأْخوذ منهم طول الدنيا جارٍ ماجرى الدهر والإنسان يجري معه .

والآية بسياقها لاتساعد عليه فإنه تعالى افتتح الآية بقوله : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ » الآية فعبر عن ظرف هذه القضية بـإِذ وهو يدلّ على الزمن الماضي أو على أيّ ظرف محقق الوقوع نحوه كما في قوله : « وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى بْنَ مُرْسَى ۝ أَنْتَ قَلْتَ لِلنَّاسِ - إِلَى أَنْ قَالَ - قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » المائدة: ١٦ فعبر بـإِذعن ظرف مستقبل لتحقق وقوعه .

وقوله : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ » خطاب للنبي ﷺ أولاًه ولغيره كما يدلّ عليه قوله : « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية ، إن كان الخطاب متوجّهاً إلينا معاشر السامعين للآيات المخاطبين بها والخطاب خطاب دنيوي لنا معاشر أهل الدنيا ، والظرف الذي يتّسّكي عليه هو زمن حياتنا في الدنيا أو زمن حياة النوع الإنساني فيها وعمره الذي هو طول إقامته في الأرض ، والقصة التي يذكرها في الآية ظرفها عين ظرف وجود النوع في الدنيا فلامتصحّح لتعبير عن ظرفها بلغة « إِذ » الدالة على تقدّم ظرف القصة على ظرف الخطاب ، ولا عنابة أخرى في المقام تصحيّح هذا التعبير من قبيل تحقّق الواقع و نحوه وهو ظاهر .

فقوله : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم » في عين أَنْه يدلّ على قصة خلقه تعالى النوع الإنساني بنحو التوليد وأخذ الفرد من الفرد ، وبـإِذ الكثير من

القليل كما هو المشهود في نحو تكون الآحاد من الإنسان ، وحفظهم وجود النوع بوجود البعض من البعض على التعاقب ، يدل على أنّ للقصة - وهي تنطبق على الحال المشهود - نوعاً من التقدّم على هذا المشهود من جريان الخلقة وسيرها .

وقد تقدّمت استحالة ما افترضوا بهذا التقدّم من تقدّم هذه الخلقة ب نحو تقدّماً زمانياً لأنّ يأخذ الله أولاً فرد من هذا النوع فيأخذ منه مادة النطفة التي منها نسل هذه النوع فيجزّها أجزاءً ذرّية بعدد أفراد النوع إلى يوم القيمة ثم يلبس وجود كلّ فرد بعينه ب حياته وعقله وسمعه وبصره وضميره وظهره وبطنه ويكسيه وجوده التي هي له قبل أن يسير مسيره الطبيعي فيشهده نفسه و يأخذ منه الميثاق ، ثم ينزعه منها ويردها إلى مكانها الصليبي حتى يسير مسيره الطبيعي ، وينتهي إلى موطنها الذي لها من الدنيا فقد تقدّم بطلان ذلك ، وأنّ الآية أجنبية عنه .

لكنّ الذي أحال هذا المعنى هو استلزماته وجود الإنسان بما له من الشخصية الدنيوية مرتّين في الدنيا ، واحدة بعد أخرى المستلزم لكون الشيء غير نفسه ببعد (١) شخصيته فهو الأصل الذي تنتهي إليه جميع المشكلات السابقة .

وأمام وجود إنسان أو غيره في امتداد مسيره إلى الله ورجوعه إليه في عوالم مختلفة النظام متفاوتة الحكم فليس بمحال ، وهو مما يثبته القرآن الكريم ولو كره ذلك الكافرون الذين يقولون إنّ هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحي ، وما يهلّكنا إلا الدهر فقد أثبت الله الحياة الآخرة للإنسان وغيره يوم البعث ، وفيه هذا إنسان بعينه ، وقد وصفه بنظام وأحكام غير هذه النشأة الدنيوية نظاماً وأحكاماً ، وقد أثبت حياة برزخية لهذا إنسان بعينه وهي غير الحياة الدنيوية نظاماً وحكمـا ، وأثبت بقوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزانة وما ننزل له إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ أنّ لكلّ شيء عنده وجوداً وسيعاً غير مقدّر في خزائنه ، وإنّما يلحقه الأقدار إذا نزل له إلى الدنيا مثلاً فللمعالم الإنساني على سمعته سابق وجود عنده تعالى في خزائنه أنزله إلى هذه النشأة .

(١) وهذا غير تعدد الشخصية الذي ربما اصطلاح عليه في فن الأخلاق وعلم النفس

وأثبت بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملائكة كل شيء » يس : ٨٤ ، وقوله : « وما أمرنا إلا واحدة كلام بالبصر » القمر : ٥٠ وما يشابههما من الآيات أن هذا الوجود التدريجي الذي للأشياء ومنها إلا إنسان هو أمر من الله يفيضه على الشيء ، ويلقى إليه بكلمة « كن » إفاضة دفعية وإلقاء غير تدريجي فلو وجود هذه الأشياء وجهان وجه إلى الدنيا وحكمه أن يحصل بالخروج من القوة إلى الفعل تدريجياً ، ومن العدم إلى الوجود شيئاً فشيئاً ، ويظهر ناقصاً ثم لا يزال يتکامل حتى يغنى ويرجع إلى ربّه ، ووجه إلى الله سبحانه وهي بحسب هذا الوجه أمور غير تدريجية وكل ما لها فهو لها في أول وجودها من غير أن تحتمل قوة تسوقها إلى الفعل .

وهذا الوجه غير الوجه السابق وإن كانا وجهين لشيء واحد ، وحكمه غير حكمه وإن كان تصوّره التام يحتاج إلى لطف قريحة ، وقد شرحته في الأبحاث السابقة بعض الشرح وسيجيء إن شاء الله استيفاء الكلام في شرحه .

ومقتضى هذه الآيات أن للعالم الإنساني على ماله من السعة وجوداً جديداً عند الله سبحانه ، وهو الذي يلي جنته تعالى ويفيضه على أفراده لا يغيب فيها بعضهم عن بعض ولا يغيبون فيه عن ربّهم ولا هو يغيب عنهم ، وكيف يغيب فعل عن فاعله أو ينقطع صنع عن صانعه ، وهذا هو الذي يسميه الله سبحانه بالملائكة ويقول : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ولن يكون من الموقنين » لأنعام : ٧٥ ، ويشير إليه بقوله : « كلاً لو تعلمون علم اليقين لترؤون الجحيم ثم لترونها عين اليقين » انتكاثر : ٧ .

وأما هذا الوجه الدنيوي الذي نشاهده بنحن من العالم الإنساني و هو الذي يفرق بين الآحاد ، ويشتت الأحوال والأعمال بتوزيعها على قطعات الزمان ، وتطبيقاتها على مراحل الليل والنهار ويحجب إلا إنسان عن ربّه بصرف وجهه إلى التمتعات المادية الأرضية والذاتية الحسية فهو متقرّع على الوجه السابق متاخر عنه ، وموضع تلك النشأة وهذه النشأة في تقرّعها عليها موقعاً كمن ويكون في قوله تعالى : « أن نقول له كن فيكون » يس : ٨٣ .

ويتبين بذلك أن هذه النشأة الإنسانية الدنية مسبوقة بشأة أخرى إنسانية

هي هي بعينها غير أنَّ الآحاد موجودون فيها غير محظوظين عن ربِّهم يشاهدون فيها وحدانيَّته تعالى في الربوبية بمشاهدة أنفسهم لامن طريق الاستدلال بل لأنَّهم لا ينقطعون عنه ولا يفدونه ، ويعترفون به وبكلِّ حقٍّ من قبله ، وأمّا قذارة الشرك وألوان المعاشي فهو من أحكام هذه النشأة الدنيوية دون تلك النشأة التي ليس فيها إلا فعله تعالى القائم به فافهم ذلك .

وأنت إذا تدبَّرت هذه الآيات ثم راجعت قوله تعالى : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » الآية وأجدهم التدبر فيها وجدتها تشير إلى تفصيل أمر تشير هذه الآيات إلى إجماله فهي تشير إلى نشأة إنسانية سابقة فرق الله فيها بين أفراد هذا النوع ، ويسير بينهم وأشهدهم على أنفسهم : ألسْتَ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ شَهَدْنَا .

ولايُرد عليه ما أورد على قول المثبتين في تفسير الآية على ما فهموه من معنى عالم الذرَّ من الروايات على ما تقدَّم فإنَّ هذا المعنى المستفاد من سائر الآيات و النشأة السابقة التي تثبته لاتفاق هذه النشأة الإنسانية الدنيوية زماناً بل هي معها محيطة بها لكنَّها سابقة عليها السبق الذي في قوله تعالى : « كُنْ فَيَكُونُ » ولایُرد عليه شيء من المحاذير المذكورة .

ولايُرد عليه ما أوردناه على قول المنكريين في تفسيرهم الآية بحال وجود النوع الإنساني في هذه النشأة الدنيوية من مخالفته لقوله : « وَإِذْ أَخْذَ رَبَّكَ » ثم التجوز في الإشهاد بإرادة التعريف منه ، وفي الخطاب بقوله : « ألسْتَ بِرَبِّكُمْ؟ بارادة دلالة الحال ، وكذا في قوله : « قَالُوا بَلْ » وقوله : « شَهَدْنَا » بل الظرف ظرف سابق على الدنيا وهو غيرها ، والإشهاد على حقيقته ، والخطاب على حقيقته .

ولايُرد عليه أنه من قبيل تحميل الآية معنى لاتدلَّ عليه فإنَّ الآية لا تأبى عنه وسائر الآيات تشير إليه بضم بعضها إلى بعض .

وأمّا الروايات فسيأتي أنَّ بعضها يدلُّ على أصل تحقق هذه النشأة الإنسانية كالآية ، وبعضها يذكر أنَّ الله كشف لآدم عليه السلام عن هذه النشأة الإنسانية ، وأراه هذا العالم الذي هو مملكت العالم الإنساني ، وما وقع فيه من الإشهاد وأخذ الماشق كما أرى

إِبْرَاهِيمَ مُلْكُوت السماوات والأرض .

رجعنا إلى الآية :

قوله : « وَإِذَا خَذَرْبَكَ » أي وادَّ كر لأَهْل الْكِتَابِ في تتميم البِيَانِ السَّابِقِ أو وادَّ كر للناس في بِيَانِ ما نَزَّلْتُ السُّورَةَ لِأَجْلِ بِيَانِهِ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ عَهْدَهُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَهُوَ سَائِلُهُ عَنْهُ وَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَفْعُونَ بِهِ وَقَدْ تَمَّ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةُ .

أَذْكُرْ لَهُمْ مُوْطَنَّا قَبْلَ الدِّينِ أَخْذَ فِيهِ رَبِّكَ « مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظَهُورِهِمْ ذَرْ يَسْتَهِمُ » فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا اسْتَقْلَلَ مِنْ غَيْرِهِ وَتَمْيِيزُهُمْ فَاجْتَمَعُوا هُنَاكَ جَمِيعًا وَهُمْ فَرَادِيُّ فَارَاهُمْ ذُوَّا هُنْمَ الْمُتَعَلِّقَةِ بِرَبِّهِمْ « وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ » فَلَمْ يَحْتَجُوا عَنْهُ وَعَانِيُّوا أَنَّهُ رَبُّهُمْ كَمَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِفَطْرَتِهِ يَجِدُ رَبَّهُ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَجِبَ عَنْهُ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَاتِ الْقُرَآنِيَّةِ كَوْلُهُ « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » أَسْرِي : ٤٤ .

« أَلْسَتْ بِرَبِّكُمْ » وَهُوَ خَطَابُ حَقِيقِيٍّ لَهُمْ لَابِيَانَ حَالِ وَتَكْلِيمِ الْهَبِيٍّ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مَا يَشَاهِدُونَ أَنَّ اللَّهَ سَبِّحَاهُنَّ يَرِيدُ بِهِمْ الاعْتَرَافُ وَإِعْطَاءُ الْمُوْثَقِ ، وَلَا يَعْنِي بِالْكَلَامِ إِلَّا مَا يَلْقَى لِلْدَلَالَةِ بِهِ عَلَى مَعْنَى مَرَادٍ ، وَكَذَا الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ : « قَالُوا بِلِي شَهَدْنَا » .

وَقَوْلُهُ : « أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كَنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ » الْخَطَابُ لِلْمُخَاطَبِينَ بِقَوْلِهِ : « أَلْسَتْ بِرَبِّكُمْ » الْقَائِلِينَ : « بِلِي شَهَدْنَا » فَهُمْ هُنَاكَ يَعْانِيُّونَ الإِشْهَادِ وَالتَّكْلِيمِ مِنَ اللَّهِ وَالْتَّكَلُّمُ بِالاعْتَرَافِ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا فِي نَشَأَةِ الدِّينِ عَلَى غَفْلَةٍ مَمَّا عَدَ الْمُعْرِفَةِ بِالْأَسْتِدَالَالِ : ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْبَعْثِ وَانْطَوْيَ بِسَاطِ الدِّينِ ، وَانْمَحَتْ هَذِهِ الشَّوَاغِلُ وَالْحِجَّبُ عَادُوا إِلَى مَشَاهِدِهِمْ وَمَعَايِنِهِمْ ، وَذَكَرُوا مَا جَرِيَ بِيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ رَاجِعًا إِلَيْنَا مَعَاشِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْآيَاتِ أَيِّ إِنَّمَا فَعَلَنَا بِنِي آدَمَ ذَلِكَ حَذَرُ أَنْ تَقُولُوا أَيْسَهَا النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَا وَكَذَا ، وَالْأَوْلَى أَقْرَبُ وَيُؤْيِسُهُ قِرَاءَةُ : « أَنْ يَقُولُوا » بِلِفَظِ الْفَيْبَةِ .

وَقَوْلُهُ : « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلِ » هَذِهِ حِجَّةُ النَّاسِ إِنْ فَرَضَ الإِشَهَادُ

وأخذ المি�ثاق من الآباء خاصة دون الذريّة كما أُنّ قوله : «أن تقولوا» الخ حجة الناس إن ترك الجميع فلم يقع إشهاد ولاخذ ميثاق من أحد منهم .

و من المعلوم أن لفرض ترك الإشهاد وأخذ الميثاق في تلك النشأة كان لازمه عدم تحقق المعرفة بالربوبيّة في هذه النشأة إذ لا حجاب بينهم وبين ربهم في تلك النشأة فلو فرض هناك علم منهم كان ذلك إشهاداً وأخذ ميثاق ، وأمّا هذه النشأة فالعلم فيها من وراء الحجاب وهو المعرفة من طريق الاستدلال .

فلو لم يقع هناك بالنسبة إلى الذريّة إشهاد وأخذ ميثاق كان لازمه في هذه النشأة أن لا يكون لهم سبيل إلى معرفة الربوبيّة فيها أصلاً ، وحينئذ لم يقع منهم معصية شرك بل كان ذلك فعل آبائهم ، وليس لهم إلا التبعيّة العمليّة لآبائهم والنشوه على شر كهم من غير علم فصح لهم أن يقولوا : إنّما أشرك آباؤنا من قبل و كنّا ذريّة من بعدهم أقْتَلْكُنَا بما فعل المبطلون .

قوله تعالى : «وكذلك نفصل الآيات و لعلّهم يرجعون » ففصيل الآيات تفريق بعضها و تمييزه من بعض ليتبين بذلك مدلول كل منها ولا تختلط وجود دلالتها ، و قوله : «ولعلّهم يرجعون» عطف على مقدّر ، والتقدير : لغaiات عالية كذا وكذا ولعلّهم يرجعون من الباطل إلى الحق .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن زراة عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى حيث خلق الخلق خلق ماءً عذباً و ماءً مالحاً أحاجا فامتزج الماءان فأخذ طينا من أديم الأرض فعر كه عر كا شديداً فقال لأصحاب اليمين وهم كالذرّ يدبون : إلى الجنة ولا أبالي وقال لأصحاب الشمال : إلى النار ولا أبالي . ثم قال : ألسنت بربكم ؟ قالوا بل شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنّا كنّا عن هذاغافلين . الحديث .

وفيه بإسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سأله عن قول الله

عزّ وجلّ : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » ما تملّك الفطرة ؟ قال : هي الإسلام فطرهم الله حين أخذ ميشاقيهم على التوحيد قال : ألسنت بربكم ؟ وفيه ^(١) المؤمن والكافر .
 وفي تفسير العياشيّ وخاصّص السيد الرضي عن الأصبغ بن نباتة عن علي ^{عليه السلام} قال : أبااه ابن الكواء فقال : أخبرني يا أمير المؤمنين عن الله تبارك وتعالى هل كلام أحداً من ولد آدم قبل موسى ؟ فقال علي ^{عليه السلام} قد كلام الله جمّيع خلقه بـ هم وفاجرهم وردوا عليه الجواب فتقل ذلك على ابن الكواء ولم يعرفه فقال له : كيف كان ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : أو ما تقرأ كتاب الله إذ يقول لنبيه : « وإن أخذ ربك منبني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى » فقد أسمعهم كلامه وردوا عليه الجواب كما تسمع في قول الله يا ابن الكواء « قالوا بلى » فقال لهم : إني أنا الله لا إله إلا أنا وأنا الرحمن الرحيم فأقرّ والله بالطاعة والربوبية ، وميّز الرسل والأنباء والأوصياء وأمر الخالق بطاعتهم فأقرّ وبذلك في الميشاق فقالت الملائكة عند إقرارهم بذلك شهدنا عليكم يا بني آدم أن تقولوا يوم القيمة إننا كنّا عن هذا غافلين .

أقول : والرواية كما تقدّم ، وبعض ما يأتي من الروايات يذكر مطلق أخذ الميشاق من بني آدم من غير ذكر إخراجهم من صلب آدم وإرائهم إيهام .
 وكان تشبيههم بالذرّ كما في كثير من الروايات تمثيل لكتشفهم كالذرّ لا لصغرهم جسمياً أو غير ذلك ، ولكثرته ورود هذا التعبير في الروايات سميت هذه المشاة بعالم الذرّ .

وفي الرواية دلالة ظاهرة على أنّ هذا التكاليم كان تكليماً حقيقةً لا مجرد دلالة الحال على المعنى .

وفيها دلالة على أنّ الميشاق لم يؤخذ على الربوبية فبحسب بل على النبوة وغير ذلك ، وفي كل ذلك تأييد لما قدّمناه .

وفي تفسير العياشيّ عن رفاعة قال : سألت أبا عبد الله عن قول الله : « وإن أخذ ربك

من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم » قال : نعم لله الحجّة على جميع خلقه أخذهم يوم أخذ الميثاق هكذا وقبض يده .

أقول : وظاهر الرواية أنها تفسّر الأخذ في الآية بمعنى الإحاطة والملك .

وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ابن مسakan عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله : « وإن أخذ ربكم من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت برّبكم قالوا بلى » قالت : معاينة كان هذا ؟ قال : نعم فثبتت المعرفة وتوسوا الموقف وسيذكرونه ولو لا ذلك لم يدر أحد من خلقه ورازقه ف منهم من أقر بلسانه في الذرّ ولم يؤمن بقلبه فقال الله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل » .

أقول : والرواية ترد على منكري دلالة الآية على أخذ الميثاق في الذرّ تفسيرهم قوله : « وأشهدهم على أنفسهم ألسنت برّبكم » أن المراد به أنه عرفهم آياته الدالة على ربوبيته ، والرواية صحيحة ومثلها في الصراحة والصحة ما سيأتي من رواية زارة وغيره .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن زراة : أن رجلاً سأله أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وإن أخذ ربكم من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم » إلى آخر الآية فقال وأبوه يسمع : حدثني أبي : أن الله عز وجل قبض قبضه من تراب التربة التي خلق منها آدم فصب عليها الماء العذب الفرات ثم تركها أربعين صباحاً ثم صب عليها الماء المالح الأجاج فتركتها أربعين صباحاً فلما اختمرت الطينية أخذها فعر كهاعر كما شدیداً فخرجوا كالذرّ من يمينه وشماله وأمرهم جميعاً أن يقعوا في النار فدخلها أصحاب اليمين فصارت عليهم بردًا وسلامًا ، وأبي أصحاب الشمال أن يدخلوها .

أقول : وفي هذا المعنى روایات أخرى وكأنّ الأمر بدخول النار كنایة عن الدخول في حظيرة العبودية والانقياد للطاعة .

وفيه بسناده عن عبدالله بن محمد الجنفي وعقبة جميعاً عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحبّ مما أحبّ فكان ما أحبّ أن خلقه من طينة الجنّة ، وخلق من أبغض مما أبغض و كان ما أبغض أن خلقه من طينة النار ثم بعثهم في

الظلال فقيل : وأيّ شيء ظلال ؟ قال : ألم تر إلى ظلّك في الشمس شيءٌ وليس بشيءٍ ثم بعث معهم النبيين فدعوه إلى الإقرار بالله وهو قوله : « ولئن سألكم من خلقهم ليقولنَّ الله » ثم دعوه إلى الإقرار فأقر بعضهم وأنكر بعض ، ثم دعوه إلى ولا يتناقراً بها والله من أحب ، وأنكرها من أبغض ، وهو قوله : « وما كانوا المؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ثم قال أبو جعفر عليه السلام : كان التكذيب .

أقول : والرواية وإن لم تكن مما وردت في تفسير آية الذر غير أنها أوردناها لاشتمالها على قصة أخذ الميثاق ، وفيها ذكر الظلال ، وقد تكرر ذكر الظلال في لسان أئمة أهل البيت عليهما السلام والمراد به - كما هو ظاهر الرواية - وصف هذا العالم الذي هو بوجه عين العالم الدنيوي وبوجه غيره ، وله أحكام غير أحكام الدنيا بوجه وعينها بوجه فينطبق على ما وصفناه في البيان المتقدم .

وفي الكافي وتفسير العياشي عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله عليهما السلام : كيف أجابوا وهم ذر ؟ قال : جعل فيهم ما إذا سألهما أجابوه . وزاد العياشي : يعني في الميثاق .

أقول : وما زاد العياشي من كلام الراوي ، وليس المراد بقوله « جعل فيهم ما إذا سألهما أجابوه » دلالة حالهم على ذلك بل مطافهم الراوي من الجواب ما هو من نوع الجوابات الدنيوية استبعد صدوره عن الذر فسأل عن ذلك فأجابه عليهما بأنّ الأمر هناك بحيث إذا نزلوا في الدنيا كان ذلك منهم جواباً دنيوياً باللسان والكلام اللغطي ، ويؤيد هذه قوله عليهما السلام ما إذا سألهما ، ولم يقل : ما لو تكلموا ونحو ذلك .

وفي تفسير العياشي أيضاً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليهما السلام في قوله : « ألسنت بربكم » قالوا بالأسنتهم ؟ قال : نعم و قالوا بقلوبهم . فقلت : وأين كانوا يومئذ ؟ قال : صنع منهم ما اكتفى به .

أقول : جوابه عليهما أنّهم قالوا : بل بالأسنتهم وقلوبهم مبني على كون وجودهم يومئذ بحيث لو انتقلوا إلى الدنيا كان ذلك جواباً بلسان على النحو المعهود في الدين ولكن

اللسان والقلب هناء واحد ولذلك قال ﷺ : نعم وبقولهم فصدق اللسان ، وأضاف إليه القلب .

ثم مـا كان في ذهن الراوي أـنه أمر واقع في الدنيا ونشأة الطبيعة ، وقد ورد في بعض الروايات التي تذكر قصة إخراج الذرـة من ظهر آدم : تعين المكان له وقد روى بعضها هذا الراوي يعني أبا بصير سـأله ﷺ عن مكانـهم بقولـه : وأين كانوا يومئـذ ، فأجابـه ﷺ بقولـه : « صـنعـهم ما اكتـفىـ به » فـلم يـجـبهـ بـتعـينـ المـكـانـ بلـ بـأنـ اللهـ سـبـحانـهـ خـلـقـهـمـ خـلـقاـ يـصـحـ معـهـ السـؤـالـ والـجـوابـ ، وـكـلـ ذـلـكـ يـؤـيدـ ما قـدـّمـهـ فـي وـصـفـهـ هـذـاـ العـالـمـ ، وـالـرـوـاـيـةـ كـفـيرـهـاـ معـ ذـلـكـ كـالـصـرـيـحـ فـيـ أـنـ التـكـلـيمـ وـالتـكـلـمـ فـيـ الـآـيـةـ عـلـىـ الـحـقـيقـةـ دـوـنـ المـجازـ بـلـ هـيـ صـرـيـحةـ فـيـ .

وفي الدرـ المنـثـورـ أـخـرـجـ عبدـ بنـ حـيـدـ وـالـحـكـيمـ التـرمـذـيـ فـيـ نـوـادـرـ الـأـصـولـ وـأـبـوـ الشـيـخـ فـيـ الـعـظـمـةـ وـابـنـ مرـدوـيـهـ عـنـ أـبـيـ أـمـامـةـ : أـنـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ قـالـ : خـلـقـ اللهـ خـلـقـ وـقـضـىـ الـقـضـيـةـ ، وـأـخـذـ مـيـشـاقـ النـبـيـيـنـ وـعـرـشـهـ عـلـىـ الـمـاءـ ، فـأـخـذـ أـهـلـ الـيـمـينـ بـيمـينـهـ ، وـأـخـذـ أـهـلـ الـشـمـالـ بـيـدـهـ الـأـخـرىـ وـكـلـتـاـ يـدـيـ الرـحـمـانـ يـمـينـ فـقـالـ : يـاـ أـصـحـابـ الـيـمـينـ فـاسـتـجـابـوـاـ الـشـمـالـ فـقـالـواـ : لـبـيـكـ رـبـنـاـ وـسـعـدـيـكـ . فـقـالـ : أـسـتـ بـرـبـكـ ؟ فـقـالـواـ : بـلـيـ قـالـ : يـاـ أـصـحـابـ الـشـمـالـ فـاسـتـجـابـوـاـ الـهـ فـقـالـواـ : لـبـيـكـ رـبـنـاـ وـسـعـدـيـكـ قـالـ : أـسـتـ بـرـبـكـ ؟ فـقـالـواـ : بـلـيـ .

فـخـلـطـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ فـقـالـ قـائـلـ مـنـهـمـ : رـبـ لـمـ خـلـطـ يـمـنـاـ ؟ فـقـالـ : وـلـهـمـ أـعـمـالـ مـنـ دـوـنـ ذـلـكـ هـمـ لـهـاـ عـاـمـلـوـنـ أـنـ يـقـولـواـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ إـنـاـ كـنـاـ عـنـ هـذـاـ غـافـلـيـنـ ثـمـ رـدـهـمـ فـيـ صـلـبـ آـدـمـ فـأـهـلـ الـجـنـةـ أـهـلـهـاـ ، وـأـهـلـ النـارـ أـهـلـهـاـ .

فـقـالـ قـائـلـ : يـاـ رـسـوـلـ اللهـ فـمـاـ الـأـعـمـالـ ؟ فـقـالـ : يـعـمـلـ كـلـ قـوـمـ مـنـازـلـهـمـ . فـقـالـ عمرـ بنـ الخطـابـ : إـذـاـ نـجـتـهـ .

أـقـوـلـ : قـولـهـ ﷺ « وـعـرـشـهـ عـلـىـ الـمـاءـ » كـنـايـةـ عـنـ تـقـدـمـ أـخـذـ مـيـشـاقـ ، وـلـيـسـ اـمـرـادـ بـهـ تـقـدـمـ خـلـقـ الـأـرـوـاحـ عـلـىـ الـأـجـسـادـ زـمـانـاـ فـإـنـ عـلـيـهـ مـنـ إـشـكـالـ مـاـ عـلـىـ عـالـمـ الـذـرـ بـالـمـعـنىـ الـذـيـ فـهـمـهـ جـمـهـورـ الـمـبـتـيـنـ ، وـقـدـ تـقـدـمـ .

وـقـولـهـ ﷺ « يـعـمـلـ كـلـ قـوـمـ مـنـازـلـهـمـ » أـيـ إـنـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ الـمـنـزـلـيـنـ يـحـتـاجـ

إلى أفعال تناسبه في الدنيا فإن كان العامل من أهل الجنّة عمل الخير لحالته ، وإن كان من أهل النار عمل الشر لحالته ، والدعوة إلى الجنّة وعمل الخير لأنّ "عمل الخير يعيّن منزله في الجنّة ، وأنّ "عمل الشر" يعيّن منزله في النار لحالته كما قال تعالى : «ولكل وجهة هو مولىها فاستبقوا الخيرات » البقرة : ١٤٨ .

فلم يمنع تعين الوجهة عن الدعوة إلى استبقاء الخيرات ، ولا منافاة بين تعين السعادة والشقاوة بالنظر إلى العمل التامة وبين عدم تعينها بالنظر إلى اختيار الإنسان في تعين عمله فإنه جزء العلّة ، وجزء علة الشيء لا يتعين معه وجود الشيء ولا عدمه بخلاف تمام العلّة ، وقد تقدّم استيفاء هذا البحث في موارد من هذا الكتاب ، وأخرها في تفسير قوله تعالى : « كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلال » الأعراف : ٣٠ ، وأخبار الطينة المعتقدة من أخبار هذا الباب بوجه .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : « وإذ أخذ ربك من بني آدم » الآية قال : خلق الله آدم وأخذ ميشاقه أنه ربّه ، وكتب أجله ورزقه ومصيته ثم أخرج ولده من ظهره كهيئه الذرّ فأخذ مواثيقهم أنه ربّهم ، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم .

أقول : وقد روی هذا المعنى عن ابن عباس بطرق كثيرة في ألفاظ مختلفة لكن الجميع تشترك في أصل المعنى ، وهو إخراج ذريّة آدم من ظهره وأخذ ميشاق منهم . وفيه أخرج ابن عبد البر في التمهيد من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرّة الهمданى عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّاتهم » .

قالوا : لما أخرج الله آدم من الجنّة قبل تهبيطه من السماء مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه ذريّة بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئه الذرّ فقال لهم : ادخلوا الجنّة برحمتي ، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذريّة سوداء كهيئه الذرّ فقال : ادخلوا النار ولا أبالي بذلك قوله : « أصحاب اليمين وأصحاب الشمال » .

ثم أخذ منهم ميشاق فقال : ألسنت برككم قالوا بلى فاعطاه طائفة طائفة طائفة ، وطائفة

كارهين على وجه التقى ف قال هو والملائكة : شهدنا أن يقولوا يوم القيمة إنّا كنّا عن هذا غافلين أو يقولوا إنّما أشرك آباءنا من قبل .

قالوا : فليس أحد من ولد آدم إلّا وهو يعرف الله أئمّة ربّه وذلك قوله عزّ وجلّ : «وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً» ، وذلك قوله : «فلله الحجّة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» يعني يوم أخذ الميثاق .

أقول : وقد روي حديث الدرر كما في الرواية موقوفة وموصولة عن عدد من أصحاب رسول الله عليه السلام كعبتي عبا ، وابن عباس ، وعمرو بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر ، وسلمان ، وأبي هريرة ، وأبي أمامة ، وأبي سعيد الخدري ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن قتادة ، وأبي الدرداء ، وأنس ، ومعاوية ، وأبي موسى الأشعري .

كماروي من طرق الشيعة عن عليٍّ وعليٍّ بن الحسين و محمد بن عليٍّ و جعفر بن محمد والحسن بن عليٍّ العسكري ، ومن طرق أهل السنة أيضاً عن عليٍّ بن الحسين و محمد بن عليٍّ و جعفر بن محمد بطرق كثيرة فليس من بعيد أن يدعى تواته المعنوي .

وفي الدرر المنشور أيضاً أخرج ابن سعد وأحمد عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي وكان من أصحاب رسول الله عليه السلام قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . فقال رجل : يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على موضع القدر .

أقول : القول في ذيل الرواية نظير القول في ذيل رواية أبي أمامة المتقدمة ، وقد فهم الرجل من قوله «هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي» (الخبر) سقوط الاختيار ، فأجابه عليه السلام بأنّ هذا قدر منه تعالى وأنّ أعمالنا في عين أنّا نعملها وهي منسوبة إلىنا تقع على ما يقع عليه القدر فتنطبق على القدر وينطبق هو عليها ، وذلك لأنّ الله قادر ما قدر من طريق اختيارنا فنعمل نحن باختيارنا ، ويقع مع ذلك ما قدره الله سبحانه لأنّه تعالى أبطل بالقدر اختيارنا ، وبقي تأثير إراداتنا والروايات بهذه المعنى كثيرة .

و في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمر عن ابن أذينة عن زراة عن أبي جعفر عليهما السلام قال : سأله عن قول الله عز وجل : « حنفاء غير مشركين » قال : الحنفية من الفطرة التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله قال : فطهرهم على المعرفة به .

قال زراة : و سأله عن قول الله عز وجل : « وإن أخذ ربكم من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنتكم قالوا بلى » الآية قال : أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيمة فخر جوا كالذر فعمرهم وأراهم نفسه ، ولو لا ذلك لم يعرف أحد ربه .

و قال : قال رسول الله عليهما السلام : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بـأن الله عز وجل خالقه ، كذلك قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنـ الله .

أقوال : وروى وسط الحديث العيسائي في تفسيره عن زراة بعين اللفظ ، وفيه شهادة على ما تقدم من تقرير معنى الإشهاد والخطاب في الآية خلافاً لما ذكره النافون أن المراد بذلك المعرفة بالآيات الدالة على ربوبيته تعالى لجميع خلقه .

وقد روی الحديث في المعانی بالسند بعینه عن زراة عن أبي جعفر عليهما السلام إلا أنه قال : فعمرهم وأراهم صنعه بدل قوله : فعمرهم وأراهم نفسه ، ولعله من تغيير اللفظ قصداً للنقل بمعنى زعمـاً أنـ ظاهر اللفظ يوهم التجسم ، وفيه إفساد اللفظ و المعنى جميعـاً ، وقد عرفـتـ أنـ الروایة مرویـة في الكافي وتفسیر العيسائيـ بلطفـ : أراهم نفسه .

وتقدم في حديث ابن مسكان عن الصادق عليهما السلام قوله : قلتـ معـاينـةـ كانـ هـذاـ ؟ـ قالـ : نـعـمـ .ـ وـقـدـ تـقـدـمـ أـنـ لـاـ اـرـتـبـاطـ لـلـكـلامـ بـمـسـأـلـةـ التـجـسـمـ .

وفي المحسن عن الحسن بن علي بن فضال عن ابن بكير عن زراة قال : سأله أبا عبد الله عليهما السلام عن قول الله : « وإن أخذ ربكم » الآية قال : ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف ، ويدركونه يوماً ، ولو لا ذلك لم يدر أحد من خلقه ورافقه .

و في الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليهما السلام قال : كانـ عليـ بنـ الحسينـ عليهما السلامـ لاـ يـرىـ

بالعزل بأساً ، يقرء هذه الآية : و إذ أخذ ربكم من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت ربكم قالوا بلى » فكل شيء أخذ الله من الميثاق فهو خارج وإن كان على صخرة صماء .

أقول : ورواه في الدر المنشور عن ابن أبي شيبة وابن جرير عنه عليه السلام ، وروى هذا المعنى أيضاً عن سعيد بن منصور وابن مardonio عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلوات الله عليه .
واعلم أنّ الروايات في الدر كثيرة جداً وقد تركتنا إيراد أكثرها لوفاء ما أوردنا من ذلك بمعناها ، وهنا روايات أخرى فيأخذ الميثاق عن النبي عليه السلام وسائل الآنباء عليه السلام سنوردتها في محلها إن شاء الله تعالى .



* * *

وَأَقْلَى عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ
مِنَ الْغَافِلِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
فَمُشَلِّهُ كَمَثَلِ الْكَلَبِ إِنْ تَجْعَلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَقْرَكِهِ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعْنَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَهْلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِي اللَّهَ فَهُوَ الْمُهْتَدِي
وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَانَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسَنِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذْانٌ لَا
يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) .

﴿بيان﴾

قصة أخرى من قصصبني إسرائيل وهي نبأ بلעם بن باعورا أمر الله نبيه عليه السلام أن يتلوه عليهم يتبيّن به أن مجرد الاتصال بالأسباب الظاهرة العادلة لا يكفي في فلاح الإنسان وتحقيق السعادة له ما لم يشاء الله ذلك ، وأن الله لا يشاء ذلك من أخلد إلى الأرض واتبع هواه فإن مسيره إلى النار ثم يذكر آية ذلك فيهم وهي أنهم لا يستعملون قلوبهم وأبصارهم وآذانهم فيما ينفعهم ، والآية الجامعة أنهم غافلون .

قوله تعالى : « وَأَتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا » إلى آخر الآية معنى إيتاء الآيات على ما يعطيه السياق التلبّس من الآيات الأنفسية والكرامات الخاصة الباطنية بما يتتوّر به طريق معرفة الله له ، وينكشف له ما لا يبقى له معه ريب في الحق والإسلام خروج الشيء وانتزاعه من جلده ، وهو كناية استعارية عن أن الآيات كانت

لزومها لزوم الجلد فخرج منها لخبث في ذاته ، والإِتَّبَاعُ كالتبغ والِإِتَّبَاعُ التعقيب واقتداء الآخر يقال : تبع وأتبع واتبع ، والكلّ بمعنى واحد ، والغيّ والغاية هي الضلال ، كأنّه الخروج من الطريق للقصور عن حفظ المقصود الذي يوصل إِلَيْهِ الطريق فيه نسيان المقصود والغاية ، فالمتحير في أمره وهو في الطريق غويّ ، والخارج عن الطريق وهوذا كر مقصده ضالّ ، وهو الأنسب مورد الآية فإنّ صاحب النباء بعد ما انسلخ عن آيات الله وأتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكّن من إنجاء نفسه عن ورطة الهلاك ، وربما استعمل كلّ من الغواية والضلال في معنى واحد ، وهو الخروج عن الطريق الموصى إلى الغاية .

وقد اختلف المفسرون في تعين من هو صاحب النباء في هذه الآية على أقوال مختلفة سنشير إلى جلّها أو كلّها في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله .
والآية - كما ترى - أبهمت اسمه واقتصرت على الإشارة إلى إهمال قصته لكنّها مع ذلك ظاهرة في أنّه نبأً واقع لا مجرّد تمثيل فلا وقع لقول من قال : إنّها مجرّد تمثيل من غير نبأ واقع .

والمعنى : « واتل عليهم » أي علىبني إسرائيل أو على الناس خبراً عن أمر عظيم وهو « نبأ » الرجل « الذي آتيناه آياتنا » وكشفنا لباطنه عن علامٍ وآثارٍ همّية عظام يتنوّر له بها حقّ الأمر « فانسلخ منها » ورفقها بعد لزومها « فأتبّعه الشيطان فكان من الغاوين » فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك .

قوله تعالى : « ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » الآية الإِخْلَادُ الْلَّزُومُ على الدوام ، والإِخْلَادُ إلى الأرض المتصوّق بها ، وهو كناية عن امليء إلى التمتع بمالاً الدنيا وترامها : والله أعلم الكلب أن يدلّع لسانه من العطش .

فقوله : « ولو شئنا لرفعناه بها » أي لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات وفرّ بناء إلينا لأنّ في القرب إلى الله ارتقاً عن حضيض هذه الدنيا التي هي بماليها من اشتغال الإنسان بنفسها عن الله وآياته أسفل سافلين ، ورفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهيّة ظاهرية تفيد اهتماء من تلبّس بها لكنّها لا تتحمّل السعادة لإنّها تمام تأثيرها في ذلك منوط

بمشيئة الله ، والله سبحانه لا يشاء ذلك من أعرض عنه وأقبل إلى غيرها . وهي الحياة الأرضية اللاهية عن الله ودار كرامته فإن الإعراض عن الله سبحانه وتكذيب آياته ظلم ، وقد حق القول منه سبحانه أنه لا يهدي القوم الظالمن ، وأن الذين كفروا وکذّبوا آياته أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

ولذلك عقب تعالى قوله : « ولو شئنا لرفعناه بها » بقوله : « لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » فالتقدير : لكننا لم نشأ ذلك لأنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، وكان ذلك مورداً لإضلالنا لا لهدايتنا كما قال تعالى : « ويضل الله الظالمن وي فعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ .

وقوله : « فمثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهمت أو تركه يلهمت » أي إنّه ذو هذه السجية لا يتم كهاسواه زجره ومنعه أو تركته و « تحمل » من الحملة لا من الحمل « ذلك مثل الذين كذّبوا آياتنا » فالتكذيب منهم سجية وهيبة نفسانية خبيثة لازمة فلا تزال آياتنا تتذكر على حواسهم و يتذكر التكذيب بها منهم « فاقصص القصص » وهو مصدر أي اقصص قصصاً أو اسم مصدر أي اقصص القصة لعلهم يتذكرون « فينقادوا للحق » وينتزعوا عن الباطل .

قوله تعالى : « ساء مثلاً القوم الذين كذّبوا آياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » ذم لهم من حيث وصفهم ، وإعلام لهم أنّهم لا يضرّون شيئاً في تكذيب آياته بل ذلك ظلم منهم لأنفسهم إذ لا يستضرّ بذلك غيرهم .

قوله تعالى : « من يهدي الله فهو المهتدى ومن يضلّل فـ أولئك هم الخاسرون » اللام في « المهتدى » و « الخاسرون » يفيد الكمال دون الحصر ظاهراً ، ومفاد الآية أنّ مجرّد الاهتمام إلى شيء لا ينفع شيئاً ولا يؤثّر أثراً الاهتمام إلا إذا كانت معه هداية الله سبحانه فهي التي يكمل بها الاهتمام ، وتحتم معها السعادة ، وكذلك مجرّد الضلال لا يضرّ ضرراً قطعياً إلا بانضمام إضلال الله سبحانه إليه فعند ذلك يتمّ أثره ، وتحتم الخسران .

فمجرّد اتصال الإنسان بأسباب السعادة كظاهر الإيمان والتقوى وتلبّسه بذلك

لا يورده مورد النجاة ، وكذلك اتصاله وتلبسـه بأسباب الضلال لا يورده مورد الهلاك والخسران إلـا أن يشاء الله ذلك فيهدـي بمشيـته من هـدى ، ويـضلـ بها من أـضلـ .
فيـؤول المعنى إلـى أن الـهـداـيـة إـنـمـا تـكـوـن هـدـاـيـة حـقـيقـيـة تـرـتـبـ عـلـيـها آـثـارـهـا إـذـا كـانـت لـهـ فـيـهـا مـشـيـةـ ، إـلـاـ فـيـهـي صـورـةـ هـدـاـيـةـ وـلـيـسـ بـهـا حـقـيقـةـ ، وـكـذـكـ الـأـمـرـ فـيـ الـإـضـالـ ، وـإـنـ شـيـئـ قـفـلـ : إـنـ الـكـلـامـ يـدلـ عـلـى حـصـرـ الـهـداـيـةـ الـحـقـيقـيـةـ فـيـ اللـهـ سـبـحـانـهـ ، وـكـذـكـ الـإـضـالـ ، وـلـاـ يـضـلـ بـهـ إـلـاـ الـفـاسـقـينـ .

قوله تعالى : « ولقد ذرـاـنـا لـجـهـنـمـ كـثـيرـاـ مـنـ الجـنـ وـالـإـنـسـ » إـلـىـ آخرـ الـآـيـةـ
الـذـرـهـ هوـ الـخـلـقـ ، وـقـدـ عـرـفـ اللـهـ سـبـحـانـهـ جـهـنـمـ غـاـيـةـ لـخـلـقـ كـثـيرـ مـنـ الجـنـ وـالـإـنـسـ ، وـلـاـ يـنـافـيـ
ذـلـكـ ماـ عـرـفـ فـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ أـنـ الـغـاـيـةـ لـخـلـقـ الـخـلـقـ هيـ الرـحـمـةـ وـهـيـ الـجـنـةـ فـيـ الـآـخـرـةـ
كـوـلـهـ تـعـالـىـ : « إـلـاـ مـنـ رـحـمـ رـبـكـ وـلـذـكـ خـلـقـهـمـ » هـودـ : ١١٩ـ فـإـنـ الغـرـضـ يـخـتـلـفـ مـعـنـاهـ
بـحـسـبـ كـمـاـلـ الـفـعـلـ وـنـهـاـيـةـ الـفـعـلـ الـتـيـ يـنـتـهـيـ إـلـيـهـاـ .

بيان ذلك أنـ النـجـارـ إـذـ أـرـادـ أـنـ يـصـنـعـ بـاـبـاـ عـمـدـ إـلـىـ أـخـشـابـ يـهـيـهـ وـهـاـ لـهـ ثـمـ هـنـدـسـةـ
فـيـهـاـ ثـمـ شـرـعـ فـيـ النـشـرـ وـالـنـحـتـ وـالـخـرـطـ حـتـىـ أـتـمـ الـبـابـ فـكـمـاـلـ غـرـضـهـ مـنـ إـيـقـاعـ الـفـعـلـ
عـلـىـ تـلـكـ الـخـشـبـاتـ هـوـ حـصـولـ الـبـابـ لـاـغـيرـ ، هـذـاـ مـنـ جـهـةـ وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـىـ هـوـ يـعـلـمـ مـنـ
أـوـلـ الـأـمـرـ أـنـ جـمـيعـ أـجـزـاءـ تـلـكـ الـخـشـبـاتـ لـيـسـ تـصـلـحـ لـأـنـ تـكـوـنـ أـجـزـاءـ لـلـبـابـ فـإـنـ
لـلـبـابـ هـيـةـ خـاصـةـ لـاـجـمـعـ هـيـةـ الـخـشـبـاتـ ، وـلـاـ بـدـ فـيـ تـغـيـيرـ هـيـنـتـهـاـ مـنـ ضـيـعـةـ بـعـضـ الـأـجـزـاءـ
لـخـرـوجـهـاـ عـنـ هـنـدـسـةـ الـعـلـمـ فـصـيـرـوـرـةـ هـذـهـ الـأـبـعـاضـ فـضـلـةـ يـرـمـيـ بـهـاـ إـخـلـةـ فـيـ قـصـدـ الصـانـعـ
مـرـادـهـ لـهـ بـإـرـادـةـ تـسـمـيـ قـصـدـاـ ضـرـوريـاـ فـلـلـنـجـارـ فـيـ صـنـعـ الـبـابـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـأـخـشـابـ
الـتـيـ بـيـنـ يـدـيـهـ نـوـعـانـ مـنـ الـغـاـيـةـ : أـحـدـهـاـ الـغـاـيـةـ الـكـمـالـيـةـ وـهـيـ أـنـ يـصـنـعـ مـنـهـاـ بـاـبـاـ ،
وـالـثـانـيـ الـغـاـيـةـ الـتـابـعـةـ وـهـيـ أـنـ يـصـنـعـ بـعـضـهـاـ بـاـبـاـ وـيـجـعـلـ بـعـضـهـاـ فـضـلـةـ لـاـ يـنـتـفـعـ بـهـاـ وـضـيـعـةـ
يـرـمـيـ بـهـاـ ، وـذـلـكـ لـعـدـمـ اـسـتـعـادـهـ تـلـبـسـ صـورـةـ الـبـابـ .

وـكـذـاـ الـزـارـعـ يـزـرـعـ أـرـضاـ لـيـحـصـدـ قـمـحاـ فـلـاـ يـخـلـصـ لـذـكـ إـلـىـ يـوـمـ الـحـصـادـ إـلـاـ بـعـضـ
مـاـ صـرـفـهـ مـنـ الـبـنـرـ ، وـبـذـهـبـ غـيـرـهـ سـدـيـ يـضـيـعـ فـيـ الـأـرـضـ أـوـ تـفـسـدـ الـهـوـامـ أـوـ يـخـصـفـهـ الـمـواـشـيـ
وـالـجـمـيعـ مـقـصـودـةـ لـلـزـارـعـ مـنـ وـجـهـ ، وـالـمـحـصـولـ مـنـ الـقـمـحـ مـقـصـودـ مـنـ وـجـهـ آـخـرـ .

وقد تعلّق المشيّة الإلهيّة أن يخلق من الأرض إنساناً سوياً يعبده ويدخل بذلك في رحمته، واختلاف الاستعدادات المكتسبة من الحياة الدنيويّة على ما لها من مختلف التأثيرات لا يدع كل فرد من أفراد هذا النوع أن يجري في مجرأ الحقيقى ويسلك سبيل النجاة إلّا من وفق له ، وعند ذلك تختلف الغaiات وصح "أنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ غَايَةٌ" في خلقة إلا إنسان مثلاً وهو أن يشملهم برحمته ويدخلهم جنته ، وصح "أنَّ لَهُ غَايَةٌ" في أهل الخسران والشقاوة من هذا النوع وهو أن يدخلهم النار وقد كان خلقهم للجنة غير أنَّ الغاية الأولى غاية أصلية كمالية ، والغاية الثانية غاية تبعية ضروريّة ، والقضاء الإلهي المتعلق بسعادة من سعد وشقاوة من شقي ناظر إلى هذا النوع الثاني من الغاية فإنه تعالى يعلم ما يؤول إليه حال الخلق من سعادة أو شقاء فهو مرید لذلك بارادة تبعية لا أصلية .

وعلى هذا النوع من الغاية ينزل قوله تعالى: « ولقد زرنا لجهنم كثيراً من الجنَّ والإِنْسَ » وما في هذا المنساق من الآيات الكريمة وهي كثيرة .

وقوله : « لهم قلوبٌ لا يفهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها » إشارة إلى بطلان استعدادهم للوقوع في مجرى الرحمة الإلهيّة ، والوقوف في مهب النفحات الربانية ، فلا ينفعهم ما يشاهدونه من آيات الله ، وما يسمعونه من مواعظ أهل الحق ، وما تلقّنه إليهم فطرتهم من الحجّة والبيّنة .

ولا يفسد عقل ولا عين ولا أذن في عمله وقد خلقها الله لذلك وقد قال : « لا تبديل لخلق الله » الروم : ٣٠ إلّا أن يكون الذي يغيّره هو الله سبحانه فيكون من جملة الخلق لكنه سبحانه لا يغيّر ما أنعمه على قوم حتى يغّيروا ما بأنفسهم قال تعالى « ذلك لأنَّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغّيروا ما بأنفسهم » الأنفال : ٥٣ .

فالّذى أبطل ما عندهم من الاستعداد ، وأفسد أعمال قلوبهم وأعينهم وآذانهم هو الله سبحانه فعل بهم ما فعل جزاءً بما كسبوا نكلاً فهم غيروا نعمة الله بتغيير طريق العبودية فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم فلا يفهون بها ، وجعل الغشاوة على أبصارهم فلا يبصرون بها ، والوقر على آذانهم فلا يسمعون بها فهذه آية أنهم هسرون إلى النار .

وقوله : «أُولئك كالأنعام بل هم أضل» ، نتيجة ما تقدم ، وبيان لحالهم فـ ^{فـ}نـ هـمـ قـدـوـاـ ما يـتـميـزـ بـهـ الـإـنـسـانـ مـنـ سـائـرـ الـحـيـوـانـ ، وـهـوـ تـمـيـزـ الـخـيـرـ وـالـشـرـ وـالـنـافـعـ وـالـضـارـ بالـنـسـبـةـ إـلـىـ الـحـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ السـعـيـدةـ مـنـ طـرـيقـ السـمـعـ وـالـبـصـرـ وـالـفـؤـادـ .

وـإـنـسـاـنـاـشـبـهـوـاـ مـنـ بـيـنـ الـحـيـوـانـ الـعـجـمـ بـالـأـنـعـامـ مـعـ أـنـ فـيـهـمـ خـصـالـ السـبـعـ الـضـارـيـةـ وـخـصـائـصـاـ كـخـصـالـ الـأـنـعـامـ الـرـاعـيـةـ ، لـأـنـ تـمـتـعـ بـالـأـكـلـ وـالـسـفـادـ أـقـدـمـ وـأـسـبـقـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ الطـبـعـ الـحـيـوـانـيـ فـجـلـبـ النـفـعـ أـقـدـمـ مـنـ دـفـعـ الـضـرـ ، وـمـاـ فـيـ الـإـنـسـانـ مـنـ القـوـىـ الدـافـعـةـ الـغـضـيـيـةـ مـقـصـودـةـ لـأـجـلـ مـاـ فـيـهـ مـنـ القـوـىـ الـجـاذـبـةـ الشـهـوـيـةـ ، وـغـرـضـ النـوـعـ بـحـسـبـ حـيـاتـهـ الـحـيـوـانـيـ يـتـعـلـقـ أـوـ لـأـنـ بـالـتـغـذـيـ وـالـتـولـيدـ ، وـيـتـحـفـظـ عـلـىـ ذـلـكـ بـأـعـمـالـ الـقـوـىـ الدـافـعـةـ فـالـآـيـةـ تـبـرـيـ مـجـرـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : «وـالـذـينـ كـفـرـوـاـ يـتـمـتـعـونـ وـيـأـكـلـونـ كـمـاـ يـأـكـلـ الـأـنـعـامـ وـالـنـارـ مـثـوىـ لـهـمـ» سـوـرـةـ سـعـيـدـ : ١٢ـ .

وـأـمـاـ كـوـنـهـمـ أـكـثـرـ أـوـ أـشـدـ ضـلـالـاـ مـنـ الـأـنـعـامـ ، وـلـازـمـهـ ثـبـوتـ ضـلـالـ مـاـ فـيـ الـأـنـعـامـ فـلـأـنـ الضـلـالـ فـيـ الـأـنـعـامـ نـسـبـيـ غـيرـحـقـيقـيـ فـاـنـهـ مـهـتـدـيـةـ بـحـسـبـ مـاـ لـهـ مـنـ القـوـىـ الـمـرـكـبـةـ الـبـاعـثـةـ لـهـ إـلـىـ قـصـرـ الـهـمـةـ فـيـ الـأـكـلـ وـالـتـمـتـعـ غـيرـضـالـةـ فـيـمـاـ هـيـشـتـ لـهـ مـنـ سـعـادـةـ الـحـيـاةـ وـلـاـ مـسـتـحـقـقـةـ لـلـذـمـ فـيـمـاـ أـخـلـدـتـ إـلـيـهـ ، وـإـنـسـاـنـ تـعـدـ ضـالـلـةـ بـقـيـاسـهـاـ إـلـىـ السـعـادـةـ الـإـنـسـانـيـةـ الـتـيـ لـيـسـ لـهـاـ وـلـاـ جـهـزـتـ بـمـاـ تـتوـسـلـ بـهـ إـلـيـهـاـ .

وـأـمـاـ هـوـلـاهـ الـمـطـبـوـعـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ وـأـعـيـنـهـمـ وـأـذـانـهـمـ فـالـسـعـادـةـ سـعـادـهـمـ وـهـمـ مـجـهـزـوـنـ بـمـاـ يـوـصـلـهـمـ إـلـيـهـاـ وـيـدـلـهـمـ عـلـيـهـاـ مـنـ السـمـعـ وـالـبـصـرـ وـالـفـؤـادـ لـكـنـهـمـ أـفـسـدـوـهـاـ وـضـيـعـواـ أـعـمـالـهـاـ وـنـزـلـوـهـاـ مـنـزـلـةـ السـمـعـ وـالـبـصـرـ وـالـقـلـبـ الـتـيـ فـيـ الـأـنـعـامـ ، وـاستـعـمـلـوـهـاـ فـيـمـاـ تـسـتـعـمـلـهـاـ فـيـهـ الـأـنـعـامـ وـهـوـ التـمـتـعـ مـنـ لـذـائـذـ الـبـطـنـ وـالـفـرـجـ فـهـمـ أـكـثـرـ أـوـ أـشـدـ ضـلـالـاـ مـنـ الـأـنـعـامـ ، وـإـلـيـهـمـ يـعـودـ الذـمـ .

وـقـوـلـهـ : «أُولـئـكـ هـمـ الـغـافـلـوـنـ» نـتـيـجـةـ وـبـيـانـ حـالـ أـخـرـىـ لـهـمـ وـهـوـ أـنـ حـقـيقـةـ الـغـفـلـةـ هـيـ الـتـيـ تـوـجـدـ عـنـهـمـ فـاـنـهـ بـمـشـيـةـ الـلـهـ سـبـحـانـهـ ، أـلـبـسـهـمـ إـيـسـاـمـ بـالـطـبـعـ الـذـيـ طـبـعـ بـهـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ وـأـعـيـنـهـمـ وـأـبـصـارـهـمـ وـالـغـفـلـةـ مـادـةـ كـلـ ضـلـالـ وـبـاطـلـ .

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وائل عليهم بنا الذي آتيناه آياتنا » الآية قال : حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام : أنه أعطي بلעם ابن باعورا الاسم الأعظم ، وكان يدعوه . فيستجيب له فمال إلى فرعون فلما مرّ فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلעם : ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا فركب حمارته لمير في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضر بها فأنطقها الله عز وجل قالت : ويلك على ماذا تضربني ؟ أتريد أن أجيء معك لتدعوا على نبي الله وقوم مؤمنين ؟ ولم ينزل يضر بها حتى قتلها فانسلخ الاسم من لسانه ، وهو قوله : « فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهم أو تتركه يلهم أو تضره الله .

أقول : قوله عليه السلام : « وهو مثل ضربه الله » الظاهر أنه يشير إلى نباء بلעם ، وسيجيئ الكلام في معنى الاسم الأعظم في الكلام على الأسماء الحسنى إن شاء الله .

وفي الدر المنشور أخرج الفريابي وعبدالرزاق وعبد بن حميد والنسياني وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبدالله بن مسعود في قوله : « وائل عليهم بنا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له : بلעם بن أبو .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبوالشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلעם بن باعوراء - وفي لفظ : بلعام بن عامر - الذي أُتي الاسم كان في بنى إسرائيل .

أقول : وقد روی كون اسمه بلعم وكونه من بنى إسرائيل عن غير ابن عباس ، وروي عنه غير ذلك .

(١) فيستجاب بخ ظ .

و في روح المعاني عند ذكر القول بأنّ الآية نزلت في أميّة بن أبي الصلت الثقفي الشاعر : إنّه كان قراء الكتب القديمة و علم أنّ الله تعالى يرسل رسولاً ، فرجاً أن يكون هو ذلك الرسول فاتّفق أن خرج إلى البحرين و تنبأ رسول الله ﷺ فأقام هناك ثمانين سنين ثمّ قدم فلقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه فدعاه إلى الإسلام ، و قرأ عليه سورة يس حتّى إذا فرغ منها و ثبّأميّة يجرّ رجله فتبعه قريش يقول : ما تقول يا أميّة ؟ قال : حتّى أنظر في أمره .

فخرج إلى الشام و قدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم فلماً أُخْبِرَ بها ترك الإسلام
وقال : لو كان نبيّاً ما قتل ذوي قرابته فذهب إلى الطائف و مات به .
فأثّرت أخته الفارعة إلى رسول الله ﷺ فسألها عن وفاته فذكّرت له أنه أنسد

عند موته :

كلّ عيش و إن تطاول دهراً * صائر مرّة إلى أن يزولاً
ليتنى كنت قبل ما قد بدالي * في قلال الجبال أرعى الوعلا
إنّ يوم الحساب يوم عظيم * شاب فيه الصغير يوماً ثقيلاً
ثمّ قال صلّى الله عليه وسلم لها أنشدني من شعر أخيك فأنشدت له :
لثك الحمد والنعماء والفضل ربنا * ولا شيء أعلى منك جداً وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن * لعزّته تعنو الوجوه وتسجد
من قصيدة طويلة أتت على آخرها .

ثم أنشدته قصيدة التي يقول فيها :

وقف الناس للحساب جميعاً
вшقي معذّب و سعيد

والتي فيها :

عند ذي العرش يعرضون عليه * يعلم الجهر و السرار الخفيّا
يوم يأتي الرحمان وهو رحيم * إنّه كان وعده مائياً
ربّ إن تعف فالمغفارة ظنّي * أو تعاقب فلم تعاقب بريّاً
فقال رسول الله ﷺ : إنّ أخاك آمن شعره ، و كفر قلبه وأنزل الله تعالى الآية .

أقول : و القصّة مجموّعة من عدّة روايات ، وقد ذكر في المجمع إيجاز القصّة و ذكر أنّ نزول الآية فيه مروي عن عبد الله بن عمر و سعيد بن المسيب و زيد بن أسلم و أبي روق ، والظاهر أنّ الآيات مكثّة نزلت بنزول السورة بمكّة ، وما ذكره من باب التطبيق .

وفي المجمع : و قيل إنّه أبو عامر بن النعمان بن صيفي الراهن الذي سماه النبي ﷺ « الفاسق » وكان قد ترهّب في الجاهلية و لبس المسوح فقدم المدينة فقال للنبي ﷺ : ما هذا الذي جئت به ؟ قال : جئت بالجنيفية دين إبراهيم قال : فأنا عليها فقال ﷺ : لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ماليس منها قال أبو عامر : أمّات الله الكاذب منّا وحيداً طريداً .

فخرج إلى أهل الشام ، و أرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح ثمّ أتى قيس و أتى بجند ليخرج النبي ﷺ من المدينة فمات بالشام وحيداً طريداً . عن سعيد ابن المسيب .

أقول : و إشكال كون السورة مكثّة في مكّة ، و قد روی في ذلك قصص لاجدوی في استقصائها .

و فيه قال أبو جعفر ع : الأصل في ذلك بلעם ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواء على هدى الله من أهل قبلة .

و في تفسير القمي : في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ع في قوله : « لهم قلوب لا يفهون بها » يقول : طبع الله عليها فلا تعقل « و لهم أعين » عليها غطاء عن الهدى « لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » أي جعل في آذانهم و فرآ فلن يسمعوا الهدى .

و في الدر المنشور أخرج البهقي في الأسماء و الصفات عن عبد الله بن عمر و بن العاصي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدى . و من أخطأ ضلّ .

و فيه أخرج الحكيم الترمذى و ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان و أبويعلى و ابن

أبي حاتم و أبوالشيخ و ابن مردوه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و سلم خلق الله الجن " ثلاثة أصناف : صنف حيّات و عقارب و خشاش الأرض ، و صنف كالريح في الهواء ، و صنف عليهم الحساب والعقاب . و خلق الله الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم قال الله : « لهم قلوب لا يفقرون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » و جنس أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين و صنف في ظل الله يوم لاظل إلا ظله .

أقول : وسيأتي الكلام في الجن و الشياطين من الإنس في مقام يناسبه إن

شاء الله تعالى .



* * *

وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْهَدوْنَ فِي أَسْمَائِهِ
 سِيَاجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِنْ خَلْقَنَا أَمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَيَهْدِ
 يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدِرُ جَهَنَّمَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)
 وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتَّيْنِ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِيهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ
 إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ
 اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْ افْتَرَبَ أَجْلَهُمْ فَبِإِيْ حَدِيثٍ بَعْدِهِ
 يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلُ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَلُونَ (١٨٦).

بيان

الآيات متصلة بما قبلها ، وهي بمنزلة تجديد البيان لما انتهى إليه الكلام في الآيات السابقة ، و ذلك أنَّ الهدى والضلال يدوران مدار دعوته تعالى بأسمائه الحسنة و إلا لحاد فيها ، والناس من منتحلهم وزنديفهم و عاملهم و جاهلهم لا يختلفون بحسب فطرتهم وباطن سريرتهم في أنَّ هذا العالم المشهود متكئ على حقيقة هي المقومة لأعيان أجزائها و الناظم نظامها ، وهو الله سبحانه الذي منه يبتده كلَّ شيء وإليه يعود كلَّ شيء الذي يفيض على العالم ما يشاهد فيه من بجال و كمال ، وهي له ومنه .

والناس في هذا الموقف على مالهم من الاتفاق على أصل الذات ثلاثة أصناف : صنف يسمونه بما لا يشتمل من المعنى إلا على ما يليق أن ينسب إلى ساحتته من الصفات المبينة للكمال ، أو النافية لكلَّ "نقص و شين" ، و صنف يلحدون في أسمائه ، و يعدلون بالصفات

الخاصة به إلى غيره كالماديّين والدهريّين الذين ينسبونخلق والإحياء والرّزق وغير ذلك إلى المادّة أو الدهر ، وكالوثنيّين النّاسبيّن الخير والنّفع إلى آلهتهم ، وكبعض أهل الكتاب حيث يصفون نبيّهم أو أولياء دينهم بما يختصّ به تعالى من الخصائص ، ويلحق بهم طائفة من المؤمنين حيث يعطون للأبابكرونيّة من الاستقلال في التأثير ما لا يليق إلا بالله سبحانه ، وصنف يؤمّنون به تعالى غير أنّهم يلحدون في أسمائه فيثبتون له من صفات النّقص والأفعال الدينية ما هو منزه عنه كالاعتقاد بأنّ له جسما ، وأنّ له مكانا ، وأنّ "الحوان" إمدادٍ يمكن أن تتعلق به على بعض الشرائط ، وأنّ له علمًا كعلومنا وإرادة كرادتنا وقدرة كقدرنا ، وأنّ لوجوده بقاءً زمانياً كبقاءنا ، وكنسبة الظلم في فعله أو الجهل في حكمه ونحو ذلك إليه ، فهذه جميعاً من الأحادي أسمائه .

ويرجع الأصناف الثلاثة في الحقيقة إلى صفين : صنف يدعونه بالأسماء الحسنى ويعبدون الله ذا الجلال والإكرام ، وهؤلاء هم المتيدين بالحق ، وصنف يلحدون في أسمائه ويسمون غيره باسمه أو يسمونه باسم غيره ، وهؤلاء أصحاب الضلال الذين مسّيرهم إلى النار على حسب حالهم في الضلال وطبقاتهم منه ، وقد يسّر الله سبحانه : أنّ الهدى من مطلقا فإنّها صفة جليلة وله تعالى حقيقتها ، وأما الضلال فلا ينسب إليه سبحانه أصله لأنّه بحسب الحقيقة عدم اهتداء المجل " بهداية الله ، وهو معنى عدمي " وصفة نقص وأما تشبيهه في المجل " بعد أوّل تتحققه ، وجعله صفة لازمة للمجل " بمعنى سلب التوفيق وقطع العطية الإلهية جزاء للضلال بما آثر الضلال على الهدى ، وكذب بآيات الله فهو من الله سبحانه ، وقد نسبه إلى نفسه في كلامه ، وذلك بالاستدراج والإملاء .

فالآيات تشير إلى أنّ ما انتهت إليه كلامه سبحانه أنّ حقيقة الهدى والإضلal من الله إنّما مغزاها وحقيقة معناه أنّ الأمر يدور مدار دعوته تعالى بالأسماء الحسنى وكلّها له ، وهو الاهتداء ، والإلحاد في أسمائه ، والنّاس في ذلك صنفان : مهتد بهداية الله لا يعدل بمغيّره ، وضلال منحرف عن أسمائه مكذب بآياته ، والله سبحانه يسوقهم إلى النار جزاء لهم بما كذبوا بآياته كما قال : « ولقد ذرنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس » الآية ، وذلك بالاستدراج والإملاء .

قوله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا » الاسم بحسب اللغة ما يدلّ به على الشيء سواء أفاد مع ذلك معنى وصفياً كاللفظ الذي يشار به إلى الشيء لدلالة على معنى موجود فيه ، أو لم يف إلّا الإشارة إلى الذات كزید و عمرو و خاصة المترجل من الأعلام ، و توصيف الأسماء بالحسنى - وهي مؤنث أحسن - يدلّ على أنّ المراد بها الأسماء التي فيها معنى و صفيّ دون مادلة لها إلّا على الذات المتعالية فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك ، ولا كلّ معنى و صفيّ ، بل المعنى الوصفيّ الذي فيه شيء من الحسن ، ولا كلّ معنى و صفيّ حسن بل ما كان أحسن بالنسبة إلى غيره إذا اعتبرنا مع الذات المتعالية : فالشجاع و العفيف من الأسماء الحسنة لكنهما لا يليقان بساحة قدسه لا نبأيهما عن خصوصية جسمانية لا يمكن سلبها عنهما ، ولو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقهما عليه كالجواد والعدل والرحيم .

فككون اسم مّا من أسمائه تعالى أحسن الأسماء أن يدلّ على معنى كمالٍ غير مخالط لنقص أو عدم ، مخالطة لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلك النقص والعدم وتصفيته ، و ذلك كلّ ما يستلزم حاجة أو عدماً و فقداً كالأجسام و الجسمانيات والأفعال المستحبعة أو المستشنعة والمعاني العدمية .

فهذه الأسماء بأجمعها محصول لغاتنا لم نضعها إلّا مصاديقها فيما هي لاتخلو عن شوب الحاجة والنقص غير أنّ منها مالا يمكن سلب جهات الحاجة والنقص عنها كالجسم واللون والمقدار وغيرها ، ومنها ما يمكن فيه ذلك كالعلم والحياة والقدرة فالعلم فيما إلا حاطة بالشيء من طريق أخذ صورته من الخارج بوسائل ماديّة ، والقدرة فيما المنشائية لل فعل بكيفيّة ماديّة موجودة لعضلاتنا ، والحياة كوننا بحيث نعلم ونقدر بما لنا من وسائل العلم والقدرة وهذه لاتليق بساحة قدسه غير أنّا إذا جرّدنا معانيها عن خصوصيات المادة عاد العلم هو إلا حاطة بالشيء بحضوره عنده ، والقدرة هي المنشائية للشيء بما يجاهد ، والحياة كون الشيء بحيث يعلم وينقدر ، وهذه لامانع من إطلاقها عليه لأنّها معان كمالية خالية عن جهات النقص وال الحاجة ، وقد دلّ العقل والنفل أنّ كلّ صفة كمالية فهي له تعالى وهو المفيس لها على غيره من غير مثال سابق فهو تعالى عالم قادر حيّ لكن لا كعلمنا وقدرتنا وحياتنا بل بما

يليق بساحة قدسه من حقيقة هذه المعاني الكمالية مجردة عن النهاص . وقد قدم الخبر في قوله : « ولله الأسماء الحسنی » وهو يفيد الحصر، وجيء بالأسماء محلّي باللام ، والجمع المحلّي باللام ، يفيد العموم ، ومقتضى ذلك أنَّ كلَّ اسم أحسن في الوجود فهو لله سبحانه لا يشار كـه فيه أحد ، و إـذ كان الله سبحانه ينسب بعض هذه المعاني إلى غيره ويسمّيه به كالعلم والحياة والخلق والرحمة فالمراد بكل منها الله كون حقيقتها له وحده لاشريك له .

و ظاهر الآيات بل نص بعضها يؤيد هذا المعنى كقوله : « أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ بِجَمِيعِهِ » البقرة : ١٦٥ . و قوله : « فَإِنَّ الْعَزَّةَ لِلَّهِ بِجَمِيعِهِ » النساء : ١٣٩ ، و قوله : « وَلَا يَحِيطُونَ شَيْءاً مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شاءَ » البقرة : ٢٥٥ ، و قوله : « هُوَ الْحَيُّ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ امْتَوْنَ : ٦٥ فَلَلَّهِ سُبْحَانَهُ حَقِيقَةُ كُلِّ اسْمٍ أَحْسَنُ لَا يُشَارِكُهُ غَيْرُهُ إِلَّا بِمَا مُلْكُهُمْ مِّنْهُ كَيْفَمَا أَرَادُ وَشَاءَ .

ويؤيد هذا المعنى ظاهر كلامه أينما ذكر أسماءه في القرآن كقوله تعالى : « اللَّهُ إِلَهُ إِلَّا هُوَ لِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى » طه : ٨ ، و قوله : « قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيْمَانًا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى » أسرى : ١١٠ ، و قوله : « لِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى يَسْبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » الحشر : ٢٤ فظاهر الآيات بجامعة كون حقيقة كلَّ اسم أحسن لله سبحانه وحده .

وما احتمله بعضهم أنَّ اللام في « الأسماء » للعهد مما لا دليل عليه ولا في القرآن الحافّة بالآيات ما يؤيده غير ما عهده القائل من الأخبار العادة للأسماء الحسنی ، وسيجيء الكلام فيها في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقوله : « فَادْعُوهُ بِهَا » إـمـا من الدعوة بمعنى التسمية كقولنا : دعوه زيداً ودعوه تكـأـباً عبد الله أي سمـيـته وسمـيـتك ، إـمـا من الدعوة بمعنى النداء أي نادوه بها فقولوا : يـا رـحـمان يـا رـحـيم وهكـذا . أو من الدعوة بمعنى العبادة أي فاعبدوه مذعنـين أنه متـصف بما يـدلـ عليه هذه الأـسـماء من الصـفاتـ الحـسـنةـ وـالـمعـانـيـ الجـمـيلـةـ .

وقد احتملوا جميع هذه المعاني غير أنَّ كلامه تعالى في مواضع مختلفة يذكر فيها

دعاء الرب يُؤيد هذا المعنى الأخير كما في الآية السابقة : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنی » و قوله : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » المؤمن : ٦٠ حيث ذكر أولاً الدعاء ثم بدأ له ثانياً بالعبادة إيماءً إلى اتحادهم ، و قوله : « ومن أضل من يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون و إذا احشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ ، و قوله « هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين » المؤمن : ٦٥ يريد إخلاص العبادة .

يريد ذيل الآية : « وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » بظاهره فإنه لو كان المراد بالدعاء التسمية أو النداء دون العبادة لكن الأنصب أن يقال : بما كانوا يصفون كما قال في موضع آخر : « سيجزيهم وصفهم » الأنعام : ١٣٩ . فمعنى الآية - والله أعلم - والله يحيى الأسماء التي هي أحسن فاعبده وتوجهوا إليه بها ، والتسمية والنداء من لواحق العبادة .

قوله تعالى : « وذروا الذين يلحدون في أسمائه » إلى آخر الآية . اللحد والإلحاد بمعنى واحد وهو التطرف والميل عن الوسط إلى أحد الجانين ، ومنه لحد القبر لكونه في جانبه بخلاف الضريح الذي في الوسط فقراءة يلحدون بفتح الياء من المجرّد ، ويلحدون بضم الياء من باب الإفعال بمعنى واحد ، ونقل عن بعض اللغويين : أن اللحد بمعنى الميل إلى جانب ، والإلحاد بمعنى الجدال والمماراة .

وقوله : « سيجزون » الآية بالفصل لأنّه بمنزلة الجواب لسؤال مقدّر كأنه مطّاقيل : « وذروا الذين يلحدون في أسمائه » قيل : إلى مَ يصير حالهم ؟ فأجيب : « سيجزون ما كانوا يعملون » وللبحث في الأسماء الحسنی بقایا ستوا فيك في كلام مستقل نورده بعد الفراغ عن تفسير الآيات إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « ومن خلقنا أمّة يهدون بالحق و به يעדلون » قد مر بعض ما يتعلّق به من الكلام في قوله تعالى : « ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق و به يعدلون » الآية ١٥٩ من السورة و تختص هذه الآية بأنّها لوقعها في سياق تقسيم الناس إلى ضال

ومهتد ، وبيان أنَّ الملاك في ذلك دعاؤه سبحانه بأحسن الأسماء الالائفة بحضرته والاتحاد في أسمائه ، تدلّ على أنَّ النوع الإنساني يتضمن طائفة قليلة أو كثيرة مهتديه حقيقة إذ الكلام في الاهتداء والضلال الحقيقين المستندين إلى صنع الله ، ومن يهدي الله فهو المهتدى ومن يضلل فـأولئك هم الخاسرون ، والاهتداء الحقيقى لا يكون إلا عن هداية حقيقة ، وهي التي لله سبحانه ، وقد تقدّم في قوله تعالى : «فَإِنْ يَكْفُرُ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلَّا بِهَا قَوْمًا لَيُسُوا بِهَا بَكَارِيْنَ» الأنعام : ٨٩ ، وغيره أنَّ الهدایة الحقيقة الإلهیة لا تختلف عن مقتضاهما بوجه وتجب العصمة من الضلال ، كما أنَّ التردید الواقع في قوله تعالى : «أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبِعَ أَمْنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي» يونس : ٣٥ . يدلّ على أنَّ من يهدي إلى الحق يجب أن لا يكون مهتدياً بغيره إلَّا بالله فافهم ذلك .

وعلى هذا فاسناد الهدایة إلى هذه الأُمّة لا يخلو عن الدلالة على مصوّنتهم من الضلال واعتصامهم بالله من الریغ إِمَّا بكون جميع هؤلاء المشار إليهم يقولون : «أُمّةٌ يهدون بالحق» متصفين بهذه العصمة والصيانت كالنبیاء والأوصیاء ، وإِمَّا بكون بعض هذه الأُمّة كذلك وتوصیف الكل بوصف البعض نظیر قوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيَّةَ» الجاثیة : ١٦ ، وقوله : «وَجَعَلْنَاكُم مُلُوكًا» المائدۃ : ٢٠ ، وقوله : «لَتَكُونُوا شُهَدًا عَلَى النَّاسِ» البقرة : ١٤٣ ، وإنَّما المتصف بهذه المزايا بعضهم دون الجميع .

والمراد بالآية - والله أعلم - إنَّما لأنتم كم بأمر غير واقع أو خارج عن طوق البشر فإنَّ ممَّن خلقنا أُمّة متلبسة بالاهتداء الحقيقى هادين بالحق لأنَّ الله كرمه بهدايته الخاصة .

قوله تعالى : «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنُسْتَدِرُ جَهَنَّمَ مِنْ حِيثُ لَا يَعْلَمُونَ» الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة فدرجة ، والاستدعاء من أمر أمكن ، وفرينة المقام تدلّ على أنَّ المراد به هنا الاستدعاء من الهلاك إِمَّا في الدنيا أو في الآخرة .

وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أنَّ هذا التقریب خفي غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهّون فيه من مظاهر الحياة الماديَّة فلا يزالون يقتربون

من الهالك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتى يصر فهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم كما مر في قوله تعالى : « ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السِّيَّئَةِ الْحَسَنَةِ حَتَّى عَفَوْا » الأعراف : ٩٥ ، وقال تعالى : « لَا يَغْرِبُنَّكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَئْسُ الْمَهَادُ » آل عمران : ١٩٧ .

و من وجه آخر طـاً اقطع هؤلاء عن ذكر ربـهم و كـذـبـوا بـآياتـه سـلبـوا اـطمـئـنانـ القـلـوبـ وـأـمـنـهاـ بـالـتـشـبـيـثـ بـذـيـلـ الـأـسـبـابـ الـتـيـ مـنـ دـوـنـ اللهـ ، وـعـذـبـواـ بـاضـطـرـابـ الـنـفـوسـ وـقـلـقـ الـقـلـوبـ وـقـصـورـ الـأـسـبـابـ وـتـرـاـكـمـ الـنـوـائـبـ ، وـهـمـ يـظـنـونـ أـنـهـاـ الـحـيـاةـ فـاسـينـ معـنىـ حـقـيـقـةـ الـحـيـاةـ السـعـيـدـةـ فـلاـيـزـ الـوـنـ يـسـتـرـيـدونـ مـنـ مـهـلـكـاتـ زـخـارـفـ الـدـنـيـاـ فـيـزـدـادـونـ عـذـابـاـ وـهـمـ يـحـسـبـونـ زـيـادـةـ فـيـ النـعـمـةـ حـتـىـ يـرـدـوـ عـذـابـ الـآـخـرـةـ وـهـوـ أـمـرـ وـأـدـهـ ، وـهـمـ يـسـتـرـجـونـ فـيـ العـذـابـ مـنـ لـدـنـ تـكـذـبـهـمـ بـآـيـاتـ رـبـهـمـ حـتـىـ يـلـاقـواـ يـوـمـهـمـ الـذـيـ يـوـعـدـهـونـ .

قال تعالى : « أـلـا بـذـكـرـ اللهـ تـطمـئـنـ الـقـلـوبـ » الرـعدـ : ٢٨ ، وقال : « وـمـنـ أـعـرضـ عنـ ذـكـرـيـ فـإـنـ لـهـ مـعـيـشـةـ ضـنـكاـ » طـهـ : ١٢٤ ، وقال : « فـلـاتـعـجـبـكـ أـمـوـالـهـمـ وـلـاـ أـوـلـادـهـمـ إـنـماـ يـرـيـدـ اللهـ لـيـعـدـ بـهـمـ بـهـاـ فـيـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ وـتـزـهـقـ أـنـفـسـهـمـ وـهـمـ كـافـرـونـ » التـوـبـةـ : ٥٥ ، وهذا معنى آخر من الاستدراج لكن قوله تعالى بعده : « وـأـمـلـيـ لـهـمـ » لا يـلـامـ ذـلـكـ فـالـمـتـعـيـنـ هوـ المـعـنىـ الـأـوـلـ

قولـهـ تـعـالـىـ : « وـأـمـلـيـ لـهـمـ إـنـ كـيـديـ مـتـيـنـ » الـإـمـلـاءـ هـوـ الـإـمـهـالـ ، وـقـولـهـ : « إـنـ كـيـديـ مـتـيـنـ » تعـليـلـ مـجـمـوعـ ماـ فـيـ الـآـيـتـيـنـ ، وـفـيـ قـولـهـ : « وـأـمـلـيـ » بـعـدـ قـولـهـ : « سـنـسـتـرـجـهـمـ الـآـيـةـ التـفـاتـ مـنـ التـكـلـمـ مـعـ الـغـيـرـ إـلـىـ التـكـلـمـ وـحـدـهـ لـمـدـلـالـةـ عـلـىـ مـزـيدـ الـعـنـيـةـ بـتـحـريـمـهـمـ مـنـ الـرـحـمـةـ الـإـلهـيـةـ وـإـرـادـهـمـ مـورـدـ الـهـلـكـةـ .

وـأـيـضاـ الـإـمـلـاءـ هـوـ إـمـهـالـهـمـ إـلـىـ أـجـلـ مـسـمـيـ .ـ فـيـكـونـ فـيـ مـعـنىـ قـولـهـ : « وـلـوـلـاـ كـلـمـةـ سـبـقـتـ مـنـ رـبـكـ إـلـىـ أـجـلـ مـسـمـيـ لـقـضـيـ بـيـنـهـمـ » الشـوـرـىـ : ١٤ ، وـهـذـهـ الـكـلـمـةـ هـيـ قـولـهـ لـأـدـمـ تـلـقـلـمـ حـيـنـ إـبـاطـهـ إـلـىـ الـأـرـضـ : « وـلـكـمـ فـيـ الـأـرـضـ مـسـتـقـرـ » وـمـتـاعـ إـلـىـ حـيـنـ » الـبـقـرـةـ : ٣٦ وـهـوـ الـقـضـاءـ الـإـلـهـيـ وـالـقـضـاءـ مـخـتـصـ بـهـ تـعـالـىـ لـاـيـشـارـ كـهـ فـيـهـ غـيـرـهـ ، وـهـذـاـ بـخـلـافـ الـاستـدـراـجـ الـذـيـ هـوـ إـيـصالـ الـنـعـمـةـ بـعـدـ الـنـعـمـةـ وـتـجـدـيـدـهـاـ فـإـنـهـاـ نـعـمـ الـهـيـةـ مـفـاضـةـ بـالـوـسـائـطـ مـنـ

الملائكة والأمر فلهذا السبب جيء في الاستدراج بصيغة المتكلّم مع الغير ، و غير ذلك في الإملاء وفي الكيد الذي هو أمر متحصل من الاستدراج والإملاء إلى لفظ المتكلّم وحده .
قوله تعالى : «أولم يتفكروا ما ب أصحابهم من جنة إن هو إلا نذير مبين» في تر كيب الكلام اختلاف شديد بينهم ، والذى يستتبع إلى الذهن من السياق أن يكون قوله : أولم يتفكروا » كلاماً تاماً سبق للإنكار والتوضيح ثم قوله : «ما ب أصحابهم من جنة» الآية كلاماً آخر سبق لبيان صدق النبي ﷺ في دعوه النبوة ، وهو يشير إلى ما يتفكر ون فيه كأنه قيل : أولم يتفكروا في أنه ما ب أصحابهم من جنة الآية حتى يتبيّن لهم ذلك ؟
نعم ، مابه من جنة إن هو إلا نذير مبين .

والتعبير عن النبي ﷺ ب أصحابهم لا إشارة إلى مادة الاستدلال الفكري **فإنه عليه** **كلام**
كان يصحابهم ويصحبونه طول حياته بينهم فلو كان به شيء من جنة لبان لهم ذلك البته فهو فيما جاء به نذير لا مجرنون ، والجنة بناء نوع من الجنون على ما قيل و إن كان من الجائز أن يكون المراد به الفرد من الجن بناء على ما يزعمونه أن الجنون يحل فيه بعض الجن **فيتكلّم** من فيه وبمسانده .

قوله تعالى : «أولم ينظروا في ملائكة السموات والأرض » إلى آخر الآية قدر
كراهاً أن الملكوت في عرف القرآن على ما يظهر من قوله تعالى : «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملائكة كل شيء» يس : ٨٤ هو الوجه الباطن من الأشياء الذي يلي جهة الرب تعالى ، وأن النظر إلى هذا الوجه واليقين متلازمان كما يفهم من قوله : «و كذلك نري إبراهيم ملائكة السموات والأرض ولن يكون من الموقفين » الأنعام : ٧٥.

فالمراد توبيخهم في الإعراض والانصراف عن الوجه الملكوتى للأشياء لم نسوه ولم ينظروا فيه حتى يتبيّن لهم أن ما يدعوه إليه هو الحق ؟

وقوله : «وما خلق الله من شيء» عطف على موضع السموات ، و قوله «من شيء»
بيان لما الموصولة ، ومعنى الآية : لم ينظروا في خلق السموات والأرض وأي شيء آخر
ممّا خلقه الله ؟ لكن لا من الوجه الذي يلي الأشياء حتى ينتفع العلم بخواص الأشياء

الطبيعية بل من جهة أنّ وجوداتها غير مستقلة بذاتها من بطة بغيرها محتاجة إلى رب يدبر أمراها وأمر كل شيء ، وهو رب العالمين .

وقوله : « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » عطف على قوله : « ملوكوت » الآية لكونه في تأويل المفرد والتقدير : أولم ينظروا في أنه عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فإن النظر في هذا الاحتمال ربما صرفهم عن التمادي على ضلالهم وغيرهم فاغلب ما يصرف الإنسان عن الاشتغال بأمر الآخرة ، ويوجه وجهه إلى الاغترار بالدنيا نسيان الموت الذي لا يدرى متى يرد رائده ، وأمّا إذا التفت إلى ذلك وشاهد جهله بأجله وأنّ من المرجو المحتمل أن يكون قد اقترب منهم فإنه يقطع منابت الغفلة و يمنعه عن اتباع الهوى و طول الأمل .

وقوله : « فبأي حديث بعده يؤمنون » الضمير للقرآن على ما يستدعيه السياق ، وفي الكلام إيات من إيمانهم باطرأة أي إن لم يؤمنوا بالقرآن وهو تجلّيه سبحانه عليهم بكلامه يكلّمهم بما يضطرّ عقولهم بقوله من الحجج والبراهين والمواعظ الحسنة وهو مع ذلك معجزة باهرة فلابيؤمنون بشيء آخر البتة ، وقد أخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم فلasicيل لهم إلى فقه القول والإيمان بالحق ، ولذلك عقبه بقوله في الآية التالية : « من يضل الله فلا هادي له » الآية .

قوله تعالى : من يضل الله فلا هادي له ويدرهم في طغيانهم يعمهون » العمه الحيرة والتردد في الصالل أو عدم معرفة الحجّة ، وإنّما لم يذكر ما يقابلها وهو أنّ من يهدي فلا مصلّ له لأنّ الكلام مسوق لتعليق الآية السابقة : « فبأي حديث » الآية كأنّه قيل : لم لا يؤمنون بحديث البتة ؟ فقيل : لأنّ من يضل الله الآية .

* كلام في الأسماء الحسنى في فصول *

١ - ما معنى الأسماء الحسنى ؟ وكيف الطريق إليها ؟ نحن أوّلما نفتح أعيننا ونشاهد من مناظر الوجود ما نشاهده يقع إدراكنا على أنفسنا وعلى أقرب الأمور منّا

وهي روابطنا مع الكون الخارج من مستدعيات قوانا العاملة لا بقائنا فأنفسنا ، وقوانا ، وأعمالنا المتعلقة بها هي أول ما يدق باب إدراكنا لكننا لا نرى أنفسنا إلا مرتقبة بغيرها ولا قوانا ولا أفعالنا إلا كذلك ، فالحاجة من أقدم ما يشاهده الإنسان ، يشاهدها من نفسه ومن كل ما يرتبط به من قواه وأعماله الدنيا الخارجية ، وعند ذلك يتضي بذات ما يقوم بحاجته ويسد خلته ، وإليه ينتهي كل شيء ، وهو الله سبحانه ، ويصدقنا في هذا النظر والقضاء قوله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » .

وقد عجز التاريخ عن العثور على بدء ظهور القول بالربوبية بين الأفراد البشرية بل وجدها هو صاحب الإنسانية إلى أقدم العهود التي مررت على هذا النوع حتى أن « الأقوام الوحشية التي تحاكي الإنسان الأولي » في البساطة لما اكتشفوهم في أطراف المعمورة كقطسان أمير كانوا ستر اليها وجدوا عندهم القول بقوى عالية هي وراء مستوى الطبيعة ينتحلون بها ، وهو قول بالربوبية وإن اشتبه عليهم المصدق فلا ذعن بذات ينتهي إليها أمر كل شيء من لوازم الفطرة الإنسانية لا يحيد عنه إلا من انحرف عن إلهام فطرته لشبهة عرضت له كمن يضطر نفسه على الاعتياد بالسمّ وطبيعته تحدّره بالهاءها ، وهو يستحسن ما ابتلي به .

ثم إن أقدم ما نواجهه في البحث عن المعارف الإلهية أنها تذعن بانتهاء كل شيء إليه ، وكينونته وجوده منه فهو يملك كل شيء لعلمنا أنه لول بملكه لم يمكن أن يفيضها ويفيدها لغيره على أن بعض هذه الأشياء مما ليست حقيقته إلا مبنية على الحاجة منبئة عن النقيصة ، وهو تعالى منزه عن كل حاجة ونقيصة لأنّه الذي إليه يرجع كل شيء فيرفع حاجته ونقيصته .

فله الملك - بكسر الميم وبضمها - على الإطلاق ، فهو سبحانه يملك ما وجدناه في الوجود من صفة كمال كالحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر والرزق والرحمة والعزة وغير ذلك .

فهو سبحانه حي قادر ، عالم ، سميع ، بصير لأنّ في نفيها إثبات النقص ولا سبيل للنقص إليه ، ورازق ورحيم وعزيز ومحي ويميت ومبدىء ومعيد وباعث إلى غير ذلك لأنّ

الرُّزق والرَّحْمَة والعزَّة والإِحْيَا والإِمَانَة والإِبْدَاء والإِعْادَة والبَعْث لَه ، وَهُوَ السَّبِيلُ
القدُّوسُ الْعَلِيُّ" الكَبِيرُ الْمُتَعَالُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ تَعْنِي بِهَا نَفْيُ كُلٍّ نَعْتَ عَدْمِيًّا وَكُلٌّ صَفَةٌ
نَفْسُهُ عَنْهُ .

فِيهَا طَرَيَقْنَا إِلَى إِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ لَهُ تَعَالَى عَلَى بِسَاطَتِهِ ، وَقَدْ صَدَقْنَا كِتَابَ
اللهِ فِي ذَلِكَ حِيثُ أَثْبَتَ الْمَلِكَ - بِكَسْرِ الْمَلِيمِ - وَالْمَلِكَ - بِضْمِ الْمَلِيمِ - لَهُ عَلَى الإِطْلَاقِ فِي آيَاتٍ
كَثِيرَةٍ لَا حَاجَةٌ إِلَى إِبْرَادِهَا .

٢ - مَا هُوَ حَدٌ مَا نَفَصَهُ أَوْ نَسْمَيْهُ بِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ ؟ تَبَيَّنَ مِنَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ
أَنَّا نَفَيْ عَنْهُ جَهَاتَ النَّفْسِ وَالحَاجَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِيمَا نَشَاهِدُهُ مِنْ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ ، وَهِيَ
تَقَابِلُ الْكَمَالِ كَامِلَوْنَ وَالْفَقْدِ وَالْفَقْرِ وَالذَّلَّةِ وَالْعَجْزِ وَالْجَهْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَفَيْ
هَذِهِ الْأُمُورِ ، وَهِيَ فِي نَفْسِهَا سَلْبِيَّةٌ يَرْجِعُ إِلَى إِثْبَاتِ الْكَمَالِ فَإِنَّ فِي الْفَقْرِ إِثْبَاتِ
الْغَنِيِّ ، وَفِي نَفَيِ الذَّلَّةِ وَالْعَجْزِ وَالْجَهْلِ إِثْبَاتِ الْعَزَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَهَكُذا .
وَأَمَّا صَفَاتُ الْكَمَالِ الَّتِي نَثَبِّتُهَا لَهُ سَبِيحَانَهُ كَالْحَيَاةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ
عَرَفْتُ أَنَّا نَثَبِّتُهَا بِالْإِذْعَانِ بِمُلْكِهِ بِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الْمُثَبَّتَةِ فِي دَارِ الْوُجُودِ غَيْرُ أَنَّا نَفَيْ عَنْهُ
تَعَالَى جَهَاتَ الْحَاجَةِ وَالنَّفْسِ الَّتِي تَلَازِمُ هَذِهِ الصَّفَاتِ بِحَسْبِ وَجُودِهَا فِي مَصَادِيقِهَا .

فَالْعِلْمُ فِي الْإِنْسَانِ مُثَلًاً إِحْاطَةً حَضُورِيَّةً بِالْمَعْلُومِ مِنْ طَرِيقِ اِنْتِزَاعِ الصُّورَةِ وَأَخْذُهَا
بِقُوَّى بَدْنِيَّةِ الْخَارِجِ ، وَالَّذِي يُلْيِقُ بِسَاحِتَهُ أَصْلُ مَعْنَى إِحْاطَةِ الْحَضُورِيَّةِ ، وَأَمَّا كُونُهُ
مِنْ طَرِيقِ أَخْذِ الصُّورَةِ الْمُحْوَجِ إِلَى وَجْهِ الْمَعْلُومِ فِي الْخَارِجِ قَبْلًاً ، وَإِلَى آلاتِ بَدْنِيَّةِ
مَادِيَّةٍ مُثَلًاً فَهُوَ مِنَ النَّفْسِ الَّذِي يُجْبِي تَنْزِيهِهِ تَعَالَى مِنْهُ ، وَبِالْجَمْلَةِ نَثَبِّتُ لَهُ أَصْلُ الْمَعْنَى
الثَّبُوتِيِّ وَنُسَلِّبُ عَنْهُ خَصْوَصِيَّةَ الْمَصْدَاقِ الْمُؤْدِيَّ إِلَى النَّفْسِ وَالْحَاجَةِ .

ثُمَّ مَمَّا كَنَّا نَفِينَا عَنْهُ كُلَّ نَفْسٍ وَحَاجَةٍ ، وَمِنَ النَّفْسِ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مُحَدِّدًا
بِحدَّ مُنْتَهِيَّ بِوْجُودِهِ إِلَى نَهَايَةِ فَإِنَّ الشَّيْءَ لَا يَحْدُدُ نَفْسَهُ وَإِنَّمَا يَحْدُدُهُ غَيْرُهُ الَّذِي يَقْهِرُهُ
بِضْرِبِ الْحَدِّ وَالنَّهَايَةِ لَهُ ، وَلَذِكَ نَفِينَا عَنْهُ كُلَّ حَدٍّ وَنَهَايَةٍ فَلِيُسْ سَبِيحَانَهُ مُحَدِّدًا فِي ذَاتِهِ
بِشَيْءٍ وَلَا فِي صَفَاتِهِ بِشَيْءٍ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » الرَّعِيدُ : ١٦ فَلِهِ الْوَحْدَةُ
الَّتِي تَقْهِرُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ قَبْلِهِ فَتَحْيِطُ بِهِ .

ومن هنا قضينا أنّ صفاته تعالى عين ذاته ، وكلّ صفة عين الصفة الأخرى ، فلا تمایز إلّا بحسب المفهوم ، ولو كان علمه غير قدرته مثلاً ، وكلّ منها غير ذاته كما في نماذج العادة والإنسان مثلاً لكان كلّ منها يحدّ الآخر ، والآخر ينتهي إلى فكان محدود وحدّ ومتناهٍ ونهايته فكان تر كيب و فقر إلى حاد يحدّها غيره ، تعالى عن ذلك و تقدّس ، وهذه صفة أحاديثه تعالى لا ينقسم من جهة من الجهات ، ولا يتكتّش في خارج ولا في ذهن .

و مما تقدّم يظهر فساد قول من قال : إنّ معانٰي صفاته تعالى ترجع إلى النفي رعاية لتنزيهه عن صفات خلقه فمعنى العلم والقدرة والحياة هناك عدم الجهل والعجز والموت ، وكذا في سائر الصفات العليا ، وذلك لاستلزمـاهـ نـفيـ جـمـيعـ صـفـاتـ الـكـمالـ عـنـهـ ، تعالى ، وقد عرفت أنّ سلو كـناـ الفـطـريـ يـدفعـ ذـلـكـ ، وظـواـهـرـ الآـيـاتـ الـكـرـيمـةـ تـنـافـيهـ ، وـنـظـيرـهـ القـولـ بـكـونـ صـفـاتـهـ زـائـدـةـ عـلـىـ ذاتـهـ أوـ نـفـيـ الصـفـاتـ وـإـثـبـاتـ آـثـارـهـ وـغـيـرـ ذـلـكـ مـمـاـ قـيلـ فـيـ الصـفـاتـ فـكـلـ ذـلـكـ مـدـفـوـعـةـ بـمـاـ تـقـدـمـ مـنـ كـيـفـيـةـ سـلوـ كـناـ الفـطـريـ ، ولـتفـصـيلـ الـبـحـثـ عـنـ بـطـلـانـهـ مـحـلـ آـخـرـ .

٣ - الانقسامات التي لها . يظهر مما قدّمناه من كيفية السلوك الفطري أنّ من صفات الله سبحانه ما يفيد معنى ثبوتيّاً كالعلم والحياة وهي المشتملة على معنى الكمال ، ومنها ما يفيد معنى السلب وهي التي للتنزيه كالسبّوح والقدوس ، وبذلك يتمّ انقسام الصفات إلى قسمين : ثبوتيّة ، وسلبية .

وأيضاً من الصفات ما هي عين الذات ليست بزايدة عليها كالحياة والعلم والقدرة والعلم بالذات ، وهي الصفات الذاتية ، ومنها ما يحتاج في تحقّقه إلى فرض تحقّق الذات قبلاً كالخلق والرزق وهي الصفات الفعلية ، وهي زائدة على الذات منتزعـةـ عنـ مقـامـ الفـعـلـ ، وـمعـنـيـ اـنـتـزـاعـهـ عـنـ مقـامـ الفـعـلـ أـنـاـ مـثـلـأـ نـجـدـ هـذـهـ النـعـمـ الـتـيـ تـنـتـعـمـ بـهـاـ وـنـتـقـلـبـ فـيـهـاـ نـسـبـتـهـاـ إـلـيـ اللهـ سـبـحـانـهـ نـسـبـةـ الرـزـقـ الـمـقـرـ للمـجـيشـ منـ قـبـلـ الـمـلـكـ إـلـيـ الـمـلـكـ فـنـسـمـيـهـ رـازـقاـ ، وـإـذـ كـانـ مـنـتـهـيـاـ إـلـيـهـ تـعـالـيـ نـسـمـيـهـ رـازـقاـ ، وـمـثـلـهـ الـخـلـقـ وـالـرـجـمـ وـالـمـغـفـرـةـ وـسـائـرـ الصـفـاتـ وـالـأـسـماءـ الفـعـلـيـةـ ، فـهـيـ تـطـلـقـ عـلـيـهـ تـعـالـيـ وـيـسـمـيـ هوـ بـهـاـ مـنـ غـيـرـ أـنـ يـتـلـبـسـ بـمـعـانـيهـ كـتـابـسـهـ بـالـحـيـةـ وـالـقـدـرـةـ وـغـيـرـهـ مـنـ الصـفـاتـ الذـاتـيـةـ ، وـلـوـ تـلـبـسـ بـهـاـ حـقـيـقـةـ لـكـانـ صـفـاتـ ذـاتـيـةـ

غير خارجة من الذات فلم يصفها والأسماء انقسام آخر إلى الذاتية والغيرية . ولها انقسام آخر إلى النفسية والإضافية فما لا إضافة في معناها إلى الخارج عن مقام الذات كالحياة نفسي ، وما له إضافة إلى الخارج سواء كان معنى نفسياً ذا إضافة كالصنوع والخلق هي النفسية ذات الإضافة ، أو معنى إضافياً مختصاً بالخالقية والرازقية هي الإضافية الممحضة .

٤- **نسب الصفات والأسماء إليها** ونسبتها فيما بينها . لا فرق بين الصفة والاسم غير أنّ الصفة تدلّ على معنى من المعاني يتلبّس به الذات أعمّ من العينية والغيرية ، والاسم هو الدالّ على الذات مأخوذه بوصف . فالحياة والعلم صفتان ، والحيّ والعالم اسمان وإذ كان المقتضى لشأن له إلا الدلالة على المعنى وإن كشفنا به فحقيقة الصفة والاسم هو الذي يكشف عنه لفظ الصفة والاسم فحقيقة الحياة المدلول عليها بلفظ الحياة هي الصفة الإلهيّة وهي عين الذات ، وحقيقة الذات بحياتها التي هي عينها هو الاسم الإلهيّ ، وبهذا النظر يعود الحيّ والحياة اسمين للاسم والصفة وإن كانوا بالنظر المتقدم نفس الاسم ونفس الصفة .

وقد تقدّم أثنا في سلوكنا الفطري إلى الأسماء إنّما تقطّننا بها من جهة ما شاهدناه في الكون من صفات الكمال فأيقناً من ذلك أنّ الله سبحانه هسمى بها طأ أنه مال كلها الذي أفضى علينا بها ، وما شاهدنا فيه من صفات النقص وال الحاجة فأيقناً أنه تعالى منزه منها متّصف بما يقابلها من صفة الكمال وبها يرفع عنّا النقص وال الحاجة فيما يرتفع، فمشاهدة العلم والقدرة في الكون تهديننا إلى اليقين بأنّ له سبحانه علمًا وقدرة يفيض بهما ما يفيضه من العلم والقدرة ، ومشاهدة الجهل والعجز في الوجود تدلّنا على أنه منزه عنهما متّصف بما يقابلهما من العلم والقدرة الذين بهما ترفع حاجتنا إلى العلم والقدرة فيما ترتفع، وهكذا في سائرها .

ومن هنا يظهر أنّ جهات الخلقة وخصوصيات الوجود التي في الأشياء ترتبط إلى ذاته المتعالية من طريق صفاتاته الكريمة أي إنّ الصفات وسائل بين الذات وبين مصنوعاته ، فالعلم والقدرة والرزق والنعمة التي عندنا بالترتيب تفيض عنه سبحانه بما أنه عالم قادر

رازق منعم بالترتيب ، و جعلنا يرتفع بعلمه ، و عجزنا بقدرته ، و ذلتنا بعزمّه ، و فقرنا بغناه ، و ذنبنا بعفوه و مغفرته ، و إن شئت فقل بنظر آخر هو يقهرنا بقهره و يحدّنا بلا حدوديّته ، وينهينا بلا نهايةه ، ويضعننا برفعته ، و يذللنا بعزمّه ، و يحكم فينا بما يشاء بملكه - بالضم - و يتصرف فيما يشاء بملكه - بالكسر - ففهم ذلك .

وهذا هو الذي نجري عليه بحسب الذوق المستفاد من الفطرة الصافية فمن يسأل الله الغنى ليس يقول : يا ميميت يا مذلّ أغبني ، وإنما يدعوه بأسمائه : الغنيّ والعزيز والقادر مثلاً ، والمريض الذي يتوجه إليه لشفاء مرضه يقول : يا شافي يا معا في يا رؤوف يا رحيم ارحمني واسفني ، ولن يقول : يا ميميت يا منتقم يا ذا البطش اشفي ، وعلى هذا القياس .
والقرآن الكريم يصدقنا في هذا السلوك والقضاء ، وهو أصدق شاهد على صحة هذا النظر فتراه يذيل آياته الكريمة بما يناسب مضمونها من الأسماء الإلهية ويعمل ما يفرغه من الحقائق بذكر الاسم والاسمين من الأسماء بحسب ما يستدعيه المورد من ذلك . والقرآن هو الكتاب السماويّ الوحيد الذي يستعمل الأسماء الإلهية في تقرير مقاصده ، ويعلّمنا علم الأسماء من بين ما بلغنا من الكتب السماوية المنسوبة إلى الوحي . فتبيّن أنّا ننتمي إليه تعالى بواسطة أسمائه ، و بأسمائه بواسطة آثارها المنتشرة في أقطار عالمنا المشهود فآثار الجمال والجلال في هذا العالم هي التي تربطنا بأسماء جماله و جلاله من حياة و علم و قدرة و عزة و عظمة و كبرىاء ، ثم الأسماء تنسبنا إلى الذات المتعالية التي تعتمد عليها قاطبة أجزاء العالم في استقلالها .

وهذه الآثار التي عندنا من ناحية أسمائه تعالى مختلفة في أنفسها سعة وضيقاً ، وهما بازاء ما في مفاهيمها من العموم و الخصوص فموهبة العلم التي عندنا تتشعب منها شعب السمع والبصر والخيال والتعقل مثلاً ، ثم هي القدرة والحياة وغيرها تدرج تحت الرزق والإعطاء والإنعام والجود ، ثم هي والعفو و المغفرة و نحوها تدرج تحت الرحمة العامة .

ومن هنا يظهر أنّ ما ينبع نفس الأسماء سعة وضيقاً ، وعموماً و خصوصاً على الترتيب الذي بين آثارها الموجودة في عالمنا فمنها خاصة ، ومنها عامة ، وخصوصها وعمومها بخصوص

حقائقها الكاشفة عنها آثارها وعمومها ، وتكشف عن كافية النسب التي بين حقائقها النسب التي بين مفاهيمها فالعلم اسم خاص " بالنسبة إلى الحي " وعام " بالنسبة إلى السميع البصير الشهيد اللطيف الخير والرازق خاص " بالنسبة إلى الرحمن ، وعام " بالنسبة إلى الشافي الناصر الهدى ، وعلى هذا القياس .

فللأسماء الحسنة عرض عريض تنتهي من تحت إلى اسم أو أسماء خاصة لا يدخل تحتها اسم آخر ثم تأخذ في السعة والعموم ففوق كل " اسم ما هو أوسع منه وأعم " حتى تنتهي إلى اسم الله الأكبير الذي يسع وحده جميع حقائق الأسماء وتدخل تحته شتات الحقائق برمتها ، وهو الذي نسميه غالباً بالاسم الأعظم .

ومن المعلوم أنه كلما كان الاسم أعم " كانت آثاره في العالم أوسع ، والبركات النازلة منه أكبر وأعم " لأن " الآثار للأسماء كما عرفت فيما في الاسم من حال العموم والخصوص يحيانيه بعينه أثره ، فالاسم الأعظم ينتهي إليه كل " أثر ، ويخصن له كل " أمر .

٥ - **ما معنى الاسم الأعظم ؟** شاع بين الناس أنه اسم لفظي " من أسماء الله سبحانه وإذادي به استجيب ، ولا يشذ " من أثره شيء غير أنهم لما لم يجدوا هذه الخاصة في شيء من الأسماء الحسنة المعروفة ولا في لفظ الحاللة اعتقدوا أنه مؤلف من حروف مجهرولة تأليفاً مجھولاً لنا لو عثروا عليه أحضنا لا إرادتنا كل " شيء .

وفي مذمة أصحاب العزائم والدعوات أن " له لفظاً يدل " عليه بطبيعته لا بالوضع اللغوي غير أن " حروفه وتأليفها تختلف باختلاف الحوائج والمطالب ، ولهم في الحصول عليه طرق خاصة يستخرجون بها حروفه أو " ثم " يؤلفونها ويدعون بها على ما يعرفه من راجع فنهم .

وفي بعض الروايات الواردة إشعار ما بذلك كما ورد أن " « بسم الله الرحمن الرحيم » أقرب إلى اسم الله الأعظم من بياض العين إلى سوادها ، وما ورد أنه في آية الكرسي " وأول سورة آل عمران ، وما ورد أن " حروفه متفرقة في سورة الحمد يعرفها الإمام وإذا شاء ألقها ودعا بها فاستجيب له .

وما ورد أن " أصف بن برخيا وزير سليمان دعا بما عنده من حروف اسم الله الأعظم

فأحضر عرش ملكة سبأ عند سليمان في أقل من طرفة عين ، وماورد أن "الاسم الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفًا قسم الله بين أنبيائه اثنين وسبعين منها ، واستأثر واحدة منها عنده في علم الغيب ، إلى غير ذلك من الروايات المشيرة بأن له تأليفاً لفظياً .

والبحث الحقيقي عن العلة والعلو وخصائصها يدفع ذلك كله فإن "تأثير الحقيقة" يدور مدار وجود الأشياء في قوّته وضعفه ، والمسانحة بين المؤثر والمتأثر ، والاسم اللفظي "إذا اعتبر من جهة خصوص لفظه كان مجموعة أصوات مسموعة هي من الكيفيات العرضية" ، وإذا اعتبر من جهة معناه المتصوّر كان صورة ذهنية لا أثر لها من حيث نفسها في شيء بالبّشّة ، ومن المستحيل أن يكون صوت أوجدناه من طريق التجنّج أو صورة خيالية تصوّرها في ذهننا ب بحيث يظهر بوجوده وجود كل شيء ، ويتصرّف فيما نريده على ما نريده فيقلب السماء أرضًا والأرض سماءً ويحوّل الدنيا إلى الآخرة وبالعكس وهكذا ، وهو في نفسه معلوم لا رادتنا .

والأسماء الالهية وأسمه الأعظم خاصة وإن كانت مؤثرة في الكون ووسائله وأسباباً لنزول الفيض من الذات المتعالية في هذا العالم المشهود لكنّها إنما تؤثر بحقائقها لا باللفاظ الدالة في لغة كذا عليها ، ولا بمعانيها المفهومة من الفاظها المتصوّرة في الأذهان ومعنى ذلك أن الله سبحانه هو الفاعل الموجب لكل شيء بما له من الصفة الكريمة المناسبة له التي يحييها الاسم المناسب ، لتأثير اللفظ أو صورة مفهومه في الذهن أو حقيقة أخرى غير الذات المتعالية .

إلا أن الله سبحانه وعد إجابة دعوة من دعاكم كما في قوله : «أُجيبُ دُعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» البقرة : ١٨٦ ، وهذا يتوقف على دعاء وطلب حقيقي ، وأن يكون الدعاء والطلب منه تعالى لامن غيره - كما تقدّم في تفسير الآية - فمن انقطع عن كل سبب واتصال بربه حاجة من حواجه فقد اتصل بحقيقة الاسم المناسب لحاجته فيؤثر الاسم بحقيقةته ويستجاب له ، وذلك حقيقة الدعاء بالاسم فعلى حسب حال الاسم الذي انقطع إليه الداعي يكون حال التأثير خصوصاً وعموماً ، ولو كان هذا الاسم هو الاسم الأعظم انقاد لحقيقةه كل شيء واستجواب للداعي به دعاؤه على الإطلاق . وعلى هذا يجب أن يحمل ماورد من الروايات و

الأُدْعِيَّةُ فِي هَذَا الْبَابِ دُونَ الْإِسْمِ الْلُّفْظِيِّ أَوْ مَفْهُومِهِ .

وَمَعْنَى تَعْلِيمِهِ تَعَالَى نَبِيًّا مِّنْ أَنْبِيَائِهِ أَوْ عَبْدًا مِّنْ عَبَادِهِ اسْمًا مِّنْ اسْمَائِهِ أَوْ شَيْئًا مِّنْ اسْمِ الْأَعْظَمِ هُوَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ طَرِيقًا لِلنَّقْطَاعِ إِلَيْهِ تَعَالَى بِاسْمِهِ ذَلِكَ فِي دُعَائِهِ وَمَسَأْلَتِهِ فَإِنْ كَانَ هَنْدَكَ اسْمٌ لُّفْظِيٌّ وَلَهُ مَعْنَى مَفْهُومٌ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ وَمَعَانِيهَا وَسَائِلُ وَآسِبَابٌ تَحْفَظُ بِهَا الْحَقَّاقَاتِ نَوْعًا مِّنْ الْحَفْظِ فَافْهُمْ ذَلِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِسْمَ الْخَاصَّ رَبِّمَا يَطْلُقُ عَلَى مَا لَا يَسْمَى بِهِ غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا قِيلَ بِهِ فِي الْأَسْمَاءِ : اللَّهُ، وَالرَّحْمَانُ . أَمَّا لُفْظُ الْجِلَالَةِ فَهُوَ عِلْمُ لَهُ تَعَالَى خَاصٌّ بِهِ لَيْسَ اسْمًا بِالْمَعْنَى الَّذِي نَبْحَثُ عَنْهُ ، وَأَمَّا الرَّحْمَانُ فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مَعْنَاهُ مُشْتَرِكٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ تَعَالَى طَأْنَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى ، هَذَا مِنْ جَهَةِ الْبَحْثِ التَّفْسِيرِيِّ ، وَأَمَّا مِنْ حِيثِ النَّظَرِ الْفَقْهِيِّ فَهُوَ خارجٌ عَنْ مَبْحَثِنَا .

٦ - عدد الاسماء الحسنی . لِالْدَلِيلِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ عَلَى تَعْيِينِ عَدْدِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى تَتَعَيَّنُ بِهِ بَلْ ظَاهِرُ قَوْلِهِ : « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى » طَهٌ : ٨ ، وَقَوْلُهُ « وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا » الْأَعْرَافُ : ١٨٠ ، وَقَوْلُهُ : « لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » الْحَسْرَ : ٢٤ ، وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ فِي الْوُجُودِ هُوَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ فِي مَعْنَاهَا فَهُوَ لِهِ تَعَالَى فَلَا تَتَحَدَّدُ أَسْمَاؤُهُ الْحَسَنَى بِمَحْدُودٍ .

وَالَّذِي وَرَدَ مِنْهَا فِي لُفْظِ الْكَتَابِ الْإِلَهِيِّ مِائَةً وَبَضْعَةَ (١٢٧) وَعَشْرُونَ اسْمًا هِيَ :

ا - إِلَهُ، الْأَحَدُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الْأَعْلَى، الْأَكْرَمُ، الْأَعْلَمُ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، أَهْلُ التَّقْوَى، أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، الْأَقْرَبُ، الْأَبْقَى .

ب - الْبَارِيُّ، الْبَاطِنُ، الْبَدِيعُ، الْبَرُّ، الْبَصِيرُ .

ت - التَّوَّابُ .

ج - الْجَبَّارُ، الْجَامِعُ .

ح - الْحَكِيمُ، الْحَلِيمُ، الْحَيُّ، الْحَقُّ، الْحَمِيدُ، الْحَسِيبُ، الْحَفِيظُ، الْحَفِيَّ .

خ - الخير ، الخالق ، الخلاق ، الخير ، خير الماكرین ، خير الراذقين ، خير الفاسلين ، خير الحاكمين ، خير الفاتحين ، خير الغافرين ، خير الوارثين ، خير الراحمين ، خير المنزلين .

ذ - ذو العرش ، ذو الطول ، ذو انتقام ، ذو الفضل العظيم ، ذو الرحمة ، ذو القوة ، ذو الجلال والإكرام ، ذو المعارض .

ر - الرحمن ، الرحيم ، الرؤوف ، الرّب ، رفيع الدرجات ، الرّزاق ، الرّقيب .

س - السميع ، السلام ، سريع الحساب ، سريع العقاب .

ش - الشهيد ، الشاكر ، الشكور ، شديد العقاب ، شديد المحال .

ص - الصمد .

ظ - الظاهر .

ع - العليم ، العزيز ، العفو ، العلي ، العظيم ، علام الغيوب ، عالم الغيب و الشهادة .

غ - الغني ، الغفور ، الغالب ، غافر الذنب ، الغفار .

ف - فالق الإصلاح ، فالق الحب والنوى ، الفاطر ، الفتاح .

ق - القوي ، القدوس ، القيوم ، القاهر ، القهّار ، القريب ، القادر ، القديم ، قابل التوب ، القائم على كل نفس بما كسبت .

ك - الكبير ، الكريم ، الكافي .

ل - اللطيف .

م - الملك ، المؤمن ، المهيمن ، المتكبّس ، المصوّر ؟ المجيد ، المحبب ، المبين ، المولى ، المحيط ، المقيت ، المتعال ، المحبي ، المتين ، المقترد ، المستعان ، المبدى ، مالك املك .

ن - النصير ، النور .

و - الوهّاب ، الواحد ، الولي ، الوالي ، الواسع ، الوكيل ، الودود .

ه - الهدى .

وقد تقدم أن ظاهر قوله : « وَلِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى » « وَلِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى » ، أن معاني هذه الأسماء له تعالى حقيقة وعلى نحو الأصلة ، ولغيره تعالى بالتبع فهو املاك لها حقيقة ، وليس لغيره إلّا ملّكه الله من ذلك ، وهو مع ذلك مالك ما ملّكه غيره لم يخرج عن ملكه بالتمليك ، فله سبحانه حقيقة العلم مثلاً وليس لغيره منه إلّا ما وحبه له وهو مع ذلك له لم يخرج من ملّكه وسلطانه .

ومن الدليل على الاشتراك المعنوي فيما يطلق عليه تعالى وعلى غيره من الأسماء والأوصاف ما ورد من أسمائه تعالى بصيغة أفعال التفضيل كالأعلى والأكرم فإنّ صيغة التفضيل تدلّ بظاهرها على اشتراك المفضل والمفضول عليه في أصل المعنى ، وكذا ما ورد بنحو الإضافة كخير الحاكمين وخير الرازقين وأحسن الخالقين لظهوره في الاشتراك .

٧ - هل أسماء الله توقيقية ؟ تبيّن ماتقدم أن لا دليل على توقيقية أسماء الله تعالى من كلامه بل الأمر بالعكس ، والذى استدلّ به على التوقيق من قوله : « وَلِهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فادعوه بها وذرروا الذين يلحدون في أسمائه » الآية مبنيّ على كون اللام للعهد ، وأن يكون المراد بالـ لحاد التعدي إلى غير ما ورد من أسمائه من طريق السمع ، وكل الأمرين مورد نظر طارم بيانته .

وأمّا ما ورد مستفيضاً مما رواه الفريقيان عن النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا مائة إِلَّا واحدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » أو ما يقرب من هذا المفظ فلا دلالة فيها على التوقيق . هذا بالنظر إلى البحث التفسيري ، وأمّا البحث الفقهي فمرجعه فينـ الفقه ، والاحتياط في الدين يقتضي الاقتصار في التسمية بما ورد من طريق السمع ، وأمّا مجرد الإجراء والاطلاق من دون تسمية فالامر فيه سهل .

بحث روائي

في التوحيد باسناده عن الرضا عن أبيه عن علي عليه السلام : إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تسعه وتسعين اسمًا من دعا الله بها استجواب له ؛ ومن أحصاها دخل الجنة .

أقول : وسيجيء نظيره عن النبي ﷺ من طرق أئمة أهل البيت ع، والمراد بقوله : « من أحصاها دخل الجنة » الإيمان باتصافه تعالى بجميع ما تدل عليه تملك الأسماء بحيث لا يشد عنها شان .

وفي الدر المنشور أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذى والنمسائى وابن ماجه وابن خزيمة وأبوعوانة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبّان والطبراني وأبو عبدالله بن منه في التوحيد وابن مرسدويه وأبونعيم والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا مَائَةً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنَّهُ وَتَرِيْحَبُ الْوَقْرَ .

أقول : ورواهما عن أبي نعيم وابن مرسدويه عنه ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ : إِنَّ اللَّهَ مَائَةً اسْمًا غَيْرَ اسْمٍ مِنْ دُعَاهَا اسْتِجَابَ اللَّهُ لَهُ دُعَاهُ ، وَعَنِ الدَّارِ قَطْنِيٌّ فِي الْغَرَائِبِ عَنْهُ وَلَفْظُهُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لِي تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ .

وفيه أخرج أبو نعيم وابن مرسدويه عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا مَائَةً غَيْرَ وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ .

أقول : ورواه أيضاً عن أبي نعيم عن ابن عباس وابن عمر ولفظه : قال رسول الله ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهِيَ فِي الْقُرْآنِ .

أقول : والرواية تعارض ما سيأتي من روایات الاحصاء حيث إن جميعها مشتملة على أسماء ليست في القرآن بلفظها إلا أن يكون المراد كونها في القرآن بمعناها .

وفي التوحيد بإسناده عن الصادق عن أبيه عن علي ع قال : قال رسول الله ع : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا مَائَةً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ .

وهي : الله ، الإله ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، الأول ، الآخر ، السميع ، البصير القدير ، القاهر ، العلي ، الأعلى ، الباقي ، البديع ، الباري ، الْأَكْرَمُ ، الظاهر ، الباطن الحكيم ، العليم ، الحليم ، الحفيظ ، الحق ، الحبيب ، الحميد ، الحفي ، الرب ، الرحمن ، الرحيم ، الدارى ، الرائق ، الرقيق ، الرؤوف ، الرائي ، السلام ،

المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، السيد ، سبّوح ، الشهيد ، الصادق ، الصانع ، الظاهر ، العدل ، العفو ، الغفور ، الغني ، الغيث ، القاطر ، الفرد ، الفتاح ، الفالق ، القديم ، الملك ، القدس ، القوي ، القريب ، القيوم ، القابض ، الباسط ، قاضي الحاجات ، المجيد ، المولى ، المنان ، المحيط ، المبين ، المغيث ، المصوّر ، الكريم ، الكبير ، الكافي ، كاشف الضر ، الوتر ، النور ، الوهاب ، الناصر ، الواسع ، الودود ، الهدادي ، الوفي ، الوكيل ، الوارث ، البر ، الباعث ، التواب ، الجليل ، الججاد ، الخبرير ، الخالق ، خير الناصرين ، الديان ، الشكور ، العظيم ، اللطيف ، الشافي ،

وفي الدر المنشور أخرج الترمذى و ابن المنذر و ابن حبان و ابن منه و الطبرانى

والحاكم و ابن مردويه و البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تسعه وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة إِنَّهُ وَتَرِحَبُ الْوَتَرُ : هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصوّر ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، البخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبرير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيق ، المجيب ، الولي ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المبين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحبي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجب ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، البر ، التواب ، التوّاب ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، الوالى ، المتعال ، المقطسط ، الجامع ، الغنى ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهدادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

و فيه أخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء و الطبرانى كلاهما وأبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تسعه وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة :

اسأل الله ، الرحمن ، الرحيم ، الإله ، الرب ، الملك ، القدس ، السلام ، المؤمن ،
المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباري ، المصور ، الحكيم ، العليم ،
السميع ، البصير ، الحبي ، القيوم ، الواسع ، الطيف ، الخبر ، الحنآن ، امتنان ،
البديع ، الغفور ، الودود ، الشكور ، المجيد ، المبدي ، المعید ، النور ، الباقي - وفي
لفظ : القائم - الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، العفو ، الغفار ، الوهاب ، الفرد
- وفي لفظ : القادر - الأحد ، الصمد ، الوكيل ، الكافي ، الباقي ، المغيث ، الدائم ،
المتعال ، ذا الجلال والإكرام ، المولى ، النصير ، الحق ، المبين ، الوارث ، المنير ، الباعث ،
القدير - وفي لفظ : المحب - المحبي ، المميت ، الحميد - وفي لفظ : الجميل - الصادق ،
المحفيظ ، المحبيط ، الكبير ، القريب ، القتاح ، التواب ، القديم ، الوتر ،
الفاطر ، الرزاق ، العلام ، العلي ، العظيم ، الغني ، المليك ، المقتدر ، الأكرم ، الرؤوف ،
المدبر ، المالك ، القاهر ، الهايدي ، الشاكر ، الكريم ، الرفيع ، الشهيد ، الواحد ،
ذا الطول ، ذا المعارج ، ذا الفضل ، الخلاق ، الكفيل ، الجليل .

أقول : وذكر لفظ المجالة في هذه الروايات المشتملة على الإحصاء لإجراء
الأسماء عليه . وإنما فهو خارج عن العدد .

وفيه أخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال : سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن
الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنّة فقال : هي في القرآن : ففي
الفاتحة خمسة أسماء ، يا الله يارب يا رحمن يا رحيم يا مالك ، وفي البقرة ثلاثة وثلاثون
اسمًا : يامحيط ياقدير ياعليم يا عليّ يا عظيم يا تواب يا بصير يا ولیّ يا واسع
يا كافی يا رؤوف يابديع ياشاکر يا واحد ياسميع ياقاپض ياباسط ياحبیّ ياقیوم ياغنیّ
يا حمید ياغفور ياحلیم يا إله يا قریب يا مجیب ياعزیز يا نصیر يا قویّ يا شدید ياسرع
يابخیر .

وفي آل عمران : يا وَهَابْ يَا قَائِمْ يَا صَادِقْ يَا بَاعِثْ يَا مُنْعِمْ يَا مُنْفِضْ ، وَفِي النِّسَاءِ :
يَا رَقِيبْ يَا حَسِيبْ يَا شَهِيدْ يَا مُقِيتْ يَا وَكِيلْ يَا عَالِيْ يَا كَبِيرْ ، وَفِي الْأَنْعَامِ يَا فَاطِرْ يَا قَاهِرْ
يَا طِيفْ يَا بَرْهَانْ ، وَفِي الْأَعْرَافِ : يَا مُحَبِّي يَا مُمِيتْ ، وَفِي الْأَنْفَالِ : يَا نَعَمْ يَا مَوْلَى يَا نَعَمْ

المصير ، وفي هود : يا حفيظ يامجيد يا ودود يا فعالاً لما يريد ، وفي الرعد : يا كبير يا متعال ، وفي إبراهيم : يا منسان ياوارث ، وفي الحجر : ياخلاق .

وفي مريم : يافردا ، وفي طه : ياغفار ، وفي قد أفلح : ياكريم ، وفي النور : ياحقّ يا مبين ، وفي الفرقان : يا هادي ، وفي سباء : ياقتاح ، وفي الزمر : ياعالم ، وفي غافر : ياغافر يا قابل التوب يا ذا الطول يا رفيع وفي الذاريات : يا رزاق يا ذا القوّة يا متين ، وفي الطور : يابر .

وفي اقتربت : يا مليك يا مقندر ، وفي الرحمن : يا ذالجلال و الإكرام ياربّ المشرقين يا ربّ المغاربين يا باقي يا محسن ، وفي الحديد : يا أوّل يا آخر ياظاهر ياباطن ، وفي الحشر : ياملك ياقتّوس يا سلام يامؤمن يامهيمن يا عزيز ياجبار يامتكبر ياخالق يا باريء يا مصوّر ، وفي البروج يا مبدىء يامعید ، وفي الفجر : يا وتر وفي الإخلاص : يا أحد يا صمد .

أقول : و الرواية لا تخلو عن تشويش فإنّ فيه إدخال لفظ الجلال في الأسماء التسعة والتسعين وليس منها ، وقد كرّ بعض الأسماء كالكبير ، وقد ذكر في أوّلها التسعة والتسعون ، وأنهيت إلى مائة وعشرة أسماء ، وفيها مع ذلك موضع مناقشات آخر فيما يذكر من وجود الاسم في بعض السور كالفرد في سورة مريم ، والبرهان في سورة الأنعام . إلى غير ذلك .

و على أيّ حال ظهر لك من هذه الروايات وهي التي عثرنا عليها من روایات الإحصاء أنها لا تدلّ على انحصر الأسماء الحسنة فيما تحصيها مع ما فيها من الاختلاف في الأسماء ، و ذكر بعض ما ليس في القرآن الكريم بل لفظ الاسمية ، و ترك بعض ما في القرآن الكريم بل لفظ الاسمية بل غاية ما تدلّ عليه أنّ من أسماء الله تسعة وتسعين من خاصتها أنّ من دعا بها استجيب له ، ومن أحصاها دخل الجنّة .

على أنّ هناك روايات أخرى تدلّ على كون أسمائه تعالى أكثر من تسعة وتسعين كما سيأتي بعضها ، وفي الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ وأئمّة أهل البيت ع عليهم السلام شيء كثير من أسماء الله غير ماورد منها في القرآن و أحصي في روايات الإحصاء .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنَّ الله تبارك وتعالى خلق اسماء بالحروف غير متصوّت ، وباللفظ في منطق ، وبالشخص غير مجسدة ، وبالتشبيه غير هو صوف ، وباللون غير مصبوغ ، منفي عنه الأقطار ، مبعد عنده الحدود ، محجوب عنه حس كل متوجه مستتر غير مستور . ف يجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معًا ليس منها واحد قبل الآخر فأظهر منها ثلاثة أسماء لفافة الخلق إليها ، وحجب واحداً منها وهو الاسم المكنون المخزون وهذه الأسماء التي ظهرت ^(١) فالظاهر هو الله ، تبارك ، وتعالى ، وسبحانه لك كل اسم من هذه الأسماء أربعة أركان فذلك اثنا عشر ركناً ، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثة أسماء فعلاً منسوباً إليها : فهو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القديس ، المخلق ، الباريء ، المصور ، الحي ، القيوم ، لا تأخذ سنة ولا نوم ، العليم ، الخبرير ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العزيز ، الجبار ، المتكبّر ، العلي ، العظيم ، المقتدر ، القادر ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، الباريء ، امنشيء ، البديع ، الرفيع ، الجليل ، الكريم ، الرازق ، المحبي ، امميته ، الباعث ، الوارث .

فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنة حتى تتم ثلاثة وستين اسماء وهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة ، وهذه الأسماء الثلاثة أركان ، وحجب الاسم الواحد ^(٢) المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة ، وذلك قوله عز وجل : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيامًا تدعوا فله الأسماء الحسنة » .

أقول : قوله عليه السلام : إنَّ الله تبارك وتعالى خلق اسماء بالحروف غير متصوّت الخ هذه الصفات المعدودة صريحة في أنَّ المراد بهذا الاسم ليس هو اللفظ ، ولا يعني يدل عليه اللفظ من حيث إاته مفهوم ذهني فإن اللفظ أو المفهوم الذهني الذى يدل عليه لا معنى لاتصاله بالأوصاف التي وصفه بها و هو ظاهر ، وكذا يأبى عنه ما ذكره في الرواية بعد ذلك فليس المراد بالاسم إلا المصدق المطابق لللفظ لو كان هناك لفظ ، ومن المعلوم أنَّ الاسم بهذا المعنى - و خاصة بالنظر إلى تعذر يه بمثل : الله و تبارك و تعالى - ليس إلا الذات المتعالية أو هو قائم بها غير خارج عنها البتة .

(١) دواد في التوحيد هكذا : المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي اظهرت ، فالظاهر هو الله [و] تبارك وسبحان وكل اسم من هذه اربعة اركان الخ .

(٢) في التوحيد : اركان وحجب للاسم الواحد الخ .

فنسبة الخلق إلى هذا الاسم في قوله : «خلق اسماء» يكشف عن كون المراد بالخلق غير المعنى المترافق منه ، وأنه امراد به ظهور الذات المتعالية ظهوراً ينشأ به اسم من الأسماء وحينئذ ينطبق الخبر على ما تقدم بيانه أن الأسماء مترتبة فيما بينها وبعضها واسطة لثبوت بعض ، وتنتهي بالأخرة إلى اسم تعينها عين عدم التعين ، وتفيد الذات المتعالية به عين عدم تقييدها بقييد .

وقوله : «فالظاهر هو الله تبارك وتعالى» إشارة إلى الجهات العامة التي تنتهي إليها جميع الجهات الخاصة من الكمال ، ويحتاج الخلق إليها من جميع جهات فاقتها واحتاجتها ، وهي ثلاثة : جهة استجمام الذات لكل كمال ، وهي التي يدل عليها لفظ المجالة وجهة ثبوت الكمالات ومنشأة الخيرات والبركات ، وهي التي يدل عليه اسم تبارك ، وجهة انتفاء النقاوص وارتفاع الحاجات وهي التي يدل عليه لفظ تعالى .

وقوله : «فعلاً منسوباً إليها إلى الأسماء وهو إشارة إلى ما قدّمناه من انتشاء إسم من اسم . وقوله : «حتى تتم ثلاثة مائة وستين اسماء» صريح في عدم انحصر الأسماء الإلهية في نسعة وتسعين .

وقوله : «وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحجب» الخ فإن الاسم المكتنون المخزون ملائكة أسماء فهو تعين وظهور من الذات المتعالية ، وإذ كان مكتنوناً بحسب ذاته غير ظاهر بحسب نفسه فظهوره عين عدم ظهوره وتعينه عين عدم تعينه ، وهو ما يعبر عنه أحياناً بقولنا : إنه تعالى ليس بمحدود بحدٍ حتى بهذا الحد العدمي لا يحيط به وصف ولا نعت حتى هذا الوصف السلبي ، وهذا يعنيه توصيف منها والذات المتعالية أعظم منه وأكبر .

ولازمه أن يكون اسم المجالة الكاشف عن الذات المستجامعة لجميع صفات الكمال

اسماء من أسماء الذات دونها دون هذا الاسم المكتنون المخزون ، وكذا «تبارك» و«تعالى» ثلاثة أسماء معادنة وحجبًا للاسم المكتنون من غير أن يتقدّم بعضها بعضاً ، وهذه الحجب تاب الثالثة والاسم المكتنون المحظوظ بها جميعاً دون الذات ، وأما هي فلا ينتهي إليها إشارة ولا يقع عليها عبارة ، إذ كلّما تحكيمه عبارة أو توسيعه إليه إشارة اسم من الأسماء محدود بهذا النحو ، والذات المتعالية أعلى منه وأجل .

وقوله : « و ذلك قوله تعالى : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً مَا تدعوا فله الأسماء الحسنى » وجه الاستفادة أنَّ الضمير في قوله : « فله » راجع إلى « أيّ » وهو اسم شرط من الكنيات لاتعيين معناه إلَّا عدم التعيين ، ومن المعلوم أنَّ المراد بالله وبالرحمن في الآية هو مصداق اللفظين لانفسهما فلم يقل ادعوا بالله أو بالرحمن بل ادعوا الله الآية فمدلول الآية أنَّ الأسماء منسوبة قائمة بجيعها بمقام لا خبر عنه ولا إشارة إليه إلَّا بعدم الخبر والإشارة فافهم ذلك .

وفي الرواية أخذ « تبارك » وكذا « تعالى » وكذا « لاتأخذه سنة ولا نوم » من الأسماء وهو مبنيٌ على مجرد الدلالة على الذات المأخوذة بصفة من صفاته من غير رعاية المصطلح الأدبي .

والرواية من غرر الروايات تشير إلى مسألة هي أبعد سماكة من مستوى الأبحاث العامة والأفهام المتعارفة ، ولذلك اقتصرنا في شرح الرواية على مجرد الإشارات ، وأمّا الإيضاح التام فلا يتم إلَّا ببحث مبسot خارج عن طوق المقام غير أنها لاتقتني على أزيد مما تقدم من البحث عن نسب الأسماء والصفات إلينا ونسب ما بينها الموضوع في الفصل الرابع من الكلام في الأسماء فعليك بايفاؤها حتى تنجلي لك المسألة حق الانجلاء والله الموفق .

وفي البصائر بإسناده عن الباقر عليه السلام قال : إنَّ أسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً ، وإنَّما عند آصف منها حرف واحد فتكلّم به فخسف بالأرض فيما بينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين ، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ، ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله العلي العظيم .

وفيه أيضاً بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنَّ الله عزوجل جعل اسمه الأعظم على ثلاث وسبعين حرفاً فأعطي آدم منها خمسة وعشرين حرفاً ، وأعطي نوحًا منها خمسة وعشرين حرفاً ، وأعطي منها إبراهيم ثمانية أحرف ، وأعطي موسى منها أربعة أحرف وأعطي عيسى منها حرفين وكان يحيي بهما الموتى ويبرأ بهما الأكمه والأبرص ، وأعطي

مَحَدَّاً عَلَيْهِ تَحْلُّهُ وَعَلَيْهِمَا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حُرْفًا ، وَاحْتَجَبْ حُرْفًا لِئَلَّا يَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِهِ وَيَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِهِ .

أقول : وفي مساق الروايتين بعض روایات اخر، ولا ينبغي أن يرتا بـ في أن كونه مفرقاً إلى ثالث وسبعين حرفًا أو مؤلفاً من حروف لا يستلزم كونه بحقيقة مؤلفاً من حروف الهجاء كما تقدمت الإشارة إليه ، وفي الروايتين دلالة على ذلك فـ في ذلك يعد الاسم وهو واحد ثم يفرق حروفه بين الأنبياء ويستثنى واحداً ، ولو كان من قبيل الأسماء المفظية الدالة بمجموع حروفه على معنى واحد لم ينفع أحداً منهم عَلَيْهِ تَحْلُّهُ ما أعطيه شيئاً البشارة .

و في التوحيد عَلَيْهِ تَحْلُّهُ في خطبة له : إن ربّي لطيف المطافة فلا يوصف باللطيف ! عظيم العظمة لا يوصف بالعظم ، كبير الكبriاء لا يوصف بالكبير ، جليل الجلال لا يوصف بالجلال ، قبل كل شيء لا يقال شيء قبله ، وبعد كل شيء لا يقال له بعد شيء شيئاً لا بهمة ، دراك لا بدريعة ، هو في الأشياء كلها غير متمازج بها ولا بائن عنها ظاهر لا بتؤيل المباشرة ، متجل لاستهلال رؤية ، بائن لا بمسافة ، قريب لا بمداناة ، لطيف لا بتجسم ، موجود لا بعد عدم ، جاعل لا باضطرار ، مقدر لا بحركة ، مريد لا بهمامة ، سميع لا بآلة ، بصير لا بأداة .

أقول : هو عَلَيْهِ تَحْلُّهُ - كما يشاهد - يثبت في صفاته وأسمائه تعالى أصل المعاني وينفي خصوصيات المصاديق الممكنة ونواتص المادّة ، وهو الذي قدّمنا بيانه سابقاً ، وهذه المعاني واردة في أحاديث كثيرة جداً مرويّة عن أئمّة أهل البيت عَلَيْهِ تَحْلُّهُ ، وخاصة ما ورد عن علي والحسن والحسين والباقي والصادق والكاظم والرضا عَلَيْهِ تَحْلُّهُ في خطب كثيرة من أرادها في ليراجع جوامع الحديث ، والله الهدى .

و في المعاني عَلَيْهِ تَحْلُّهُ في حدث : فليست له شبه ولا مثيل ولا عدل ، والله الأسماء الحسنی التي لا يسمى بها غيره ؛ وهي التي وصفها الله في الكتاب فقال : « فادعوه بها وذرروا الذين يلمدون في أسمائه » جهة بغیر علم وهو لا يعلم ويکفر وهو يظن أنه يحسن ؟ فذلك قوله : « وما يؤمّن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فهم الذين يلمدون في أسمائه بغیر علم فيضعونها غیر موضعها .

أقول : والحديث يؤيد ما قدّمناه في معنى كون الأسماء حسنة والإيجاد فيها، وقوله عليه السلام : « لا يسمى بغيره » أي لا يوصف بالمعانى التي جرّدت لها وصح تسميتها بها غيره تعالى كطلاق الخالق بحقيقة معناه الذي له تعالى، لغيره ، وعلى هذا القياس .

وفي الكافي بإسناده إلى معاویة بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ « والله الأسماء الحسنة فادعوه بها » قال : نحن والله الأسماء الحسنة التي لا يقبل الله من العباد إلا بمعرقتنا .

أقول : ورواه العياشي عن عليه السلام ، وفيه أخذ الاسم بمعنى مادر على الشيء سواء كان لفظاً أو غيره ، وعليه فالأنبياء والأوصياء عليهم السلام أسماء دالة عليه تعالى وسائط بينه وبين خلقه ، ولأنهم في العبودية بحيث ليس لهم إلا الله سبحانه فهم المظہرون لأنسمائه وصفاته تعالى .

وفي الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « ومَنْ خَلَقَنَا أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدَلُونَ » قال هم الأئمة .

أقول : ورواه العياشي عن حران عنه عليه السلام قال : وقال محمد بن عجلان عنه عليه السلام « نحن هم » وقد تقدّم ما يؤيده في البيان المتقدم .

وفي الدر المنشور أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله : « وَمَنْ خَلَقَنَا أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدَلُونَ » قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل .

وفي تفسير البرهان عن هوقّي بن أحمد عن السريّ عن ابن المنذر عن الحسين بن سعيد عن أبيه عن أبان بن تغلب عن فضل عن عبد الملك الهمданى عن زادان عن علي قال يفترق هذه الأئمة على ثلاث وسبعين فرقاً اشتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة ، وهم الذين قال الله عزّ وجلّ في حقّهم : « وَمَنْ خَلَقَنَا أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدَلُونَ » أنا وشيعتي .

أقول : وروى العياشي عن زادان عنه عليه السلام مثله ، وفي آخره : « وَهُمْ عَلَى الْحَقِّ » مكان قوله : « أنا وشيعتي » . وقد تقدّم في ذيل قوله تعالى : « وَمَنْ قَوْمٌ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُدُونَ »

بالحق" وبه يعدلون ، رواية العياشي عن أبي الصهباء عن علي عليهما السلام ما في معناه ، وكذا رواية السيوطي "في الدر" المنشور بطرق عنه مثله .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن السمح قال : قال أبو عبد الله عليهما السلام : إن الله إذا أراد بعد خيراً فاذنب ذنبأً تبعه بنعمة وينذركه الاستغفار ، وإذا أراد بعد شرًّا فاذنب ذنبأً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار و يتمنى بها ، وهو قوله عز وجل : « سئست درجهم من حيث لا يعلمون » بالنعم عند المعاصي .

و فيه بإسناده عن سماعة بن مهران قال : سألت أبا عبد الله عليهما السلام عن قول الله : « سئست درجهم من حيث لا يعلمون » قال : هو العبد يذنب الذنب فيجد دله النعم معه تلبيه تلك النعم عن الاستغفار من ذلك الذنب .

أقول : ورواه أيضاً بإسناده عن ابن رئاب عن بعض أصحابنا عنه عليهما السلام مثله .

و فيه بإسناده عن الحسن الصيق قال : سألت أبا عبد الله عليهما السلام عما روى الناس : « تفکر ساعة خير من قيام ليلة » قلت : كيف يتفكّر ؟ قال : يمر بالخربة أو بالدار فيقول أين ساكتوك ؟ أين بانوك ؟ مالك لا تتكلمين ؟

أقول : وهو من قبيل إرادة بعض المصاديق الظاهرة .

و فيه . بإسناده عن معمر بن خلاد قال سمعت أبا الحسن الرضا عليهما السلام يقول : ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم . إنما العبادة التفكّر في أمر الله عز وجل .

و فيه بإسناده عن الربيعي قال : قال أبو عبد الله عليهما السلام : قال أمير المؤمنين عليهما السلام : التفكّر يدعو إلى البر والعمل به .

و فيه بإسناده عن محمد بن أبي المنصر عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليهما السلام قال : أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته .

وفي تفسير القمي في تفسير قوله تعالى : « و نذرهم في طغيانهم يعمرون » قال : قال : نكله إلى نفسه .

أقول : ومعنى ترکهم يعمرون في طغيانهم عدم إعانتهم على أنفسهم وتركهم وإيتاها بقطع التوفيق فينطبق على الوکول إلى النفس .

* * *

يَسْأَلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يَجْلِيلُهَا
لَوْقَهَا إِلَّا هُوَ نَقْلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُوكَ كَانَكَ
حَفِيْدٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمْهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ
لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرُ
مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَنَّى الشَّوْءَ إِنَّا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ لِّقَوْمٍ يَوْمَنُونَ (١٨٨)

(بيان)

في الآيتين إباهة أن علم الساعة من الغيب المختص به تعالى لا يعلمه إلا الله ، ولا دليل لتعيين وقتها والحدس لوقوعها أصلًا فلا تأتي إلا بغتة ، وفيه إشارة مما إلى حقيقتها بذلك بعض أوصافها .

قوله تعالى : « يَسْأَلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسِيهَا - إِلَى قَوْلِهِ - إِلَّا هُوَ ، السَّاعَةُ سَاعَةُ الْبَعْثِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ الْعَامِ » فاللام للعهد لكنه صار في عرف القرآن والشرع كالحقيقة في هذا المعنى .

و المرسى اسم زمان و مكان و مصدر ميمي من أرسية الشيء إذا أثبته ، أي متى وقوعها و ثبوتها ، و التجليية الكشف والإظهار يقال جلاه فانجلی أي كشف عنه فانكشف .

قوله : « لَا يَجْلِيلُهَا لَوْقَهَا إِلَّا هُوَ » أي لا يظهرها و لا يكشف عنها في وقتها و عند وقوعها إلا الله سبحانه ، ويدل ذلك على أن ثبوتها و وجودها و العلم بها واحد أي إنها محفوظة في مكنن الغيب عند الله تعالى يكشف عنها و يظهرها متى شاء من غير أن يحيط بها غيره سبحانه أو يظهر لشيء من الأشياء ، وكيف يمكن أن يحيط بها شيء من الأشياء أو ينكشف عنده ، و تتحققها و ظهورها يلزم فناء الأشياء ، و لاشيء منها يسعه أن يحيط

بفناء نفسه أو يظهر له فناء ذاته ، والنظام السبيبي "الحاكم في الكون يتبدل عند وقوعها ، وهذا العلم الذي يصبحها من هذا النظام .

و من هنا يظهر : أن " المراد بقوله : « ثقلت في السماوات والأرض » - والله أعلم - ثقل علمها في السماوات والأرض و هو بعينه ثقل وجودها فلا ثمرة لاختلافهم في أن " المراد بثقل الساعة فيها ثقل علمها عليها ، أو المراد ثقل صفتها على أهل السماوات والأرض لما فيها من الشدائـد والعقبات والحساب والجزاء ، أو ثقل وقوعها عليهم لما فيها من انطواء السماء وانتشار الكواكب واجتماع الشمس والقمر وتسيير الجبال ، أو أن " السماوات والأرض لتطبيق حملها لعظمتها و شدّتها .

و ذلك أنها ثقيلة بجميع ما يرجع إليها من ثبوتها والعلم بها وصفاتها على السماوات والأرض ، ولا تطيق ظورها ملازمته فناءها والشيء لا يطيق فناء نفسه .

و من ذلك يظهر أيضاً وجه قوله سبحانه : « لا تأْتِيكم أَلَا بُغْتَةً » فإن " البغثة و الفجأة ظهور الشيء من غير أن يعلم به قبل ظهوره ، وال الساعة لتلصلها لا يظهر وصف من أوصافها ، ولا جزء من أجزائها قبل ظهورها التام ، ولذلك كان ظورها لجميع الأشياء بغثة .

و من هنا أيضاً يظهر معنى تتمة الآية : « يسألونك كأنك حفي عنها قل إِنما علمها عند الله » الآية على ما سيأتي .

قوله تعالى : « يسألونك كأنك حفي عنها » إلى آخر الآية قال الراغب : "الحفي" العالم بالشيء (انتهى) وكأنه مأخوذ من حفبت في السؤال إذا أحـجـت ، وقوله : « كأنك حفي » متخلـل بين يسألونك و الطرف المتعلق به ، والأصل : يسألونك عنها كأنك حفي عالم بها ، وهو يلوـح إلى أنـهم كـرـروا السـؤـال و الـحـواـليـه ، و لـذـكـرـ السـؤـال و الـجـوابـ بـوـجهـ فيـ الـلـفـظـ .

ففي قوله ثانية : « يسألونك كأنك حفي عنها » إشعار أو دلالة على أنـهم حسبـوا أنـ جـوابـهـ عـلـيـهـ قـدـرـهـ بـأـمـرـ رـبـهـ أـوـ لـأـ : « إـنـماـ علمـهاـ عـنـ رـبـيـ » من قـبـيلـ إـحـالـةـ علمـ ماـ لـيـعـلـمـهـ إـلـىـ رـبـهـ - عـلـىـ ماـ هـوـ مـنـ أـدـبـ الدـينـ - وـ لـذـاـ قـالـ : « عـنـ رـبـيـ » إـشـعـارـاـ بـالـعـبـودـيـةـ وـ

وظيفتها ، وأنّ قوله : «لَا يجيئُها لوقتها إِلَّا هُوَ» وصف لعظمتها من غير أن يرتبط ذلك بالعلم بوقتها ، ولذلك كله كرّروا السؤال ليقول عَزَّلَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا أَوْ يَعْتَرِفُ بِجَهَلِهِ لِنَفْسِهِ

فأمره الله سبحانه أن يعيد الجواب عليهم : «إِنَّمَا عَلِمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» دالاً به على أنّ القول جدّ و الجواب فصل ، فهو من العلم لامن الجهل ، و الغرض به إفاده العلم باتحصان علمها فيه تعالى دون الجهل بها ، وإحاللة علمها إلى ربّه عملاً بوظيفة العبودية ، ولذا بدل قوله في الجواب الأول «عند ربّي» في هذا الجواب الثاني إلى قوله : «عند الله» .

ثم قال : «ولكنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» يشير به إلى جهلهم بمعنى قوله : «إِنَّمَا عَلِمُهُمْ عِنْدَ رَبِّي» الآية فإنّهم لا نسيهم بالحسّ و المحسوس يقيسون كلّ شيء معهونه إلى المحسوس ، ويعتمدون حكمه عليه فيظنّون أنّ كلّ ما وصف لهم بوجه يسع لهم أن يعلموه و يحيطوا به علمًا ، وأنّه لو كان هناك أمرٌ أُخْفِي عنهم فإنّما يخفى بالكتمان ، ولو أُظْهِرَ لَهُمْ أُحاطُوا به علمًا كسائر ما عندهم من الأمور المحسوسة ، وقد أخطأوا قياسهم و اشتبه عليهم فإنّ بعض ما في الغيب و من جملته الساعة لا يطيق علمه إِلَّا الله سبحانه .

و قد ظهر من الآية أنّ علم الساعة مما لا يطيقه شيء من الأشياء إِلَّا الله سبحانه ، و كذاحقيقة ماله من الأوصاف و النعموت فإنّ الجميع ثقيلة بشقلها .

قوله تعالى : «قُلْ لِأَمْلَكَ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» إلى آخر الآية لما كان في سؤالهم الغيب عنه عَزَّلَهُ اللَّهُ إِيمانه أنّ دعوه النبوة دعوى لعلم الغيب ، و لا يعلم الغيب حقيقة غيره تعالى إِلَّا بوحي و تعليم إِلَهِي ، أمر نبيه عَزَّلَهُ اللَّهُ أن يتبرّأ من دعوى العلم بالغيب .

و حقيقة السبب في اختصاص العلم بالغيب به تعالى أنّ غيره تعالى أَيْسَاماً كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنّه غائب ، ولا شيء غير محدود و لا غير متنه محظوظ بكلّ شيء إِلَّا الله سبحانه فله العلم بالغيب .

لكن لما كان أولئك السائلون لا يسعهم فهم هذا السبب على ما لهم من الأفهام البسيطة العامية أمره عليه السلام أن يكلّمهم بما يسعهم فهمه ، وهو أن " العلم بالغيب يهدي الإنسان إلى كل خير وشر" و العادة تأبى أن يعلم أحد الخير والشر و يهتدي إلى موقعهما ثم لا يستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان إذا لم يستكثر من الخير ولم يوق من الشر كيف يعلم الغيب ؟

فقوله في صدر الآية : قل لأملك لنفسي » الآية وصف لنفسه بما ينافي نتيجة العلم بالغيب ثم قوله : « ولو كنت أعلم الغيب » الآية بيان نتيجة العلم بالغيب ، لينتتج من الفصلين عدم علمه بالغيب ، ثم قوله : « إن أنا إلا نذير » بيان حقيقة حاله فيما يدعوه من الرسالة من غير أن يكون معها دعوى أخرى ،

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله « يسألونك عن الساعة أيّان مرساها » الآية قال : قال : إن قريشاً بعثوا العاص بن وائل السهمي ، والنضر بن المحارث بن كلدة و عقبة بن أبي معيط إلى نجران ليتعلّموا من علماء اليهود مسائل يسألونها عن رسول الله عليه السلام ، وكان فيما سألوه ممدوحاً متى تقوم الساعة أُنزل الله تعالى : « يسألوك عن الساعة أيّان مرساها » الآية .

وفي تفسير العياشي عن خلف بن حمّاد عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الله يقول في كتابه : ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما هستني السوء « يعني الفقر .

أقول : ورواه أيضاً الصدوق في المعاني بإسناده عن خلف بن حمّاد عن رجل عنه عليه السلام ، ورواه الحسين بن بسطام في طب الأئمة عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكِنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغْشَيْهَا حَمَلَتْ حَمَالًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أُنْثِلَتْ دَعَوْا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ أَتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا أَتَيْهُمَا صَالِحًا جَعَلَاهُ شَرَكَاءَ فِيمَا أَتَيْهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ (١٩٠) إِيَّشِرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَبَعُونَ كُمْ سَوَاعِدْ عَلَيْكُمْ ادْعُوهُمْ تَمَوَّهُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادَ أَمْشَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيُسْتَجِيبُوْا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَللَّهُمَّ ارْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا إِمْ لَهُمْ أَيْدِي يَبْطِشُونَ بِهَا إِمْ لَهُمْ أَعْيُنْ يَبْصِرُونَ بِهَا إِمْ لَهُمْ أَذَانْ يَسْمَعُونَ بِهَا قَلْ أَدْعُوا شَرَكَاءَ كُمْ ثُمَّ كَيْدُونَ فَلَا تَنْظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُونَا وَتَرَاهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصِرُونَ (١٩٨)

(بيان)

الكلام في الآيات جار على ما جرت عليه سائر آيات السورة من موافق النوع الإنساني ونقضها على الأغلب الأكثـر .

قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة » إلى آخر الآيتين . الكلام في الآيتين جار مجـرى المضـروب لبني آدم في نقضـهم موقفـهم الذي واقـوه ، وظلمـهم بأـيات الله .

والمعنى « هو الذي خلقكم » يامعشر بنـي آدم « من نفس واحدة » هو أبوكم « وجعل منها » أي من نوعها « زوجها ليسـكن » الرجل الذي هو النفس الواحدة « إليها » أي إلى الزوج التي هي امرأته « فلما تغشـها » والتغشـي هو الجمـاع « حملت حملـاً خفـيناً » و المـحمل النطفـة وهي خـفـيـة « فـمـرـت به » أي استمرـت الزوج بـحملـتها تذهب و تـجيـه و تقوم و تـقـدـع حتى نـمت النطفـة في رـحـمـها و صـارـت جـنـينـاً تـقـيـلاً أـنـقلـتـهـاـ بـهـ الزـوـجـ « فـلـمـاـ أـنـقـلـتـهـاـ دـعـواـ اللـهـ رـبـهـماـ » و عـاهـدـاهـ و وـاقـهـاهـ « لـئـنـ آـتـيـتـنـاـ » و رـزـقـتـنـاـ ولـدـاـ « صـالـحـاـ » يـصلـحـ لـلـحـيـةـ و الـبقاءـ بـكـونـهـ إـنـسـانـاـ سـوـيـاـ تـامـاـ الـأـعـضـاءـ غـيرـ ذـيـ عـاهـةـ وـآـفـةـ فـإـنـ ذـلـكـ هوـ الـمـرجـوـ لـلـوـلـدـ حـينـ وـلـادـتـهـ وـبـدـءـ نـشـوـهـ دـوـنـ الصـالـحـ الـدـيـنـيـ « لـنـكـوـنـ مـنـ الشـاكـرـيـنـ » لـكـ بـإـظـهـارـ نـعـمـتـكـ ، وـالـنـقـطـاـعـ إـلـيـكـ فـيـ أـمـرـهـ لـاـ نـمـيـلـ إـلـىـ سـبـبـ دـوـنـكـ ، وـلـاـ نـتـعـلـقـ بـشـيـءـ سـوـاـكـ . « فـلـمـاـ آـتـاهـاـ صـالـحـاـ » كـمـاـ سـأـلـاهـ وـجـعـلـهـ إـنـسـانـاـ سـوـيـاـ صـالـحـاـ لـلـبـقـاءـ وـقـرـتـ بـهـ أـعـيـنـهـماـ « جـعـلاـ لـهـ شـرـكـاءـ فـيـمـاـ آـتـاهـاـ » مـنـ الـوـلـدـ الصـالـحـ حـيـثـ بـعـثـتـهـمـاـ الـمـحـبـةـ وـالـشـفـقـةـ عـلـيـهـ أـنـ يـتـعـلـقـاـ بـكـلـ سـبـبـ سـوـاهـ ، وـيـخـضـعـاـ لـكـلـ شـيـءـ دـوـنـهـ مـعـ أـنـهـمـاـ كـانـاـ قـدـ اـشـتـرـطاـتـ لـهـ أـنـ يـكـوـنـاـ شـاكـرـيـنـ لـهـ غـيرـ كـافـرـيـنـ لـنـعـمـتـهـ وـرـبـوـبـيـتـهـ فـنـقـضـاـ عـهـدـهـمـاـ وـشـرـطـهـمـاـ . وهـكـذاـ عـامـةـ إـلـيـهـ إـنـسـانـ إـلـاـ مـنـ رـجـمـهـ اللـهـ مـهـتـمـمـونـ بـنـقـضـ مـوـاـيـقـهـمـ وـخـلـفـ وـعـدـهـمـ ، وـدـعـمـ الـوـفـاءـ بـعـهـدـهـمـ مـعـ اللـهـ « فـتـعـالـىـ اللـهـ عـمـاـ يـشـرـكـونـ » .

والقصـةـ - كـمـاـ تـرـىـ - يـمـكـنـ أـنـ يـرـادـ بـهـ بـيـانـ حـالـ الـأـبـوـينـ مـنـ نـوـعـ إـلـيـهـانـ فـيـ استـيـلـادـهـمـاـ الـوـلـدـ بـالـاعـتـبـارـ الـعـامـ الـنـوـعـيـ « فـإـنـ كـلـ إـنـسـانـ فـإـنـهـ مـوـلـودـ أـبـوـيهـ فـالـكـثـرـةـ الـإـنـسـانـيـةـ نـتـيـجـةـ أـبـوـينـ يـوـلـدـانـ وـلـدـاـ كـمـاـ فـوـلـهـ تـعـالـىـ : « يـاـ أـيـهـاـ النـاسـ إـنـاـ خـلـقـنـاـكـمـ مـنـ ذـكـرـ وـأـنـثـيـ وـجـعـلـنـاـكـمـ شـعـوبـاـ وـقـبـائـلـ » .

وـالـغالـبـ عـلـىـ حـالـ الـأـبـوـينـ وـهـمـاـ يـجـبـانـ وـلـدـهـمـاـ وـيـشـفـقـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـنـقـطـعـاـ طـبـعـاـ إـلـىـ اللـهـ فـيـ أـمـرـ وـلـدـهـمـاـ وـإـنـ لـمـ يـلـقـتـاـ إـلـىـ تـفـصـيلـ اـنـقـطـاعـهـمـاـ كـمـاـ يـنـقـطـعـ رـاكـبـ الـبـحـرـ إـلـىـ اللـهـ سـبـحـانـهـ إـذـاـ تـلـاطـمـتـ وـأـخـذـتـ أـمـوـاجـهـاـ تـلـعـبـ بـهـ يـنـقـطـعـ إـلـىـ رـبـهـ وـإـنـ لـمـ يـعـدـ رـبـاـ قـطـ فـإـنـمـاـ هـوـ حـالـ قـلـبـيـ يـضـطـرـ إـلـيـهـانـ إـلـيـهـ .

فـلـلـأـبـوـينـ اـنـقـطـاعـ إـلـىـ رـبـهـمـاـ فـيـ أـمـرـ وـلـدـهـمـاـ لـئـنـ آـتـيـتـنـاـ صـالـحـاـ نـرـضـاهـ لـنـكـوـنـ مـنـ

الشاكرين فلما استجاب لهم وآتاهما صالحًا جعل له شركاء وتشبّثا في حفظه وتربيته بكل سبب ، ولا ذا إلى كل كهف .

و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشَرِّكُونَ » فإن المراد بالنفس وزوجها في صدر الكلام لو كان شخصين من الإنسان بعينهما كاد وهو أمثلًا من حق الكلام أن يقال : فَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ شَرِّ كُلِّهِ أَوْعَمًا أَشَرَّ كَا .

على أنه تعالى يعقب هذه الآية بأيات أخرى يذم فيها الشرك ويوبخ المشركين بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عبادة غير الله ، وحاشا أن يكون صفي الله آدم يعبد غير الله ، وقد نص الله سبحانه على أنه اجتباه وهداه ، ونص على أن لا سبيل للضلالة على من هداه الله وأي ضلال أضل من عبادة غير الله ، قال تعالى : ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى طه . ١٢٢ ، وقال : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمَهْتَدِ » أسرى ٩٧ ، وقال : « وَمَنْ أَضَلَّ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يُسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » الأحقاف ٥ وبذلك يظهر أن الضلال والشرك غير منسوب إلى آدم وإن لم نقل بنبوته أو قلنا بها ولم نقل بعصمة الأنبياء فَلَمْ يَأْتِهَا .

وإن أريد بالنفس وزوجها في القصة آدم و زوجته كان المراد بشر كهم المذكور في الآية أنهمما اشتغلوا بتربية الولد واهتمامًا في أمره بتديير الأسباب والعوامل ، وصرفهم بذلك عن بعض ما لهم من التوجّه إلى ربّهما والخلوص في ذلك ، ومن الدليل على ذلك قوله تعالى حكاية عنهم : « لَنْكُونُنَّ » من الشاكرين « وقد تقدّم في تفسير أولئك هذه السورة في قوله : « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » الآية : ١٧ أن الشاكرين في عرف القرآن هم المخلصون - بفتح اللام - الذين لا سبيل لا بلليس عليهم ولا دين للغفلة في قلوبهم فالعتاب امتنوجه إليهم في قوله : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشَرِّكُونَ » إنما هو بالشرك بمعنى الاشتغال عن الله بغيره من الأسباب الكونية بوجه خلاف إخلاص القلب له تعالى .

لكن يبقى عليه إتيان قوله : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَشَرِّكُونَ » بصيغة الجمع ، وتعقيبه

بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عبادة غير الله .

وربما دفعه بعضهم بأن الآية في التخصيص أو لا والتعميم ثانية عكس قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يَسِيرُ كُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرِينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةً »

يونس : ٢٢ حيث خاطب أولاً عامتهم بالتسير ثم خص الكلام براكيبي الفلك منهم خاصة ، والآية التي نحن فيها تخص أول القصة بأدم و زوجته فيما المعنى بقوله : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » ثم انقضى حديث آدم وزوجته ، و خص بالذكر المشركون منبني آدم الذين سألهما مسألاً ، وجعلوا له شركاً فيما آتاهم أي إن كل اثنين منهم يولدان ولداً هذا حالهما من العهد ثم النقض .

وفيه أن قوله : « هو الذي يسيّركم » الآية محفوف بقرينة قطعية تدل على المراد وتزيل اللبس بخلاف التدرج من الخصوص إلى العموم في هذه الآية فإنه موقع في اللبس لا يصار إليه في الكلام البليغ اللهم إلا أن يجعل قوله : « فتعالى الله عما يشركون إلى آخر الآيات قرينة على ذلك .

وكيف كان فهذا الوجه كالمأخذ من الوجهين الأولين بحمل صدر الآية على الوجه الثاني وذيلها على الوجه الأول .

وربما دفع الإعتراض السابق بأن في الكلام حذفا وإيصالاً والتقدير : « فلما آتاهما إِيَّاهُمْ وَحْوَاءَ صَالِحَاهَا جَعَلَ أَوْلَادَهُمَا لَهُ شَرَكَاهُ فَحَذَفَ الْمَضَافَ وَهُوَ الْأَوَّلُ ، وَأَقْيَمَ الْمَضَافَ إِلَيْهِ وَهُوَ ضَمِيرُ التَّتِينَيْةِ الْمَدُولُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ : « جَعَلَا » مَقَامَهُ . وفيه أنه لا دليل عليه . وربما التزم بعض المفسرين الإشكال ، وتسليم أن المراد بهما آدم وزوجته ، وأنهما أشركا بالله عملاً بروايات وردت في القصة عن بعضهم ، وهي موضوعة أو محسوبة مخالفة للكتاب لاسيما إلى الأخذ بأمثالها .

قوله تعالى : « أَيْشَرَ كَوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يَخْلُقُونَ » إلى آخر الآيات الثلاث . صدر الآيات وإن احتمل أن يكون المراد الشرك بالأصنام أو بسائر الأسباب غير الله ، التي الاعتماد عليها نوع من الشرك لكن ذيلها ظاهر في أن المراد هو الشرك بالأصنام المستخدمة آلة وهي بحد ذاتها لا تستطيع نصر من يعبدها ولا نصر نفسها ، ولا يشعر بشيء من الدعاء وعدمه .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا مُمْثَالَكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - يَسْمَعُونَ بِهَا » احتجاج على مضمون الآيات الثلاث السابقة ، و المعنى إنما قلنا إنهم مخلوقون

لايقدرون على شيء لأنهم عباد أمثالكم فكما أنكم مخلوقون مدبرون كذلك هم . والحجج عليه أنهم لا يستجيبون لكم إن دعوتموه فادعوه إن كنتم صادقين في دعواكم أن لهم علمًا وقدرة - وإنما نسب إليهم دعوى كونهم ذوي علم وقدرة طالا في دعوتهم من الدلالة على ذلك - وكيف يستجيبون لكم ؟ وليست ما عبّأتم لهم من الأرجل والأيدي ماشية وباطشة، ولاما صورتم لهم من الأعين والأذان مبصرة وسامعة لأنهم جمادات .

وفي الآيات إطلاق العباد على الجمادات .

قوله تعالى : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنتظرون » إلى آخر الآيات ثم أمره عليه الله أن يذكر عليهم على انتصارهم بأربابهم وآلهتهم بالتحدى والإعجاز لاستبعان سبileه من سبileهم ، ويظهر أن ربّه هو الله الذي له كل العلم والقدرة ، وأن أربابهم لا يمكنون علمًا ليهتدوا به إلى شيء ولا قدرة لينصروهم في شيء .

قال : قل لهم ادعوا شركاءكم لننصركم على ثم كيدوني فلا تنتظروني ولا تمهدوني إن ربّي ينصرني ويدفع عنّي كيدكم فإنه الذي نزل الكتاب ليهدي به الناس ، وهو يتولى الصالحين من عباده فينصرهم ، وهو القائل : إن الأرض يرثها عبادي الصالحون وأنا من الصالحين فينصرني ولا حمالة ، وأمّا أربابكم الذين تدعون من دونه فلا يستطيعون نصركم ولا نصر أنفسهم ولا يسمعون ولا يبصرون فلا قدرة لهم ولا علم .

وفي الآيات أمر النبي عليه الله أن يخبرهم أنه من الصالحين ولم يعهد فيما يخبر به القرآن من صلاح الأنبياء مثل ذلك في غيره عليه الله .

وفيها التحدي على الأصنام وعبدتهم كما تحدى بذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام .

بحث روائي

في العيون بـ سناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عليه الله في حديث : قال له المأمون : بما معنى قوله تعالى : « فلما آتاهما صاحباً جعلا له شركاء فيما آتاهما » فقال

الرضا ~~لَا يَنْهَا إِنْ~~ حوّاء ولدت لآدم خمس مائة بطن في كلّ بطن ذكرًا وأنثى ، وإنّ آدم وحوّاء عاهدا الله تعالى ودعواه وقالا : لئن آتينا صالحاً لنكون ~~نَكُون~~ من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً من النسل خلقاً سوياً بريئاً من الزمانة والعاقة كانا يأتيهما صنفان : صنفاً ذُكراناً ، وصنفاً إناثاً يجعل الصنفان لله تعالى ذكره شركاء فيما آتاهما ، ولم يشكراه كشکر أبوهما له عزّ وجلّ قال الله تعالى : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ » فقال المؤمنون أشهد أنّك ابن رسول الله حقاً .

أقول : مرجعه إلى بعض الوجوه السابقة في دفع ما أورد على الآية ، وقد وردت في تفسير الآية عدة من الروايات مرويّة عن سمرة بن جندب وأبي وزيد وابن عباس فيها أنّ آدم وحوّاء لم يكن يعيش لهما ولد فأمرهما الشيطان أو أمر حوّاء أن يسمّياء عبدالحارث حتى يعيش - وكان الحارث اسمه في السماء - وفي بعضها : عبد الشمس ، وفي بعضها : أنّه خوفها أن تلد ناقة أو بقرة أو بهيمة أخرى ، وشرط لها إن سمّته عبدالحارث ولدت إنساناً سوياً . الأحاديث . وهي موضوعة أو مدسوسه من الإسرائييليات .

وقد روی في المجمع عن تفسير العيسائي عنهم عليهم السلام : أنّه كان شركهما شرك طاعة ولم يكن شرك معصية ، وظاهره أنّه جرى على ما يجري عليه تلك الأحاديث فحالها وكيف يفرق بين الطاعة والعبادة وخاصة في مورد إبليس وقد قال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » . يس: ٦١ ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أنّ هذه الروايات لا تدلّ على أزيد من الإشراك في التسمية ، وليس ذلك بغير ولا معصية ، واختاره الطبري هذا .



* * *

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغُنَّكُمْ مِنْ
 الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعُ عَلَيْهِ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ
 طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ (٢٠١) وَإِخْرَاجُهُمْ يَمْدُو نَفْسَهُمْ فِي
 الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا
 أَتَيْتُكُمْ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّيْ هُنْذَا بَصَارُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِتَقْوِيمِ
 يَوْمِئِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا إِلَيْهِ وَأَنْصُتُو الْعَلَمَكُمْ تَرْحِمُونَ (٢٠٤)
 وَإِذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ القُولِ بِالْغَدُوِّ وَ
 الْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْمِرُونَ عَنِ
 عِبَادَتِهِ وَيُسْبِحُونَهُ وَلَهُ يُسْجِدونَ (٢٠٦)

((بيان))

الآيات ختام السورة ، وفيها رجوع إلى ذكر معنى الغرض الذي نزلت فيه السورة
 فيها أمر النبي ﷺ بالسير الحسنة الجميلة التي تميل إليها القلوب ، وتسكن إليها
 النّفوس ، وأمره بالتذكّر ثم بالذكر أخيراً .

قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » الأخذ بالشيء هو
 لزومه وعدم تركه فأخذ العفو ملازمة الستر على إساءة من أساء إليه ، والإعراض عن حق
 الانتقام الذي يعطيه العقل الاجتماعي لبعضهم على بعض . هذا بالنسبة إلى إساءة الغير
 بالنسبة إلى نفسه والتضييع لحق شخصه ، وأما ما أضيع فيه حق الغير بالإساءة إليه
 فليس مما يسوغ العفو فيه لأنّه إغراء بالاثم وتضييع لحق الغير بمحظوظ ، وإبطال

للنوايس الحافظة للجتماع ، وينبع عنه جميع الآيات الناهية عن الظلم والإفساد وإعاقة الطالمين والرّكون إلّيهم بل جميع الآيات المعطية لاًصول الشرائع والقوانين ، و هو ظاهر .

فالمراد بقوله : « خذ العفو » هو الاستر بالعفو فيما يرجع إلى شخصه عليه اللهم ، وعلى ذلك كان يسير فقد تقدّم في بعض الروايات المتقدمة في أديبه عليه اللهم^(١) : أنه لم ينتقم من أحد لنفسه فقط .

هذا على ما ذكره القوم أنَّ المراد بالعفو ما يساوق المغفرة ، وفي بعض الروايات الآتية عن الصادق عليهما السلام أنَّ المراد به الوسط وهو أقرب بالأية وأجمع للمعنى من غير شائبة التكرار الذي يلزم من قوله : « وأعرض عن الجاهلين » على التفسير الأول .

وقوله : « وأمر بالعرف » والعرف هو ما يعرفه عقلاه المجتمع من السنن والسير الجميلة الجارية بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع وينكره العقل الاجتماعي من الأعمال النادرة الشاذة ، ومن المعلوم أنَّ لازم الأمر بمتابعة العرف أن يكون نفس الأمر مؤتمراً بما يأمر به من المتابعة ، ومن ذلك أن يكون نفس أمره بنحو معروف غير منكر فمقتضى قوله : « وأمر بالعرف » أن يأمر بكلٍّ معروف ، وأن لا يكون نفس الأمر بالمعروف على وجه منكر .

وقوله : « وأعرض عن الجاهلين » أمر آخر بالمداراة معهم ، وهو أقرب طريق وأجمله لا بطال نتائج جهلهم وتقليل فساد أعمالهم فإنَّ في مقابلة الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل والإدامة على الغيّ والضلال .

قوله تعالى : « وإنما ينزعنك من الشيطان نزغٌ فاستعد بالله إِنَّه سميع عليم » قال الراغب في المفردات : النزغ دخول في أمر لا جل إفساده قال : من بعد أن تزغ الشيطان يعني وبين إخوتي . انتهى ، وقيل : هو الإزعاج والإغراء وأكثر ما يكون حال الغضب ، وقيل : هو من الشيطان أدنى الوسوسة ، والمعاني متقاربة ، وأقربها من الآية هو الأوسط طبقاً لآية السابقة الآمرة بالإعراض عن الجاهلين فإنَّ مما ستنهم الإنسان بالجهالة نوع مداخلة من الشيطان لإثارة الغضب ، وسوقه إلى جهالة مثله .

(١) في آخر الجزء السادس من الكتاب .

فيرجع معنى الآية إلى أنه لو نزع الشيطان بأعمالهم المبنية على الجهالة وإساءتهم إليك ليسو لك بذلك إلى الغضب والانتقام فاستعد بالله إنّه سميع عليم، و الآية مع ذلك عامة خطوب بها النبي ﷺ و قصد بها أُمته لعصمتها.

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصَرُونَ » نحو تعلييل للأمر في الآية السابقة والطائف من الشيطان هو الذي يطوف حول القلب ليلاً أو نهاراً أو سوسته التي تطوف حول القلب لتقع فيه وتسقّر عليه ، و « مَنْ » بيانية على الأوّل ، ونشوية على الثاني ، و مآل المعنيين مع ذلك واحد ، و التذكّر تفكّر من الإنسان في أمور تهديه إلى نتيجة مغفول عنها أو مجحولة قبله .

و الآية بمنزلة التعلييل للأمر بالاستعاذه في الآية السابقة ، و المعنى استعد بالله عند نزعة الشيطان فإنّ هذا طريق المتقين فهم إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا أنّ الله هو ربّهم الذي يملّكونه و ربّيّهم يرجع إلى أمرهم فأرجعوا إليه الأمر فكفاهم مؤنته ، و دفع عنهم كيده ، و رفع عنهم حجاب الغفلة فإذا هم مبصرون غير مضروب على أبصارهم بحججاً بالغفلة .

فالآية - كما عرفت - في معنى قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » النحل : ٩٩ .

و قد ظهر أيضاً أنّ الاستعاذه بالله نوع من التذكّر لأنّها مبنية على أنّ الله سبحانه وهو ربّه هو الرحمن الوحيد الذي يدفع هذا العدو المهاجم بماليه من قوّة ، و أيضاً الاستعاذه نوع من التوكّل كما مرّ .

قوله تعالى : « وَ إِخْوَانَهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَيْثِ ثُمَّ لَا يَقْصُرُونَ » كأنّ الجملة حالية ، و المراد بإخوانهم إخوان المشركين وهم الشياطين كما وقع قوله : « إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » الإسراء : ٢٧ و الأقصاد الكفّ و الانتهاء .

و المعنى : أنّ الذين اتّقوا على هذا الحال من التذكّر والإبصار و الحال أنّ إخوان المشركين من الشياطين يمدّون المشركين في غيّهم و يعيّنونهم ثم لا يكتفون عن مدّهم و إعانتهم ، أو لا يكتف المشركون ولا ينتهون عن غيّهم .

قوله تعالى : «إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ». الاجتباء افتعال من الجبائية ، وقولهم : «لَوْلَا اجْتَبَيْتَهُمْ» ، كلام منهم جار مجرى التهكم والسخرية و المعنى على ما يعطيه السياق : أَنْكَ إِذَا آتَيْتَهُمْ بِآيَةً كَذَّبُوا بِهَا وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةً كَمَا لَوْ أَبْطَأْتَ فِيهَا قَالُوا : لَوْلَا اجْتَبَيْتَهُمْ هَذِهِ آيَةٌ وَجَعَلْتَهُمْ مِنْ هَنَا وَهَنَاكَ فَأَقْتَلْتَهُمْ بِهَا» «قُلْ لَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» و «إِنَّمَا أَتَبْعَثُ مَا يُوحَى إِلَيَّ» من ربى هذا » القرآن «بصائرِ رَبِّكُمْ» ي يريد أن يبصركم بها «وهدى ورحمة لقوم يؤمّنون» .

قوله تعالى : «وَإِذَا قَرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا الْعَلَّامَ تَرْجُونَ» الإنصات السكوت مع الاستماع ، وقيل : هو الاستماع مع سكوت يقال : أنصت الحديث وأنصت له أي استمع ساكتاً ، وأنصته غيره وأنصت الرجل أي سكت ؟ فالمعنى : استمعوا للقرآن واستكروا .

والآية بحسب دلالتها عامة وإن قيل : إنها نزلت في الصلاة جماعة .

قوله تعالى : «وَإِذْ كَرِبَكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» إلى آخر الآية . قسم الذكر إلى ما في النفس ودون الجهر من القول : ثم أمر بالقسمين ، وأمّا الجهر من القول في الذكر فمضرب عنه لا لأنّه ذكر بل متنافاته لأدب العبودية ، ويدلّ على ذلك ما ورد أنّ النبى ﷺ سار بأصحابه في بعض غزواته فدخلوا وادياً موحشًا و الليل داج فكان ينادي بعض أصحابه بالتكبير فنهاه النبى ﷺ وقال : إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ غَائِبًا بَعِيدًا» (١) .

والتضرّع من الضراعة وهو التملّق بنوع من الخشوع والخضوع ، والخيفه بناء نوع من الخوف ، واطراد به نوع من الخوف يناسب ساحة قدسه تعالى ففي التضرّع معنى اميل إلى المتضرّع إليه والرغبة فيه والتقرّب منه ، وفي الخيفه معنى اتساقه والرهبة والتبعّد عنه ، فمقتضى توصيف الذكر بكونه عن تضرّع وخيفه أن يكون بحركة باطنية إليه ومنه كالّذي يحبّ شيئاً وبها به فيدّو منه لحبّه ويتبعد عنه طهابته ، والله سبحانه وإن كان محض الخير لأشرّ فيه ، وإنّما الشرّ الذي يمسّنا هو من قبلنا لكنه تعالى ذو الجلال والإكرام له أسماء الجمال التي تدعو إليه وتجذب نحوه كلّ شيء

(١) الرواية منقوله بالمعنى .

وله أسماء الجلال التي تقدر وتدفع عنه كل شيء فحق ذكره و هو الله له الأسماء الحسنى كلها وأن يكون على ما يقتضيه مجموع أسمائه الجمالية والجلالية ، وهو أن يذكر تعالى تضرعاً وخيفة ، وربماً ورها .

وقوله : « بالغدو و الآصال » ظاهره أنه قيد لقوله : « و دون الجهر من القول » فيكون الذكر القولي هو الموزع إلى الغدو و الآصال ، وينطبق على بعض الفرائض اليومية .

وقوله : « ولا تكون من الغافلين » تأكيد للأمر بالذكر في أول الآية ولم ينـه تعالى عن أصل الغفلة ، وإنما نهى عن الدخول في زمرة الغافلين ، وهم الموصوفون بالغفلة الذين استقرت فيهم هذه الصفة .

ويتبين بذلك أن الذكر المطلوب المأمور به هو أن يكون الإنسان على ذكر من ربـه حيناً بعد حين ، و يبادر إليه لو عرضت له غفلة منسية ، ولا يدع الغفلة تستقر في نفسه ، وفي الآية : التالية دالة على ذلك على ما سيجيـ.

فمحصل الآية : الأمر بالاستمرار على ذكر الله في النفس تضرعاً وخيفة حيناً بعد حين ، وذكره بالقول دون الجهر بالغدو و الآصال .

قوله تعالى : « إن الذين عند ربـك لا يستكبرون عن عبادته و يسبـونه و له يسجدون » ظاهر السياق أنه في موضع التعليل للأمر الواقع في الآية السابقة فيكون المعنى : اذـر ربـك كذا و كذا فإنـ الذين عند ربـك كذلك أي اذـر ربـك كذا لتكون من الذين عند ربـك ولا تخرج من ذمـتهم .

ويتبين بذلك أنـ المراد ، بقوله : « الذين عند ربـك » ليسـ هـم الملائكة فقط على ما فسرـه كثيرـ من المفسـرين - إذـلا معنى لقولـنا : اذـر ربـك كذلك كذا لأنـ الملائكة يـذـرونـه كذلك بل مطلق المـفـرـينـ عندـه تعالى على ما يـفيـدـه لـفـظـه : « عندـ ربـك » منـ الحضـورـ منـ غيرـ غـيـبةـ .

ويـظـهـرـ منـ الآـيـةـ أنـ الـقـرـبـ منـ اللهـ إـنـماـ هوـ ذـكـرـهـ ، فـبـهـ يـرـتفـعـ الـحـجـابـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ

عبده ، وإنما فجتمع الأشياء متساوية في النسبة إليه من غير اختلاف بينها بقرب أو بعد أو غير ذلك .

وقوله : «لا يستكرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون» فيه أمور ثلاثة يتصرف بها الذكر النفسي كما يتصرف بها الذكر القولي فإن للنفس أن تتصرف بحال عدم الاستكبار ، وبحال تنزيهه تعالى ، وبحال السجدة وكمال الخشوع له كما يتصرف بها الذكر القولي ويسعنون بها العمل الخارجي ، فليس التسبيح والسجود مما يختص بالأعضاء من لسان وغيره كما يدل عليه قوله : «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» أسرى : ٤٤ ، وقوله : «والنجم والشجر يسجدان» الرحمن : ٦ ، وقوله : «ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض» النحل : ٤٩ .

وما في الآية من توصيف القوم بعدم الاستكبار والتسبيح والسجود أخف وأهون مما يشتمل عليه قوله تعالى : «ومن عنده لا يستكرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبّحون الليل والنهار لا يفترون» الأنبياء : ٢٠ وقوله : «فإن استكروا فالذين عند ربكم يسبّحون له بالليل والنهار وهم لا يأسرون» حم السجدة : ٣٨ هذه الآيات ظاهرها الاستمرار الذي لا يخلله عدم ، ولا يتوقفه مناف ، والآية التي نبحث عنها لم يأمر إلا بما اثبت معه الغفلة في النفس كما عرفت .

فهذه الآية تأمر بمرتبة من الذكر هي دون ما تتضمنه آيات سورتي الأنبياء وحم السجدة والله العالم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العياشي عن الحسن بن علي بن التعمان عن أبيه عمّن سمع أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول : إن الله أدب رسوله فقال : يامدد خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال : خذ منهم ما ظهر وما تيسر ، والعفو الوسط .

وفي الدر المنشور أخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله عليه السلام : إن مكارم

الأخلاق عند الله أن تعفو عن ظلمك و تصل من قطعك ، و تعطي من حرمك . ثم تلا النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : « خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين . أقول : و في هذا المعنى روايات كثيرة مرويّة عن النبي ﷺ عَنْهُمَا مِنْ طرق أهل السنة .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال : لما أنزل الله « خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين » قال رسول الله ﷺ : أُمرت أن آخذ العفو من أخلاق الناس .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزلت : « خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين » قال رسول الله ﷺ : كيف يارب والغضب ؟ فنزل : « وَإِمَّا ينْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَرَغَّبْ إِلَيْكَ آيَةً .

أقول : وفي الرواية شيء ، وبإمكان أن يوجد بمقدمة منه في الآية .
وفي تفسير القمي في الآية قال : إن عرض في قلبك منه شيء ووسوسة فاستبعد بالله إله سميع عليم .

وفي الدر المنشور أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ : « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ » بالألف .

وفي الكافي بسانده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قال : سأله عن قول الله عز وجل : « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ » قال : هو العبد بهم بالذنب ثم يتذكّر فيمسك » فذلك قوله : « تذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ » .

أقول : ورواه العياشي عن أبي بصير ، وعلى بن أبي حزرة ، وزيد بن أبي أسماء عنه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، ولفظ الأولين : هو الرجل بهم بالذنب ثم يتذكّر فيدعه ؛ ولفظ الأخير : هو الذنب به العبد فيذكّر فيدعه ، وفي معناه روايات أخرى .

وفي الدر المنشور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : صلّى النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم فقره خلفه قوم فنزلت : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَلَا سَمِعُوا لَهُ وَأَنْصَتُوا » .

أقول : وفي ذلك عدّة روايات من طرق أهل السنة وفي بعضها : أنّهم كانوا يتكلّمون خلفه وهم في الصلاة فنزلت ، وفي بعضها : أنّه كان فتى من الأنصار ، وفي بعضها رجل .

وفي المجمع بعد ذكر القول إنَّ الآية نزلت في الصلاة بجاءة خلف الامام قال : وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام .

وفيه وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال : يجب الإنصات للقرآن في الصلاة وغيرها .

أقول : ورواه العياشي عن زرارة عنه عليه السلام ، وفي آخره : وإذا قرئ القرآن في عليك الإنصات والاستماع .

وفيه عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : الرجل يقرء القرآن وأنا في الصلاة هل يجب علي الإنصات والاستماع ؟ قال : نعم إذا قرئ القرآن يجب عليك الإنصات والاستماع .

وفي تفسير العياشي عن أبي كهمش عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قرء ابن الكواء خلف أمير المؤمنين عليه السلام : «لَئِنْ أَشَرْ كَتْ لِي جُبْطَنْ عَمَلَكْ وَلَتَكُونُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» فأنصت أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : والروايات في غير صورة قراءة الإمام محمولة على الاستحباب وتمام البحث في الفقه .

وفي الدر المنشور أخرج الحكيم الترمذمي عن عمر بن الخطاب قال : أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أعرف الحزن في وجهه فأخذ بلمحيتي فقال : إِنَّ اللَّهَ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أتاني جبريل آنفأقال : إِنَّ اللَّهَ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ قلت : أجل فَإِنَّ اللَّهَ وَإِنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فمم ذاك يا جبريل ؟ فقال : إِنَّ أَمْتَكْ مَفْتَنَةً بَعْدَكَ بَقِيلٌ مِنَ الدَّهْرِ غَيْرَ كَثِيرٍ . قلت : فتنتك كفر أو فتنه ضلاله ؟ قال : كُلَّ ذَلِكَ سِكْوَنٌ . قلت : ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله ؟ قال : بكتاب الله يضلّون ، وأوْلَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ قَرَائِهِمْ وَأُمَّرَائِهِمْ يَمْنَعُ الْأُمْرَاءَ النَّاسَ حَقْوَهُمْ

فلا يعطونها فيقتلون ، وتبني القراء أهواه النساء فيما دونهم في الغي ثم لا يقرون .
قلت : ياجبرئيل فبم يسلم من سلم منهم فقال : بالكفر و الصبر إن أعطوا الذي لهم أخذوه
وإن منعوه تر كوه .

وفي تفسير القمي في معنى قوله : إن الذين عند ربكم الآية يعني الأنبياء والرسل
والآئمة .

تم والحمد لله .

فهرس بعض مافي هذا الجزء من الأبحاث

رقم الآية	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
٢٥-١٠	كلام في إبليس و عمله .	قرآنی	٣٤
»	في اعترافات إبليس على الملائكة .	عقلی و قرآنی	٤٣
٣٦-٢١	بحث في السعادة والشقاوة .	روائي مختلط	٩٥
٥٣-٣٧	كلام في معنى الأعراف في القرآن .	قرآنی	١٣٤
٥٨-٥٤	في معنى العرش .	»	١٥٧
١٥٤-١٣٨	بحث في معنى رؤية القلب .	روائي	٢٧٤
١٨٦-١٨٠	كلام في الأسماء الحسنی في فصول :	قرآنی و عقلی	٣٦٥
»	١ - ما معنى الأسماء الحسنی ؟		٣٦٧
»	٢ - ما هو حدد مانصفه أو نسمية به من الأسماء ؟		٦٦٨
»	٣ - الانقسامات التي لها .		٣٦٩
»	٤ - نسبة الأسماء والصفات إليها ونسبها فيما بينها .		٣٧١
»	٥ - ما معنى الاسم الأعظم ؟		٣٧٣
»	٦ - عدد الأسماء الحسنی .		٣٧٥
»	٧ - هل أسماء الله توقيفية ؟		

بعض الأُغْلَاطُ الواقعة في هذا الجزء

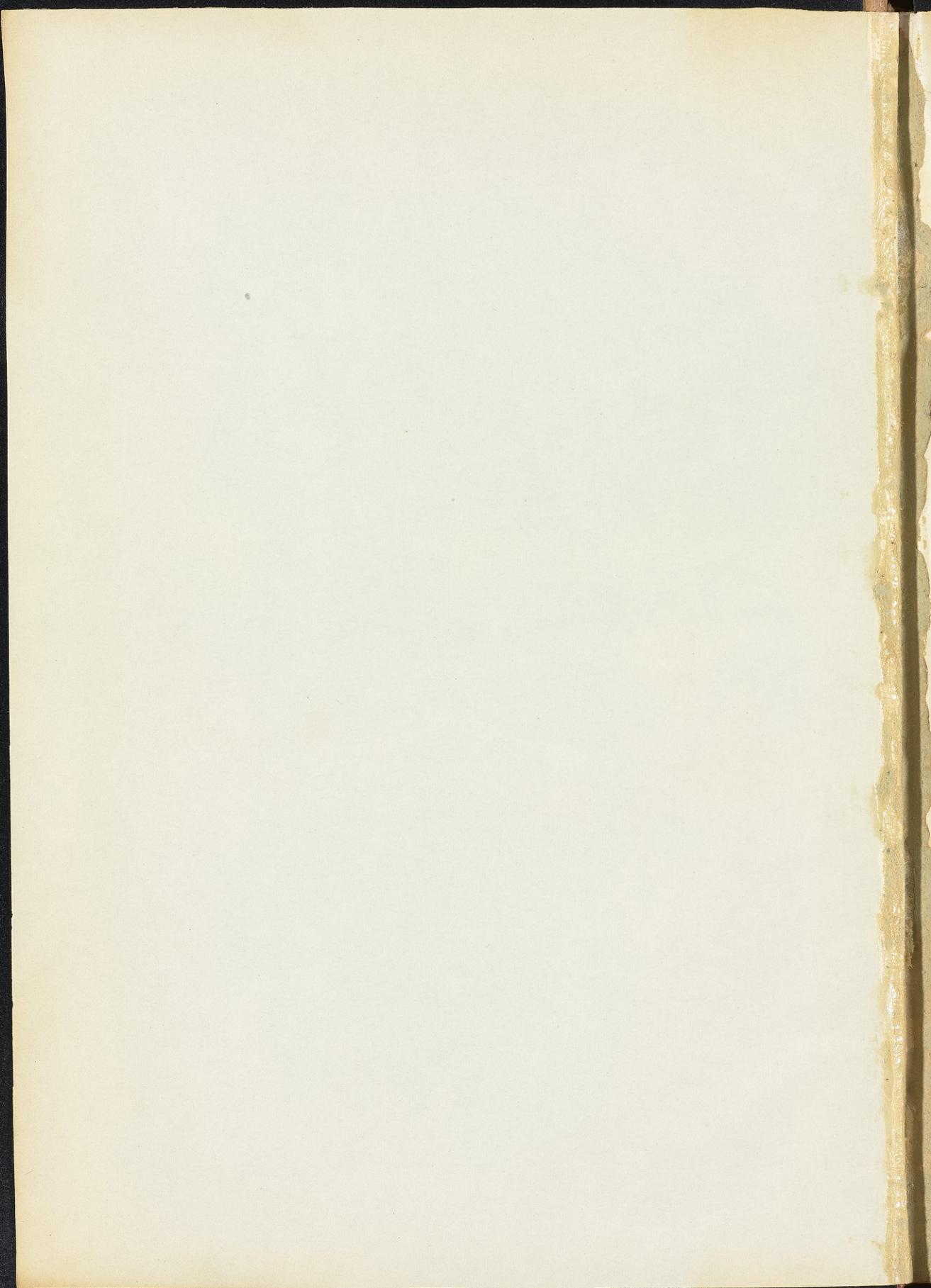
الصيغة	السطر	الخطاء	الصواب	الصيغة	السطر	الخطاء	الصواب
أُوتوا	١٢	١٢٢	أُتوا	ستورد	١٦	١٢	سنورد
تعالى به	٢٣	١٢٤	تعالى	خلوا	١٠	٢١	خلوا
كلاً	١٣	١٢٨	كلاً	المتعددة	١١	٣٠	التعديدة
تركمهم	١٦	١٣٦	نزلهم	جهلة	٢٢	٤٣	نزلهم
تركوا	١٧	١٣٦	نزلوا	وقد	٣	٤٣	نزلوا
الباعثة	١٣	١٣٧	الناعنة	المجالس	١٧	٦٣	مجالس
إذ جمعهم	١١	١٣٨	جمعهم	- ولا يهتدون، ولا يهتدون -	١٧	٧١	- ولا يهتدون، ولا يهتدون -
عباس	٢١	١٤٢	عباس	- فلم يتعرّض لمرده			- فلم يتعرّض لمرده
ومن طرق	٤	١٤٤	من طرق	هنا بالخر وجه عن			هنا بالخر وجه عن
توحيد	١٥	١٥٠	تو يد	غرض الكلام			غرض الكلام
يفيضه	٢٤	١٥٤	يفضيه	وكان	٢	٧٢	وكان
العطف	١٥	١٥٦	الامر	هي	٤	٨٠	هي
فهمه	١٦	١٥٩	يفهمه	- ويستدعيه -	٧	٨٠	- ويستدعيه -
باستعمالهما	٩	١٦٤	باستعمالها	- تناولها			- تناولها
العرض	١٩	١٧٠	العرض	الطيب	٨	٨٠	الطيب
تغير	١٦	١٧١	غير	معناها	٢٤	٩١	معناها
يوجد من	١٦	١٧٥	يوجد	الأزواج	٨	٩٤	الأزواج
نعم	١٧	١٨٨	نعم	أنّ سبحانه	٨	١٠٥	أنّ الله سبحانه
«يبغونها»	٥	١٩٦	«يبغونها»	الطيب	١٠	١٠٥	الطيب
العرفات	١٣	١٩٩	العزمات	فعمل	١٤	١١١	فعمل
الوثنية لا	١٨	١٩٩	التوحيد لا	- تدعون أنتم تدعون أنتم	٧	١١٣	- تدعون أنتم تدعون أنتم
الكافية	٩	٢٠٤	الكافية	٢١ بما يختص	٢١	١٢٠	اعترفوا بما يختص

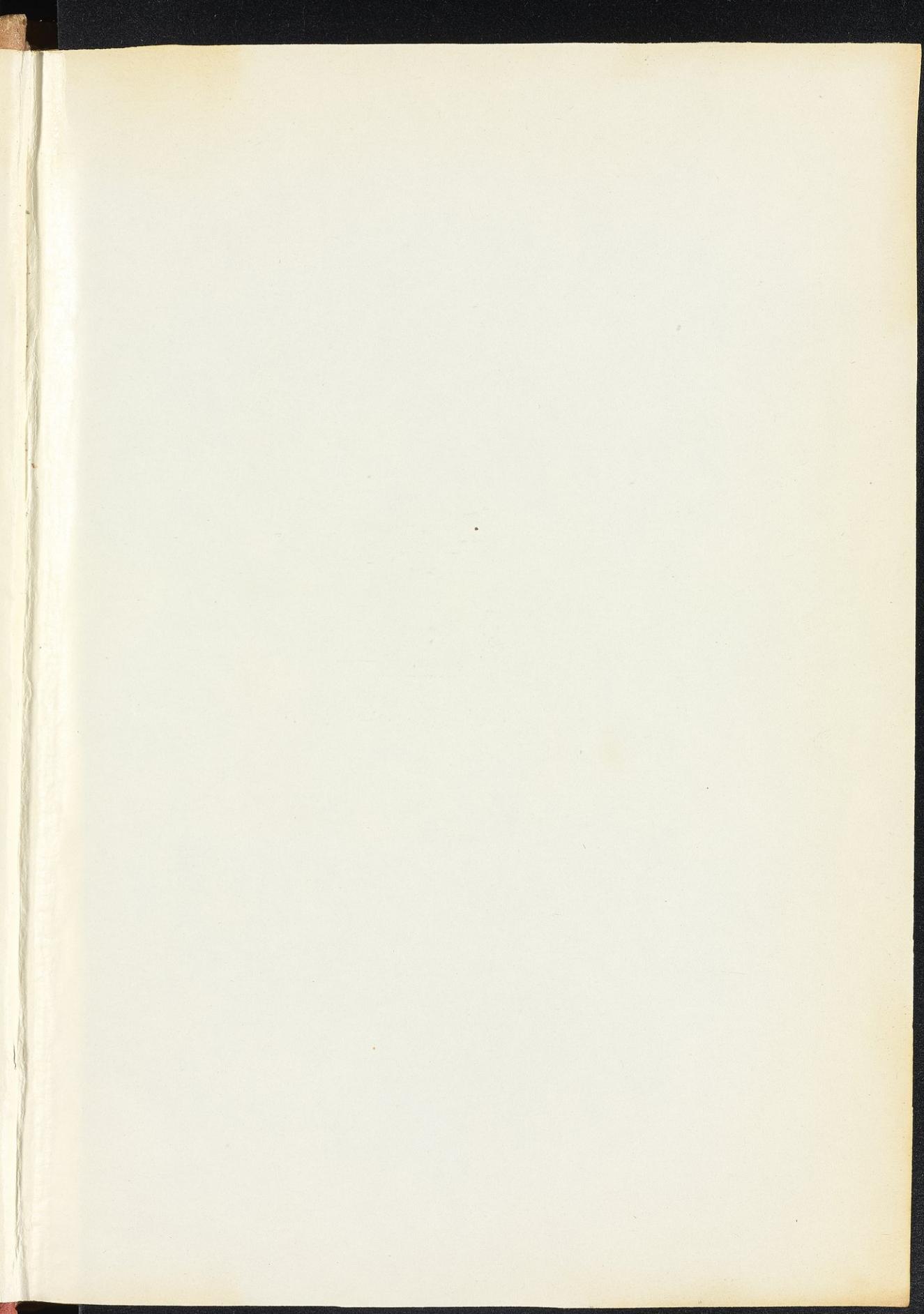
بعض الأُغلاط الواقعة في هذا الجزء

الصواب	الخطاء	السطر	الصفحة
وأما قوله	فيؤخذون	٢٨٨	٢١٢
يُكفر	وجودها	٢٨٨	٢١٦
باسم	بالقوم	٣١٦	٢٢١
باليُلزام	لم يستحل	٣٢٨	٢٢٢
صدق	المستقرقة	٣٣٣	٢٢٣
بعصاه	الفية الغيبة	٣٣٧	٢٢٥
المبيح	فيستجيب	٣٥٣	٢٢٨
بصفته	مادلة لها	٣٥٩	٢٤٦
وقوله وقدل عليه قوله	كل ما في كل ما	٣٥٩	٢٥٤
منها	والعلم والقدرة و القدرة	٣٦٨	٢٥٥
وقيل	وجعلنا	٣٧٠	٢٦٥
فتراني	نفس غيره ظ	٣٨٣	٢٦٨
لقوله	ليس ذكر	٣٩٩	٢٨٧

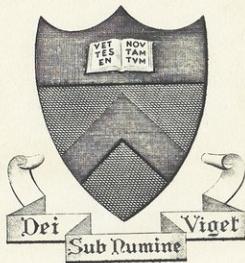
(١)

187		188		189		190		191		192	
187	31	188	30	189	32	190	31	191	30	192	31
187	30	188	29	189	31	190	30	191	29	192	30
187	29	188	28	189	30	190	29	191	28	192	29
187	28	188	27	189	29	190	28	191	27	192	28
187	27	188	26	189	28	190	27	191	26	192	27
187	26	188	25	189	27	190	26	191	25	192	26
187	25	188	24	189	26	190	25	191	24	192	25
187	24	188	23	189	25	190	24	191	23	192	24
187	23	188	22	189	24	190	23	191	22	192	23
187	22	188	21	189	23	190	22	191	21	192	22
187	21	188	20	189	22	190	21	191	20	192	21
187	20	188	19	189	21	190	20	191	19	192	20
187	19	188	18	189	20	190	19	191	18	192	19
187	18	188	17	189	19	190	18	191	17	192	18
187	17	188	16	189	18	190	17	191	16	192	17
187	16	188	15	189	17	190	16	191	15	192	16
187	15	188	14	189	16	190	15	191	14	192	15
187	14	188	13	189	15	190	14	191	13	192	14
187	13	188	12	189	14	190	13	191	12	192	13
187	12	188	11	189	13	190	12	191	11	192	12
187	11	188	10	189	12	190	11	191	10	192	11
187	10	188	9	189	11	190	10	191	9	192	10
187	9	188	8	189	10	190	9	191	8	192	9
187	8	188	7	189	9	190	8	191	7	192	8
187	7	188	6	189	8	190	7	191	6	192	7
187	6	188	5	189	7	190	6	191	5	192	6
187	5	188	4	189	6	190	5	191	4	192	5
187	4	188	3	189	5	190	4	191	3	192	4
187	3	188	2	189	4	190	3	191	2	192	3
187	2	188	1	189	3	190	2	191	1	192	2
187	1	188	0	189	2	190	1	191	0	192	1





Library of



Princeton University.

